

مرکز ایل جامعہ (۲۱)

الهندوسیتہ و تائید بعض الفرق الاسلامیہا

تالیف
ابن بکر محمد زکریا

الجزء الأول

بازار الادب والافتاء

الهندوسية
وتأثير بعض الفرق الإسلامية بها
المجلد الأول

ح) دار الأوراق الثقافية، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

زكريا، ابو بكر محمد

الهندوسية وتأثير بعض الفرق الاسلامية. /

ابو بكر محمد زكريا. - جدة، ١٤٣٧هـ

١٧٦٥ ص ١٧ × ٢٤ سم

ردمك ١-٦-٩٠٧٥٥-٦٠٣-٩٧٨

١- الهندوسية ٢- الفرق الاسلامية أ. العنوان

ديوي ٥، ٢٩٤ ١٤٣٧/١٨٨١

رقم الإيداع : ١٤٣٧/١٨٨١

ردمك : ١-٦-٩٠٧٥٥-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

دار الأوراق الثقافية

المملكة العربية السعودية

Box: 15533 Jeddah: 21454

Telfax: +966 2 680 300 2

Management: +966 5 053 1876 7

Jeddah: +966 53 725 493 9

Medina: +966 55 076 207 8

ص ب : ١٥٥٣٣ جدة ٢١٤٥٤

تليفاكس: +٩٦٦ ٢ ٦٨٠٣٠٠٢

الإدارة: +٩٦٦ ٥٠٥٣١٨٧٦٧

جدة : +٥٣٧٢٥٤٩٣٩

المدينة المنورة : +٥٥٠٧٦٢٠٧٨

E:mail:admin@alawraq.net

www.alawraq.net



daralawraq

الهندوسية

وتأثير بعض الفرق الإسلامية فيها

تأليف

أبو بكر محمد نكريا

المجلد الأول

١٤٣٧ هـ

دار الأوقاف والثقافة



أصل هذا الكتاب رسالة دكتوراه
من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

بإشراف الأستاذ الدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف
ومناقشة الأستاذ الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي
والأستاذ الدكتور محمود بن عبد الرحمن قدح.
وحصل المؤلف على تقدير ممتاز.

مقدمة

وتشتمل على:

- ١- أهمية الموضوع وأسباب اختياره
- ٢- خطة البحث
- ٣- منهجي في البحث
- ٤- المشاكل التي واجهتني أثناء البحث
- ٥- الدراسات السابقة في هذا الباب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(٣) ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٤). أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار^(٥).

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٠٢).

(٢) سورة النساء، الآية: (١).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: (٧٠-٧١).

(٤) هذه الخطبة تسمى خطبة الحاجة، وهي تشرع بين يدي كل حاجة، وهي مأثور عن رسول الله ﷺ. أخرج جزء منها الإمام مسلم (٢/٥٩٣)، برقم (٨٦٧)، وأبو داود (١/٦٥٩)، برقم (٢١١٨)، والنسائي (٣/١٠٤-١٠٥)، وابن ماجه (١/٦٠٩)، برقم (١٨٩٢)، والإمام أحمد في المسند (١٩٢-٣٩٣)، وغيرهم، وقد صححه الشيخ الألباني في تخريج المشكاة برقم (٣١٤٩)، وانظر تخريجها للشيخ الألباني في مؤلف بعنوان «خطبة الحاجة التي كان الرسول ﷺ يعلمها أصحابه».

وبعد: فإن التدين نزعة أصيلة مشتركة بين الأمم والشعوب، وفكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم قديماً وحديثاً، بغض النظر عن ما تحمله هذه الفكرة من حق أو باطل، وهذا مما أجمع عليه مؤرخو الأديان، وأشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾^(١) وقال تعالى: ﴿...وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^(٣). فالإنسان متدين بطبعه، وأن التدين في الإنسان أمر فطري^(٤)، وإن اختلفوا في باعث التدين على أقوال عديدة، والصحيح أن باعث التدين هي الفطرة وليس هناك دليل صحيح للأقوال الأخرى^(٥).

ومن هنا، فإن دراسة الأديان من الموضوعات المهمة التي شغلت حيزاً واسعاً من اهتمام الإنسانية كلها، إذ أن الدين فطرة إنسانية، وضرورة اجتماعية، تضمن استقرار المجتمع وتماسكه، ويحل الدين في المجتمع محل القلب من الجسد.

إلا أن الديانات مختلفة، والتدين بالدين الحق هو الذي يحقق للإنسان سعادة الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالصَّرِيَّ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وقال ﷺ: فيما يرويه عن ربه ﷻ قال: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»^(٦).

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) فاطر: ٢٤.

(٣) الروم: ٣٠.

(٤) انظر ما نقله عبد الله دراز من أقوال في ذلك: الدين ص (٧٥-٧٦)، وراجع كتاب شيخي:

سعود بن عبد العزيز الخلف: دراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية ص (٢٤-٣١).

(٥) راجع كتاب شيخي: سعود بن عبد العزيز الخلف: دراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية ص (٢٤-٣١).

(٦) رواه مسلم في الصحيح كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/ ٢١٩٧)، برقم (٢٨٦٥).

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: «الأديان ستة، واحد للرحمن وخمسة للشيطان»^(١).

فهذه الأديان الستة مذكورة في آية الفصل المذكورة آنفاً كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ومثله عن قتادة رحمته الله^(٢): «واحدٌ منها للرحمن وهو الإسلام، وأما بقية الأديان فكما جاء في القرآن الكريم من اليهودية والنصرانية والصابئة والمجوس، فهذه الأديان كلها من الشيطان، ومع ذلك حكى الله في كتابه عقائد هذه الأديان وفندها وأبطلها، فمن جملة ما ذكر الله تعالى في القرآن الكريم»^(٣):

- ❖ مجادلة الأنبياء لأقوامهم وإقامتهم الحجة عليهم من أوجه عدة.
 - ❖ أقوال أصحاب الديانات مع تفنيدها والرد عليها.
 - ❖ أصول بعض المقالات المنحرفة لدى أصحاب الأديان.
 - ❖ ذكر الله الوثنيين المشركين. فقد ذكر عباداتهم وألتهم وحججهم مجملة ومفصلة.
 - ❖ عقد عدة مقارنات بين الحق والباطل ليفسح المجال أمام العقل للمقارنة والموازنة من ذلك.
 - ❖ أمر الله تعالى بمجادلة أصحاب هذه الأديان لإزالة شبهتهم وإقامة الحجة عليهم وذلك بالحسنى.
- فهذه الأمور كلها توضح أهمية دراسة الأديان الأخرى في مجال الدعوة إلى الله تعالى، فإن دراسة الأديان تمكن الباحث من تمييز الدين الحق. الذي مصدره الوحي، والذي يتوافق مع الفطرة ويتلاءم مع العقل. من الدين الباطل الذي لا يتفق مع هذا كله.

(١) هذا النص ذكره الطبري بنصه دون أن ينسبه لأحد (٢٧/١٧)، وذكره النيسابوري عن مقاتل رحمه الله بنص «الأديان ستة واحد لله تعالى وهو الإسلام، وخمسة للشيطان» تفسير رغائب الفرقان، مطبوع بهامش الطبري (٧٤/١٧). وقد نقله الإمام ابن القيم في هداية الحيارى ص (١٢)، وانظر أيضًا مدارج السالكين (٤٧٦/٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر ما نقله صديق حسن خان: تفسير فتح البيان (٢١٢/٦).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور سعود الخلف: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية ص (١٥-١٦).

وقد تنبه لذلك علماء المسلمين قديماً وحديثاً، فكتبوا في الأديان قاصدين بذلك الدعوة إلى الله من خلال ذلك.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

أهمية دراسة الديانة الهندوسية:

إن أهمية أي دراسة تكمن في الأغراض والغايات التي تهدف الوصول إليها من خلالها؛ وعلى هذا فإن بإمكاننا أن نقول: أننا من خلال دراسة هذه الديانة نجني بإذن الله ثماراً دعوية عظيمة؛ وفي ما يلي بيان مقتضب لأهم هذه الثمار والنتائج المرجوة:

١ - الإسهام في دعوة الهندوس إلى الإسلام:

هذه الدراسة تساعد في نشر الدعوة إلى الله، والدفاع عن دين الله ﷻ، وإظهار الحق وإبطال الباطل. فالإسلام دين دعوة، ودعوة الإسلام دعوة عالمية لا تنحصر ببلد دون بلد، ولا تقتصر على قطر دون قطر، ولا شعب دون شعب، ورسوله قد بعث للناس كافة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨]، وقال: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقد أمرنا الله ﷻ أن ندعو الناس إلى دينه بالحكمة فقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولا يخفى أن دعوة أصحاب الأديان إلى الله بالحكمة تحتاج إلى المعرفة بالأديان التي يعتنقونها، والاطلاع عليها، والوقوف على عيوبها، ومتناقضاتها، ومواضع ضعفها، ليتمكن دعاة الإسلام من مجادلتهم بالحجة، وإرشادهم إلى الحق، وصددهم عن الباطل.

٢ - كون أصحاب هذه الديانة تمثل أمة كبيرة من العالم:

إن الديانة الهندوسية من أكبر الديانات في العالم، يأتي ترتيبها الثالث من حيث عدد معتنقيها من سكان العالم^(١) وفيما يلي عشرة من الدول التي تسكن فيها غالبية

(١) حيث إن النصرانية هي الأولى من حيث عدد معتنقيها، والمسلمون هم في الترتيب الثاني =

الهندوس، وبيان نسبتها المئوية وأعدادها، وهي^(١):

الدولة	النسبة المئوية	عدد الممتين إلى الديانة الهندوسية
الهند	٪٧٩	٧٥١,٠٠٠,٠٠٠
النيبال	٪٨٩	١٧,٣٨٠,٠٠٠
بنغلاديش	٪١١	١٢,٦٣٠,٠٠٠
إندونيسيا	٪٢,٥	٤,٠٠٠,٠٠٠
سريلانكا	٪١٥	٢,٨٠٠,٠٠٠
باكستان	٪١,٥	٢,١٢٠,٠٠٠
ماليزيا	٪٦	١,٤٠٠,٠٠٠
أمريكا	٪٠,٢	٩١٠,٠٠٠
موريشوس	٪٥٢	٥٧٠,٠٠٠
أفريقيا الجنوبية	٪١,٥	٤٢٠,٠٠٠
المملكة المتحدة	٪١	٤١٠,٠٠٠

هذا، وقد بلغ عدد معتقيها تقريبًا ثمانمائة مليون نسمة، ولكن الأسف أنهم مع كونهم يبلغون هذا العدد الكبير والجم الغفير لم توجه إليهم الدعوة والعناية الكافية، وبالمقابل نرى الغربيين قاموا بدراسة هذه الديانة دراسة مستفيضة واهتموا بها اهتمامًا شديدًا، تمهيدًا لنشر النصرانية في تلك البلاد، وقد نجحوا نجاحًا كبيرًا في تنصيرهم، وذلك من وجهين:

= من حيث عدد معتقيها؛ حيث زادوا على ٢, ١ بليون نسمة. انظر ما جاء في الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف الدكتور مانع حماد الجهني ص (٣٨ / ١). وعلى هذا يأتي عدد الهندوس في المرتبة الثالثة.

(1) Source: Ash, Russell. The Top 10 of Everything, DK Publishing, Inc.: New York (1997), pg. 160161-; Adherents.com. This list of countries is taken directly from the Ash book, except for Indonesia, whose large population of Balinese Hindus were inadvertently left off of Ash's list.

الأول: أن الاستعمار كان متودداً إلى الهندوس، وكان دائماً يحرضهم على المسلمين، وفي نهاية الأمر ترك زمام الحكم بأيدي الهندوس.

الثاني: أنهم يمدونهم بالمال ويكفلون لهم ما يسد حاجاتهم بعد دخولهم النصرانية، ولا يجدون هذا الشيء عند المسلمين بعد إسلامهم، فيخافون من الوقوع في ضيق العيش وعدم المساندة من قبل إخوانهم المسلمين في مصائبهم ورزاياهم.

أما نحن المسلمين فما زلنا بحاجة إلى التعرف إلى هذه الديانة، وما زلنا في حاجة إلى أبحاث تبين حقيقتها؛ لأن المكتبة الإسلامية بصفة عامة، والعربية بصفة خاصة، لم تحظ بمعرفة كافية لهذه الديانة. فالأبحاث في هذا المجال تستند غالباً على ما يقدمه المستشرقون من معلومات ودراسات لا يُدرى صحتها من خطئها، فدراسة هذه الديانة ليست أقل أهمية من دراسة غيرها من الديانات.

٣- خطر انتشار الديانة الهندوسية في بعض البلدان:

إن هذه الديانة إحدى الديانات التي تركز على الجانب الروحي من الإنسان، ومن هنا نراها الآن بدأت تنتشر في بلاد أوروبا، وأمريكا الجنوبية، والشمالية، واعتنقها كثير من هؤلاء الناس كردود أفعال لحياتهم المادية، فدراساتها دراسة جادة تبرز لهؤلاء المغرورين حقيقة هذه الديانة، فيكون بوسع الإنسان اتخاذ الموقف المناسب منها.

وهذا أمر يجب أن يتنبه له المسلمون عامة، والدعاة إلى دين الله خاصة. يجب عليهم الاهتمام ببيان محاسن الإسلام وترغيبهم فيه، وبيان كون هذا الدين هو الدين الصحيح الذي لا ينبغي العدول عنه، كما يحب عليهم بيان زيف دين هؤلاء الهندوس ومجادلتهم بالتي هي أحسن. وهذا الكتاب تساعد المسلمين في وضع الحد من انتشار هذه الديانة الباطلة وصرف وجوه هؤلاء الغريبيين إلى الإسلام الذي هو الدين الصحيح الفطري الداعي إلى التخلص من التعلق بالحياة الدنيا الفانية والإخراج من المادية إلى السعادة الأبدية.

٤- إخراج الناس من ظلم العباد إلى رحمة رب العباد:

إن هذه الدراسة سوف تظهر للدارسين والباحثين حقيقة الظلم التي تعاني منها أمة من الأمم الحاضرة، فالهندوسية دين الطبقيّة، طبقة تنصب نفسها في صف الآلهة، وتجبر الآخرين لعبادتها وذلك أن طبقة البراهمة لها نفوذها السياسي والاجتماعي والديني في المجتمعات الهندوسية مع كونها أقلية لا يزيدون عن ٥٪ من الهندوس^(١)، وهم يعتبرون الطبقات الأخرى خدّامًا لهم، فهذه المجموعة الكبيرة من بني آدم عُوملت معاملة البهائم أو أدنى من ذلك لنفوذهم القوي عليهم، وهم لا يمكنون الطبقات الدنيا من الاقتراب إلى الإسلام فهؤلاء الهندوس المضطهدون هم بحاجة إلى من يقوم بحملة جيدة في هذا العصر يخبرهم عن زيف دينهم، ومعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وتقديم الإسلام لهم ليخرجهم من ظلمات الشرك والكفر والوثنية والظلم والجور إلى نور التوحيد والإسلام والعدل والمساواة، وهذه الدراسة خدمت هذا الجانب بجلاء إن شاء الله.

٥- معرفة كيد أعداء المسلمين تجاه دينهم وعقيدتهم:

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢] ، فهؤلاء اليهود عداوتهم الآن ظاهرة، فما من بلية في العالم إلا ولليهود يد فيها، والهندوس لا تجدهم أقل من اليهود في النيل من المسلمين، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰنْسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨]، وقال: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠]. ولو نظرنا إلى العالم وجدنا أن الهندوس هم الواجهة الرئيسة للشرك، وهم المشركون بكل معنى الكلمة، وهؤلاء الهندوس يمكرون ليلَ نهَارَ ضد المسلمين مثل اليهود أو أشد، كما يدل على ذلك أيضًا التحالف المشبوه بين اليهود والهندوس في صدّ الدعوة إلى دين الله في الهند، وصدّ المجاهدين في الديار الهندية بأكملها. وهذه الدراسة تجعل

(١) انظر ما ذكره الدكتور رادها كومول ستروباداي: جاغو هندو جاغو (استيقظ يا هندوسي استيقظ) ص (٢٩).

المسلم ملماً بكيد أعداء الإسلام من المشركين الهندوس ومن على شاكلتهم، وذلك بمعرفة حقيقة أقوالهم ومقاصدهم.

٦ - الابتعاد عن عقائد وتقاليد وعادات الهندوس:

إن الديانة الهندوسية من أقدم الديانات في العالم، وقد مرّت بمراحل وتجارب، وجاورت الأديان الأخرى الكثيرة، فقد كان لها على الأديان الأخرى تأثير خطير، كما تأثرت هي بالأديان الأخرى، وعلى هذا فإنني في هذا البحث لم أعرض الهندوسية كدين من الأديان فقط، بل عرضتها أيضاً كمصدر مهم من مصادر بعض الفرق المنحرفة في الإسلام كالصوفية والرافضة وغيرهما.

فقد أثبت التاريخ أن الديانة الهندوسية تلاقت مع الثقافة الإسلامية منذ عهد مبكر، حيث كانت الثقافة الهندوسية لها رواج واسع في بلاد الفرس ومناطق آسيا الوسطى مما يلي الحدود الهندية قبل امتداد الفتح الإسلامي في تلك الديار، بسبب كون الغالب منهم من نسل آري - كما يدعون - والهندوسية هي المتعصبة للعرق الآري، وبعد الفتوحات الإسلامية بقيت كثير من الطقوس الدينية والرياضات النفسية، والتقاليد والعادات لدى مسلمي تلك المنطقة، وقد روعي في هذا الكتاب إبراز هذه الجوانب حتى يعرف المسلمون مدى تأثير بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام بالأديان الأخرى ويُبْعِدْهم عن الدين الصحيح.

٧ - تنقية ما دخل لدى بعض المسلمين من شوائب الكفر والوثنية والعادات

السيئة:

لما كانت دعوة غير المسلمين إلى الإسلام من أوجب الواجبات كان تنقية الإسلام عمّا دخل فيه من أهم الواجبات أيضاً، وعلى هذا فإن هذا الكتاب تناول العناصر الدخيلة لدى بعض المسلمين من الديانة الهندوسية وأبرزت القطاعات المتأثرة بها، حتى يمكن استئصالها بسهولة، أو الحد من انتشارها على أقل الأحوال، أو التنبيه من خطورتها على الأمة الإسلامية.

٨- الكشف عن رواسب الجاهلية الهندوسية الموجودة لدى بعض مسلمي الهند:

تعتبر الهندوسية معين لبعض الأفكار والمعتقدات التي تأثرت بها بعض الفرق التي تنتسب للإسلام، فدراستها تكشف أصول هذه الفرق وتكون دافعاً لهم لإعادة النظر في معتقداتهم. كما أنها تكشف عن العقائد والعادات والتقاليد التي تأثرت بها عموم المسلمين في الهند، فإن عموم مسلمي الهند تأثروا بهذه الديانة نظراً لاتصالهم بها، ولقرب عهد بعضهم بها، ولبعد كثير منهم عن مواطن العلم والعلماء، فهناك حاجة ماسة إلى الكشف عن هذه الرواسب الجاهلية والعادات الهندوسية التي دخلت على بعض مسلمي الهند، خاصة إذا علمنا أن الفلسفات الهندية مؤثرة؛ لأنها نابعة عن التدين؛ فإن الهندوس لا ينظرون إلى الفلسفة على أنها مجرد علم بل هي عقيدة تتبناها الأشخاص ثم تحاول إقناع الجماهير عليها بشتى الوسائل، وهذه الدراسة قد كشفت هذه الجوانب بذكر نماذج واقعية منها.

٩- فهم التكوين العقدي والثقافي للمجتمع الهندوسي:

إن هذه الدراسة تساعد على فهم التكوين العقدي والثقافي للمجتمع الهندوسي الذي تربطه علاقة بالمسلمين، تتسم هذه العلاقات غالباً بالعنف، فمثل هذا الفهم يساعد على اتخاذ الموقف المناسب حيال هذه المشكلة. وكذلك فإن العداء الموجود حالياً بين المعتنقين لهذه الديانة والمسلمين في شبه القارة الهندية غير خافية على أحد، ودراسة هذه الديانة تساعد المسلمين على فهم حقيقة ديانتهم والرد عليهم بردود علمية ونقدية بناءة.

١٠- إبراز نقاط الافتراق والاجتماع بين الدين الإسلامي والديانة الهندوسية:

إن هذا الكتاب يبرز نقاط الافتراق والاجتماع بين الدين الإسلامي والديانة الهندوسية، فإني ما عرضت عقيدة من عقائد الهندوس في شيء ما إلا وقد حرصت على ذكر عقيدة الإسلام في تلك العقيدة. وهذا مما يسهل على القارئ معرفة العقيدة الصحيحة الحققة وشكر الله على ذلك.

١١ - سد الفراغ العلمي المتعلق بالديانة الهندوسية:

وذلك، أن وسائل الاطلاع على الهندوسية في اللغة العربية قليلة، وكذلك مصادرهما التاريخية، والدراسات الجادة فيها أيضًا محدودة للغاية، فهذا الكتاب سيسد هذه الثغرة بإذن الله تعالى.

١٢ - اعتزاز المسلم بدينه وعقيدته وقيمه وأخلاقه:

هذا الكتاب يساعد على إدراك شيء مما وقعت فيه الأمة الهندية من المتهاتات في حياتها وعقائدها، ومن هنا يعلم المسلم القيمة العظيمة التي تمتاز بها العقيدة والشرعية الإسلامية ويقول الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. وانطلاقاً من هذه الأغراض النبيلة أكتب في هذا الموضوع وهو: الهندوسية وتأثر بعض الفرق الإسلامية بها، أحاول أن أشارك في المجهود الدعوي إلى دين الله، والدفاع عن دين الله ﷻ، وإظهار الحق وإبطال الباطل، والله من وراء القصد.

خطة الرسالة:

يشتمل هذا الكتاب على: مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة. أما المقدمة فتشتمل على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وبيان الدراسات السابقة في الموضوع، وخطة البحث. أما التمهيد: ففي بيان نبذة عن شبه القارة الهندية، تاريخيًا وجغرافيًا واجتماعيًا ودينيًا.

وتحتة مطلبان:

- المطلب الأول: تاريخ شبه القارة الهندية وجغرافيتها. وتحتة فروع:
- الفرع الأول: نبذة عن شبه القارة الهندية .
- الفرع الثاني: لمحة عن جغرافية الهند وتاريخها.
- الفرع الثالث: بيان سكان الهند الأصليين.

الفرع الرابع: وفود الآريين إلى بلاد الهند.

الفرع الخامس: امتزاج أهل الهند بالآريين.

المطلب الثاني: في بيان أحوال أهل شبه القارة الهندية، وتحتة فروع:

الفرع الأول: الحالة السياسية.

الفرع الثاني: الحالة الاجتماعية.

الفرع الثالث: الحالة الدينية.

الباب الأول: التعريف بالديانة الهندوسية، ومصادرها، ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: التعريف بالديانة الهندوسية. وتحتة مبحثان:

المبحث الأول: الهندوسية اشتقاقاتها ومؤسسها، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: اسم الهندوسية واشتقاقاتها.

المطلب الثاني: مؤسس الهندوسية.

المبحث الثاني: بيان الأدوار والمراحل التي مرت بها الهندوسية، وأماكن انتشارها،

وتحتة مطلبان:

المطلب الأول: بيان الأدوار والمراحل التي مرت بها الهندوسية.

المطلب الثاني: أماكن انتشار الهندوسية.

الفصل الثاني: مصادر الهندوسية، وتحتة مباحث:

المبحث الأول: الفيدات الأربعة وما يتعلق بها، وتحتة ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الدراسات المتعلقة بالفيدات.

المطلب الثاني: دراسات الفيدات الأربعة وتشتمل على أربعة فروع:

الفرع الأول: ريگ فید.

الفرع الثاني: سام فید.

الفرع الثالث: ياجور قيد.

الفرع الرابع: أثربا قيد.

المطلب الثالث: الكلام على شروح القيدات الأربعة والعلوم المتعلقة بها.

المبحث الثاني: ذيول القيدات، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: كتب برهمانا.

المطلب الثاني: كتب أرزك.

المطلب الثالث: أوبانيشاد، ودراسة بعض الأوبانيشادات المهمة، وتحتة فرعان:

الفرع الأول: الكلام عن الأوبانيشادات عمومًا.

الفرع الثاني: دراسة بعض الأوبانيشادات المهمة.

المبحث الثالث: مصادر الهندوسية الأخرى، وتحتة مطالب:

المطلب الأول: كتب الفلسفات المقدسة لدى الهندوس، وتحتة فروع:

الفرع الأول: قيدانت.

الفرع الثاني: نيايا.

الفرع الثالث: فايشيشكا.

الفرع الرابع: ميمانسا.

الفرع الخامس: سانكهيا.

الفرع السادس: يوغا.

المطلب الثاني: رامايين.

المطلب الثالث: يوغا فاشستا.

المطلب الرابع: بران.

المطلب الخامس: دهرم شاسترا.

المطلب السادس: منو شاشترا (مُنُو سُمَرِتِي).

المطلب السابع: مهايهَارَت.

المطلب الثامن: غيتا.

الباب الثاني: عقائد وشرائع الديانة الهندوسية، ودعوتهم إلى الإسلام.

وتحتة سبعة فصول:

الفصل الأول: الربوبية والألوهية لدى الهندوس، وتحتة مباحث:

المبحث الأول: عقيدة الربوبية عند الهندوس ومناقشتها.

المبحث الثاني: عقيدة وحدة الوجود لدى الهندوس ومناقشتها.

وفيه عدة مطالب:

المطلب الأول: معنى وحدة الوجود.

المطلب الثاني: عقيدة وحدة الوجود كما تصوره كتب الهندوس.

المطلب الثالث: وحدة الوجود هل هي عقيدة الهندوس القدامى؟

المطلب الرابع: الرد على عقيدة وحدة الوجود.

المبحث الثالث: عقيدة الألوهية عند الهندوس، ومناقشتها.

تتمة: المقارنة بين أفكار الهندوس وبين أفكار الديانات الأخرى في التوحيد.

الفصل الثاني: نظرة الهندوس إلى الكون والحياة والإنسان، وتحتة مباحث:

المبحث الأول: نظرة الهندوس إلى نشأة الكون وخلق العالم، ومناقشتها.

المبحث الثاني: نظرة الهندوس إلى الحياة، ومناقشتها.

المبحث الثالث: نظرة الهندوس إلى الإنسان، ونظام الطبقات.

الفصل الثالث: أهم عقائد الهندوس الأخرى، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: عقيدة أَفْتَار (التجسد) وفيه مطالب:

المطلب الأول : معنى كلمة «أفْتَار».

المطلب الثاني : أقسام «أفْتَار» في الهندوسية.

المطلب الثالث : مصدر هذه العقيدة.

المطلب الرابع : مناقشة عقيدة «أفْتَار».

المطلب الخامس : موقف الهندوس من إرسال الرسل.

المبحث الثاني: عقيدة «كارما» (قانون الجزاء). وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول : معنى «كارما».

المطلب الثاني : تفصيل هذه العقيدة وما ترتب عليه عند الهندوس.

المطلب الثالث: مصدر هذه العقيدة.

المطلب الرابع : مناقشة عقيدة كارما.

المبحث الثالث: عقيدة «تناسخ الأرواح» أو جولان الروح.

المطلب الأول: معنى تناسخ الأرواح.

المطلب الثاني : مصدر هذه العقيدة.

المطلب الثالث: أسباب القول بالتناسخ في الديانة الهندوسية.

المطلب الرابع : مناقشة عقيدة التناسخ، وجولان الروح.

المبحث الرابع : عقيدة «نرفانا» أو «موكشا» والرد عليها، وتحت مطالب:

المطلب الأول: معنى «نرفانا» أو «موكشا».

المطلب الثاني : مصدر هذا القول عند الهندوس.

المطلب الثالث : سبب القول بـ«موكشا» أو «نرفانا».

المطلب الرابع : مناقشة عقيدة «موكشا» أو «نرفانا».

المطلب الخامس : عقيدة اليوم الآخر والجنة والنار لدى الهندوس ما بين متقدميهم

ومتأخريهم.

الفصل الرابع: عبادات وتشريعات في الهندوسية، وتحتة مبحثان:

المبحث الأول: أهم عبادات الهندوس.

المبحث الثاني: أهم تشريعات الهندوس، وتحتة مطالب:

المطلب الأول: التشريعات المتعلقة بالزواج والطلاق، وتحتة فرعان:

الفرع الأول: نظام الزواج في المجتمع الهندوسي.

الفرع الثاني: نظام الطلاق في المجتمع الهندوسي.

المطلب الثاني: مراسيم تعميم الأولاد.

المطلب الثالث: التشريعات المتعلقة بالموتى. وتحتة فروع:

الفرع الأول: حرق الميت.

الفرع الثاني: إحراق الزوجة مع الزوج الميت.

الفرع الثالث: تقديم القرابين لروح الميت.

المطلب الرابع: المرأة في المجتمع الهندوسي. وتحتة فروع:

الفرع الأول: حقوق المرأة في الهندوسية.

الفرع الثاني: وضع الأرامل في الهندوسية.

الفرع الثالث: اعتقاد الزوجة أن الزوج إله.

الفرع الرابع: نظرة الهندوس إلى الزنا.

الفصل الخامس: صور من عادات وتقاليد الهندوسية. وتحتة مباحث:

المبحث الأول: الأعياد الهندوسية

المبحث الثاني: أدوار الحياة في الهندوسية

المبحث الثالث: عادات وتقاليد تتعلق بالرهبة الهندوسية، وتحتة مطالب:

المطلب الأول: يوغا

المطلب الثاني: الرياضات

المطلب الثالث: تعذيب الجسم

المطلب الرابع: التسول وترك الاكتساب

المطلب الخامس: محاربة الملاذ

المطلب السادس: نقد الرهينة الهندوسية

الفصل السادس: فرق الهندوس وجماعاتها، وتحت ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: فرق الهندوسية الكبرى

المبحث الثاني: عقيدة برهما سماج وآريا سماج، والرد على دعاويها.

المبحث الثالث: الهندوسية الحديثة ونشاطها الدعوي.

الفصل السابع : دعوة الهندوس إلى الإسلام (الكيفية والوسائل).

الباب الثالث: تأثير بعض الفرق الإسلامية بالهندوسية.

وفيه تمهيد وفصول

أما التمهيد : فيشتمل على ثلاثة مطالب:

الأول: الصلة بين العرب والهند قبل الإسلام وبعده.

الثاني: أسباب تأثير الفرق بأفكار الديانة الهندوسية.

الثاني: تأثير كثير من الفرق التي تنتسب إلى الإسلام بالهندوسية.

الفصل الأول: تأثير المتصوفة بالهندوسية. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالتصوف والمتصوفة ونشأته.

المبحث الثاني : استمداد التصوف أصوله من الفكر الهندوسي، والأدلة على

ذلك.

المبحث الثالث: بعض عقائد وعادات وتقاليده المتصوفة المستمدة من الهندوسية.
وفيه تسعة مطالب:

المطلب الأول: عقيدة الحلول.

المطلب الثاني: عقيدة الاتحاد.

المطلب الثالث: عقيدة وحدة الوجود.

المطلب الرابع: عقيدة رفع التكاليف عن الشيخ الكامل.

المطلب الخامس: عقيدة اتخاذ الشيخ والغلو في تعظيمه.

المطلب السادس: تقسيم الناس إلى الخواص والعوام.

المطلب السابع: العزلة والانقطاع.

المطلب الثامن: تعذيب النفس وتحمل المشاق والتجويع وإماتة الشهوات.

المطلب التاسع: ترك التكسب والاتكال على الناس.

الفصل الثاني: تأثير الرافضة بالهندوسية. وتحتة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالرافضة ونشأتها.

المبحث الثاني: أسماء الرافضة وفرقها.

المبحث الثالث: نماذج من انحرافات الرافضة المستمدة من الهندوسية.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: عقيدة الحلول والاتحاد لدى الرافضة ومقارنتها بالهندوس.

المطلب الثاني: عقيدة الرجعة لدى الرافضة وعلاقتها بعقيدة التناسخ لدى

الهندوس.

المطلب الثالث: التشبيه لدى بعض الرافضة ومقارنتها بقول الهندوس.

المطلب الرابع: اتخاذ الإمام بمثابة اتخاذ الشيخ عند الهندوس.

المطلب الخامس: المتعة لدى الرافضة ومقارنتها بما في الهندوسية.

الفصل الثالث: تأثير عموم المسلمين في الهند ببعض عادات وتقاليد الهندوس.

الخاتمة: وفيها بيان أهم النتائج.

منهجى في البحث:

أما المنهج الذي سلكته في هذا الكتاب فقد اتبعت المنهج التحليلي على العموم، ومن هنا فقد تم التزام الخطوات الآتية:

أ- فيما يتعلق بمصادر الهندوسية رجعتُ إلى الكتب الأساسية الهندوسية مثل كتب الثيديات وذيولها، وما أمكنني الحصول عليه من كتبهم، ومن المعروف أن النقل من أصحاب النحلة أولى علمياً وأوثق من النقل عن غيرها.

ب- ترجمتُ النصوص الهندوسية كما هي في كتبهم ترجمة حرفية مفصلة إلا في حالات قليلة فأختصرها فأترجمها ترجمة إجمالية مراعيًا المعنى المراد منها، ولا سيما إذا كانت النصوص طويلة ومستطردة.

ج- عرضتُ الهندوسية في هذا البحث حسب مذهبها القديم الذي له صلة وثيقة بكتبها العتيقة، وأشير إلى مذهبها الجديد في بعض القضايا المهمة.

د- استشهدتُ أحياناً بالمشاهدات التي شاهدها في بنغلاديش وفي الهند.

هـ- سلكتُ على العموم مسلك النقد والتفنيد، فلم أكتف بعرض الموضوع بل عقبته عليه بنقده وإبراز ميزة الإسلام فيه وإن كان الإسلام لا يحتاج إلى هذا.

و- علقته في الهامش أحياناً على ما رأيت أنه يحتاج إلى تعليق من الألفاظ أو المعاني.

ز- خرجت الآيات القرآنية في صلب الرسالة تفادياً لكبر حجم الرسالة، وذلك بالإشارة إلى رقم الآية والسورة، ولم أفرق بين الآية الكاملة أو الجزء منها.

- ح- خرجت الأحاديث من كتب السنة، وذكرت الحكم عليها من كلام أهل العلم.
- ط- ترجمت للأعلام غير المعروفين، إلا من لم أتمكن من الحصول على ترجمة له لبعض الشخصيات الهندوسية.
- ي- عرفت بالمدن والبلدان التي وردت في الرسالة مع ذكر الأسماء الجديدة لهذه الأماكن إن وجدت.
- ك- قمتُ بوضع فهرس متنوعة لهذا البحث، ليسهل الانتفاع به والاستفادة منه.
- ل- وقد شملت فهرس الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأعلام، والبلدان والأماكن، والمصادر والمراجع، والموضوعات.
- أهم ما يمتاز به هذا الكتاب في مجال دراسة الديانة الهندوسية عن مثيلاتها ما يلي:
- ١- إن هذا الكتاب - حسب علمي - هي أول كتاب علمي جاد معتمد على مصادر هندوسية أصيلة، باللغة العربية كرسالة علمية في العالم العربي كله، تتناول الديانة الهندوسية من وجهة نظر إسلامية وهذا له أهميته في ميدان أبحاث الأديان المقارنة.
 - ٢- مادة هذا الكتاب مأخوذة من مصادر الأصلية، التي استطعت الاطلاع عليها باللغة البنغالية والهندية والإنكليزية فالعربية، بالإضافة إلى مصادر أخرى فرعية.
 - ٣- درست تأريخ الديانة الهندوسية بتوسع، من حيث نشأتها وتطوراتها، ربما لا توجد في أماكن أخرى، وذلك من خلال نقل كلام الدارسين لهذه الديانة من الهندوس وغيرهم ممن عرفوا بالأمانة في نقل التاريخ، والمعترف بها لدى الهندوس.
 - ٤- درستُ الديانة الهندوسية من خلال كتبها ومصادرهما، وهي كثيرة ومتنوعة،

مع صعوبتها ووعورتها، فإنهم يقولون: «إن من لم يدرس الهندوسية من كتبها الأصلية، وهي الفيدات الأربعة وما يتعلق بها من العلوم والفنون، والأوبانيشادات الأربع عشرة، والبرانات الثماني عشرة، والإتيهاسا، فإنه ما عرف الديانة الهندوسية»، وقد تبين لي من خلال الدراسة، فعلاً أن من لم يعرف هذه الكتب ولم يقرأ ما بها، فإنه لا يزال يتخطب في معرفة حقيقة هذه الديانة، ومن هنا تم دراسة مصادر الهندوسية كلها، مع الفلسفات الست الهندية، حتى خرجتُ في كل من هذه الدراسة بنتيجة واضحة، والله الحمد.

٥- ظهر لي من خلال الكتاب أن كثيراً من الدارسين لهذه الديانة لم يكن الصواب حليفهم حين كانوا يطلقون على بعض عقائدهم بالتوحيد، فإن توحيدهم غير توحيد المسلمين، كما أن كثيراً منهم يوردون أموراً ويردونها، مع أن الهندوسية لم يلق بها بالاً أصلاً، مثل عقيدة إنكار الرسالة وإرسال الرسول، وإن ثبت نزر منها عنهم فإنها من متكلميهم، لا يوجد شيء منها في كتبهم الأصلية. كما أن كثيراً من كتاب المسلمين يرى «الفيدات» من الوحي، ولا شك أن هذا خطأ واضح؛ فإن الهندوس عموماً لا يدعون ذلك، ولا يظهر ذلك من خلال قراءة هذه الكتب، وهي مليئة بالشرك وداعية إلى الشرك والكفر والخرافات.

٦- أبرزت أهم الفروق بين الإسلام والهندوسية؛ وذلك من خلال ما يلي:

❖ العقيدة الهندوسية في الإله تقوم على التعدد والتثليث، الذي يحمل في طياته التشبيه، والتجسيم، والتحديد، والتجسد، والأبوة، والبنوة، وعبادة الحيوان، والبشر والأنهار، والأبقار...، وهذا كله في نظر الإسلام شرك في الألوهية والربوبية ومناقض للتوحيد الخالص الذي يدعو إليه الإسلام، الذي يقرر أفراد الله ﷻ بالألوهية وإخلاص العبادة له وحده، والإقرار بأن الله ﷻ الكمال المطلق، وأنه منزّه عن العدد والكثرة، والوالد والولد ومنزّه عن كل نقص وعن التشبيه والتمثيل.

- ❖ تعتمد الهندوسية في إثبات عقائدها على القصص الواهية والخرافات حتى أصبحت التاريخ عندهم ضحكة للصبيان، بينما العقائد في الإسلام منصبة على الإيمان بالغيب بإخبار الصادق وعدم مخالفتها للواقع.
- ❖ القضايا الأخروية في الهندوسية، إما منعدمة أو غير واضحة، أما في الإسلام فهي ركن من أركان إيمان المؤمن.
- ❖ تجعل الهندوسية الدنيا دار جزاء وثواب، ومن هنا يعتقد الهندوسي على العودة إلى الدنيا مرات وكرات، والتي تسمى بالتناسخ، وهذا مخالف للمعتقد الإسلامي الذي يرى أن الدنيا دار عمل، والحساب والجزاء الحقيقي في اليوم الآخر حيث يقع بها الجزاء.
- ❖ جنة الهندوس ونارهم مؤقتتين لا دائمتين، وهذا يختلف عن الإسلام فالجنة والنار فيه مخلوقتان، لا تغنيان أبداً ولا تبيدان.
- ❖ قصة الخلق في الهندوسية قائمة على أساطير يرفضها الإسلام ويقرر أن الخلق كله خلق الله عز وجل الذي خلق الخلق بإرادته وهو بائن عن الخلق بذاته، والخلق بائون عنه.
- ❖ يعتقد الهندوس بنزول الإله إلى الأرض بصورة بشر، وهذا محال في الإسلام عقلاً وشرعاً، والإسلام بريء منه.
- ❖ عقيدة الإيمان بالرسول من العقائد الغير واضحة الثبوت في الهندوسية، أما في الإسلام فالإيمان بالرسول ركن من أركان الإيمان.
- ❖ تؤمن الهندوسية بعقيدة «التناسخ» و«كارما» و«وحدة الوجود» و«موكشا» (الفناء في الذات الإلهية - حسب زعمها -)، و«أفتار» (التجسد) وهذه كلها معتقدات تبرأ الإسلام منها، وحكم بطلانها، وكفر قائلها.
- ❖ يعتقد الهندوس أن الشيطان له قوة مطلقة ينتصر بها على الآلهة نفسها، وفق امتياز حصل عليه من الإله «براهما»، وهذا مخالف للمعتقد الإسلامي الذي يرى أن الشيطان خلق من خلق الله ﷻ لا يملك نفعاً

ولا ضرراً، ولم يمنح القوة التي لا تقهر، وهو كافر مطرود من رحمة الله ﷻ.

❖ تعترف الهندوسية بالنظام الطبقي بل وقامت عليه، وهذا مخالف لنظرة الإسلام إلى الإنسان تلك النظرة القائمة على مبدأ المساواة الإنسانية والمساواة في الحقوق.

❖ حطت الهندوسية من منزلة المرأة، وحرمتها من جميع الحقوق الدينية والاجتماعية، وهذا لا يقره الإسلام الذي أعطى المرأة كل خصائص الإنسانية وحقوقها اللائق والعاقل.

❖ تدعو الهندوسية إلى تحقيق المثل الأخلاقي الأعلى وهو بلوغ القداسة، ونبذ العالم، وسحق الجسد للاتحاد بالآله، وهذا مرفوض في الإسلام جملة وتفصيلاً، والمثل الأخلاقي الأعلى في الإسلام ليس من وضع البشر.

❖ يعتمد الهندوس في الطهارة على الماء وبول الأبقار، ويغتسلون من مس الميت، أو الحائض، أو النفساء، أو أحد المنبوذين، ويصلون للنار، وقبلتهم في الصلاة الشمس، والزكاة عندهم واجبة وليست مقدرة، والصيام واجب على رجال الدين بألوان شاقة، وتطوع على غيرهم، وهم يقصدون البلدان الطاهرة أو أحد الأصنام أو أحد الأنهار بقصد الحج والعبادة، فهذه العبادات جميعاً يرفضها الإسلام ويتبرأ منها لأنها أعمال شركية وموجهة لغير الله تعالى.

❖ تظهر مخالفة أحكام الأسرة عند الهندوسية للإسلام في: تحريمها نكاح الأراذل، وإباحة نكاح المتعة، والقول بنجاسة المرأة الحائض مطلقاً، وفي منع المرأة من حق طلب فراق الزوج عند حصول الضرر.

❖ أن الهندوس في نظر الإسلام كفار أشركوا بالله ﷻ في ألوهيته بأن عبدوا معه آلهة غيره، وأشركوا به ﷻ في ربوبيته بأن جعلوا غيره رب الكائنات دونه.

❖ أن الهندوسية ديانة وثنية تقوم على التعدد والتثليث وليست في الأصل ديانة توحيدية، فلم يثبت دليل يدل على سماويتها بالإضافة إلى أن التاريخ العقدي لهذه الديانة يدل على مدى زيفها وبعدها عن الحق، ولم يثبت صحة نسبة كتاب «الفيدا» إلى الوحي، ويعترف الهندوس أنفسهم أن ديانتهم غير سماوية.

❖ مسألة التوحيد الوارد في كتب الهندوس فهو أمر مختلف فيه والذي يظهر أن التوحيد الموجود في الهندوسية ما هو إلا وحدة الوجود أو أنه توحيد مشوب بالحلول وليس من الضروري محاولة إثبات سماوية هذه الديانة للدلالة على فطرية التوحيد لأن الوحي كفانا مؤونة ذلك.

٧- أبرزت جانب التأثير والتأثر، فإن للهندوسية تأثيراً على اليهودية والنصرانية وبعض الفرق التي تنتسب للإسلام، مثل الرافضة والقاديانية، والمتصوفة وغيرها، كما أن الهندوسية تأثرت ببعض الأديان الوضعية؛ خصوصاً أنها تأثرت بالديانة المحلية في عبادة الثالوث (براهما، بشنو وشيفا)؛ فإن الفيدات ليس فيها عبادة الثالوث، وإنما الذي فيها هي عبادة الظواهر الكونية من الشمس والقمر والنجوم والجبال والنار والهواء وما إلى ذلك، ولكنهم لما دخلوا بعد مسيرتهم الطويلة من «أريانا فيجو» في الهند، أخذوا من كل قوم ما يحلو لهم، وأخذوا الثالوث الهندي من الديانة المحلية - فيما يظهر - كما تأثروا في حرق الأجساد من بعض الأديان المحلية؛ كما أن الديانة الهندوسية تأثرت بالجينية في عبادة الأبقار.

المشاكل التي واجهتني أثناء البحث:

هذا، وقد واجهتني خلال كتابة هذا الكتاب مشكلات كثيرة ومتنوعة، من أهمها:

١- قلة المصادر والمراجع باللغة العربية في هذا الموضوع، مما حدا بي إلى ترجمة المواد العلمية من الكتب الهندوسية، وقد واجهتني صعوبات كثيرة في الترجمة، خصوصاً نصوص الفيدات والأوبانيشادات، لكونها من

الفلسفات المعقدة وكتبت بلغة مهجورة، وقد أدخل فيها تأويلات فلسفية من قبل فلاسفة الهند قديماً وحديثاً.

- ٢- كثرة المصادر والمراجع الهندوسية وتنوعها وتناقضها في كثير من الأحيان.
- ٣- التناقض والاضطراب في دراسة الديانة الهندوسية من مؤلفي علماء المسلمين الذين تناولوها باللغة العربية.
- ٤- كما واجهت صعوبات بالغة في تحديد الأماكن القديمة التي جاء ذكرها في كتب الهندوسية.
- ٥- كما واجهت متاعب في ترجمة كثير من الشخصيات الهندوسية؛ لما يكتنفها الغموض والتناقض في كثير من الأحيان.
- ٦- ترجمة المصطلحات الهندوسية، لما في ترجمتها من صعوبات، وتزيد الصعوبة إذا كانت مصطلحات الديانة بعيدة عن اللغة العربية كل البعد.
- ٧- ضبط المصطلحات الهندوسية بالشكل، حيث إن في ضبطها صعوبة^(١) لبعدها عن طبيعة اللغة العربية.

الدراسات السابقة في هذا الموضوع وطبيعتها:

هناك دراسات كثيرة في هذا الموضوع إلا أن أغلبها لغير المسلمين، وأما المسلمون فدراساتهم لهذه الديانة ضئيلة، كما أن كثيراً منها بغير اللغة العربية، أما باللغة العربية فهي قليلة، ويمكن أن نذكر جهود المسلمين في دراسة هذه الديانة في الفروع الآتية:

الفرع الأول: الدراسات الخاصة بالديانة الهندوسية باللغة العربية:

أما بالنسبة للدراسات الخاصة بالديانة الهندوسية باللغة العربية فإنها قليلة جداً، ويمكننا أن نقسمها إلى قسمين:

(١) كما أشار إليه البيروني في مقدمة كتابه: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة.

أ- الدراسات الخاصة بالديانة الهندوسية فقط:

هذا النمط من المؤلفات قليلة، وفيما يلي بيان ذلك^(١):

١- أقدم كتاب تناول هذه الديانة ما ذكره ابن النديم^(٢) في كتابه الفهرست، أنه ألف في القرن الثاني الهجري كتابٌ باسم «مذاهب الهند».

يقول ابن النديم: «حكى بعض المتكلمين بأن يحيى بن خالد البرمكي^(٣) بعث برجل إلى الهند ليأتيه بعقاير موجودة في بلادهم، وأن يكتب له أديانهم، فكتب له هذا الكتاب، قال ابن النديم: الذي عنى بأمر الهند في دولة العرب يحيى بن خالد وجماعة البرامكة، واهتمامها بأمر الهند وإحضارها علماء طبها وحكمائها^(٤)»^(٥).

فهذا أقدم كتاب يتناول هذه الديانة ألف في القرن الثاني الهجري إلا أن هذا الكتاب في عداد المفقودات.

٢- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، لأبي الريحان البيروني، محمد بن أحمد الخوارزمي، مؤرخ، رحالة، طبيب، فيلسوف، رياضي، توفي سنة ٤٤٠هـ^(٦).

(١) وقد استفدت هذه المعلومات من كتاب الدكتور محمود عبد الرحمن قدح: علم دراسة الأديان عند المسلمين ص (٥٦-٨٤).

(٢) هو محمد بن إسحاق، المعروف بـ«ابن النديم»، كان وراقاً يبيع الكتب، وكان معتزلاً شيعياً، توفي سنة ٤٣٨هـ. انظر ما ذكره ابن حجر: لسان الميزان (٧٢/٥)، والزركلي: الأعلام (٢٩/٦).

(٣) يحيى بن خالد بن برمك، وزير هارون الرشيد، واستمر إلى أن نكل الرشيد بالبرامكة فقبض عليه وسجنه حتى مات. انظر ما ذكره ابن كثير: البداية والنهاية (١٢١/١٠)، والزركلي في الأعلام (١٤٤/٨).

(٤) ابن النديم: الفهرست ص (٤٨٤).

(٥) يقول الدكتور الأعظمي - حفظه الله - وسبب اهتمام البرامكة بأديان الهند لعله يعود إلى أن جدهم كان بوذياً، بل وكان من سدة المعابد البوذية في تركستان؛ فإن كلمة «البرامكة» أصلها في السنسكريتية «برمكوها» ومعناها: رئيس المعابد. انظر: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٢٨).

(٦) انظر ترجمته فيما ذكره الزركلي في الأعلام (٣١٤/٥).

والكتاب أوسع من تناول الديانة الهندوسية، حيث إنه مكث في الهند سبع سنوات، وتعلم اللغة السنسكريتية، وترجم بعض كتبهم إلى العربية، وقد سجل أغلب ما لدى الهندوس من عقائد وعادات وتقاليد، وما عندهم من علوم وحكم، ومما يلاحظ على هذا الكتاب:

❖ كثرة استطراده إلى بيان عقائد الديانات الأخرى.

❖ كثير من آراء الهندوس صبغها المؤلف بصبغة إسلامية، والهندوس لا يرضون بهذا، مثال ذلك، كلامه عن الهندوس في مسألة الاعتقاد بالله، حيث إنهم لم ينطقوا باسم الله، ولم يعتقدوا ما ذكره المؤلف عنهم.

❖ اعتماده على كتب البرانات أكثر من الكتب الأخرى الأصيلة.

❖ لم يتطرق المؤلف إلى الفرق الهندوسية، مع أن هذا مهم جداً؛ لأن لكل فرقة عقيدتها ومنهجها الخاصة بها.

❖ كثير من مصادر المؤلف في حكم المفقود الآن، وهم لا يعتبرونها من مصادرهم.

❖ يوجد تغيير كثير من كلام المؤلف وما هو موجود في كتبهم الآن، فلا أدري هل غيّر المؤلف حسب مفهومه لنصوص هذه المؤلفات، أم غيرها الهندوس حسب أهوائهم وميولهم؟

٣- الديانات القديمة، لأبي زهرة رَحِمَهُ اللهُ (١).

إن الشيخ أبا زهرة رَحِمَهُ اللهُ كان من علماء النواردين الذين ألفوا في مجالات شتى، وقد وفق المؤلف في كثير مما ذكر عن الديانة الهندوسية حيث جمعه من كتب عديدة، إلا أن مستنده الرئيس هو كتاب البيروني، ومما يؤخذ عليه:

(١) هو محمد بن أحمد أبو زهرة، من علماء مصر النابغين، ولد سنة ١٣١٦هـ، توفي بالقاهرة سنة ١٣٩٤هـ ألف كثيراً، من أهم مؤلفاته: الأديان القديمة، أبو حنيفة، مالك، الشافعي، وابن حنبل، الأحوال الشخصية. انظر ما ذكره عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين (٤٣/٣) برقم (١١٥٦٠).

- الاختصار الشديد، حيث لم تتجاوز معلوماته عن (٢٧) صفحة.
- المقارنة التي أقامتها بين كريشنا وبين عيسى عليه السلام غير صحيحة، فكثير منها جاء بها المؤلف تخميناً، والهندوس لا يعترفون بها، كما أنها غير موجودة في كتبهم إطلاقاً، ولا هي معروفة ومشهورة لديهم.
- خلطه بين البرهمانات وبرانات، وتحمله كلام البيروني ما لا يحتمل^(١).
- قسّم الهندوس قسمين؛ في عقيدة اليوم الآخر وعقيدة الجنة والنار ما بين معترف ومنكر، وهذا التقسيم غير سليم، فإنهم لا يؤمنون الآن باليوم الآخر ولا بالجنة والنار على المعنى المعروف لدى المسلمين^(٢).

٤- أديان الهند الكبرى، للدكتور أحمد شلبي، المعروف بمؤلفاته العديدة.

ذكر المؤلف أن من مراجعه القيدات ومهابهارت، وغيتا، وراماين، ومنو دهارماشاستر، فيدانت، وبعض منشورات وزارة التعليم الهندية، وأعداد من ثقافة الهند، وقد وفق المؤلف كثيراً في جمع هذه المعلومات وصياغتها صياغة ممتازة ظهر برعه فيها، ولكن الذي ظهر لي من خلال قراءة الكتاب أمور عديدة، منها:

❖ أن استفادته من القيدات كانت بالواسطة، حيث لم يترجم هذا الكتاب حتى الآن إلى اللغة العربية، وقد ذكر في بعض مواضع الكتاب أن بعض تلامذته ترجم له أماكن عدة من القيدات، كما أن الفلسفة القيدانية لم تترجم كاملة حتى الآن إلى العربية.

❖ لما كان المؤلف ينقل المعلومات عن مجلة ثقافة الهند دون تمحيص لا يمكنه إثبات الحقيقة؛ حيث إن هذه المجلة كانت بمثابة لسان الحكومة الهندوسية، وفيها الثناء العاطر على هذه الديانة، ولم تتطرق المجلة للعقائد والعادات والتقاليد الفاسدة لدى الهندوس.

(١) انظر ص(٤٥).

(٢) انظر ص(٤٣-٤٤).

❖ نسب المؤلف عقيدة الوجدانية بأنها من عقائد الهندوس؛ فإن كان المقصود منه أن في القيدات ما تدل على هذه العقيدة فهي صحيحة، وأما إن كان المقصود ما هم عليه الآن، فلا شك أن الهندوس لا يعتقدون الوجدانية بالمعنى المتعارف عليه لدى المسلمين، وإنما يعتقدون وحدة الوجود.

❖ ثناؤه العاطر على أخلاق الهندوس وآدابهم.

❖ عدم النقد لكثير من عقائدهم.

٥- الأديان القديمة في الشرق... د/ متولي يوسف شلبي الشهير بـ«رءوف شلبي».

تكلم فيه المؤلف عن الديانة الهندوسية من (٧٨- إلى ١٤٦) ولا شك أنه عمل جليل يشكر عليه، ولكن الذي يؤخذ عليه ما يلي:

❖ نقله عن الهندوسية بالواسطة، فلم يرجع إلى لغة القوم.

❖ عدم دقته في كتابة كثير من المصطلحات.

❖ خلطه بين عدة مصطلحات في مكان واحد، وكمثال على ذلك: خلطه

بين الطبقات الهندوسية وبين أدوار الحياة لدى الهندوس.

❖ تسميته لجميع تراث الهندوسية بالقيدات.

❖ خلطه بين العلوم المتعلقة بالقيدات وبين سُمَرْتِي الذي هو من فقه

القيدات.

❖ جعله الفلسفات الهندية تحت مجموعة غير معروفة.

❖ تسميته لاعتقادهم بالروح: الروح المقدس.

❖ شكه في مسألة التناسخ لدى الهندوس، مع أن الهندوسية قائمة عليها.

❖ جعل الهندوس كأنهم يؤمنون باليوم الآخر، وهذا غير صحيح إطلاقاً.

❖ كما يظهر جلياً: أن المؤلف ذكر هندوسية في غير أرضها وهي الهندوسية

في إندونيسيا، فالهندوسية التي تحدث عنها تختلف في كثير من الأمور

عن الهندوسية في الهند، كأن هذه الديانة أصابها نوع تحريف في ديار

جنوب شرق آسيا، أو أنها تأثرت بالديانات المجاورة، والله أعلم.

٦- فصول في أديان الهند، للمهتدي الشيخ الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي حفظه الله.

بدأ الشيخ يكتب عن الديانة الهندوسية منذ التحاقه بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، في مجلة الجامعة الإسلامية في زاوية «ندوة الطلبة» في الأعداد رقم (٥-٧)، (٩-١١)، ثم هذب الشيخ هذه المقالات وأخرجها بشكل كتاب سماه «فصول في أديان الهند»^(١)، ثم ضمّها في كتابه الآخر «دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند».

والكتاب والكاتب من مراجعي ولا يستغني عنه أحدٌ يريد أن يتعرف على هذه الديانة، فقد كتب عن علمٍ و يقينٍ ومعرفةٍ، وقد راجعت الشيخ - حفظه الله - مرات عديدة واتصلت به مرارًا وتكرارًا، فلم أجد منه إلا الترحيب والتكريم والإجابة عن كل ما كان يجيش في نفسي من التساؤلات - بارك الله له في عمره وفي علمه -

٧- «الهندوسية عرض ونقد» رسالة علمية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمحمد بن عبد العزيز العلي، نال بها الباحث الدرجة العالمية الماجستير، فقد بذل المؤلف جهدًا طيبًا مشكورًا في جمع شتات المعلومات الموجودة باللغة العربية.

والفرق بين ما كتبه المؤلف وبين ما كتبه يتلخص فيما يلي:

❖ إن معلوماته عن الديانة الهندوسية كلها بالواسطة، فلم يطلع على الفيدات ولا على آرْتْكَ ولا على البرهمنات ولا على الأوبانيشادات ولا على المصادر الأخرى الرئيسة مباشرةً، وهذا واضح من كتاباته في الموضوعات.

❖ اعتمد على بعض المصادر والمراجع باللغة الأردية والهندية، إلا أنها ليست في صلب الموضوع، فلم يأخذ المعلومات المتعلقة بالديانة عن المصادر الهندوسية الأصلية.

❖ لم يظهر لديّ استفادته من جهود علماء المسلمين في الهند في الرد على

(١) انظر ما ذكره المؤلف في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥١٥).

الديانة الهندوسية، وإنني بحمد الله تعالى وبعبءه بحكم بيئي عرفتُ كثيراً من لغة القوم وتقاليدهم وعاداتهم واعتقاداتهم الباطلة، فإنني من المنطقة التي يسكن فيها كثير من الهندوس، ولغتي أقرب اللغات إلى لغة مصادرهم - اللغة السنسكريتية - وقد ترجمت أغلب هذه المصادر إلى لغتي التي أتكلم بها، والذي أمكنني الاستفادة منها بسهولة.

❖ نقصه واضح في الردود على عقيدة الهندوس في جميع القضايا، وربما ينقل بعض الشيء عما ذكره بعض المفكرين دون التنبه إلى الصواب في حقيقة الأمر من عدمه.

❖ تطرقه إلى قضايا هامشية بدون تحقيق في وجود هذه القضايا في الديانة الهندوسية أم لا، وإنما قلّد الباحثين الآخرين من كتّاب العرب في هذا المجال.

❖ إن الخطة التي حررتها هنا تختلف عن خطة الدكتور اختلافاً كبيراً.

❖ كما أن خطتي تتميز - بحمد الله - بدراسة تأثير الهندوسية على بعض الفرق الإسلامية.

وعلى كل حال: لكل مجتهد نصيب من أجره، ولا يعني أنني أقلل من شأن الدكتور ورسالته، حاشا وكلاً، وإنما أردت إبراز بعض ما قمْتُ به في هذا الكتاب زيادة على ما ذكره الباحث الأول في هذا المجال. لعل القارئ الكريم النبيه يتنبه إلى مدى الفرق بين الرسالتين من غير أن أشير إليه.

٨- مقارنة الأديان، الفيدية .. البراهمانية .. الهندوسية، للدكتور محمد عثمان الخشت حفظه الله، الذي لم يأل جهداً في جمع المعلومات الموجودة في الكتب العربية من شتى أنواع المراجع، وهو عمل جيد وطيب يشكر عليه. إلا أن الذي يؤخذ عليه ما يأتي:

❖ عدم الاطلاع على المصادر الهندوسية، وهو معذور في ذلك لبعده عن مواطنها، وصعوبة معرفتها.

- ❖ تقسيمه هذه الديانة إلى ثلاثة ديانات؛ القيدية.. البراهمانية.. الهندوسية، مع أنها كلها ديانة واحدة بعضها امتداد للبعض الآخر.
- ❖ كلامه عن القيدات الأربعة تفقده المصادقية.
- ❖ خلطه في معبودات الهندوسية، حيث ذكر بعض الآلهة مرتين أو ثلاثاً، مع أنه إله واحد له أسماء عديدة، وله عذره في ذلك؛ لأن كثيراً من كتاب العرب لم ينتبه لذلك في كتاباتهم.
- ❖ عدم دقته في كثير من الأمور، منها: جعله «ديانة ناغا أقدم الديانات الهندية، وجعلهم أصل سكان الهند، ومنها: الكلام عن طبيعة الوحي في القيدات، حيث لم يوفق فيه للصواب، ومثل هذا كثير، ومنها: كثرة اعتماده على ما يُنقل عن المستشرقين في معاني الأوبانيشادات مع عدم التنبه لما يرومون من خلالها.

٩- التفكير الديني في العالم قبل الإسلام^(١)، للدكتور أورانج كاي رحمت، ترجمة الدكتور رءوف شلبي، والكاتب تطرق إلى الديانة الهندوسية في بداية الكتاب، وتوسع فيه، ومع وجود الخطأ في ضبط بعض المصطلحات وبعض الأسماء (ربما يكون من المترجم) هو من أحسن ما ألفه المتأخرون من علماء المسلمين، إلا أنه لم يتطرق إلى كثير من الجوانب المهمة من الديانة الهندوسية.

- ب- دراسات عن الهندوسية ضمن كتب الملل وكتب المقالات والموسوعات:
- ١- الآراء والديانات، للحسن بن موسى بن الحسن النوبختي. فارسي الأصل، استوطن بغداد، شيعي معتزلي، توفي سنة ٣١٠ هـ^(٢)، إلا أن الكتاب في حكم المفقود، وإن كان قد نقل عنه بعض المتأخرين.

(١) ذكرته هنا؛ لأن مؤلفه مسلم، وهو مترجم إلى اللغة العربية من قبل مسلم.

(٢) انظر ترجمته فيما ذكره ابن النديم في الفهرست ص (٢٥١)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٣٢٧/١٥)، والزركلي في الأعلام (٢/٢٢٤).

٢- المقالات في أصول الديانات، لعلي بن الحسين بن علي المسعودي، مؤرخ، رحالة، من أهل بغداد، شيعي معتزلي، توفي سنة ٣٤٦هـ^(١).

٣- الملل والنحل^(٢)، لأبي منصور البغدادي، عبد القاهر بن طاهر البغدادي التميمي الإسفراييني، من أئمة الأصول، عالم بالأديان والفرق، توفي سنة ٤٢٩هـ^(٣).

٤- الفرق بين الفرق، له أيضاً، وقد تكلم عن مسألة التناسخ لدى البراهمة، وما تأثر بها من الفرق التي تنتسب إلى الإسلام^(٤).

٥- الفصل في الملل والأهواء والنحل، للإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، إمام الظاهرية، فقيه مجتهد، توفي سنة ٤٥٦هـ^(٥)، والإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ لم يتناول في كتابه هذا إلا مسألتين مهمتين من الديانة الهندوسية، هما: الرد على أصحاب التناسخ، وعلى منكري إرسال الرسل^(٦).

٦- الملل والنحل، لمحمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، كان إماماً في علم الكلام والملل والنحل، من أئمة الأشاعرة، توفي سنة ٥٤٨هـ^(٧).
إن الشهرستاني أوسع مؤلفي الملل والنحل تحدثاً عن الهند وآرائها، ويظهر من

(١) انظر ترجمته فيما ذكره ابن شاکر الکتبی: فوات الوفيات (٢/ ٤٥)، وابن حجر: لسان المیزان (٤/ ٢٢٤)، والزركلي: الأعلام (٤/ ٢٧٧).

(٢) حققه وقدم له وعلق عليه د/ البیر نصري نادر، نشرته دار المشرق، بیروت، لبنان، ١٩٧٠م.
(٣) انظر ترجمته فيما ذكره السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ٢٣٨)، والذهبي: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٧٢)، وإسماعيل باشا: هدية العارفين (٥/ ٦٠٦).

(٤) انظر ص (٢٧٠، ٢٧١)، وإن كان يدرج الكلام عنهم تحت عنوان «السمنية».
(٥) انظر ترجمته فيما ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ص (١٨٤-٢١٢)، وابن العماد: شذرات الذهب (٣/ ٢٩٩-٣٠٠)، والزركلي: الأعلام (٤/ ٢٥٤).

(٦) انظر (١/ ١٣٧-١٤٧)، و (١٦٥-١٧٥).
(٧) انظر ترجمته فيما ذكره ابن خلكان: وفيات الأعيان (١/ ٤٨٢)، الزركلي: الأعلام (٦/ ٢١٥).

قراءة الكتاب أن المؤلف استفاد كثيراً في بعض الفقرات مما كتبه المقدسي^(١) وابن النديم^(٢)، إلا أن أغلب الموضوعات التي تطرق إليها المؤلف هو من ابتكاره وإبداعه حتى في ترتيب المعلومات وتقسيمها.

هذا، ومما يؤخذ على المؤلف^(٣) ما يلي:

- ❖ إغفاله كتبهم المقدسة لديهم.
- ❖ إغفاله عقيدة وحدة الوجود لدى الهندوس.
- ❖ عند ما قسم البراهمة قال: «إن البراهمة تفرقوا أصنافاً، فمنهم أصحاب البددة، ومنهم أصحاب الفكرة ومنهم أصحاب التناسخ»، ولا شك أن هذا التقسيم خطأ من وجوه؛ فإن البددة هم السمنية أو البوذية، وهم ليسوا من البراهمة، بل أصلهم من الطبقة الكهشترية، ثم إن أصحاب الفكرة هم البراهمة كلهم.
- ❖ جعله أصحاب الفكرة والوهم قسماً للبراهمة مع أنهم فرقة واحدة.
- ❖ تصويبه لقدرة الوهم بأنه يصنع العجائب كما يعتقد بعض الهندوس.
- ❖ جعله عقيدة التناسخ لبعض الهندوس، مع أن هذه العقيدة هي شعارهم الرئيسي.
- ❖ عدم التطرق إلى تعبدهم بتعذيب الأجساد وإحراقها.
- ❖ عدم التطرق إلى معبوداتهم عموماً ومعبوداتهم من الحيوانات خصوصاً، وخاصةً البقر لدى البراهمة حيث إنه لم يتعرض له إلا بإشارة يسيرة، مع أن هذه من القضايا المهمة لدى الهندوس.

(١) انظر البدء والتاريخ (٩/٤-١٩). وأما المقدسي هذا فاسمه: مطهر بن طاهر، مؤرخ، من آثاره: البدء والتاريخ في ستة أجزاء، انظر ترجمته فيما ذكره الزركلي في الأعلام (٨/١٥٩)، وعمر رضا كحالة: معجم المؤلفين (٣/٨٩٠-٨٩١).

(٢) انظر الفهرست ص (٤٨٤-٤٩٠).

(٣) انظر لمعرفة المزيد ما ذكره محمد بن ناصر بن صالح السحيباني: منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ص (٦٣٣-٦٥٠).

- ❖ جعله أصنام الهندوس على أنها نائبة مناب المعبود وقائمة مقامه لا أنها هي الآلهة المعبودة، ومعلوم أن الأمر ليس على إطلاقه لدى الهندوس.
- ❖ مسألة حقيقة «براهم»، حيث ذهب المؤلف إلى أنه رجل منهم انتسبوا إليه، وسموا براهمة لذلك، هذا القول وإن ذهب إليه ابن حزم^(١) والمسعودي^(٢)، إلا أن هذه المعلومة غير صحيحة لدى القوم.
- ❖ عند تطرقه لبيان الفرق الهندوسية غير أسماء الفرق المشهورة حتى يكاد القارئ يجزم أنها غير موجودة الآن^(٣). وعند إمعان النظر في بعض الفرق المذكورة يظهر جلياً أن بعض هذه الأسماء محرفة من أصل هذه الفرق، فمثلاً ذكر المؤلف فرقة الباسنوية^(٤)، وهي نفس فرقة فُشنُوية، وذكر فرقة المهاديونية، وهي نفس فرقة شينقاوية، وذكر فرقة المهاكالية، وهي نفس فرقة «شاكتيا» التي تعبد الإلهات مثل كالي، وأوما، وفاريتي وما إلى ذلك، ولكن المؤلف غير في أسمائها، ثم إن كثيراً مما ينقله المؤلف تنقصه الدقة في التحرير أيضاً.
- ❖ جعل الفرق كلها تابعة للمعبودات، مع أن الفرق الهندوسية كلها ليست تابعة من أجل إله معين، وإنما لفلسفة معينة وعرق معين أو مكان معين، فقد تجد مجموعة من الناس في مكان معين تعبد مجموعة من الآلهة، وتجد في مكان آخر غيرها، فليست الفرق كلها تابعة من عبادة إله معين أو عدم عبادته.
- ❖ جعله كوكب «زحل» عند الهندوس من السعد الأكبر، مع أنه عند البيروني^(٥) من الكواكب النحسة لديهم على الإطلاق.

(١) انظر الفصل (١/١٣٧).

(٢) انظر مروج الذهب (١/٧٦).

(٣) كما فهم منه الدكتور محمد بن ناصر بن صالح السحيباني: منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ص (٦٤٥).

(٤) انظر ص (٧١٧).

(٥) انظر تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص (٥١٥).

❖ جعله إنكار النبوات من صميم عقيدتهم المهمة وقد أورد عنهم أدلة على استحالة إرسال الرسل، ثم لم يرد عليهم إلا بكلمات يسيرة، مع أن المسألة طال حولها النقاش لديهم، وهو يتطلب المزيد من الردّ.

٧- الموسوعة العربية العالمية، هذه الموسوعة من الأعمال العظيمة التي ألفها مجموعة من العلماء، وقد بذل هؤلاء العلماء في جمع هذه الموسوعة جهداً عظيماً، فقد دُرِسَ فيها كثيرٌ من الفلسفات الهندية، كما درس معظم الآراء الاعتقادية الهندوسية، ولكنها تخلو من التوثيق والمصادقية، فكثير مما ذكر في هذا الباب لا يوافق ما لدى الهندوس من المعتقدات، فلعل القائمين على الموسوعة تصرفوا في هذه المعلومات حسب فهمهم، كما لم يوقفوا في ضبط المصطلحات الهندوسية.

وبالجملة: هي أعمال جيدة، ولكنها معلومات مبعثرة، كما هو شأن الموسوعات.

٨- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة الدكتور مانع بن حماد الجهني رَحِمَهُ اللهُ طبعة الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

فقد ذكر في المجلد الثاني ثماني صفحاتٍ مركزة عن الديانة الهندوسية، إلا أنه عمل موسوعي عام لم يذكر إلا الخطوط العامة، ولم يذكر عقائدهم إلا نزرًا، ولم يوفق في ضبط كثير من المصطلحات، ولم يذكر شيئاً عن كتب البرانات الهندوسية، ولا عن فلسفاتها، كما لم يتطرق إلى فرقها ومذاهبها، ولا علاقتها مع المسلمين، كما لم يدرس كتبها ولم يأت بشيء عنها، وهو عمل مختصر ربما يكفي للمبتدئين ولكنه لا يشفي غليل المختصين.

هذه هي أهم الدراسات عن الديانة الهندوسية في كتب المقالات والملل والنحل وفي كتب الموسوعات باللغة العربية من قبل المسلمين، ولما كانت مثل هذه الكتب غالباً لا تتخصص في مجال معين لا نجد فيها دراسة وافية كافية للديانة الهندوسية.

الفرع الثاني: دراسات تناولت بعض الجوانب المهمة من الديانة الهندوسية باللغة العربية:

يوجد هناك جملة من المؤلفات في هذا النوع، ويمكن تصنيفها على النحو الآتي:
دراسات تناولت الرد على إنكار النبوات لدى البراهمة:

١ - أول كتاب في هذا المجال ما ألفه الإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ اللهُ المتوفى سنة ٢٠٤ هـ، حيث ينسب إليه كتاب «تصحيح النبوة والرد على البراهمة»^(١).

إلا أن هذا الكتاب في عداد المفقودات.

٢ - تثبت دلائل النبوة، للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني الأسدأبادي، أبو الحسين، أصولي، معتزلي، توفي سنة ٤١٥ هـ^(٢).

٣ - أعلام النبوة، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي رَحِمَهُ اللهُ.
دراسات تناولت مسألة التناسخ :

١ - الرد على أصحاب التناسخ^(٣) للنوبختي.

٢ - تناسخ الأرواح: مصطفى الكيك، وهو كتاب فيه خرافات عجيبة وغريبة، لم يوفق في الرد على عقيدة التناسخ كما ينبغي.

٣ - التقمص لأمين طلع، وهو مثل الذي سبق.

(١) ذكر نسبة الكتاب إلى الشافعي رحمه الله عبد القاهر البغدادي في كتابه أصول الدين ص (٣٠٨).

(٢) انظر ترجمته فيما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١١٣/١١)، والذهبي: سير أعلام النبلاء (١٧/٢٤٤)، وابن حجر: لسان الميزان (٣/٣٨٦).

(٣) ذكره ابن النديم في الفهرست ص (٢٥١)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٥/٣٢٧)، والبغدادي في هدية العارفين (٥/٢٦٨).

٤- تناسخ الأرواح أصوله وآثاره وحكم الإسلام فيه، للدكتور محمد أحمد الخطيب، الأستاذ المشارك في قسم العقيدة والدعوة كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، والكتاب جيد في بابه، لم يكتب أحد مثله - حسب علمي - في هذا المجال.

دراسات تناولت فلسفات الهند :

- ١- الفلسفة في الهند^(١)، (الفلسفات الهندية) لعلّي زيعور.
- ٢- فلسفة الهند القديمة، للأستاذ محمد عبد السلام، فقد بدأ في كتابتها بمجلة ثقافة الهند ثم جمع في مؤلف^(٢).
- الفرع الثالث: كتب العقيدة والتاريخ عمومًا التي تناولت بعض الجوانب المهمة من الديانة الهندوسية باللغة العربية:
- ١- أصول الدين، لأبي منصور البغدادي، حيث تناول مسألة «هل المتواتر يفيد العلم»، ومسألة «التكليف عند البراهمة»، كما تناول مسألة «إرسال الرسل»^(٣).
- ٢- التمهيد في الرد على الملاحدة والمعتلة والخوارج والمعتزلة، للقاضي أبو بكر الباقلاني، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، من كبار علماء الكلام، توفي سنة ٤٠٣هـ^(٤)، حيث تطرق إلى مسألة «إنكار الرسل والردود على شبهات منكريها».
- ٣- الإعلام بمناقب الإسلام، لمحمد بن يوسف العامري النيسابوري، أبو

(١) هكذا العنوان في الطبعة الجديدة.

(٢) إلا أنني لم أعر عليه بشكل كتاب، وإنما استفدت مما كتبه في مجلة ثقافة الهند.

(٣) انظر ص (١١)، (١٩)، (٢٦)، وص (١٥٤).

(٤) انظر ترجمته فيما ذكره ابن خلكان: وفيات الأعيان (١/ ٤٨١)، والذهبي: سير أعلام النبلاء

(١٧/ ١٩٠)، والزركلي: الأعلام (٦/ ١٧٦).

الحسن، عالم بالمنطق، توفي سنة ٣٨١هـ^(١).

٤- كتاب البدء والتاريخ، للمطهر بن طاهر المقدسي، فقد تكلم في هذا الكتاب عن عدة أمور عن الديانة الهندوسية، منها: الرد على قولهم بقدّم العالم^(٢)، والتناسخ^(٣)، كما ردّ عليهم في مسألة إرسال الرسل، وتناول فرقهم مجملًا^(٤)، كما تطرق إلى بيان عبادتهم للبقرة والحيوانات^(٥).

٥- مروج الذهب، للمسعودي، تطرق إلى الديانة الهندوسية في هذا الكتاب من عدة أوجه، حيث ذكر جملة من أخبار الهند وآرائها وبدء ممالكها وملوكها^(٦)، وعن نهر غنغا الذي يسمّيه جنجس^(٧)، واضطراب بحر الهند وهدوئه^(٨)، وذكر بعض عوائد أهل الهند^(٩)، وحروب إسكندر بأرض الهند^(١٠)، وجه تسمية الهند والسند بهما^(١١)، والبيوت المعظمة والهيكل المشرفة وبيوت التيران والأصنام وأسباب عبادة أهل الهند للأصنام والكواكب، وأنهم الصابئة، وبيان بيت للعبادة بالهند^(١٢).

(١) انظر ترجمته فيما ذكره ياقوت الحموي: معجم الأدباء (١/٤١١)، والزركلي: الأعلام (١٤٨/٧).

(٢) انظر (١/١١٥-١٦٠).

(٣) انظر (١/١٩٦-١٩٩).

(٤) انظر (٤/٩-١٠).

(٥) انظر البدء والتاريخ (٤/١٢).

(٦) انظر (١/٦٧-٧٤).

(٧) انظر (١/٨٩)، و(١/١٧٧).

(٨) انظر ص (١/١٢٧).

(٩) انظر (١/١٤٩-١٥٠)، (١/١٧٨-١٨٠).

(١٠) انظر (١/٢٥٥-٢٦٠).

(١١) انظر (١/٤٥٥).

(١٢) انظر (١/٥٣٣-٥٣٥)، وص (١/٥٤١-٥٤٣).

٦- الفهرست، للنديم^(١)، المتوفى سنة (٣٨٥هـ)، فقد خصص في كتابه جزءاً من المقالة التاسعة للحديث عن الهند، فتحدث عن بعض بيوت العبادة في الهند، كما تحدث عن بعض الفرق الهندوسية، وجعل الديانة الجينية تحت مسمى «البكرنتية»، وجعل الذين يردون نهر غنغا فرقة مستقلة وسماها بـ «الكنكاياترة» والكلمة تعني: الذهاب إلى غنغا، مع أن الذهاب إلى غنغا عبادة لكل هندوسي، وجعل فرقة الراجبوت تحت اسم «الراحمرينة»، وسماهم شيعة الملوك، وجعل هناك فرقة لعبادة الشمس، وسماها بـ «ملة الدينكيتية» وهم فرقة شورو حالياً، وأما عباد القمر فسماهم بـ «الجنديكهكنية»، وكلمة جندر معرب چندر والتي تعني: القمر، ثم نسب إليه الفرقة التي تعبد، وسمى الفرقة التي تعبد كالي أو فرقة شاكتي بـ «المهاكالية»^(٢) وقد نقل الشهرستاني هذه الفرق وزاد عليها بعض الشيء كما سبق معنا.

٧- الهند القديمة حضاراتها ودياناتها، للدكتور محمد إسماعيل الندوي، فقد بين المؤلف تاريخ الهند بإسهاب، كما تحدث عن عقائد الدراويد والآريين وما طرأ على كل منهم من التغيير والتبديل، وعلاقة الهند بالدول المجاورة من اليونان والغرب والعرب وإيران والصين وما إلى ذلك، كما تحدث عن بعض آلهة الدراويد والآريين ومشابهتها بآلهة الآريين الآخرين في الدول الأخرى.

وأما كتب العقائد والتاريخ العام التي ذكرت أو أشارت إلى نسبة بعض العقائد إلى البراهمة فقد تركتها لعدم الفائدة في ذكرها؛ فإن في نسبة كثير من هذه المسائل إليهم تجوزاً وتحاملاً ووهماً.

(١) المعروف بابن النديم، وإنما هو النديم، انظر ما ذكره محمد ناصر السحبياني: منهج الشهرستاني في الملل والنحل ص (٢٤٥) هامش.

(٢) انظر ما ذكره النديم: الفهرست ص (٤٨٤-٤٩٠).

الدراسات الخاصة بالديانة الهندوسية بغير اللغة العربية:

أما الدراسات باللغات المحلية من شبه القارة الهندية الخاصة بالديانة الهندوسية فهي قليلة، من أهمها:

١ - تحفة الهند، للشيخ المهدي عبيد الله الفائي المتوفى سنة (١٣١٠هـ)^(١)، وهو من العلماء الذين لهم جهودٌ مشكورة في مناقشة الديانة الهندوسية، هدى الله بكتابه هذا خلقاً كثيراً من عباده ورجالاً ذوي شأنٍ من الوثنيين والبراهمة في الهند، والكتاب باللغة الأردية، وهو مطبوع بمطبعة مكتبة حنفية بباكستان.

وهذا الكتاب مع جلالة قدر المؤلف اعتمد فيه كثيراً على الكتب الهندوسية المتأخرة وهي مع صحة الاستدلال بها يمكن لأيّ هندوسي أن ينكرها بحجة أنها قصص وأساطير للعوام وليست لها حقائق، ومع ذلك غير موثقة في أغلب الأحيان، ولكنه وفق في نصرته الإسلام وبيان حسنه وجماله.

٢ - لما ذا أسلمت، للشيخ المهدي أبو الحسين بتراسارزا رَحِمَهُ اللهُ.

كتب المؤلف هذا الكتاب باللغة البنغالية بعد ما اعتنق الدين الإسلامي، وحيث إنه كان من أولاد البراهمة تعرف على كثير من أسرار الديانة الهندوسية، وكان لديه إلمام كبير بكتب القوم ولهذا جاء نقده عن علم وبصيرة لما في كتبهم من الخزعبلات والفساد، وقد وفق المؤلف في رفع راية الإسلام في كتبه كلها.

(١) هو الشيخ العالم الصالح: عبيد الله السلفي الفائي صاحب تحفة الهند، كان اسمه في الجاهلية انت رام واسم أبيه كوتي مل، من الله سبحانه عليه بالإسلام، وأظهر إسلامه سنة ١٢٦٤هـ ببلدة «مالير كوتله» وصلى بالجماعة في المصلى يوم عيد الفطر، وحسن إسلامه، وصنف رسالة لطيفة في تحقيق ديانة الهندوس سنة تسع وستين ومائتين وألف (١٢٦٩هـ) تسمى بتحفة الهند، فهدى الله بها خلقاً كثيراً، توفي سنة (١٣١٠هـ). انظر ما ذكره عبد الحي الحسني: نزهة الخواطر (١٢٩٩/٣).

دراسات تناولت بعض الجوانب المهمة للديانة الهندوسية بغير اللغة العربية:

لقد كتب علماء المسلمين في الهند ردودًا عديدةً على آراء الهندوس ومعتقداتهم^(١)، كما ذكروا ما تأثر به المسلمون من عادات الهندوس وتقاليدهم، ومنها على سبيل المثال:

١ - ما قام به شيخ الإسلام، فاتح قاديان، الشيخ ثناء الله الأمرتسري رَحِمَهُ اللهُ^(٢)، حيث قام بالرد على الفئة الآرية (آريا سماج)^(٣)، وأفحمهم وردّهم على وجوههم خائبين، وقد أُلّف في ذلك عشرات الكتب باللغة الأردية، من أهمها:

❖ حق پرکاش (إظهار الحق) في الرد على الهندوسي «ديانند سرسفاتي» الذي قام بأخطر حركة هندوسية التي عرفت باسم «شدهي» أو التطهير،

(١) يُقال: إن الكتب التي نقدت الملة الهندوسية بلغت مؤلفاتهم في هذا المجال ما يزيد على ستة وثلاثين مؤلفًا، وذكر من أهمها من غير الشيخ ثناء الله الأمرتسري رحمه الله ثلاث كتب لبعض فضلاء أهل الهند، وهي:

١ - الإسلام والهند والدول الإسلامية للشيخ نذير الكشميري. طبع سنة ١٩٧٧ م.

٢ - الإسلام والبرهمية والتفرق - للمؤلف نفسه - .

٣ - ثمرات التناسخ للقاظمي محمد مجهلي شهري المتوفى سنة ١٣٢٠ هـ، ولم أطلع على أي منها.

انظر: موقع الإنترنت للشيخ ربيع بن هادي المدخلي حفظه الله.

(٢) هو الشيخ الإمام شيخ الإسلام والمسلمين أبو الوفاء ثناء الله الأمرتسري الكشميري رحمه الله، من أبرز وأشهر علماء الهند السلفيين، له مؤلفات في التفسير والحديث والفقه، ومن العلماء المختصين في علم الأديان، معروف بمناظراته مع القاديانية والآرية والجماعات الصوفية والمذهبية المتعصبة مع علمه الغزير وذكائه المفرط. توفي سنة ١٣٦٧ هـ. انظر ترجمته فيما ذكره الشيخ عبد اللطيف شيخ بن عبد الرشيد شيخ: الشيخ أبو الوفاء ثناء الله الأمرتسري وجهوده في مقاومة الأديان والفرق الضالة، رسالة ماجستير مقدم في قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وانظر أيضًا ما ذكره الزركلي في الأعلام (٢/ ١٠١).

(٣) سيأتي التعريف بهم في الباب الثاني.

وقصده بذلك: إخراج المسلمين من الإسلام إلى الديانة الهندوسية بحجة أنهم كانوا هندوسيين ولا بد لهم من أن يبقوا هندوسيين، ونادى بالتمسك بالقيادات وحدها، وافترى على القرآن الكريم وزعم نقده ونقضه بكتاب سمّاه: (ستيارته برকাশ) فألف شيخ الإسلام ثناء الله الأمرتسري رَحْمَتُهُ هذا الكتاب لردّ مزاعمه وأفحمه وجماعته فلم يستطع أحد أن يرد على ما ذكره الشيخ رَحْمَتُهُ رحمة واسعة وأسكنه في فسيح جناته.

❖ إلهامي كتاب (الكتاب الإلهامي)، هذا الكتاب هو تقرير للمناظرة التي جرت بين الشيخ الأمرتسري رَحْمَتُهُ وبين (أتمارام) إمام الآرية في المناظرات حول موضوع الإلهام، هل القيادات ملهمة أم لا، حاول (أتمارام) إثبات ذلك، ونفي كون القرآن ملهمًا، وقد ردّ عليهم الشيخ الأمرتسري بما لا مزيد عليه.

❖ بحث تناسخ (بحث التناسخ)، هذا الكتاب تقرير للمناظرة التي جرت بين الشيخ الأمرتسري رَحْمَتُهُ وبين الأستاذ (أتما رام) الأمرتسري إمام الآرية في المناظرات حول التناسخ، فأبطل الشيخ ادعاءات الآرية بالأدلة العقلية حول التناسخ، وأفحمه حتى ترك المناظرة.

❖ تُرك إسلام برترك إسلام (غزو الجيوش الإسلامية على ترك الإسلام)، كان هذا ردًا على دهرمبال الآري الذي ارتد عن الإسلام ودخل في الآرية، وحاول أن يقدر في القرآن الكريم بكتابات، فرد عليه الشيخ وأفحمه، وأرجعه إلى الإسلام.

❖ نماز أربعة (الصلاة في الديانات الأربعة)، هذه مقارنة بين الأديان الأربعة، الآرية، النصرانية والهندوسية والإسلام في الصلاة، وإثبات أفضلية الصلاة عند المسلمين على غيرهم.

❖ حدوث دنيا (حدوث الدنيا)، هو تقرير عن المناظرة التي جرت بين

الشيخ وبين الكاهن الهندوسي (وزير شاند) مدير مجلة (آرية مسافر)، وشمل الرد على عقيدة الآرية في قدم الدنيا التي ينون عليها عقيدة التناسخ.

❖ حدوث ويد (حدوث الفيدات)، هو في الرد على اعتقاد الآرية على قدم الفيدات، وأثبت فيه أن الآرية لا يوجد لديهم أي دليل على ذلك مطلقاً.

❖ نكاح بيوه ونيوك (نكاح الأرامل والاستبضاع)، ألف الشيخ هذه الرسالة للرد على عقيدة الآرية في رأيهم عدم جواز نكاح الأرامل المدخولة بهن بخلاف غير المدخول بهن، فردّ عليهم الشيخ على هذا التفريق، مع أن الهندوسية الأم ترى عدم ذلك مطلقاً.

❖ رسول مقدس (الرسول المقدس ﷺ)، دافع فيه الشيخ عن الرسول ﷺ، وعن أزواجه المطهرات، وعن قضية تعدد الزواج للرسول ﷺ، وقد أثنى العلماء على هذا الكتاب، وهو حري أن ينشر باللغات العالمية الأخرى.

هكذا كان الشيخ الأمرتسري رَحِمَهُ اللهُ إماماً مجاهداً عالماً مناضلاً دافع عن الإسلام وعن كتابه ونبيه ﷺ وهو حريٌّ بأن يلقب بشيخ الإسلام^(١).

ويلاحظ أن هذه الردود كانت ضد فرقة الآرية، وهو مع كونه عالماً بالديانة الهندوسية لم يؤلف كتاباً في الرد على معتقدات الهندوسية، ولا على كتبهم المليّة إلا ما جاء في ثنايا كتبه من الرد العام على الآرية عند استشهاده ببعض نصوص كتب الهندوس المقدسة، ولعل ذلك يرجع إلى عدم التفرغ لهذا العمل؛ لأن هجمات الفرقة الآرية

(١) وله كتب أخرى في الرد على الآرية، بلغ عددها إلى ٣١ كتاباً، مع ما له من المقالات في الصحف والمجلات والجرائد، ومع المراسلات وما إلى ذلك. انظر لمزيد من الاطلاع رسالة الأخ الفاضل عبد اللطيف شيخ بن عبد الرشيد شيخ: الشيخ أبو الوفاء الأمرتسري وجهوده في مقاومة الأديان والفرق الضالة من ص (٣٣٨-٤٩٤).

كانت شرسة إلى درجة لم يجد الشيخ بداً من الرد عليهم ردًا مقنعًا.

٢- ما قام به العالم البنغالي، منشي محمد مهر الله رَحِمَهُ اللهُ؛ فإنه لما رأى الحملة الشرسة من قبل المنصرين في أيام الاستعمار ورأى الهندوس متزامنين مع الاستعمار، ومفترين على الدين الإسلامي قام بكل ما لديه من إمكانات أمام هذه التحديات، فألف كتبًا عديدة باللغة البنغالية في الرد على الديانات الأخرى، فمما ألف في الرد على بعض العادات الهندوسية وتقاليدها ما يلي:

❖ هندو دهارما روهوشو وديو لिला (حقيقة الديانة الهندية والأعمال الخبيثة لألهتهم).

❖ بيدهبا غنجنا وبيشاد بهاندار (شكاوى الأرامل وأحزانهن).

٣- ما قام به الشيخ إمام الدين رام نغري رَحِمَهُ اللهُ فقد عكف على كتابة الردود على الهندوسية والبوذية طيلة حياته بالأردية والهندية، وتأثر بكتاباته كثير من الشباب الهندوس، فمنهم من هداه الله إلى الإسلام، وقد توفي سنة (١٩٨٤م)^(١)، ومن أهم كتبه:

❖ أوتار أور عقيدة رسالت. (عقيدة أفتار وعقيدة الرسالة).

❖ دلائل القرآن بجواب ديانندي افتراء وبهتان، (دلائل القرآن في جواب افتراءات ديانند وبهتانه على القرآن).

❖ آواگمن كا تحقيق جائزة، (تحقيق القول في التناسخ).

❖ عقيدة آخرت كى عقلي دلائل (الدلائل العقلية على الآخرة).

٤- ما قام به المهتدي أبو الحسين باتراسارزا، حيث ألف كتبًا عديدة باللغة البنغالية في الرد على تقاليد الهندوس وعقائدهم، من أهمها:

❖ مورتى بوجار غورار كاتها (الكلام عن أصل عبادة الأصنام).

(١) انظر ما ذكره الدكتور الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٣٥).

❖ إتيهاس كاتها كاي (التاريخ يتكلم).

❖ تهاكور مار شارغا جاترا (سفر آنسة البرهمية إلى جنة الهندوس).

- ٥- ما ذكره المهتدي الدكتور إسلام الحق رَحِمَهُ اللهُ، حيث ألف كتاباً مهماً باللغة الأردية في مسألة الوحي يكاد يكون هو فيصل الكلام بين الإسلام والهندوسية في هذا الباب، وهو كتاب: ليجيى آب بهي سوجيى (خُذ، وفكّر أنت أيضاً).
- ٦- ما كتبه الدكتور سيد عبد الله طارق، حيث ألف كتاباً^(١) عن الديانة الهندوسية، من أهمها ما حرّره الأستاذ من أفكار شمس نويد عثمانى عن الهندوسية وسماه: «أگر آب بهي نه جاگى تو...»، وهو كتاب مهم باللغة الأردية يتحدث عن قضايا عديدة في الديانة الهندوسية، ولكنه صاحب تخيل واسع، يتخيل أشياء كثيرة، منها: كون الصابئة هم أهل الهند، وأن نوحاً عليه السلام كان مرسلًا إلى أهل الهند، وأن المقصود بـ«زير الأولين» المذكور في القرآن: كتب الهندوس المقدسة، كما يرى خرافة النور المحمدي، وأنه ﷺ هو «أغني» الموجود في القيدات وما إلى ذلك، وله تجاوزات عجيبة في ترجمة فقرات القيدات، لا يسلم له الهندوس بها، وتوسّع في التوفيق بين الهندوسية والإسلام ما لا يقرّ به الإسلام.

هذه أهم الدراسات عن الديانة الهندوسية وطبيعتها، وهناك دراسات أخرى فهي لا تخلو أن تكون مأخوذة منها أو غير موثقة فلا يعول عليها.

شكر وتقدير

قال تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْبَ غَنَىٰ كَرِيمٍ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال ﷺ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٥، الشعراء: ١٨٢]، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»^(١)، أشكر الله تبارك وتعالى على آلائه العظيمة ونعمه التي لا تعد ولا تحصى، وفي مقدمتها نعمة الإيمان، والإسلام وشرف الانتساب إلى طلب العلم الشرعي، لاسيما في مدينة الرسول ﷺ، وفي هذه الجامعة المباركة، فله الحمد من قبل ومن بعد.

ثم أتقدم بخالص الشكر والتقدير لجميع من له فضلٌ عليّ، وفي مقدمة ذلك والديّ - حفظهما الله - فقد أسهما في غرس محبة العلم وأهله في نفسي، وشاركا في توجيهي إلى منهج السلف الصالح في الاعتقاد والعمل، والذي كان له الأثر الواضح في تحقيق هذا الجهد وإخراجه في شكل رسالة علمية، فجزاهما الله خير ما جزى والدًا عن ولده، ومتعهما بالعافية وغفر لهما ورفع درجاتهما، إنه جواد كريم.

ثم أخص بالشكر الجزيل شيعي وأستاذي فضيلة الأستاذ الدكتور سعود بن عبد العزيز بن خلف الخلف - حفظه الله - لأجل إحسانه علي بقبول الإشراف ولتضحيتة بكثير من وقته الغالي النفيس ولتعهدي ومتابعتي خطوة خطوة، أثناء عملي في إعداد هذا الكتاب، وصبره على ذلك، كما أشكره على إرشاداته المخلصة، وتوجيهاته القيمة،

(١) أبو داود في سننه: كتاب الأدب، باب: في شكر المعروف (٤/ ٢٥٦)، برقم (٤٨١١)، والترمذي في سننه: كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، برقم (١٩٥٤)، (٤/ ٢٩٨). وقال حديث حسن صحيح، ورواه الطيالسي في مسنده ص(٣٢٦). وأحمد في المسند: (٥/ ٢١٢)، وابن حبان في صحيحه (الإحسان) (٥/ ١٧٣). والبيهقي في الكبرى (٦/ ١٨٢)، وقد صححه الشيخ الألباني في تخريج المشكاة برقم (٣٠٢٥).

وملاحظاته السديدة، ورعايته المخلصة، فلولا لطف الله ثم جوده الطيب وكرمه الواسع بجميع ما أوتيت له من سبلٍ لما تمكنت من إنجاز هذا الكتاب، فيعلم الله كم من الأماكن أملئ عليّ الشيخ من علومه، وصحح لي عُجمتي نطقاً وكتابةً، وأعار لي من مكتبته العامرة المصادر والمراجع النادرة، واشترى لي كثيراً منها في سفره وإقامته، فجزاه الله عني خير الجزاء، وأجزل له المثوبة وختم له بالصالحات، وجعل هذا العمل في ميزان حسناته يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وأشكر القائمين بالجامعة الإسلامية وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين - حفظه الله - وهذه الدولة المباركة الرشيدة، التي أنشأتها ورعتها، وأهدتها للعالم الإسلامي، فجزاهم الله خير الجزاء ووفقههم لكل خير.

كما أخص بالشكر شيخي الوالد معالي مدير الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة صالح بن عبد الله العُبود - حفظه الله - الذي حفني بحبه وكرمه طوال هذه السنوات كلها، فنعم الوالد لطلاب الجامعة، أسأل الله ﷻ أن يتقبل مني ومنه صالح الأعمال، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وفي الأخير أشكر كل من ساعدني في إنجاز هذا الكتاب من المشايخ والإخوة والزملاء، وأخص من المشايخ الكرام: الشيخ الأستاذ الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي - حفظه الله - الذي فتح لي قلبه ومكتبته بصدر رحب في حلّ كل ما أشكل عليّ، فجزاه الله خير الجزاء، كما لا يفوتني أن أشكر شيخي الدكتور محمود بن عبد الرحمن قذح - حفظه الله - الذي تابع الموضوع من البداية وساعدني في وضع الخطة وترتيبها كما أشكره على إعارته الكتب القيمة، ومساعدته في كل ما طرأ عليّ أثناء البحث، فجزاه الله خير الجزاء، وأجزل له المثوبة.

وبعد، فهذا عمل البشر فهو متعرض للخطأ والصواب فما كان فيه من الهدى والصواب فهو من الله ﷻ وحده وما كان فيه من خطأ فمن الشيطان، وأستغفر الله ربي وأتوب إليه وهو حسبي ونعم الوكيل.

وَأَسْأَلُ اللَّهَ الْمَوْلَى الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ أَنْ يَقْبَلَهُ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ
وَيَغْفِرَ زَلَاتِي وَسَيِّئَاتِي وَهَفَوَاتِي وَهُوَ جَوَادُ كَرِيمٍ .

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِينَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

تمهيد

في بيان نبذة عن شبه القارة الهندية تأريخياً، وجغرافياً، واجتماعياً، ودينياً.

وتحتة مطلبان

المطلب الأول: تاريخ شبه القارة الهندية وجغرافيتها، وتحتة فروع:

الفرع الأول: نبذة عن شبه القارة الهندية.

الفرع الثاني: لمحة عن جغرافية الهند وتاريخها.

الفرع الثالث: بيان سكان الهند الأصليين.

الفرع الرابع: وفود الآريين إلى بلاد الهند.

الفرع الخامس: امتزاج أهل الهند بالآريين.

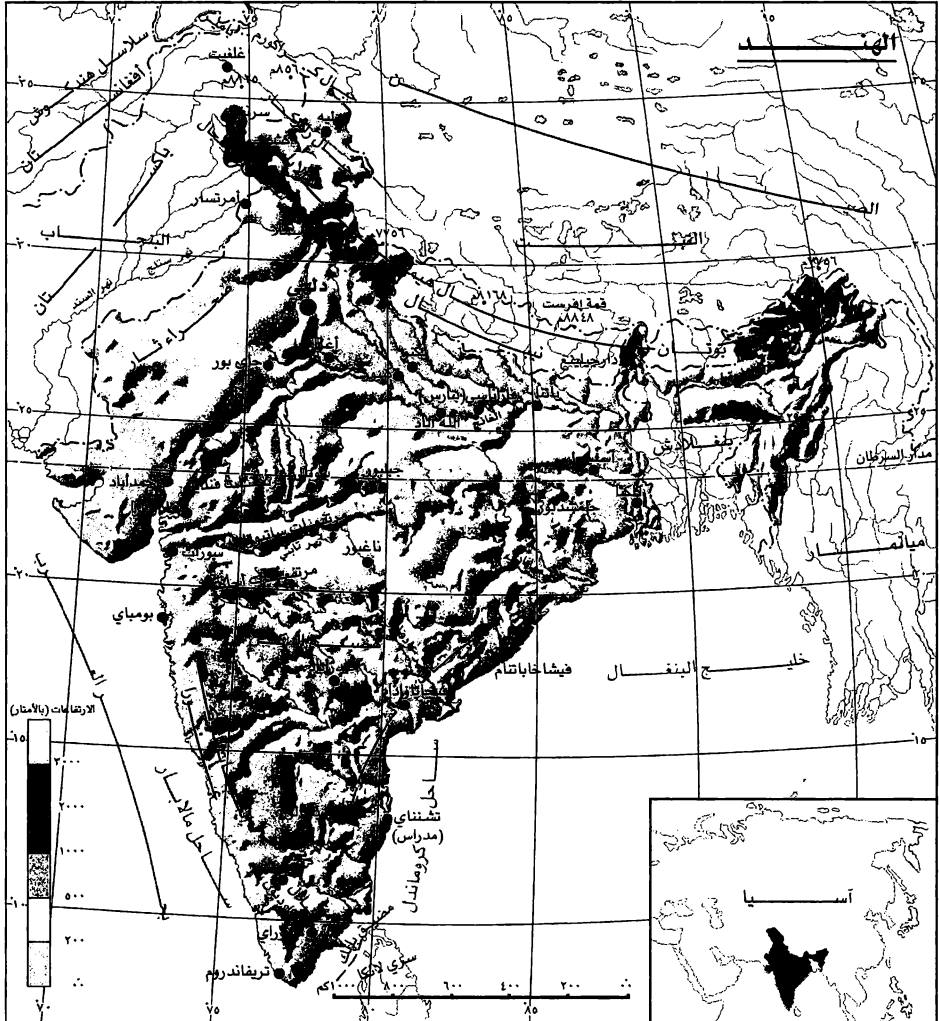
المطلب الثاني: في بيان أحوال أهل شبه القارة الهندية، وتحتة فروع:

الفرع الأول: الحالة السياسية.

الفرع الثاني: الحالة الاجتماعية.

الفرع الثالث: الحالة الدينية.

خريطة شبه القارة الهندية



المطلب الأول

تاريخ شبه القارة الهندية وجغرافيتها

وتحتة فروع

الفرع الأول: نبذة عن شبه القارة الهندية

إن الهند عالمٌ متميز بطقسه وتضاريسه، وسكانه، يُخَيَّل إلى غير سكانها أرضًا لكل عجب، فكانت عُرضة للغارات الأجنبية منذ قدم الزمان، ولا يدخلها أجنبي إلا واستقر بها واستغل خيراتها استغلالاً محلياً، ومنهم من كان ينقلها إلى الخارج^(١).

وفيما يلي إشارة موجزة إلى جملة من الأمور التي تتعلق بالهند:

مصدر كلمة الهند:

وجد في مصدر كلمة «الهند» آراء متباينة، يمكن حصر تلك الآراء في الاتجاهات الآتية:
الاتجاه الأول: الذي يرى أن الكلمة مأخوذة من اسم نهر «إندوس»^(٢)، واختلفوا في سبب تسميته بالهند، فمنهم من يقول: إن كلمة السند مشتقة من الكلمة السنسكريتية (سياند) ومعناها: (يسيل أو ينساب) وكلمة (سندو) وهي اسم لنهر إندوس، ومن هنا أطلقت كلمة الهند على تلك المنطقة^(٣).

ومنهم من يقول: إن الكلمة مأخوذة من اسم نهر «إندوس» ولكنها أصبحت فيما

(١) من مقدمة غوستاف لوبون لكتابه حضارات الهند ص (٩).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) شريف الدين بيرزاده: نشأة باكستان ص (١٤).

بعد «هند» من كثرة الاستعمال^(١).

الاتجاه الثاني: يرى أن الهند مأخوذة من كلمة «السند»^(٢)، اسم المنطقة المعروفة في باكستان الحالية، واختلفوا في سبب تسميته بالهند، فمنهم من يرى أن السبب في ذلك أن أهل فارس واليونان كانوا يتجولون على سواحل «السند» ويغيرون حرف السين إلى الهاء، ويقولون: (الهند).... وأما أهل الإنجليزية فغيروا الهاء من الهند إلى الهمزة فقالوا: «اند» (Ind) وزادوا إليها (ia) للنسبة فصارت كلمة «اند»: إنديا (India)^(٣).

وقيل: إن كلمة السند كان يعرفه الفرس القدماء باسم (هندهو) أي النهر، جرياً على عادتهم بإبدال السين السنسكريتية بالهاء؛ وكان نفوذهم قبل غزو الإسكندر قد عم الجزء الغربي من هذه البلاد وتوغلوا فيه، وهؤلاء الفرس هم الذين أطلقوا اسم الهندستان (أي أرض الأنهار) على الشمال بأكمله من هذا الإقليم^(٤).

الاتجاه الثالث: اتجه القائلين إن أصل الكلمة فارسية، واختلفوا أيضاً على النحو التالي:

أنه أخذ من كلمة (هندو)، ومعناها باللغة الفارسية: اللصوص^(٥)، أو الداكن^(٦)،

(١) د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي في مقالته دراسات في الديانات الهندوسية، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد الثاني، السنة الثانية، شوال ١٣٨٩هـ.

(٢) أي مأخوذة منه عن كثرة الاستعمال.

(٣) انظر ما ذكره الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي في فصول في تاريخ الهند ص(١٧). ومقالة الدكتور نفسه في مجلة الجامعة الإسلامية العدد الثاني، السنة الثانية، شوال ١٣٨٩هـ بعنوان: دراسات في الديانات الهندوسية ص(١١٦).

(٤) انظر ما ذكره الدكتور محمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، ص(ز). وانظر ما ذكره ول ديورانت: قصة الحضارة (٣/ ٢١).

(٥) المصدر نفسه.

(٦) فيروز اللغات ص(٦١٥)، وانظر أيضاً: لغات سعيدي ص(٦٣٣)، نقلاً عما ذكره مرتين بالله فضلي في كتابه: Hinduism & Islam ص(١٧) باللغة الإنجليزية.

أو العبد^(١)، أو العلامة السوداء^(٢)، فقد قيل: إن الفرس لما عبروا الجبال القائمة على الحدود (والمعروفة اليوم باسم هندوكوش) أطلقوا على مواطني ذلك الإقليم اسم (هندو) نظراً لكونهم سمر اللون سمرة شديدة، وأطلقوا على البلاد اسم هندوستان - أي بلاد الهندو، إذ أن كلمة (ستان) تعني بلد أو موضع^(٣).

الاتجاه الرابع: اتجه القائلين الذين ذهبوا إلى أن كلمة هند مأخوذة من بعض الأشخاص أو الآلهة، واختلفوا في ذلك على النحو الآتي:

فمنهم من يقول: إن السند والهند كانا أخوين من ولد بوقير بن يقطن بن حام بن نوح^(٤)، وبعضهم يجعل مكران منها، ويقول: هي خمس كور، أولها من قبل كرمان مكران، ثم طوران، ثم السند، ثم الهند، ثم الملتان^(٥). ثم إن العرب كانوا يعدون السند والهند ملكين متصل أحدهما بالآخر... وأحياناً يطلقون اسم الهند على مجموعهما^(٦). ومن هنا عرفنا أن الهند ما سمي إلا باسم أحد أبناء أحفاد نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم.

ومنهم من يقول: إن كلمة (الهند) مأخوذة من اسم الإله (إندرا)^(٧).

ومنهم من يرى أن أصل هذه الكلمة (هندو) أو (إندو) أي القمر. سميت بذلك لتقرب أهلها إلى القمر بعبادتها^(٨).

(١) انظر ما ذكره أبو الحسين بتراسارزا في كتابه: لماذا أسلمت ص (١٧٤) باللغة البنغالية.

(٢) شريف الدين پير زاده: نشأة باكستان ص (١٤).

(٣) المصدر نفسه ص (١٤).

(٤) انظر ما ذكره القاضي أبو المعالي أطهر المباركفوري في كتابه: العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين ص (٣-٤).

(٥) انظر معجم البلدان (٢٥١/٥).

(٦) انظر ما ذكره القاضي أطهر المباركفوري في كتابه: العقد الثمين ص (٤).

(٧) انظر ما ذكره غوستاف لوبون في حضارات الهند ص (٢٥).

(٨) انظر ما نقله د. محمد نور الحق في مقالته: البرامكة، المجلة العربية، العدد الثاني، المجلد الثاني، ص (١٤٨)، صفر ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م. وعزا القول إلى المسعودي.

وهناك اتجاه خامس: يرى أن «هند» كلمة مركبة من كلمتين: «هي» مأخوذة من هملايا (اسم الكلمة: مركبة من كلمتي «هيم» و«ألاي»، وتكون المعنى: بيت الثلج)، وأخذ «اند» من منطقة «بندو سربرا»، والتي تسمى الآن بـ«كنا كوماري»، دلالة على أن هذه الدولة تمتد من هماليه إلى كنا كماري^(١).

حدود شبه القارة الهندية:

إذا أطلق كلمة «الهند»، فإنما يتبادر في ذهننا المناطق التي تحيط:
من جبال هملايا^(٢) من الشمال ممتدة إلى بلاد «كشمير» وإلى «بهوتان».
وفي الجنوب «كنا كماري».
وفي الغرب بلاد السند.
وفي الشرق «بورما».

فالبلد الذي يقع في هذه الأراضي الواسعة تسمى الهند.

ويرى الدكتور محمد الأعظمي: «أن بلاد الهند لم تكن معروفة بهذه السعة حسب الكتب الفيدية، فالهند الفيدية (Vedic India) هو ما كان بين بلاد كشمير إلى جزء من ولاية «أندرا برديش»، ومن بلاد «السند» إلى خليج «البنغال»، وأما ولايات جنوب الهند، وجزء كبير من ولاية «مهاراشترا» و«أندرا براديش» فلم تشملها الهند الفيدية^(٣).
وأما بالنسبة للتقسيم الحديث فإن الهند انقسمت إلى ثلاث دول رئيسة في الوقت

(١) من مقالة انترنتية:

«Origin of 'Hindu'»، at: http://www.hindunet.org/srh_home/1996_7/msg00387.html

(٢) هكذا ينطقه العرب، وهو قريب من أصل النطق، ويرى الدكتور محمد الأعظمي: أن النطق الصحيح: هماليا، ولعل النطق الأقرب من هذا: همالاي. انظر اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥١٩).

(٣) اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥١٩).

الراهن هي: الهند وبنغلادش، وباكستان، كما أن دولتي نيبال وبهوتان وجزءاً من بورما أيضاً تعتبر من شبه القارة الهندية^(١).

وتبلغ مساحتها مليونين من الأميال المربعة^(٢)، أو حوالي ٣,٨ مليون كم^٢، بالإضافة إلى جزيرة سيلان (Ceylon)^(٣)، وهو ما يعادل مساحة أوروبا مجتمعة باستثناء روسيا (Russia)، ولهذه المساحة الكبيرة سميت بشبه القارة الهندية، وبهذا تتوسط شبه القارة الهندية نصف العالم الشرقي^(٤)، حيث تمتد في جنوب آسيا من هضبة إيران (Iran) وأفغانستان (Afghanistan) في الغرب إلى شبه جزيرة الهند الصينية في الشرق، ومن جبال هماليا (Himalaya) في الشمال إلى المحيط الهندي في الجنوب، ويتكون القسم الجنوبي من هذه البلاد العظيمة من شبه جزيرة مثلثة الشكل لها سواحل في الغرب على بحر العرب، وسواحل في الشرق على خليج بنغال (Bengal)، وتطل على المحيط الهندي في الجنوب برأس بارز هو رأس كوماري (Cape Comari) الذي هو أبعد أجزاء الهند نحو الجنوب^(٥).

سكانها:

يمكن أن نقسم سكان الهند إلى مجموعات آتية:

أ- سكان الهند الأصليين.

ب- الدراويديين.

ج - الطورانيين.

(١) انظر ما ذكره عادل حسن غنيم، وعبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم في كتابيهما: تاريخ الهند الحديث ص(١٣).

(٢) انظر المصدر السابق ص(١٣).

(٣) انظر ما ذكره دولت أحمد صادق، ومحمد سيد غلاب، وجمال الدين الدناصوري: جغرافية العالم (٩٧/١).

(٤) لتكون هذه المواقع واضحة انظر خريطة الهند الملصق معه.

(٥) انظر ما ذكره أبو الليل محمد مرسي في كتابه: الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ص (٩).

د - الآريين.

هـ - المسلمين المهاجرين.

وسياتي بيان بعضها في فرع مستقل قريباً - إن شاء الله -.

ديانتها:

يوجد في الهند ديانات عديدة، من أشهرها: الهندوسية، والإسلام، والبوذية، والنصرانية، واليهودية، والجينية، والسيخ. وسياتي بيان هذه الديانات قريباً في المطلب الثاني بإذن الله تعالى.

الفرع الثاني: لمحة عن جغرافية الهند وتاريخها

سيكون الكلام فيه على قسمين:

القسم الأول: جغرافية الهند

إن شكل الهند الذي يرسمه الجغرافيون أشبه ما تكون بثمرة الكمثرى، وهي شبه جزيرة؛ لأن الهند جزيرة من بعض النواحي؛ لأن البحر يفصلها عن غيرها في الجنوب الغربي والجنوب الشرقي والجبال التي يكاد يتعذر اختراقها تفصلها عن العالم في الشمال، والشمال الشرقي والشمال الغربي^(١).

أراضيها من الناحية الطبيعية:

الهند عالم مستقل في الكون من الناحية الطبيعية، والهند بسبب الجبال والبحار التي تحيط به كأنه منعزل عن العالم، فبال همالاي يفصلها عن باقي القارة، وسواحلها فقيرة في خلعانها ومرافئها الطبيعية رغم أن بها أكثر من مائتي ميناء، لكن معظمها يخدم التجارة الداخلية ولا يقوم بدور كبير في التجارة العالمية.

وأما التقسيم الطبيعي فإن نظرة عابرة على الخريطة الهندية تهدينا إلى أنها منقسمة إلى ثلاثة أقاليم رئيسة:

الهند الشمالية.

الهضاب الشرقية والغربية.

الأراضي الجنوبية.

وتفصيل هذه الأقاليم كما يلي:

أولاً: (الهند الشمالية) مناطق في أحضان هملايا، وهي:

(١) انظر ما ذكره الندوي، محمد إسماعيل: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص (١١).

كشمير:

تقع ولاية كشمير كالعش على الطرف الشمالي للهملايا، وهي جنة الحدائق وأرض الأحلام التي تقطعها الأنهار والقنوات والجبال، وتغطيها الأزهار في فصل الربيع حتى تبدو الأرض كبساط سندسي مزركش، وتعلوها الثلوج في فصل الشتاء، وتنبت أرض كشمير فاكهة المناطق المعتدلة كالنفاخ والكرز.

ولايتا السند وبنجاب:

إن هاتين الولايتين من أحسن المناطق زراعة لما يصب نهر الهند (Sindus) فيهما. هناك مناطق جبلية متاخمة لحدود ولاية السند، وهي ليست شاهقة الارتفاع كجبال همالايا إلا أنها وعرة، وفيها عدد قليل من الممرات المهمة التي تساعد على العبور إلى الهند. وهذه الممرات والمناطق الجبلية لعبت دورًا كبيرًا في حضارة وادي نهر الهند (نهر السند المذكور سابقًا) لأن سكانها الجبلين هم الذين تدفقوا على المدن الخصبة واستولوا عليها، وأنشؤوا حضارات راقية، وقد قطن هؤلاء المناطق الجبلية الممتدة من بلوشستان (وهي تقع الآن في باكستان الغربية) وأفغانستان إلى جبل عيلم في إيران. ثم تدفقت أمم كثيرة قاطعة هذه الممرات الجبلية منها اليونانية، ثم الأتراك والمغول في العصور الإسلامية.

ولاية بنغال:

تعتبر ولاية البنغال الواقعة في الشمال الشرقي للهند المطلة على خليج بنغال من أهم الولايات الهندية وأخطرها شأنًا، وهي تنقسم الآن إلى قسمين: القسم الشرقي منها: بنغلادش، وعاصمتها: دكا، والقسم الغربي يدخل في إطار جمهورية الهند كأهم ولاية فيها، وفيها تقع أكبر مدينة هندية وهي كلكتا عاصمة المنطقة، ومركز الثقافة والتجارة والصناعة للهند أجمع.

ووسط حقول بنغال المنبسطة تجري الروافد السفلية لأعظم أنهار الهند المذكورة غنغا وبرهما پوترا، وأراضيها خصبة، وكثافة السكان كبيرة جدًا حتى لم يبق من الأرض

ما هو غير مأهول أو غير مزروع. ويعيش الفلاحون فيها على قطع من الأرض أصغر من أن تمنحهم المستوى الكافي للعيش والقرى تتزاحم وأينما سرت لا ترقب غير أناس يزاحم بعضهم بعضًا، فالأرض على شاطئ غنغا خصبة جدًا، ثم إن مياه النهر عميقة وسعته كبيرة مما يمكن القوارب النهرية من أن تحمل الحاصلات جيئةً وذهابًا.

مدينتا بنارس وأغرا:

تقع هاتان المدينتان الشهيرتان في ولاية أثار براديش، وتعتبر مدينة بنارس من أكبر المراكز الدينية للهندوس حتى الآن، وأنشئت مدينة بنارس على شكل مدرج في الضفة اليسرى من النهر غير بعيدة من الله أباد (مدينة الله)، وبنارس هذه هي المدينة المقدسة لدى الهندوس، وهي مركز الهند الديني وعاصمة البرهمية. وفي مدينة أغرا يقع أجمل وأروع مباني العالم (تاج محل) الذي يقع على شاطئ نهر (يامونا) جُمنا.

ولاية بيهار:

وعلى طول نهر غنغا وجُمنا تقع ولاية بيهار، وفيها مدينة غيا (Gaya) التي تقع على مسافة ٥٠٩ كيلومتر تقريبًا للشمال من كلكتا، نشر فيها بوذا تعاليمه.

دلهي العاصمة:

تقع دلهي أبعد شمالاً على شاطئ نهر جُمنا وسط الحقول الخصبة، وهي عاصمة الهند منذ القرون الغابرة، وقد بنيت عاصمة جديدة على مسافة أميال قليلة من المدينة أطلق عليها اسم دلهي الجديدة (New Delhi).

والمدينة القديمة كانت مركزاً مهماً بالنسبة للثقافة الإسلامية؛ إذ أنها ظلت عاصمة المسلمين قرابة ألف سنة، ولذلك بنيت فيها آثار إسلامية رائعة مثل المسجد الجامع والقلعة الحمراء.

ثانيًا: الهضاب الشرقية والغربية وأشهر المدن حولهما:

الدكن:

على الجانب الشرقي من الهضاب الغربية تبدأ أرض الدكن (أي الجنوب) وهي

الأخرى هضبة خصبة تمتد من الغرب إلى الشرق لمسافة مائتي ميل، ويبلغ ارتفاع الهضبة إلى الشرق مباشرة من الهضبات الغربية أكثر من ألفي قدم فوق مستوى سطح البحر. على أن هذا الارتفاع يقل تدريجياً مع اتجاهنا للشرق حتى يصل إلى مستوى سطح البحر عند الحافات الشرقية للمنطقة.

بونا:

وعلى الحافة الغربية للهضبة تقع مدينة (بونا) المركز الثقافي لغرب الهند، ويطلق على سكان تلك المنطقة (المراتا). وكون هؤلاء الآن ولاية خاصة باسم مهاراشترا وولاية أخرى مجاورة لها هي گجرات.

غوا:

وإذا درنا حول الطرف الجنوبي للهضبة سنصل إلى ولاية صغيرة يقال لها (غوا) التي كان البرتغاليون يملكونها بعد استقلال الهند، ثم فتحت بالغزو العسكري أيام رياسة نهرو، وهي تتضمن مدناً أخرى مثل دامن وديو.

وتقع غوا على حافة واحدة من غابات الهند المليئة بالأشجار العالية والنباتات المتعرشة والمستنقعات حيث لا يمكن لأحد أن يغامر باختراقها، وتنتشر هذه الأحرش هنا وهناك في الهند، ولكنها تختلف عن الغابات الصديقة الودود للإنسان والحانية عليه، وفي العصور القديمة أقام الإنسان المدارس في الغابات كما أقام أماكن يلجأ إليها بعيداً عن الضوضاء الصاخبة لدنيا العمل والعمال، ومن هذه المدارس التي أنشئت في العصور القديمة برز كثير من مفكري الهند.

بومباي:

هذه المدينة ثاني كبرى المدن الهندية بعد كلكتا، وحينما نجتاز جبل هندوكش ونمر بسماء كراتشي نصل إلى بومباي مدينة تجارية وصناعية كبرى، وهذه المدينة غزيرة الأمطار من يونيو إلى سبتمبر.

ثالثًا: الأرض الجنوبية وأشهر مدنها:

بين الهضاب الشرقية والغربية متجهة إلى الجنوب تقع مدينة حيدرآباد، أشهر مدينة علمية بجنوب الهند، وقد كانت ولاية إسلامية مستقلة حتى نهاية الاحتلال الإنجليزي، ثم ضمتها الهند إلى المركز عن طريق الغزو العسكري، وهي لم تزل تعد أشهر مدينة تطبع الكتب العربية النادرة وتوزعها على العالم الإسلامي كله. وفيها تقع مؤسسة دائرة المعارف العثمانية، وتعتبر هذه المدينة الآن عاصمة ولاية أندرا برديش.

مدراس:

هذه أكبر مدينة في جنوب الهند وتعتبر ثالث مدينة بعد كلكتا وبومباي، وتقع على ساحل الشرقي لخليج بنغال، وتقع في هذه الولاية أشهر المعابد الهندوكية، وأشهر هذه المعابد تقع في مدينة (ماتورا) (Madura) التي تعتبر أحد أهم المراكز الدينية للهندوس.

ميسور:

فإذا اتجهنا غربًا من مدراس دخلنا الولاية الناهضة المتقدمة ميسور مجتازين الجبال المغطاة بالغابات حيث لا تزال الفيلة تتجول وسط الأشجار، ونجد هذه الغابات ممتلئة بالوحوش المخيفة، وأن عاصمتها بنغلور تعتبر من أهم المدن الهندية ومصيف شهير لسكان الجنوب.

كيرالا:

تقع ولاية كيرالا في أقصى الجنوب الغربي على ساحل بحر الهند، وفيها عدد من المدن تتميز بخصوبتها وخضرتها، وفيها ميناء شهير يسمى كاليكوت الذي لعب دورًا كبيرًا في التجارة العالمية مع الشعوب العربية منذ القدم، والمنطقة التي يقع فيها هذا الميناء تسمى ملابار، تلك التي توافد عليها التجار العرب وأنشؤوا فيها جالياتهم قبل الإسلام، وزاد نشاطهم بصورة مذهلة بعد الإسلام.

وتعتبر (رأس كماري) أبعد نقطة إلى الجنوب من أرض الهند، وتقع عندها كل

مناطق الوثوب إلى جزيرة سيلان، وهذه هي التي تقص الأساطير إنها قد وجدت فقط للملكة سيتا - زوجة رام - الشخصية الأسطورية لقصة - رامين - تلك التي اختطفت من زوجها في إحدى جبال جنوب الهند وأخفيت في جزيرة سيلان^(١).

فهذه ملامح جغرافية الهند، وقد حاولت أن أذكر المدن القديمة المشهورة، وربما فاتني بعض المدن لعدم معرفتي بكل تفاصيلها القديمة والجديدة.

الجبال والأنهار:

في الهند جبال كثيرة، وخاصة في المنطقة الشمالية، وأشهرها سلسلة هملايا (Himalaya) أعظم وأعلى سلسلة جبلية في العالم، إن هذه السلسلة الجبلية تشبه حائطاً طبيعياً تفصل الهند عن غيرها في الشمال^(٢).

أما الأنهار: فهي كثيرة أيضاً أهمها نهر السند (أو نهر الهند) (Sindus) ويعتبر من أكبر الأنهار الهندية التي تتفجر ينابيعها من هملايا، ويبلغ طول مجراه (٢٩٠٠) كيلومتر، وفي الصيف حينما تذوب الثلوج في هملايا تحدث فيضانات عنيفة في هذا النهر، وعلى ضفاف هذا النهر قامت أقدم حضارة هندية.

ومن أهمها أيضاً: نهر نربدا، الذي ينبع في جبال أمر كتتك التي هي عقدة جبال الهند الوسطى، ويجري من الشرق إلى الغرب بسرعة نحو البحر، وذلك في مجرى ضيق عميق واقع بين سلسلة جبال «سات پورا» وسلسلة جبال «وندهيا»، ولا يصلح للملاحة لما فيه من الشلالات الكثيرة، ويبدو ذا مناظر ساحرة عند مضيق (صخور الرخام الأبيض) غير البعيدة من منبعه، فتجري المياه منه صافيةً هنالك فيكتسب معها صباحاً ومساءً ألواناً عجيبة بفعل أشعة الشمس، ويبلغ طول مجرى نربدا (١٢٨٠) كيلومتراً.

(١) ملخصاً مما ذكره الندوي، محمد إسماعيل: الهند القديمة، حضاراتها ودياناتها ص (١١-٢٠). وما ذكره غوستاف لوبون في كتابه: حضارات الهند ص (٢٥-٥٠)، أما قصة رامين فستأتي مفصلاً عند دراستنا لرامين.

(٢) المصدر السابق ص (١٠٠).

ويقدر الهندوس نهر نربدا بعد نهر غنغا، ويأتون إليه من الأماكن البعيدة ليغتسلوا في مياهه، وليأخذوا من ضفافه أحجاراً يتخذونها تماثم وتعاويز غالية - لديهم - .
ومن أهمها أيضاً: نهر برهما بوترا (Brhamaputra)، ويبلغ طول هذا النهر حوالي (٢٦٦٠) كيلو متراً.

كما يعتبر نهر غنغا (Ganges) الذي يقدره الهندوس من أهم الظواهر الجغرافية في الهند، ويبلغ طول نهر غنغا ما يقرب من ٢٥٠٠ كيلو متر، والنهر مقدس لدى الهندوس حيث يحبون أن يغتسلوا فيه معتقدين بأن مياهه تغسل عنهم الخطايا، كما يحبون أن تحرق جثثهم على شاطئه، وأن يلقي بالرماد في مياهه، ويطلقون على النهر اسم (غنغا ماتا) أي غنغا الأم.

ومن الأنهار المقدسة لدى الهندوس أيضاً نهر جمنا (Jamuna) حيث يعدون الاغتسال فيه طقوساً دينية مقدسة ينبغي أداؤها على كل فرد منهم^(١). ويبلغ طول هذا النهر (١٣٦٠) كيلومتراً، وقد اتصل هذا النهر مع نهر غنغا عند مدينة «الله أباد» إله باد، وهي أشهر مدينة في ولاية أتر برديش.

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة، حضاراتها ودياناتها ص(١٥)، وغوستاف لوبون: حضارات الهند ص(٣٨).

القسم الثاني: تاريخ الهند

لما كان معنى التاريخ هو ربط حوادث زمن ما بمكان ما وربط هذه الحوادث بأناس عاشوا في ذلك الزمن فطبعوه بطابعهم وطبعهم بحدثانه فكان لهم من جراء ذلك مدنية خاصة تمتاز عن غيرها من المدينيات بما لها من اتجاهات اجتماعية وفكرية وسياسية واقتصادية وفلسفية ودينية وغير ذلك، كان التصدي لكتابة تاريخ البلاد الهندية الباكستانية، منذ قديم الزمان إلى اليوم، أمراً من الصعوبة بمكان، وذلك لأن البلاد الهندية الباكستانية ليست بلاداً حديثة العهد في عمر الدهر ولا هي بالبلاد التي عاشت على هامش الحياة، بل هي بلاد مغرقة في القدم، عريقة في المدنية، راسخة القدم في النشاط الفكري والفلسفي وقد لعبت على مسرح هذا الكوكب أدواراً رئيسية ذات شأن خطير في حياة المجموعة البشرية.

يبد أن حوادث الدهر وحدثانه قد عفت على كثير من آثار هذه المدنية، ومن معالمها، وجعلتها نسيّاً منسياً كأن لم تغن بالأمس.

ثم إن الهند ليست بالبلد الواحد أو القطر الصغير حتى يحيط المرء بها من كل الجوانب بل هي بلاد شاسعة مترامية الأطراف بعيدة الأكناف يصح أن يطلق عليها اسم قارة قائمة برأسها، وأن يُفترق بين مناطقها ويُجعل من كل منطقة قطراً يختلف كل الاختلاف عن جاره من كل وجه. ومن يدقق يجد هذا الاختلاف بيناً واضحاً في السكان والمكان والطبائع والأمزجة، فلو قارنا بين بنجابي ومدراسي مثلاً، الأول من أهل الشمال والثاني من أهل الجنوب، نجد البنجابي جسيماً ضخماً عريض المنكبين، كث اللحية، ولونه بين السمرة وبين البياض، جاف الطبع، حديد المزاج، بينما نجد المدراسي هزيلًا نحيلًا قصير القامة أشط اللحية، أسود الجلد أو أسمره، لين العريكة، سهل الخليفة، إلى غير ذلك من الاختلافات الظاهرة للعيان، ولو أخذنا سندياً وبلوچياً نجد بينهما، على تقارب بلديهما، اختلافاً كبيراً، وقد يعجب المرء إذا ما علم بأن أهل كشمير شقر الشعر بيض البشرة أشبه بأهل الشمال الأوربي منهم بأهل شمال الهند به

وسطها أو جنوبها، ومن البدهي أن يتبع هذا الاختلاف الفطري الناشئ عن اختلاف الأصول والمناخ اختلاف في الطبايع والعادات والأطوار واللباس والأثاث والفراش والطعام والشراب والعقيدة والتفكير.

فالهند إذن، وإن جمعتها الوحدة الاسمية، هي بلاد كثيرة مختلفة باختلاف أقطارها ومختلفة باختلاف أصول سكانها، قديمًا وحديثًا، ومختلفة باختلاف عقائد أهلها وتفكيرهم. وليس الاختلاف الكائن ما بين السويدي وبين الأسباني أو بين الإنكليزي وبين المجري مثلاً بأشد من الاختلاف الكائن ما بين البلوجي وبين المدراسي أو بين المليباري وبين البنغالي.

هذا، بالإضافة إلى أن هذه البلاد لم تكن في يوم من الأيام بلادًا واحدة بكل معنى الكلمة، ولا كانت تحت سيطرة حكومة مركزية واحدة، بحيث تخضع كلها لحادث واحد معين بل كانت بلادًا متفرقة يحكمها أمراء مختلفون، وكان لكل أمير حوادثه الخاصة به وببلاده، وكان إذا ما قام أمير عظيم واستولى على جزء كبير من البلاد بحيث تتضاءل أمام سطوته الإمارات الأخريات، لا تلبث سطوته إلا قليلًا حتى تنقلص وتتلاشى، وحتى يعود واحدًا مثل غيره من الأمراء، ولم تجتمع الهند تحت تاج واحد إلا زمن الإمبراطوريات الإسلامية التي حكمت الهند وخاصة المغولية وزمن الإمبراطورية الإنكليزية، إذ كانت السلطة المركزية في كلا الزمنين تسيطر على الهند كلها مع وجود إمارات مستقلة استقلالًا داخليًا يتسع أو يضيق تبعًا لأهمية الإمارة من حيث عدد سكانها وسعة أرضها، وتبعًا لماضيها السياسي، وتبعًا لهمة أميرها وطموحه ونفاذ شخصيته. وهذا ما حدا كثير من المؤرخين في عصرنا الحاضر بأن يختصوا ببحث جزء من البلاد دون غيره ويؤرخوا له دون سواه.

ثم إن المؤرخين القدامى كانوا يقضون بحوادثهم عند شمال الهند فقط، وذلك لأن الآريين، وهم سكان القسم الشمالي من الهند في القديم، هم أول من كتب كتبًا يمكن أن نسميها تأريخًا، وحيث إنهم كانوا يجهلون جنوب الهند، إذ إنهم لم يدخلوه، فإنهم لم يكتبوا عنه شيئًا، ثم إن ما كتبه الآريون، وإن لم يكن تأريخًا بالمعنى الصحيح،

فهو أيضاً حديث عهد بالنسبة إلى عمر الهند، إذ أن أول ما كتبه هو كتاب «ريگ فيد»، ويرجح العلماء أنه كتب في القرن السابع أو القرن السادس قبل الميلاد.

ويقول العلماء إن السبب في إهمال الآريين تدوين تاريخهم هو أنهم لم يكونوا يعرفون الكتابة بل تعلموها من أهل الجنوب الذين هم بدورهم تعلموها في القرن الثامن قبل الميلاد، من الآشوريين والبابليين، فإذا ما أردنا استقصاء حوادث الهند القديمة وجب علينا أن نرجع إلى ما يلي:

١ - الكتب الدينية الهندوسية وما ألحق بها من شروح وملاحم وقصص وغير ذلك.

٢ - النقوش الحجرية.

٣ - النقود القديمة التي يعثر عليها في الأحفار.

٤ - ما كتبه السياح الأجانب من صين ويونان وعرب.

وكل هذا لا يضيء لنا معالم التاريخ الهندي القديم إضاءة تامة، ولكن الطرق العلمية الحديثة المتبعة في استقصاء الحوادث تجعل من هذه الأمور وسائل تساعد على كشف كثير من أسرار المجهول^(١)..

وعندما أتحدث عن تاريخ الهند هنا إنما أقصد بذلك شبه القارة الهندية بأكملها، حيث إن التقسيمات السياسية جاءت متأخرة جداً، وفيما يلي بيان لأهم الأحداث التاريخية لشبه القارة الهندية قديماً وحديثاً، حسب ما وصلت إلينا من معلومات، ويمكننا أن نقسم ذلك إلى قسمين:

أ - أهم الأحداث قبل دخول الإسلام في شبه القارة الهندية:

أهم الأحداث	التاريخ
بداية انتعاش حضارة وادي السند	٣٥٠٠ ق.م

(١) مختصراً مما كتبه إحسان حقي في كتابه: تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية ص (٧-١٠).

أهم الأحداث	التاريخ
بلغت حضارة وادي السند أوجها	٢٥٠٠ ق.م
الغزو الآري للهند	١٥٠٠ ق.م
غزا الإمبراطور الفارسي قورش الشهير الهند وأصبحت المقاطعة العشرين من مقاطعات إمبراطورية قورش الأخمينية.	٥٣٠ ق.م
انتشار البوذية	٥٠٠ ق.م - ٨٠٠ م
وصول الإسكندر الأكبر إلى الهند	٣٢٦ ق.م
توحيد شمال الهند على يد أسرة غبتا (شانديرا غوبتا موريا)	٣٢٠ ق.م - ٥٠٠ م
ظهور أسرة «موريا» في الهند	٢٩٧ ق.م
بداية حكم الإمبراطور أشوكا واعتناقه للبوذية ٢٦١ ق.م	٢٧٢ ق.م
غزوات أواسط آسيا من قبل بعض قادة اليونان (ميناندر)	١٥٥ ق.م - ١٥٠ ق.م
غزوة قبيلة الكوشان وتأسيس إمبراطورية كانيشكا امتدت من تركستان إلى بنارس في شرقي الهند	القرن الأول قبل الميلاد
دخول «الهون» الذين أوجدوا مملكة ذات شأن في أوروبا وخاصة في المجر، ثم دخلوا الهند وقضوا على مملكة غبتا، وذلك في عهد سكاندا غبتا (٤٥٤ - ٤٦٧ م)	٤٧٠ م - ٥٢٠ م

ب - أهم الأحداث بعد دخول الإسلام في شبه القارة الهندية

أهم الأحداث	التاريخ
بداية نشر الدعوة الإسلامية في إقليم السند	٧١٢ م (٩٤ هـ).
سيطرة الدولة الغزنوية على بعض أجزاء الهند	١٠٠١ م - ١١٨٦ م
تأسيس أول دولة إسلامية في الهند بيد الأسرة الغورية	١١٨٦ م - ١٢٠٦ م
عهد الدولة الإسلامية في الهند بيد المماليك	١٢٠٦ م - ١٤١٢ م

أهم الأحداث	التاريخ
عهد السادات (ملوك الطوائف)	١٤١٤م-١٤٥١م
حكم أسرة لودهي للهند	١٤٥١م-١٥٢٦م
وصول فاسكو دي غاما البرتغالي إلى الهند	١٤٩٨م
تأسيس إمبراطورية المغول على يد بابر	١٥٢٦م
سيطرة شركة الهند الشرقية على البنغال بعد انتصار روبرت كلايف في معركة بلاسي	١٧٥٧م
تعيين وارن هستنجز أول حاكم بريطاني للهند	١٧٧٤م
سيطرة الحكومة البريطانية على الهند بدلاً من شركة الهند الشرقية	١٨٥٨م
تأسيس حزب المؤتمر القومي الهندي	١٨٨٥م
تأسيس العصبة الإسلامية	١٩٠٦م
رئاسة غاندي للمؤتمر الهندي	١٩٢٠م
إصدار البريطانيين لدستور هندي جديد	١٩٣٥م
مطالبة العصبة الإسلامية (مسلم ليگ) بدولة منفصلة عن الهند (باكستان)	١٩٤٠م
استقلال الهند وباكستان.	١٩٤٨م (١٥ أغسطس)
استقلال بنغلاديش عن باكستان	١٩٧١م

هذه أهم أحداث شبه القارة الهندية في التاريخ^(١).

(١) انظر ما ذكره كل من العلامة عبد الحي الحسني: نزهة الخواطر، الجزء الأول، ومحي الدين الألوائي: تاريخ الدعوة الإسلامية وتطورها في شبه القارة الهندية ص(٣٥٩-٣٦١)، عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند ص(١٠٤-١٧٤) وانظر الموسوعة العربية العالمية (١٣٦/٢٦-١٣٧).

الفرع الثالث: سكان الهند الأصليون

يتمتع سكان الهند إلى عدد من المجموعات العرقية، وأكبر مجموعتين هما: الآريون ذوو اللون الفاتح، ويسكن معظمهم في شمالي الهند، ومجموعة الدراويدين ذوي اللون الأسود، ويسكن معظمهم في جنوبي الهند.

ومع بداية القرن الحادي عشر الميلادي، استقر بعض مسلمي أفغانستان وإيران وأواسط الاتحاد السوفيتي السابق في الهند، ويسكن معظم أحفادهم في شمالي الهند وخاصةً في ولايات بيهار وأتر برديش، وغربي البنغال، بينما استقر السكان المغول في منطقة جبال همالايا على الحدود الشرقية للهند، وفي الولايات المتاخمة لبورما^(١).

أما بالنسبة لسكان الهند الأصليين فلم يدون تاريخ شعوب العالم أصل سكان الهند، ومن الصعوبة بمكان أن نتعرف على أصول سكان الهند لغموض تأريخهم في تلك الفترة، ولهذا وجدت فيها آراء متباينة، وذلك حسب ما يؤدي إليه اجتهاد كل مؤرخ أو باحث، حتى ادعى البراهمة الآريون بأنهم من أصول السكان وليسوا دخلاء في البلاد^(٢)، هذا ما يدعيه كثير من الهندوس المتعصبين الآن، وذلك لما رأوا أن القول بأنهم دخلاء يجعلهم بعيدين عن الساحة^(٣). والأقوال المشهورة عن السكان الأصليين للهند يرجع إلى قولين:

الأول: أن سكان الهند الأوائل يرجعون في أصلهم إلى سكان سوماطرة وأستراليا

(١) انظر الموسوعة العربية العالمية (٢٦/ ١٢٧).

(٢) انظر ما نقله الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٢٧)، عن بعض علماء الهندوس الجدد مثل: الدكتور أويناش جندرا، وسوامي شنكرانند «ورأي بهادر رام برساد»، والعالم الألماني «جير» أن الآريين لم ينزحوا من بلد آخر، بل هم سكان الهند الأصليون، وانظر أيضًا ما ذكره هنجش نارايين بتراسارزا: هندودير ديو ديوي، أدويب أو كرمويكاش (١/ ٥٥-٧٠) (اللغة البنغالية)، وكان سوامي فيشيكانند يركز عليه كثيرًا.

(٣) انظر ما نقله عنهم الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي في فصول في أديان الهند ص (١٣).

وسيلان^(١)، وما زال لهم نسلهم يعيشون في الهند، وهم الجماعات التي يقال لأفرادها اليوم: موندر، وموشار، وشامر، وغوند، وسندال، وكاسي، وبسيس، وكثري، وشاندال، وغارو، وشاونتال، وساكما وغيرهم.

الثاني: أن أصل السكان: هم الدراويديون^(٢)، وهم قوم خليط من «الكول» (البدو المتنقلون والمستوطنون في الغابات والجبال، وعلى شواطئ الأنهار الذين يسميهم البعض باسم الإنس الوحشي)، ومن التورانيين (الذين كان مسكنهم بلاد تركستان) حيث نزح التورانيون إلى الديار الهندية قبل الميلاد بآلاف السنين فأخضعوا الشعب الكولي، وبمرور الزمن اتحد العرق التوراني بالعرق الكولي» ونتج من هذا الاتحاد شعب جديد عرف فيما بعد باسم «الدراويد»، وتمركز هؤلاء الدراويد في وادي السند، وكانت مدينتا «هارپا» و«موهنجودارو» مسكنهم الحقيقي^(٣).

ويرجع هذا الخلاف إلى اختلافهم في تحديد حضارة موهنجو دارو وهاربا وشانهو دارو، من هم هؤلاء؟. لقد وجد فيه أقوال:

أ- هم الدراويديون، وهو قول معظم الباحثين كما سبق معنا.

ب- هم جنس آخر غير الدراويديين، وهم مجموعات من قبائل من التبت وبورما وكانوا يغطون عوراتهم بأوراق الشجر، ومن سكان هضاب مدراس، ثم جاء هؤلاء القوم المعروفين باسم الدراويديين^(٤)، حيث تغلب على هؤلاء السكان واستلموا مقاليد الحكم^(٥).

(١) انظر ما ذكره الدكتور إحسان حقي: مأساة كشمير المسلمة ص(٢١).

(٢) أندريه أيار، جانين أبوبايه: تاريخ الحضارات العام (١/٥٥٧)، وانظر ما ذكره ول ديورانت: قصة الحضارة (٢/١٩). والدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي: فصول في أديان الهند ص(٦).

(٣) انظر المصدر السابق نفسه ص(٦).

(٤) انظر ما ذكره شريف الذين بيرزاده: نشأة باكستان ص(١٥)، وانظر أيضًا ما ذكره الدكتور علي زيعور: الفلسفات الهندية، ص(١٠٢).

(٥) الدكتور علي زيعور: الفلسفات الهندية، ص(١٠٢).

ج- يقول بعض الباحثين الأفرنج^(١) أن الدراويدين قد جاءوا من الشمال الغربي بين سنة ٤٠٠٠ ق.م وسنة ٣٠٠٠ ق.م. وعلى حد قولهم إن هذه المجموعة المجهولة الاسم جاءت من خليط من الشعوب التي تعيش في مناطق تقع شمال وجنوب البحر المتوسط. ومن ثم يمكن أن نقول عنهم: سكان البحر المتوسط، ويكونون فرعاً من الجنس الأبيض الذي كان يعيش في شمال هذا البحر، والذي امتزج بزنج أفريقية.

يقول الدكتور محمد إسماعيل الندوي: إن هذا كلام بعيد عن الحقائق التاريخية، لأن سكان البحر المتوسط لم يزحفوا إطلاقاً على الهند طوال الحضارة الهندية في موهنجودارو وهارابا. وكذلك الأفريقيون السود لم يكن لهم شأن يذكر في التاريخ في هذه الفترة التي تكونت فيها أولى الحضارات الإنسانية. بل الدراويديون كانوا من سكان الهند الأصليين، كما تشير إلى ذلك ملامحهم وسود بشرتهم، وطبيعتهم وتقاليدهم كلها.

ولكن هذه الأمة الأصلية التي واصلت جهود أصحاب حضارة وادي نهر الهند قرونًا طويلة دبت إليها عوامل الضعف والاضمحلال، ولذلك لم تستطع في الآونة الأخيرة من حياتها أن تصمد في وجه هجمات القبائل الجبلية البربرية^(٢) التي تدفقت مرة أخرى من جبال بلوچستان وأفغانستان مارة بثغور هندوكش وتوغلت في البلاد، وشتت هجماتها الوحشية على معالم الحضارة في البلاد وإحالتها إلى خراب ودمار،

(١) انظر ما ذكره مانوراما موداك: الهند: شعبها وأرضها، ص(٤٢-٥٠).

(٢) ويرى الدكتور محمد إسماعيل الندوي في تحديد هوية هؤلاء البرابرة: أن سكان المناطق الجبلية الممتدة من بلوچستان وهي الواقعة الآن في باكستان في الحدود المتاخمة لأفغانستان ومكران وعيلم كانوا كلهم من أصل واحد، واتسموا بلامح متشابهة ولهجاتهم متقاربة وألوانهم متماثلة، وكانت حياتهم تعتمد على خيرات الجبال، ولذلك اشتهروا بالقوة والعنف والهمجية، وبما أن موارد الحياة في تلك المناطق القفراء المتوحشة كانت قليلة للغاية فقد اضطروا بين حين وآخر إلى الزحف إلى المناطق السهلة الخصبة على ضفاف الأنهار، فهم والسومريون كلهم من أصل واحد. انظر: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص(٢٥-٢٦).

وهؤلاء هم الذين فتحوا الطريق فيما بعد لحذف الآريين على الهند من نفس الطريق واستيلائهم على الهند^(١).

فالسود هم أقدم سكان الهند، ويلوح أنهم مقسمون إلى فرعين منذ أقدم العصور وهما:

النيغريتو ذوو القامات القصيرة والشعور الصّوفة والتقاطيع المعصورة القاطنون في المناطق الشرقية والمناطق الوسطى.

والزنج ذوو المثل الأوسترالي القاطنون في المناطق الجنوبية والمناطق الغربية، والذين هم أطول من أولئك وأذكى منهم وأملس شعراً من شعرهم.

ثم جاء غزو التورانيين الذين هم شعوب تركستان، فغزوا الهند واختلطوا بأهلها السود، وظهر من هذا الاختلاط قدماء الدراويد الذين يُعدّون سكان الهند الأصليين، ثم جاء غزاة آخرون فدحروا هؤلاء إلى الجبال فانتشروا في جنوب شبه جزيرة الهند ثم توالدوا هم وقدماء الدراويد، وليس مع الزنج رأساً، فأسفر هذا التوالد عن ظهور الدراويد أو التمول أو التاميل.

فالدراويد هم نتيجة توالد سكان الهند الأصليين والغزاة الصفر الذين أتوا من شمال وادي برهما بوترا الشرقي، ثم من توالد جميع هؤلاء والغزاة التورانيين الذين جاءوا من الشمال الغربي، ويقسم الدراويد، بحسب النسبة التي تغلب بها عنصرهم الأساسي، إلى فرعين:

الدراويد الأصليين: الذين هم نتيجة التوالد الأول.

والدراويد المولدين: الذين هم نتيجة توالد أولئك والتورانيين.

وإذا نظرت إلى القطر الهندي الواقع جنوب غوداوري وجدته دراويدي الطابع، ولا يزال حفدة الدراويد الأصليين يُرون في المناطق الجبلية التي التجأ إليها أجدادهم

(١) استفدت هذه المعلومات من الدكتور محمد إسماعيل الندوي في كتابه الهند حضاراتها ودياناتها ص (٥٦-٦٠).

بالتدرج فراًا من تأثير المغازي الأجنبية.

ومع وجود التفاوت بين الدراويد الأصليين والدراويد المولدين يُلاحظ في كلهم صفات عامة كاسمرار جلودهم وضعف شعورهم واسودادها وملامستها وضخامة أنوفهم واتساع مناشقهم وسفول قامتهم وشكل جماجمهم التي هي دون المستطيلة. وتقسم لغتهم إلى أربعة فروع أساسية لكل واحد منها نحو خاص وأداب خاصة، وهذه الفروع الأربعة هي: فرع الكنري ويتكلمون به في الغرب في جبال كهات الغربية وكوكن وملبار، وفرع المليالم ويتكلمون به في ساحل ملبار على وجه الخصوص، وفرع التيلغو ويتكلمون به في الشرق في وادي غوداوري ووادي كريشنا، وفرع التمول ويتكلمون به في الجنوب في ساحل كوروميندل ورأس كماري وقسم من جزيرة سيلان^(١).

هذا ما ذكره المؤرخون من ناحية أصل أهل الهند، وإن كان حقيقة الأمر أن الكل من آدم، وآدم من تراب، وقد أهلك الله بني آدم إلا أولاد نوح، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، ومما لا شك فيه أن أبناء نوح الذين بقوا بعد الطوفان ثلاثة: حام - سام - يافث^(٢)، وانتشر أبناء نوح في جميع ربوع العالم، وكانت الأراضي في ذلك الوقت متقاربة، والبحار متباعدة^(٣)، ويقال: أن السند والهند هما ابنا توفير (بوقير) (نوفير) بن يقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح^(٤).

وقيل: من أبناء حام^(٥)، يقول المسعودي: (وسار نوفير بن لوط بن حام بولده ومن تبعه

(١) ملخصًا مما ذكره غوستاف لوبون: حضارات الهند ص (١٠٢-١٥٠).

(٢) انظر ما ذكره ابن كثير في كتابه البداية والنهاية (١/٢٦٨) وابن الأثير في الكامل (٥٨/).

(٣) انظر ما ذكره الشيخ رياض موسى: الهندوسية (٢)، كما وجد مثل هذا النقل في الكتاب المقدس، التكوين: (٦/١٠).

(٤) انظر ما ذكره كل من ابن الأثير (١/٦٢)، وابن خلدون (١/٨).

(٥) وهو الذي يرجحه أكثر المؤرخين، انظر ما ذكره كل من ابن الأثير في تاريخه (١/٦٣) وابن خلدون في تاريخه (١/١٢)، والمسعودي في مروج الذهب (١/٤٥٥).

إلى أرض الهند والسند^(١)، ويقول ابن الأثير: (وأما حام فولد له كوش، ومصرايم، وفوط، وكنعان،... وأما فوط فقليل: إنه سار إلى الهند والسند ونزلها وأهلها من ولده)^(٢) ويقول ابن خلدون (وأما حام فمن ولده السودان والهند والسند والقبط وكنعان باتفاق... وأما كوش بن حام فذكر له في التوراة خمسة من الولد وهم - سفنا - وسبا - وجويلا - ورعما - وسفخا - ومن ولد رعما شاو، وهم السند، ودادان وهم الهند، وفيها أن النمرود من ولد كوش،..... وأن الهند والسند والحبشة من بني السودان من ولد كوش)^(٣).

ومما سبق يظهر لي: أن الهند دخل فيه في ذلك الوقت من جميع أجناس بني نوح، وكان من أبرزهم أبناء سام بن نوح عليه السلام، ولكن الدراويد الخالص والذين يرجح كونهم من أبناء حام كان دخولهم فيها بكثرة كاثرة. وأما دخول أبناء يافث فكان قليلاً وهم الذين عرفوا بالتورانيين^(٤)، وبانضمامهم في المجتمع الدراويدي القديم ونتيجة التوالد معهم جاء الدراويد المولدين كما سبق بيان ذلك.

ملاحح ديانة الدراويدين:

إن العثور على ملاحح ديانة الدراويد وسكان حضارات نهر السند وإن كان عسيراً في الماضي، إلا أنه بعد العثور على المدينة المدفونة من هارابا وموهينجو دارو^(٥)

(١) المسعودي في مروج الذهب (١/ ٤٥٥)، وانظر أخبار الزمان له ص (١٠٦-١٠٧)، وص (١٠٩).

(٢) ابن الأثير في الكامل في التاريخ (١/ ٦٣).

(٣) ابن خلدون في التاريخ (١/ ١٢)، وأشار إلى أنه نقله عن الطبري عن ابن إسحاق.

(٤) انظر ما قال المسعودي في مروج الذهب ص (١/ ١١٤): حيث قال: ولحق فريق من ولد عابور - هو عابور بن سوبيل بن يافث بن نوح - بتخوم الهند، فأثرت فيهم تلك البقاع فصارت ألوانهم بخلاف ألوان الترك، ولحقوا بألوان الهند، ولهم حضر وبواد.

(٥) هاتان المدينتان تقعان الآن في باكستان، وهي مناطق متباعدة نوعاً ما، حيث إن موضع موهينجو دارو بجانب نهر «السند»، أما هارابا فتقع بقرب من نهر «راوي» من پنجاب على بعد أربعة مائة ميل من الأولى إلى الجهة الشمال الشرقي منها. انظر ما ذكره سر مورتيمر وهيلر: وادي سندھ اور اس کی بعد کی تہذیبیں ص (١٤) (الأردية). =

أصبح ميسورًا نوعًا ما، فقد وجد فيه أنواعًا من الآلهة التي تدل بصراحة أنهم كانوا على شرك، وعبادة آلهة متعددة.

وقد كانت من بين آلهتهم:

١- شَيْثًا، فهو الإله القديم للسكان البيض من موهنجودارو قد طرأت عليه تغييرات طفيفة ثم انتقل إلى الآريين وحدثت بعد ذلك تغييرات جديدة ولكنها ليست كثيرة.

= إن هذه الحضارة أقدم الحضارات التي اكتشفت حتى الآن على وجه الأرض، وقد وجدت آثار كثيرة من مخلفات هذه الحضارة، ولكن لم يفك أسرارها كاملاً، وقد بذل الغربيون ما بوسعهم على طريقته، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقرأوا هذه الأختام والآثار والكتابات، ويرجع بعض العلماء عدم تمكنهم لهذه الأختام إلى شيئين:

(١) لأنهم لما رأوا تشابه كتابات هذه الأختام مع كتابات اللغة العربية القديمة تعمدوا إلى تركها حتى لا تظهر العلاقات القديمة بين العرب وبين حضارة وادي السند.

(٢) أو أنهم لم يتمكنوا من قراءتها فعلاً؛ لأنهم لم يتصوروا تقاربها للغة العربية القديمة.

وقد بذل كثير من المسلمين جهودهم في دراسة هذه الكتابات والرموز والأختام والآثار الأخرى والكتابات المنقوشة، من أبرزهم «الشيخ أبو الجلال ندوي»، هذا العالم الجليل، بذل جهوداً جبارة في قراءتها، وأثبت بجدارته بأن هذه الصور والنقوش هي تدل على بدايات الحروف، ولما كان الشيخ أبو الجلال ندوي رحمه الله عالماً باللغات العربية والعبرية والفارسية وغيرها من اللغات المحلية، توصل إلى جملة من النتائج المهمة، من أهمها:

(١) إن النقوش الموجوة فيها على أنماط:

١- تصاوير الأشياء، ٢- استخدام الرموز بدل التصاوير.

(٢) أن لغة هذه الحروف هي نفس اللغة العربية القديمة في بداية نشأة اللغة العربية.

(٣) أن هذه الأقوام كانوا عرباً، وكانوا من أبناء سام بن نوح عليه السلام.

(٤) إن العرب كانوا يسكنون وادي السند، ثم انتقلوا من هنا إلى هذه المناطق المعروفة الآن.

انظر لمعرفة المزيد ما نشرته جامعة كراتشي من منشورات عنها عدد ٢٢، ٢٣، ٢٠٠٤م، مجلة تسمى «جريدة» باللغة الأردية، فقد أرادوا إبراز بعض جهود هذا العالم في بعض أعداد هذه الجريدة.

- ٢- فِشْنُو: كان من أبرز آلهة الدراويدين، الذي يتسم باللون الأسود.
- ٣- الإلهة: كالي (بمعنى سوداء)، وكانت تتسم باللون الأسود.
- ٤- الإلهة: شاكتي (القوة)، وكانت تعبر عن المادة الفاعلة أو حيوية الأنوثة والخصوبة، هذه الإلهة لا أثر لها في كتب الفيدات، الأمر الذي يدل بوضوح عند الباحثين على أنها من الأصل الدراويدي^(١).
- ٥- عبادة لنغا (ذَكَر الرجل): والدليل عليه أن هناك نصوصًا في الفيدات تنكر على عباد لنغا، وهم إنما ينكرونها لوجودها لدى الدراويد، كما أن هناك كثيرًا من الأشكال تشبه لنغا عثر عليها في مخلفات آثار حضارة وادي السند^(٢).
- ٦- كما وجدت هناك تماثيل للآلهة تعبر عن تقديم الناس النذور إليها أو الطلبات أو ما شابه ذلك من الحاجات.
- ٧- وكذلك نجد من بين الآلهة عندهم كثيرًا من الحيوانات، كما يظهر في بعض التماثيل الحيوانية، وقد نال الثور مكانًا بارزًا بين تلك الآلهة.
- ٨- وكذلك وجدت دمي وعرائس صغيرة وسرائر وأرائك وأرغفة وزهريات إلى جانب تلك المعبودات.
- ٩- ثم إن معظم الأدوات التي تعبر عن العقائد والديانات تضم المعبودات الإناث أكثر بكثير من المعبودين الذكور، ولذلك نجد الإلهات مزينة بالحلي الجميلة أو في بعض الأحيان تحمل الأطفال في بطنها، أو ترضع الأطفال.
- ١٠- تشير لوحات عديدة إلى معبودات من الأشجار.
- ١١- وقد عبدوا كذلك إلى جانب الآلهة الكثيرة إلهًا رسم بقرن وثلاثة وجوه.
- إلا أن أهم معبوداتهم: الإلهة الأم، وشيفًا، وما كان على صورة الفرج، وهذه هي

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص (٨٣-٨٥).

(٢) انظر المصدر السابق ص (٤٤).

أهم معبودات سكان وادي نهر السند، وهذه الآلهة وطقوسها قد تركت آثاراً بعيدة المدى في الديانات الهندية كلها عبر القرون، وتمثلت بصورة واضحة في كثير من التقاليد الهندوكية حتى هذه الآونة، الأمر الذي يدل على قدمها لدى الهنود^(١).

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة، حضاراتها ودياناتها ص (٤٤-٤٦).

الفرع الرابع: وفود الآريين إلى بلاد الهند

سبقت الإشارة إلى عدم أصالة الآريين في الهند، بقي أن أذكر هنا من هم الآريون؟ ومتى وفدوا إلى بلاد الهند وكيف ومن أين تم ذلك، هذا ما سيأتي بيانه فيما يلي:

أولاً: معنى كلمة: آري:

الآريون: (Aryan) تطلق على الشرفاء والنبلاء باللغة السنسكريتية^(١)... وهذا يدل على أنهم اعتبروا أنفسهم منذ قدومهم إلى هذه المناطق الآسيوية شرفاء، والسكان الأصليون فيها أراذل.

(وعلى هذا الأصل اشتق اسم «إيران»... وبهذا يكون الآريون قد اعتبروا أنفسهم سادة البلاد والآخرين خدماً وعبداً)^(٢).

ويرى بعض علماء الغرب: أن آري مشتقة من أصل سنسكريتي معناه: يحرث^(٣). ويمكن أن يقارن هذا الأصل (re-ar) بكلمتين لاتينيتين (aratrum) ومعناها محراث، (area) معناه: سهل مكشوف؛ وعلى هذا الأساس تكون كلمة (آري) معناها في الأصل فلاح لا شريف.

وقيل: أطلقت آريا نسبةً إلى لغة ضائعة معروفة بالأرياك، فاشتقت منها اللغة المعروفة بالسنسكرت^(٤).

وقيل: آريا معناها: العشائر، وذلك أنهم عندما جاءوا إلى الهند كانوا على نظام القبائل التي تتكون من عشائر ترتبط برباط القرابة^(٥).

(١) انظر ما ذكره ول ديورانت: قصة الحضارة ص (٣/١/٢٠)، والدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي: فصول في أديان الهند ص (٨).

(٢) الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة، حضاراتها ودياناتها ص (٦٣).

(٣) (نقلا عن قصة الحضارة (3/1/20) p.227. Monier - williams, sir M. Indian Wisdom).

(٤) غوستاف لوبون: حضارات الهند ص (٢٥٨).

(٥) الدكتور محمد مرسى أبو الليل: الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها، ص (٣٤).

وقيل: «آريا» نسبةً إلى إريانا فايجو Airyana vaejo (موطن الآريين) والذي جاء ذكره في الكتب الزرادشتية^(١).

وقيل: إن كلمة آريا أصلها من أري، وتعني: العدو، وعلى هذا تكون هذه الكلمة أطلقت عليهم من قبل السكان الأصليين^(٢).

وعلى كل حال: هم شعب ذو لون أبيض، وشعر أسود، يتكلمون اللغة السنسكريتية، ومشكوك في أصلهم^(٣). وتوضح التحقيقات الجديدة أن لونهم كان أشبه بلون الذهب^(٤). ولهذا قد عرفوا فيما بعد في التاريخ بالمجموعة الهندية الأوروبية (Indu European) فهم أكثر وأقرب شبهًا بسكان أوروبا الشمالية^(٥)، وسيأتي بيان ذلك.

ثانيًا: من هم الآريون:

أصل الآريين مشكوك فيه^(٦) حيث إن المؤرخين اختلفوا اختلافًا كبيرًا حول تحديد هوية الآريين^(٧):

القول الأول: إن الآريين لم ينزحوا من بلد آخر، بل هم أصل سكان بلاد الهند بناءً على بعض الآثار التي وجدت في حفريات «موهينجو دارو»^(٨).

(١) راجع ما ذكره أ.ف. توملين: فلاسفة الشرق ص (١٧٢).

(٢) راجع ما ذكره الدكتور رادها كومول ستروباداي: Oh you Hindu, Awake ص (٣)، (١٨).

(٣) انظر ما ذكره الأعظمي: فصول في أديان الهند ص (٨).

(٤) نقلًا عن المصدر السابق نفسه.

(٥) انظر ما ذكره عبد الله نومسوك: البوذية، تأريخها، عقائدها، وعلاقة الصوفية بها ص (٥٤).

(٦) أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص (٢٧).

(٧) أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص (٢٢-٢٣)، أبو زهرة: الديانات القديمة ص (٢١-٢٢).

(٨) انظر ما نقله الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٢٧) عن بعض علماء الهندوس الجدد: أن الآريين لم ينزحوا من بلد آخر، بل هم سكان الهند الأصليين.

ولكن هذا القول لا أساس له من الصحة لوجوه: من أبرزها:

- ١ - سبق معنا إثبات كون الدراويديين هم السكان الأصليون في البلاد.
- ٢ - شواهد التاريخ، يقول أحد المستشرقين: ففي پنجاب نجد السكان أطول قامة، بشرتهم بيضاء، أو أميل إلى البياض، ملامحهم أدق، وهم بهذا يخالفون باقي الهنود حيث تنتشر ملامح التورانيين، أو حيث توجد ملامح السكان الأصليين بالجنوب، وتقل ملامح الآريين كلما اتجهنا جنوباً أو شرقاً^(١).
- ٣ - الصراع القائم بين الفريقين إلى اليوم على العموم يدل بوضوح أن الآريين دخلاء في البلاد، وأنهم هزموا الدراويد، وكادوا لهم، فترى الدراويد «لا يزالون يكيدون لهم كيلاً رغم مرور آلاف السنين، فإن هذا الحقد ورثوه أباً عن جدٍ، فلو كان الآريون من أصل سكان الهند لما حدث كل هذا»^(٢).
- ٤ - كما اعترف كثير من مفكري الهندوس أيضاً على كونهم من الخارج.

القول الثاني: إنهم آسيويو الأصل:

واختلفوا في نسبة موطنهم الأصلي على أقوال:

إن أصلهم من بلاد تركستان، وكانوا يعيشون في وسط آسيا في بلاد تركستان بالقرب من نهر «جیحون»، ثم زحفت أفواج ضخمة من هذا الجنس في أزمنة غير معروفة، واتجهت إلى جهتين، فئة ذهبت إلى أوربا، وفئة هاجرت إلى الهند عبر إيران^(٣). يقول الدكتور عبد الله نومسوك: «والأرجح أنهم آسيويو الأصل، كانوا يعيشون في وسط آسيا في بقعة من بلاد تركستان (Turkistan) في جنوب روسيا (Russia) وشرق بحر

(١) Weech: The people and religions of India p 311..

(٢) فصول في أديان الهند ص (١٣-١٤).

(٣) Rone Sedillot: History of the World p. 32 وانظر ما ذكره الأعظمي في فصول في أديان الهند ص (٩).

قزوين (Caspian)، وقد تدفقت هذه القبيلة كأموح هائلة على أوروبا (Europe) وآسيا الصغرى، ثم موجة أخرى إلى الشرق الأوسط، واستوطنت العراق، ثم هجرات عديدة إلى إيران (Iran) حيث أقاموا ببلاد فارس (Persia) ثم داوم حفدتهم سيرهم إلى الجنوب فجاوزوا جبال هندوكوش ودخلوا الهند^(١).

٢- وقيل: إن موطنهم الأصلي روسيا^(٢).

٣- وقيل: إنهم هبطوا الهند من السهوب الأوراسية^(٣)، (منطقة إيران).

يقول أحد الباحثين: (ولا أحاول هنا أن آتي بافترض جديد في أصل آريين، بل أذكر أن المحتمل أكثر من سواه على ما يظهر، وهو أن آريين كانوا سكان إيران الأصليين، وأن المجاورين منهم للهند هم الذين دخلوها على دفعات متتابة لا ريب، كما استولى أجدادهم على أوروبا من قبلهم، وأن تأثيرهم في دماء الشعوب المقهورة كان ضعيفاً إلى الغاية كما يبدو لي خلافاً للرأي السائد)^(٤).

ويضيف الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي دلالة لغوية لكون الآريين من أهل فارس فيقول: (تشارك اللغة السنسكريتية مع الفارسية في كثير من الألفاظ والمعاني، ولم يثبت في التاريخ أن أهل الهند خرجوا إلى فارس ليقبسوا بعض الكلمات، لذا يجزم علماء اللسان بأن المتكلمين بالسنسكريتية - وهم آريون - والفرس كانوا من منطقة واحدة)^(٥). ثم نقل المؤلف قائمة كبيرة من الألفاظ المشتركة بين الألفاظ الفارسية والألفاظ السنسكريتية^(٦).

(١) البوذية تاريخها عقائدها وعلاقة الصوفية بها ص (٥٥-٥٦)، وانظر أيضاً ما نقله الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص (٦١).

(٢) تاريخ الحضارات العام (١/ ٥٥٠).

(٣) تاريخ البشرية، أرنولد توينبي (١/ ١٤٧).

(٤) غوستاف لوبون: حضارات الهند ص (٢٦٠).

(٥) دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٢٣-٥٢٧).

(٦) انظر المصدر السابق.

٤- ومنهم من يقول: إن العراق كان أصل مسكنهم، ولكنهم مروا عن طريق إيران.

وممن ذهب إلى هذا القول الدكتور إحسان حقي، حيث يقول: ولكنني أرجح أنهم عراقيون لأسباب كثيرة منها:

١- إن صلة الهند بالعراق صلة قديمة وقوية وكانت إيران همزة الوصل بينهما.

٢- إن العراق هو مهد الحضارة العالمية ومبعث الإشعاع الفكري والفلسفي ومدنيته أقدم المدن.

٣- إن الدين الذي نشره الآريون في الهند يشبه الديانة اليهودية شبهًا كبيرًا.

٤- إن الكتب الآرية الدينية أكثرها شعرية، وقول الشعر بديهةً وارتجالاً ميزة امتاز بها العرق الآسيوي دون الأوروبي.

٥- إن وجود بعض الآلهة الفارسية في ريگفید يؤيد أن القوم كانوا على صلة بالإيرانيين وبدهي أن تكون هجرة العراقيين إلى الهند هجرة تدريجية تمت على مراحل كانت إيران إحدى مراحلها.

٦- إن أوربا قبل الميلاد بألفي سنة كانت بلادًا غارقة في الجهالة والآريون لم يكونوا أمة جاهلة بل كانوا على علم ومعرفة.

٧- إن ما أتى به الآريون من تشريع، في الهند - كما سيأتي بيانه - لم نجد له مثيلاً في أوربا، بل نجد له مثيلاً عند اليهود.

كل هذه الأسباب تحفزنا على الاعتقاد بأن العراق مهد الآريين ولكنهم لم يخرجوا من العراق فاتحين كما خرج إسكندر من اليونان، أو كما انبعث المسلمون من مكة أو كما جاء جنكيز خان وتيمور لnk من الصين، بل الأرجح أنهم ساروا جماعات إثر جماعات في طلب العيش، ثم إنهم عملوا رعاة، حتى إذا كثر عددهم وقوي ساعدهم انحدروا، على مراحل، نحو الهند فاستولوا عليها^(١).

(١) انظر ما ذكره الدكتور إحسان حقي في مقدمة كتاب «مَنُ سُمِرَتِي» ص (أ - ب).

القول الثالث: إن الآريين كانوا أوروبيين.

وعلى هذا: هم قوم نشأوا ببلاد «الدانوب» بأوربا، ثم هاجروا إلى آسيا عندما ضاقت بهم الأرض، متخذين طريق الشرق حتى بحر مرمرة، ثم عبروا البسفور أو الدردنيل إلى آسيا الصغرى، واستمروا في سيرهم شرقاً متجنين الحضارات المزدهرة التي كانت قد نشأت في طريقهم، حتى نزلوا فارس بالقرب من تبريز، ومن هناك انحدروا إلى الهند^(١).

واستدل القائلون بهذا القول بمجموعة من الأدلة، منها:

أ- توضح التحقيقات الجديدة أن لونهم كان أشبه بلون الذهب، وهو لون مرغوب لإلههم «إندرا» كما جاء في «ريگ فید» و«ياجور فید» (أن إلههم «رودرا» كان لونه ذهبياً).

وجاء في الباب الأول من «ريگفید»: أن عابداً كان يدعو الله أن يهب له ولداً يكون لونه كالذهب. ومن هذا التشابه ادعى الباحثون بأن الآريين كانوا من أجناس أوربا.

ب- قد وجدت الجماجم في شمال أوروبا تشبه إلى حد ما جماجم الآريين.

ج- ادعى المستشرق «بونز» أن اللغة السنسكريتية متحدة في أصولها مع لغات أوروبا^(٢).

فيقولون: إنهم نزحوا من مساكنهم طالبيين الرزق عبر سواحل نهر «الدانوب» ثم «إيران» وأفغانستان» حتى وصلوا إلى السند، وقد تركوا جماعة منهم في تلك البلاد التي عبروها، فبدأت الحرب بينهم وبين أهل السند. بينما لم يقاوم أهل تلك البلاد، واستمرت هذه الحروب قرابة ألف سنة، وفي النهاية استسلم أهل السند، وهربوا إلى الغابات والجبال، وقد هاجر جماعة من أهل السند إلى شمال الهند، وانضموا في النهاية

(١) انظر ما ذكره الدكتور أحمد شلبي في أديان الهند الكبرى ص (٢٧).

(٢) انظر ما نقله الدكتور محمد ضياء الرحمن: فصول في أديان الهند ص (١٣)، وول ديورانت: قصة الحضارة (٣/ ١-٢٠-٢١).

إلى المجتمع الفيدي، ومن بقي منهم بأيديهم صاروا عبيداً لهم، وهم الذين كانوا يسمون باسم الدراويد.

فهذه ثلاثة أقوال رئيسة في تحديد أصل الآريين، والذي يلاحظ القارئ الكريم من هذه الأقوال وأدلتها أنهم يتفقون على شيء واحد، وهو أن هؤلاء الآريين لهم فروع عديدة في عدة دول، وهم أمة واحدة نزحوا إلى مناطق عديدة؛ فهذا متفق عليه، وإن كان الخلاف لا يزال ساريًا في تحديد مكان نزوح هؤلاء^(١).

متى قدم الآريون إلى الهند؟

ليس هناك تحديد دقيق لتاريخ قدوم الآريين لغزو الهند، إنما هناك مؤشرات تدل على أنهم دخلوا مقاطعاتها الشمالية الغربية بين عامي ١٦٠٠ و ٨٠٠ قبل الميلاد^(٢). ويرى البعض: أنه تم في القرن الخامس عشر قبل الميلاد^(٣).

بينما يرى الدكتور محمد إسماعيل الندوي أن الموجة الآرية الأولى إلى الهند كانت خلال عام ١٨٠٠ قبل الميلاد تقريبًا^(٤)، وهو القول الذي يوافق عليه أغلب الهندوس^(٥).

مساكن الآريين القديمة في الهند:

لما دخل الآريون الهند استوطنوا بالمنطقة الشمالية بين نهري جمنا (يامونا) وغنغا، وسموا المنطقة التي سكنوها باسم «آريا ورتم» أي: مساكن آريا، واعتبروا الأماكن الأخرى بالمليج والكلمة تعني: النجس، ولا يسمح لأي آري أن يذهب إلى منطقة

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢٠-٢١).

(٢) تاريخ الحضارات العام (١/ ٥٥٧).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور علي عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة قبل الإسلام ص (١٥١). والدكتور أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص (٢٨).

(٤) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة، حضاراتها ودياناتها ص (٦٢).

(٥) انظر ما ذكره راهول سنكريتيان: درشن ديكدرشن (٢/ ٩-١٠).

المليح حسب تعليماتهم، يقول البيروني^(١): «يلزمه - يعني البرهمي - أن يسكن فيما بين نهر السند نحو الشمال وبين نهر جرمنمت نحو الجنوب ولا يتجاوزهما إلى حدود الترك وحدود الكربات والبحر في جانبي المشرق والمغرب فقد ذكر أنه لا يحل له المقام في أرض لا تنبت الحشيشة التي يتختم بها في البنصر ولا يرتعي فيها الغزلان السود الشعر وتلك صفة ما وراء الحدود المذكورة فإن اجتازها إلى ما وراءها كان مذنبًا ولزمته الكفارة»^{(٢)(٣)}.

-
- (١) هو محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي، أبو الريحان، حكيم، رياضي، فلكي، طبيب، أديب، لغوي، مؤرخ، ولد سنة ٣٦٢هـ، تبحر في الفلسفة اليونانية والهندية، وتخصص بأنواع الرياضات، توفي سنة ٤٤٠هـ، من تصانيفه الكثيرة: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، الآثار الباقية من القرون الخالية. انظر ما ذكره الحموي: معجم الأدباء (١٧/ ١٨٠)، والسيوطي: بغية الوعاة (٢/ ٢١)، وعمر رضا كحالة: معجم المؤلفين (٨/ ٢٤١).
- (٢) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص (٢٧٣).
- (٣) انظر مثله في مُنْوَ شَمْرَتِي ص (٥١-٥٢).

الفرع الخامس: امتزاج أهل الهند بالآريين

يقول ول ديورانت: «كان هؤلاء الآريون أقرب إلى المهاجرين منهم إلى الفاتحين، شأنهم في ذلك شأن الجرمان في غزوهم لإيطاليا، ولكنهم جاءوا ومعهم أجسام قوية، وشهية عارمة للطعام والشراب، ووحشية لا تتردد في الهجوم، ومهارة وشجاعة في الحروب، وسرعان ما أدت بهم هذه الخصال كلها إلى السيادة على الهند الشمالية؛ وكانوا يحاربون بالقسي والسهام، يقودهم مقاتلون مدرعون في عربات حربية، أدواتهم في القتال هي الفؤوس إن كانوا على مقربة من العدو، والحراب يقذفون بها إن كانوا على مبعدة منه... وكل ما في الأمر أنهم أرادوا أرضاً ومرعى لماشيئتهم، ولم يحيطوا حروبهم بدعوى الشرف القومي^(١)، لكنهم قصدوا بالحرف^(٢) صراحة إلى «رغبة في مزيد من الأبقار» وجعلوا خطوة فخطوة يزحفون شرقاً على امتداد نهري السند وغنغا، حتى خضعت الهندوستان كلها لسلطانهم»^(٣).

أثر امتزاج الآريين بالآخرين من الناحية الاجتماعية:

لقد حارب الآريون الممالك التي أقامها الجنس الأصفر (التورانيون) بالهند وانتصروا على الكثير منها، وكونوا لهم بها مناطق نفوذ، ولم يتصل الآريون بسكان الهند بطريق التزاوج بل كان الآريون يحافظون غالباً على سلالتهم البيضاء، فلهذا لم يتصلوا بالسكان الآخرين بالتزاوج في بداية الأمر، وساقوا سكان الهند إلى الغابات والجبال، أو أخذوهم أسارى، وسماهم الأدب الآري المبكر (أمة العبيد).

والسبب في أن الآريين لم يتم الزواج بينهم وبين الهنود، هو أن الآريين دخلوا الهند كشعب مهاجر لا كجيش محارب، والفرق كبير بين الحاليتين، فالجيش يكون عماده الرجال الذين سرعان ما يتصلون بنساء الشعب المغلوب، أما الآريون فقد دخلوا

(١) قوله هذا غير مسلم، كما يظهر من تفريقهم الناس إلى عبيد وأشراف.

(٢) هكذا بالأصل، ولعله: بالحرب.

(٣) قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢١).

بأموالهم ونسائهم وأطفالهم، فلم يحتاجوا لنساء الهند للتزاوج، وكان عدم الحاجة للنساء مع الاستعلاء الذي يصحب النصر من دواعي نشأة الطبقات، كما كان هذا من أسباب كثرة الألوان في الهند^(١). ولكن بعد مرور الزمن تم امتزاجهم بالآخرين شيئاً فشيئاً، فقد تكون أخيراً مجتمع الطبقات، وسيأتي بيان ذلك في الباب الثاني بإذن الله.

أثر امتزاج الآريين مع الآخرين من الناحية الدينية:

إن امتزاج الآريين مع السكان الأصليين أحدث أثراً بالغاً في عقيدتهم الدينية، فإن الآريين الذين استولوا على مقاليد الحكم في الهند منذ عام ١٥٠٠ ق.م. قد جلبوا معهم آلهتهم وديانتهم، وحاربوا السكان الأصليين، وحاولوا التخلص من جميع آثارهم الدينية والعقدية بشتى الوسائل، إلا أنهم تشربوا من حضارة وادي نهر السند واقتبسوا معظم مزاياها الدينية، كما أدخلوا كثيراً من آلهتهم في صميم عقيدتهم الدينية^(٢).

ومن هنا تركت ديانة وادي نهر السند وحضارته أثرها في الديانة الآرية وحضارتها، فلقد اقتبس الآريون معظم عقائد أهل نهر السند وصبغوها بالصبغة الآرية بحيث لا تنمحي آثارها ولا تقلع جذورها منها، ولهذا يعتقد الباحثون أن حضارة وادي نهر السند وديانته وتقاليده هي الأصل والأساس للهند على مر القرون وحتى هذه اللحظة، وعلى هذه الدعامة قامت جميع الحضارات الهندية، كما أن ملامحها واضحة المعالم في شعوب الهند بأكملها وفي الأقاليم المختلفة والولايات.

ومن الجدير بالذكر أن الفيدات - وهو أول سجل آري منذ نزوحهم إلى الهند -

Weech: The people and religions of India p. 311 ،

(١)

وانظر أيضاً ما ذكره الدكتور أحمد شليبي في كتابه: أديان الهند الكبرى ص (٢٨).

(٢) يقول الدكتور محمد إسماعيل الندوي: إن ذلك أمر طبيعي؛ لأن كل حضارة أجنبية جديدة إذا فرضت سيطرتها على حضارة أصيلة أقوى منها - ولو كانت منهارة ومترنحة وصائرة إلى الزوال - فإنها تضطر إلى التجاوب معها وإدخال عناصرها الفعالة في صميم حضارتها، وبهذا تظهر حضارة مزوجة، وإن كانت معظم عناصرها جديدة ودخيلة أجنبية. انظر: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص (٤٨).

لا يذكر هذه الحضارة العريقة. ولا نعرف سببه على وجه التأكيد، ولكن من المحتمل أن الآريين - بسبب حداثة إقامتهم في الهند أثناء تأليف هذا الكتاب - اكتفوا بتسجيل أحاسيسهم وعواطفهم وانطباعاتهم وتقاليدهم وانتصاراتهم وفرحتهم وبهجتهم^(١).

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص (٤٨) - (٥٠).

المطلب الثاني

بيان أحوال أهل شبه القارة الهندية

إن بيان أحوال شبه القارة الهندية على وجه العموم من الصعوبة بمكان؛ فلو كان البيان خاصاً بمرحلة زمنية لكان دقيقاً وممتعاً، ولما كانت الديانة الهندوسية لا تختص بمرحلة زمنية معلومة، فإنني إذ أتطرق إلى بيان أحوال شبه القارة الهندية أحاول أن أضع خطوطاً عامة على أحوالها التي مرّت عليها في التاريخ من غير تفصيل في ذلك؛ إذ طبيعة البحث تلزمني الإيجاز والاختصار.

وعلى هذا أقصر كلامي في بيان أحوال شبه القارة الهندية في الفروع الثلاثة الآتية:

الفرع الأول: الحالة السياسية

إن الحالة السياسية لشبه القارة الهندية في الماضي تتسم بالغموض والإبهام؛ إذ أن أقدم حضارة عرفت في تاريخ شبه القارة الهندية حضارة وادي السند، ثم مر بالحضارة الآرية، ثم بحضارات فارسية ويونانية، ثم تنور بالحضارة الإسلامية، ثم بالحضارة الأوروبية، وبالتالي بالحضارات الغربية، ومعلوم أن لكل حضارة ميراثها، ولكل قوم سياستها في البلاد والعباد. إلا أنني هنا سأقسم الحالة السياسية في شبه القارة الهندية إلى أربع مراحل رئيسة:

الأولى: الحالة السياسية في شبه القارة الهندية قبل الحكم الإسلامي

إذا أردنا أن نلخص الحالات السياسية لتلك المرحلة لشبه القارة الهندية نستطيع أن نقسمها ثلاث مراحل وهي على النحو الآتي:

١) الحالة السياسية العامة في حضارة وادي السند:

إن الحالة السياسية العامة في حضارة وادي السند تتصف على العموم بالغموض لعدم التمكن من قراءة رموز الكتابة التي عثر عليها، إلا أن الذي يظهر من بعض الآثار المحفورة أنه قد بلغت شؤون التنظيم والإدارة في مصلحة البلديات حينذاك أقصى درجة من الإتقان والنضج، كانت العمارات تنشأ وفق مشروعات وضعت قواعدها وأصولها بعد دراسات علمية واسعة شاملة، ومن هنا نظمت الشوارع تنظيمًا رائعًا، وكانت الشوارع واسعة ونظيفة ومنظمة ومنسقة إلى درجة كبيرة، وكذلك العمارات والقلاع قد شيدت بمتهى التنسيق والتنظيم ورصفت رصفاً دقيقاً، ومن هنا نعلم أنهم كانوا على قدر كبير من التفوق في سياسة البلاد والعباد، كما يفهم من كثير من الآثار أن أهل حضارة وادي السند كانوا ينظرون إلى الملوك بأنهم خلفاء الله في الأرض، وهكذا كانت نظرهم إلى الكهنة، وكانوا يرون حق نواب الملوك من الحكام والموظفين الكبار على جميع الناس^(١).

٢) الحالة السياسية العامة بعد دخول الآريين في الهند:

أما بالنسبة للآريين: فالذي يظهر من خلال ريگ فید أن النظام كان ملكياً^(٢)، وكان من أهم أعمال الملوك السيطرة على الأعداء، وكان هناك فئتان من الناس، الآريون وغيرهم، وكان الآريون يسمون الآخرين بـ«دسيو»، ويتضح من بعض الفقرات أن الملك كان ينتخب من قبل بعض الأعيان، كما يفهم من الفقرات الأخرى أن الملكية كانت ثابتة، بحيث يكون الولد ملكاً بعد والده^(٣)، كما يوجد من بعض الفقرات أن الملوك كانوا يأخذون الخراج^(٤).

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص(٦٧).

(٢) انظر ريگ فید (١٧٣/١٠)، و(١٧٤/١٠). حيث إنهما في مدح الملك.

(٣) انظر ريگ فید (١٨/٧).

(٤) انظر ريگ فید (١٠/٦٣) (١٠/٦٧) (٥/٦٧).

ويبدو أن الآريين كانوا يسكنون في مساكن «دسيو» بعد الاستيلاء عليهم، فما كانوا متحضرين، بل كانوا في البداية رُحَّلًا ثم تعرفوا على الحياة المدنية، بل ظهر فيهم في البداية النظام القروي وازدهر إلى حدٍّ ما^(١)، وقد امتازت الحياة القروية عندهم بطابع ديمقراطي وفق مصطلحنا الحديث، فقد منح الشعب - على الرغم من وجود نظام وراثي لتولي زعامة القبيلة كما سبق - بعض الحرية للتعبير عن إرادته، وقد وردت إشارات بوجود مثل هذه الحرية في كتبهم المقدسة مثل الثيديات والأوبانيشادات، كما وردت إشارات كذلك عن ملوك ارتقوا عروشهم عن طريق الانتخاب، ولعل ذلك حين لم يخلف الملك وراثاً له من أبنائه. كما يظهر من الثيديات والأوبانيشادات أن المجالس القروية المنتخبة قد تمتعت بسلطات عزل الملوك أو إعادة الملوك المعزولين، ولكن مثل هذه المنظمات فقدت نفوذها بعد قيام الإمبراطوريات.

وفي النظام القروي المتبع عندهم قد تمتعت كل قرية بمجلس قروي منتخب، ودرجت هذه المجالس على منح أفراد الشعب حرية التعبير والمناقشة الظاهرة، وكانت لا يبت في الشؤون السياسية فحسب بل وفي الشؤون الاجتماعية والدينية أيضاً^(٢).

وقد حافظ الآريون على الحياة القروية قرابة ألف سنة، فلم تظهر المدن خلال هذه المدة الطويلة، كما لم تظهر الحكومات المدنية، بل نزحوا إلى مناطق الجبال والغابات الموجودة على وديان هملايا وسهول نهري غنغا ويامونا فإن وجود الغابات الكثيفة منعهم من التوغل فيها قرابة ألف سنة، ثم استطاعوا رويداً رويداً قطع الأشجار الكثيفة وإنشاء القرى بها، إلى سنة ٨٠٠ ق.م تقريباً. ثم أنشأوا خلال عام ٦٠٠ ق.م تقريباً دولتين: واحدة في ولاية أترا براديش وهي «كوسالا» والأخرى في ولاية بهار وهي «مجدا» مسقط رأس بوذا.

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة، حضاراتها ودياناتها ص(٦٦).

(٢) المصدر السابق ص(٦٧).

(٣) الحياة السياسية للعصر البرهماني وما بعدها إلى العصر الإسلامي:

هذه الفترة يطلق عليها «عصر الراجبوت»، وتعني كلمة «الراجبوت» (Rajput) سليل أسرة ملكية، يدعى أمراؤها بأنهم ينحدرون من الشمس والقمر، وشهدت تلك الفترة سيادة روح الفروسية والإقطاع، وعلى صعيد آخر: عملت الخلافات الأسرية، والشعور بالكبرياء الشخصي على إزكاء نار الصراعات، ونتيجة لذلك عمل ملوك الراجبوت على إضعاف بعضهم البعض من خلال حروبهم المستمرة، الأمر الذي شجع الغرباء على شن حملات وغارات ناجحة ضدهم.

فالذي يظهر أنه كان هناك ملوك، يستولى بعضهم على بعض، وكان من الملوك من يتهج منهج الفلاسفة، وكان لدى الملوك استبداد وظلم، إلا أن البراهمة كانوا مسيطرين على أغلب المناصب العليا من البلاد، وكان ينظر إلى البراهمة بأنهم عنصر إلهي، وهم بذلك كانوا يظلمون الطبقات الأخرى.

وقد أثبتت الشريعة الهندوسية المتمثلة في قوانين «مَنُو» قوانين ثابتة لهذه الطبقات ووظائفها وأعمالها، بحيث يكون من المستحيل الخروج عن هذه القوانين^(١).

وأما الجوانب الأخرى فلم تكن أحسن حالاً مما ذكر؛ فإن مَنُو نفسه نص على أمور تتعلق بالمرأة فقد جعلها لا تستقل بنفسها في حياتها، ولا تملك أدنى حرية، وبالمقابل جعل أغلب الحقوق للبراهمة، وهو واضح جداً لمن يطالع كتاب مَنُو سَمَرْتِي، وسيأتي بيان ذلك في الفصل الخاص بالتشريعات.

الثانية: الحالة السياسية في شبه القارة الهندية بعد الحكم الإسلامي

أما بعد دخول المسلمين وأخذ الحكم من الهندوس، فاختلف حال شبه القارة الهندية من جميع النواحي، وفيما يلي بيان مقتضب للحالة السياسية في شبه القارة الهندية حتى استيلاء الاستعمار عليه.

(١) انظر مَنُو سَمَرْتِي، الباب الأول، فقرة (٨٨-٩١).

إن أول دخول المسلمين إلى الهند كان في منطقة السند سنة (٦٩هـ)، بقيادة الأمير الشاب محمد بن القاسم الثقفي، وكان إقليم (السند) تحت الحكم العباسي بعد الأموي إلى أن تسلل الإسماعيليون إلى هذا الإقليم، وكونوا إمارة إسماعيلية، ولما دخل (السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي) (٣٨٧هـ - ٤٢١هـ) إلى الهند، قضى على هذه الإمارة وضمها إلى دولته وذلك عام (٤٠٢هـ)^(١)، ومن هنا بدأ ظهور الدول المسلمة المستقلة في شبه القارة الهندية، وقد توالى على (الهند) منذ دخول الغزنويين حتى سقوط الدول الإسلامية الأسر الآتية:

أولاً: الدولة الغزنوية (٣٩٢-٥٧٩هـ):

تولى السلطان محمود الغزنوي رَحِمَهُ اللهُ شئون الدولة الغزنوية بعد وفاة أبيه، ونذر نفسه للجهاد لإعلاء كلمة الحق وذلك عام (٣٩٢هـ)، فقاد سبع عشرة حملة إلى الهند، قضى فيها على الفرق الضالة، وعمل على نشر الإسلام، ووطد حكم الغزنويين في بنجاب ودهلي ولاهور، كما ضم كشمير إلى ملكه عام (٤٠٧هـ)، فكانت فتوحاته بداية حقبة جديدة في تاريخ شبه القارة الهندية وكان محمود يرسل بأخبار انتصاراته إلى الخليفة العباسي القادر بالله في بغداد فتعمها الأفراح، وأنعم عليه الخليفة بلقب يمين الدولة^(٢).

كان محمود الغزنوي أول مسلم فاتح دخل الهند عن طريق الجبال الشمالية الغربية، وفتح من الهند ما امتنع على غيره، وعبد طريقاً سلكه كثيرون من بعده الذين تولوا الحكم في الهند وأقاموا الدول لهم^(٣).

تولى شئون الدولة الغزنوية بعد وفاة السلطان محمود أبنائوه وحافظوا على الدولة

(١) انظر: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١/٧٦).

(٢) انظر ما ذكره محمد يوسف النجرامي: العلاقة السياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية ص (١١٥).

(٣) انظر: تاريخ الإسلامي السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، للدكتور حسن إبراهيم حسن (٩٤/٣).

وقاموا بالفتوحات ووطدوا أقدام المسلمين في الهند^(١).

ثانيًا: الدولة الغورية (٥٧٩-٦٠٢).

بعد فقد الغزنويين السلطة على الهند عام (٥٧٩هـ) خلفهم الغوريون، وأول من حاول أن يضم شتات «الهند» في دولة واحدة هو «محمد بن شهاب الدين الغوري» (٦٠٠-٦٠٢هـ)، فقد استطاع الاستيلاء على السند ودهلي وبنغال وبهار، واتخذ دهلي قاعدة لحكومته، وبدأ حكم المسلمين في شمال الهند بأكمله على أساس راسخ وطيء، وصار لهم دولة مرهوبة الجانب، وسبعة الرقعة، وذلك بعد أن قضى على القرامطة والإسماعيلية الذين أثاروا الفتن والاضطرابات في البلاد، وأضعف الراجبوت من الهندوس^(٢).

ثالثًا: دولة المماليك (٦٠٢-٦٨٩هـ):

بعد ما اغتيل «السلطان محمد الغوري» عام ٦٠٢هـ من قبل بعض الفرق الباطنية، قام أحد عبيده المسمّى «قطب الدين أيلك» بأمر الدولة ونصب نفسه سلطانًا على الهند، فأقر الأمن من البنغال شرقًا إلى آخر حدود البنجاب غربًا، وحرص على إقامة العدل بين الناس، وعلى نشر الإسلام^(٣).

رابعًا: الدولة الخلاجية: (٦٨٩-٧٢٠هـ).

كان الخلاجيون أمراء في دولة المماليك في الأقاليم الشرقية، ولما ضعف سلطان هذه الدولة نهض زعيم الخلاجيين «جلال الدين فيروز شاه» على عرش دهلي عام (٦٨٩هـ)، وخلف جلال الدين ابن أخيه علاء الدين الخلاجي (٧١٥هـ)، وقد شملت

(١) انظر ما ذكره الساداتي، الدكتور أحمد محمود: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١٠٠-١١١).

(٢) انظر ما ذكره عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند (٩٨-١٠٤)، والبشبيشي: الهند خلال العصور ص (٧٠-٧١).

(٣) انظر ما ذكره الساداتي، الدكتور أحمد محمود: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١٢٢/١)، (١٤٧).

فتوحاته شبه القارة الهندية بأكملها، فكان ذلك أول حدثٍ من نوعه في تاريخ «الهند»؛ إذ كان الجنوب قبل هذا في منأى عن كل ما يجري في شمال البلاد^(١).

خامسًا: الدولة التغلقية (٧٢٠-٨١٧هـ):

ارتقى غياث الدين تغلق على عرش دهلي عام (٧٢٠هـ)، وبهذا يتبدأ عهد الدولة التغلقية، ومن أشهر سلاطينها «محمد تغلق» (٧٥٢هـ)، الذي تمكن من حكم الهند كاملةً، وجدّد الأواصر بالخلافة العباسية «بالقاهرة»^(٢).

وقد قدم على هذا الملك الرحالة الشهير «ابن بطوطة» وتحدث عنه طويلاً وقد قضى «ابن بطوطة» ثماني سنوات في «الهند» ثم غادرها متوجّهاً إلى «الصين» عام (٧٤٣هـ)^(٣).

وكان خلفه «فيروز شاه تغلق» (٧٩٠هـ)، من أشهر ملوك الهند الذين قاموا بنشر الإسلام، وبالإصلاحات الدينية والأعمال الخيرية^(٤).

سادسًا: الأسرة اللودھية في سلطنة دهلي (٨٩٣-٩٣٢هـ):

اضطرب الأمر بعد وفاة «فيروز شاه تغلق» (٧٩٠هـ)، وتمكن «تيمور لنگ» من غزو «دهلي» عام (٨٠١هـ)، ودخلها، فأدى ذلك إلى تفكك الدولة الإسلامية، وانفصلت أغلب ولاياتها عن «دهلي» مثل: «غجرات» و«جونبور» و«البنغال» و«الدكن»،

(١) انظر ما ذكره لوثرروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، ترجمة: عجاج نويهض، عليه تعليقات للأثير شكيب أرسلان (٢٩٣/٤)، انظر التفاصيل عنهم فيما ذكره عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند ص (١١٦-١٢٥).

(٢) انظر: العلاقة السياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية (١٣٩).

(٣) انظر: رحلة ابن بطوطة ص (٤٥٢-٥٤٠)، تحقيق: الشيخ محمد بن عبد المنعم العريان وغيره.

(٤) انظر التفاصيل عنهم في: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١/١٦٩-٢٠٨).

وأصبحت إمارات إسلامية مستقلة^(١).

واستولت الأسرة اللودھية - وهي أفغانية الأصل - على «دهلي» بقيادة «بھلول لودھي» (٨٩٣هـ)، القائد الطموح، وثبت أركان دولته في دهلي، والمناطق المجاورة لها^(٢).

سابعاً: الدولة المغولية الأولى (٩٣٢-٩٤٧هـ):

تأسست الدولة المغولية على يد «ظھير الدين محمد بابر المغولي» المتوفى سنة (٩٣٧هـ)، بعد موقعة «باني بت» الحاسمة حيث قضى على اللودھيين وجلس على عرش «دهلي» وذلك عام (٩٣٢هـ)^(٣)، وتولى بعد بابر ابنه همايون المتوفى سنة (٩٦٣هـ)، مملكة الهند، إلا أنه فقد ملكه بيد «شير شاه» أحد الأفغان.

ثامناً: الدولة «السورية» الأفغانية (٩٤٧-٩٦٢هـ):

تأسست الدولة «السورية» الأفغانية عام ٩٤٧هـ^(٤) بيد القائد المحنك الأفغاني فريد خان المعروف بشير شاه سوري، ومن هنا تبدأ صفحة أخرى هي من أمجد الصفحات في تاريخ ملك من الملوك، فقد كان رؤوفاً رحيماً حازماً سياسياً محنكاً محبباً لدى النفوس، حتى المزارعون كانوا يحبونه لحسن سياسته لأموال الخراج وما إلى ذلك.

تاسعاً: الدولة المغولية الثانية (٩٦٢-١٢٧٥هـ):

تأسست الدولة المغولية الثانية للمرة الثانية بيد همايون المتوفى سنة (٩٦٣هـ)، حيث استعاد ملكه من الأسرة الأفغانية بسنة (٩٦٢هـ)، وتولى عرش الهند ابنه أبو الفتح جلال الدين محمد أكبر، المتوفى سنة (١٠١٤هـ).

واستمر الحكم للأسرة المغولية على البلاد الهندية حتى الربع الأخير من القرن

(١) انظر: المصدر السابق (٢٠٨-٢٢٨).

(٢) انظر ما ذكره عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند ص (١٤٨-١٥٠).

(٣) انظر تفاصيل القصة في: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (٢٠٠/٢-٢٣).

(٤) يوافق في السنة الميلادية ١٥٤٠م.

الثالث عشر الهجري إذ تم استيلاء الإنجليز عليها عام (١٢٧٥هـ) وضمها إلى التاج البريطاني رسميًا^(١).

ومما يجدر بالذكر هنا أنه كان للفتح الإسلامي أثر كبير في توحيد أطراف الهند المترامية في دولة واحدة؛ فإن البلاد الهندية لم تشهد الوحدة إلا في ظل حكم المسلمين، وذلك أن الحكام المسلمين كانوا يعملون على توسيع رقعة مملكتهم، وتوحيد البلاد تحت سلطانهم - وكانت البلاد قبل ذلك نهبا لملوك الطوائف المتقاتلين فيما بينهم على الدوام - وبذلك شهدت البلاد الهندية نوعا من توحيد الحكم والسياسة ربما لم تعرفه من قبل، بالإضافة إلى ذلك ما بلغ من الرقي بتنظيم الإدارة، وضبط أداة الحكم، وبسط الأمن في أكثر بقاع الهند ولاسيما الأقطار الشمالية منها، وذلك لم يكن متيسرا قبل ملوك المسلمين^(٢).

إن حكم المسلمين للهند كان رحمة من الله على أهل تلك البلاد، حيث إن حكام المسلمين - ما عدا شرذمة منهم - سعوا إلى إقامة العدل والإنصاف بين الناس، فلو نظرنا من بداية العهد الغزنوي إلى نهاية العهد المغولي لا نجد إلا الخير والبركة لعموم أهل الهند، ولم يكن ذلك خاصة لفئة دون فئة؛ فإن الفاتحين لما استقروا في أرض الهند حفظوا ثروتها فيها، واستخدموها في تنمية البلاد، وتطويرها، كما انتعشت التجارة البحرية، وازدهرت صلات الهند مع كثير من البلدان الخارجية التي كانت مفقودة فيها منذ قرون^(٣).

وقد وضع بعض الحكام نظاما مالياً، ورقابةً دقيقة على الأسواق والأسعار مع

(١) انظر ما ذكره عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند ص (٤٦٣-٤٦٤).

(٢) انظر ما ذكره عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند ص (٣٢١، ٣٢٩). وانظر ما ذكره الدكتور محمد كبير أحمد شودري: فرق الهند المنتسبة للإسلام في القرن العاشر الهجري وآثارها في العقيدة «دراسة ونقداً» ص (٢٤-٣١).

(٣) انظر ما ذكره الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية (١/٢٥٣)، وانظر ما ذكره عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند ص (٣٢٩).

وضع عقوبات صارمة ضد مدلسي التجار حتى عمّ اليُسْر والرخاء في البلاد، وتوفرت الأقوات لسكان الهند بأسعار في متناول أدنى طبقاتها^(١).

كما عمل السلطان «فيروز شاه تغلق» (٧٩٠هـ) على إصلاح مساحات واسعة من الأراضي، وأحكم نظام الري، وجدّ في حفر الآبار والقنوات حتى توافرت الأرزاق، وعم الرخاء إلى درجة كاد الناس أن ينسوا قسوة المجاعات التي ألّمت بهم من قبل، وكذلك عني بشؤون الضرائب فأحكم نظامها ورفع الكثير منها عن الذين لا يستطيعون، وأمر ألا تعدو جبايتها حدود الشرع، وراقب ذلك كله بحزم وشدة.

وأما غنائم الحرب فقد خص بيت المال بنصيبه الشرعي منها، وأطلق الباقي لرجاله وفقراء شعبه مما أدى إلى تحسين الحالة الاقتصادية لعامة الناس^(٢).

وهكذا عمل السلطان سكندر شاه (المتوفى سنة ٩٢٣هـ)، فقد عمل على توفير الأقوات لأهالي الهند، وضبط أسعارها ضبطاً محكماً، كما كان يأمر من حين لآخر بإحصاء الفقراء والمعوزين، ومنح كل واحد منهم من المؤن ما يكفيهِ لأشهر ستة^(٣).

لقد حكم المسلمون شبه القارة الهندية اثني عشر قرناً، وكان لهم فضل كبير في جعل الهند بلاداً عامرة، وأوجدوا فيها إمبراطوريات مستقرة، ونشروا دين الإسلام حتى أصبحت البلاد تضم اليوم أكثر (٣٥٠) مليون مسلم اعتنقوا الإسلام طائعين مختارين متأثرين بأخلاق مواطنيهم المسلمين، ولولا أن المسلمين أهملوا واجباً كبيراً وهو دعوة الهندوس إلى الإسلام كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] لما بقي اليوم في الهند من يعتنق الهندوسية ولكن المسلمين قصرُوا بهذا الواجب بحجج واهية منها: لا إكراه في الدين، ومنها: أن هذا يؤدي إلى انحلال الدولة، وما إلى ذلك من التعليقات.

(١) انظر ما ذكره الساداتي: تاريخ المسلمين في الهند (١/ ١٦٢، ١٦٤).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٨٦).

(٣) انظر المصدر السابق (١/ ٢٤٤).

وإن المسلمين الأوائل أيام سلطانهم مؤاخذون على ترك الهندوس في ظلماتهم، فلو بذلوا شيئاً قليلاً من النصح والإرشاد المنظم لتغير وجه الهند، ولابتعدوا عن الجرائم التي كان الهندوس يمارسونها ضد الضعفاء من الطبقات السفلى - على حد زعمهم - وتجاه النساء عموماً والأرامل على الخصوص.

يوجد اليوم في الهند وباكستان وبنغلاديش أكثر من (٣٥٠) مليون مسلم أنقذوا أنفسهم طائعين مختارين، على مدى اثني عشر قرناً، من أساطير الهندوسية وسخافاتهما، وأقول إنهم أنقذوا أنفسهم؛ لأن ٩٩٪ منهم من أصل هندوسي تركوا خرافاتهم واعتنقوا الإسلام ولو عمل المسلمون بموجب تعاليم دينهم ودعوا الهندوس إلى الإسلام، واجتهدوا في ذلك، لزالَت هذه السخافات من الأرض، ولما بقي إنسانٌ يدين بدين اسمه الهندوسية، ولكان عمل المسلمين هذا من أعظم الحسنات على الهندوس وعلى الإنسانية^(١).

نعم إن هناك من ينقل لنا أن المسلمين كانوا يجبرون الهندوس على قبول الإسلام، ولاشك أن هذا على العموم كذبٌ وزورٌ، لا يقول به إلا هندوسي متعصب أو أوروبي حاقد رأى عز الإسلام ونشره في ربوع الهند فحمله على الكذب والافتراء والبهتان^(٢)، وإلا فإن المنصفين يشهدون بسماحة الإسلام في الهند وسلامة حكامها من أي نوع من الإكراه والإجبار^(٣).

(١) انظر ما ذكره الدكتور إحسان حقي: مقدمة كتاب علمانية الهند ص(١٢-١٤). وأصل الكتاب لـ «شريف المجاهد».

(٢) انظر مثل هذا الافتراء عند: سير توماس أو أرنولد: الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية ص(٢٨٥-٢٩٦).

(٣) انظر:

Medieval India p. 509، Havell p. 257،

Arnold، Th. The Preaching of Islam p. 420

الثالثة: الحالة السياسية في شبه القارة الهندية تحت الاحتلال البريطاني:

أما عصر الاحتلال البريطاني فكان عصر الظلم والاستبداد، إلا أنهم أقاموا في الهند منشآت ضخمة، وجعلوا لهم أتباعاً ينهاجون منهمجهم ويتبعون أوامرهم حتى الآن.

الرابعة: الحالة السياسية في شبه القارة الهندية بعد الاستعمار إلى الآن:

أما الأحوال السياسية لشبه القارة الهندية بعد الاستعمار، فقد انقسمت الهند إلى دولتين كبيرتين: الهند وباكستان، ثم انقسمت باكستان إلى دولتين: بنغلاديش وباكستان وذلك عام ١٩٧١م، بمكر من الهند وسوء تصرف الحكام المسلمين.

الفرع الثاني: الحالة الاجتماعية

إن ملامح الحياة الاجتماعية تغيرت مرات عديدة حسب المراحل الزمنية التي مر بها تاريخ شبه القارة الهندية، وحسب المعتقدات الدينية لدى شعوبها، وفيما يلي أذكر أهم ملامح الحياة الاجتماعية لشبه القارة الهندية:

❖ الحياة الاجتماعية في شبه القارة الهندية على مرّ التاريخ:

كان المجتمع الهندوسي قبل الإسلام يسوده قانون الطبقات الجائر الذي يقسم أهل البلاد إلى أربع طبقات رئيسة، وهي:

١- البراهمة، طبقة الكهنة ورجال الدين.

٢- الكهشترى، المحاربون، والملوك.

٣- فايشا، الزراعة والصناع، والتجار.

٤- الشودرا، رجال الخدمة، وهم المنبوذون.

وهناك أناسٌ «خارج الطبقات»، Out cast، وهؤلاء منزلتهم أحط من الكلاب والخنازير والحيوانات الأخرى السافلة.

كما امتاز هذا المجتمع بالشهوة الجنسية الجامحة العارمة حتى وصلت عبادة آلة التناسل لإلههم الأكبر «شيفا» (مهاديو) وتصويرها في صورة بشعة، واجتماع أهل البلاد عليها من رجال ونساء وأطفال وبنات، وكذلك كان رجال بعض الطوائف الدينية يعبدون النساء العاريات، والنساء يعبدن الرجال العراة.

وأما المرأة فكانت منزلتها في الحضيض، وقد يخسر الرجل امرأته في القمار، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج، وإذا مات زوجها صارت منبوذة لا تتزوج، وتكون هدفاً للإهانات والتجريح، وقد تحرق نفسها مع جثة زوجها الميت وفاء له، وكان المجتمع الهندي يرى أن هذا مظهر للحب والوفاء للزوج الميت، ويسمونه «ستي پرتها»^(١).

(١) انظر ما ذكره الشيخ أبو الحسن علي الندوي: ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص (٥٨-٦١)، =

❖ الحياة الاجتماعية في شبه القارة الهندية بعد دخول المسلمين فيه:

لما دخل الفاتحون الأولون من المسلمين العرب الهندَ نقلوا إلى البلاد التي فتحوها واستقروا فيها دينهم ولغتهم وكثيراً من تقاليدهم وعاداتهم، وقد انحصر الفتح الإسلامي أول الأمر في غرب الهند.

وبعد ذلك بقرون دخل المسلمون فاتحين تحت قيادة «السلطان محمود الغزنوي المتوفى سنة (٤٢١هـ)، وفي عهد الغزنويين أصبح الإسلام محور كل مظهر من مظاهر حياة المسلمين الاجتماعية والقضائية والسياسية لا يعرفون مرجعاً سواه، فهو العمدة في العقيدة والتشريع وفصل النزاعات بين الأفراد، وأزالوا الطبقات الهندوسية فيما بينهم من الأرض التي حكموها باسم الإسلام.

امتاز العهد الغزنوي بأن خلف الفاتحون علماء في البلاد المفتوحة بعد الفتح، يقومون بالدعوة إلى الإسلام، وتعليم من يسلم من أهلها أمور الدين، وما يجب عليه عمله في حياته الإسلامية^(١).

وبعد فقد الغزنويين السلطة على الهند خلفهم الغوريون الأفغان ومماليكهم، وظل الإسلام في عهدهم هو المظلة الوحيدة يستظل تحتها المسلمون خاصةً في باب القضاء وإنصاف المظلومين، وإرجاع الحقوق إلى أهلها الشرعيين، والضرب على يد العابث دون استثناء، وذلك بنصب القضاة في الأقاليم النائية^(٢).

وظهر في عهد الغوريين ظاهرة اجتماعية غريبة والتي أصبحت فيما بعد شيئاً مرغوباً فيه عند الملوك خاصةً عند المغول، ألا وهي ظاهرة البناء على قبور العائلة

= وانظر ما ذكره الدكتور كبير أحمد شودري: فرق الهند المنتسبة إلى الإسلام في القرن العاشر الهجري وآثارها في العقيدة ص(٣٢-٣٣).

(١) انظر ما ذكره ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٧/٣٤٧، ٣٤٨)، وحسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (٣/٨٩، ٩٠)، والدكتور كبير أحمد شودري: فرق الهند المنتسبة إلى الإسلام في القرن العاشر الهجري وآثارها في العقيدة ص(٣٣).

(٢) انظر ما ذكره ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٩/٢٧٣، ٢٧٤).

المالكة كبناء «شهاب الدين الغوري» على ضريح زوجته، وهذه البدعة رغم أنها وجدت قبل الغوريين غير أن البناء من قبلهم كان يختص بالرجال الذين يعتقد صلاحهم، فابتدع الغوريون البناء على قبور الملوك ومن يتسبب إلى بيت الملك، ولم تزل هذه الظاهرة تنمو بخطى حثيثة حتى العصر الحديث^(١).

كذلك دخل في المجتمع الإسلامي في عصر المماليك فن التصوير والتمثيل المنحوتين، وذلك شيء لم يكن لمسلمي الهند عهداً به، يصف الرحالة ابن بطوطة الوضع القضائي والتصوير المنحوت، فيقول: ومن مآثره - أي السلطان ألتمش - أنه اشتد في رد المظالم، وإنصاف المظلومين، وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوباً مصبوغاً، وأهل الهند جميعاً يلبسون البياض - فكان متى قعد الناس أو ركب فرأى أحداً عليه ثوب مصبوغ نظر في قضيته وأنصفه ممن ظلمه، ثم أنه أعيان في ذلك فقال: إن بعض الناس تجري عليهم المظالم بالليل، وأريد تعجيل إنصافهم، فجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام موضوعين على برجين هنالك، وفي أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير، فكان المظلوم يأتي ليلاً فيحرك الجرس فيسمعه السلطان، وينظر في أمره للحين وينصفه^(٢).

وقد برزت أيام الخلفيين عند المسلمين ظاهرة تقبيل الأرض بين يدي السلطان كإظهار الاتباع وتجديد الولاء، وتطورت هذه الظاهرة مع مرور الزمن وبرزت في صورة السجود بين يدي السلطان خاصة في عهد المغول، وهذا مع حرمة ينتج منه ترفع الملك عن الناس، حيث يعد نفسه وأسرته وعائلته أفراداً مختارين ومفضلين، يجب على الرعية تعظيمهم وتبجيلهم، واستحدثت لهذه الظاهرة اصطلاح «الخدمة»^(٣).

وقد حدثت في عهد بني تغلق ظاهرة كثرة ارتياد الناس لقبور الصالحين حكاًماً

(١) انظر المصدر السابق (٣٦/٩)، وما ذكره عبد الحي الحسني: الهند في العهد الإسلامي ص (١٨١).

(٢) رحلة ابن بطوطة ص (٤٣٣، ٤٣٤)، بتصرف.

(٣) انظر المصدر السابق ص (٥١٣، ٥١٤).

ومحكومين لالتماس البركة والدعاء^(١).

كما برز في هذا العهد لدى الصوفية فكرة الانقطاع عن الناس، والاتجاه إلى الكهوف والغابات، والتخلي عن جميع مستلزمات الحياة حتى وصل الأمر ببعضهم إلى التعري، ونبد اللباس، بحجة التجرد التام عن هذه الحياة^(٢).

وفي عهد المغول لما تولى «الملك أبو الفتح جلال الدين محمد أكبر» المتوفى سنة (١٠١٤هـ) مملكة الهند وانحرف هو عن جادة الصواب أدخل في المجتمع الإسلامي كثيرًا من عادات الهندوس الوثنيين وتقاليدهم، كوضع نقطة من الطين الملون على الجبين، ولبس الزنار وشرب الماء من نهر غنغا، والاحتفال بأعياد الهندوس، والمصاهرة معهم، ومنع الختان، ومنع أكل لحوم البقر، والمشاركة في كثير من العادات والمظاهر الهندوسية^(٣).

ومن ناحية أخرى تأثر الهندوس بالإسلام في حياتهم الاجتماعية، فقد خفت حدة التوتر القائمة بين الطبقات في المجتمع الهندوسي، وقلَّ إحراق الأرملة مع زوجها حيًا.

وأما الحالة الاجتماعية في الأزمان المتأخرة من العهد المغولي إلى نهاية حكم المسلمين في الهند عمومًا، فإنه قد وصل المسلمون في قمة الشرف والمكانة العظمى في عهد أورنغزيب رَحِمَهُمُ اللَّهُ المتوفى سنة (١١١٨هـ، ١٧٠٧م)، فقد كان ملكًا باسلًا شجاعًا، ورعًا، لا يخاف في الله لومة لائم، وهو الذي دحر الهندوس المتعصبين، إلا أن

(١) انظر المصدر السابق ص (٥٠٥، ٥٠٦).

(٢) انظر ما نقله الدكتور كبير أحمد شودري: فرق الهند المنتسبة إلى الإسلام في القرن العاشر الهجري وآثارها في العقيدة ص (٣٦) عن نزهة الخواطر، ولم أهدأ إليه في كتاب نزهة الخواطر حتى الآن.

(٣) انظر ما ذكره أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة في الإسلام (٣/٩٣، ٩٤، ١٠١، ١٠٣، ١٠٦)، وانظر أيضًا ما ذكره الدكتور كبير أحمد شودري: فرق الهند المنتسبة إلى الإسلام في القرن العاشر الهجري وآثارها في العقيدة ص (٣٦).

الأمر تغير كثيراً بعد موته لعدم وجود من يقوم بمهام هذه الدولة العظيمة، حتى انقسمت الدولة الإسلامية إلى دويلات يتآمر بعضهم على بعض، ويستنجد بعضهم بالإنكليز ضد إخوانه المسلمين، حتى وصل الأمر إلى أن ضاع ملكهم وتلاشى وسيطر عليه الأوروبيون.

❖ الحياة الاجتماعية في العصر الحاضر في شبه القارة الهندية:

إن الحياة الاجتماعية في العصر الحاضر يمكن أن نتكلم عليها في المحاور الآتية:

أولاً: على العموم:

(١) تأثر عموم أهل الهند في ثقافتهم وحياتهم الاجتماعية بثقافات الدول الغربية في كثير من عاداتهم وثقافتهم.

(٢) اختلفت الحياة الاجتماعية بين المدن والقرى:

تتكون معظم القرى الهندية من أكواخ مزدحمة من الطين والحصير وتفتقر إلى خدمات المياه والكهرباء، ولكن التطور الاقتصادي ساعد في تطوير حياة القرى وزيادة الإنتاج الزراعي وتقديم خدمات الكهرباء والمياه والخدمات الصحية، ومن الظواهر الاجتماعية في القرى ارتباط الناس بعضهم ببعض والمواساة فيما بينهم.

أما المدن الكبرى، فتعتبر مراكز للتجارة والسياسة والخدمات الجامعية والخدمات الدينية التي تقدمها المعابد لزوارها من أنحاء الهند المختلفة، كما تشمل المدن على أحياء فقيرة تفتقر إلى المياه والكهرباء والخدمات الصحية، والناس لا يوجد بينهم رباط قوي مثل الحال في القرى.

(٣) اختلاف الحياة الاجتماعية من ديانة إلى ديانة:

إن الحياة الاجتماعية لدى أهالي شبه القارة الهندية في العصر الحاضر تختلف حسب الديانة التي تتبعها، فالمسلمون في الهند يحبون أن يعيشوا حياة اجتماعية إسلامية مستمدة من الكتاب والسنة، حيث لا ينظر إلى الإنسان إلا أنه خلق من خلق الله، وأن

معيار الفضل والكرامة هو تقوى الله، فلا يفضل أحدٌ على أحدٍ إلا بالتقوى، مع تخلل ذلك بعض الجهل بين أبناء المسلمين عن حقيقة دينهم وتأثيرهم ببعض مبادئ الأديان المجاورة، كما سيأتي بيانها في نهاية هذا الكتاب.

وأما أصحاب الأديان الأخرى فكل منهم ينهج المنهج الذي تقدمه له ديانتهم وهي على الأغلب جائرة ظالمة، فيها العنصرية والطبقية. فالهندوس مثلاً لا يزالون يمارسون الطبقة، ولا يزالون يرون بعض الناس جزءاً من الإله، والبعض الآخر أحط من الحيوانات، إلا أنهم أيضاً تأثروا ببعض الشيء بالمسلمين، وكمثال على ذلك بدأت الأرملة تتزوج مرة ثانية بعد أن كان ذلك محظوراً في المجتمع الهندوسي.

الفرع الثالث: الحالة الدينية

إن الهند بلد متنوع في سكانه وأصوله التاريخية، حيث يلتقي فيه الدراويد، والآرية، والهنون والراجبوت، والترك، واليونان، والعرب والمغول وغيرهم، خلال تاريخ طويل يمتد أكثر من ستة آلاف سنة حتى يومنا هذا، على ما قدر ما أمكن للأبحاث أن تخمّن وتقدر، ونشأ عن ذلك لغاتٌ عدة في هذا البلد، ونشأت ديانات مختلفة كذلك مع هذا التاريخ الطويل.

من أشهر الديانات في الهند:

١- الإسلام:

إن الإسلام هو أهم الديانات في شبه القارة الهندية من حيث أثرها التاريخي في بناء حضارة إنسانية واضحة المبادئ، وهو أهم الديانات؛ لأنه ديانة التوحيد التي خُتِمت بمحمد ﷺ، ويبلغ عدد المسلمين في شبه القارة الهندية أكثر من ٣٥٠ مليون نسمة، حيث إن عدد المسلمين في بنغلاديش أكثر من ١٣٠ مليون، ويبلغ عددهم في باكستان أكثر من ١٢٠ مليون، بينما يصل عددهم في الهند نفسه إلى ١٠٠ مليون نسمة، ويوجد أعداد ضئيلة من المسلمين في نيبال وبهوتان.

٢- الهندوسية^(١):

إن الهندوسية هي الواجهة الرئيسة لديانة أهل شبه القارة الهندية، وسيأتي الحديث عنها قريباً؛ إذ هي موضوع هذا الكتاب.

٣- البوذية:

وهي منسوبة إلى المفكر الهندي (كُوتَم بوذا) الذي ولد في قبيلة (ساكيا sakya) شرقي الهند بين مدينة (بنارس) و (جبال هماليا) شمال نهر غنغا، (٥٦٣-٤٨٣ ق.م)، وقيل غير ذلك.. وكلمة (بوذا) التي أطلقت عليه تعني العارف.

(١) ستأتي التعريف بها مفصلاً، حيث إن هذا الكتاب مخصصة لهذه الديانة.

وقد بثَّ بوذا مواظبه عن طريق الخطب دون أن يترك كتابًا فجمع بعض تلامذته مواظبه في كتب ألفوها. والمبادئ الأساسية لهذه الديانة كما وردت عن بوذا هي: العقيدة والأهداف النبيلة حسب تصويره، والكلام الحق، والعزيمة الصادقة، والفكر الصائب وتركز البوذية على تحليل الذات، وتقسّمها إلى عناصر خمسة: الجسد، الحس، الفهم، الشعور، المعرفة، وتعريف الحق والشرع والحسن والصدق حسب تأملاته^(١).

٤ - الجينية:

وهي ديانة قامت على الزهد الزائد، والتقشف والبعد عن الملذات. وعمادها الرياضة المتعبة، والمراقبة الذهنية الشاقة. وقد دفع مهابير^(٢) في القرن السادس ق.م. هذه الديانة ووسّع نطاقها، ورفع شأنها، حتى أصبح لها أثر في الفكر الهندي، وترك مهابير تراثًا واسعًا من مواظبه وخطبه^(٣).

٥ - اليهودية:

لعل أول بقعة وصلوها هي منطقة مليبار على الساحل الغربي، حين وصلها بعض اليهود العرب عن طريق التجارة التي كان يقوم بها بعض اليهود الحميريين. ويروي بعضهم أن من اليهود من هاجر إلى الهند عند انهيار أورشليم بعد عهد سليمان عليه السلام.

(١) يستحسن أن يراجع كتاب الدكتور عبد الله نومسوك: البوذية، تاريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها.

(٢) هو المعروف بسوامي مهابير سوامي، ولد سنة ٥٩٩ ق.م، وترهب في سن الثلاثين، وتوفي عام ٥٢٧ ق.م، ينحدر مهابير من أسرة من طبقة الكهشترية، أبوه أمير مدينة في ولاية بيهار، عاش في البداية حياة الترف ثم بعد موت والده عاش حياة الرهبة، اسمه الأصلي: «بردهامانا»، واختلف أتباعه بعد موته إلى ثمان فرق رئيسة، أهمها فرقتان: فرقة ديجامبرا، أي أصحاب الزي السماوي العراة، وفرقة شفيتامبرا: أي أصحاب الزي الأبيض.

انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/ ٧٥٢-٧٥٣).

(٣) يستحسن الاطلاع على كتاب الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي: فصول في أديان الهند، فقد ذكر هذه الديانة بإسهاب، وذكر الأديان الأخرى المتأثرة بها.

ولكن أعدادهم ظلت ضئيلة، وهاجرت أعداد منهم إلى أرض فلسطين المسلمة.

٦- النصرانية:

دخلت النصرانية إلى الهند مع «توماس» سنة (٥٢م)، حين جاء إلى كيرالا ثم تحول إلى مدراس، ودعا بعض السكان هنا وهناك إلى ديانته، وعند الساحل الغربي للهند، عند (ماليار). ودخلت الكاثوليكية الرومانية في القرن السادس عشر مع بعثة خاصة، ومع العدوان البريطاني انتشر المذهب البروتستانت. وأقام الاحتلال البريطاني كنائس في معظم مدن الهند. وانتشر كذلك المذهب السرياني والأرثوذكسي. ويبلغ عدد النصارى في الهند خمسة عشر مليوناً تقريباً.

٧- السيخية:

ظهرت هذه الديانة في الهند مع القرن الخامس عشر الميلادي، حين قام عدد من الرجال الذين يدعون محاولة إصلاح بعض العقائد والتقاليد الهندوسية القديمة، متأثرين بالديانات التي ظهرت في الهند وأهمها الإسلام. ولكنهم بدلاً من أن يتبعوا الإسلام ابتدعوا مذهباً جديداً عرف بالمذهب السيخي، المذهب الذي دعا إليه أحد هؤلاء الرجال وهو غورو نانك^(١) وأصبحت ديانة جديدة معادية للإسلام.

٨- هناك ديانات أخرى متعددة صغيرة مثل:

❖ الزرادشتية أو الفارسية، وهم المجوس.

(١) هو المؤسس لديانة السيخ، نانك، ويدعى غورو، أي: المعلم، ولد سنة (١٤٦٩م) في قرية ري بور دي تلفندي التي تبعد ٤٠ ميلاً عن لاهور، كانت نشأته هندوسية تقليدية، عمل محاسباً لزعيم أفغاني في سلطانبور، وهناك تعرف على أسرة مسلمة، ثم درس علوم الدين، وتنقل في البلاد، كما قام بزيارة مكة والمدينة، وحاول الدمج بين الديانتين في أفكاره، تأثره بأفكار أصحاب وحدة الوجود من الهندوس والمتصوفة واضحة جداً، توفي عام (١٥٣٩م)، ولا يزال له ثوب محفوظ عليه سورة الفاتحة وبعض السور القصيرة من القرآن. انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/ ٧٧٤-٧٧٥).

❖ ديانات القبائل الهمجية، وهي غير واضحة المعالم.

هذه هي أهم الديانات في الهند التي تمثل لنا مدى التنوع في الديانة الذي يصنع حياة الهنود.

والدين يؤدي دورًا مهمًا في حياة أهل شبه القارة الهندية من زمن قديم، فلم يسجل التاريخ عن شبه القارة الهندية إلا التدين، وإذا ما وجد حركات إلحادية في فترة من الفترات إلا أنهم سرعان ما يرجعون إلى التدين.

وحتى في العصر الحالي نرى التدين هو الظاهر في أهلها، حتى إن قوانين الهندوس وقوانين المسلمين تحكم طريقة اللباس والطعام والزواج لتابعي تلك الأديان، كما أدى التدين إلى تقسيم شبه القارة الهندية إلى ثلاث دول رئيسة هي: الهند وباكستان وبنغلاديش.

الباب الأول

التعريف بالديانة الهندوسية ومصادرها

ويشتمل على فصلين

الفصل الأول: التعريف بالديانة الهندوسية

الفصل الثاني: مصادر الهندوسية

الفصل الأول

التعريف بالديانة الهندوسية

المبحث الأول

التعريف بالهندوسية ومؤسستها

المطلب الأول

الهندوسية واشتقاقها

التعريف بكلمة «الهندوسية»:

الهندوسية: نسبة إلى كلمة «الهند»، فأصل الكلمة: الهند، ثم زيد إليه كلمة (وسية) للنسبة، وقد سبق معنا اختلاف الباحثين عن أصل هذه الكلمة ومعانيها^(١)، وحاصل الخلاف أن هذه الكلمة إما سنسكريتية وإما فارسية، وإما أنها نسبة إلى بعض الأشخاص، أو الأنهار أو الجبال أو الأماكن.

فالذين قالوا: إن هذه الكلمة (الهند) سنسكريتية فإنه إذا نسب إليه فإما يكون معنى الهندوسية: ما يتعلق بالسكان فيما وراء نهر السند، إذا قلنا: أن كلمة «الهند» من السند، وإما يكون معناها: ما يتعلق بسكان ما وراء النهر إذا قلنا أن كلمة «الهند» من الكلمة السنسكريتية «سياند» والتي تعني: ما يسيل وينساب، (النهر)، ويكون معناها: ما يتعلق بسكان أرض الأنهار.

(١) انظر ما سبق ص (٥٩-٦٢).

والذين قالوا: إن كلمة «هند» فارسية الأصل، فإنه إذا نسب إليه فإما يكون معنى الهندوسية: كل ما يتعلق بـ «هندو» والتي تعني إما اللصوص، أو العبيد، أو داكن اللون، وشديد السمرة.

والذين قالوا: إن كلمة «هند» إنما أخذت من بعض الأسماء، مثل «إندرا» أحد آلهتهم، أو نسبةً إلى السند والهند الذين كانا من ذرية حام بن نوح، يكون معنى الهندوسية كل ما يتعلق بعباد إندرا، أو كل ما يتعلق بأبناء السند والهند، أو العادات والمعتقدات المتعلقة بالهند والسند.

والهندوس يسمّون أنفسهم بـ «هندو»، ولا يزال يطلق بعض علماء الهند على هذه الديانة «ديانة هندو»^(١)، وهو المشهور والمتداول في اللغات الهندية كلها، ولكن كيف أصبحت «هندوس» وكيف أصبحت النسبة إلى هذه الديانة بالهندوسية؟

يرى الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي: «إن أهل فارس واليونان كانوا يتجولون على سواحل «سند» ويُعَيِّرُونَ حرف السين إلى الهاء، فقالوا: «الهند» وكلمة «استهان» معناها «المقر» كانت ثقيلة عليهم، فجعلوها «استان» بحذف الهاء، فقالوا: «هندوستان» أي مقر أهل الهند، وقالوا للسكان «هندو» وإليها نسب دينهم فقالوا: الهندوسية أو الهندوكية. وقالوا لأهل هذا الدين «هندوسي أو هندوكي»، وجمع الكلمة الأولى في اللغة العربية بالواو والنون وهو جمع المذكر السالم: «هندوسيون» كما تستعمل كلمة الهندوس للجنس أي للقوم أي في حالة الأفراد والجمع، وجمع الثانية جمع تكسير: «هنداك»^(٢).

أما بالنسبة لكلمتي «هندوكي» أو «هندوسي» فرأيت في الكتب العربية أن كتاب العرب استخدموا هاتين الكلمتين كليهما، إلا أن المتقدمين كانوا يستخدمون الصيغة

(١) انظر ما ذكره عبد الحي الحسني: الهند في العهد الإسلامي ص (٥٣).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي في كتابه: فصول في أديان الهند

الأولى^(١)، بينما أرى المتأخرين يختارون الصيغة الثانية، كأنهم اختاروا هذه الصيغة لقربها من الإنجليزية، حيث إن الغربيين ينسبون إلى هذه الديانة بكلمة Hinduism، وذلك تغليبا على الديانة كأنها أفكار فلسفية؛ فإن الغرب إذا أرادوا نسبة الأفكار والمبادئ إلى فلسفة معينة يزدون في آخر تلك الفلسفة كلمة Ism، كما يقولون: Secularism، Imperialism وهكذا. فأصبحت الكلمة هندوسية.

التعريف بـ «الهندوسية» كدين:

لم يتفق الهندوس ولا غيرهم في تعريف هذه الديانة مطلقاً، فمما قيل فيه:

(١) إنها ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند تشتمل على مجموعة من العقائد والعادات والتقاليد التي تشكلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر، تضم قيماً روحية وخلقية إلى جانب المبادئ القانونية والتنظيمية متخذة عدة آلهة بحسب الأعمال المتعلقة بها، فلكل منطقة إله، ولكل عمل أو ظاهرة إله^(٢).

(٢) وقيل: هي اتباع أو عبادة الإله «فِشْنُو» أو «شيفا» أو الإلهة «شاكتي» أو تجسيداتهم، أو مظاهرهم أو أزواجهم، أو ذريتهم^(٣).

(٣) وقيل: هي مجموعة من العادات والتقاليد والمعتقدات الهندية سواء منها ما يرجع إلى السكان الأصليين أو ما جلبه إلى الهند الزاحفون التورانيون أو الفاتحون الآريون^(٤).

(١) انظر ما ذكره العلامة ابن منظور من الشواهد على هذه الكلمة في لسان العرب (١٥/١٤٥ - ١٤٦)، مادة (هند).

(٢) انظر الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/ ٧٣٤-٧٣٥).

(٣) جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص (١٥٩). وأما هذه الأسماء فهي أسماء آلهة، وسيأتي التعريف بها مفصلاً عند ذكر آلهة الهندوس.

(٤) انظر ما ذكره الدكتور أحمد شلبي في الأديان الهند الكبرى ص (٩٩).

(٤) وقيل: إن الهندوسية أسلوب في الحياة، وعلى هذا يعرف الهندوسي بأنه هو الذي ولد من أبوين هندوسيين بغض النظر عن العادات والتقاليد والعبادات والعقائد^(١).

ولعل الأخير أقرب إلى الصواب، ولكنه غير مانع ولا جامع أيضاً، ويمكن أن نقول:

«إن الهندوسية ديانة بعض أهل شبه القارة الهندية ومن وفد منهم إلى الخارج الذين ولدوا من أبوين هندوسيين، ولم يعلنوا خروجهم إلى ديانة أخرى، والذين أعلنوا دخولهم في هذه الديانة من الذين ولدوا من غير أبوين هندوسيين ولم يعلنوا خلافها».

الجذور التاريخية لكلمة «الهندوسية»:

أما بالنسبة للجذور التاريخية لكلمة الهندوسية: فتكاد تتفق جميع الدراسات المتعلقة بالهندوسية: أن هذا الاسم ما أطلق على هذا الدين إلا متأخراً^(٢). ويزيد بعضهم بالتحديد بأن هذه التسمية ما كانت إلا في القرون الأولى بعد المسيح^(٣). ويحدد بعضهم بأنها أطلقت على هذه الديانة في القرن الثاني قبل المسيح في عصر ملوك «غبتا»^(٤).

يقول الدكتور الأعظمي: إن الهندوسية ليس لها أصل في اللغة السنسكريتية - اللغة المقدسة لدى الهندوس - لأن هذه الكلمة مستحدثة، لم تستعملها الكتب القديمة^(٥).

ويقول أحد علماء الهندوس: إن كلمة «هندو» لم يطلق عليها إلا في زمن مهابهارت، ليجمع الآريين ومن تناسل منهم أو دخل في ديانتهم أو تجانس معهم^(٦).

(١) انظر ما ذكره الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٣٠).

(٢) انظر ما ذكره غوستاف لوبون: حضارات الهند، ص (٦٠٠)، وأبو الحسين بتراسارزا: لماذا أسلمت (١٤٤).

(٣) انظر ما ذكره غوستاف لوبون: حضارات الهند ص (٦٠٠).

(٤) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص (٢٤٨).

(٥) اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٣٠).

(٦) انظر ما ذكره أَمَلْ كُومار بندوباداي: بُورَنِيكا (١/١٧٢).

ويقول جوهر لال نهرو - رئيس وزراء الهند الأسبق-: «أول المراجع لكلمة «هندو» يمكن أن يرجع إلى ... القرن الثامن وتعني الكلمة : أناس»^(١).

ويقول أيضاً: ما أطلقت الهندوسية علينا إلا من قبل أهل فارس أو سكان وسط آسيا أو الغربيين، لا يوجد لها أي ذكر في كتبنا القديمة، وإنما وجدت هذه اللفظة أولاً في بعض كتب التتريك^(٢) التي ألُفَت في القرن الثامن الميلادي، ولم يستخدم سابقاً هذه اللفظة على معتنقي مذهب معين، وإنما كانت استخدامها لكل من كان يسكن في هذه المنطقة^(٣).

ويقال: إن هذه الكلمة أول مرة استخدمها المسلمون^(٤) للسكان الذين يسكنون وراء نهر إندوس (السند)، وبعد هذا استخدمت خاصة للسكان الأصليين، بل يرى الهندوس أن هذه الكلمة لا توجد في كتب أهل الهند القديمة وفي آدابهم قبل دخول

(١) Jawaharlal Nehru, The Discovery of India, p.(74). New Delhi : 1983.

(٢) التتريك عبارة عن اجتماع كلمتين : تنتر + إيك ، أي ما يتعلق بـ تنتره ، والتنتره : اسم لعلم سري، غامض، يعتقد أصحابه أن السرّ في قوة الآلهة إنما هي من الإلهات، ولهذا هم يعبدون العضو التناسلي للمرأة، ويعتقدون أن اجتماع آلة تناسل الإله شيفا مع آلة تناسل زوجته أكسبه القدرة الهائلة، فمن أراد التخلص من الوهم (مايا) فعليه أن يجرب ذلك، حتى تذهب همومه وغمومه، ولهذا هم يمارسون أنواعاً من الفجور باسم الدين، ويشترطون الجماع ودواعيه في بداية طقوسهم، وهم لا يجيزون ببوح أسرارهم إلا لمن يتبعهم، وبعض الهندوس يكرهون هذه الفرق، أما الكتب المعروفة بـ«تتريك» فهذه الكتب جاءت إلى الوجود بعد كتب البرانات، ومن العجيب أن من الهندوس من يعتبر مثل هذه الكتب قيّداً خامساً. راجع في ذلك «بورانيكا (قاموس الكتب القديمة لدى الهندوس) (١/٢٢٤). وانظر أيضاً ما ذكره:

John Dowson, A Classical Dictionary of Hindu Mythology & Religion p 317.

(٣) انظر :

Jawaharlal Nehru : The Discovery of India p. 74-76 .

(٤)

H.G. Rawlinson. Intercourse Between India and the Western World, p.20, (Cambridge: 1926)

المسلمين إلى الهند^(١)، يقول «جواهر لال نهرو»^(٢): «أول المراجع لكلمة «هندو» يمكن أن يرجع إلى أحد كتب «تتريك»^(٣) في القرن الثامن وتعني الكلمة: أناس»^(٤).

والذي يشير إليه نهرو من كتب تتريك هو كتاب «ميرو تتر»^(٥)، إلا أن هناك كتباً أخرى نجد فيها ذكر كلمة «هندو»، مثل ما جاء في كتاب «روب كوش» و«رام كوش»، و«شبد كلپ دروم»، و«كاليكا بران»، ولكن يظن بها أنها ألفت بعد القرن العاشر الميلادي، كما جاء ذكر كلمة «هندو» في بهيش بران أيضاً، ولكن لا توجد هذه الكلمة في كتب الآداب القديمة السنسكريتية^(٦).

إلا أن هناك من يرى أن كلمة «الهند» تعني بلاد الهندوس في أقدم أقاصيص الإغريق^(٧). وعلى هذا تكون الهندوسية نسبةً إلى بلاد عادات وتقاليده وعقائده بلاد الهند، وتكون إطلاقها قديمة أيضاً.

ولعل الصحيح هو الأول؛ لأننا لا نجد في كتب القوم التصريح بهذا الاسم إلا متأخراً كما صرح بذلك جواهر لال نهرو.

(١) انظر: Encyclopedia of Religion and Ethics (ERE) (6:699) New York: 1967.

(٢) هو رئيس وزراء الهند السابق، والد إنديرا غاندي، جدّ راجيف غاندي، من جهة أمه، وقد صنف

كتباً عديدة عن الهند، من أهمها: India Wins Freedom،

(٣) كانت هذه الكلمة - كما سبق معنا قريباً - تعني الشيء الغامض من العمليات السرية التي تنسب إلى أحد آلهتهم شيفا وزوجته بارباتي، ثم أصبحت علماً بذاتها، لا تعلمها الأساتذة إلا لتلاميذتهم الخواص؛ ويتعهد منهم عدم التبوح بالأسرار. انظر ما ذكره شوهييز سندر سركار: بورانيك أبهيدان ص (١٩٢).

(٤) Jawaharlal Nehru. The Discovery of India, p.(74). New Delhi: 1983.

(٥) ص (٢٣)، و (٣٣)، وانظر أيضاً ما ذكره محمد أحمد: هندويت، (الهندوسية) ص (١٧)، وانظر أيضاً ما ذكره أكشهوي كومار دوت: بهارت برشيع أوباشك سمبرداي ص (١٢).

(٦) انظر ما ذكره محمد أحمد: هندويت، بعنوان: هندو، الديانة الهندوسية، الهندوسية، ص (١٧). (البنغالية).

(٧) انظر ما ذكره غوستاف لوبون في كتابه: حضارات الهند ص (٢٣).

أسماء هذه الديانة في القديم:

إن الديانة الهندوسية كانت تطلق عليها في القديم أسماء عديدة، منها:

(١) سناتن دهرم أو الدين القديم.

(٢) فيدك دهرم، أو الدين الفيدي.

(٣) الدين الآري.

هذه الأسماء الثلاثة هي التي يذكرونها في كتبهم غالبًا.

(٤) البرهمية: وكأن هذه التسمية أطلقت عليهم من قبل الآخرين، وقد أطلق

علماء المسلمين على الهندوس هذه التسمية في القرون الماضية، وذكروا

لها أسبابًا، أستحسن ذكرها لتعلق بعض المسائل بهذه التسمية، وبيان ذلك

على النحو الآتي:

القول الأول: أطلق عليهم هذا الاسم نسبةً إلى «برهمان» أو «براهما» ولهما

مدلولات خاصة في اللغة الآرية الأولى؛ إذ أطلقت كلمة «برهمان» على العبادة

والصلاة في البداية، ثم على كهنوت معين، وأخيرًا على سيد الآلهة عندهم، وعلى

الكتاب الملحق الذي سمي بـ«برهمانا»^(١)، وهو ملحق بكتب الفيدات الأربعة، وفي

نهاية الأمر أطلقت على الطائفة المفضلة لدى الهندوس^(٢)، وقد حدّد بعض العلماء

زمن إطلاق هذا الاسم عليهم، فقال: «إن هذا الاسم أطلق ابتداءً من القرن الثامن قبل

الميلاد نسبة إلى «براهما»^(٣)... ومن براهما^(٤) اشتقت كلمة «البراهمة» لتكون علمًا

على رجال الدين الذين كان يعتقد أنهم يتصلون في طبائعهم بالعنصر الإلهي، وهم لهذا

(١) سيأتي التعريف به فيما بعد في ص (٢٢٣-٢٣٠).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي في الهند القديمة، حضاراتها، ودياناتها

ص (٨٩).

(٣) هذا هو المكتوب، ولعل الصحيح أن يقال: برهمان..

(٤) هكذا في الكتاب، ولعل الصحيح أن يقول: «برهمان».

كانوا كهنة الأمة لا تجوز الذبائح إلا في حضرتهم وعلى أيديهم^(١).

القول الثاني: أن البرهمية نسبة للإله (براهما) (BRAHMA) وهو عند معتنقي هذه الديانة اسم للإله الخالق^(٢).

القول الثالث: أن البراهمة انتسبوا إلى رجل منهم يقال له «برهام»، قد مهّد لهم نفي النبوات أصلاً، وقرر استحالة ذلك في العقول^(٣).

القول الرابع: إنهم سموا براهمة لانتسابهم إلى إبراهيم عليه السلام، نقله الشهرستاني ثم خطأه وقال «وذلك خطأ، فإن هؤلاء القوم هم المخصوصون بنفي النبوات أصلاً، ورأساً، فكيف يقولون بإبراهيم عليه السلام».

قلت: تخطئ نسبة البرهمية إلى إبراهيم عليه السلام إن كان مردها على اعتقاد القوم فهذا صحيح، فإن القوم لا يعرفون الآن عن إبراهيم شيئاً، وإنما يقولون: براهما. وأما إن كانت التخطئة مردها على ما كانت عليه الديانة قديماً، فهذا غير مسلم به، فإنه ليس هناك ما يدل على عكس ذلك، بل لو نظرنا إلى تاريخ هجرات القوم نجد أنه يتوافق تماماً مع زمن إبراهيم عليه السلام، فإنهم هاجروا على أصح الأقوال في ١٨٠٠ قبل الميلاد. وهذا الوقت قريب العهد بإبراهيم عليه السلام. وقد صرح أحد علماء المسلمين بذلك، حيث قال: «وسموا براهمة لإقرارهم بالله تعالى، وتكذيبهم بالوسائط وهم الرسل، إلا إبراهيم عليه السلام، فإنهم يقولون برسالته فسموا بذلك براهمة»^(٤). يقول الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي: «قد ثبت أن هجرات الآريين كانت في الفترة التي ظهرت فيها دعوة إبراهيم عليه السلام في العراق وما حولها، وهي من المناطق التي مر بها الآريون في هجرتهم حتى وصلوا إلى

(١) انظر ما ذكره د. أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى ص (٢٩).

(٢) علي عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة قبل الإسلام ص (١٥١).

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل (٥/ ١٧٥)، وانظر أيضاً مثل هذا القول عند ابن حزم في الفصل (١٣٧/ ١)، والبيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص (٨٨).

(٤) البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، عباس بن منصور السكسكي الحنبلي، تحقيق د. بسام علي العموش ص (٨٧).

السند... وقد كنت أرى أن «البراهمة» نسبة إلى إبراهيم عليه السلام^(١).

ولكن يقال: بأن إبراهيم عليه السلام لم يؤمن به قومه، بل كذبوه، فهاجر بدينه إلى الشام، وما آمن معه إلا لوط ونفر قليل، ثم هاجر، وكان الإيمان في ذريته، وأما أتباعه على ملته فلا نعرف أنهم كثروا حتى يمكن أن ينفصل عنهم أناسٌ يتجهون إلى الهند، يحملون دعوته أو يبجلون اسمه، والله أعلم.

أمّا إنكارهم للنبوات فمحل خلاف كبيرٍ سيأتي بيانه في المبحث الثاني من الفصل الثالث من الباب الثاني مفصلاً.

القول الخامس: إنه قيل لهم براهمة نسبة إلى ملك لهم يقال له برهمن، كما يرى المسعودي^(٢) حيث يقول: إن أهل الهند قد نصبت لهم ملكاً، هو البرهمن الأكبر، والملك الأعظم، وذكر صفات كثيرة له، إلى أن قال: وكان ملك البرهمن إلى أن هلك ثلاثمائة سنة وستين سنة، وولده يعرفون بالبراهمة إلى وقتنا، والهند تعظمهم، وهم أعلى أجناسهم وأشرفهم، ولا يغتدون بشيء من الحيوان، ... إلى أن قال: وقد تنوزع في البرهمن: فمنهم من زعم أنه آدم عليه السلام، وأنه رسول الله ﷺ إلى الهند، ومنهم من يقول: إنه كان ملكاً على حسب ما ذكرنا، وهذا أشهر^(٣).

قلتُ: إن هذا القول لا يقول به الهندوس، ولم أجد دليلاً على هذا في كتبهم المليّة، إلا أن الصفات التي يطلقونها في بعض الأحيان على «براهما» ربما تنطبق على آدم عليه السلام، من كون زوجته من شطر جسمه، وأنه توالد منهما الإنسان، ولكنهم زادوا فيها أشياء لا تليق بأن يوصف بها إنسانٌ عاديٌّ فضلاً عن أن ينسب إلى نبي من الأنبياء.

(١) دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٧٠٥).

(٢) هو علي بن الحسين بن علي، أبو الحسين المسعودي، مؤرخ من أهل بغداد، أقام بمصر وتوفي فيها سنة ٣٤٦هـ، قال ابن حجر: كان شيعياً معتزلياً، من تصانيفه: مروج الذهب، انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٥/٥٦٩)، ولسان الميزان (٤/٢٤)، والفهرست لابن النديم ص (٢١٩)، والأعلام (٤/٢٧٧).

(٣) المسعودي: مروج الذهب (١/٦٨، ٦٩، ٧٠)، مقتطفات.

فهذه خمسة أقوال؛ والذي يترجح لديّ من هذه الأقوال هو القول الأول، والقول الثاني ليس ببعيد أيضًا، وأما الأقوال الأخرى فلا يعدو عن أن يكون اجتهادًا من بعض المسلمين، وليس كل مجتهد مصيب، وإن كان لكل مجتهد نصيب.

المطلب الثاني

مؤسس الهندوسية

اتضح لنا مما سبق من اشتقاقات كلمة الهندوسية أنه لا يوجد لهذا الدين مؤسس، كما أنه لم يسجل تاريخ الأديان اسم شخص معين، يقال له إنه مؤسس الديانة الهندوسية، كما هو الحال في أديان الهند الكبرى، فالبودية أسسها «بوذا» والجينية أسسها «مهاوير سوامي» والسيخية أسسها «غورو نانك». وبهذا نقرر أنه ليس هناك مؤسس للهندوسية يمكن الرجوع إليه كمصدر لتعاليمها وأحكامها، فالهندوسية دين متطور ومجموعة من التقاليد والأوضاع تولدت من تنظيم الآريين لحياتهم جيلاً بعد جيل بعدما وفدوا على الهند، وتغلبوا على سكانها الأصليين واستأثروا دونهم بتنظيم المجتمع. وقد تولد من استعلاء الآريين الفاتحين على سكان الهند الأصليين، ومن احتكاكهم بهم تلك التقاليد الهندوسية التي اعتبرت على مر التاريخ ديناً يدين به الهنود ويلتزمون بأدابه^(١).

ويقول الدكتور «رادها كرشنان»^(٢): «إن الديانة الهندوسية لا تنتمي إلى شعب من الشعوب، بل هي ثمرات لتجارب الأمم التي أدت دورها في تكوين الفكر الهندوسي»^(٣).

(١) Berry: Religions of the world p. 42. نقلاً عن أديان الهند الكبرى ص (٤٤).

(٢) وهو أحد فلاسفة الهندوس المعاصرين، ولد سنة ١٨٨٨م، وفي الخمسينات تولى رئاسة جمهورية الهند. له أكثر من مائة وخمسين كتاباً في الفلسفة والدين، كان شديد النقد على الفلسفة الاشتراكية الماركسية، توفي سنة ١٩٧٥م، انظر ما ذكره عبد الرحمن بدوي في موسوعة الفلسفة (١/٥١٣).

(٣) الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي في فصول في أديان الهند ص (١٤-١٥).

ويمكن القول إن أساس الهندوسية هو عقائد الآريين بعد أن تطورت بسبب اختلاط الآريين - وهم في انتقالهم البطيء إلى الهند - بشعوب كثيرة وبخاصة بالإيرانيين^(١)، ثم تأثرت هذه العقائد بعد احتلال الآريين للهند بسبب الاتصال بأفكار السكان الأصليين، وبفلسفات وأفكار نشأت في الهند في مراحل متباعدة من التاريخ، حتى أصبحت الهندوسية بعيدة عن العقائد الآرية الأصلية^(٢).

ولهذا كله يقول أحد الباحثين: «والهندوسية أسلوب في الحياة أكثر مما هي مجموعة من العقائد والمعتقدات، تاريخها يوضح استيعابها لشتى المعتقدات والفرائض والسنن. وليست لها صيغ محدودة المعالم، ولذا تشمل من العقائد ما يهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار، وما يكون من التجريدات الفلسفية الدقيقة^(٣)».

إذن عرفنا من هذا أنه لا يوجد هناك مؤسس معين لهذا الدين، بل هو خليط من آراء الحكماء القدماء وبعض عادات وتقاليد الأمم القاطنة في الهند، والأمم التي مر عليها الآريون في طريق هجراتهم.

(١) انظر ما ذكره الدكتور أحمد شلبي في كتابه: أديان الهند الكبرى ص (٩٩).

(٢) hinduism, ed. by lewis renou pp. 2-3. نقلاً عن أديان الهند الكبرى ص (٤٤).

(٣) القاضي أطهر المباركفوري: الهند والعرب في عهد الرسالة، ص (١٨) بتصرف يسير، وانظر ما ذكره عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند ص (١٨).

المبحث الثاني

بيان الأدوار والمراحل التي مرّت بها الهندوسية وأماكن انتشارها

وتحتة مطلبان:

المطلب الأول

بيان الأدوار والمراحل التي مرّت بها الهندوسية

الديانة الهندوسية مرت بمراحل^(١) حتى سمّيت بالهندوسية في طورها النهائي، وهذه المراحل اختلف علماء الهندوس وغيرهم في تحديدها.

فيذكر البعض هذه المراحل كما يلي :

- (١) القيدية.
- (٢) البراهمانية الأولى .
- (٣) البراهمانية الثانية .

(١) انظر لمعرفة هذه الأدوار والمراحل لدى الهندوس ما جاء في هنجش نارايين بتراسارزا: هندودير ديو ديوي، أدويب أو كرمويكاش (١/ ١-٥) تحت عنوان: آريا دهارمير بيبترن (تطور الديانة الآرية). وانظر أيضًا ما ذكره نريندرنات بتراسارزا: بهارتية دهارمير إتيهااس (تاريخ الديانات الهندية) ص (١-٢٧٨)، وانظر ما ذكره دُرغا داس بشو سرفساتي: هندو دهارمير شار تته ص (١٩-٣٩)، كما أنني استفدت بعض هذه المعلومات من فحوى كلام بعض علماء الهندوس عند النقاش معهم في جامعة دكا.

٤) الفيدية الثانية.

٥) الهندوسية^(١).

وبعضهم يجعلها أربعاً :

١) الفيدية.

٢) البراهمانية

٣) الفيدية الثانية.

٤) الهندوسية (الحديثة)^(٢).

وبعضهم يجعل هذه المراحل ثلاثاً :

١) الفيدية

٢) البراهمانية

٣) الهندوسية الحديثة^(٣).

وبعضهم يجعل هذه المراحل مرحلتين^(٤) :

١ - مرحلة فيدانت (Vedanta) (الفلسفة التجريدية).

٢ - مرحلة الخشوع والتعبد (Bhaktya). (فلسفة العشق المسمى بـ «بهاكتيا»).

ولكن الذي ظهر لي أن الهندوسية مرت بمراحل عديدة، مرد هذه المراحل إلى قوة الديانة وضعفها وتكوين عقائدها، وبناءً على هذا فإنني سأقسمها إلى أربع مراحل رئيسة:

(١) يظهر هذا التقسيم عند غوستاف لوبون في كتابه : حضارات الهند.

(٢) يظهر من هذا التقسيم أنه يجعل عصر الفيدية الثانية من البراهمانية الثانية.

(٣) يظهر هذا التقسيم عند الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها. إن هذا التقسيم هو الشائع لدى أغلب الكتاب.

(٤) انظر ما ذكره حبيب سعيد في كتابه : أديان العالم ص(٨٣).

الأولى : المرحلة القيدية الأولى: ترجع إلى ما قبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد، يعد من مبدأ قدوم الآريين إلى الهند، أو قبله بقرون قليلة^(١).

هذه المرحلة أيضًا مرت بعدة أدوار:

الدور الأول: دور عبادة قوى الطبيعة إما كوسيط^(٢)، وإما استقلالاً^(٣)، وانتشار الأفكار البدائية بينهم، حيث كانوا يشخصون هذه القوى الطبيعة بأسماء الآلهة، ويميلون إلى إخضاع الطبيعة والناس والآلهة لإله واحد أقوى منها، وهو الإله «إندرا» في بعض الأحيان^(٤)، وإلى إله أعلى يذكر بالوصف دون الاسم.

الدور الثاني: دور ينحصر فيه أمر الدين في تبادل الإنسان والآلهة للهبات، وذلك بأن يقرب الإنسان قرايبه ويُقدّم فواكهه وأن تمنح الآلهة الغنى واليسر والمطر المبارك، والصحة والكنوز^(٥).

الدور الثالث : دور الخرافات اعتقاد الشر في الأرواح الغائبة، والبحث عن كيفية الاستعاذة منها. وظهور تقسيم الناس إلى أربعة أقسام حسب أعمالهم، لا حسب وراثتهم^(٦).

الثانية: المرحلة البرهمانية (الأولى)، هذه المرحلة ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد^(٧). ومنهم من يرجعه - إلى عهد أقرب من هذا - إلى القرن الثالث أو القرن الرابع قبل الميلاد^(٨). ولعل هذه المرحلة امتدت من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن

(١) راجع ما ذكره غوستاف لوبون في حضارات الهند ص(٢٠٩).

(٢) كما يتضح من بعض نصوص ريگفید، وسيأتي بيان ذلك في الفصل الثاني، من الباب الأول.

(٣) على اختلاف في الناس هل كان الآريون الأوائل موحدین أم كانوا مشرکین، وإن كان الراجح حسب الأدلة الظاهرة من كتبهم أنهم كانوا مشرکین، كما سيأتي في الدراسة لهذه الكتب.

(٤) ولعل هذا الدور يرجع أمره فقط إلى ريگ فید.

(٥) وهذا الدور نراه بوضوح في ياجور فید، وسام فید.

(٦) يتضح هذا الدور في بعض ما جاء في آثارها فید.

(٧) راجع ما ذكره الأستاذ أنور الجندي : الإسلام والعالم المعاصر ص(٤٥).

(٨) راجع ما ذكره غوستاف لوبون في حضارات الهند ص(٢٩٠).

الثالث قبل الميلاد، حيث كانت فيها هذه الديانة في أوجها، كما كان فيها ملاحدة، وأصحاب مناهج حرة.

كما ألفت فيها فلسفات متعددة، وفي نهايتها جاءت فلسفتا الجينية والبوذية اللتان كادت أن تقضيا على الديانة القديمة.

وقد مرّت هذه المرحلة بأدوار :

الدور الأول: ظهور سيطرة البراهمة المقدمين للقرايين وسنهم وكتابتهم القوانين لها^(١).

الدور الثاني: محاولة خروج بعض الناس من تعاليم البراهمة بالتعبد والتقشف وحياة الغابة ؛ حيث كانت للنساك والعباد منزلة رفيعة^(٢).

الدور الثالث: هذا الدور من أخطر الأدوار فقد ظهرت فيها عدة أمور:

- ١ - ظهرت فيه فلاسفة متعددة بآراء مختلفة^(٣).
- ٢ - كما ظهرت فرق مخالفة لعقيدة القيدان^(٤).
- ٣ - بداية عبادة الروح الأعلى «برهمان»^(٥).
- ٤ - كما برزت فكرة وحدة الوجود.
- ٥ - وقد بلغت فيه عقيدة التناسخ بينهم مبلغاً كبيراً.
- ٦ - كما ظهرت فيه فكرة اليوغا.
- ٧ - بروز الفرق الهندوسية الخمس المشهورة (شيفائية، بشنوية، شاكيتا، غانيشيا،

(١) نرى أثر ذلك في البراهمانات.

(٢) نرى أثر ذلك في الأرائيكا.

(٣) أصحاب الأوبانيشادات، وإن كانوا ينسبون أنفسهم إلى أنهم أخذوها من القيدان.

(٤) نرى أثر ذلك واضحاً في كتب الأوبانيشادات الفيدية.

(٥) ويرجح الدكتور محمد إسماعيل الندوي (الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص ١٠٦): أن

هذه النظرية قد اتخذت أعظم المظاهر العقدية في الفكر الآري خلال عام ٦٠٠ ق.م.

شُورُؤُ) (١).

الدور الرابع: هذا الدور أيضًا من أهم أدوار البراهمانية الأولى؛ لما ظهر فيها أشياء أثرت في هذه الديانة أثرًا بالغًا.

١ - تقنين قوانين الديانة البرهمانية (٢). والاهتمام بها أكثر من القيدات (٣).

٢ - ظهر تقسيم المجتمع الهندي إلى طبقات وراثيًا (٤).

٣ - عدم السماح لأحد في الدخول في الديانة الهندوسية.

الثالثة: المرحلة البراهمانية الثانية (٥) أو مرحلة «الهندوسية»؛ فإنه لما نشأت المدارس المستقلة الملحدة، وشبت البوذية، وقويت، أخذ الجميع يناهضون البراهمانية ويوجهون إليها سهام الطعن والمثلبة، فبدأت تضعف وينحل تماسكها، ويتضاءل سلطانها من النفوس. وقد ترتب على هذا أن العامة والجماهير لما خف عنها ضغط الكهنة رجعت إلى عقيدة التعدد المؤلفة من الفيدية القديمة، والديانة المحلية الأولى، ونبتت ما كانت البراهمانية أدخلته، وخشي الكهنة هذا التحول الخطير من جانب الشعب عن الديانة ويئسوا من إعادتهم إليها لم يجدوا بداً من مجاراتهم في عقائدهم العامة الجديدة على أن لا يخرج شيء مما يقرونه عن تعاليم «القيدات» وعلى أن تبقى هذه الديانة لعامة الشعب مقيدة بالكتب التي يضعها البراهمانيون أنفسهم، ولا يجوز لأحد غير الكهنة أن يضع كتابًا دينيًا أيًا كان لونه، ثم وضع الكهنة هذه الكتب الشعبية التي احتوت على الدين الجديد بعد أن حاولوا بكل ما لديهم من قوة التوفيق

(١) يرى الشيخ رياض موسى - حفظه الله - أن الفرقتين «الشفائية، والبشوية» كانتا موجودتين في هذه المرحلة، وما كانت الحروب الهندوسية المذكورة في «مهابهارت وراماين» إلا لظهور تفوق البشوية على الشفائية. انظر كتابه: الهندوسية ص (١٣).

(٢) نرى ذلك واضحًا فيما جاء في منو سمرتي.

(٣) راجع ما ذكره غوستاف لوبون في حضارات الهند ص (٢٩١).

(٤) راجع المصدر السابق ص (٢٩٣)، وانظر أيضًا: قصة الحضارة (٢٢/٣).

(٥) راجع ما ذكره غلاب، الدكتور محمد، الفلسفة الشرقية ص (١٥٣-١٥٨).

بين هذه الكتب وبين نصوص «الفيدات» أو شروحاتها. وهي الكتب المعروفة بـ«راماين» و«مهابهارت» و«غيتا» و«بران»^(١).

أما آراؤهم الخاصة التي كان الزمن قد أنضجها فقد ظلت مقصورة على المثقفين والممتازين، وهي التي منها نشأت المذاهب الستة الفلسفية^(٢).

ويسمّون هذه المرحلة أيضًا بالمرحلة الفيدية الثانية؛ نظرًا لرجوع الناس إلى الدين القديم مرةً أخرى - حسب زعمهم - وهي التي جاءت بعد عصر البوذية في القرن الثاني قبل الميلاد، فقد بدأت تسترجع ما ذهب من قوتها، وقد عمد البراهمانيون إلى إدخال قدر غير يسير من التطور والتسامح في شعائهم^(٣).

ومن أهمّ ميزات هذه المرحلة ما يلي:

١ - تسمية الدين بالهندوسية^(٤).

٢ - إدخال آلهة المحليين من ضمن الآلهة المقدسة^(٥).

٣ - ظهور عقيدة «الأفتار»^(٦).

٤ - ظهور المجادلات والمناظرات الدينية للتصدي لأفكار الملاحدة. (ظهور الفلسفات الست).

٥ - ظهور حركة بهاكتي والتي تعني التعبد بالخشوع والمحبة وحدها^(٧).

(١) راجع ما ذكره الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص (١٥٣-١٥٤).

(٢) التي ستأتي ذكرها.

(٣) راجع ما ذكره هـ، ج، ويلز، موجز تاريخ العالم ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ص (١٢٧).

(٤) راجع ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند حضاراتها ودياناتها ص (٢٤٨).

(٥) راجع المصدر السابق ص (٢٥٢).

(٦) راجع ما يذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص (١١٠).

(١١٣).

(٧) نرى ذلك واضحًا في كتب الملاحم من راماين، ومهابهارت، وغيتا، والبرانات، إلا أنه قد قيل: إن «بهاكتيا» عقيدة المرحلة التالية. ولكن الذي يظهر لي أنها ظهرت في هذه المرحلة، =

رابعًا: المرحلة الهندوسية الحديثة:

هذه المرحلة هي التي عليها الهندوس الآن، حيث أصبحت الهندوسية خليط لكل ما مضى من الاعتقادات، وأصبحت لها فرقًا متعددة، وأفكارًا متباينة، مع وجود - ما يزعم أنهم من - المصلحين فيهم، ووجود من يقوم بالتنسيق بين آرائهم المختلفة، والتوفيق بينها، والتعصب لمبادئها ودعوة عامة الناس إلى اعتناقها.

أهم الفروق العقدية في هذه المراحل:

يمكن التمييز بين هذه المراحل على أساس عدة محاور رئيسة هي :

(١) من حيث الكتب:

فالكتب القيدية وضعت للحث على طريق العمل أو الجهد أو النشاط، والذي يسمّى بـ (كارما مارغا) Karmamarga .

أما الكتب البرهمانية وخصوصًا، الأوبانيشادات فقد وضعت للحث على طريق التأمل والمعرفة (العلم والفكر المحض) Giana marga.

بينما وضعت الكتب في المرحلة الأخيرة -بعد ما سمّيت الدين بالهندوسية- للحث على طريق محبة الإله أو ما يسمى بـ (بهاكتي مارغا) (Bhakti marga)^(١).

(٢) من حيث المعبودات:

الهندوس في المرحلة القيدية لم يربطوا عباداتهم بتمثال أو صورة لإله، وكانت أكثر آلهتهم من الآلهة العلوية والآلهة التي هي في الخلاء، وكانوا نادرًا ما يعبدون الآلهة المنتشرة في الأرض، ولهذا كانت تحرم عبادة اللنغا (وهو صورة للقضيب الذكري المنتصب كرمز لإلههم شيفا).

= وانتشرت في المرحلة التالية، وإن كان هناك من يذهب إلى أبعد من ذلك بأن هذه الفكرة ظهرت ما بين ١٤٠٠ و ١٨٠٠ ب م . راجع ما ذكره حبيب سعيد في أديان العالم ص(٨٤).

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت : مقارنة الأديان ، الفيدية ، البراهمانية، الهندوسية ص(١٢).

وفي المرحلة البراهمانية كانوا قد تركوا كثيرًا من العبادات الشعائرية، بل جل عباداتهم كان لـ «برهمان» اللاشخصي، والحث على معرفته والاتحاد به.

لكن الهندوسية في المرحلة النهائية مليئة بتمائيل الآلهة وصورها، والهندوس يعبدونها كرموز دالة على الآلهة، كما أنها تقدس اللغا بأنواعها، وتعبد جميع أنواع المعبودات العلوية والخلوية والأرضية.

(٣) من حيث العبادة وكيفيةها:

فالهندوسية في المرحلة القيدية لم يعرفوا المعابد، وكانوا يمارسون عباداتهم إما في الدار أو في أماكن مفتوحة، وكانوا يعتقدون في أضحياتهم بأنها لا بد أن تلزم الآلهة بالاستجابة لكل طلباتهم.

بينما نرى الهندوسية في المرحلة البراهمانية في أغلب الأحيان لا يبالون بالعبادات بالشعائر، بل كانوا يمارسون العبادة عن طريق الحث على معرفة برهمان فقط، كما كانوا يلومون الناس على تقديم القرابين.

أما الهندوسية في المرحلة الأخيرة فتمارس العبادات في المعابد، وتقوم بأداء عباداتها وتقديم قربانها في حالة من الحب للآلهة، والرغبة في عطفها دون جزم بأنها لا بد أن تستجيب.

(٤) من حيث الغاية من التدين:

لم يذكر المقصود من التدين لدى أصحاب المرحلة القيدية، ولكن الذي يظهر من خلال بعض النصوص أنهم كانوا يقصدون بالعبادة الحصول على المنافع الدنيوية، وكان لديهم الاعتقاد بالجنة ونعيمها والنار وعذابها، وذلك عن طريق الأضحيات، والابتهاال إلى الآلهة.

بينما الهندوسية في مرحلتها البراهمانية والأخيرة ترى الغاية من التدين: الخلاص أو الحصول على (موكشا) المعبر عنه بـ «نرفان»، وإن اختلفت النظرة إلى وسائل الخلاص وتباينت بين البراهمانية والهندوسية الأخيرة، فالخلاص في البراهمانية يتم

أساسًا بواسطة التأمل والمعرفة رغم وجود الكيفيات الكثيرة في التأمل والمعرفة، بينما الخلاص في الهندوسية الأخيرة رغم أن وسائله متعددة إلا أن السمة الغالبة أنه يأتي بالإيمان والحب والولاء.

(٥) من حيث النظر إلى الكون والحياة :

فالحياة بالمرحلة القيدية لم تكن مما يفر منها الهندوسي، بل كان مليئًا بالنزهة والمتعة؛ حيث لم تتكون نظريتي كارما والتناسخ بعد، بينما الحياة تختلف في البراهمانية والهندوسية (المتأخرة) حيث نراهم ينظرون إلى الحياة نظرة تشاؤمية، ومن ثم يرون التخلص من الحياة وكارما، ونتيجته اللازمة التناسخ أمرًا لا محيد منه.

والكون في المرحلة القيدية نظرتهم إليه غامضة؛ حيث لم يفصحوا عن بيان شيء في هذا الجانب، بينما الكون في المرحلة البراهمانية والهندوسية المتأخرة ما هو إلا نتيجة إرادة واحدة من «برهمان» اللاشخصي، أو نتيجة للمادة المتمثل باسم پركریتی مع پوریش (النفس الكلية)، على خلاف بينهم في ذلك^(١).

(١) ستأتي التفصيلات فيما بعد عند الكلام على عقائدهم عن الكون والحياة.

المطلب الثاني

أماكن انتشار الهندوسية

الشعوب التي تدين بالهندوسية توجد في الوقت الحالي في الهند، بل الهند هي التي ترعى الديانة الهندوسية، وقد بلغت نسبتهم فيها - حسب الإحصاء الحكومي - ٨٠٪ من تعداد السكان^(١)، كما أن الهندوسية هي الدين الرسمي في دولة نيبال.

فهذه الدول الثلاثة تبنت الديانة الهندوسية في العالم، إلا أن بعض هذه الدول تنص في الدستور إن النظام الذي عليه الدولة هو العلماني، إلا أنهم يتبنون الديانة الهندوسية في التوجهات العامة للدولة. ومن هنا تنتشر إلى جميع أنحاء العالم.

وللهندوسية وجود غير قليل في بنغلادش، وباكستان، وبهوتان، وسريلانكا، وبعض دول جنوب شرق آسيا، ولها انتشار محدود في أمريكا وأستراليا، وجنوب أفريقيا بسبب الهجرات البشرية، وبسبب فكرة «يوغا»^(٢)، ثم إن لهم جاليات في بعض دول أوروبا كبريطانيا، وشرق إفريقيا.

ويبدو لي أن أغلب الهندوس في دول أمريكا وأستراليا، وجنوب أفريقيا من المهاجرين إلى تلك الدول من شبه القارة الهندية، وإن كان هذا لا يمنع أن يوجد فيها من اعتنق هذه الديانة لموافقة مطالبه وهواه في بعض المعتقدات والأعمال.

(١) مما نشرته الحكومة الهندية من منشورات في الإنترنت، انظر على سبيل المثال:

www.worldlanguage.com/Arabic.

(٢) سيأتي شرح الكلمة ومدلولها.

عدد معتنقيها:

تذكر الموسوعة إنكارتا ١٩٩٩ بأن الهندوس تجاوزوا ٧٠٠ مليون في الوقت الحالي.

وتذكر مجلة «انقلاب» اليومية في عددها الصادر ٣١ أكتوبر ٢٠٠١ من بنغلادش أن عددهم ^(١) ٧٦٤, ٠٠٠, ٠٠٠. (سبعمئة وأربعة وستون مليون نسمة).

وبحسب عددهم ذلك فإنهم يحتلون المركز الثالث في الديانات العالمية ^(٢).

وفيما يلي بعض الإحصائيات عن الهندوس في دول العالم مأخوذة من بعض مواقع الإنترنت ^(٣)، ومن سؤال بعض المختصين:

الهندوسية في دول العالم

الدولة	الهندوسية ونسبتها في الدولة ونسبتها من بين الديانات
أندونيسيا	الإسلام ٨٧٪، المسيحية ٩٪، الهندوسية ٢٪، أخرى ٢٪
باكستان	الإسلام ٩٧٪، الهندوسية والمسيحية والبوذية والبارسية ٣٪
بنغلادش	الإسلام ٨٧٪، الهندوسية ١١٪، البوذية، المسيحية، أخرى
بوتان	البوذية ٧٥٪، الهندوسية ٢٥٪
تايلند	البوذية ٩٤٪، الإسلام ٤٪، الهندوسية ١٪، المسيحية ٠, ٥٪
ترينداد وتوباغو	الكاثوليكية ٣٣٪، الهندوسية ٢٥٪، الإنجليكية ١٥٪، مسيحية أخرى ١٤٪، الإسلام ٦٪
جنوب أفريقيا	المسيحية، الهندوسية، الإسلام
زامبيا	المسيحية ٦٠٪، الإسلام، الهندوسية، أخرى

(١) انظر جريدة «إنقلاب اليومية» الصادرة من بنغلاديش بيوم (٣١/ أكتوبر / ٢٠٠١ م، ص (١٢).

(٢) انظر «هندو دهرمير شارته، (خلاصة الديانة الهندوسية) لمؤلفه: الدكتور درغاداس بشو، شرفوتي، ص (٢). هامش (٣).

(٣) انظر على سبيل المثال: [www.egypty.com /services/countries.htm](http://www.egypty.com/services/countries.htm)

الدولة	الهندوسية ونسبتها في الدولة ونسبتها من بين الديانات
سريلانكا	البوذية ٦٩٪، الهندوسية ١٥٪، الإسلام ٨٪، المسيحية ٨٪
سنغافورة	الإسلام، المسيحية، البوذية، الهندوسية، تاروست
سورينام	البروتستانتية ٣٥٪، الكاثوليكية ٢٣٪، الهندوسية ٢٧٪، الإسلام ٢٠٪، أخرى ٥٪
غويانا	الهندوسية ٣٤٪، البروتستانتية ١٨٪، الكاثوليكية ١٨٪، الإنجليكية ١٦٪، الإسلام ٩٪
فيجي	المسيحية ٥٢٪، الهندوسية ٣٨٪، الإسلام ٨٪، أخرى ٢٪
ماليزيا	المسلمون ٥٥٪، الهندوسية ١٥٪، والبوذية ٢٥٪ وأخرى ٥٪
موريشيوس	الهندوسية ٥٢٪، المسيحية ٢٨٪، الإسلام ١٧٪، أخرى ٣٪
نيبال	الهندوسية ٩٠٪، البوذية ٥٪، الاسلام ٣٪
نيوزلندا	المسيحية ٨١٪، بدون ١٨٪، الهندوسية والكنفوشيوسية وديانات أخرى ١٪
الهند	الهندوسية ٨٠٪، الإسلام ١٥٪، المسيحية ٢,٥٪، السيخ ٢٪، البوذية ٧١٪، اليانية ٤٨٪، ٠٪

فهذه مجمل الدول التي تقطن فيها الهندوس مع بيان نسبتها من سكان تلك الدول، وبيان الأديان الأخرى.

الفصل الثاني

مصادر الهندوسية

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث

تمهيد

بيان الأدوار التي مرّ بها تصنيف الكتب الهندوسية

حينما نزح الآريون من بلادهم وصلوا إلى الهند مارين بمنطقة الشرق الأوسط. كان الحثيون^(١) يحكمون آسيا الصغرى في هذه الآونة، ومن المعروف أن هؤلاء كانوا فرعاً من الأمة الهندية الأوربية... ويحكم العراق الأكاديون^(٢) وهم (السومريون) الساميون.

(١) «الحثيون: قبائل قطنت آسيا الصغرى منذ قديم الزمان، تتحدث بلغات مختلفة، يحملون اسم الثقافة الحثية بالمعنى الواسع، وبالوسع تقسيم تاريخها إلى ثلاث مراحل: شبه الحثي (قبل الهندو أوربية، حتى القرن الثامن عشر قبل الميلاد تقريباً)، الحثي الصرف (هندو أوربي، ويتفق مع عصر الدولة الحثية العظمى تقريباً، حوالي القرن ١٧-١٣ ق.م)، والحثي الجديد (بعد سقوط الدولة). انظر ما ذكره سيرغي أ. توكاريف: الأديان في تاريخ شعوب العالم ص(٣٥٠).

(٢) الأكاديون: نسبة إلى قبائل سومرية، كانت لهم دولة، هي إمبراطورية سومر وأكاد التي أنشأها عام ٢٢٩٨ ق.م، الملك السومري أورانجور من أور، وأحيائها حوالي ١٩٤٧ ق.م، وقيل: ١٧٩٢-١٧٥٠ الملك حمورابي من عيلام، ولقد أذن تقسيم الإمبراطورية عقب موت حمورابي ببزوغ عصر الهجرات الآرية، ولا يوجد أي دليل مباشر على امتداد إمبراطورية سومر وأكاد إلى الهند، لكن هناك احتمالاً توحيه ما كشفت عنه الحفريات الحديثة في وادي السند عن وجود ثقافة ترجع من المدة حوالي ٣٢٥٠ إلى حوالي ٢٧٥٠ ق.م، وذات صلة وثيقة بثقافة السومريين في العراق. انظر ما ذكره أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ (١/٤٩).

وهو نفس العصر الذي ولد فيه سيدنا إبراهيم عليه السلام في العراق^(١)، ثم نشر رسالته في فلسطين، ومن هنا لا تستبعد ظنون بعض الباحثين أن الآريين ربما اطلعوا على دعوته ورسالته، ولكن الأمر لم يكن كذلك، لأن المناطق الحضارية في الشرق الأوسط كانت غارقة في النظام الوثني ولذلك تأثر الآريون ببعض العقائد الوثنية المنتشرة في هذه المناطق. وقد نقلوا من هذه المنطقة قصة مشوهة عن طوفان نوح إلى بلادهم، وأضافوا عليها بعض خيالهم وصبغوها بصبغة جديدة^(٢).

وبعد أن وصل الآريون إلى الهند، وبدأوا يخوضون الحروب مع أهلها اشتغل جماعة من علمائهم بالتصنيف والتأليف، واستمرت فترة تصنيف الكتب الهندوسية أكثر من ألف سنة تقريبًا. وإليك بيان الأدوار التي مر بها التصنيف في هذه المدة.

الدور الأول:

أول عمل قام به أولئك العلماء هو استكمال تأليف مجموعة القيدات، والقيدات يطلقها الهندوس على كل تراثهم المقدس الذي ورثوه عن أولى مراحل تاريخهم، وهي شبيهة بالإنجيل عند النصاري من الناحية الأدبية، ولو حاولت تنظيم هذه المجموعة وتبويبها لأحدثت خلطًا فظيئًا^(٣).

الدور الثاني:

عصر فلاسفة الهندوس: توجه جماعة من فلاسفة الهندوس إلى تأليف كتب الأوبانيشادات، وتشتمل كتب الأوبانيشادات على مبادئ التصوف من الذكر إلى الفناء. كما أنها تشتمل على حضارة الآريين الثقافية والأدبية.

(١) حيث كان ظهور إبراهيم عليه السلام تقريبًا سنة ١٨٥٠ ق.م. انظر ما ذكره حسن نعمة: موسوعة ميولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة ص(١٤).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة، حضاراتها ودياناتها ص (٩٦).

(٣) انظر ما ذكره ول ديورانت: قصة الحضارة (٣/ ١/ ٣٨).

الدور الثالث:

دور العلماء الذين وجهوا عنايتهم إلى تدوين الأحكام الهندوسية المتعلقة بالطهارة والعبادة والمعاملات والعلاقات الأسرية وأحكام الزواج والفراق، وما إلى ذلك.

وكان اعتماد أولئك العلماء على الروايات المنتشرة على ألسنة الرهبان والزهاد والنسك، وبيجودهم ظهرت كتب «سُمَرِتِي» يعني المذكرات، ويبلغ عددها أكثر من خمسين كتاباً، ومن هذه الكتب «مُنُو سُمَرِتِي»، وهو أكثر كتاب معمول به عندهم.

الدور الرابع:

كان لإله الآريين أسماء عديدة، ثم جعل الآريون كل اسم من تلك الأسماء إلهًا مستقلاً. ولكن بعد امتزاج الآريين بأهل الهند اختفى ذكر تلك الآلهة، وحلّت محلها أسماء آلهة أهالي تلك المناطق. ففي هذا الدور بدأت حركة التصنيف لإبراز أثر ودور تلك الآلهة وتعظيمها لنسج الأساطير والقصص حولها. فألفت كتب «بران»، والتي تعني: القصص والأساطير القديمة.

الدور الخامس:

تأليف كتب الملاحم والحروب: تتحدث هذه الكتب عن حروب زعماء الآريين فيما بينهم أو ضد أعدائهم، وهذه الكتب هي: مهابهارت، وراماين، وقد صارت هذه الكتب من الكتب الشعبية. وكثر الاهتمام بها في المجتمع الهندوسي^(١). وهناك من يرى خلافاً في هذا الترتيب، ويصنفها على النحو الآتي^(٢):

المرحلة القيدية: وتمتد من نحو ١٥٠٠ ق.م. إلى ٧٠٠ ق.م.

المرحلة الملحمية: وتمتد من ٨٠٠ ق.م. إلى ٢٠٠ ق.م.

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي: فصول في أديان الهند ص (١٨-١٩).

(٢) انظر ما ذكره جون كولر: الفكر الشرقي القديم (٣٦-٤١).

المرحلة السوترا - (المتون المختصرة): ٤٠٠ ق.م إلى ٥٠٠ م.

مرحلة الشرح على المتون: حوالي ٤٠٠ م، واستمرت حتى نحو ١٧٠٠ م.

مرحلة النهضة التي ما زالت مستمرة حتى اليوم، فقد بدأت نحو عام ١٨٠٠ م.

لكن الذي يظهر لي: أنه خلط بين مراحل التراث، والمراحل الزمنية للديانة الهندوسية، مع عدم الدقة في تحديد بداية المرحلة الملحمية؛ فإن كثيراً من كتبها متأخرة عما ذكره هو، ولم يذكر مرحلة الأوبانيشادات إلا إذا كان المقصود بالمرحلة الفيدية كل من الفيدية والبراهمانية، كما أنه لم يذكر مرحلة الكتب الدينية في الفقه.

فالتقسيم الصحيح هو ما ذكره الدكتور محمد الأعظمي، وقد سبق معنا قريباً.

المبحث الأول

الثقافات الأربعة وما يتعلق بها

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول

الدراسات المتعلقة بالثقافات

وتحتة عناصر

الأول: معنى «فيد» لغةً

ذكر العلماء معانٍ لكلمة فيد، منها:

١ - العلم^(١)، أو حصول العلم^(٢).

٢ - المعرفة^(٣).

٣ - العلم لما ليس بمعلوم^(٤).

٤ - كلمة «فيد» تعني القانون^(٥).

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي في كتابه: فصول في أديان الهند ص(١٨، ٢٠).

(٢) المصدر نفسه ص(٢١).

(٣) انظر ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (١/٣/٣٨).

(٤) قاله البيروني في تحقيق ما للهند ص(٨٨).

(٥) انظر ما ذكره عطار، أحمد عبد الغفور: الديانات والعقائد ص(٨٦/١).

٥ - الكلام الإلهي، والصحيفة السماوية^(١).

وهذه المعاني كلها صحيحة ومحتملة إلا المعنى الأخير؛ فإن قيد كلمة سنسكريتية، أصل مادتها «فِد»، (بالكسر)، ثم أخذوا منها مصدرًا وقالوا: فِيد (بإمالة الكسر)، بزيادة حرف بالإمالة.

أما كلمة فِد في اللغة فتأتي لأربعة معانٍ:

(١) المعرفة، وعلى هذا معنى فِيد: العلم^(٢).

(٢) الوقوف، وعلى هذا معنى فِيد: الإيقاف أو الإعلام.

(٣) الحصول، وعلى هذا معنى فِيد: ما يَحْصُل (المُحْصَل).

(٤) الحكم، وعلى هذا معنى فِيد: ما يحكم به بين الحق والباطل (الفصل).

وعلى هذا يكون معنى فِيد: هو الذي يطلع به على العلم الصادق، والذي يجعل الإنسان عالمًا حقًا، ويعطي الطمأنينة، ويحكم بين الحق والباطل^(٣).

ويقول شنكرأجاريا: فِيد هي الألفاظ والكلمات التي لا تحتاج إلى دليل^(٤).

واشتهر كلمة (فِيد) على معنى العلم^(٥)، ويرى البعض أن كلمة فِيد ليس مجرد

العلم، بل هو علم مخصوص، كالعلم الصادق، والعلم عن الإله الأعلى، أو العلم النهائي^(٦).

(١) انظر: مقالة أخلاق حسين الدهلوي: أضواء على كتب الفيدا، في مجلة ثقافة الهند، المجلد ٤٠، والعدد (٣ و٤).

(٢) انظر ما ذكره كل من برمود بندهو شين غوبت: بهارتى درشن (٣/٣)، وبراغ رنجن ستروباداي: فِيد بوريسوي ص(٧)، ود/ دلال چندر بهوميك: مقدمة ستبت برهمانا ص(١)، وهريسن بندوبدای: بنغبي شيدكوش (معجم أصول الألفاظ البنغالية) (٢/ ١٦١٤).

(٣) انظر ما نقله فراغ رنجن ستروباداي: فِيد بوريسوي، (التعريف بفِيد) ص(٧). وأشار إلى أنه موجود في معجم سنسكريتي: المسمى بـ (أمركوش).

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر ما ذكره الدكتور دلال بهوميك: مقدمة ستبت برهمانا ص(١) (هامش).

(٦) المصدر السابق.

وقيل: يطلق فيد على العلم الذي لا يمكن الحصول عليه عياناً أو ظناً^(١).

وقيل: المقصود بالفيد العلم الذي إذا حصل عليه الإنسان يحصل على الأمور الأربعة التي عليها مدار الحياة، وهي الدين والمال والرغبة والخلاص^(٢).

الثاني: معنى الفيد في الاصطلاح:

يظهر لي من خلال دراسة المصادر الهندوسية أن كلمة «فيد» لها ثلاث إطلاقات رئيسة عند الهندوس:

إطلاق عام:

وعلى هذا يطلق فيد على جميع الكتب الهندوسية^(٣).

تقسيم الفيد على الإطلاق العام:

قسّموا كتب التراث الهندوسي عموماً على قسمين:

القسم الأول: فيد سُرُوتِي^(٤):

وتدخل في هذا القسم الكتب الآتية:

الأول: الفيدات الأربعة الرئيسة، ويسمى بـ «مانترا»^(٥) (Mantra) أو المتون.

(١) المصدر السابق، وأشار أنه قول أحد فلاسفة الهندوس المسمى ياجنافالكيّا.

(٢) انظر ما ذكره دُلال بهوميك: مقدمة ستبت برهمانا ص (١)، هامش.

(٣) انظر ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (١/ ٣/ ٣٨)، وانظر ما ذكره هريسن بندوبداي: بنغيي شبدكوش (٢/ ١٦١٤).

(٤) «سُرُوتِي تعني: المسموع، حيث سمع هذه الأبيات من الأستاذ وحفظ، ولم يعرف له واضع معين. انظر ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص (٨).

(٥) كلمة منترا كلمة أصلها منْ، والمقصود بها القلب، أي الذي حفظ عن ظهر قلب، أو الذي ظهر في القلب، أو الذي نفخ في القلب، وإنما سميت هذه الكتب بـ «مانترا» لأنهم يعتقدون أن الحكماء الصادقين من أجل مجاهدتهم وقلوبهم الصافية حصلوا على هذه الأبيات، وهي نابعة من قلوبهم ورؤيتهم للحق. انظر ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص (١٥).

الثاني: برهمنات (Brahmanas). وهي كتابات نثرية تبحث في مغزى الشعائر والطقوس والاحتفالات التي لها علاقة بالأصاحي والذبائح.

الثالث: أَرَنْك (Arannika). وهي نصوص دينية لساكني الغابة من المتعبدين، وغالبًا ما تكون للربان الذين بلغوا آخر درجة في السلم الديني.

الرابع: أوبانيشادات (Upanishads)، وهي كتب فلسفية أولية^(١).

القسم الثاني: فِيد سُمَرْتِي^(٢):

وهذا القسم يدخل فيه مجموعة من الكتب، ويمكن تقسيمها إلى فرعين أساسيين:

الفرع الأول: الفرع المتصل، ويسمى: فِيدانغا وتعني الكلمة: أعضاء الفيدات، من أهمها: كتب دهارما شاسترا، وكتب قواعد اللغة السنسكريتية، وكتب العروض المتعلقة بأشعار الفيدات، وكتب تفسير الفيدات، وكتب تبين كيفية تقديم القرابين.

الفرع الثاني: الفرع الإضافي، ويسمى أويّا فِيد، وتعني الكلمة: ما ينبو عن الفيدات، وتشمل كتب التواريخ والبرانات، والحروب، والعلوم الاقتصادية والإدارية، والعلوم الطبية، والكتب الخاصة بالفنون الجميلة^(٣).

فهذا التقسيم للفِيد على الإطلاق العام^(٤).

إطلاق خاص^(٥):

وعلى هذا يطلق اسم الفِيد على الكتب الأربعة وذيلها فقط.

والكتب الأربعة هي: «ريغفِيد»، و«يَاجُور فِيد»، و«سام فِيد»، و«أثرِبا فِيد». والتي

(١) سيأتي التعريف بكلها مفصلاً في مبحث مستقل قريباً.

(٢) معناه: الكلام المحفوظ، وهي كتب الفقه الهندوسي المستمدة من الفيدات وغيرها.

(٣) راجع في كل ما ذكر، ما ذكره رؤوف شلبي: الأديان القديمة في الشرق ص (٨٠-٩١).

(٤) انظر ما ذكره رؤوف شلبي: آلهة في الأسواق ص (٤٠).

(٥) انظر ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فِيد بوريسوي، ص (٨)، (باللغة البنغالية).

تعرف بالمتون أو (مترا) كما تعرف أيضًا بـ «مجموعة سَنُغَهَتَا»^(١).

أمَّا ذيولها فهي «بَرَاهْمَانَات» و«أَرْتِيكا»، و«أُوبَانِشَادَات»، وتعرف بالشروح أو
الذيول، ويطلق عليها مجموعة اسم «برهمانا» على العموم.

وقد قسموا الفيد على هذا الإطلاق الخاص كما يلي:

التقسيم الأول على الإطلاق الخاص^(٢):

حيث يقسم الفيد إلى أربعة أقسام^(٣): ١ - سَنُغَهَتَا أي: (متون الكتب الأربعة)،
٢ - برهمانا، ٣ - أَرْتَنُك، ٤ - الأوبانيشاد.

التقسيم الثاني على الإطلاق الخاص^(٤):

حيث يقسم الفيد إلى قسمين:

١ - مترا، أو (سنغها) ويقصدون به ريگفید، سام فید، ياجور فید، وأثربا فید.

٢ - الشروح، ويقصدون بالشروح كتب برهمانا، وأَرْتَنُك، والأوبانيشادات.

وهذا القسم الثاني يطلق عليه الشيخ الأعظمي بـ «برهمانا»^(٥)، وذلك أن كلمة
برهمانا لها إطلاقان^(٦):

(١) معنى سَنُغَهَتَا في اللغة: مترا، أو الكلام الذي يشتمل على موضوعات فأحكمت، انظر
ما ذكره أَمَلُ كُومار بندوباداي: بُورَنِيكا (قاموس الكتب القديمة الهندوسية، باللغة البنغالية)
(٢/٦٦١).

(٢) انظر ما ذكره ول ديورانت: قصة الحضارة (٣/١/٤٣-٤٤)، وراجع ما ذكره جوزيف گاير:
حكمة الأديان الحية، ص (١١٢).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور أحمد شلبي في أديان الهند الكبرى ص (٤٣)، والدكتور عبد الله بن مبشر
الطرازي: موسوعة التاريخ الإسلامي (١/٣١٩).

(٤) انظر ما ذكره الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٣٥).

(٥) انظر ما ذكره الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٣٥).

(٦) وهذا التقسيم حسب المحتوى.

١- إطلاق خاص، (برهمانا خالصة)، ويقصدون به قسم «برهمانا» فقط وهي التي تحتوي على الأمور العملية.

٢- إطلاق عام؛ (برهمانا غير خالصة)، ويقصدون به كتب أرنك والأوبانيشادات، وهي التي تشمل على الأمور العلمية.

ومن الهندوس من يجعل كتب أرنك من القسم الأول، ومنهم من يجعلها من القسم الثاني، ومنهم من يرى أنها تحتوي على الشيين كليهما^(١).

إطلاق أخص:

وهذا الإطلاق أخص مما سبق، حيث أطلق اسم الفيد على الكتب الأربعة فقط^(٢)، وهي: ريگفيد، ياجورفيد، وسامفيد، وأثربافيد، وهي التي تسمى بـ«مترا» أو مجموعة سنغها أو المتون، وقد اقتصر بعضهم شروتي على هذه الأربعة فقط.

وهذا الإطلاق أي: إطلاق الفيد على الكتب الأربعة فقط، هو المقصود عندنا ههنا؛ لأنه أقل ما انفقوا عليه، ولأننا سنفرد مبحثاً مستقلاً للكلام على شروح الفيدات وذيلوها.

ونستخلص مما سبق أن هناك جزءاً متفقاً عليه لدى الجميع بتسميته فيداً، وهو المتون الأربعة، ريگفيد، ياجورفيد، سامفيد، أثربافيد، وهي المجموعة المعروفة بـ«سنغها»، وفيما يلي جدول لها مع بيان بعض نسخها:

(١) انظر ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص(١٤).

(٢) انظر ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص(٨)، انظر ما ذكره الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٣٥)، حيث نقل عن ديانند سرفاتي اقتصاره للكتب الملهمة في الفيدات الأربعة.

جدول سنغها

القيدات	أسمائها الأخرى أو نسخها
ريگفید	* ريگ سنغها
ياجور فيد	* تيتريا سنغها * كاتهكا سنغها * مايترايانيا سنغها
(الأسود)	
(الأبيض)	* باز شانيا سنغها
سام فيد	* كاوتوما سنغها * زايمينيا سنغها * رانينيا سنغها
أثربا فيد	* أثربا فيد سنغها

الثالث: مصدر فيد

إن الكتب المقدسة يجب أن يكون مصدرها معلوماً متيقناً منه حتى يمكن الاعتماد عليها أو اطراحها، والفيد قد اختلف الهندوس فيه من ناحية مصدره إلى أربعة أقوال^(١):

القول الأول: إن الفيد ليس شيئاً موضوعاً، فلا واطع له، بل هو أزلي.

ومعنى ذلك: أن أصحاب هذا القول يرون: أن الفيد ليس من صنع البشر، بل لا يوجد له صانع أو واطع، فالفيد عندهم أزلي، قديم؛ لأنه لا يوجد له واطع، ويرون أن الفيد غير مخلوق، بل يرون ظهوره، وبروزه، من أبرز القائلين بهذا القول «جيميني» في فلسفته «ميمانسا»^(٢)، حيث كان يرى أزلية الحروف، ومن هنا كان يرى الفيد أزلياً.

(١) انظر هذه الأقوال الأربعة مفصلاً عند العالم الهندوسي: فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص(١١-١٤).

(٢) سيأتي التعريف بهذه الفلسفة في المبحث الثالث مفصلاً.

وعلى هذا لا يرى أصحاب هذا القول الإله الأعلى مصدرًا للقيد، فلم يصدر منه، بل لا يرون ضرورة إثبات الإله، وإذا كان الإله موجودًا وأزليًا فإن القيد أيضًا أزلي وقديم.

وعلى هذا يقولون: إن الريشيين (حكماء الهندوس) لا يؤلفون أبيات القيد بل يرونه ويشاهدونه، فالقيد مشاهد لا مؤلف ولا منزل، كما يرون كون القيد غير متغير ولا متبدل على الإطلاق^(١).

وبهذا هم يرون القيد إلهًا، ويسمونه مثل الإله، ويسمونه «باك» أو الصوت، وقسموا أصوات القيدات أربعة أقسام، واستدلوا على ذلك ببعض نصوص ريگشيد^(٢).

القول الثاني: إن القيد تنسب إلى الإله مع قدمه وأزليته:

يرى أصحاب هذا القول أن القيد ظهر للناس في هذا الـ«كلپ»^(٣) كما ظهر في الـ«كلپ» السابق، فمنهم من يقول: إن القيد أعطي في قلب براهما في بداية الـ«كلپ»، ومن هنا انتشر بين الناس من الأستاذ إلى التلاميذ، وهم يرون القيد كونه من الإله الأعلى، وكونه أزليًا، والقيد ليس من الريشيين (الحكماء الهندوس)، فإنهم لم يؤلفوه ولم يصنعوه بل هم رأوا القيد، وشاهدوه^(٤).

(١) انظر ما ذكره أحمد عبد الغفور عطار: الديانات والعقائد في مختلف العصور (١/ ٨٨).

(٢) قالوا: إن باك أربعة أقسام: في الأرض يسمى «توريا» (ريگ فيد ١/ ١٦٤ / ٤٥)، وفي الفضاء يسمى «غووري» (ريگ فيد ١/ ١٦٤ / ٤١)، وفوقه باسم شسرفري (ريگ فيد ٣/ ٥٣ / ١٥)، وفي السماء باسم برهمني، (ريگ فيد ٩/ ٣٣ / ٥).

(٣) كلپ: مصطلح هندوسي لزمان معين، يرون أن ٣٢٠,٠٠٠ سنة من سنواتنا تعتبر يومًا واحدًا من أيام براهما، ومثله ليلاً واحدًا من ليالي براهما، وهو يخلق في النهار ويفني في الليل، (وهذا النهار مقسم على ٧١، وقيل ٧٢ منتر، وكل منتر تشتمل على أربعة جوك أو عصر، والذي يسمى بـ«ست، تريتا، دواير، كل») فمجموع الليل والنهار ٣٢٠,٠٠٠ سنة من سنواتنا تسمى كلپ واحد، حيث تبدأ دنيا جديدة. انظر ما ذكره شُوْدهِنْزِ سَنْدَرْ سَرْكَاز: بورانيك أبهيدان ص (٩١) (اللغة البنغالية).

(٤) لأحمد شلبي كلام قريب من هذا القول، انظر أديان الهند الكبرى ص (٤٤).

وأصحاب فلسفة الفيدانت^(١) هم أبرز القائلين بهذا القول، وأصحاب هذا القول لا يرون الفيد غير متغير ولا متبدل في كل كल्प، بل يرى عدم التغير والتبدل صفة الإله الأعلى الذي يسمونه بـ «برهمن»، كما يرون برهمن مصدرًا للفيد، فأصحاب هذه الفلسفة يرى أزلية الفيد مع تغيره وتبدله وصياغاته، ويرى من صفات الفيد أن بإمكانه أن يظهر كما أن بإمكانه أن يختفي أو يتلاشى، حيث يرون الفيد يتلاشى في برهمن عند الفناء العام الذي يسمونه بـ «مها پرولوي»، ثم في بداية كل «كلپ» يظهره برهمن أو يريه الحكماء، وعلى هذا يكون الفيد من تأليف الرب، وهم يستدلون على ذلك ببعض نصوص ريگفید^(٢).

وهذا الرأي هو رأي فلسفة سانكهيا ونيايا^(٣) أيضًا في آخر الأمر.

ويبدو لي أن العلامة البيروني اطلع على أقوال هذه الفرقة حيث نقل في كتابه عنهم بعض آرائهم، ولا بأس بنقله إتمامًا للفائدة:

يقول البيروني: «وهو كلام نسبوه إلى الله تعالى من فم «براهم» ويتلوه «البراهمة» تلاوة من غير أن يفهموا تفسيره ويتعلمونه كذلك فيما بينهم، يأخذه بعضهم من بعض، ثم لا يتعلم تفسيره إلا قليل منهم، وأقل من ذلك من يتصرف في معانيه وتأويلاته على وجه النظر والجدل ... ولا يجوزون كتابته^(٤) لأنه مقروء بالحناء فيتحرّجون عن عجز القلم وإيقاعه زيادة أو نقصانًا في المكتوب، ولهذا فاتهم مرارًا، فإنهم يزعمون أن في مخاطبات الله تعالى مع براهم في المبدأ على ما حكاه «شونك» ناقله كوكب الزهرة عنه: إنك ستنسئ «فيد» في الوقت الذي يغرق فيه الأرض فيذهب إلى أسفلها ولا يتمكن من إخراجه غير السمكة فأرسلها حتى يسلمه إليك وأرسل الخنزير حتى يرفع الأرض

(١) سيأتي التعريف بهذه الفلسفة في المبحث الثالث مفصلاً.

(٢) خرج من ذاك السورس ريگ، والعروض وياجور أيضًا تولد منه. (ريگ فيد ١٠ / ٩٠ / ٩).

(٣) سيأتي التعريف بهاتين الفلسفتين أيضًا في المبحث الثالث بإذن الله.

(٤) وفي الكتاب كتبه والصحيح ما كتبت، ويقصد بالنهاي هنا: في بداية الأمر كما سيتضح من كلامه.

بأنياه ويخرجها من الماء ؛ ويزعمون أيضًا أن فيد كان اندرس في جملة ما اندرس من رسوم دينهم ودنياهم في «دوابر» الأدنى^(١)، ... حتى جددها «بياس بن پراشر».

وفي كتاب «فِشْتُو بران»: إنه يتجدد في أول كل زمان من أزمنة «مَنْتَر»^(٢)، ... ولأجل ذلك انتدب بالقرب من زماننا «بَسُكْر» الكشميري من أجلاء البراهمة لتفسير فيد وتحريه بالكتابة واحتمل من الوزر ما كان يتحرج عنه غيره إشفاقاً عليه أن يُنسى

(١) المقصود به: الدهر الثاني، والهندوس قسموا الزمن إلى أربعة أجزاء، أو أدوار، سموها كل واحد منها؛ باسم، مع إضافة لفظ يِگ إليه، ومعنى يِگ: الزمن، واعتبروا الزمن الأول، وهو ست يِگ، أي الدهر الذهبي ٤٠٠٠ سنة، من سني الآلهة، مع فترة تأتي في أوله، وفترة تأتي في آخره. مدة كل واحدة منهما ٤٠٠ سنة، من سني الآلهة أيضاً، والمجموع: ٤٨٠٠ سنة من سني الآلهة، ثم تأتي الفترة الأولى من الدور الثاني: تريتيا يِگ أي الدور الفضي. وتكون ٣٠٠ سنة ثم يأتي الدور نفسه ومدته ٣٠٠ سنة. ثم تأتي فترته الثانية، وهي ٣٠٠ سنة، والمجموع ٣٦٠٠ سنة من سني الآلهة، ثم تأتي الفترة الأولى للدور الثالث: دوابر يِگ أي: الدور الفولاذي، ومدتها ٢٠٠ سنة، ثم يأتي الزمن نفسه ومدته ٢٠٠ سنة. ثم تأتي فترته الأخيرة، وهي كالأولى ٢٠٠ سنة. والمجموع: ٢٤٠٠ سنة من سني الآلهة، ثم تأتي الفترة الأولى من الدور الرابع: كل يِگ أي: الدور الحديدي. وهي مئة سنة. ثم يأتي الدور نفسه، وهو ١٠٠ سنة. ثم تأتي فترته الأخيرة، وهي كالأولى ١٠٠ سنة؛ والمجموع ١٢٠٠ سنة من سني الآلهة.

وعلى هذا يكون مجموع هذه الأدوار الأربعة: ١٢,٠٠٠ = ١٢٠٠ + ٢٤٠٠ + ٣٦٠٠ + ٤٨٠٠ سنة، من سني الآلهة. فإذا أردنا معرفة سني هذه الأدوار، بالنسبة إلى سنيها ؛ وجب أن نضرب هذا العدد، أعني: ١٢,٠٠٠ بـ ٣٦٥ يوماً، فيكون المجموع: ٤,٣٨٠,٠٠٠ سنة. لأن كل يوم من أيام الآلهة ؛ كسنة من سني الإنسان، أو بضرب ١٢,٠٠٠ بـ ٣٦٥ يوماً، فيكون المجموع: ٤,٣٢٠,٠٠٠ سنة.

راجع في هذا: هذا: مَنُو سَمَرِتِي، ص (٣٢-٣٤)، مع تعليق الدكتور إحسان حقي. وانظر أيضاً ما ذكره البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص (٢٧٢-٢٩٢).

(٢) منتر: الذي معناه نوبة «مَنُو» مقدر لعمر «إِنْدَرَا» ينقضي رئاسته بانقضائه، وكل منتر فهو اثنان وسبعون جتر جوکا (أربعة جوك). انظر ما ذكره البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص (٢٩٠-٢٩٣).

فيضيع عن الخواطر، وذلك لما رأى من فساد نيات الناس وقلة رغبتهم في الخير بل في الواجب^(١).

ويقول أيضًا: «ثم يزعمون أنّ فيه مواضع لا تقرأ في العمارات خوفًا من إسقاط حبالى الناس والبهائم، فيصحرون لقراءتها ولا يخلو منسوق من أمثال هذه التهاويل، ... كتبهم ... مقدرة بأوزان كالأراجيز وأكثرها بوزن يسمى «شلوكة» ... وهذا لأن المنثور أقبل للفساد من المنظوم، وليس «فريد على ذلك النظم السائر بل هو بنظم غيره، فمنهم من يقول: «إنه معجز لا يقدر أحد منهم أن ينظم مثله...»^(٢).

وأما ما نقله بعض علماء المسلمين بأنهم يرون أن الفيد موحى بها من الإله براهما نفسه^(٣). أو أنه كتبها براهما بيده على أوراق من ذهب^(٤)، فلم أظفر بشيء من هذا في كتبهم، ولا أراه صحيحًا؛ لشيئين:

١ - أنهم لا يرون الوحي مثل ما نرى، كما سيأتي بيانه.

٢ - كما أنهم لا يرون الفيد شيئًا مكتوبًا، وقد نقل ذلك البيروني قريبًا عنهم.

القول الثالث: إن الفيد من علم الإله الأعلى، لا يتغير ولا يتبدل، وليس في مقدور البشر أن يأتي بمثله

وهؤلاء يسمّون بـ«آريين»، وهم يرون الفيد علم الإله الأعلى فلا يتغير ولا يتبدل من تغير الزمان والمكان، (كلّ)، فالإله الأعلى هو الذي صنعه، ولكن الريشيين (الحكماء الهندوس) هم الذين رأوه، وبينوا للناس بعباراتهم، وعلى هذا لسان الفيد من الريشيين (الحكماء) وليس من الإله الأعلى، ولهذا يسمّون بـ«آريين»؛ لأن لسان الفيد هو نفس لسان الآريين، ومع ذلك يروونه أزلًا لكونه علم برهمان.

(١) البيروني، أبو الريحان: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص (٨٨-٨٩).

(٢) المصدر السابق ص (٨٩).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه: الأسفار المقدسة في الأديان قبل الإسلام ص (١٧٦).

(٤) انظر ما ذكره أحمد عبد الغفور عطار: الديانات والعقائد في مختلف العصور (١/٨٩).

وعلى هذا لم يصنف الفيد مرة واحدة، بل تتابع عليه الزمان، إلا أنهم حددوا نهايته بانتهاء الأوبانيشادات الفيدية.

القول الرابع: إن الفيد ليس بأزلي، ولا قديم، بل بإمكان الإنسان أن يأتي بمثله.

فهؤلاء يرون الريشيين هم الذين صنفوا الفيد، ولا يرون ذلك من الإله الأعلى، بل يرون الفيد من أكمل الكتب وأجملها على الإطلاق، حتى ادعوا أنه أرقى ما يمكن الوصول إليه من قبل الإنسان.

وهؤلاء استدلوا على قولهم من الفيدات ومن أقوال المحققين والدارسين القدماء والمحدثين، وهو الذي ذهب إليه جل الغربيين:

فمن الفيدات، ما جاء في ريگفيد (٧ / ٩٤ / ١): يا إندراً وأغني! نبتت هذه المدائح من المادح مثل ينبت المطر من السحاب.

ومثله في ريگفيد (٥ / ٨٥ / ٥): «أنا أعترف وأعلن حكمة هذا الإله القوي بورون بأنه نصب الشمس في الخلاء وقدره تقديرًا».

ومثله في ريگفيد (٧ / ٢٢ / ٩): «إن الريشيين القدماء و الريشيين الجدد كلهم يصنعون هذه المدائح لك، فليكن صداقتك تجاهنا سعادةً لنا، عليكم أن تربونا دائماً بالراحة والطمأنينة».

هذه بعض الأدلة من ريگفيد على أن الفيد من كلام البشر.

يقول العالم الهندوسي «بهاري لال ورما» «إن فيد ليس اسم كتاب بل هو مجموعة من أفكار النساك الهندوس. ويعني بذلك أن «فيد» جمعت فيها شتى العلوم الروحانية، وفيها الأناشيد الدينية للعبادة»^(١).

ويقول الدكتور دُلال بهوميك: إن فيد في الحقيقة من تصنيف البشر، وإن الذين صنفوه هم الريشيون* القدامى من حكماء الهند، إذن نستطيع أن نقول: إن فيد من صنع

(١) انظر: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٣٤).

الإنسان، ليس من الإله، حتى إن أصحاب النيايا^(١) القدماء لم يكونوا يعترفون بنسبة الفيد إلى الإله^(٢)، وهو الذي عليه العلماء الغربيون، حيث يرون أن الفيد من جملة ما ألفه الإنسان، فلا يقال: إنه فوق مقدور البشر ولا ينسب إلا إلى الإنسان^(٣).

ويرى الدكتور دلال بهوميك: أن الذين يصفون الفيد بأنه غير إنساني، فإنهم ربما يقصدون بذلك أن الإله الأعلى هو الذي مكّنه من رؤيته، أو المقصود منه: إضافة الاحترام والقداسة إلى الفيد؛ لأن من عادة الإنسان أنه لا ينظر إلى ما صنعه الإنسان نظرة احترام وإجلال مثل ما ينظر إذا نسب ذلك الشيء إلى الآلهة^(٤).

وقد نقل البيروني عن بعضهم ذلك حيث قال: «... والمحصلون منهم يزعمون أن ذلك في مقدورهم لكنهم ممنوعون عنه احتراماً له»^(٥).

وعلى هذا نستطيع أن نقول: إن «فيد» من كتب الأدب والتاريخ؛ لها قيمة تاريخية كبرى، إذ تنعكس في هذا الأدب الديني حياة الآريين في الهند في عهدهم القديم ومقرهم الجديد، فيه أخبار حلهم وترحالهم، دينهم وسياستهم، حضارتهم وثقافتهم، معيشتهم ومعاشرتهم، مساكنهم وملابسهم، مطاعمهم ومشاربهم، مهنهم وحرفهم.

ويرى الباحثون من الغربيين والمحققون من الهندوس أنه قد جمع في قرون عديدة متوالية لا تقل عن عشرين قرناً بدأت قبل الميلاد بزمن طويل، وقد أنشأته أجيال من الشعراء، والزعماء الدينيين، والحكماء الصوفيين عقباً بعد عقب، وفق تطورات الظروف وتقلبات الشؤون^(٦).

(١) سيأتي التعريف بهذه الفلسفة قريباً في المبحث الثالث، من هذا الباب، ص (٣٦٩).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور يوجي راج بشو: فيدير فويسوي، ص (١٦٢)، (اللغة البنغالية).

(٣) انظر ما ذكره سري شوريش چندر بندوباداي، وسري نارين چندر بهتراسارزا: مقدمة الأدب السنسكريتي، الجزء الأول، النسخة الثانية، ١٣٧٠م، ص (٢). (باللغة البنغالية)، وانظر ما ذكره دلال بهوميك: مقدمة سببت برهمانا ص (٢).

(٤) انظر ما ذكره دلال بهوميك: مقدمة سببت برهمانا ص (٢-٣) (اللغة البنغالية).

(٥) البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، ص (٨٩).

(٦) انظر ما ذكره محمد عبد السلام في بحثه القيم فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند، مارس ١٩٥٣م ص (٣).

يقول الزعيم الهندي الراحل جوهر لال نهرو في إحدى رسائله عن الهند القديمة: «لعل هذه الكتب لم تدون في أول الأمر، وإنما حفظت عن ظهر قلب، وبقيت في صدور الحفاظ من حكماء تلك العصور يتناقلونها مشافهة جيلاً بعد جيلٍ. وبعد انتشار نظام الكتابة كتبت الفيدات الأربعة باللغة السنسكريتية، وسمي المجموع «سنگهتا» أي الديوان المجموع»^(١).

يقول غوستاف لوبون: «وبدئ بوضع كتب الفيدا قبل ظهور المسيح بألف سنة، ولم تفتأ تصحح في أكثر من ستة قرون، وكانت قبل تدوينها، كدائرة معارف مشتركة، ينقحها الناشرون ويكملونها في كل استنساخ مستعينين بمساعدين جدد»^(٢).

يقول الدكتور محمد إسماعيل الندوي: «إن كتب الفيدات في الحقيقة تتضمن انطباعات الآريين وعقائدهم ومشاعرهم وأحاسيسهم منذ نزوحهم إلى الهند، وهي تصور تصويرًا صادقًا حياتهم البدائية وعقائدهم البسيطة وآلهتهم الساذجة ومشاعرهم الرقيقة ومخاوفهم الشديدة وبهجتهم المفعمة، كما أنها تحكي آلهتهم وأدواتهم التي جلبوها من بلادهم مثل الحديد والخيول، وبهذا يعتبر الفيد تاريخ الفكر الآري منذ عام ١٨٠٠ قبل الميلاد، ولكن هذا الكتاب ... كانت تتناقله ألسنة الناس من الكهنة وعامة الناس، وتحفظه صدورهم ... ويعتقد الباحثون إن التدوين الفني لهذا الكتاب قد تم خلال سنة ٦٠٠ ق.م، حينما ارتفعت البلاد إلى المستوى المدني وقامت الدول المدنية ... وقد ألف الفيد كثير من رجال الدين الآريين باللغة السنسكريتية وبالشعر، وبهذا لم يكن للفيد مؤلف واحد كما لا يمكننا تحديد أسماء مؤلفيه»^(٣).

إن الفيد يتضمن صورًا واضحة للآلهة القديمة التي جلبوها من موطنهم الأصلي، وحددوا فيه وظيفة الإله «إندرا» كبير آلهتهم، وبالإضافة إلى ذلك نلمس فيه أحاسيسهم وانطباعاتهم حينما انتصروا على أعدائهم الدراويدين.

(١) انظر: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة قبل الإسلام ص (١٧٦).

(٢) غوستاف لوبون: حضارات الهند ص (٤٤٦).

(٣) الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص (٩٨).

وعلى كل حال: فإن القيد هو الكتاب المقدس على الإطلاق لدى جميع طوائف الهندوس، وقد نال شهرة كبيرة في الجماهير، وإن كان الكثير منهم لم يقرؤوه ولم يفهموه، وهذه القداسة أصبحت مجرد نظرية، حيث إنه طغت الكتب الأخرى المتأخرة عليه، إلا أن الاحترام العام موجود، وليس عملياً بتلك الدرجة.

ثم إن قيد ليس اسم كتاب مؤلف على الأبواب والفصول وإنما هو مجموعة من الأجزاء المنتشرة من تعليمات الزهاد والنسك في القرون المظلمة قبل الميلاد، ولقد حرص النسك الهندوس على حفظ التعليمات المبعثرة، ثم أملوها على تلاميذهم وقيدوها على اللوحات الحجرية والجلدية. ويقال لهؤلاء الحفاظ «شاستري» (SHASTRY).

فالذي لا يُشك فيه: أن «قيد» أقدم كتب الهند، وأن أغلب الهندوس يعتقدون قيد ذخيرة الحكمة المقدسة القديمة التي لا نهاية لها^(١).

الرابع: علاقة القيد بالإله

اتضح من البيان السابق عن مصدر القيد أن الهندوس بأنفسهم مختلفون فيما بينهم في تحديد علاقة القيد مع الإله، حيث وجد منهم من يرى القيد أزلياً وقديماً قدم الإله، مع عدم إثباتهم للإله، فكانهم يرون القيد بمنزلة الإله.

ومنهم من يرى صدور القيد من الإله الأعلى، وأنه هو الذي يُرى القيد للحكماء، ولا مانع لديهم أن يحصل الفناء والتغيير والتبديل في القيد ما دام الإله سيريه الحكماء مرة أخرى في كل زمان.

ومنهم من يرى أن القيد علم الإله الأعلى، فلا يمكن أن يتبدل ولا يتغير، ولا يفنى، إلا أن التعبير واللغة من حكماء الآريين الذين يتكلمون بلغة القيد والتي هي السنسكريتية^(٢).

(١) انظر ما ذكره أحمد عبد الغفور عطار: الديانات والعقائد (١/ ٨٨).

(٢) وقيل: لغة القيدات غير السنسكريتية، لغة قديمة ميتة، وليس له أي دليل.

ومنهم من يرى القيد من الأفكار العالية البشرية، فهي تعتبر أدبًا رفيعًا من آداب العالم، وفيه ما يدل على ذلك.

وإذا نظرنا إلى هذه الأقوال يتضح لنا أشياء:

أولاً: أن الهندوس أنفسهم مختلفون في مصدر القيد فلم يتفقوا على كونه من الإله الأعلى.

ثانياً: وهم مختلفون في أصل العلاقة بين القيد والإله، من حيث كون القيد مع الإله الأعلى، أو كونه معطى من قبله للحكماء أو من حيث كونه علماً له، أو كونه لا علاقة له مع الإله مطلقاً بل هو من أفكار البشر العالية.

ثالثاً: إن الذين يقولون بكون القيدات من الإله الأعلى، لم يقولوا بأنه موحى إلى حكمائهم، وإنما قالوا: أنه مرئي ومشاهد من قبل حكمائهم.

ومعلوم أن الوحي الذي يفهمه المسلمون يختلف عن مفهوم الهندوس في أمور؛ فإن الوحي عند المسلمين ليس إلهة من الرحمن لمن يريده سبحانه، وليس من باب الرؤى والمشاهدة، كما هو عند الهندوس، وبيان ذلك فيما يلي:

إن الوحي مصدر، ومادة الكلمة تدل على معنيين أصليين، هما: الخفاء والسرعة، ولذا قيل في معناه: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره، يدخل فيه الإلهام الفطري والإلهام الغريزي، والإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء، ووسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان، إلقاء الله إلى الملائكة من أمر ليفعلوه، فهذا هو الوحي على العموم، وهي كلها تشترك في كونها غير داخلية في مجهود من أوحى إليه.

ولكن الوحي الخاص، هو إعلام الله تعالى من اصطفاة من عباده من ألوان الهداية والعلم، ولكن كيف يصل الوحي الإلهي إلى الناس؟

إن الإسلام يحدد الوحي الذي يصل إلى الأنبياء بطريقتين رئيسيتين^(١):

الأول: بدون واسطة، ويندرج فيه الأمور الآتية:

أ- الرؤيا الصالحة في المنام.

ب- الكلام الإلهي من وراء حجاب بدون واسطة يقظة.

الثاني: بواسطة الملك، ويندرج فيه الصور الآتية:

أ- يأتيه الملك على صورته الحقيقية، فيتكلم بالوحي، أو ينفث في روعه.

ب- أن يتمثل له الملك رجلاً ويأتيه في صورة بشر، فإما أن يتكلم بالوحي أو

ينفث في روعه.

هذه هي صور الوحي لدى المسلمين، وهي كلها توضح أن الوحي من الله إعلام

الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، بإحدى الطرق السابقة الذكر.

ولكن الهندوس يختلفون في دعواهم لحصول الفيد عما هو معتقدنا نحن في

الوحي، فهم لا يرون الوحي منزلاً على أحد من قبل الإله الأعلى، بل يرون حصول

الفيد لهم بالمشاهدة والمكاشفة فهم يشاهدون الحكمة بقلوبهم الصافية.

إن الإسلام يرى الوحي من الخارج، ولكن الديانة الهندوسية ترى الوحي الباطني،

والذي قد يسمّى إلهاماً باطنياً، فهو عندهم داخلي، يحصل عليه من صفا طبعه وحسن

عمله وكثرت مجاهدته^(٢)، وعلى هذا يبني الكلام في مسألة هل الفيد من الوحي أم لا؟

وإنني حسب إطلاعي القاصر لم أجد عند الهندوس الكبار إثباتاً جازماً لكونه وحياً من

الإله الأعلى، إلا ما يحكيه بعض المسلمين عن الهندوس بأنهم يعتقدون كون الفيدات

(١) انظر ما ذكره الشيخ مناع القطان: مباحث في علوم القرآن ص (٢٦-٣٣)، ومحمد عبد العظيم

الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ص (٦٣-٦٥).

(٢) ولعل هذا أخذ عنهم المتصوفة من أصحاب الإلهام والكشف، وسيأتي بيان ذلك فيما بعد

بمشيئة الله.

من الخالق، وأنه موحى إليهم^(١)، ويدعي بعض الهندوس المتأخرين كون الفيد يشتمل على بعض ما في صحف إبراهيم عليه السلام^(٢) وهذا القول يخالف ظاهراً قول كثير من مؤرخي الإسلام ومن نحا نحوهم بأن الهندوس ينكرون النبوات، وبالتالي: ينكرون الوحي^(٣). وسيأتي الكلام عليه مفصلاً^(٤).

ويرى الدكتور رؤوف شلبي: أن هؤلاء الهندوس يسرقون تعاليم الإسلام، وينسبونه إلى أنفسهم، وما ادعاء الوحي إلا من هذا النوع، فلم يعرف ذلك عن متقدميهم، بل ما عرف إلا عن بعض المتأخرين، وهم ربما أخذوها عن المسلمين أو النصاري، أو اليهود؛ إذن قصة الوحي التي ابتدعوها قصة ملفقة من جانب، ومفتعلة من جانب آخر، ومقلد فيها من جانب ثالث، وهذا أسلوب جديد عند قساوسة الأديان الباطلة يلفقون لنحلهم أدلة وقضايا لتساير العصر الذي أصبح لا يعقل خزعبلاتهم، وهذه خطة جديدة لسرقة الإسلام وحبك التلصص الديني لتضليل الجيل المعاصر^(٥).

ثم إن هناك من ينص على أن الهندوس لم يقولوا بكونه موحى من الإله إلا حوالي سنة ٧٠٠م^(٦).

إلا أن هناك فرقة أخرى ترى كون الفيدات موحى من الله، يقول أحد المؤيدين لكون الفيد من الكتب المنزلة: «إن هذه الكتب المقدسة ليست ثمرة من ثمار العقل

(١) انظر: مقالة السيد أخلاق حسين الدهلوي بعنوان: أضواء على كتب الفيدا وما يتعلق بها في مجلة ثقافة الهند، المجلد ٤٠، والعدد (٤٣ و٤٤)، حيث يشير إلى كون هذه الفيدات من كتب الأنبياء عليهم السلام منهم صحيفة آدم وشيث وداود وبعض صحف موسى.

(٢) اذكر ما نقله شيخنا الدكتور محمد الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٧٠٦)، عن الدكتور «بُرَانْ نات» الأستاذ بالجامعة الهندوسية بنارس، وأشار الشيخ الأعظمي إلى كتاب «ميثاق النبيين لعبد الحق وديارتهى القادياني، ولم أطلع عليه.

(٣) انظر ما ذكره الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» ص (٧٠٦-٧٠٧).

(٤) انظر ص (١٠٤٥-١٠٥٦) من هذا الكتاب.

(٥) انظر الأديان القديمة في الشرق ص (٩٩-١٠١).

(٦) انظر ما ذكره الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني: في العقائد والأديان، الديانات الكبرى المعاصرة ص (٩٢).

البشري أو المجهود الإنساني وإنما هي منزلة من الله تعالى شأنه^(١). ثم يسترسل في إثبات ذلك ببعض أقوال المتصوفة من علماء الهند، وبوجود بعض البشارات، وبعض قصص الأنبياء، وقصة نوح، وقصة إبراهيم وما إلى ذلك، ويدعي كونه يشتمل على أخبار الماضي وما يحدث في المستقبل.

ويقول البيروني: «ويعتقد الهندوس أن «فيد» كلام إلهي جرى على لسان برهما... وتحتوي كتب فيد على الأمر والنهي والترغيب والترهيب...»^(٢).

ويقول آخر: «إن ما يستفاد من كتب أهالي الهند القديمة هو أن الله تعالى قد أنزل برحمته الكتاب المسمى بـ«فيد» بواسطة براهما - وهو ملك منوط به العمل على إيجاد العمل وخلقه^(٣) - في بداية خلق البشر، من أجل إصلاح حياتهم الدنيوية وحياتهم فيما بعد الممات، والكتاب يحتوي على أربعة أجزاء تضم الأمر والنهي وأخبار الماضي وأنباء المستقبل»^(٤).

قلت: ليس عندنا ما يدل على كون الفيد من كلام الله تعالى، وكل ما ذكره مجرد احتمالات، فكون الفيد من كتاب الله يحتاج إلى دليل قاطع، لا يثبت بمثل هذه الاحتمالات، لاسيما أن أكثرها تخمينات لا قيمة لها في البحث العلمي^(٥).

ثم إن الهندوس بأنفسهم عمومًا لا يرون كتبهم من الوحي ولا يثبتون لها تنزيلاً من قبل الإله الأعلى، وإنما يثبتون لها الرؤية والمشاهدة والمكاشفة من قبل من يسمونهم بالريشين، حصلوا عليها بالمجاهدات الشاقة، والكشف والإشراق، فما بالنا نحن

(١) انظر: مقالة السيد أخلاق حسين الدهلوي بعنوان: أضواء على كتب الفيدا وما يتعلق بها في مجلة ثقافة الهند، المجلد ٤٠، والعدد (٣ و ٤) ص (١٠٤).

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص (٨٨).

(٣) لا شك في أن هذا الكلام كفر بالله وشرك به.

(٤) انظر: مقالة السيد أخلاق حسين الدهلوي بعنوان: أضواء على كتب الفيدا وما يتعلق بها في مجلة ثقافة الهند، المجلد ٤٠، والعدد (٣ و ٤) ص (١٠٤-١٢٢).

(٥) راجع المصدر نفسه.

نحاول مستميتين إثبات كونها منزلةً من الله، وكونها من الكتب المنزلة على الأنبياء والرسل أو من الوحي الذي أوحاه الله إلى بعض أنبيائه ورسله. ليس هذا إلا نفاق وهوى أو تملق إلى السلطات الهندوسية.

أضف على ذلك؛ إن الكتب المنزلة فيها ما يدل على كونها من الله ﷻ، والفيد على خلاف الكتب المنزلة تنادي بالشرك والوثنية والخرافة، ولا يوجد هناك اتفاق بين موضوعات الكتب المقدسة وبين الفيد إلا في بعض المسائل اليسيرة لا يلزم أن تكون من باب المنزل من الله، بل ربما يكون قد ألحقها الهندوس بكتبهم سماعًا من الآخرين، أو وافقوا فيها الصواب بعقولهم.

الخامس: عدد الفيد:

يجمع الدارسون على أن عدد الفيدات الآن أربعة، وهي:

١- ريگفید.

٢- سام فید.

٣- ياجور فید.

٤- أثربا فید.

فهل هذه الكتب كلها تعتبر فيد واحد أم متعدد؟ وهل كانت هذه الفيدات كلها مقدسة من أول الأمر؟

ويلاحظ القارئ أن بعض «الفيدات» مأخوذة من البعض الآخر، وبعضها شرح ونثر وتعليق على البعض الآخر. وهذا يدل على أن أصل الفيد كان واحدًا، والتقسيم محدث، ولكن الهندوس الآن يقدسون الفيدات الأربعة كلها، وإن كان قبول الفيد الرابع كان متأخرًا جدًا لأسباب سيأتي ذكرها في مكانها.

السادس: تقسيم الفيدات:

تتفق جميع المصادر أن أحد حكمائهم يسمى «بياس بن پراشر» هو الذي قسم الفيد إلى أربعة أقسامٍ وأعطاها لأربعة من تلاميذه يحفظهم إياه، يقول البيروني:

«وقالوا: إن «بياس» قطعه أربع قطع هي: «ريغفيد» و«ياجورفيد» و«سامفيد» و«أثربا فيد» وكان له أربعة تلاميذ (شش) فعلم كل واحد أو حمله إياه، وهم على ترتيب القطع المذكورة: «بير» «بيشباين» «جيمن» «سمنت» ولكل واحدة من القطع الأربع في القراءة نهج^(١).

ويذكر بعضهم أنه مجدد الفيدات، فهل كان الفيدات مفقودًا قبله؟ بحيث سجله «فيد بياس» من محفوظاته وذاكرته؟ أم أنه مجرد تقسيم، هذا مما يحتاج إلى البحث والتفتيح.

والذي يظهر أن كتبهم الأصلي «فيد» قد حصل له تلف من جهة ما، كما ذكره البيروني فيما نقلت عنه قريبًا، وإنما جدد «بياس» من محفوظاته. كما يدعي اليهود أن كتابهم المقدس التوراة، قد أعاده لهم عزرا بعد فقدانه.

السابع: التعريف بـ «فيد» بياس (جامع الفيدات):

هو «بياس بن پراشر»^(٢). ويضيفون في أوله «فيد» لكثرة ملازمته لفيد، أو لتقسيمه أو لتجديده، أو لحفظه^(٣).

تاريخ ولادته وبعض أعماله:

لم يذكر أحد الهندوس تاريخ ولادة بياس بن پراشر بالتحديد، وكل ما ذكر في كتبهم أنه كان في الزمن الثالث من الأزمنة الأربعة الهندوسية التي يسمونها الجوقات الأربعة^(٤)، إلا أن البعض يحدد عصره تقريبًا بـ ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد^(٥).

(١) البيروني، أبو الريحان، تحقيق ما للهند من مقولة ... ص (٨٩-٩٠).

(٢) انظر مثلاً: ص ٨٩، ٩٣ مما ذكره البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة.

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) انظر لمعرفة الجوقات الأربعة بالتفصيل ما ذكره البيروني في تحقيق ما للهند ص (٢٨٠-٢٨٧).

(٥) انظر ما ذكره شودانغشو كومار سكربرتي في كتابه: دهارما تتر شار شغره ص (٨٣). (باللغة البنغالية).

وقد ذكر في كتاب مهابهارت نشأة بياس بن براشر وبعض أعماله الشنيعة التي يعتبرها الهندوس من الكرامات ويذكرونها دون حياء أو خجل، فمما جاء في مهابهارت عنه:

أنه كان هناك ملك اسمه: أُپْرَچَهْرُ بُشُو، خرج للصيد، ولكنه تذكر زوجته في الغابة وخرج منه المني، فأرسل الملك منيه إلى زوجته بواسطة بازي، وفي الطريق حمل عليه بازي آخر فسقط منه المني في نهر جامونا، وكانت هناك سمكة تنتظر، فابتلعت السمكة وكانت تلك السمكة من حوريات الجنة، أصابها دعوة براهيمها حتى أصبحت سمكة، وابتلاع المني حملت السمكة، وبعد مضي عشرة أشهر وقعت في شبكة صياد السمك، ولما شق الصياد السمكة وجد في بطنها ذكر وأنثى، وتحولت السمكة إلى حورية مرة أخرى، وطارَت إلى السماء، فلما رأى الصياد هذه الأعجوبة ذهب بالطفلين إلى الملك، فأخذ الملك الولد، وجعله ابنًا له، وأما البنت فأعطاه الملك للصيد، فسمّاها الصياد بـ «ستوتبي أي صادقة وكانت بنتًا جميلة، فاشتهرت بجمالها، وسميت بـ «متشغنها» (صاحبة رائحة السمك) إما لأنها كانت تسكن مع صيادي السمك، أو لأنها كانت في جسدها رائحة السمك. وجعلها أبوها تعمل على سفينة صغيرة فكانت تأخذ الناس بها من إحدى جهات النهر إلى الجهات الأخرى بالأجرة.

وفي يوم من الأيام بينما كانت تحمل أناسًا من جهة إلى جهة في نهر جامونا، فاجأها أحد عبادهم وعالمهم الذي يقال له موني^(١) براشر، فلما رآها أعجبته، وسألها أين صاحب هذه السفينة؟ فأجابت البنت إن هذه السفينة لصياد السمك، ولكن ليس له أولاد ذكور، ولهذا أنا أساعده في معيشته، فركب براشر السفينة، وقال لها: أنا أعلم بقصة ولادتك، وإنني أريد أن أرزق منك ولدًا يحفظ علي نسلي، فاستجيب لدعوتي، وأراد أن يجامعها، فقالت البنت: يا إله، لا مانع لدي ولكن كيف الأمر لو نظر إلينا أحد من البراهمة من شاطئ النهر من الجهة الأخرى؟ فصنع براشر غيمًا حتى لا يراها أحد،

(١) موني: يعني العالم والعابد الذي يقوم بتنوير الناس وتدريسهم، وهم يستندون في معاشهم على الناس في الغالب، انظر ما ذكره أَمَلْ كُومار بندوباداي: بُورَنِيكا (٢/ ٤٣١).

فقال البنت: أنا عذراء، وكيف أعمل شيئاً يزيل عني بكارتي، وما ذا يقول لي والدي إذا اتضح له ذلك؟ فقال: أنت تبقين كما كنت دون أن تزول البكارة إذا أتممت رغبتني، وبإمكانك أن تطلبي مني أشياء أخرى أيضاً، فقالت البنت: أريد منك أن تزيل عني هذه الرائحة الكريهة، فدعا لها پراشر، فبدأت تخرج من جسدها رائحة عطرة، حتى كانت رائحتها تُشَمُّ من مسافة بعيدة، فسميت بـ «جوزن غندها» أي التي توجد رائحته العطرة من مسافة أربع برد، (٤٨) ميلاً.

وافقت البنت على ما أراد منها پراشر، فحبلت منه، وأولدها في الحال طفلاً ذكراً، وسمي هذا الولد الذي ولد على شاطئ نهر يامونا^(١) بـ «ضيفائن»^(٢) وقد شب سريعاً، ثم ذهب إلى الغابة للعبادة، وقال لأمه قبل أن يذهب: متى ما وقعت في مشكلة ما اذكريني فسأحضر لمساعدتك، هذا الولد هو «بياس» الذي قام بعدُ بتقسيم القيد إلى أربع، وعلم تلامذته وأولاده هذه القيدات^(٣).^(٤)

(١) نهرٌ من الأنهر المقدسة لدى الهندوس، تنطق يامونا، كما تنطق جامونا، والثاني لدى أهالي الهند، وأما الأول فالعرب ينطق Y هذه بـ «يا» مثل ما يقولون: يابان، والهنود ينطقون: جابان، وهكذا.

(٢) يقول المحقق لكتاب مهابهارت: ((اسمه الأصلي «كريشنا» ولكنه لما ولد في شاطئ نهر جامونا سمي بـ ضيفائن)). قلت: كلمة «ضيفا» معنا «جزيرة صغيرة» وبهذا يكون معنى ضيفائن: المولود في جزيرة (من جزائر جامونا).

(٣) انظر: مهابهارت ص (٢٤-٢٥). ترجمة مني، وانظر أيضاً تحفة الهند ص (١٨-١٩). (باللغة الأردنية).

(٤) هناك رواية أخرى تقول: إن براشر ركه وعد زوجته قبل أن يذهب إلى الغابة أنه سيرسل منيه إليه بعد طهارتها من الحيض مباشرة، وعندما كان في الغابة تذكر وعده، فخرج منه المني فأرسل هذا المني مع بازي، فحصل هناك تضارب في الطريق بين بازي آخر، حتى سقطت النطفة في النهر، فابتلع سمكة حتى حبلت، وولدت منها بنتاً، التي سميت بمجهودري، (أي سمكي)، وجعلها أحد الملاح بنتاً له، وفي مرة من المرات جاء پراشر ركه إلى النهر، وركبت في سفينة مجهودري، فعشقها پراشر، وراودها، فقالت: إن في جسدي رائحة كريهة من السمك فتحولت الرائحة الكريهة إلى الرائحة العطرة بدعائه، فقالت مجهودري:

وهذه قصة خرافية يرويها كتابهم المقدس مهابهارت عن أصل ولادة من يسمى بـ«بياس بن پراشر»، ويتضح منها أنهم لا يتحرجون من اعتباره ابنًا غير شرعي لأحد عبّادهم^{(١)(٢)}.

ومن أعماله أيضًا ما ذكر أن أمه رآها ملك اسمه شانتنو، فعشقها، ولكنها رفضت أن تتزوجه إلا أن يكون أبناءها منه هم الملوك دون أبنائه من غيرها، فوافق الملك على هذا الشرط بعد مدة، وولد له ولدان منها، هما: «سيتراغند» و«بيستيريز»، ولما مات الملك شانتنو قام بعده بالملك ابنه «سيتراغند» ولكنه مات بعد أيام في بعض الحروب، فقام بالملك بعده «بيستيريز» الابن الصغير لملك شانتنو، ولكنه مات بالدرن بعد مدة قصيرة عن زوجتين ولم يولد له، فقالت أمهما ستّوتي: عليّ أن أحافظ على نسل شانتنو، ولهذا طلبتُ منهما أن تزنيا مع ابنها الأول «بياس ضيفائن» الذي ولد لها من قبل پراشر، والذي ذهب إلى الغابة للعبادة، فنادت ابنها بياس بن پراشر من الغابة، وطلبت منه أن يجامع زوجتي أخيه «بيستيريز» فقال بياس بن پراشر: إنني سأقدم على هذا العمل امتثالاً لأمرِك ولأمر الدين(?)، حتى زنى بهما، فولد لهما ولدان هما: دهيرت رَاستر، وپاندو^(٣).

هذا هو العابد (?) الذي حفظ لهم الفيدات، وقسمها إلى أربعة أقسام، فليُنظر العاقل من يتبع في أمر دينه.

هذا ما يذكره كتب الهندوس، وهم لا ينكرون هذه القصص أبدًا، إلا أنهم يعللون

= كيف أفعل ذلك ربما يراني والدي والشمس، وقد غلبت الشهوة على پراشر ركه، حتى صنعت غيمًا كثيفًا في السماء كي لا يراها أحد من الخارج لا الشمس ولا أبوها، حتى فعل بها ما فعل، وبهذا يكون پراشر قد زنى بابتته. انظر تحفة الهند ص(٤٤). ولم أقف على من ذكر هذه الرواية غيره ولم يشر إلى مرجع.

(١) انظر: مقدمة مهابهارت ص(١-٣).

(٢) انظر: تحفة الهند ص(٤٤).

(٣) انظر: مهابهارت ص(٤٤-٤٦) والقصة طويلة اختصرتها حسب الإمكان. وانظر أيضًا ما ذكره

عبيد الله الفائلي في كتابه: تحفة الهند ص(١٩-٢٠).

لذلك بتعليلات واهية، منها: أن هذا كان في زمانٍ كان الأمر فيه سعة، وأما الآن فلا نرى ذلك؛ لأنه قد مُنِع منه.

المطلب الثاني

دراسة الفيدات الأربعة

وتشتمل على أربعة فروع:

الفرع الأول

ريگفيد (RIG VEDA)

معنى كلمة ريك:

كلمة «ريگ» ذكروا لها معانٍ:

(١) الأناشيد أو الترانيم، أو ترانيم الثناء أو المدائح^(١).

يقول البيروني: هو مركب من نَظْمٍ يسمى «ريگ»، ... وريگفيد سمي بها كأنه جملة ريگ وفيه قرابين النار^(٢).

ويقول الدكتور محمد إسماعيل الندوي: «إن كلمة «ريگ» تطلق على الأشعار، والثيد على المعرفة، ويقصد بكلي الكلمتين: «أناشيد المعارف الروحية»^(٣)، أو أناشيد

(١) انظر ما ذكره العالم الهندوسي فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص(٢٣). وانظر أيضًا ما ذكره أخلاق حسين الدهلوي في أضواء على كتب الفيدا ص(١١١) حيث قال: إن معناه الحرفي: صحيفة ثناء الباري.

(٢) البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص(٩٠)، وانظر أيضًا: الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ص(٣٤).

(٣) الهند القديمة حضاراتها ودياناتها: ص(٩٩)، وانظر: الهند حضاراتها وتقاليدها وجغرافيتها ص(٣٤).

ومدائح علمية أو معرفية للآلهة^(١).

(٢) النار^(٢)؛ أو الضوء أو قوة الضياء^(٣).

وسميت ريگ بالنار؛ لأنها خلقت من نار السالك، فإنه يحترق قلبه بشدة الشوق إلى ثناء الآلهة، ثم يتولد أبيات من قوة الكلام ويظهر، فكأنه تولد من النار^(٤). أو لأنها تقدم للإله أغني التي تعني النار^(٥).

ومعلوم أن متون الفيد التي تعرف بـ«مترا» كما تكون بالنظم هكذا تكون بالنثر، ولكن كلمة «ريگ» فهي تطلق على نوع من النظم (الأشعار) التي لها صفات محددة، حيث يقولون: إن ريگ هي النظم التي تكون على شطر أو شطرين أو أشطر، ويكون فيه حروف معينة، ويكون له معنى متكامل.

تاريخ تدوينه:

يقول علماء الهندوس: إن ريگفید هذا هو الأصل والأشهر وهو أشمل الفيدات، كما يدعون أنه من أقدم المؤلفات في العالم، ولكنهم يختلفون في تحديد زمان تأليفه: فيجزم بعض علماء الغرب أن تأليفه كان على مراحل ما بين ١٥٠٠ إلى ١٠٠٠ قبل الميلاد^(٦).

وقيل: إن تأليفه كان في زمان يقارب ٢٥٠٠ ق م.

(١) انظر ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص (٢٣).

(٢) ذكره الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة قبل الإسلام ص (١٧٦)، وانظر أيضًا ما ذكره الدكتور عمارة نجيب في: الإنسان في ظل الأديان ص (١٨٣).

(٣) انظر ما ذكره أوموليش بتراسارزا: فيد مترا منجري ص (٤٧) مادة: ريگ. (اللغة البنغالية).

(٤) انظر ما ذكره أوموليش بتراسارزا: فيد مترا منجري ص (٤٨) مادة: ريگ.

(٥) انظر ما ذكره البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ص (٩٠).

(٦) انظر ما ذكره جون كولر: الفكر الشرقي القديم ص (٣٦).

وقيل: إن تأليف ريگشيد يرجع إلى ٣٠٠٠ ق.م.^(١)

وقيل: إن تأليفه يرجع إلى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد.^(٢)

وقيل: إن بداية تأليفه كانت قبل ستة أو سبعة آلاف سنة.^(٣)

وقيل: إنه يرجع زمن تأليفه إلى ٢٥٠٠ ق.م.^(٤)

وقيل: إنه كان موجوداً قبل مائة قرن من ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام قبل أن تنتهي إلى صيغتها النهائية في القرن الثلاثين قبل الميلاد.^(٥)

وقيل: إنه دَوّن في زمن موغل في القدم، وربما يرجع إلى ثلاثين ألف سنة مضت.^(٦)

وقيل: إنه أزلّي كقدم العالم.^(٧)

هذه أقوال عديدة، لا يمكن الجمع بينها، ولكن الذي يرجحه كثير من الهندوس هو أن بداية تأليفه ٦٠٠٠ ق.م.^(٨)

ويظهر لي أن ريگشيد بدأ الآريون بتصنيفه قبل أن يردوا الهند، ولم ينتهوا من تصنيفه إلا بعد أن حلوا الهند وكانوا يصنفونه أيام الحروب بينهم وبين الدراويدين، ولم يكملوا

(١) أديان الهند الكبرى ص (٤٦).

(٢) انظر مقدمة كتاب ريگشيد ص (٣٣).

(٣) أبو الحسين بتراسارزا: لما ذا أسلمت ص (١١٥).

(٤) انظر ما ذكره سري جانهبي چرن بهوميك: سنسكرت شاهيتير إتيهااس، ص (٣).

(٥) انظر ما ذكره أحمد عبد الغفور عطار: الديانات والعقائد في مختلف العصور (١/٨٦).

(٦) ذيل الملل والنحل، محمد سيد كيلاني، المطبوع في نهاية كتاب الملل والنحل للشهرستاني ص (١٠).

(٧) سبق ذكره قريباً، عندما استعراضنا لأقوال القائلين في مصدر القيد، وهو قول فلاسفة سانكهيا.

(٨) انظر ما ذكره الدكتور يوجي راج بشو: فيدير فوريسوي ص (١٧٣)، وهو الذي رجحه الدكتور دُلال بهوميك: مقدمة سبت برهمانا ص (٤).

تصنيفه إلا بعد أن توغلوا إلى حوض نهر غنغا^(١) وبرهماپترا^(٢)، وهذه المدة كلها كانوا يكتبونه، وربما انتهوا من تصنيفه نهائيًا في ١٥٠٠ ق.م.

محتويات الكتاب:

عدد أبياتها وطبيعتها:

إن كتاب ريگفید يشتمل على عشرة أجزاء^(٣)، وهم يسمّون الجزء بـ «مَنْدَل». وكل مَنْدَل منه يشتمل على عدد كبير من «سوكت»^(٤) أي: مجموعة من الأبيات ذات معنى ومغزى واحد، واختلفوا في عدد أبياتها على أقوال:

(١) فقد جاء في بعض كتبهم^(٥): أن عدد أبيات ريگفید: (١٠٥٨٠) ريگ، ولكننا لا نحصل على هذا العدد في ريگفید المطبوع الآن، وهذا يدل على أن هناك أبياتًا حذف منها أو فقد^(٦).

(٢) أما الأبيات التي نحصل عليها الآن فهي مختلفة أيضًا من حيث النسخ؛ فإنه يوجد لريگفید ثلاث نسخ مشهورة الآن، وهي كلها مختلفة بعضها عن

(١) بدليل ورود ذكر غنغا في الجزء العاشر من ريگفید.

(٢) غنغا وبرهما پترا نهران من أنهار الهند، خرج من جبال هماليا وبعد عبور الهند التحم مع الخليج البنغال.

(٣) وقيل: إنه كان يشتمل على تسعة عشر مَنْدَلًا أي جزءًا، حذف منه بعض الأبواب، انظر ما ذكره أبو الحسين باتراسارزا: لما ذا أسلمت، ص (١١٥).

(٤) سوكت: كلمة سنسكريتية أصلها من دمج كلمتين: سو أي: الطيب والجميل، وأُكْتُ أي: البيان أو الكلام، فتكون المعنى: الكلام الجميل أو الكلام الطيب، والمقصود بـ «سوكت»: مجموعة من الأبيات تؤدي معنى كامل جميل، يحتوي كل منها على مجموعة من ريگ، وريگ معناها الشعر المنظوم.

انظر ما ذكره شودانغشو كومار سكربرتي: دهارما تتر شار شنغره ص (٨٥).

(٥) يسمّى: چرن بوه، والكتاب في شرح نصوص الفيدات.

(٦) انظر ما ذكره الدكتور فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص (٢٤).

البعض الآخر في عدّ الأبيات، ربما يرجع السبب في ذلك إلى شيئين:

أ- عدّ مجموعة (١١) أحد عشر قصيدة والتي يسمونها بـ«سوكت» وعدم عدّها؛ فإن هذه المجموعة تسمى بـ«بالخلّ سوكت». وهي مقبولة لدى البعض وغير مقبولة لدى البعض الآخرين.

ب- كما أطلقت على أبيات ريگفید تقسيمات لها دور في تحديد أبياتها.

ج- كما أن لاختلاف النسخ دور في تحديد هذه الأبيات؛ فإن لريگفید نسخ عديدة، حددها البعض بخمس نسخ، والبعض يوصلها إلى واحد وعشرين نسخة^(١)، ولكن النسخ المشهورة ثلاثة، وهي: شاكل، باشكل، وسانخاين. ففي نسخة شاكل، وضع القصائد المسمى بـ«بالخلّ سوكت» كضميمة في نهاية الفيد، أما في نسخة باشكل، فقد سقطت القصائد التي تسمى «بالخلّ سوكت»، (أي: سوكت زائد أو متأخر)، وأما في نسخة سانخاين، فقد أدرج هذه القصائد ضمن أصل ريگفید بدون تفريق، كما وجد مجموعة أخرى من القصائد ملحقة معها.

❖ نسخة شاكل، وطبيعتها:

إن نسخة شاكل هي المعروفة والمتداولة لدى جماهير الهندوس، ونلاحظ أن (مترا) أو أبيات هذه النسخة موزعة غير متساوية الأعداد في عشرة أجزاء، وكل جزء منها مقسمة على فصول والذي يسمونه بـ«أنواك»، كما يوجد في كل جزء مجموعة كبيرة من القصائد التي يسمونها بـ«سوكت»، وكل سوكت يتضمن على مجموعة من «ريگ» وبيان ذلك في الجدول الآتي:

مندل (الجزء)	أنوأك (الفصل)	سوك (القصيدة)	ريگ (البيت أو شطر من البيت)
الأول	٢٤	١٩١	٢٠٠٦
الثاني	٤	٤٣	٤٢٩
الثالث	٥	٦٢	٦١٧
الرابع	٥	٥٨	٥٨٩
الخامس	٦	٨٧	٧٢٧
السادس	٦	٧٥	٧٦٥
السابع	٦	١٠٤	٨٤١
الثامن	١٠	٩٢	١٦٣٦
التاسع	٧	١١٤	١١٠٨
العاشر	١٢	١٩١	١٧٥٤
المجموع	٨٥	١,٠١٧	١٠,٤٧٢
بالخلّ سوك		١١	٨٠
المجموع الكلي	—	١,٠٢٨	١٠,٥٥٢

وعلى هذا مجموع أبيات ريگ فيد (١٠,٥٥٢) بيتاً مع بالخلّ سوك إلا أننا نجد لدى بعض المعنيين من الغربيين خلافاً في هذه الإحصائيات^(١).

(١) وقد نقل ول ديورانت أن عدد أبياتها (١٠٤١٧)، ولا يوافق هذا ما في ريگ فيد المطبوع، فلا أدري من أين أخذها هذا المستشرق. انظر قصة الحضارة (٣/ ١/ ٣٩). أما عند ماكس موللر فإن هذا العدد تختلف قليلاً حيث يقول:

As early as about 600B.C. we find that in the theological schools of India every verse, every word, every syllable, of the (Rig) Veda had been counted. The number of verses as computed in treatises of that date varies from 10.402 to 10.622; that of the words is 153.826; that of the syllables, 432.000». See: Max Muller's Selected Essays. Vol. 2 (1881), p.119.

❖ نسخة باشكل، وطبيعتها:

نلاحظ في نسخة باشكل تقسيم الأبيات متقاربة في ثمانية أجزاء، وسمي كل جزء بـ«أشتك» (الثلث)، وقسم كل «أشتك» (الثلث) في ثمانية فصول، وكل فصل منها مقسم على مباحث وعدد كبير من الأبيات (ريگ) وذكر ما في كل منها من الحروف التي تشتمل عليه، والجدول الآتي يوضح ذلك:

أشتك (الثلث)	أدهاي (الفصل)	برغا (مباحث)	مترا (ريگ)	عدد الحروف
الأول	٨	٢٦٥	١,٣٧٠	٤٨,٩٣١
الثاني	٨	٢٢١	١,١٤٧	٥١,٧١٨
الثالث	٨	٢٢٥	١,٢٠٩	٤٧,٦٣٦
الرابع	٨	٢٥٠	١,٢٨٩	٤٩,٧٦٢
الخامس	٨	٢٣٨	١,٢٦٣	٤٨,٠٢٢
السادس	٨	٣١٣	١,٦٥٠	٤٨,٤١٢
السابع	٨	٢٤٨	١,٢٦٣	٤٧,٥٦٢
الثامن	٨	٢٤٦	١,٢٨١	٥٢,١٧٨
المجموع	٦٤	٢,٠٠٦	١٠,٤٧٢	٣,٩٤,٢٢١
بالخل سوكت		١٨	٨٠	٣,٠٤٤
المجموع الكلي	-	٢,٠٢٤	١٠,٥٥٢	٣,٩٧,٢٦٥

فهاتان النسختان هما المتداولتان، وأكتفي بذكرهما عن ذكر النسخة الثالثة، إلا أن النسخة الأولى أكثر تداولاً وانتشاراً.

منهج التقسيم للأبيات:

يفهم من دراسة ريگفيد أن هناك منهجاً متبعاً في تقسيم أبياتها عشرياً أو ثمانية، ولما كان المشهور من هذين التقسيمين هو التقسيم العشري (نسخة شاكل)، فإنني سأذكر منهج تقسيمها فيما يلي:

سبق معنا أن ريگفید عبارة عن أبيات مجموعة، فلو نظرنا إلى الأبيات في الأجزاء يتضح لنا أن تقسيم الأبيات بدأ تلقائياً، ولكن روعي وراء هذا التقسيم بعض الأمور المهمة، منها:

أ- نلاحظ في الجزء الأول والجزء العاشر أناشيد لحكماء متعددين، موجهة لآلهة متعددة.

ب- أما الجزء الثاني إلى الجزء السابع روعي فيه أناشيد حكيم (ريشي) معين أو أناشيد أسرة الحكماء معينين، ولهذا يقال لهذه الأجزاء: أناشيد الأسر المقدسة.

ج- أما الجزء الثامن: أناشيد متنوعة، وعلى أوزان متعددة، وقد أدرج في نهايته بالخلّ سوكت، حتى قيل: إن ريگفید في البداية كانت نهايته بهذا الجزء .

د- أما الجزء التاسع: فقد جمع على حسب الإله الذي مُدح فيه، فقد خصت أناشيد هذا الجزء بمدح سوما، عند ما يتناول الهندوس شراب «سوما»^(١) المقدس لديهم..

هـ- نلاحظ في الجزء العاشر بعض الأساطير والحكايات الخرافية^(٢).

(١) شراب «سوما»: اختلفوا في معنى شراب سوما على قولين، فمنهم من يرى أن المراد بشراب سوما: عبارة عن ورقة مثل التانبول يبعث استعمالها النشوة والنشاط على غرار الحشيش، ومنهم من يرى أن المقصود به حصول المعرفة القلبية للروح الأعلى الذي يقال له «بروماتما» وبالتالي: حصول النشوة القلبية والنشاط القلبي منها. ويوجد عند الهندوس من يعتقد ظاهره (المعنى الأول)، ومن الهندوس من يعتقد باطنه (المعنى الثاني).

انظر ما ذكره: أمليش برتاسارزا في: كتاب «فيد منتر منزري» ص(٢٧١). وانظر بورانيكا (٢/٧٧٦-٧٧٧).

(٢) انظر ما نقله ول ديورانت: قصة الحضارة ص(٣٩)، وأحمد عبد الغفور عطار: الديانات والعقائد ص(٨٨).

ويرى كثير من المعتنين بالديانة الهندوسية: أن من الجزء الثاني إلى الجزء السابع من ريگفید هي الأجزاء الأصلية لريگفید، أما الجزء الثامن والتاسع فكالخاتمة، وأما الجزء الأول والعاشر فمما ألحق به في العصور المتأخرة^(١).

أهم الموضوعات التي تناولها ريگفید:

أما من حيث المحتويات فيمكن أن يقسم ريگفید ثلاثة أقسام رئيسية:

الأولى: الأناشيد التي وجهت في الثناء على الآلهة، والأناشيد من هذا النوع هو الأكثر في ريگفید، فهو على هذا ضرب من الدواوين الدينية، أو أناشيد الثناء والدعاء يتوجه بها الناس إلى معبودات الآريين المختلفة، ومعظم الترانيم هي دعوات تحكي حاجات الناس ورغباتهم فمنها ما يتعلق بقطعان الأنعام أو المحصول الزراعي ومنها ما يتعلق بسؤال طول العمر؛ بعضها شعر طبيعي ساذج، كأنه الدهشة الفطرية بيديها الطفل إزاء ما يرى، ففي بعض ترانيمه تعجب من خروج اللبن الأبيض من أبقار حمراء، وترنيمه أخرى تبدي دهشة من عدم سقوط الشمس على الأرض سقوطاً عمودياً حينما تبدأ في الانحدار؛ وترنيمه ثالثة تتساءل: كيف أمكن لمياه الأنهار أن تثب فوارة إلى المحيط فلا تملؤه، ومنها ترنيمه رثاء إلى غير ذلك من الأشعار.

كما نجد فيه صوراً واضحةً لآلهتهم، حيث حددوا فيه وظيفة الإله إنذرًا كبير آلهتهم، وبالإضافة إلى ذلك نلمس فيه أحاسيسهم وانطباعاتهم حينما انتصروا على عدوهم اللدود وهم الدراويديون، ولذلك تصف بعض أبيات ريگفید هذه الظاهرة على الصورة الآتية: إن الإله إنذرًا حطم القلاع والحصون وأحالها إلى حطام وأطلال، وقضى على عدوهم الأسود اللدود.

كما نلاحظ تطور بعض آلهتهم على أيدي عباده حتى أصبح ذا شأن خطير، مثل «بورون» الذي اتسعت ألوهيته حتى صار أعظم آلهة الفيدات علواً وقدرةً وسمواً، فهو رمز المثل الرفيعة في الخلق في العالم، والرقب عليه بوساطة عينه النفاذة التي

(١) انظر ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص (٢٨).

هي الشمس، فيثيب على الخير، ويعاقب على الشر، ومن صفاته العفو بل انتهى الأمر بـ«بورون» عندهم إلى أن أصبح حارساً للقانون الذي يشمل العالم المادي كله^(١).

وكذلك نجد في ريگشيد إشارات إلى نفور الآريين من تقاليد السود وطقوسهم، ومحاولتهم القضاء عليها، وهنا اختلف الباحثون، فبعضهم يقول: إن الآريين قد أعربوا عن نفورهم الشديد وكراهيتهم البغيضة إزاء ديانة الدراويديين وتقاليدهم، ولذلك حاولوا القضاء عليها قضاءً مبرماً، ويرى البعض الآخر: أن الآريين لم يكرهوا إلا التقاليد الفاحشة فقط مثل عبادة فرج الذكر والأنثى. وأما الطقوس الأخرى فلم يمسوها بسوء. وفي نفس الوقت اضطر «ريگشيد» إلى الاعتراف - في بعض أبياته - ببعض النواحي المهمة في الديانة الدراويدية التي توارثوها عن أصحاب حضارة نهر الهند الأصليين البيض^(٢). وهي عقيدة كون الملوك خلفاء الأرض والحياة الكهنوتية المنظمة المنسقة الفلسفية على نسق ديانة السومريين^(٣).

الثاني: الأناشيد التي فيها أفكار فلسفية، مثل (٥٨/١٦٤/١)، (٩٠/١٠)، (١٢١/١٠)، (١٢٥/١٠)، (١٢٩/١٠) وغيرها، إلا أن هذا النوع من الأبيات قليلة، ولكن لها تبعات في الكتب التي بعدها من الكتب الفلسفية كالأوبانيشادات والبرهمانات.

الثالث: الأناشيد التي تحدثت عن أشياء عديدة، فهناك أبيات تتحدث عن قربان الخيل (١٦٢/١)، وفي ذم القمار (٩٥/١٠)، وفي القصص الغرامية (٣٤/١٠)، كما تحدثت بعض أبياتها عن فرح الضفادع، (١٠٣/٧)، والطقوس الجنائزية (١٨/١٠)، والسحر وما يتعلق به مثل (١٩١/١)، و(٤٣-٤٢/٢)، و(١٦٢/١٠)، و(١٦٣/١٠)،

(١) انظر ما ذكره أحمد عبد الغفور عطار: الديانات والعقائد في مختلف العصور (٩٢/١).

(٢) هذا على رأي الدكتور محمد إسماعيل الندوي؛ لأنه يرى أن أصحاب حضارة نهر السند غير الحضارة الدراويد، وفي الباب خلاف واسع بين العلماء.

(٣) انظر: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص (٩٩).

كما تحدثت بعض آياتها عن العطاء وفضله (١٠/١١٧) (١).

مصدر ريگفید:

سبق معنا موقف الهندوس في مصدر الفيدات عمومًا، وذكرنا أنهم اختلفوا فيها إلى أربعة أقوال رئيسة.

إلا أن لبعضهم موقفًا خاصًا من ريگفید، حيث يرى: أنه من الكتب التي تنسب إلى الإله الأعلى، حيث ادعى أحد كبار الهندوس الدكتور «بران نات» الأستاذ بالجامعة الهندوسية بنارس في مقال نشر في صحيفة «تايمس أف إنديا» (Times of India) في شهري يوليو وأغسطس عام ١٩٣٥ م: «أن جزءًا كبيرًا من تعليمات «ريگفید» أخذت من التوراة وصحف إبراهيم» (٢).

وقد ردّ عليه الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي، فقال: «ولكن أين لهذا الباحث الهندوسي أن يطلع على صحف إبراهيم إلا أن يقصد به كتاب «جيمس» المنسوب إلى إبراهيم باسم: (The Book of Abraham) الذي ترجمه من اليونانية وطُبع عام ١٨٩٢ م، أو كتاب «جي - إيج - بوكس» الذي ترجمه من العبرية إلى اليونانية، ثم تُرجم منها إلى الإنجليزية باسم: (The Testament of Abraham). ولا أعتقد صحة نسبة هذه الكتب إلى إبراهيم عليه السلام» (٣).

ويلاحظ من كلام الدكتور «بران نات»، أنه لا يرى الكتاب منزلًا من الله، وإنما يرى أن جزءًا كبيرًا من تعليماتها أخذت من التوراة وصحف إبراهيم، وهذا لا يعني أنهم يرون نزول ريگفید من الله، وإنما يفهم منه أنهم يرون أن هذا الكتاب يحتوي على ما وجد من تعليمات في الكتب القديمة المقدسة لدى بعض الأمم.

(١) انظر مقدمة ريگفید (باللغة البنغالية).

(٢) نقله عنه الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٧٠٦).

(٣) المصدر السابق.

كما أن كون الكتاب يشتمل على ما في التوراة غير سليم إطلاقاً؛ إذ لم نجد في هذا الكتاب شيئاً مما تشتمل عليه التوراة.

أما جماعة آريا سماج من الهندوس، فإنهم لما كانوا يعتقدون أن كتب الفيدات هي الكتب المقدسة فقط، فإنهم يحاولون بشتى الوسائل الدفاع عن كتب الفيدات، وإثبات كونها لا تدل على الشرك لكي يكون موافقاً لما في كتب الديانات الأخرى، ولأجل هذا قاموا بتأويلات وبتحريفات أحياناً في نصوصها، وادعوا أن ما ورد في ريگشيد من أسماء الآلهة العديدة إنما هي أسماء وصفات للباري جل شأنه^(١)، فجعل إندرًا: معناه: الرحمن، ومترا: معناه: الودود، وبورن: معناه: العلي / العزيز، وايو: معناه: القوي، وبرهما: معناه: الخالق، وديو: المجيد، ورودرا: معناه الذي يعاقب المذنب، وبرميشور: الحكيم^(٢). وهكذا..

يقول ديانند سرسفاتي^(٣) يوجد في ريگشيد مائة اسم للإله، وقد قيل: إن ديانند عدّ

(١) انظر ما نقله الشيخ محمد رياض موسى مليباري: الهندوسية ص (٨).

(٢) انظر المصدر السابق ص (٩).

(٣) ديانند (DIYANAND) (١٨٢٤م - ١٨٨٣م) مؤسس جمعية آريا سماج (ARYASAMA) وهي جمعية هندوسية متعصبة أسست عام ١٨٧٥م بمدينة بمبائ لإحياء الدعوة الهندوسية من منابعها الأساسية وهي الفيدات وشروحها.

ومن أخطر أهداف «آريا سماج» الدعوة إلى «شدى» يعني التطهير. ويقصدون بذلك إعادة المسلمين الجدد إلى الهندوسية. وأنه بدخوله في الإسلام والنصرانية قد تنجس فلزم تطهيره.. وهو الذي دعا إلى إحياء الحضارة الآرية في الهند في القرن التاسع عشر، وأنكر الطقوس والرسوم التي كانت معروفة منذ أقدم العصور. كما أنكر الوقائع التاريخية التي جاء ذكرها في الفيدات، وانتهج بذلك منهجاً خاصاً لم يسبقه أحد قبله. وأول كل شيء يخالف توحيد الربوبية مثل الأصنام والأوثان التي يكثر ذكرها في الفيدات إلى مظاهر قدرة الخالق لتحقيق الوحدة الإلهية. ففي رأيه أنها الأعداد المتفرعة منه، ولا وجود إلا وجوده المطلق. وأكثر من استعمال الاستعارات والمجازات والتشبيهات في تفسيره.

انظر ما ذكره الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٤٠).

اسمًا واحدًا مرتين، وإلا فهي تسعة وتسعين اسمًا^(١).

كما ترى الفرقة الآرية بالنسبة لما ورد من الحكايات والخرافات ونظام الطبقات في «ريگفيد»: إن أغلب هذه الحكايات والخرافات وما ورد فيه من نظام الطبقات الجائر ليس إلا في الجزء العاشر، وهو مما ألحق بالكتاب في العصور المتأخرة^(٢).

ولا يستغرب من الهندوس أن ينسبوا كتبهم إلى من شاءوا ليضفوا عليها القداسة وليلمقوا إلى الآخرين، ولكن الذي يعجب منه المسلم أن يرى من إخوانه من يحاول إضفاء القداسة إلى مثل هذه الكتب بنسبتها إلى الأنبياء، بل يزيد عليه نسبة كونها منزلة من عند الله، فهذا أحد المسلمين يرى كون ريگفيد منزلاً من الله، واستدل على ذلك بما يلي:

أولاً: «قد جاء فيه ذكر التوحيد والآخرة والقيم الإيمانية ونعيم الجنة وعذاب الجحيم كمثّل ما جاء في القرآن ... كما يتضمن ريگفيد أناشيد وترنيمات عن التوحيد مكتوب على بعضها أسماء بعض العلماء أو الزعماء الروحيين، وأغلب الظن أنها أسماء أولئك الذين وصلت هذه الترنيكات بواسطتهم، ويضم الكتاب كذلك تنبؤات عن بعثة نبي آخر الزمان محمد ﷺ، ووجود هذه التنبؤات قبل آلاف السنوات من بعثته عليه الصلاة والسلام وكونها مكتوبة بأسلوب ذلك العهد القديم للدليل بيّن على أن الكتاب له صلة بالوحي والإلهام، ونحن لا نستطيع أن نرفض هذا الدليل [إلا]^(٣) بدليل آخر معقول^(٤).

وإلى مثل هذه النتيجة توصلت دراسة باحث آخر حيث يقول: «إن الجزء الأكبر من «ريگفيد» المقدس مشحون بالصلوات والعبادات وثناء الخالق جل مجده، ويبدو

(١) الشيخ محمد رياض موسى مليباري: الهندوسية ص (٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) ما بين المعقوفين زيادة مني، لأنه لا يستقيم الكلام بدونه.

(٤) انظر ما ذكره السيد أخلاق حسين الدهلوي: أضواء على كتب الفيدا ص (١١١).

من كتبهم (أي كتب الهندوس) الدينية أن قلوبهم كانت تعمر بخشية الله وعاطفة الخير^(١).

قلت: مجرد وجود الكلام في التوحيد لا يدل على كونه منزلاً من الله، بل يدل على أنه يشتمل على بعض الحق والصدق، وهذا لا ننكره، ثم إن التوحيد الموجود فيه مشوب بالشرك لما فيه من دعاء غير الله جل شأنه. بل أقصى ما يدل وجود التوحيد والقيم الدينية الأخرى أن مؤلفو هذا الكتاب تأثروا بالدعوات المعاصرة، خصوصاً إذا ثبت كون هجرتهم كانت في الفترة التي ظهرت فيها دعوة إبراهيم عليه السلام في العراق وما حولها، وهي من المناطق التي مرّ بها الآريون في هجرتهم حتى وصلوا السند.

واستدل ثانياً: بدعوى كونه من الصحف القديمة التي أنزلها الله على بعض الأنبياء السابقين، فقال: «إن الألواح الدفينة التي اكتشفت في مدينة بابل (وفيها قرية «أر» التي هي مولد سيدنا إبراهيم خليل الله عليه السلام تضم فيما يضم صحف «أخنوخ» أيضاً كما يؤكد الباحثون الأوروبيون، وأخنوخ هو اسم النبي إدريس عليه السلام، أما كلمة «إدريس» فهي لقبه، وهي كلمة أعجمية قد يمكن أن تكون من لغة هندية قديمة، تولّد إدريس عليه السلام في الجيل السادس من آدم أبي البشر عليه السلام (أخنوخ بن مهليل بن قينان بن أنوس بن شيث بن آدم) ... نزلت عليه ثلاثون صحيفة، وكان يقوم أيضاً بتعليم الصحف التي نزلت قبله على آدم وشيث عليه السلام، وتفيد الدراسات المقارنة أن كتاب ريگفید المقدس يشتمل أيضاً على محتويات صحف إدريس، فقد توصل الباحثون الأوروبيون إلى أن خمس أجزائه يطابق صحف إدريس، ومثله يطابق «الزبور» المقدس، وذلك دليل على أن الكتب السماوية كلها موحدة المحتوى فيما يتعلق بالتوحيد وفكرة الآخرة والمثل الإيمانية، ومن تلك الكتب كتاب ريگفید المقدس، وهو كتاب مستقل وإن كان مجموعة لمختارات الصحف الأولى، ولغته قديمة للغاية، حتى أننا لا نستطيع أن نطلق عليها اسم «السنسكريتية القديمة» إلا بصعوبة وتكلف.

وجملة القول: إنه كتاب قديم للغاية، يضم في طيه.... قرائن توحى بأنه كتاب سماوي نزل من عند الله^(١).

قلتُ: هذه الدعوى تحتاج أولاً إلى إثبات صحف إدريس، كما تحتاج إلى المقارنة بين النقاط التي تتوافق والنقاط التي تختلف، فهل فعلوا ذلك؟ وهل ثمة دراسة في هذا الموضوع؟ فمجرد الدعوى لا يثبت بها شيء، ودعوى كون ريگفید يوافق الزبور خطأ محض، فإذا كان يقصد بالزبور المزامير الموجودة ضمن العهد القديم فهي لم يثبت صحة نسبتها إلى داؤد كما أنه يتضح منها دعاء الله ﷻ وحده والابتهال إليه بخلاف ما في الريگفید الذي يشتمل على دعاء آلهة عديدة. أما إذا قصد غير المزامير فقد أحال على مجهول.

وأما دعوى وجود البشارات المحمدية في كتاب ريگفید، فقد ذكره هو، كما ذكره آخرون^(٢)، إلا أن الذي يظهر لي من هذه النصوص ما يلي:

(١) إن هذه النصوص الدالة على البشارة من هذا الكتاب كلها تحتاج إلى تأويل، ومع ذلك يخالف السياق والسباق.

(٢) حتى ولو سلم بصحتها، لا يستبعد كونها مدرجة، ربما ألحق بعض الهندوس هذه الأوصاف به في العصور المتأخرة، يقول أحد العلماء: «إنها موضوعة، أدخلها الهندوس في كتبهم في العصور المتأخرة»^(٣).

يقول الدكتور الأعظمي: هذا الرأي له وجه؛ لأن معظم كتب الهندوس قد تمت ترجمتها باللغة العربية في عهد المأمون بدار الحكمة في بغداد، ولكن لم أجد أحداً من المؤلفين السابقين أشار إلى وجود هذه البشارات في هذه الكتب. وهنا أخص بالذكر أبا

(١) انظر ما ذكره السيد أخلاق حسين الدهلوي: أضواء على كتب الفيدا ص(١١٢).

(٢) منهم الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، ص(٧٠٣-٧٤٦).

(٣) انظر دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٧٠٦-٧٠٧).

الريحان محمد بن أحمد البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ الذي أتقن اللغة السنسكريتية، وترجم كتابين إلى العربية، وألف كتابه الشهير «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة» ولم يشر إلى وجود البشارات في كتب الهندوس^(١).

(٣) ثم كون هذه البشارات تتفق مع نبينا محمد ﷺ ليس موضع اتفاق بينهم، فمنهم من يدعي أنها لأشخاص آخرين.

فعلما من هذا: أن كتاب ريگفید ليس من الكتب السماوية، ولا هي منزلة، كما لم يثبت وجود محتويات بعض الصحف القديمة المنزلة على الأنبياء.

يقول «بندت شري رام شرما» في مقدمة تفسير «ريگفید» إن هذا الكتاب يشتمل على أفكار ثلاثمائة ناسك^(٢)، فيفهم منه أن كثيراً من الهندوس مثله يرى كونه من كتب التراث، وعدم كونه منزلاً من الله، والذي يرجح هذا القول أشياء:

منها: عدم وجود دليل صريح على كونه منزل من الله.

ومنها: كونه يشتمل على أسماء الآلهة من دون الله، والثناء عليهم وصرف العبادة إليهم.

ومنها: عدم معرفة من أنزل عليه هذا الكتاب.

ومنها: أن مضامينه لا تشبه مضامين الكتب المنزلة من الله.

نماذج من أناشيد ريگ فيد:

أغنية لأنندرا إله الآلهة (ريگفید ٢/ ١٢ / ١، ٢، ٣، ٦، ٧، ٨).

هو الأعلى من كل شيء وهو الأسنى

إله الآلهة ذو القوة العليا

الذي أمام قدرته الغالبة

(١) المصدر السابق ص (٧٠٧).

(٢) نقلاً عن: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٣٤).

ترتعد الأرض والسموات العالية
 أيها الناس استمعوا لشعري
 إنما هو إندرا إله الكون
 هو الذي قهر الشياطين في الحساب
 وأجرى الأقمار السبعة الصافية الكبار
 واقتحم كهوف الكآبة والأكدار
 وأخرج البقرات الجميلة من الأرحام
 وأضاء النار القديمة من البرق في الغمام
 ذلك هو إندرا البطل الجسور
 الجيش المتقدم للهيحاء
 يناديه للنصرة يوم الحرب
 الأعزاء بصيته الذائع يهتفون
 والأذلاء يذكرون اسمه بشفاهم ويهمسون
 وقائد الجيش على العجلة الحربية
 يدعو ويستنصر إندرا إله الحرب
 الأرض والسماء تعترفان بسلطانه وكماله
 والجبال المرتعدة تخزُّ له وتسجد لجلاله
 هو الذي يرسل صواعق السماء على أعدائه
 فلتُهدَّ إليه السكائب المقدسة
 فإنه يقبل هذه الخمر ويمنحنا رضاه
 ويستمتع للشعر وأغاني الولاء
 له البقرات وأفراس الوغى
 له القرى والمساكن وعجلات الحرب
 هو يرفع الشمس بيده اليمنى

ويفتح الأبواب الحمر من شفق الفجر
 فيمزق السحاب الأحمر تمزيقاً
 ويرسل شآبيب المطر لنصدق به تصديقاً^(١)

أنشودة أخرى لإندرا: (ريگفيد (٢/ ١٢ / ١، ٢، ٤، ٦، ٧، ٨، ١٠، ١٣، ١٤).

«إندرا هو الإله المولود الأول، هو الإله المجيد الذي زين الآلهة الأخرى بأعماله، هو الإله الذي يزلزل السماء والأرض بقدرته وعظمته التي لا حدّ لها».

«إندرا هو الإله الذي يثبت الأرض الراجفة، ويمسك السماوات ويُبدّد السحب العاصفة ويوسع الأجواء».

«إندرا هو الإله الذي يهب الحياة لكل موجود، هو الذي يطأ أعداءه الأندال في المغاور المظلمة، هو الذي يقبض على جثثهم كما يقبض الصائد على القنينة».

«إندرا هو الإله ذو الوجه الجليل الذي يأمر الأغنياء والفقراء بالصلاة، هو الذي يستغيث به الكاهن في أدعيته والشاعر في نشأته، هو الذي يرضى عما نهب».

«إندرا هو الإله الذي يملك الجياد والحقول والعجال والمدن والمركبات المملوءة كنوزاً، هو الذي يجيء بالشمس والفجر، هو الذي يسيل المياه».

«إندرا هو الإله الذي ينصر الأمم، هو الذي يطلب المجاهدون منه العون عند القتال، هو الذي يبدو مثال الكون، هو الذي يهب الحياة للموجودات غير الحية».

«إندرا هو الإله الذي لا يُظهر قوته إلا ليجازي الخبيث والكفور بلا انقطاع، هو الذي لا يعفو عن الطاغين المستهزئين، هو الذي يذبح الغيلان».

«إندرا هو الإله الذي تسجد له الأرض والسماء، هو الذي ترتجف أمامه الجبال، هو الذي يرسل الصواعق».

(١) انظر أديان الهند الكبرى ص (٤٩-٥٠)، فقد تمت الاستفادة منه مع مراجعتي لأصل ريگ فيد.

«إندرا هو الإله الذي يقبل الإراقة والقرايين والأناشيد والأدعية، هو الذي يجير الأتقياء، هو الذي يُسرُّ بضحايانا وهباتنا»^(١).

أغنية لأغني إله النار (ريگفيد ٦ / ٩ / ٦-٨).

حينما أرى هذا الكائن المنير في قلبي تدوي
أذناي وتختلج عيناى، وتته نفسي في ارتياب،
فماذا أقول وما ذا أفكر؟

فيا أغني مجّدتك جميع الآلهة واجفة
ما تواريت في الظلام^(٢).

أغنية أخرى لأغني إله النار

«أغني هو رب الخلود، هو رب الغنى، فهو الذي ينعم بالأسرة القوية، فيا إلها
القادر! لا تؤاخذنا، نحن عبادك، بما تراه فينا من عدم العقب ومن العطل من الجمال
وفقدان القرايين».

«أيشملنا العطوف أغني بأفضاله؟ أنأمل منه سعة سرمدية؟ فيا أغني لسنا من
أصلاب عرق أجنبي ولا من عرق كافر، فلا تسلك غير السبيل المؤدية إلينا».

«فلو لم يكن الإله أغني من دم كدمنا لكان من العبث بحثه عن خضوعنا وقراييننا، فله
علينا حق المأوى فنحفظه له، فليدخل علينا هذا الإله القادر الظافر الجدير بأن يُسجد له»^(٣).

(١) انظر أيضًا ما نقله غوستاف لوبون: حضارات الهند ص(٤٤٧-٤٤٨)، فقد تمت الاستفادة منه
في الترجمة مع مراجعتي لأصل ريگفيد.

(٢) وانظر أيضًا أديان الهند الكبرى ص(٤٩-٥٠)، فقد تمت الاستفادة منه في الترجمة، مع
مراجعتي لأصل ريگفيد.

(٣) انظر ترجمته لغوستاف لوبون: حضارات الهند ص(٢٦٤).

أغنية للشمس

يجيء بالشمس جياهاا الحمر، فيصل الفجر
العظيم الجميل الذي يُنْشِئ الجميع بضيائه،
وتأتي الإلهة على مركبة فخمة وتوقظ الإنسان
ليقوم بعمل نافع.

أغنية أخرى للشمس (ريگفيد ١/٥٠ - ١٠).

«أشعة النور تظهر العالم فتنبئ بالآله الذي يعلم كل شيء، تُنبئ بالشمس التي إذا
ما بدت توارت النجوم كالنصوص وتبدد ظلام الليل، أشعة الشمس الساطعة كالنار
تُسلم على جميع المخلوقات، الشمس تجري وتبدو للأعين وتبعث النور ويملاً سناؤها
الأجواء وتنهض أمام كتيبة الآلهة وأمام الناس والسماء فيراها كل واحد ويُعجب بها،
الشمس تزكي وتزيل الهم بضياؤها الذي يغشى الأرض المملوءة أناساً، الشمس المشرقة
تغمر السماء والأجواء وتُبدع الليل والنهار وتُبصر كل ذي حياة ويجر مركبتها سبعة جيا
شُقر، الشمس إله يرى كل شيء وتكلكل الأشعة شعره الجميل... ونحن، بعد أن يزول
الظلام ونرى النور الرائع، نسجد أمام ذلك الإله الذي يسطع بين جميع الآلهة ويظهر
أنضر من جميع الكواكب»^(١).

أنشودة الفجر (ريگفيد ١/١١٣ - ١٧).

الفجر هو الترجمان المنير للكلام المقدس، الفجر ينشر حُلْيَه ليفتح لنا أبواب
النهار، الفجر يضيء الكون فيطلعنا على كنوزه، الفجر يُنبئ الخلاق، الفجر يدعو
العالم الراقد إلى الحركة بيده القادرة، الفجر يحفز الإنسان إلى البهجة والسرور وإلى
القيام بالشعائر المقدسة وإلى العمل لنيل السعادة، الفجر، على عكس الظلام، يُبصر به
كل بعيد، الفجر، ابن السماء، يبدو لنا نافعا لأمعا مدثرًا بدثار ساطع ربًا لكل ثراء في
الأرض، الفجر ينشئ بضيائه كل موجود ويبعث كل خامد، فمتى يزورنا الفجر؟ الفجر
الذي ينيرنا الآن يكون كالذي جاء قبله، ويكون مثله الذي يأتي بعده، هو ينيرنا كغيره،

(١) انظر أيضًا ترجمته في حضارات الهند ص (٤٤٩)، فقد تمت الاستفادة منه في الترجمة، مع
مراجعتي لأصل ريگفيد.

عادوا غير أناس أولئك الذين رأوا الفجر يتلألأ كما يتلألأ اليوم، والآن حلَّ دورنا لرؤيته ثم يحل دور أناس آخرين يرون الفجر بعد زمن فيموتون... الفجر في حمى من الهرم والموت، فيتقدم ناشراً سناءه غامراً شواطئ السماء، الفجر إله النور وهو يبددُ الظلام النحس، الفجر يحيى الطبيعة من فوق مركبته الرائعة التي تجرها جياذ حمر، أفيقوا، إليكم روحاً جديدةً تسرى فينا، الظل يبتعد والنهار يقترب، فقد مهَّد الفجرُ الطريق التي تسير منها الشمس، هلموا إلى النور، هلموا إلى الحياة!».

أغنية لشراب سوما

«عظموا بتليد الأناشيد ذلك الإله النقي الذي يبدو لكم بالأعمال المقدسة الممجدة للآلهة».

«هو ينصبُّ على ممصل^(١) من صوف ليصفي، هو سند العالم، هو ملاك صلاة الفجر الذي يُسبح الحكماء بحمده».

«يستقر السوما الذي هو عين الزكاء ومنبع السعادة بأنية القربان، ويبدو ناثرًا للدعاء نثر الثور للقاح في النعم^(٢)»^(٣). هذه مقتطفات من «ريگفيد» والباحث لا يجد فيها ما يطمئن به قلبه، ولا ما ينير به طريق حياته، وهي كلها ظلمات بعضها فوق بعض، شرك وخرافة وأساطير. نسأل الله السلامة والعافية.

منزلة الكتاب لدى الهندوس:

إن هذا الكتاب أم الكتب الهندوسية، والهندوس جميعاً يقدسون هذا الكتاب، ويتغنون بأناشيده، ويرتلونها في الصلوات صباحاً ومساءً ويتبركون بتلاوتها في حفلات زواجهم، ويقرؤون أبياته على موتاهم عند تحريق جثثهم^(٤).

(١) الممصل: الوعاء للمصل وهو وضع اللبن أو نحوه في خرق أو نحوها ليقطر ماؤه. راجع المعجم الوسيط ص(٨٧٤).

(٢) النعم هنا: البقر.

(٣) من ترجمة غوستاف لوبون في حضارات الهند ص(٢٦٥).

(٤) انظر ما ذكره الأعظمي: اليهودية والنصرانية وأديان الهند ص(٥٣٧)، وانظر أيضاً ما ذكره أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص(٤٦).

فقد خصصه الكهنة فيما بعد لأداء الطقوس فقط، لا للقراءة والفهم، ولذلك ظلوا يحفظونه عن ظهر قلب، ويرددون أبياته ويرتلونها في أمور الطقوس والمراسيم دون فهم ووعي^(١).

وللقوم طريقة خاصة في قراءة هذا الكتاب، يقول البيروني: «ويقرأ بثلاثة أصناف من القراءة أحدها بالاستواء كالرسم في جميع المقروءات، والثاني بالوقوف عند كلمة كلمة، والثالث: وهو أفضلها الموعود عليه جزيل الثواب أن يقرأ منه قطعة صغيرة بكلمات معلومة ويعاد عليها ويضاف شيء من غير المقروء إليها ثم يعاد على هذا المضاف وحده فيقرأ ويضاف إليه آخر ولا يزال يفعل ذلك فيكرر المقروء عند انتهائه»^(٢).

ولم تبدأ دراسة هذا الكتاب إلا منذ القرن التاسع الميلادي، وذلك حينما ولع علماء الإفرنج بدراسته وترجمته؛ لأنه أقدم وأهم كتاب بالنسبة إليهم أيضاً، إذ أنهم هم الآخرون ينتمون إلى الأصل الهندي الأوربي، وبهذا يكون هذا الكتاب أول سجل تاريخي وفكري للعنصر الآري كله سواء أكان في الهند أو في إيران أو في أوروبا كلها^(٣).

(١) الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص (٩٩).

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص (٩٠).

(٣) الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص (٩٩).

الفرع الثاني: سام فيد (SAM VEDA)

معنى سام:

قيل: معناه الأمن والراحة^(١).

وقيل: طيبة الحديث^(٢).

وقيل: معناه: الشيء الذي يبعث الطرب والنشوة القلبية، وذلك من خاصية الألحان والأغاني بصفة رئيسية. فالمراد من «سام» اللحن والطرب.

وقيل: إنها مشتقة من «سوما» التي كانت - كما يقال - عبارة عن ورقة مثل التانبول يبعث استعمالها النشوة والنشاط على غرار الحشيش.

وقيل: معناه: المعارف الشمسية، أي المنسوبة إلى الشمس^(٣).

وقيل: نسبةً إلى سام بن نوح عليه السلام، لأن سكان وسط آسيا ينحدرون من ذرية سام بن نوح، ومعلوم أن ذرية نوح بعث فيها أنبياء ورسل أكرموا بالكتب السماوية، وزعم قائل ذلك: أنه لا عجب إن كانت لبعض الأناشيد والأغاني التي جاءت في الكتاب صلة بأولئك الصالحين الذين أكرموا بالنبوة والكتاب من ذرية نوح، والذي تسلسل من ذريتهم الجنس البشري الجديد بعد الطوفان^(٤).

وهذا القول من أبعد الاحتمالات، فالقوم لم يثبت كونهم من ذرية سام بن نوح. وأما الدعوى بأن الأناشيد والأغاني لها صلة بأولئك الأنبياء فهو رجْمٌ بالغيب وخرص بالباطل.

(١) انظر ما ذكره الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٣٨).

(٢) البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص(٩١).

(٣) انظر مَنُوسْمَرْتِي ص(١٧)، وانظر ما ذكره الدكتور عمارة نجيب في: الإنسان في ظل الأديان ص(١٨٣).

(٤) انظر ما ذكره السيد أخلاق حسين الدهلوي في مقالته: «أضواء على الفيدا» ص(١١٣).

تاريخ تدوينه :

أما بالنسبة لتاريخ تدوينه فلم تذكر كتب التاريخ وقتاً معيناً لتدوين هذا القيد، وهم يجعلونه في الترتيب في بعض النصوص الكتاب الثالث، أما الثاني فهو ياجور قيد الآتي ذكره، ولا شك في كونه قد دون بعد تدوين ريگشيد المتقدم ذكره، لما سيأتي إثبات كون أغلب أبياته قد أخذ من ريگشيد.

مضمونه :

سام قيد من كتب الأغاني، حتى سمي بـ «ساما غانا»، وهم يتغنون بأبياته في مناسبة القرابين القيدية.

وينقسم سام قيد من حيث محتواه إلى قسمين:

القسم الأول: يقال له: أرچيك، أي العبادة، وهذا القسم يحتوي على كلمات الأغاني فقط.

ويُقسم القسم الأول: وهو «أرچيك» (قسم أغاني العبادة) إلى نوعين:

النوع الأول: يقال له: پورب أرچيك، (العبادة الأولى). وقد رتبت أغانيها حسب المعبودات، ويتفرع إلى أربعة فروع:

الفرع الأول: في الثناء على أغني (إله النار).

الفرع الثاني: في الثناء على إندرا (ملك الآلهة).

الفرع الثالث: في الثناء على سوما (الشراب المنعش).

الفرع الرابع: أرَنك، وهو كتاب مستقل، ولكن نراه في بعض الأحيان ملحقاً مع أصل الكتاب.

وتلا ذلك ثناء خاص لإندرا من أحد الريشيين، وقد سمي بـ «مهانمني أرچيك» كأنه نوع مستقل ويوجد به عشرة أبيات (مترا) فقط.

أما النوع الثاني: فيقال له: «أتر أرچيك» (العبادة الثانية). وقد اشتمل على واحد وعشرين فصلاً متفاوتة في عدد الأبيات.

أما القسم الثاني: فيقال له: غان، وقد اشتمل على كيفية لحن الأغاني المذكورة فيه.

هذا، وقد بلغت أبيات الكتاب كله (١٨٧٥) بيتاً، حسب عدّ الموجود في الكتاب، وقيل: عدد أبياته (١٨١٠) بيتاً^(١)، أو ١٥٤٩ حسب تعداد بعض الغربيين.

وجميع هذه الأبيات توجد في ريگفید وبالأخص في الجزء التاسع منه ما عدا خمسة وسبعين بيتاً^(٢)، وقيل: ما عدا ثمانية وسبعين بيتاً^(٣). والمقصود في غالب تلك الأبيات ثلاثة آلهة مشهورة عندهم: هي: أغني، وإندرا، وسوما، وتوجد أغاني قليلة نسبياً موجهة إلى غيرها.

مكانته:

الهندوس يتغنون بهذه الأبيات عند إقامة الصلوات، ودعوة آلهتهم لنجدتهم، والألحان السبعة المعروفة لدى المغنين الهنود في الموسيقى الهندية مصدرها هذا الكتاب العتيق.

ويقول بعض علمائهم: إن «سام فيد» ليس بأقل قدرًا من «ريگفید» بالنسبة للموسيقى الهندية ورقياً.

ولذلك ترى الهندوس يعتبرون هذا الفيد خلاصة الفيدات لما يشتمل على أرقى أبيات ريگفید، وقد اعترف بكونه أحسن الفيدات من حيث المضمون أحد أفتأرهم^(٤) المعروف بـ «كريشنا»^(٥).

(١) حسب قول الشيخ الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٣٨).

(٢) انظر ما ذكره الأعظمي في اليهودية والنصرانية وأديان الهند ص (٥٣٨).

(٣) معلومات مستخلصة من الإنترنت.

(٤) سبق أن عرفت مختصرًا وسيأتي مفصلاً.

(٥) نقله عنه فوريتوس طاغور في مقدمة سام فيد.

الفرع الثالث: ياجور فيد (YAJUR VEDA)

معنى ياجور:

(١) قيل: معناه: القرابين ^(١).

(٢) وقيل معناه: الهوائي، أي المنسوب إلى الهواء ^(٢).

تاريخ كتابته ومضمونه:

لم يسجل المؤرخون تاريخ تدوينه، ولا شك في كونه بعد ريگفيد، لأنه سيأتي معنا أن مضمون كثير من كلامه مأخوذ من ريگفيد، ويذهب بعض الباحثين إلى أنه كان معروفًا في القرن الثالث قبل الميلاد ^(٣).

وهو كتاب يتحدث عن قوانين الضحايا والقرابين ^(٤) والتي يقدمونها إما إرضاء لمعبوداتهم، وإما حفاظًا لهم من الشياطين والأرواح الخبيثة التي يتوقعون شرها ^(٥).

يذكر بعض الغربيين سبب تصنيف هذا الكتاب: بأن الآريين لما توغلوا في الهند وتمكنوا من السيطرة على المناطق الساحلية للأنهار، بدأوا في الزراعة، وفي هذا الأثناء بدأت المصائب تنتاب زراعاتهم ومنتجاتهم، فكانوا يتهلون إلى المعبودات بتقديم القرابين لهم، فبدأوا ينشدون لها الصيغ المناسبة، حتى تم تأليف هذا الكتاب ^(٦).

(١) انظر ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (١/٣/٣٨). وانظر أيضًا:

John Dowson, A Classical Dictionary of Hindu Mythology & Religion p.348.

(٢) انظر ما ذكره كل من علي عبد الواحد وافي في كتابه: الأسفار المقدسة قبل الإسلام ص (١٥٢)، والدكتور محمد عمارة نجيب في كتابه: الإنسان في ظل الأديان ص (١٨٣).

(٣) انظر: John Dowson, A Classical Dictionary of Hindu Mythology & Religion p 384.

(٤) انظر ما ذكره البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ص (٩٠) وانظر أيضًا ما ذكره الدكتور علي زيعور في كتابه: الفلسفات الهندية ص (١٤٧).

(٥) انظر ما ذكره الدكتور محمد عمارة نجيب في كتابه: الإنسان في ظل الأديان ص (١٨٣).

(٦) من صفحات الإنترنت.

وهذا الكتاب يختلف عن ريگفید وسام فید من حيث كونه يشتمل على قليل من الشعر فجّله نثر، وأما ريگفید وسام فید فهما أشعار - ثم إن أغلبه مأخوذ من ريگفید حتى قيل إنه يبلغ أكثر من النصف، ولكن بشكل مختلف تماماً^(١)، حيث جعل محتوياته كيفية استخدامه في تقديم القرابين، ومحتويات ريگفید ثناء ومدح خالص دون التطرق إلى كيفية تقديم القرابين، وعدم الاهتمام بهذا الجانب، ويوجد في ياجور فید إضافات جديدة غير مذكورة في ريگفید^(٢) يبلغ حجمه ثلثي حجم ريگفید^(٣).

وياجور فید منقسمة إلى قسمين:

القسم الأول: يقال له: ياجور فید الأبيض ويُسمى بازشانيا سنغها إما نسبةً إلى العالم «ياجانفالکيا بازشاني» الرجل الذي حفظه ودرسه من تلاميذ فید وياس الذي قسم الفيدات^(٤)، وإما سمي نسبةً إلى بازي، فإن الشمس تجسدت - حسب اعتقادهم - بصورة البازي وأعطى لصاحبه الفید بعد ما طلب من الشمس وألح عليها، فقالت الشمس له: كيف أعطيك وأنا كما ترى محرق، وبعد إلحاح شديد تجسدت الشمس بصورة البازي وأعطى له الفید، وهذا القول أقرب إلى الصواب^(٥).

والقسم الثاني: يقال له: ياجور فید الأسود ويُسمى أيضاً: تيتريا سنغها وسأشير فيما بعد إلى سبب التسمية.

وسبب هذا التقسيم - كما تذكر كتب الهندوس ما يلي:

سبق معنا نقل كلام البيروني - أن تقسيم الفید إلى أربعة أقسام كان قد تم بيد فید يياس أو كريشنا ضيفائن، وهو الذي أسند الفيدات الأربعة إلى تلاميذه الأربعة، وكان

(١) انظر مقدمة ريگفید ص (٣٠).

(٢) انظر:

John Dowson, A Classical Dictionary of Hindu Mythology & Religion p.384.

(٣) انظر ما ذكره الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٣٧).

(٤) انظر مقدمة ريگفید ص (٢٦).

(٥) انظر ما ذكره أمل کُومار بندوباداي: بُورَنيكا (٢/ ٢٣٣).

نصيب أحد تلاميذه الذي يسمى «بيشمين» ياجور قيد، فقسمه بيشمين سبعة وعشرين قسمًا حتى يسهل في تدريسه، وكان من بين التلاميذ «ياجنافالكيا» بن برهمارات، ففي يوم من الأيام قتل بيشمين ابن اخته في حادثة، فطلب من أتباعه أن يبحث له عن كيفية النجاة من ذنبه، فعارضه «ياجنافالكيا» وتطرق الأمر إلى الجدل الغير المرغوب، فقال له بيشمين: رجع إلي كل ما تعلمت مني، فتقياً ياجنافالكيا كل ما تعلم منه، فأمر بيشمين لتلاميذه الآخرين المطيعين له أن يأكلوا كل ما تقياً ياجنافالكيا من علوم القيدات، وطلب منهم أن يتحولوا إلى الطيور، فتحولوا إلى الطيور وأكلوها، ولكن تحولت هذه العلوم أيضًا إلى لون أسود؛ لأنهم تحولوا إلى صورة طيور سوداء تسمى (تيتيري)، فهذه العلوم سميت بـ ياجور قيد الأسود. (أو تيتريا شنغها).

ثم إن بيشمين طلب من الشمس أن يعطي له قيد مرة أخرى، فأعطي له بعد إلحاح شديد، فسمي بـ ياجور قيد الأبيض، لكونها من الشمس، والشمس بيضاء ناصعة^(١).

والذي ينظر فيه يتبين له أن هذه قصة خرافية، فقد اشتمل ياجور قيد الأسود على شيئين: المتن المسمى بالـ «مترا»، والشرح المسمى بـ «براهمانا»، وكان ريگفید وسام قيد يشتمل على مترا فقط، دون الشرح (البراهمانا)، وسيأتي معنا أن البراهمانا ما جاءت إلا متأخرًا وهي ذيول، وهذه الذیول المسمى بالبراهمانا موجودة لكل قيد على حدة، ولكن في الياجور قيد الأسود تجدها مختلطة مع النصوص وبهذا يكون قد أدرج في النصوص عقائد أخرى غير عقيدة القيدات، وهذه الذیول تعتبر شروحًا لنصوص القيدات، ولكن المشكلة فيها أنها طغت على مضمون القيدات، فالقيدات (الثلاثة الأولى منها) ليس فيها أشياء غامضة فلسفية بخلاف هذه الذیول فإنها مليئة بالأشياء الفلسفية وفيها تأويل لنصوص القيدات حتى يتوافق مع آراء البراهمة، فهي كتفسير القيدات على ما آل إليه العصر البرهمي من الاعتقادات.

(١) انظر ما ذكره أمل كُومار بندوباداي: بُورَنِيكا (قاموس مفردات الدين الهندوسي) (٢/٤٥٦ - ٤٥٧).

وسمي بـ تيتريا (كأنه بمعنى الغراب)، لكونه أفسد النصوص البيضاء بالسوداء. وإن كان هناك قول بأنه إنما سمي بـ «تيتريا» باسم أحد تلاميذ يَشْمَبِينُ السابق ذكره^(١).

وأما تسمية ياجور فيد الأبيض فلعلها مأخوذة من كونها خالية عن الزيول المسمّى بالـ «برهمانا» في نفس الكتاب^(٢)، وله أيضًا برهمانا ولكنه مستقل، فكأنه بقي متنه صحيحًا سليمًا من الاختلاط بالشروح^(٣).

وعلى كل حال: فإن ياجور فيد الأبيض يشتمل على أربعين فصلًا، وثلاثمائة وثلاث مقطعا (أنوباك)، ويتضمن أوامر وأنظمة، ويوجد بها نصوص زائدة عن ياجور فيد الأسود، وهي من (٢٦-٤٠) وهي الجزء الزائد من أصل ريگفید، كأنها مدرجة في العصور المتأخرة في ياجور فيد الأبيض، كما يوجد في الفصل الثلاثين من هذا القسم من ياجور ذكر الأراضي، وكيفية عمرانها وإحيائها، وذكر أجور العمال وكيفية مكافآتهم، وغير ذلك مما لا يفهم منها الطابع الفیدی، ولهذا يرى الكثيرون أنها أيضًا مدرجة فيما بعد^(٤).

أما ياجور فيد الأسود، وقد عرفنا سبب تسميته بذلك، فإنه يشتمل على سبعة كتب. و٤٤ فصلًا، و٦٥١ شعبة.

مكانته:

الكتاب مقدس عند عامة الهندوس، في حين يوجد من علماء الهندوس من ينكر كون «ياجور فيد» من الفيدات المقدسة لديهم^(٥).

(١) انظر:

John Dowson, A Classical Dictionary of Hindu Mythology & Religion p 349.

(٢) انظر: مقدمة ريگفید ص (٢٥).

(٣) انظر:

John Dowson, A Classical Dictionary of Hindu Mythology & Religion p 349.

(٤) المصدر السابق ص (٤٥٧).

(٥) انظر ما ذكره الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، ص (٥٣٧).

وبعض الكتاب المتتمين إلى الإسلام يأخذ بقول الهندوس ويزعم أن ياجور قيد «من الكتب المقدسة التي تعتبر كلاماً إلهياً ووحياً سماوياً، يضم الفرائض الدينية وفضائل العبادات وطرق أدائها، وليس فيها أي ذكر لعبادة الأصنام والأوثان، لغته كذلك قديمة جداً تدل على قدمه، ويتعلق الجزء الأخير منه بعلم اللاهوت، وقد يمكن أن يكون هذا الجزء انعكاساً للصحيفة التي كانت تتعلق بالالهيات من صحف إدريس عليه السلام، وكتاب سورجا سدهانت (Surya sidhananta) أقدم كتاب في علم الفلك أو الهيئة، ويعتبر هو الآخر كتاباً سماوياً، فلا غرو أن يكون هو بذاته صحيفة إدريس عليه السلام، وأن يكون «لات ديث» الذي يعرف مؤلفاً له، مؤلفه الثاني، ومغزى القول: أن في كتاب «ياجور قيد» شيئاً يدل على كونه صحيفة سماوية^(١).

قلت: هذه ادعاءات بدون برهان ولا بينة، وتخمينات لا فائدة وراءها ولا قيمة، وهي من الادعاءات الساقطة التي لا تحتاج إلى الرد، فمن أين له أن إدريس له صحف، ومن أين له أنه يشابه صحف إدريس؟ هل اطلع على صحف إدريس؟، هذه ادعاءات لا تسمن ولا تغني من جوع.

(١) انظر ما ذكره السيد أخلاق حسين الدهلوي: أضواء على كتب الفيدا ص (١١٢).

الفرع الرابع: أثربا فيد (ATHARVAN VEDA)

معنى (أثربا أو أثربن):

وقد ذكر لها عدة معانٍ:

(١) رقى السحر^(١). ولعل القائل بهذا القول نظر إلى مضمون هذا الفيد - كما

سيأتي بيانه - وإلا فإن الاشتقاق اللغوي لا يدل على ذلك.

(٢) نسبةً إلى الحكيم أثربن^(٢).

وقيل: «أثربن» هو ابن براهما الفكري^(٣).

وقيل: بل هو ابن أحد حكمائهم، ويسمى «واسيستا»^(٤).

وقيل: كان هناك حكيمان «أثربان وأنكيران» في العصر القديم، وهما اللذان ألفا

هذا الفيد، ولهذا كان هذا الفيد يسمى في العصور القديمة باسم «أثربانكيرس» ثم اشتهر بـ «أثربن»^(٥).

وقيل: إن الحكيم «أثربا كان من أسرة أنكيرا، وهو الذي قام بتصنيف الأوراد

وتنظيمها حسب ما رآه مناسباً فنسب الكتاب إليه»^(٦).

وعلى هذا القول: فإن الكتاب إنما سمي باسم صاحبه «أثربن»، خلافاً للفيدات

(١) هكذا ذكره صاحب قصة الحضارة ول ديورانت (١/٣/٣٨). ووافقه الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٣٨).

(٢) انظر مقدمة ريگفید ص (٢٦).

(٣) انظر ما ذكره عطار، أحمد عبد الغفور: الديانات والعقائد ص (٩٦)، وانظر أيضاً بنغيى شيدكوش (١/٥٠)، ونسب إلى أنه موجود في مندىك أوبانيشاد (١/١/١).

(٤) انظر بورانیکا (١/٤١).

(٥) انظر مقدمة ريگفید ص (٢٦).

(٦) انظر بنغيى شيدكوش (١/٥٠). (قاموس يتعلق ببيان الألفاظ السنسكريتية التي دخلت على اللغة البنغالية).

الأخرى السابقة لأن الريكثيد إنما سمي لكثرة وجود الريك الذي هو (النظم) في هذا الثيد، وسمي ساما ثيد بذلك لأنه يتغنى به، وسمي بياجور ثيد لكثرة النثر فيه لتقديم القرابين، وأما أثربا ثيد ففيه كل هذه الأنواع وزيادات تتعلق بالحياة الدنيا، فلهذا اضطروا أن يسموه باسم صاحبه الذي اعتنى به.

(٣) وقيل: معناه الإله الحقيقي براهما^(١)، واستدل لصحة قوله بما جاء في أثربا ثيد (٧ / ١ / ٤) من كلمة «أثربا» على هذا المعنى.

(٤) وقيل: معناه: الأوراد التي تفيد في الحياة الدنيوية. فيكون معنى أثربا ثيد: الثيد الذي يشتمل على أوراد تفيد في الحياة الدنيا^(٢).

(٥) وقيل: أثربا: مجتمعة من كلمات هي «أث» والتي تعني: السعادة، و«رن» والتي تعني: الذهاب، و«بن» التي تعني الذي يعبد، أي الذي يذهب ليعبد للحصول على السعادة^(٣).

(٦) وقيل: معناه: الذي ليس له معنى يذكر، أو ليس له أهمية كبيرة، أو معطل، ليس بعمل^(٤). ربما أعطي هذا الاسم من قبل من لا يقبل بعض مضامينه^(٥).

وهذا الثيد له عدة تسميات أخرى، فمنهم من يسميه ب«أنكيرس»، ومنهم من يسميه ب«أثربا أنكيرس» ومنهم من يسميه ب«بريغو أنكيرس» ومنهم من يسميه ب«برهمان ثيد»^(٦).

(١) انظر مقدمة كتاب أثربا ثيد ص(٥).

(٢) انظر قاموس (بنغي شيدكوش) (١ / ٥٠).

(٣) انظر ما ذكره أمل كُومار بندوباداي: بُورَنِيكا (١ / ٤٠).

(٤) انظر مقدمة كتاب أثربا ثيد ص(٥)، وانظر أيضًا: هذا المعنى عند المهدي برتاسارزا، أبي الحسين في كتابه: لما ذا أسلمت: ص(١٠٦).

(٥) انظر ما ذكره برتاسارزا: لما ذا أسلمت ص(١٠٦-١١٠).

(٦) انظر ما ذكره أمل كُومار بندوباداي: بُورَنِيكا (١ / ٤٠).

مؤلف أثربا فيد وتاريخ كتابته ومضمونه:

تحديد مؤلفه:

اختلف في تحديد مؤلفه على أقوال:

فذهب أغلب الهندوس إلى أن هذا الكتاب من تأليف «مني بياس ديف»^(١).

وذهب بعضهم إلى أنه من تأليف الحكيم «أثرين»^(٢).

وذهب بعضهم إلى أنه لا يعرف له حكيم (ريشي) صنفه، وزعم بناءً عليه أنه لعله مما أنزل على بعض الأنبياء^(٣).

تاريخ كتابته:

واختلف في تحديد تاريخ كتابته كما اختلف في تحديد مؤلفه على أقوال:

فمن قائل: إنه ألف كله في الزمان القديم دون استثناء^(٤).

وقيل: إنه ألف في زمن قديم وإن كان فيه بعض الملحقات في الأزمنة المتأخرة^(٥).

وقيل: إنه ألف سنة ١٥١٦ قبل الميلاد، استنادًا على ما ذكر في الباب التاسع عشر وفي الكلام السابع من ذكر بعض الكواكب واجتماعها.

ويقول آخر: يوجد عندي ما يدل على أن أثربا فيد كان موجودًا قبل ٨٠٠٠ ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد، ولم يذكر شيئًا من الأدلة على ذلك سوى الدعوى فقط^(٦).

(١) انظر ما ذكره السيد أخلاق حسين الدهلوي في: أضواء على كتب الفيدا ص (١١٣).

(٢) انظر ما ذكره عطار، أحمد عبد الغفور: الديانات والعقائد ص (٩٦)، وانظر أيضًا بنغي شبدكوش (٥٠ / ١)، ونسب إلى أنه موجود في مُنْدُكْ أوبانيشاد (١ / ١). وانظر مقدمة ريگفيد ص (٢٦)، وانظر بنغي شبدكوش (٥٠ / ١).

(٣) انظر ما ذكره الشيخ بارتاسارزا، أبو الحسين: لما ذا أسلمت ص (١٠٤-١١٤).

(٤) انظر مقدمة أثربا فيد ص (٥).

(٥) انظر مقدمة ريگ فيد ص (٣٢).

(٦) انظر مقدمة أثربا فيد ص (٦).

وقيل: إنه ألف في زمن متأخر جداً، بعد وجود بعض البرهمانات والأوبانيشادات، واستدلوا على قولهم هذا بأدلة:

أولاً: إن هناك انسجاماً بين الفيدات الثلاثة حيث أن بعضه مأخوذ من البعض الآخر، فأصل الفيد هو الريگفید، وإنما انفصل عنه الكتاب التاسع بأغنية ساما، وسميت بـ «ساما فید» وهي للاستخدام عند تقديم القرابين بالألحان، وياجور فید إنما هو نثر لما سبق ويستعمل كصيغة تقديم القرابين، ولكن أثربا فید يختلف كثيراً عن الفيدات الأخرى.

ثانياً: إن طبيعة هذا الفید يختلف عن طبيعة الفيدات الثلاثة الأخرى، ولتضح هذه الصورة أبين بعض محتوياته باختصار فيما يلي:

إن أبيات أثربا فید موزعة على عشرين باباً، وهي من الباب الأول إلى الباب السابع أغلب الأبيات فيها تتعلق بالأوراد التي تستخدم للرقى لشتى ميادين الحياة، مثل هذه الأوراد لا تجدها في الفيدات الثلاثة الأخرى.

أما من الباب الثامن إلى الباب الثاني عشر، ففيها بعض الأوراد للرقى والتعاويد، ولكن غلب عليها أفكار فلسفية وثنية، ومثل هذه الأبيات لا يمكن أن تنسب إلى المطالب الموجودة في الفيدات الأخرى لأنها تتعلق بتقديم القرابين والثناء والمدح على الآلهة، نعم يمكن أن يكون لها تعلق ما مع الكتاب العاشر من الريگفید، والذي هو من الملحقات عند كثير من المحققين.

أما من الباب الثالث عشر إلى الثامن عشر فهي في الثناء على بعض آلهتهم أو في ذكر بعض الرقى والتعاويد.

أما البابان الأخيران فهما كخاتمة فيها تلخيص لما سبق في بقية الكتاب.

فقد عرفنا مما سبق رجحان الذكريات (سْمَرْتِي) أكثر من السمعيات (سْرُوتِي)، ولهذا فهو يختلف عن الفيدات الثلاثة الأخرى.

ثالثاً: كانوا سابقاً يذكرون الفيدات بقولهم «تري فید» أي الفيدات الثلاثة، ومن هنا

نفهم أن القيدات قديماً لا تطلق إلا على الريگ وساما وزجور، حتى إن الكتاب العاشر من الريگفيد مما ألف متأخراً، يدل عليه كونه في نهاية القيد، كما يدل عليه كون كثير من كلامه يتعلق بالأفكار الفلسفية، والتي تعتبر عند الكثير أول فكرة بشرية فلسفية، فكأن الفكرة الفلسفية نضجت في ذلك الوقت وتراجعت نوعاً ما عن القرابين. ومع ذلك نجد في الكتاب العاشر من ريگفيد (١٠ / ٩٠) ذكر ريگ وساما وزجور، ولم يأت ذكر أثربا فيها مطلقاً. والذي يفهم منه أنه عندما ألف هذا الريگ ما كان لأثربا قيد أي وجود.

كما أننا لا نجد أي ذكر لأثربا قيد في كتب برهمانا، ولهذا ترى في «تيتري برهمانا» (١ / ٢ / ٢٦) ذكر القيدات بأنها ثلاثة، وذكر اسم ريگفيد، وسام قيد، وياجور قيد، والذي يستنتج منه أنه عند تأليف هذا البرهمانا ما كان هناك وجود لأثربا قيد.

ولما جاء دور الأوبانيشادات، لا نجد في الأبواب الستة الأولى من «شاندويغا» أوبانيشاد إلا ذكر القيدات الثلاثة الأولى، إلا أننا نجد ذكر القيد الرابع في الباب السابع، ومن هنا فهمنا أن هذا القيد أعني أثربا إنما وجد في عهد كتابة بعض الأوبانيشادات. وهكذا نجد ذكر القيدات الثلاثة في «بريهذارنك» أوبانيشاد (١ / ٥ / ٥)، ولا نجد ذكر القيد الرابع إلا في الباب الرابع (٤ / ٥ / ١)، فهو إذاً سبق لهذا الأوبانيشاد لا محالة، أو عاصره.

ومن هنا عرفنا أن هذا القيد كان له وجود عند تأليف هذين الأوبانيشادتين القديمتين، ثم انتشر أمر هذا القيد في الأوبانيشادات الأخرى، فأول أوبانيشاد بعدهما بالترتيب «مندك» نجد فيه في (١ / ٥): ذكر القيدات الأربعة، وسميت مع القيدانغ - (أركان القيد) باسم «العلم لذاته»^(١).

مضمون الكتاب:

الكتاب يشتمل على مجموعة من الآيات، كما يوجد فيه بعض الأوراد الثرية، والبابان التاسع عشر والعشرون أخذوا من «ريگفيد»، وبالذات من الجزء العاشر، وهما

(١) انظر مقدمة ريگفيد ص (٣١-٣٣).

يشكلان خمس هذا الكتاب^(١) وقيل: سدس الكتاب^(٢).

ومجموع ما يحتوي من الأبيات: ٥٨٣٣^(٣). وقيل: ٦٠٠٠ بيتًا في عشرين بابًا^(٤).

ومما يشتمل عليه هذا الكتاب: مقالات في السحر والتعاويذ والرقى لإبعاد الشياطين وفيه أدعية للحفاظ من الحيوانات المفترسة، كما أن فيه أدعية لحصول الراحة والأمن والربح في التجارة والقمار^(٦)، كما يحوي أيضًا رقى وعزائم لهزيمة الأعداء، وقهر الشياطين وطردهم والنحس والأمراض، وفيه أناشيد الزواج واستمناء البركة، وأدعية تقال عند غسل الطفل بعد ولادته أول مرة، وتوسلات للآلهة أن تمكنه من الربح في الميسر وتجنبه الوقوع في أي شرك وبخاصة في شرك المرض، وأن تمنح الأعزب زوجًا^(٧). كما يوجد بها ذكر العلاقات الاجتماعية وتقسيمها إلى طبقات وتحديد الصفات التي تعين كل طبقة ومركزها ووظائفها عند البرهمنين^(٨).

ويقول البيروني: «وأما أثرها... فيه أيضًا قرابين النار وأوامر في الموتى وما يجب أن يعمل بهم^(٩)».

(١) انظر مقدمة ريگفید ص (٣١).

(٢) انظر

John Dowson, A Classical Dictionary of Hindu Mythology & Religion p 350

(٣) انظر ما ذكره الشيخ بتراسارزا، أبو الحسين، لما ذا أسلمت ص (١١٥).

(٤) انظر

John Dowson, A Classical Dictionary of Hindu Mythology & Religion p 350

(٥) انظر ما ذكره أمل كُومار بندوباداي: بُورَنِيكا (١/ ٤٠).

(٦) انظر ما ذكره الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٣٨).

(٧) انظر ما ذكره عطار، أحمد عبد الغفور، الديانات والعقائد (١/ ٩٦).

(٨) انظر ما ذكره الدكتور عمارة نجيب في كتابه: الإنسان في ظل الأديان ص (١٨٣).

(٩) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص (٩١).

ويقول الدكتور أحمد شلبي: «أما منظومات أثربا فيدا فأدعية كان يقدمها سكان الهند الأقدمون لآلهتهم قبل زحف الآريين، وإذا فلها قيمة تاريخية ودينية عظيمة»^(١).

ويقول الأستاذ محمد عبد السلام: إن أثربا فيد في المرتبة الثانية من ريگفید من حيث التاريخ والثقافة والدين، ويمثل ديناً رسمياً قد نشأ في العصر البرهمني المتأخر، وينفرد في أدعيته ومنظوماته، وأكثر ما يضمه هذا الفید هي الرقی والأسحار والأدعية للأرواح الخبيثة من الجن والشیاطین، وكأنها عماد هذا الكتاب، ويعرف المجتمع الهندي قد تقلب في صورته وكيانه عن المجتمع الريگفیدی، فيصور الحياة في أسوأ صورتها، قد ضعفت ثقة الناس بأنفسهم وبآلهتهم، والكون موفور بالشیاطین والأغوال، يخوفون الناس في دينهم وديناهم، والآلهة قد كفت أيديهم عن الخير، وزهدت قلوبهم عن دفع الشر وانتصارهم، سخطهم دائم والرضا نادر، أصبحت الحياة مشؤومة وذبحت نصارتها، فصارت متعبة ومسخطة، وغشي الناس خوف وقنوط، يدعون آلهتهم ويقدمون الضحايا لينصروهم ويكشفوا عنهم السوء، ويرضون الشیاطین بالقرايين والرقی ليتقوا شرورهم، يعبدون القرايين خوفاً منهم وطمعاً لا إجلالاً لهم وحباً، وقد أخذتهم الأوهام الواهية.

فهذا الفید تذکار لاختلاط الشعب الآري بالسكان القديمة في القطر الهندي، وتهادنهم بهم، ومظهر تاريخي لهم وقوة اجتذاب من جاورهم إليهم بالأخذ والقبول والرد والإعطاء، فأثروا وتأثروا، ثم ضموا جيرانهم إليهم وصاروا أمة واحدة.

فالكتاب يمثل ديناً آرياً قد اصطبغ بصبغة وطنية، يؤلف بين الأشتات، ويجمع الآلهة الآرية والآلهة القديمة الهندية، ويضم العقائد والوساوس والأدعية والرقی، قد تكمل فيه عدد الآلهة الفیدية من القوى الكونية وغيرها من الأرباب الريگفیدية والأرباب الهندية القديمة، وتمت جامعة الألوهية، لكن له مزية تاريخية في التقدم الفكري، لأنه معبر فكري للتصورات الأوبانيشادية المتأخرة فيأتي بكثير من المعتقدات التي قد

(١) الدكتور أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى (٤٦-٤٧).

ارتقت في الفكر الأوبانيشادي المتأخر، ويهيئ أساسًا لأعمال كثيرة شاعت في العصور التالية، فاعتقاد إله الآلهة الذي كان في ريگفید مبهمًا ومترددًا فيه، يصير في أثربا فید عقيدة مقبولة، وقدم آلهة جديدة منها، كال ديوتا (Kala Devta) (إله الوقت) وكام ديوتا (Kama Devta) (إله الحب)، واسكمبه ديوتا (Skambha Devta)، (الإله العمدة)، فأصبح علة أخيرة وأصلًا كونيًا للعالم، وإلهًا للآلهة كلهم، ويعتقد أنه هو البشر الأعظم أو مها برش (Maha Purusa) وبرجاباتي (Prajapati) (إله الكون)، أو برهمان، (القوة الكامنة الخفية)، كما يضم في قائمة الآلهة الخلاء، والدهر، والقوى الأخلاقية الحاكمة في الكون، وجميع الفيدات، كما اعتقد الألوهية في النفس الحيوي في الأشخاص المسمى بـ«بران» (Pran)، ثم عمّم ووسع فيه، فاعتقد أنه أصل حيوي للكون كله.

ورقيت الهواء الريگفیدی إلى العوامل الحيوية وقوى الحياة، وعرض فيه تصور القصر الإلهي أي: برهما لوك (Brahman loka) وتصور جهنم والذي يسمونه بـ«نرك» (Naraka)، ونشأ من الأعمال السحرية نوع من الباطنية والسرية، أي الجهد للوقوف على العوامل الكونية الكامنة، والتسلط عليها بالرياضات الشاقة المتعبة، فنبت منها الإشراقية المتأخرة^(١).

فإن صح أقوال كل من الدكتور أحمد شلبي هذا، وقول الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي الذي قال فيه: إن هذا الفيد خليط من حضارة الآريين وحضارة السكان المحليين^(٢)، وقول الأستاذ عبد السلام المذكور آنفًا، فإنه يظهر لنا تفسير كثير من الغموض في هذا الفيد:

أولاً: سبب تسمية هذا الفيد بـ«أثربا» الذي قيل إن معناه: الذي ليس له قيمة تذكر»، فكأن الآريين لما وجدوا هذا الفيد لم يلقوا له بالاً، كأنه لا قيمة له، ثم في الأزمنة المتأخرة أرادوا مسaire آراء السكان الأصليين لضمهم إلى مجتمعهم بأخذ كتابهم والاعتراف به

(١) انظر ما ذكره الأستاذ عبد السلام: فلسفة الهند القديمة، ص (١٣-١٥)، مجلة ثقافة الهند، مارس سنة

١٩٥٣م.

(٢) انظر ما ذكره الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٣٨).

وجعله من الكتب المقدسة.

ثانيًا: نجد أن أغلب نصوص أثريا قيد غير منسوبة إلى معين، كما هو حال الفيدات الأخرى، ولعل ذلك لأنهم لا يعلمون شيئًا عن قائلها، غير ما أدخل فيها من مجموعة الريكشيد، وقد اعترف بعض علمائهم المهتدين: أن نصوص أثريا قيد كانت أكثر بكثير مما هو موجود الآن، وأنه قد دخل فيها أيدي التحريف والحذف^(١).

ثالثًا: لا يوجد في الفيدات الأخرى الرقى والتعاويز كما هو في هذا القيد، وهذا يدل على أنهم كانوا مبتلين بالمخاوف البشرية من الشرور والآفات، والخوف من الأشياء الشريرة من الأمور الفطرية، فلا أستبعد أن يكون هذا القيد موجودًا قبل دخول الآريين.

مكاته:

إنه آخر الكتب القيدية حسب الترتيب، يقول البيروني: «ورغبة الناس فيه أقل»^(٢).

ولكن هل هو قيد مقبول لدى الجميع؟

يبدو أنهم يقبلونه على العموم، ولكنهم يرونه في منزلة دون منزلة الفيدات الثلاثة السالفة الذكر. ويبين الأعظمي سبب ذلك بقوله: وهو مختلط بالحضارة الآرية وغيرها^(٣)، لذا لا يوجد ذكره في الكتب الآرية القديمة^(٤).

والغريب أن هناك من يعطي لهذا الكتاب أهمية كبرى، حيث يقول: ويتضمن (يقصد أثريا قيد) على إشعاعات ولمعات من الحقائق تؤثر في القلوب أبلغ التأثير وتحدث في دنيا القلب انقلابًا وثورة، وفيه أيضًا عدة تنبؤات عن نبي آخر الزمان ﷺ، يتسم أسلوبه

(١) انظر ما نقله بارتا سارزا، أبو الحسين: لما ذا أسلمت ص(١١٥) حيث ذكر أن أثريا قيد كان يشتمل على ١٢٣٣٣ شعراً.

(٢) تحقيق ما للهند ص(٩١).

(٣) انظر ما ذكره الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٣٨).

(٤) راجع المصدر السابق ص(٥٣٨).

بالاقتضاب والإيجاز مع الشمول والجامعية، وكلامه منشور ومنظوم معاً.... وهو في الحقيقة لُباب الكتب الثلاثة الأولى التي تسمى «تريه وديا» أي العلوم الثلاثة، ودليل ناطق حي على وعي العالم، مني بياس ديث، الديني ونظرتة الثاقبة الخبيرة وبصيرته الباطنية النفاذة، ألفه مني بياس ديث في ضوء الكتب الثلاثة الأولى على إلهام من الله، وأضاف إليها إضافات نادرة ومعلومات ثمينة، وهو كتاب محير عجيب، زاخر بمعلومات قيمة ويعتبر من كتب القيد ومن الوحي الإلهي^(١).

هكذا قال، وأقوى أدلته وجود البشارات النبوية في هذا الكتاب، وقد سبق معنا الرد على مثل هذه الأدلة قريباً فليُنظر هناك.

(١) انظر ما ذكره السيد أخلاق حسين الدهلوي في أضواء على كتب الفيدا ص (١١٣-١١٤).

المطلب الثالث

الكلام حول تفسير الفيدات الأربعة والعلوم المتعلقة بها

ويشتمل على فرعين:

الفرع الأول: الاتجاهات التفسيرية للفيدات

اتجه مفسرو الفيدات إلى ثلاثة اتجاهات رئيسة:

أحدها: تفسير «ستارام سايان» (SUTRAM SAYAN) (١٤٠٠ م تقريباً)^(١)، وهو من المفسرين القدماء الذين فسروا الفيدات الأربعة على أساس الطقوس الدينية التي كانت سائدة في عصره، كما فسر الفيدات بالأدلة التاريخية مقتبساً من كتاب «مَهَابَهَارْت» والعلماء الهندوس يقدرون هذا الرجل، ويجعلونه في قمة من الذكاء والفهم لمعاني الفيدات، ويقولون: لولا ستارام سايان لما فهمنا أسرار «الفيدات».

وينقل عن «ماكس مولار» أنه قال: لو لم يسهل لنا «ستارام سايان» الطريق لما استطعنا أن ندخل هذه الحصون المنيع^(٢).

من ميزات تفسير «ستارام سايان» عدم اللجوء إلى التأويل، بل يحاول ذكر المعنى على أساس أن هذه الأناشيد والأشعار قَدِّمَتْ لآلهة متعددة؛ لإرضائها، وللحصول على

(١) هذا المفسر للفيدات، ولد في الدكن، في كرناتك، أخوه يسمّى مادفا، الذي كان من الكهنة في مملكة بيجوي نغر بالدكن. اشتغل كمفسر للفيدات بأمر من أخيه وبأمر من الملك، فأذل صعوبات الفيدات وقام به حسن قيام. انظر ما ذكره أتول چندر شين: في نهاية مجموعة أوبانيشاد ص (٩٤٤) (باللغة البنغالية).

(٢) انظر ما ذكره الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٣٩).

عطفها ورحمتها^(١).

ثانيها: تفسير ماكس مولار (MAX MULLER) (١٨٢٣م-١٩٠٠م)^(٢)، هذا الأوروبي الألماني له مكانة كبيرة عند الهندوس، لأنه أول من حاول فهم الفيدات على منهج الغربيين وقام بنشر تعليمات الفيدات في أوروبا وأمريكا، حتى لقب عند الهندوس بـ «موكش موللر» أي موللر الناجي من جولان الروح.

وأهم ما يتميز به تفسير موللر أنه حاول فهم معاني الفيد من خلال اللغة الموحدة بين الآريين، حيث إنه كان من علماء الألمان الذين ينسبون أنفسهم إلى العرق الآري، فهو يحاول جاهداً أن يقدم توحيد الأفكار بين الفيدات وبين اللغات الأوربية الأخرى، ويبين معانيها وفقها.

ثالثها: تفسير ديانند (DIYANAND) وهو المصلح المعروف لدى الهندوس الذي دعا إلى إحياء الحضارة الآرية في الهند في القرن التاسع عشر، وأنكر الطقوس والرسوم التي كانت معروفة منذ أقدم العصور. كما أنكر الوقائع التاريخية التي جاء ذكرها في الفيدات، وانتهج بذلك منهجا خاصاً لم يسبقه أحد قبله. وأوّل كل شيء يخالف توحيد الربوبية مثل الأصنام والأوثان التي يكثر ذكرها في الفيدات إلى مظاهر قدرة الخالق لتحقيق الوحدة الإلهية. ففي رأيه أنها الأعداد المتفرعة منه، ولا وجود إلا وجوده المطلق.

من أهم الميزات لتفسير ديانند: أنه أكثر من استعمال الاستعارات والمجازات والتشبيهات في تفسيره^(٣).

(١) انظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتى درشن (١٧/٣) (باللغة البنغالية).

(٢) له ترجمة عند الزركلي في الأعلام (١٤٥/٥).

(٣) انظر ما ذكره الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٣٨).

الفرع الثاني: العلوم المتعلقة بالفيدات

إن هناك علومًا تتعلق بالفيدات، لا بد من ذكرها حتى يكون بحثنا كاملاً، وذلك أن علماء الهندوس في قديم الزمان ما كانوا يسمحون بكتابة الفيدات، وإنما يأمرهم تلاميذهم بحفظها، وللحفاظ على هذه الكتب نشأت علوم عديدة، وهي تقسم نظراً لعلاقتها مع الفيدات إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى:

تسمى: فيدانغ أو فيدانج، كما يسمى بالفرع المتصل بالفيدات، وفيما يلي بيان مختصر لهذه العلوم:

معنى فيدانغ:

كلمة فيدانغ أو فيدانج عبارة عن اجتماع كلمتين: فيد+انغ، ومعناه: عضو الفيد، بمعنى أنه لا بد من معرفتها لمعرفة معاني الفيدات وقراءتها قراءة سليمة^(١).

أما تسمية هذه العلوم بأعضاء الفيد فإنهم تصوّروا الفيد كأنه رجل، له أعضاء عديدة من الرجل واليد والعين والأذن والأنف والفم^(٢).

عددتها:

عدد الفيدانغ ستة^(٣)، وهي:

١ - شِيْكها: وتعني التعليم، والمقصود بها: علم الأصوات المتعلقة بالفيدات؛ لأن الهندوس يعتقدون أن الفيدات إذا ما قرئت بصوت غير مقبول لا تأتي القرايين بفائدة، بل ربما تأتي على مقدم القرايين بالويل والوبال، فكانوا يحافظون على الأصوات، وتعلم هذه الأصوات تسمى بـ«شِيْكها»^(٤).

(١) انظر ما ذكره دُلال بهوميك: مقدمة ستبت برهمانا ص (١٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر أوبانيشادة مُنْدُك (١ / ١ / ٥).

(٤) انظر ما ذكره دُلال بهوميك: مقدمة ستبت برهمانا ص (١١).

٢- بياكرن: وتعني قواعد اللغة، الخاصة باللغة السنسكريتية؛ وذلك أن معرفة معاني اللغة السنسكريتية تنبني عليها؛ فإن لم تعرف هذه القواعد لا تعرف المعنى الصحيح للقيادات، ولهذا كانوا يحافظون على هذه القواعد، وهي حتى الآن رائجة في اللغات التي انشقت عن السنسكريتية، كالبغالية والهندية مثلاً^(١).

٣- نيروكت: وتعني: تفسير الكلام، أو تفسير كلمات القيادات، وأهميته وضع تفسير لما جاء في كتب القيادات، ويسمى لهذا العلم بـ«القاموس القيدي»، وأقدم من قام بهذا العمل يسمى «ياسك (زاسك)»، وذلك ما بين ٧٠٠ ق.م إلى ٥٠٠ ق.م^(٢)، وقيل: ألف عام ٨٠٠ قبل الميلاد تقريباً^(٣).

٤- چوندا: وتعني العروض، وأهميتها الحفاظ على أسلوب التراتيل، وكانوا يعتقدون أنه إذا قرئ القيد مع رعاية العروض فإنه يحصل له النجاة، والأبحر المستخدمة في القيادات سبعة، وهي: غايتري، أو شنيك، أنوستوب، بريهتي، پنغكتي، تريستوب وجوغووتي. وكل واحد منها يختلف عن الآخر في عدد الحروف.

٥- جوتيش: وتعني التنجيم، وأهميتها معرفة أوقات النحس والسعد والوقت المناسب لتقديم القرابين.

٦- كالب: وهي الكتب التي تشرح كيفية تقديم القرابين، كأنها نسخة ثانية مختصرة من كتب برهمانا^(٤). ويتبعها مجموعة من الكتب تسمى بـ«سوترا شاسترا»، وسيأتي بيانها قريباً.

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر المصدر السابق ص (١٢).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور رءوف شلبي: الأديان القديمة في الشرق ص (٨٨).

(٤) انظر ما ذكره الدكتور دلال بهوميك: مقدمة سبت برهمانا ص (١٢-١٣)، وانظر مقدمة ريگفيد ص (٢٦-٢٨).

زمان تأليفها:

اختلف في زمان تأليفها على أقوال:

فقيل: إنها ألُفت في ١٠٠٠ ق.م.

وأقل ما قيل: أنها ألُفت ٢٠٠ بعد الميلاد.

ولكن الذي يرجحه كثير من الهندوس أنها ألُفت في زمن الأوبانيشادات أو قبلها؛ لوجود ذكر هذه العلوم في الأوبانيشادات. وعلى هذا ربما يرجع زمن تأليفها إلى ١٥٠٠ ق.م.^(١)

المجموعة الثانية:

وتسمى بـ«سوترا»، وتعني الكلمة: الخيوط، ولعلها سميت بالسوترا لأنهم كانوا يحفظونها كمتون مختصرة، والمتون المختصرة كأنها خيوط تنبني عليها الثوب، وهذه المجموعة تابعة لـ«كالپ» المذكور في المجموعة الأولى، وفيما يلي بيان لهذه العلوم:

عددها:

تصنف كتب سوترا إلى أربعة تصنيفات:

الأول: كتب سرُوت شاسترا: وهي التي تتحدث عن القرايين وكيفيةها؛ وهي مذكورة في كتب برهمانا أيضاً، وعدد هذه القرايين أربعة عشر، سبعة منها تنفذ بتقديم السمن على النار، وسبعة أخرى تنفذ بتقديم شراب سوما على النار، كما أنها ثلاثة أنواع من النار مخصصة لتقديدها وتنفيذها، وهي كلها موضوع هذه الكتب.

الثاني: كتب گريه سوترا، وهي الكتب التي تتحدث عن التعميد، والأعمال الواجبة في حياة الهندوس من الولادة إلى الموت، وهي عشرة مراسيم، وقد فصل في هذه الكتب هذه المراسيم بتوسع.

(١) انظر ما ذكره دُلال بهوميك: مقدمة سبت برهمانا ص (١٠-١١).

الثالث: كتب دهرم سوترا، وهي كتب الفقه الديني الهندوسي، بطريقة مختصرة، وهي تشمل أحكام الأسرة والمجتمع وما إلى ذلك.

الرابع: كتب تتحدث عن مساحة الأرض عند القرابين، كيف ينبغي أن تكون المساحة عرضاً وطولاً وما إلى ذلك.

ويمكننا أن نذكر هذه الكتب في الجدول الآتي مع الإشارة إلى كتب الفيدات التي يدعي الهندوس أنهم أخذوها منها:

اسم الفيد المنسوب إليه	كتب سرؤث سوترا	كتب كرينة سوترا	كتب دهرم سوترا	كتب شولب سوترا
ريگ فید	كتابان: (١) شانخاين (٢) أشفالاين	ثلاثة كتب: (١) شانخاين (٢) أشفالاين (٣) شنييت	-	-
سام فید	ثلاثة كتب: (١) مشك (٢) لاتراين (٣) دراهائين	ثلاثة كتب: (١) كوينيل (٢) كهاديز (٣) جيميني	كتاب واحد: (١) كوتم	-
ج ن ي ث	الأبيض	كتاب واحد: (١) كاتين	-	كتاب واحد: (١) كاتين
	الأسود	مجموعة كبيرة تزيد على عشرة	يوجد تسعة كتب، من أهمها (١) بودهاين (٢) أستمبا	يوجد ستة كتب، من أهمها: (١) مانو (٢) براه
أثريا فید	كتاب واحد: (١) بويتان	كتاب واحد: (١) كوشيك	-	-

زمان تأليفها:

هذه الكتب ألفت في فترة ما بعد تصنيف كتب برهمانا، وذلك أنه كان هناك اهتمام كبير للقرايين، وكادت أن تغطي على جميع العبادات، وكانوا في نفس الوقت ينظمون حياتهم على كيفية معينة، ويقدم لهم البراهمة إرشادات تتعلق بحياتهم وأمور دينهم، فاحتاجوا إلى حفظ هذه الأشياء بعبارات مختصرة جامعة، فألفت هذه الكتب، ثم جمعت محتوى هذه الكتب في كتب أخرى لاحقة عرفت باسم «دهرم شاسترا» من أهمها: مُنُو سُمَرِتِي، و«فِشْنُو دهرم شاسترا»، ولما كانت هذه الكتب اللاحقة حددت زمن تصنيفها ما بين (٦٠٠) ق.م، إلى (٢٠٠) م؛ فإن كتب سوترا هذه التي هي أم لهذه الكتب المتأخرة لابد وأن يتقدم عليها، وربما تكون قد ألفت حوالي (٧٠٠) ق.م تقريباً^(١).

المجموعة الثالثة:

وتسمى أوبا فيد، أو الفيد الإضافي، ولعلها سميت بذلك؛ لأنها علوم مأخوذة من الفيدات، ولكن معرفة الفيدات لا تعتمد عليها، وفيما يلي بيان لأهم هذه العلوم عددها:

هذه العلوم تنسب إلى الفيد الرابع: أثربا فيد، وهي أربعة أنواع من الكتب: الأول: أيور فيد، ويقصدون به كتب الطب المأخوذ من كتب الفيدات، وهذا النوع من الطب ما زال موجوداً في أوساط الهندوس، ويزاول في أغلب أماكن الهند، وله دعاية كبيرة في الإنترنت في المواقع الهندوسية، ويبدو لي أن الغربيين لهم ميل كبير إلى استخدام هذا النوع من الطب.

الثاني: دهنور فيد، وهي الكتب التي تعلم كيفية استخدام آلات الحرب، أو نقول: هي التدريب على العسكرية. وهم ينسبون هذا العلم إلى براهما ومهاديثف (شيفّا)، ثم تعلّم مهاريشي بشواترا هذا العلم منهما، وصنف كتاباً في ذلك.

(١) انظر ما ذكره الدكتور دلال بهوميك: مقدمة ستبت برهمانا ص (١٣-١٤).

الثالث: گندهرب فید، وهي الكتب التي تتحدث عن الأغاني، والرقص، واستخدام المزامير، يقال: إن خلقًا (أسطوريًا) تسمى گندهرب هم الذين كانوا أصحاب هذا العلم، ومن هنا سمي هذا العلم بـ«گندهرب فید»، وهذه المخلوقات (الغريبة) كانوا مهرة في الأغاني والمزامير والرقص، وكان يصاحبهم في أعمالهم من حوريات الجنة تسمى «أسرا»، كما كان لهم خدمًا وعبيدًا من الجنة، هكذا يقولون، ومن أقدم الكتب في هذا الفن: كتاب نات شاسترا، لمؤلفه: بهارت مني، حتى كانوا يسمونه بـ«الفيد الخامس» لشدة اهتمام الهندوس القدامى لهذا الفن.

الرابع: آرتها شاسترا، معناها الحرفي، العلوم المتعلقة بالمال، أو الاقتصاد، ولكن المقصود بها: علوم السياسة، والملكية، وقد ألف في هذا العلم عدة كتب من زمن قديم، ومن أقدم المؤلفين في هذا الفن: «كوتيل»، مؤلف: كام سوترا، أو مختصر في العلوم المتعلقة بالجنس، والشهوات، وقد ألف في هذا الموضوع أيضًا كتب عديدة.

زمان تأليفها:

قيل: إن هذه العلوم ألفت في القرن الثالث قبل الميلاد.

وقيل: بل في القرن الرابع أو الخامس قبل الميلاد.

ولكن الذي يظهر عمومًا: أنها ألفت ما قبل القرن الثاني قبل الميلاد^(١).

هذه أهم العلوم المتعلقة بالفيدات.

المبحث الثاني

ذبول القيدات^(١)

كان علماء الهندوس يضيفون عادة إلى القيدات الأربعة مجموعات كثيرة، اكتسبت قداستها عندهم على مرّ الزمن واحترموها وجعلوها من مصادر الدين. وهي عبارة عن ثلاث مجموعات: برهماانا، وأرتنك، وأوبانيشاد^(٢).

وسأتكلم على هذه الذبول من حيث معناها وتدوينها ومحتواها، ومكانتها لدى الهندوس في المطالب الآتية:

المطلب الأول

برهماانا

معنى برهماانا لغةً:

جاءت برهماانا من كلمة برهمن، وهذه الكلمة فسّرت بتفسيرات، منها:

(١) سمّيت المجموعة الآتية من الكتب بالذيول؛ لسببين: الأول: أنها تنتسب إلى القيدات تقليدياً، الثاني: أن كثيراً منها كانت موجودة في نهاية كتب القيدات، ثم أفردت في الآونة الأخيرة بكتب مستقلة.

(٢) هذه المجموعات مقدسة لدى عموم الهندوس، والذين يسمون أنفسهم بـ«سناتني» أو المتبع التقليدي، إلا أن آريا سماج لا يرونها من القيدات، بل يرونها مما صنفه الناس، وقد كان بينهم وبين الأتباع التقليديين للديانة الهندوسية ردود طويلة وعنيفة في بعض الأحيان ليس هذا مجال ذكرها.

انظر ما جاء في مجلة «مسلمان» عدد نوفمبر، سنة ١٩٠٩م، مقالة جالندهري. ص (٦-٧)،

(١) أنها سُمّيت بـ«برهمانا» لكونها ملحقة مع برهمان، وكلمة برهمان كانت تطلق على الفيدات^(١).

(٢) وقيل: كلمة برهمن معناها: المدح والثناء، ولما كانت هذه الكتب في المدائح والثناء سُمّيت بـ«برهمانا»^(٢).

(٣) وقيل: «برهمانا» نسبة إلى البراهمة، الطبقة الأولى من الطبقات الهندوسية؛ لأنهم هم الذين تحدثوا عنها، وحددوا أمور القرايين وكيفيتها. يقول سوامي ديانند: إن علماء البراهمة من الفيدات الأربعة لما قاموا بشرح الفيدات سُمّيت أعمالهم هذه بـ«برهمانا»^(٣).

المقصود من برهمانا عندنا هنا:

قواعد الطقوس والدعاء والرقى لهداية الكهنة في مهمتهم^(٤). وهي أقدم الشروح والتعليقات على (ياجور فيد)، تمثل تفسيراً مفصلاً له، وتشتمل على مقالات تسهب في شرح الطقوس والشعائر الدينية التي يمارسها الكهنة من تقديم القرايين وغيرها، ومن ثم كان من أهم ما يرجع إليه في دراسة الدين البرهمي^(٥). وقد سبق معنا أن الهندوس قد يطلقون هذا الاسم على كل ما كتب من الذيول على الفيدات من برهمانا وأرتنك والأوبانيشادات، وليس هو المقصود هنا.

نشأة برهمانا

يقول الدكتور محمد إسماعيل الندوي: إن الآريين الذين يؤمنون بأنواع من الآلهة المتعددة قد سادت عقيدتهم الهند منذ نزوحهم إليها حتى نهاية عام (٨٠٠ ق م)،

(١) انظر ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص (١٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: ما ذكره ول ديورانت: قصة الحضارة (٣/ ١/ ٣٨).

(٥) انظر ما ذكره الدكتور عمارة نجيب في كتابه: الإنسان في ظل الأديان ص (١٨٤).

ثم حدث تطور هام، وهو أن طبقة الكهنوت التي ظلوا يمارسون أعمال الطقوس^(١) والمراسيم دون اعتراف بأي تفوق لها على الأجناس الأخرى من الناس، قد قفرت قفزة مفاجئة إلى القمة والمجد وفرضت نفوذها على الشعب كله، وأجبرته على الاعتراف بتفوقها وامتيازها على جميع الأجناس الأخرى من الآريين، وقد استطاعت هذه الجماعة الكهنوتية التي سميت منذ القدم بالبراهمة فرض سيطرتها ونفوذها فصعد نجمها منذ ذلك الحين وأصبحت في قمة الطبقات البشرية في الهند، وقد حدث ذلك خلال عام (٧٠٠ ق م) تقريباً.

وقد أدخلت هذه الطبقة المفضلة نظريات ومبادئ جديدة إلى العقيدة والطقوس وهي التي قالت بالإله «برجapati»^(٢) ... الذي لم يكن له وجود من قبل. وقد وصفته بأنه رئيس الآلهة وخالق الكون، ذلك الذي قدم نفسه قرباناً لبقاء هذا الكون واستمرار الإنسانية. فتقطع جسده من جراء هذا قربان إرباً، وتغلغت كل قطعة منه في نظام هذا الكون لبقائه واستمراره. ثم ظهر «برهمان» إله الآلهة ... وقد سجلوا هذه المبادئ الجديدة وأسسها كلها في كتاب سموه «برهمانا» ذلك الذي ألحقه مؤخرًا إلى أصل كتاب فيد، وذلك خلال عام ٧٠٠ ق م تقريباً^(٣).

وكان هؤلاء الكهنة في ذلك الزمان - زمن برهمانا - يتقاضون أجورًا عاليةً على مساعدة المتعبد في أداء طقوس قربان التي أخذت تزداد مع مر الزمن تعقدًا، فإذا لم يكن في وسع المتعبد أن يدفع لكاهن أجره، رفض أن يتلوه الصيغ اللازمة، فأجره لا بد أن يسبق ما يدفع لآلهتهم من أجر؛ ولقد وضع رجال الدين قواعد تضبط مقدار ما يدفعه صاحب هذه العبادة، - كم عدد الأبقار والحياد؟ وكم وزن الذهب؟ - وقد كان الذهب

(١) كالقرايين، والكفارات وما إلى ذلك.

(٢) برجapati الإله الخالق عند الهندوس من نهاية زمن الفيدات إلى أواخر زمن الأوبانيشادات.

(٣) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص(١٠٠).

بصفة خاصة عميق التأثير في الكهنة والآلهة، ففي أوراق برهمانا التي كتبها البراهمة، إرشادات للكهان تدله على الطريقة التي يستطيع بها أن يقلب الصلاة أو القربان سرًا على رؤوس أصحابه إذا لم يؤجروه أجرًا كافيًا، وكذلك سنوا قوانين أخرى تفصل دقائق المحافل والطقوس التي ينبغي أن تقام في كل ظرف من ظروف الحياة تقريبًا، وهي عادة تتطلب معونة الكهنة في أدائها؛ وهكذا أصبح البراهمة شيئًا فشيئًا طبقة ممتازة، تسيطر على الحياة الفكرية والروحية في الهند سيطرة تهددت كل تفكير وكل تغيير بالمقاومة المميتة^(١).

زمن برهمانا:

ألفت هذه الكتب بعد كتب الفيدات، وقد يحدده البعض بـ (٨٠٠) قبل الميلاد، إلا أن بعض الكتاب يجعل وجود هذه الكتب تابعة لمرحلة ظهور البراهمانية، ويرى المرحلة البراهمانية نسبة إلى هذه الكتب، وفي بعض الأحيان يطلقون على المرحلة البراهمانية، الديانة البرهمية؛ لأن الغلبة كانت للبراهمة.

منهم أحمد عبد الغفور عطار^(٢)، حيث يقول: الديانة البرهمية يعود تاريخ ظهورها فيما بين القرن الثامن والقرن السادس قبل الميلاد^(٣).

وجاء في الموسوعة العربية الميسرة: «وأحلت البرهمية (٥٠٠ ق.م) محل الدين الفيدي مجموعة معقدة من الشعائر والعقائد، نجدها في برهمانا.

ويقول الدكتور أحمد شلبي في بيان البرهمية: «وارتقت البرهمية عندما تجمع البراهمة في القرن الثامن قبل الميلاد، فأعادوا التفكير في دينهم، ووضعوا مذهب البرهمية وقالوا بعبادة براهما... ومن أهم ما عنيت به تقديم القرايين على أن يتم ذلك

(١) انظر ما ذكره ول ديورانت: قصة الحضارة (٣/ ١/ ٣٥).

(٢) هو أحمد عبد الغفور عطار، مفكر، باحث، أديب إسلامي كبير، ولد في مكة المكرمة سنة (١٣٣٧هـ)، مؤسس جريدة عكاظ، توفي سنة ١٤١١هـ. انظر ترجمته مفصلاً فيما ذكره محمد

خير رمضان يوسف: تكملة معجم المؤلفين ص (٤٦-٥٢).

(٣) انظر ما ذكره أحمد عبد الغفور عطار: الديانات والعقائد في مختلف العصور (١/ ٩٩).

بحضور برهمي وتبريكه. وبدون القرابين تتلاشى أرواح الموتى ويُطفأ مجد الأسرة إلى الأبد، فالقرابين غذاء للأجداد، وكان الإله «أغني» يحملها إليهم وكان عدم تقديم القرابين إلى الأجداد يعتبر كمن يترك والديه يموتان جوعاً»^(١).

عدد برهمانا ونسبتها إلى الفيدات:

عدد برهمانا عشرة، وهي كلها تنسب إلى الفيدات تقليدياً كما هو مدون في الجدول الآتي:

جدول برهمانا (حسب الفيدات التي تتبعها)

* کوشیتکی برهمانا * ائیطریا برهمانا	ریگ فید	
* تائیطریا برهمانا * کهتا برهمانا	[الأسود]	یاجور فید
* سَبْتُ برهمانا	[الأبيض]	
* تانديا برهمانا * سادبهیمشا برهمانا * جایمینیا برهمانا * شانودیغا برهمانا	سام فید	
* غوباته برهمانا	اُثاربا فید	

محتوياتها:

وهي في الغالب نصوص فقهية وأصول عبادات. كأنها وجه آخر من الديانة الشيدية حيث دخل فيها المنطق والعقل والفلسفة وحل معضلات وقفت أمامها الديانة الشيدية. فكان هذه النصوص عبارة عن منحى جديد للديانة الشيدية.

(١) انظر ما ذكره أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص (٩٩).

فهي كتابات نثرية تبحث في مغزى الشعائر والطقوس والاحتفالات التي لها علاقة بالأضاحي والذبائح، وهي من عمل الكهنة، وفيها توجيهات للأشخاص الذين هم في سن الشيخوخة.

كما تشتمل على بيان أنواع القرايين وتفصيلها ومواسمها، وتبيان أن إرضاء البراهمة ضروري لقبول القرايين^(١).

وتنص هذه الرسائل على أن البرهمي يجب عليه بعد تقليده مباشرة أن يدخل الدير مع المعلم الذي يلقيه أصول البرهمية، ويبقى البرهمي تلميذاً يخدم معلمه (ويطلق عليه «غورو» والتي تعني الأستاذ أو المعلم أو المرشد أو المزيكي الروحي) مدة عشر سنوات يدرس فيها القيدات وشروحها وقواعد اللغة السنسكريتية وشعائر البراهمة. وفي هذه المدة يعيش متقشفاً متطهراً يخدم سيده ويرعى النار المقدسة، وبعد ذلك يخرج ويتزوج ويرعى أسرته، وعندما يحس بدنو أجله يعتزل العالم ويخرج إلى الغابة حيث يظل متعبداً، وقد مضى على هذه التقاليد زمن طويل ومع ذلك لا زالت موجودة في الهند حتى الوقت الحاضر. وفي الهند مدارس لحفظ القيدات وشروحها وهم يلقنونها للأطفال^(٢).

وعلى العموم فإن موضوعات برهمانا يمكن أن تصنف في ست مجموعات: المجموعة الأولى: الأوامر، والتي تسمى عندهم بـ«بيدهي»، والمقصود بها إصدار الأوامر لإنجاز عملٍ ما لمقصودٍ ما، مثال ذلك ما جاء في برهمانا «الذي يريد الجنة عليه أن يقدم القرايين في النار».

المجموعة الثانية: شرح معاني القيدات المتعلقة بالقرايين، والتي تسمى عندهم بـ«أرتهاباد».

(١) انظر ما ذكره أحمد شلبي في أديان الهند الكبرى ص(٤٧)، وأحال في بعض معلوماته إلى:

Weech and Rylands: The People and Religions of India p. 307. ولم أطلع عليه.

(٢) انظر ما ذكره محمد مرسي أبو الليل: الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ص(٥٢).

المجموعة الثالثة: النقد، والتي تسمى عندهم بـ«نندا»، والمقصود بها الانتقاد لآراء الآخرين ونقضها ونبذها، ويريدون بالنقد ترك الأمور الممنوعة، نلاحظ أن بعض برهمانا ينقض أوامر برهمانا آخر، مثال ذلك ما جاء في بعض برهمانا: «إن الآلهة الأخرى غير بورون يحصلون على الأرزاق بدون أي مبرر».

المجموعة الرابعة: الثناء والمدح، والتي تسمى عندهم بـ«پروشونغشا»، والمقصود بها حث الناس على الأعمال الخيرة، ولهذا يمدحون الأعمال الخيرة، مثال ذلك ما جاء في بعض برهمانا: «إن الآلهة حصلوا على كل شيء بالقرايين».

المجموعة الخامسة: القصص القديمة لأشخاص عدة مجموعة، والتي تسمى عندهم بـ«پورا كالپ»، فقد جاء في بعض الأماكن من برهمانا قصص لأشخاص قاموا مجتمعين ببعض الأعمال المجيدة، والمقصود حث مقدم القرايين عليها، مثال ذلك ما جاء في بعض برهمانا «إن الآلهة قاموا بتقديم القرايين حسب قانون القربان».

المجموعة السادسة: ذكر قصة معينة لشخص معين، والتي تسمى عندهم بـ«پوروكيرتي»، والمقصود حث المقدم على القرايين، وأن له سلفاً في هذا، والفرق بين هذه والتي قبلها: في المجموعة السادسة قصة أشخاص كثيرين أما هنا فقصة شخص واحد^(١).

وهناك مجموعة سادسة: يقال لها: برهمان تته، والتي هي في بيان علم برهمان، وهي غالباً في نهاية كتب برهمانا، وعليه ألفت كتب الأوبانيشادات فيما بعد^(٢).

مكائنها:

لـ«برهمانا» مكان مرموق لدى الهندوس، وبسبب كتب برهمانا نشأت طبقة كهنوتية عرفت برجال الدين واحتلت المرتبة العليا من بين طبقات الشعب، وهي صاحبة الحق في تفسير النصوص والإمامة ورئاسة الحفلات الدينية وفرض أنواع جديدة من الطقوس

(١) انظر ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص (١٦-١٧).

(٢) انظر ما ذكره دلال بهوميك: مقدمة سبت برهمانا ص (٧).

والعبادات، ولا يباح لأحد الدخول في هذه الطبقة من غيرها، بخلاف الديانة الفيدية، بل قصر هذا الشرف العظيم عليها وعلى ذرياتها التي ترثه، ويكون للخلف حقوق السلف نفسها، ومن شدة تمسك الهندوس بالبرهمانات سموها بالجزء الثاني من الفيدات^(١).

يقول الشيخ محمد رياض موسى: أصبحت الرئاسة الدينية في زمن برهمانا ذريعة لحصول المعاش، وأضيفت مع تعليمات الفيدات تعليمات أخرى جديدة، حتى أصبح بعض منهم بمرتبة «إندرا»، وأصبحت البراهمة إله الأرض في تصرفاتهم وشؤونهم.

فقد جاء في كتاب «سَبْتُ برهمانا»: في الحقيقة هناك نوعان من الآلهة، إله حقيقي، والقرايين كانت تقدم لهذا الإله الحقيقي، والثاني، إله بشكل إنسان، يأخذ الصدقات والخيرات على شكل إنسان، وهم البراهمة، وهم الذين يأخذون بعض القرايين.

هذه البرهمانات لم تكن لها مكانة مثل الفيدات سابقاً، وإنما كانوا يعتبرونها من الكتب القديمة الملصقة، ولكن سرعان ما تغيرت الأمور حتى أصبحت البرهمانات لها مكان مرموق، وذلك عندما دخل الدين الآري في الطور الثاني، والذي كانت السيطرة فيه للبراهمة بعدما أقصي «الكهشتريا» عن التنافس معهم في السلطة^(٢).

(١) انظر ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص(١٦).

(٢) انظر ما ذكره الشيخ محمد رياض موسى: الهندوسية ص(١٥).

المطلب الثاني

أَرَنْكَ

معنى أَرَنْكَ:

ذكر لكلمة أَرَنْكَ معنيان:

١ - كلمة أَرَنْكَ مأخوذة من «أَرَنَّ» والتي تعني: الغابة، وأضيفت معها «ك» للنسبة، فمعنى أَرَنْكَ: المنسوب إلى الغابة، أو نصوص من الغابة^(١).

يقول الدكتور أحمد شلبي: أَرَنْكَ (Aranyaka) أو الغايات أو الهدايات والإرشادات التي تقدم للشيوخ المعمّرين الذين يتركون أهليهم في الربع الرابع من أعمارهم - كما سيأتي - ليقموا في الكهوف والغابات، وأَرَنْكَ ترشد أمثال هؤلاء إلى أعمال سهلة يقومون بها بدل القرابين التي أصبحوا يعجزون عن تقديمها^(٢).

وعلى هذا: فهي من ردة فعل بعض الناس الذين رأوا في برهمانا سيطرة البراهمة، وقد قصمت كواهلهم من شدة ما يطالبون به من الأجور، فتركوا الديار وسكنوا الغابة، وكتبوا هذه الكتابات منافسين للبراهمة، حيث يفترض أن يكونوا من غير البراهمة، فهي نصوص دينية لساكني الغابة من المتعبدین.

ومن الناس من ينسب هذه النصوص إلى الذين كانوا في «بان پرست» أي في المرحلة الثالثة من مراحل الحياة عند الهندوس، والصحيح أنه ليس خاصاً بهم.

ثم إن هذه النصوص وإن كانت ألفت في الغابة، لكن البراهمة كانوا يقدمون هذه

(١) انظر ما ذكره ول ديورانت: قصة الحضارة (٣/ ١/ ٣٨).

(٢) انظر ما ذكره أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص (٤٧-٤٨).

النصوص لتلاميذهم بعدما ينتهون من دراستهم في بيت الأستاذ، فإذا انتهى أحد التلاميذ من دراسة الفيديات (سنگهتا)، فإنهم يقدمون هذا العلم للتلاميذ الذين يرون فيهم حب الاستطلاع.

٢- وقيل: إن كلمة أَرَنْكَ معناها برهمان؛ فإن أَرَنْ معناها: العميق وصعب المنال، ولما كان علم برهمان عميقاً وصعباً سَمَّوه «أَرَنْكَ»^(١).

تدوينها:

يقال: إن عدد كتب أَرَنْكَ تزيد على المائة قليلاً، وبعضهم يصل بها إلى ما فوق المائتين، ولا يعرف زمن كتابتها، وإن كان يقدر أقدمها بستمئة سنة قبل المسيح.

إلا أنه قد وجد بعض «أَرَنْكَ» بعد «بوذا» بزمان كما يدعي العالم الهندوسي «دهرمانند كوسمبا» في كتابه المعروف «الحضارة الهندية» وهذا يؤيد القول بأن كتب الهندوس المقدسة ليس لها تاريخ محدد صحيح^(٢).

ولما كثرت كتب أَرَنْكَ، اشترط أغلب الهندوس لقبولها أن تكون منسوبة إلى الفيديات، وهي التي تكون على وفق ما في الفيديات وعلى زمان قريب منها، ولأجل هذا الشرط قلّت كتب أَرَنْكَ المقبولة، كما أنه لا يوجد لبعض الفيديات أي أَرَنْكَ، وعلى هذا الأساس نرى المقبول منها ما يلي:

جدول أَرَنْكَ (حسب الفيديات التي تتبعها)^(٣)

ريگ فيد	* كوشيتكي أَرَنْكَ * أئيطريا أَرَنْكَ
سام فيد	* شاندويغا أَرَنْكَ (مفقود) أوبانيشاد برهمان (مفقود)

(١) انظر ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص(١٨).

(٢) انظر ما ذكره الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٣٥)

(٣) انظر لمعرفة المزيد ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص(١٩).

ياجور فيد	[الأبيض]	* بُرِيْهْدَ أَرْتَنُكْ (الجزء الرابع عشر من ستبت برهمانا)
	[الأسود]	* تائيطريا أَرْتَنُكْ * كَانْه أَرْتَنُكْ (مفقود)
أثاربا فيد		لا يوجد له أَرْتَنُكْ

محتوياتها:

وهي تعاليم الغابة لمن صمموا على الانقطاع والعزلة في الغابات ابتعادًا عن الناس وتخلصًا من شرور المجتمع لتفهم الروح بصفاء وأمن وطمأنينة، ويجب أن يستظهرها الإنسان ليتسنى له تلاوتها والترنم بها.

فهي مخطوطات تبحث في المسائل الفلسفية وتشجع على التأمل، وغالبًا ما تكون لمن بلغوا آخر درجة في السلم الديني، وهي حالة الترهيب.

ويقول الدكتور عمارة نجيب: إن أَرْتَنُكْ يحتوي على الأسس والقواعد والتعليمات الفنية التي يجب على الكهنة مراعاتها أثناء الطقوس الدينية، كما يشتمل على نصائح موجهة إليهم فيما يتعلق بالزهد والنسك واعتزال الحياة^(١).

مكانتها:

يعتبر الهندوس كتب أَرْتَنُكْ مقدسة بدون خلاف^(٢)، مع تناقض بعضها مع بعض، وهم يأتون ببعض النصوص للاستدلال على أعمالهم في بعض الأحيان، ولكن رغبة الناس فيها أقل لشيين:

(١) لصعوبتها، وعدم تكاملها للموضوع الذي يطرقه.

(٢) فقدان كثير منها.

(١) راجع ما ذكره الدكتور عمارة نجيب في كتابه: الإنسان في ظل الأديان ص(١٨٤).

(٢) إلا ما كان من فرقة برهما سماج، فإنهم لا يقبلون إلا القديسات.

المطلب الثالث

الأوبانيشاد

وتحتته فرعان:

الفرع الأول: دراسة الأوبانيشادات عموماً

معنى أوبانيشاد لغةً:

اختلف الهندوس في تحديد معنى كلمة «أوبانيشاد» على أقوال:

الأول: إن كلمة «أوبانيشاد» عبارة عن ثلاث كلمات مجتمعات:

(١) أوبا، والتي تعني: القرب.

(٢) ني، والتي تعني: تحت.

(٣) شاد، والتي تعني: الجلوس، فيكون المعنى الحرفي لكلمة الأوبانيشاد ،

الجلوس تحت (من يريد الجلوس معه) مع القرب منه^(١)، ويكون المقصود

بهذه الكلمة: الجلوس عند الشيخ لتلقي العلم^(٢).

الثاني: إن كلمة «أوبانيشاد» عبارة عن ثلاث كلمات مجتمعات، هي:

(١) أوبا، وتعني: القرب أو الجانب.

(٢) ني، وتعني: بإخلاص وإنابة.

(١) انظر ما ذكره هريسورون بندوباداي: بنغيي شبدكوش ص(٤٢٥).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٤٢).

(٣) شاد، والتي تعني: الجلوس^(١).

والثالث: إن كلمة «أوبانيشاد» عبارة عن كلمتين، هما:

(١) يوپا: وتعني: القرب.

(٢) شاد: وتعني: الجلوس^(٢).

وعلى هذا تكون معنى الكلمة: الجلوس بالقرب^(٣).

معنى أوبانيشاد في اصطلاح الهندوس:

أما إطلاق أوبانيشاد في مصطلحهم: فقد اختلفوا على أقوال:

١- هو العلم الذي يأخذه الطالب من أستاذه بجلسته الخاصة، أي على الانفراد في الغابة^(٤).

٢- هو العلم الذي يذهب له الطالب إلى الأستاذ بكيفية خاصة، ليأخذ منه علم برهمان^(٥).

٣- هو العلم الذي يوصل الطالب حتمًا ويجعله مثل برهمان^(٦).

٤- هو العلم الذي يهدم جميع أنواع الجهل هدمًا ويذهب بالطالب إلى جناب برهمان^(٧)؛ فإن من معاني «شاد»: الذي يهدم ويفني^(٨).

(١) انظر ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص(١٩)، وما ذكره دلال بهوميك: مقدمة

سببت برهمانا ص(٩)، وانظر ما ذكره أمل كُومار بندوباداي: بُورتيكا (١/٢٢٧).

(٢) انظر ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (٣/١/٤٣).

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص(١٩).

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق، و انظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتية درشن (٣/٥٠).

(٧) انظر ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص(٢٠).

(٨) انظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتية درشن (٣/٥٠).

٥- هو الجالس في نهاية الفيد وجانبه^(١).

٦- يقول دويسون «معنى الأوبانيشادات: «المعلومات الغامضة السرية»، وعلى رأيه لا يمكن أن يفشو هذا العلم لغموضه وسريته إلا بجلوس الطالب مع أستاذه، فلجلوسه مع الأستاذ وتعلمه لهذا العلم سمي هذا العلم بـ«أوبانيشاد»^(٢).

٧- أما ماكس مولار فيقول: كان الأوبانيشاد تطلق في البداية على حفلة يجلس التلاميذ فيها حول الأستاذ في حلقة يتعد التلميذ فيها عن الأستاذ بخط فاصل احتراماً له، وبما أن التلاميذ يتعلمون هذا العلم بالجلوس مع الأستاذ عرف هذا العلم بـ«الأوبانيشاد»^(٣).

٨- ويقول «باسو ديو شرما»: «أوبا» معناه: المستفاد من الأستاذ، «ني» معناه: العلم الحقيقي، «شاد» معناه: الذي يقطع الربط بين الحياة والموت (فيصبح الحياة والموت سواسية)، وعلى هذا معنى أوبانيشاد: العلم الحقيقي الذي يؤخذ من الشيخ والذي يقطع الرابط بين الحياة والموت فلا يخاف من الموت ولا يفرح بالحياة.

وبعد استعراضنا لأقوال المعنيين في الأوبانيشاد يمكننا أن نستخلص معنى عامًا من ذلك وهو أنه العلم الذي يحصل من خلال تعامل التلميذ مع الأستاذ، إلا أنا نجد في الأوبانيشادات ما هو خارج عن ذلك فإن بعض الحوار ليس خاصًا فيما بين التلميذ

(١) انظر ما ذكره فراغ رنجن ستروباداي: فيد فوريسوي ص(١٩)، وانظر المصدر السابق ص(٥٠-٥١)، حيث ذكر هذه المعاني عن عدة من كبار المعنيين بهذه الديانة من رادها كرشان، و شكر أجاريا وغيرهما.

(٢) Deussen. Philosophy of Upanishads p. 14, 15

(٣) Maxmuller. Sacred book of the East, Introduction vol. 1 p. ixxx.

وانظر أيضًا ما ذكره محمد جابر عبد العال الحيني: في العقائد والأديان، الديانات الكبرى المعاصرة، (١٠٦-١٠٩).

والأستاذ، فلو نظرنا إلى الأوبانيشادة التي تسمى بـ «بريهدارنك أوبانيشاد» (والتي تعني: أوبانيشاد الغابة الكبرى) فإن الفصل الثاني والثالث نجد الحوار فيه كان في محفل عام مفتوح، فعلى هذا لا نستطيع أن نقبل كامل ما قاله ماكس مولار ودويسون^(١).

وأما ما قاله «باسو ديو شرما» بأن المحور الرئيسي في الأوبانيشادات «قطع الروابط بين الحياة والموت» فهذا مما اصطنعه هو؛ لأن فكرة التناسخ وكارما تولد الرعب والخوف عندهم، وهذه العقيدة لم تكن موجودة في عصر الأوبانيشادات، بل كانوا ينظرون إلى الحياة نظرة تمتع ونظرة بناء، ولهذا كانوا يرون العالم مليئاً بالحياة الزاهرة المنعمة ويسمونها بـ «أنند روپم»^(٢) والتي تعني: بيت السعادة والسرور والفرح. وإذا كانت الحياة عندهم مزينة بهذه الكيفية فإن فكرة قطع الرابط بين الحياة والموت لا تتأتى في مثل هذا الحال، ولهذا نرى أن كلام «باسوديو شرما» غير صحيح.

٩- ويقول الدكتور أحمد شلبي: «هي الأسرار والمشاهدات النفسية للعرفاء ... وتدون ... إرشاداً للربان والمتنسين الذين مالوا إلى باطن الحياة وتركوا ظاهرها، وتمثل الأوبانيشادات مذهب الروح الذي هو المرتبة العليا في سلسلة الارتقاء الديني»^(٣)

١٠- وقيل: هي المذهب الغامض الملغز الذي كان يسره المعلم إلى خيرة تلاميذه وأحبهم إليه^(٤).

تدوين الأوبانيشادات ومدونها:

أما مدونو الأوبانيشادات فكما يقول ول ديورانت: إننا نعلم بعض أسماء مؤلفي

(١) انظر ما ذكره الدكتور هيرونومي بندوباداي في مقدمة ريگفيد ص (٢٢)، مقالة بعنوان: ريگفيدريسيوي.

(٢) مُنْدُك أوبانيشاد (٧/٢/٢).

(٣) أديان الهند الكبرى ص (٤٨).

(٤) انظر: قصة الحضارة (٣/١/٤٣-٤٤)، وراجع أيضاً ما ذكره جوزيف كاي: حكمة الأديان الحية، ص (١١٢).

هذه الأسفار ولكننا لا نعلم من حياتهم شيئاً إلا ما يكشفون لنا عنه حيناً بعد حين في ثنايا تعاليمهم^(١)، فنحن نعلم أسماء بعضها، إلا أن الأغلبية الساحقة من هذه الأوبانيشادات جمع لآراء فلاسفة متعددة من الهندوس، لا نعرف عنهم ولا عن حياتهم إلا شيئاً يسيراً^(٢).

أما بالنسبة لزمن تدوين هذه الأوبانيشادات فقد اختلفوا في تحديد ذلك على أقوال:

يقول أحد الهندوس: ولما كان كتاب «غيتا» يشتمل على خلاصة الأوبانيشادات، وكتاب غيتا جزء من مهابهارت، ومهابهارت تم تدوينه من ٣٠٠٠ إلى ٦٠٠ سنة؛ فإن أغلب الأوبانيشادات ألفت قبل ٦٠٠ سنة لا محالة^(٣).

يقول الدكتور علي زيعور: «من الصعب تحديد تأريخ وضع كتب الأوبانيشادات، هناك شبه اتفاق على أن أقدمها ربما يعود إلى ما بين الـ ١٠٠٠ والـ ٥٠٠ ق.م^(٤)؛ هي نصوص نثرية، تبلغ المائتين تقريباً، تأخر تدوينها، فلم تكتب إلا بعد قرون عدة للميلاد، قبلها كانت تعلم مشافهة»^(٥).

ويقول الدكتور أحمد شلبي: قد وضعت الأوبانيشادات في المدة من ٨٠٠ إلى ٦٠٠ ق.م^(٦).

(١) المصدر السابق (٣/ ١/ ٤٤).

(٢) تحدث الدكتور راهول سنكريتيان: في كتابه: درشن ديكدرشن في الجزء الثاني (باللغة البنغالية مترجماً من الهندية)، عن بعض هؤلاء الفلاسفة ولكنه مع ذلك رجح التخمين في النهاية.

(٣) انظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتبي درشن (٣/ ٥٢)، وهذا القول ليس بشيء؛ إذ زمن مهابهارت غير متفق عليه، ثم إن غيتا عند كثير من الهندوس مما أدرج في مهابهارت، فلا دليل على هذا القول.

(٤) هذا القول قال به جان فيليوزات أيضاً: فلسفات الهند ص (١٣).

(٥) علي زيعور: الفلسفات الهندية ص (١٢٠).

(٦) انظر ما ذكره أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص (٤٨)، وانظر كذلك

ويقول ول ديورانت: «ألفها كثير من ... الحكماء بين عامي ٨٠٠ و ٥٠٠ قبل الميلاد»^(١).

وقيل: بين سنة ٦٠٠ وسنة ٣٠٠ ق.م.^(٢).

والصحيح: إن هذه الكتب كلها كتبت بعد «ريگ فید»^(٣) وأما بالنسبة لبقية الفيدات فلاشك في كون بعض هذه الأوبانيشادات وضعت قبل وجود بعض هذه الفيدات، إلا أن معظم الأوبانيشادات وضعت بعد الفيدات، واستمرت كتابته إلى ما بعد المسيح عيسى عليه السلام، وقد كتب بعضها في العهد الإسلامي في الهند، وبالتحديد في عهد الدولة المغولية، واستمرت الكتابة إلى عهد الاستعمار البريطاني أيضاً.

يقول الدكتور عبد السلام رامپوري: الأوبانيشادات ... أهمها وأقدمها العشر التي شرحها المفكر الهندوسي الشهير شنكرأجاريّا، ويبدأ تحريرها من القرن السادس قبل المسيح وينتهي بالقرن الرابع أو الخامس عشر المسيحي، والبعض من هذه الرسائل منشورة والباقية منظومة، والمنشورات أقدمها عصرًا ... بعض الأوبانيشادات يلمح فيها آثار لمذاهب فكرية قد نشأت في القرون المتأخرة^(٤).

ويقول الأعظمي: «حقيقة هذه الكتب لا تزال يكتنفها الغموض والظلمات التاريخية. فلا يعرف مؤلفها ولا عهد تأليفها، حتى قيل: إن من جملة هذه الكتب كتاباً اسمه «الله أوبانيشاد» وهو يتحدث عن الألوهية في الإسلام، وكان تأليفه في عهد

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة (٣ / ١ / ٤)، وقد قال بهذا القول جون كولر: الفكر الشرقي القديم ص (٤٤)، و Sir Charles Eliot, Hinduism and Buddhism p.51.

(٢) قال بهذا، فيلسيان شالي: موجز تاريخ الأديان ص (٧٤).

(٣) إلا ما يُذكر من أن الجزء الأول والجزء العاشر من ريگفید مما ألحق به في زمن متأخر. فهذان البابان - على صحة القول بكونهما مقحمة - ربما تأخر وجودهما بعد وجود بعض الأوبانيشادات.

(٤) انظر ما ذكره عبد السلام رامپوري: فلسفة الهند القديمة ، ص (١٧)، مجلة ثقافة الهند - مارس - ١٩٥٣ م.

إمبراطور الهند جلال الدين أكبر^(١)»^(٢).

دواعي كتابة الأوبانيشادات:

اختلفت وجهات نظر الدارسين تجاه دواعي كتابة هذه الأوبانيشادات، والسبب في ذلك عدم وضوح جانب معين في هذه الأوبانيشادات لكونها أفكارًا لفلاسفة متعددة، ولكل منهم وجهته في ذلك، وفيما يلي عرض لأشهر هذه الأقوال:

الأول: إن هذه الأوبانيشادات ما هي إلا من وضع الرهبان الهندوس الذين وقفوا ضد سيطرة البراهمة.

ويقول الدكتور محمد مرسي أبو الليل: أما الأوبانيشاد فهي ... قد وضعت في عصر ساد فيه الاضطراب الديني وفسدت فيها العقائد ...، وقام أناس كثيرون يطالبون تعديل الثييدات، ووضع فلسفة دينية جديدة^(٣).

ويقول الدكتور عبد السلام الرامبوري: وبالأوبانيشادات اكتمل فتح الداخلية الأرنيكية على الرسمية البرهمية، وتم رد الفعل، فألغيت الأدعية والأناشيد ونسخت القرابين والندور، حتى الثييدات وآلهتها، ورقت الفكرة، فالتمثلات الخارجية العالمية

(١) هو إمبراطور الهند المغولي (١٥٥٦-١٦٠٥م)، ولد سنة ١٥٤٢م، وهو حفيد بابر، أعظم الأباطرة المغول وأقدرهم، اسمه الأصلي: جلال الدين، ولقب بالأكبر لما قام به من جلائل الأعمال، ولد وكان والده يلوذ بالفرار من دلهي إلى فارس، استعاد (أبوه همايون) عرشه (١٥٥٥م)، ولكنه توفي في نفس العام، كانت معظم أقاليم الإمبراطورية خارجة عليه، فأعاد وزير أكبر «بهرام» (أو بيرام)، سلطته عليها، قبض أكبر على مقاليد الأمور عند بلوغه سن الرشد (١٥٦٠م)، وأمكنه بشن حروب متواصلة أن يوسع رقعة إمبراطوريته، فشملت أفغانستان وبلوجستان، ومعظم الأراضي الواقعة شمال وسط الهند، ولم يكن تمسكه بالإسلام بتلك الدرجة، فأعلن سنة ١٥٨٢م دينًا اسماء «الدين الإلهي» حيث خلط بين الإسلام والهندوسية وما ارتآه من الآراء الباطلة زينها له الشيطان. انظر ما جاء في الموسوعة العربية الميسرة (١/ ١٨٧).

وله ترجمة مطولة عند عبد الحي الحسني: نزهة الخواطر (٢/ ٤٩٣) برقم (١٠٣).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٤٢).

(٣) انظر ما ذكره أبو الليل، محمد مرسي، الهند تاريخه وتقاليدها وجغرافيتها ص (٥٢).

الأرنيكية للقرابين البرهمية قد تحولت بالمراقبات على التمثلات الداخلية النفسية ، وأخذ العرفان مكان القرбан، ولكنها لم تتخلص من التصور الأرنيكى تخلصاً تاماً ، فطابع العبادات الأرنيكية باقٍ في التصورات الأوبانيشادية واستغراقاتها ومراقباتها^(١).

القول الثاني: إن أسفار الأوبانيشادات هي أسفار تفسيرية للقيادات^(٢)، وعلى هذا لم تكن هذه الأوبانيشادات من ردّة فعل ضد سلطة البراهمة، ولم تكن خروجاً عن تعاليم القيادات، بل هي شروح وتعليقات على تعاليم القيادات.

يقول أحدهم: إن القيادات الأربع أثرت شروحاً وحواشي قام بها براهمة، وأن تلك الحواشي والشروح صارت بعد زمن جزءاً مكملًا لهذه القيادات الأربع، وأنها إلى جانب ذلك شروح لشعائر دينية تضمنتها هذه القيادات، ثم هذه الشروح البرهمية تحولت إلى أوبانيشادات أو رسائل فلسفية^(٣).

والذي يترجح لديّ: أن بعض هذه الأوبانيشادات شروح للقيادات، ولكنها شروح زاد فيها أصحابها على الأصول، فقد جاءت بتعاليم غير موجودة في العصور السابقة، وجاءت بطقوس وعقائد جديدة معقدة على الديانة القيدية البسيطة للغاية، كما كان هناك من الأوبانيشادات ما لا تعتبر من شروح القيادات، ولا تمت إليها بصلة، بل يتضح منها أنها ضد سيطرة طبقة البراهمة وضد تقديم القرابين^(٤).

يقول الدكتور محمد عثمان الخشت: وصف الأوبانيشادات بأنها شروح وتفسيرات لتعاليم القيادات ليس وصفاً دقيقاً؛ فهي ذات طابع خاص ويمكن النظر إليها بوصفها إلى حدّ ما العهد الجديد بالنسبة للقيادات العهد القديم؛ حيث إنها الأجزاء الختامية

(١) انظر ما ذكره عبد السلام الرامبوري: فلسفة الهند القديمة ، ص (١٨)، مجلة ثقافة الهند - مارس ١٩٥٣.

(٢) انظر ما ذكره الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٤٢).

(٣) انظر ما ذكره محمد جابر عبد العال الحيني: في العقائد والأديان، الديانات الكبرى المعاصرة، (١٠٦-١٠٩).

(٤) انظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتىي درشن (٣/ ٥٣-٥٦).

للقيدات، وأساس فلسفة قيدانت^(١).

عدد الأوبانشادات:

اختلفت الآراء في تعداد هذه الأوبانشادات:

فقيل: يوجد من هذه الأوبانشادات مائتان وخمسون أوبانشادة أو أكثر^(٢).

وقيل: يبلغ عدد هذه الكتب ما يقارب ثمانية ومائة كتاب حسب ما ذكر في فهرس مكتبة «آديار» (ADYAR LIBRARY) في مدراس، وقامت هذه المكتبة بنشر واحد وسبعين كتابا باسم «أوبانشاد». وبذلك بلغ عدد «أوبانشاد» مائة وتسعة وسبعين كتابا، وطبع في مدينة «بريلي» مائة وثمانية كتاب بتعليق أحد علمائهم «پندت شري رام شرما» وقسمه إلى ثلاثة أقسام:

- ١ - كيان كهاند - أي باب العلم.
- ٢ - برهمان فيديا كهاند - أي: باب علم برهمان.
- ٣ - سادھنا كهاند - أي باب علم المجاهدات أو اليوجا^(٣).

ثم إن الأوبانشادات تنقسم رئيساً كما يلي:

أولاً: الأوبانشادات الفيدية، وهي اثنتي عشرة أوبانشادة.

١ - إيش واشيا (ISHAVASYA)

٢ - كينا. (KEN)

٣ - كآته. (KATH)

٤ - برشنا. (PRASHNA)

(١) راجع كتابه: مقارنة الأديان، الفيدية، البرهمانية، الهندوسية ص (٨٥)، و انظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتية درشن (٣/ ٥٣-٥٥)، حيث حدد الفروق بين فلسفتي الأوبانشادات والقيدات بدقة متناهية.

(٢) انظر مقدمة مجموعة الأوبانشادات الفيدية، لمجموعة من المؤلفين الهندوس.

(٣) انظر ما ذكره الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٤٣).

٥- مُنْدُك. (MUNDUKYA)

٦- مَانْدُوكَا. (MANDUKYA)

٧- أَيْطَرِيَا. (ETREY)

٨- تَائِيْطَرِيَا. (TETEREY)

٩- شَانْدُوِيْغَا. (CHANDOYGGA)

١٠- بَرِيْهْدَارَنَّا. (BRIHDARYAKA)

١١- كُوشِيْطِكِي. (KOSHTAKI)

١٢- شَفْتَشْفَتْرَا. (SHWETASHWATER)

وهناك من يزيد معها أيضاً:

ميترى أوبانيشاد^(١). وبهذا تصبح الأوبانيشادات الفيدية ثلاث عشرة أوبانيشادة،

وبعضهم يضمها إلى التي بعدها.

ثانياً: الأوبانيشادات السمانايو فيدانتا ، وهي ثلاث وعشرون أوبانيشادة.

ثالثاً: الأوبانيشادات اليوغية ، وهي عشرون يوبانيشادة.

رابعاً: الأوبانيشادات الشنّاشا، وهي سبع عشرة أوبانيشادة.

خامساً: الأوبانيشادات الفِشْنُوِيَّة ، وهي أربع عشرة أوبانيشادة .

سادساً: الأوبانيشادات الشينْقُوِيَّة ، وهي أربع عشرة أوبانيشادة.

سابعاً: الأوبانيشادات الشاكْتِيَا (التنّرية) ، وهي ثمان أوبانيشادات.

فهذه مجموع الأوبانيشادات التي يذكرونها، وقد بلغ عددها ١٠٨ أوبانيشادات.

وهناك أوبانيشادات أخرى جاءت متأخرة جداً عنها غير مدرجة في هذه الأقسام.

والسبب في هذا الاختلاف: - كما سبق معنا - اختلافهم في المقبول منها وغير

المقبول، كما أن خمسين من هذه الأوبانيشادات ذات أهمية خاصة عندهم، وتتميز على

غيرها بأنها قديمة، وهي التي لا يشكون في كتابتها قبل المسيح عليه السلام . ولها اعتبار

(١) راجع مقدمة كتاب الأوبانيشاد ص (١٢) مقدمة.

أدبي بالنسبة لهم، وإن كان لا يرقى إلى درجة الأوبانشاد التي تعود إلى الشيدات، وهي المقبولة باتفاق بينهم.

وإن من الملاحظ: أن كتابة أوبانشادة جديدة ليست من الأمور المستنكرة لدى كثير منهم، فإن ديندرانات طاغور^(١) ألف أوبانشادة جديدة سنة ١٨٤٨م وسماها الأوبانشادة البرهمية، كما ألف غيره من رجال الدين أوبانشادات فيما بين سنة ٤٠٠م وسنة ١٢٠٠م ليربطوا فرقهم بالشيدات.

وقد بين بعض الهندوس المعاصرين سبب كثرة الأوبانشادات فقال: إن منزلة الأوبانشادات كانت عالية جدًا في الزمان القديم، وعلى هذا كثير من الأفكار الفلسفية فيما بعد نسب إلى الأوبانشادات حرصًا من أصحاب هذه الأفكار أن يضاف عليها القداسة مثل تلك، فانظر إلى «موكتيك أوبانشاد» تجد فيه ذكر ١٠٨ أوبانشادات، وتجد في المجموعة الأوبانشادية التي طبعت من مطبعة «نيرني شاغر» ١١٢ أوبانشادًا، وفي الطبعة الثانية لهذه المجموعة وصلت عدد الأوبانشادات فيها إلى ١٢٠ أوبانشادًا، أغلب هذه الأوبانشادات ألّفت في الأزمان المتأخرة، ولهذا اضطررنا أن نفرق بين الأوبانشادات المتعلقة بالعصر القيدي، وبين ما ألف في العصور المتأخرة^(٢).

(١) هو ديندرانات طاغور ولد سنة ١٨١٧م، وتوفي سنة ١٩٠٥م، كان ينتمي إلى عائلة برهمانية من البنغال، وقد واصل عمل رام موهون روي الذي أسس برهما سماج، ونظمه وأعد هذه الجمعية لنوع من المجاهرة بالمعتقد سنة ١٨٤٣م، وكان من أقواله: (إن الإله الأعلى مبدأ العالم، هو في الوقت نفسه شخصية أخلاقية، إنه لا يتجسد أبدًا، إنه يسمع ويجب الدعوات الإنسانية، وهو لا يتطلب أية عبادة بل يريد أن يكون معبودًا بالفكر، بالتوبة وهجر الخطيئة يستطيع الناس أن يجدوا الغفران والخلاص، يتجلى الله مباشرة في الطبيعة، ليس من كتاب مقدس له قوة القانون)، وكان ينكر عبادة الأصنام بشدة، ولا يأخذ الأوبانشادات على أنها موحى من برهمان، ولكنه يرى فيها منبعًا للحقيقة العليا. انظر ما ذكره ألبير شويتزر: فكر الهند ص (١٨١)، وانظر أيضًا ما ذكر في مقدمة ترجمة الأوبانشادات إلى البنغالية، كما ينظر أيضًا كتاب: هندو دهرم كي جديد شخصيتين (بالأردية) ص (١٠-١١).

(٢) انظر: مقدمة ريغفيد ص (٢٢) (بالبنغالية).

والإضافة إلى الأوبانيشادة كان يعارضه براهمة متعصبون، فكانوا يرون هذه الأوبانيشادات المضافة غير شرعية، وأن الأوبانيشادات الشرعية هي المنسوبة إلى القديسات قديماً^(١).

يقول أحد الهندوس المعاصرين في مقدمة كتاب ريگ قيد: إن الأوبانيشادات ألقت في البداية اعتماداً على القديسات، ولكن مع مرور الزمن تغير هذا المجرى إلى شيء آخر، فقد وجدت أوبانيشادات مستقلة لا علاقة لها بالقديسات، فهذه الأوبانيشادات لا نستطيع أن نجعلها مع القديسات في نفس الصف^(٢).

المقبول من الأوبانيشادات:

إن الهندوس ليس لهم موقف ثابت في هذا الباب، فترى فريقاً يقبل بعض الأوبانيشادات، بينما ترى فريقاً آخر ينكرها، ولكن ما اتفق عليه أغلب الهندوس هي: الأوبانيشادات القيدية، وقد سبق بيانها، وفيما يلي ذكرها مع ذكر ما ينسب إليها من الكتب القيدية، وذلك اعتماداً على تعليق «شنكرأجاريا»^(٣). وقد قام بتفسير هذه الأوبانيشادات كل من «شنكرأجاريا»^(٤) و «رامانج»^(٥).

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني في كتابه: في العقائد والأديان، الديانات الكبرى المعاصرة ص(١٠٦-١٠٧).

(٢) انظر مقدمة ريگقيد ص(٢٢).

(٣) راجع ما ذكره عبد السلام الرامبوري: فلسفة الهند القديمة ص(١٧)، مجلة ثقافة الهند - مارس - ١٩٥٣.

(٤) هو شنكرأجاريا، وكان في القرن الثامن الميلادي، برهمنياً دراويدياً، من كالادي، في كيرالا، ساح في الهند حتى كشمير، وقد أسس أديرة كثيرة في عدة أماكن من الهند، شرح برهما سوترا بهاشيا شرحاً فريداً اشتهر به، وقد أحدثت كتابات شنكرأجاريا دويّاً في الأوساط الهندوسية. وسيأتي بقية الكلام عليه عند الكلام على فلسفة قيدانت. انظر ما ذكره جان فيليوزات: فلسفات الهند ص(٥٢-٥٣).

(٥) هو رامانج ولد سنة (١٠٢٧م)، في القرن الحادي عشر، وكان برهمنياً تامولياً، من سترى برمودور، وكان يتعبد في قِشْنُو بشكل «فاراداراجا» أي بشكل الملك الذي يعطي نعامه، درس أدفيتا في منطقة تسمى كانسيبورام، ثم خالف أستاذه، وجاء بنظرية تقول: بالإله المتعالي

و«نيمبارك»^(١) و«مادهف أجاريا»^(٢) و«بلاّب»^(٣) وغيرهم كل حسب أصوله

= المتوحد تقوم نظرية تعطي للعالم حقيقة غير خيالية، وترى الواحدانية «أدفيتا» ماثلة في الخاص (فيسشتا) أي: في كل كائن وفي كل شيء. ولهذا تسمى نظريته بنظرية: فيسشتا أدفيتا، أو الواحدة المشروطة، أو الواحدة الخاصة. انظر ما ذكره جان فيليوزات: فلسفات الهند ص (٥٥)، وانظر ما ذكره راهول سنكريتايان: درشن ديكدرشن ص (١٦٢) (البنغالية).

(١) هو نيمبارك (NIMBARK)، لا يعرف عنه إلا أنه كان برهمنياً من أندھرا، وبيشنويا، في القرن الثاني عشر الميلادي، وهو الذي يرى الوحدة في اثنين، والاثنين في الوحدة.

يعني: أن الأرواح (جيفا) تتميز عن البرهمن ولا تختلف عنه، كموج البحر الذي يبرز فيه دون أن يختلف عنه وهذه النظرية تسمى بـ «بهيدا بهيد» أيضاً.

وقد أقام في المكان المقدس لديهم «كريشتايت في برنابان، وزعم أن التمييز (بهيد) بين الأرواح (جيفا) وبين البرهمن، وتفردا عنه، لا يقتضي استقلالها عنه؛ لأن تشابه (لا بهيد) جوهرها الأساسي يتركها تحت رحمته، كما أن شعاع الشمس وإن افرق عنها يبقى متعلقاً بها بحكم منطلقه منها.

يقول جان فيليوزات: وتعتبر فلسفة نيمبارك من أشكال الفيدانت التي شاعت معرفتها لدى المفكرين المسلمين الذين حاولوا التقريب بين الصوفية وفيدانت، ومنهم الأمير المغولي: دارا شيكوه (١٦١٥م - ١٦٥٩م)، الذي سلبه عرشه وحياته بعد أن ألف مجمع البحار. انظر ما ذكره جان فيليوزات: فلسفات الهند ص (٥٨-٥٩).

(٢) هو مادهفا أجاريا، ولد سنة ١١٩٩م (٥٩٥هـ)، وتوفي سنة ١٢٨٧م (٦٨٥هـ)، فيلسوف هندي، ترك شروحات سنسكريتية على الكتابات المقدسة الهندوسية توحى بالثنائية، تبعها الكثيرون في عصره. انظر ما ذكره الأستاذ روني إيلي ألفا: موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب (٤٥٣/٢). ويقول جان فيليوزات: كان برهمنياً من أوديسي، في ميسور، وقد رفض، تعاليم المعلم الأول شنكر أجاريا والتي تعيد كل شيء إلى الكائن الواحد، المتوحد وراء التعددية الوهمية، فقال مادهف أجاريا: إن هناك فرقاً بيناً بين طبيعة الكائن الأسمى الأوحده، «فشُنُو» والكون. كتب شرحه الخاص عن بهاغافاد غيتا، وذهب يعتزل في هملايا، وعاد ومعه شرحه حول برهما سوترا. وكان يرى نفسه تجسيداً للإله فايو (الهواء) والذي ورد ذكره في الفيدانت، وكان يرى أن أبطال الملحمة الكبرى مهابهارت هم أبناء الآلهة وهم تجسيد جزئي لها، أما في العالم المميز، عالم الكائن الأسمى، فيوجد خمسة فروق (بهيد): يعني بين النفس الفردية (جيفا) والإله، وبين الجامد (جدا) والإله، وبين الأرواح المختلفة، وبين الجماد والروح، وبين الأشياء الجمادية المختلفة. انظر ما ذكره جان فيليوزات: فلسفات الهند ص (٥٩-٦٢).

(٣) هو بلاّب، أو فلاّبها، ولد سنة ١٤٨١م، وتوفي سنة ١٥٣٣م، وهو برهمني، يعود بأصله =

ونظرياته^(١)، فالأوبانيشادات التي لم يعلق عليها شنكرأجاريا، أو لم ينقل عنها، أو لم يذكرها ضمن بعض تعليقاته لا يقبلونها، وهناك من يزيد معها كتابًا أو كتابين فيكون مجموع ما يعترفون بها أربع عشرة أوبانيشادة، بعضها منشور وبعضها منظوم.

فالمقبول من الأوبانيشادات والفيديات التي تنسب إليها كما هو موضح في الجدول الآتي:

ريگ فید	* كوشيتكي آرنتك * أثيطريا أوبانيشاد
ياجور فید [الأسود]	* تائيطريا أوبانيشاد * كآئه أوبانيشاد * شيتاشتر أوبانيشاد * ميتري أوبانيشاد

إلى أندھرا، وقد عاش في الأماكن المقدسة الكريشنائية، وعلم وحدانية البرھمان النقي، غير المتلوث بالمايا (الوهم)، وترى أصحاب هذه المدرسة: أن عالم الجماد والنفس الفردية حقيقتان، وهما جزء من البرھمان الذي هو بشكله الظاهري، كريشنا، ويرى أن النفس بل الكائن الحي المسمى عندهم بـ«جيفا» هو بالنسبة إلى البرھمان ما تشكله الشرارة بالنسبة إلى النار، والبرھمان له حجم الذرة (أنو) والنفس (الجيفا) توجد إذاً في جوهر كل خلود، حالهما كحال البرھمان، ولكنها من الناحية التجريبية، مظهر لهذا الجوهر ولكنه مظهر (أفیربهافا) محدود. ويمكن للنفس البشرية أن تكون نقيّة عندما لا تضطرب طبيعة وجوده وروحانيته، وسعادته بالجهل (أفیديا)، وهو يدخل عالم التناسخ، عندما يصاب بالجهل، ولا ينقذه منه إلا العلم، ويسمى هذه النظرية بـ«سودھاديتا» أو الواحدة النقية، وأهم كتب «فلابھا»: يسمى برھما سوترا أنو بهاشيا، أو «أنو بهاشيا» (الكلام على النفس الذرية).

انظر ما ذكره جان فيليوزات: فلسفات الهند ص(٥٩).

(١) قاموس الھندوس (ص١١٧)، نقلاً عما ذكره الدكتور الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الھند ص(٥٤٤).

* إيشا أوبانيشاد * بُريَهْدَ آرَنَكُ أوبانيشاد	ياجور فيد [الأبيض]
* شانديغا أوبانيشاد * كينا أوبانيشاد	سام فيد
* مُنْدُكُ أوبانيشاد * ماندويكا أوبانيشاد * برسنا أوبانيشاد	أثاربا فيد
جميع الأوبانيشادات المتأخرة ^(١)	

وقد قسم بعض الباحثين^(٢) هذه الأوبانيشادات الفيدية إلى أربعة أقسام حسب الزمن التاريخي، والجدول التالي يوضح ذلك:

* إيشا أوبانيشاد * شانديغا أوبانيشاد * بُريَهْدَ آرَنَكُ أوبانيشاد	أقدم الأوبانيشادات ٧٠٠ ق.م.
* تيتريا أوبانيشاد * آيتريا أوبانيشاد	أوبانيشادات الزمان التالي ٦٠٠-٥٠٠ ق.م.
* برشنا أوبانيشاد * كينا أوبانيشاد * كَاثَه أوبانيشاد * مندك أوبانيشاد * ماندويكا أوبانيشاد	أوبانيشادات الزمان الثالث ٥٠٠-٤٠٠ ق.م.

- (١) عبارة عن مجموعة من الأوبانيشادات، وليست كلها مقبولة لدى الهندوس وإنما ذكرتها لكي يتضح موقعها وتعلقها بأي فيد عندهم بالنسبة للذين يقبلونها.
- (٢) انظر ما ذكره راهول سنكريتيان: درشن ديكدرشن ص(١٦).

* كوشيتكي أوبانشاد * مايتريي أوبانشاد * شفتشفترا أوبانشاد	أوبانشادات الزمان الرابع ٢٠٠-١٠٠ ق.م
--	--

محتويات الأوبانشادات:

أما بالنسبة لمحتويات الأوبانشادات: فهي ليست متحدة في موضوعاتها ولا متوافقة في أساليبها، لا تقدم رأياً واحداً، ولا تستند إلى معتقد واحد، بل هي مرجل لآراء متخالفة، ومشاهدات متناقضة، إلا أنها تبحث عن العلة لهذا العالم المحسوس ومادته الأولى، فهذا البحث هو الجامع بين الرسائل، والأوبانشادات تهيج تأريخاً لهذا البحث وطرقه ونتائجه، وكل منها رسالة مستقلة برأسها، إلا أن كلها تبحث عن ذات واحد كمصدر لجميع قوى العالم^(١).

والأوبانشادات القديمة تتوافق في أنها تبحث عن اتحاد الروح الشخصي الصغير بالروح العالمي الكبير، والاعتقاد بأنه هو إله العالم وإله الآلهة، أما التفاصيل فتختلف هذه الرسائل فيها، بل ربما تختلف مشمولات رسالة واحدة، ففيها لكل فكر أصل ولكل رأي مستند، وإذ البيان مبهم غير واضح، فمن زاعم أنها تمثل عن التصورية، ومن قائل إنها تعرض المادية، ومن معتقد أنها تشرح عن وحدة الوجود، ومن ناظر إلى أنها تؤيد الثنوية، فكل يردّها إلى ما لديه من المعتقد، فيتمسك بما يوافق معتقده ويؤول أو يترك ما يناقضه، فاختلقت التعبيرات وتناقضت التشريحات، ولو غص البصر عن التفاصيل وتسومح عن الجزئيات فعماد الأوبانشادات القديمة هو وحدة الوجود، وهذا هو أوفق التعبيرات بروحها وأشهرها حتى يقال لهذه الأوبانشادات «فيدانت» (Vedanta)، أي خواتم الفيدانت أو الأوبانشادات لهذا التعبير فقط^(٢).

(١) انظر ما ذكره غلي زيغور: الفلسفة في الهند ص(١٢٨-١٢٩)، وانظر المصدر الآتي ذكره.

(٢) انظر ما ذكره عبد السلام الرامبوري: فلسفة الهند القديمة ص(١٧). مجلة ثقافة الهند ،

مارس - ١٩٥٣ م. وانظر أيضاً ما ذكره راهول سنكريتيان: درشن، ديكدرشن ص(١٦).

إن هذه الأوبانيشادات جميعاً - أو الأغلبية العظمى منها - منقولات مدرسية (ashramas) غالباً ما تلقن للطلاب شفويًا، وتحتفظ كل مدرسة بمجموعة منها، في صورة مذكرات تعين على حفظها، أو في صورة تراويل للطقوس الدينية أو في صورة حوار، ولهذا يلاحظ على هذه الأوبانيشادات بأنها لا تحتوي على مذهب فلسفي متسق الأجزاء، بل تحتوي على آراء وأفكار لرجال عدة، كانت الفلسفة والدين عندهم ما يزالان موضوعاً واحداً، وقد حاول أولئك الرجال بهذه الآراء أن يفهموا الحقيقة البسيطة الجوهرية التي تكمن وراء كثرة الأشياء الظاهرة، ويطبّقوا ما فهموا من ذلك، وهذه الأسفار كذلك مليئة بالسخافات والمتناقضات^(١). وأحياناً أخرى تعرض عليك ما قد تظنه أعمق ما ورد في تاريخ الفلسفة من ضروب التفكير^(٢).

ويقول الأعظمي - وهو يتحدث عن موضوع الأوبانيشادات -: فيها علوم وتجارب الرهبان والنسك من الهنادك الذين مارسوا حياة الرهبانية، واتخذوا الغابات والجبال الشامخات مقراً للرياضة لكشف أسرار الكون، والتغلب على حقيقة الموت، ليحصل لهم السرور السرمدى بعد هذه الحياة^(٣).

وجدير بالذكر أن من يحاول أن يستخلص مذهباً فلسفياً تام المعالم من هذه الأوبانيشادات لن يجد بغيته، ذلك لأنه سيلاحظ أن الآراء الفلسفية التي تتضمنها الأوبانيشادات غالباً ما تكون آراء منقولة عن المدارس المختلفة، وأن آراء كل مدرسة تنسب إلى حكيم ربما ذكر اسمه في الأوبانيشادة، ومن ثم فهذه الآراء الفلسفية لا تكون وحدة واحدة أو مذهب فضلاً عن أن توافق الآراء أدى إلى التكرار، والدراسة العميقة تؤدي بوضوح إلى أنها بداية فلسفات متعددة في المواضيع التي عالجتها، ومن الواضح أن المفكرين والشرّاح والمتأخرين هم الذين طوروا آراء المدارس القديمة، وحاولوا أن يؤلفوا من بينها مذهباً واحداً^(٤).

(١) راجع ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (٣/ ١/ ٤٣-٤٤).

(٢) انظر: المصدر السابق ص(٤٤).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٤٣).

(٤) انظر ما ذكره محمد جابر عبد العال الحيني: في العقائد والأديان، ص(١٠٨-١٠٩).

أهم الموضوعات في الأوبانشادات:

إن الأوبانشادات كما سبق معنا تطرقت إلى مواضيع كثيرة جدًا، وهي في الغالب مواضيع فلسفية، إن موضوعات الأوبانشادات: تدور حول «الحقيقة الواحدة (المطلق)، فهي تؤمن أن أرواح العباد هي واحدة مع جوهر الكون، (برهمان)، كل حي صالح يعيش بعد موته ثانية في موضع ملذات، وبالعكس حسب ما أسلف المرء من عمل أرضي، وهي تشير إلى «كارما» أي الحساب على الأعمال، وإلى التناسخ أي العودة للتجسد، وتشير كذلك إلى وجود إدراك. «بُرْآن» prana وهو النفس الظاهر لكل (أتمان / روح)، وهناك (مايا) أي القوة التي تحجب عن (أتمان) حقيقة طبيعته، و«كارما» هو المنسَّق لكل عقوبة ومكافأة. أما السعادة الحق التي تنشدها الأوبانشاد فتكمن في الانطلاق التام المسمى (موكشا) أو الخلاص، وكل أناشيد الأوبانشاد تعبّر بعمق بالغ عن مصير الإنسان، ومقاضاته، وخلود نفسه بالقلات المكررة، وعودة كل روح إلى جوهرها الأصيل: (أتمان)، ومن عباراتها: «أين خُلِقنا نحن؟ وأين نعيش؟ وإلى أين نسير؟ بإمرة من نحن هنا؟ هل بعامل الوقت أم الطبيعة أم العناصر، أم بضرورة المصادفة؟ أم إننا هنا من «پوريش» Parusha الروح الكلي؟. كما أولى عناية الأوبانشاد بتعليم الطلاب عدم الاكتفاء بالعقل، وأول مراجع العقيدة هي الاعتراف بأن جوهر «أنا» ليس الجسد ولا الروح ولا الذات، إنما هو التعمق في الصمت، هذه هي المرحلة الأولى، والمرحلة الثانية هي أن «برهمان» هو جوهر العالم الكامل، غير مشخص، ويضم كل شيء وهو حقيقة الحقائق وفوق كل الآلهة، والمرحلة الثالثة هي أن برهمان وأتمان شيء واحد، وأن روحنا أي القوة الكامنة فينا، تختلط مع الروح الكلية العالمية. إن الأوبانشاد تعمق كل هذه الحقائق الثلاث مركزة على عودة الجسد، وعلى «كارما» Karma المرافقة لها^(١). هذه هي النقاط العامة التي تلتقي فيها جميع الأوبانشادات.

(١) انظر ما ذكره الدكتور سامي أبو شقرا: موسوعة الأديان (١/ ٢٦٢).

وعلى هذا نلاحظ أن أهم الموضوعات الرئيسة التي تطرقت لها الأوبانيشادات هي:

- (١) برهمان.
 - (٢) أتمان (النفس الكلية)
 - (٣) أتمان (النفس البشرية).
 - (٤) العوالم (المسمى بـ«لوك»).
 - (٥) مصدر الخلق.
 - (٦) التناسخ.
 - (٧) موكشا.
 - (٨) سقوط التكاليف بعد حصول اليقين (معرفة برهمان).
- هذه أهم الموضوعات التي تناولت في الأوبانيشادات الفيدية^(١)، وفيما يلي بيان مقتضب لكل من هذه العناصر كما تصوره الأوبانيشادات.

(١) برهمان^(٢) (الروح العليا)

التعريف بـ«برهمان»:

كلمة «برهمان» التي استخدمت في الأوبانيشادات اختلفت في أصلها واشتقاقها على أقوال؛ منها:

- (١) أن أصلها كلمتان، بريهد+من، أي القلب الكبير، أو النفس الكلية، أو الروح العليا^(٣)، فهو كبير، ولا يتصور شيء أكبر منه، كما أنه لا يحد بحدود الزمان والمكان.

(١) انظر ما ذكره راهول سنكريتيان: درشن، ديكدرشن (١٦/٢).

(٢) هذه النون تكتب ولا تنطق لتدل على النعمة، لأن اللغة السنسكريتية وما تفرع عنها لغة النغمات.

(٣) انظر ما ذكره شودانغشو كومار سكربرتي: دهارما تته شار شنغره ص (١٣). (البنغالية).

(٢) أن أصلها: بُرِيَّة، وتعني الازدياد، والتطور^(١).

(٣) أن أصلها: بريهتْم: أي الكبير العظيم^(٢).

هذا، وقد وردت هذه الكلمة في ريگ فید وكانت تطلق على معانٍ^(٣)؛ منها:

❖ مترا أو الأناشيد والأشعار الدينية (المتون).

❖ السحر أو القوة السحرية.

❖ حفلة القرابين الناجحة المثمرة.

❖ الطعام، أو الطعام المقدم للقربان.

❖ تلاوة الكاهن، أو الدعاء.

❖ النفس، أو نفس الأنفس، أو الشعور النفسي^(٤)، أو المطالب النفسية.

أما في كتب برهمانا، فنلاحظ ورودها لمعان؛ منها:

❖ النظام الصارم الذي لا يتغير ولا يتبدل^(٥)، أو العلة الحقيقية^(٦).

❖ وقد جاء في ستبت برهمانا: «في الحقيقة كان هذا العالم هو برهمانا،

برهمانا هو الذي خلق هذه الآلهة، وهو الذي عيّن هذه الآلهة بعد خلقها

في هذه الأعمال، فجعل أغني في العالم القريب، والهواء في الفضاء

والشمس في السماء، ثم ذهب برهمانا بنفسه إلى وراء العالم، ثم فكر

(١) انظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتیی درشن (٣ / ٧٠).

(٢) انظر ما ذكره أشاريا درغا داش بشو شرفاتي: هندو دهارمير شارته: ص (٥٢) تعليق (٦٦).
(البنغالية).

(٣) انظر ما ذكره نريندرناته بتراسارزا: بهارتیی دهارمير إتيهااس (تاريخ الديانة الهندية) (باللغة البنغالية) ص (٦٧). وانظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتیی درشن (٣ / ٤١)، وأحمد عبد الغفور عطار: الديانات والعقائد في مختلف العصور (١ / ٩٩).

(٤) انظر ما ذكره أموليش بتراسارزا: فید مترا منجوري ص (١٥٤) (باللغة البنغالية).

(٥) انظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتیی درشن (٣ / ٤١)، وأشار إلى ستبت برهمانا، كأنه هنا أصبح بمعنى ريت Rita الذي كان لـ «بورون».

(٦) انظر ما ذكره نريندرناته بتراسارزا: بهارتیی دهارمير إتيهااس (تاريخ الديانات الهندية) ص (٦٧).

في نفسه كيف أستطيع أن أستقر في هذه العوالم؟ ثم هو أخذ الصورة والأسماء ومن هنا استقر في العوالم، إن هاتين القدرتين لبرهمان من عرفهما يصبح بنفسه قديرًا.

❖ وفي موضع من «ستيت برهمانا»: جعل برهمان هو الشيء العظيم، وجعل پر جاپتي وپوروش، وأتمان شيء واحد.

❖ وفي موضع آخر من نفس الكتاب: جعل برهمان هو الذي جاء بنفسه، الذي أعطى الروح لذوات الأرواح، وله الكبرياء والقدرة الكاملة والربوبية على كل شيء^(١).

أما في الأوبانيشادات، فقد اختلف تصور بعض الأوبانيشادات عن البعض الآخر، إلا أن في أغلب الأوبانيشادات أطلقت هذه الكلمة لتدل على:

(١) العلة النهائية، أو الحقيقة النهائية التي تتحول إلى العالم بإرادته الخاصة، في أحيائه ومواته، فهو العلة الحقيقية للعالم^(٢).

(٢) هو الذي يتولد منه هذا العالم ويفنى فيه ويعيش فيه^(٣).

(٣) روح العالم غير المُحسّ به، وقد جاء هذا المعنى عندما دخلت هذه الديانة في طورها البرهمانية، حيث فهمت على أنه الوجود المطلق، وجوهر العالم الواحد الشامل^{(٤)(٥)}، وعلى هذا يكون معنى برهمان: روح العالم غير

(١) انظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتى درشن (٣/ ٤١-٤٢).

(٢) انظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتى درشن (٣/ ٧٠).

(٣) المصدر السابق، وقد وجد هذا التصور في شانديوغا أوبانيشادة (٣/ ١٤).

(٤) انظر ما ذكره أحمد عبد الغفور عطار: الديانات والعقائد على مختلف العصور (١/ ٩٩-١٠٠).

(٥) وهناك كلمة براهما، وهي إحدى الثالوث الإلهي «براهما وِشْنُو وشِيفَا، والعلاقة بينهما أنه في العصور المتأخرة أطلق على برهمان هذه الكلمة وذلك عندما يكون ذات صفة، فإذا وصف برهمان بأنه الخالق يقال له: براهما، وهذا إطلاق متأخر، وفي النهاية أصبحت كلمة برهمان وبراهما واحد في الكتب البرانية. انظر ما ذكره نريندرنات بتراسارزا: بهارتى دهارمير إتيهااس (تاريخ الديانة الهندية) ص (٢٣٨)، وانظر ما ذكره أموليش بتراسارزا: فيد مترا منجوري ص (١٥٥).

المشخصة، وجوده في كل شيء^(١).

وعلى العموم: فإن برهمن يمكن أن يقال عنه بأنه: الجوهر الكامن في حقائق الأشياء باعتبار كونه موضوعاً عالمياً^(٢)، أو نقول: إن برهمن هو الواقع الخارجي المطلق.

سبب اختلاف التعاريف:

والسبب في اختلاف التعاريف لـ «برهمن» كما يظهر لي أن كلمة «برهمن» في الأوبانيشادات، مرّت بمراحل؛ ففي البداية: لم يكن لدى هؤلاء الحكماء تصور واضح عما يبحثون عنه، فقد كانوا يعرفون أنه لا بد من وجود ذلك الذي عن طريقه وجدت كل الأشياء الأخرى، والذي جعلها عظيمة. والاسم المعطى لهذا «الشيء» هو «برهمن Brahman» وهو يعني «ذلك الذي يضفي العظمة». وقد كان اسماً غير وصفي، فهو لا يسمي أي شيء محدد، مجرداً كان أم متعيناً، ولقد سجلت الأوبانيشادات البحث عن «برهمن» باعتباره بحثاً عن الواقع الخارجي النهائي، وقد كانت هناك في البداية محاولة لتعرّف ذلك «الشيء» عن طريق الرموز، والطقوس الدينية، وعن طريق الأشياء الطبيعية، مثل الشمس والقمر، وعن طريق وظائف سيكولوجية معينة للموجودات البشرية، وكل هذه المحاولات لتحديد ماهية «برهمن» من خلال شيء آخر تفترض مقدماً حدوداً لتلك القوة.

ولكن إذا كان «برهمن» مطلقاً فمن المستحيل أن يكون مقيداً، ذلك أنه ليس من الممكن أن يكون هناك شيء فيما وراءه ليقيده، وعندما بدأ الحكماء يدركون، بصورة أكثر وضوحاً، أن «برهمن» لا يمكن وصفه على نحو مناسب بالالتجاء إلى خبرتهم

= ويطلق على الكاهن كلمة قريبة منها فيقال: برهمن، أو برهمني: وهو العضو البارز في طبقة الكهنة يقال لهم البراهمة.

(١) انظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتى درشن (٣/ ٧١)، وقد جاء مثل هذا التصور في كاته أوبانيشادة (٢/ ٣)، و برههذارتك أوبانيشادة (٢/ ٥ - ٢ - ٣).

(٢) انظر ما ذكره عبد السلام رامبوري: فلسفة الهند القديمة ص (٢٢)، مجلة ثقافة الهند - مارس

بـعالم الظاهر، حاولوا تحديد هذا الواقع بالسلب^(١).

صفات برهمن في الأوبانيشادات:

كما سبق معنا: إن هؤلاء الفلاسفة لم يكن لديهم تصور كافٍ عما يبحثون عنه، ولهذا تخطبوا خطب عشواء، ومن هنا جاء وصفهم لـ «برهمن» متناقض ومتضاد، فإننا نلاحظ في الأوبانيشادات نمطين رئيسيين من الوصف لـ «برهمن»، هما:

نفي الصفات^(٢): (نرنكار).

نلاحظ في كثير من الأوبانيشادات التصريح لـ «برهمن» بأنه لا يوصف، فمن ذلك:

❖ يقول حكيمهم «ياجنافالكيا»: «وهو الذي لا يسمع ولا يحس ولا يبصر، ولا يفني ولا يذاق ولا يشم، وهو الذي لم يزل ولا يزال، لا بداية له ولا نهاية له، وهو العين الأعظم»^(٣).

❖ وجاء عنه في أوبانيشادة مُنْدُك: «لا سبيل إلى رؤيته، أو الإحاطة به، لا نسل له، ولا لون، بلا عين ولا أذن، وبلا أيدٍ ولا أقدام، يتخلل كل شيء، وهو كلي الوجود، إنه الواحد الذي لا يتغير، الذي ينظر إليه الحكماء باعتباره مصدرًا للموجودات»^(٤).

❖ وفي بُرِيَهْدَآرْتَنُك: «إن برهمن لا سبيل إلى تصوره، فهو لا يتغير، ولا يناله أذى ولا يمكن إدراكه».

(١) انظر ما ذكره جون كولر: الفكر الشرقي القديم ص (٥٤-٥٥).

(٢) راجع في نفي صفات برهمن، الأوبانيشادات الآتية: شفتشفترا (١٧/٣)، كاته (١٥/٣/١)، مُنْدُك (٦/١/١)، ماندويكا (٧/١)، بُرِيَهْدَآرْتَنُك (٨/٨/٣)، كاته (٢٠/٢/١)، مُنْدُك (٨/٣/١)، بُرِيَهْدَآرْتَنُك (١٩/٥/٢)، (١٣/٥/٤)، إيشا (٥، ٤)، بُرِيَهْدَآرْتَنُك (١٤/٤/٢).

(٣) بُرِيَهْدَآرْتَنُك (٨/٨/٣).

(٤) أوبانيشادة مُنْدُك، (٦، ١/١).

- ❖ وفي أوبانيشادة كآته: «إن برهمان لا سبيل إلى سماعه، ولا مجال لرؤيته أو تذوقه، وليس بالوسع شمه، وهو بلا بداية ولا نهاية، وأعظم من العظيم».
- ❖ وفي أوبانيشادة مُنْذُكُ: «لا سبيل إلى رؤيته، أو الإحاطة به، لا نسل له، ولا لون، بلا عين ولا أذن، وبلا أيدي ولا أقدام، يتخلل كل شيء، هو كلي الوجود، إنه الواحد الذي لا يتغير، الذي ينظر إليه الحكماء باعتباره مصدرًا للموجودات»^(١).
- ❖ (إنه لا يتغير بتغير المحسوس، ولا يتبدل بتبدل الزمان والمكان، وهذا الجوهر القائم هو أساس لكل موجود وقاعدة لكل تقلب، والمظاهر الكونية الخارجية منها، والنفسية، باطنها وظاهرها كلها، تكوناته وتطوراته، وهو عين المظاهر وحقيقتها، وهو مطلق من حيث ذاته، ليس فيه تقييد ولا تعين، وأول لا بداية له، وآخر لا نهاية له، كل شيء منه وإليه، وهو الذي يتعين بكل تعين، ويتقيد بكل تقيد، وهو وجود بحث لا يوصف في حد ذاته، بوصف إيجابي أياً ما كان، وغاية ما يقال فيه: إنه ليس كمثله شيء)^(٢).
- ❖ وفي أوبانيشادة شانديوغا: «كان في البدء وجود مطلق فحسب من غير اسم أو رسم لا مثل له، فأحب أن يصير متكثرًا بأنواع الصور»^(٣).
- ❖ وهو الذي قيل عنه في المقولة المشهورة الأوبانيشادية^(٤): نيتي، نيتي، أي ليس هو ذاك، ولا ذاك، كأنه لا يعبر، ولا يخبر عنه بشيء، وهو فوق التعبير والتوصيف.

(١) أوبانيشادة مُنْذُكُ (١/١-٦).

(٢) انظر ما ذكره عبد السلام الرامبوري: فلسفة الهند القديمة ص(٢٢)، مجلة ثقافة الهند - مارس -

١٩٥٣م.

(٣) شانديوغا أوبانيشادة (٦/٢-٣).

(٤) أوبانيشادة بريَهْدَازَنْكُ (٢/٣-١١٠)، رقم الفقرة (١١٠)، و(٤/٤-٣٠٩)، فقرة (٣٠٩).

إثبات الصفات^(١): (ساكار).

كما نلاحظ أيضًا في الأوبانيشادات إثبات الصفات لـ«برهمن»، فمن ذلك:

❖ وفي بُرِيَهْدَ آرَنَّاكَ: «إيشفر (الإله) هو حاكم العالم، كل شيء روحه، وهو روح الجميع»^(٢).

❖ «وهو الخالق لكل شيء والمريد لكل أمر، وهو الذي يشم كل رائحة، ويذوق كل مطعوم ويسري في كل شيء، وهو القائم الذي لا يتأثر وهو فوق وتحت، أمام وخلف، يمين وشمال، هو كل هذه»^(٣).

وعلى هذا فإنهم لم يتصوروا برهمن تصورًا جيدًا، حيث جعلوه جامعًا لصفات متناقضة تتوافق فيه الأضداد، ويظهر عدم تصورهم لـ«برهمن» جليًا في اختلافهم عن طرق معرفة برهمن، فقد اختلفوا في الطريقة التي يعرف بها برهمن على أربعة أقوال رئيسة:

الأول: برهمن ليس مما يعلم ولا مما لا يعلم، أي: ليس شيئًا علميًا^(٤).

الثاني: برهمن لا يعلم إلا برحمة منه^(٥)، فقد جاء: إنه لا يدرك بالمباحثة، ولا بالذكاء، ولا بكثير من الحقائق، بل إنما يظهر لمن يريد أن يظهر له هو بنفسه^(٦).

الثالث: برهمن يعلم بالذكاء والعلم الصافي، فقد جاء: إن برهمن ليس مما يظهر؛ لأنه كامن في الأحياء، وإنما يعلم بالذكاء اللطيف^(٧).

(١) راجع بعض النصوص الدالة على إثبات الصفات في الأوبانيشادات الآتية: شانديغا

(١/١٤)، مُنْدُك (٦/١)، (٣/١/٢)، (٩/١/٢)، (١/١/٢)، (٧/٢/٢)، إيشا (١)،

شانديغا (٦/٨)، بُرِيَهْدَ آرَنَّاكَ (٤/٤/١٣)، (١/٦/٥).

(٢) بُرِيَهْدَ آرَنَّاكَ أوبانيشادة (٤/٤/١٣). (٣) شانديغا أوبانيشادة: (٧/٢٥/١).

(٤) انظر كينا أوبانيشادة (٤/١).

(٥) كاته أوبانيشادة (١/٢/٢٠).

(٦) كاته أوبانيشادة (١/٢/٢٣).

(٧) كاته أوبانيشادة (١/٣/١٢)، ومثله في مُنْدُك أوبانيشادة (٣/١/٨).

الرابع: برهمان الذات النهائي، إنما يدركه ويحس به من يقبله بكل عواطفه وقلبه^(١).

فقد جاءوا بأربعة طرق للتعرف على برهمان، وهي كلها متناقضة، ومتضادة، ولهذا نستطيع أن نقول: إنهم لم يتوصلوا إلى علم نهائي عن برهمان، وكانوا في ضلال مبين في هذا الباب.

على هذا: مع تركيز كل فلاسفة الأوبانيشادات فإنهم لم ينجحوا في تحديد «برهمان» (الطبيعة المطلقة للواقع الخارجي)، وإن لم يحبطوا بصورة كاملة، وإذا كان الأمر كذلك فإن طبيعة برهمان تظل مراوغة وغامضة^(٢).

ولكن الفلاسفة المتأخرين وشارحي الأوبانيشادات قاموا بجهود جبارة في التوفيق بين كثير من الآراء المتناقضة فيها، فمثلاً قاموا في مسألة إثبات الصفات وعدمه بتوفيق يمكن ذكره على النحو الآتي، حيث قالوا^(٣):

إن برهمان المذكور في الأوبانيشادات لها إطلاقان:

الإطلاق الأول: برهمان اللا موصوف، وهو الوجود المطلق، وعلى هذا لا يوصف بشيء، وعليه يحمل كل موضع جاء فيه وصفه بصفات سلبية. وهذا ما يسمونه بـ«نرگون برهمان».

الإطلاق الثاني: برهمان الموصوف، وذلك عندما يفعل شيئاً ما، كالخلق والفناء والتربية وما إلى ذلك، وعلى هذا يحملون كل موضع جاء فيه وصفه بصفات ثبوتية، وهذا ما يسمونه بـ«شگون برهمان»، (وهذا هو الذي يسمّى في كتب الپرانات بـ«براهما»، وفِشْنُو وشِيقًا)، وهو الإله، وأما الأول فهو الوجود المطلق، وليس بإله ولا يوصف بأي عمل، ولا نشاط.

(١) انظر كاته أوبانيشادة (٩/٣/٢).

(٢) انظر ما ذكره جون كولر: الفكر الشرقي القديم ص(٥٥).

(٣) انظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتیی درشن (٣/٧٣-٨٠).

ولاشك أن هذه محاولات المتأخرين للتوفيق بين الآراء المتضادة والمتناقضة، وعلى هذا التوفيق قامت الهندوسية إلى الآن^(١).

٢) أتمان^(٢) (النفس الكلية)^(٣).

التعريف بـ«أتمان»^(٤):

(١) انظر ما ذكره أشاريا دُرغا داش بشو شرفاتي: هندو دهرمير شارته، ص (٤٩-٥٣).
(٢) هذه النون تكتب ولا تنطق لتدل على النعمة، لأن اللغة السنسكريتية وما تفرع عنها لغة النعمات.

(٣) جاء في ريگ فيد (١٠/١٦): أن معناها في الأصل: نفس، ثم أصبح معناها: الجوهر الحيوي، ثم أصبحت تطلق على الروح الخالدة (الجوهر النهائي العالمي، برهمان). وانظر ما ذكره رادها كرشنان: الفلسفة الهندية ص (١٥١)، وعبد السلام الرامبوري: فلسفة الهند القديمة ص (٢٣)، مجلة ثقافة الهند - مارس - ١٩٥٣.

(٤) إن النفس البشرية التي يطلق عليها الأتمان لها خمسة خلايا:

الخلية الأولى: هي جسد الحي حواسه وتسمى: «آن مئي آتما» (Annamai Atma)، أي النفس الطاعمة؛ فإن الطعام عليه عماد الأحياء، وعلى هذا ينظر إلى الحي بأنه متحد مع الطعام والحواس.

الخلية الثانية: والتي هي بداخل الخلية الأولى، هي «بران مئي آتما» (Pranmai Atma)، أو الخلية النفسية، ومن هنا ينظر إلى النفس والحي بأنهما متميزان.

الخلية الثالثة: والتي هي بداخل الخلية الثانية، وتسمى النفس المريدة أو «منومئي آتما» (Manumai Atma)، وعليها اعتماد الذكاء والأعمال الجليلة.

الخلية الرابعة، والتي تسمى بالنفس الشاعرة أو «وغيان مئي آتما» (Wigian Mai Atma) أو النفس العالمة، التي هي بداخل النفس المريدة، وقد جاء بعض صفاته في تائيطريا أوبانيشادة (٤/٢).

الخلية الخامسة، والتي هي بداخل تلك الأنفس كلها، ولكنها تتجاوزها في الرتبة، هي النفس المسرورة، السعيدة، وهي السرور المحض والطمأنينة البحتة أو «آنند مئي آتما» (Ananda mai Atma)، وهي وبرهمان شيء واحد.

انظر ما ذكره برمود بندهو شين غويت: بهارتبي درشن (٦٧/٣)، وانظر ما ذكره عبد السلام الرامبوري: فلسفة الهند القديمة ص (٢٣). مجلة ثقافة الهند - مارس - ١٩٥٣.

كانت كلمة «أتمان» تطلق في ريگ فيد على: النفس الحيوي الذي هو مقابل الجسد^(١)، وقد أطلقوا عليه ثلاثة أسماء:

١- مانس، ٢- أتمان، ٣- أوسو^(٢).

أما في ديول الفيدات من البرهمانات و أَرَنَّا والأوبانيشادات فإننا نلاحظ لهذه الكلمة ثلاث إطلاقات^(٣):

فقد أطلق أولاً على الريح المنفوس لدى الإنسان (Vital Breath).

ثم أطلق على الروح النهائي العالمي (Self of the World)، والذي يقال له: أنندمي أتمان، وتعني: سرور محض وطمأنينة بحتة، وهي على هذا الإطلاق مطابقة لـ«برهمان» السابق.

ثم أطلق على النفس البشرية (Soul)، خاصةً، فإذا قيل: أتمان؛ فالمعنى المتبادر منه: النفس البشرية، والتي هي عندهم جزء من الروح النهائي العالمي (النفس الكونية أو برهمان).

وإذا كان المقصود بـ«أتمان» هو هذا النفس البشرية؛ فإن الأوبانيشادات تميز برهمان - الواحد المطلق - عن أتمان (Atman) الواحد^(٤). (تميز النفس الكلية عن النفس الحيوية). وإن كانت هناك آراء أخرى أيضاً حول اعتبارهما متميزتين وعدم اعتبارهما - كما هو رأي ياجنفا لكيا أكبر حكماء الأوبانيشادات^(٥).

(١) انظر ريگفيد (١٦/١٠).

(٢) انظر ريگفيد (٥٨/١٠).

(٣) انظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتى دشن (٤١/٣).

(٤) انظر التفريق بين النفسين على سبيل المثال في الأوبانيشادات الآتية: مُنْدُك (٣/١ / ١-٢)، كاته (١/٣ / ١)، (١١/٢ / ٢)، برشنا (٣/٣)، كوشيتكي (٨/٣).

(٥) انظر ما ذكره الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني: في العقائد والأديان في الديانات الكبرى المعاصرة ص (١٠٧-١٠٨).

ونحن نقصد هنا بـ«أتمان» الإطلاق الثاني؛ والتي تجعلها الأوبانيشادات مرادفاً لـ«برهمان».

وعلى هذا فـ«أتمان» هو جوهر النفس، وليس هو الجسم ولا العقل ولا الذات الفردية ولكنه الوجود العميق الصامت الذي لا صورة له والكامن في دخيلة أنفسنا. أو نقول بعبارة مختصرة: إن أتمان: هو الواقع الداخلي المطلق^(١).

صفات أتمان:

ولما كانت الأوبانيشادات تجعل أتمان هذه عين برهمان، والذي هو سرور محض وطمأنينة بحتة أو «أنند مئي أتمان (Anandamoi Atma)؛ فإن صفات برهمان هي نفسها تطلقها الأوبانيشادات على أتمان، فيقول مثلاً: هو جوهر وراء العلم والشعور، فلا يحس ولا يُدرك، وهو أساس الإدراك والإحساس وعماد الحياة الشاعرة وغير الشاعرة، وجامع للمشاعر المتعاقبة، وماسك للحياة الشخصية، وباقٍ عند العمل والوقوف واليقظة والنوم، فباقٍ عند الموت لا يزال ولا يتأثر ولا يتغير، ليس له مكان ولا زمان، وليس في سلسلة العلة والمعلول، وهو مادة لـ«أنا وأنت» وهذا وذاك، وليس بـ«أنا ولا أنت ولا هذا ولا ذاك، بل هو الكل في الكل»^(٢).

وهذا التصور يتم بثلاث خطوات متتالية:

الخطوة الأولى: معرفة «أتمان» بأنها نفس النفوس كلها، وروح الأرواح كلها، والمطلق لا مادة له ولا صورة، والذي ننغمس فيه بأنفسنا جميعاً إذا نسينا أنفسنا كل النسيان. فهذه النفس فينا ليس هو الجسم، ولا هو العقل، ولا هو الذات الفردية، ولكنه الوجود العميق الصامت الذي لا صورة له، الكامن في دخيلة أنفسنا، هو «أتمان».

وأما الخطوة الثانية: معرفة «برهمان» وهو جوهر العالم الواحد الشامل الذي لا هو بالذكر

(١) انظر ما ذكره جون كولر: الفكر الشرقي القديم ص(٦٠).

(٢) انظر ما ذكره عبد السلام الرامبوري: فلسفة الهند القديمة ص(٢٣-٢٤)، مجلة ثقافة الهند -

ولا هو بالأنثى غير المشخص في صفاته، المحتوي لكل شيء، والكامن في كل شيء، والذي لا تدركه الحواس، هو «حقيقة الحقيقة» هو الروح الذي لم يلد ولا يتحلل ولا يموت^(١).

إن «أتمان» الذي هو روح الأشياء كلها، هو روح الأرواح كلها، هو القوة الواحدة التي وراء جميع القوى وجميع الآلهة، وتحت جميع القوى وجميع الآلهة، وفوق جميع القوى وجميع الآلهة.

والخطوة الثالثة هي أهم الخطوات جميعاً: «أتمان» و«برهمان» إن هما إلا في واحد بعينه؛ إن الروح (الافردية) أو القوة الكائنة فينا هي بعينها روح العالم غير المشخص؛ إن أسفار أوبانيشاد لا تدخر وسعاً في تركيز هذا المذهب في عقل طالب العقيدة، فما تزال تكرر وتعيده لا تمل له تكراراً وإعادة وإن قل ذلك السامعون؛ فعلى الرغم من كل هذه الصور الكثيرة وهذه الألقاب الكثيرة، فإن ما هو ذاتي وموضوعي شيء واحد؛ الإنسان في حقيقته التي تتجرد من الفردية، هو بعينه الروح الأعلى باعتباره جوهرًا للكائنات جميعاً^(٢).

فعلما مما سبق: أنهم يعتقدون بوجود روح كونية تشمل الكون كله ويعبرون عنها بلفظ «أتمان» ومنها تستمد كل روح حياتها، ويوجد جزء منها في جسم الإنسان كأنها قطعة من الملح ذائبة في الماء، وقد قال أحد حكمائهم لابنه استخرج الملح يا بُني من الماء فلم يستطع ثم أمره أن يذوق طعم الماء وقال له: «هكذا يا بني الحقيقة هنا في الجسم، ولو أنك لا تستطيع أن تراها، هذا الجوهر أس الكون وهو الواحد الحق، وهذا هو «الروح الذي هو أنت»^(٣).

بين برهمان وأتمان:

إذا قلنا: إن «برهمان» هو جوهر العالم الواحد الشامل الذي لا هو بالذكر ولا

(١) برينهذارتك أوبانيشادة (٢/٢)، و(٤/٤).

(٢) انظر ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (٣/١/٤٩-٥٠).

(٣) انظر شانديغا أوبانيشادة (٦/١٣/١-٣).

بالأثنى، أي روح العالم غير المشخص في صفاته والمحتوي لكل شيء والكامن في كل شيء والذي لا تدركه الحواس^(١)، أو بعبارة مختصرة: إن برهمان: هو الواقع الخارجي المطلق^(٢).

وقلنا: إن «أتمان» هو جوهر النفس ليس هو الجسم ولا العقل ولا الذات الفردية ولكنه الوجود العميق الصامت الذي لا صورة له والكامن في دخيلة أنفسنا، أو بعبارة مختصرة: إن أتمان: هو الواقع الداخلي المطلق^(٣).

نلاحظ من هنا أنهما متميزان.

يقول الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني: إن النظرة الفاحصة والتمييز يجعلهما إلهين هما برهمان الواحد المطلق، وأتمان الذات العليا^(٤).

بينما يقول الأستاذ سليمان مظهر: «إن هما إلا إله واحد بعينه لأن الروح الالافردية هي القوة الكائنة في الإنسان والتي هي بعينها روح العالم»^(٥).

ويقول الدكتور عبد السلام الرامبوري: حقيقة العالم هو الجوهر البسيط الوحداني الكامن (برهمان)، وهو عين الجوهر المفكر النفسي (أتمان)، والحقائق الخارجية إنما هو أسماء وصور لذلك الجوهر الباطني^(٦).

(١) انظر ما ذكره الأستاذ سليمان مظهر في كتابه: قصة العقائد بين السماء والأرض ص (٢٦-٢٧)، وانظر أيضاً ما ذكره كل من الأستاذ علي زيعور في كتابه الفلسفات الهندية ص (١٢٨-١٢٩)، وعبد السلام الرامبوري: فلسفة الهند القديمة ص (٢١-٢٣) مجلة ثقافة الهند - مارس - ١٩٥٣.

(٢) انظر ما ذكره جون كولر: الفكر الشرقي القديم ص (٦٠).

(٣) انظر ما ذكره جون كولر: الفكر الشرقي القديم ص (٦٠).

(٤) انظر في العقائد والأديان ص (١٠٨).

(٥) انظر ما ذكره الأستاذ سليمان مظهر في كتابه: قصة العقائد ص (٢٦-٢٧).

(٦) انظر ما ذكره محمد عبد السلام الرامبوري: فلسفة الهند القديمة، مجلة ثقافة الهند - مارس - ١٩٥٣.

ويقول جون كولر: «ولعل هذا هو الصحيح بأنه لا يمكن التمييز بينهما بحيث يطلق على شيئين منفصلين، بل هما شيء واحد في آخر الأمر، وهما متحدان بجوهرهما بل هذا عين ذلك^(١)، وقد قيل: إن الجوهر الذي يقال له من الناحية المادية برهمان، وهو الذي يقال له أتمان من الناحية النفسية^(٢).

وقد جعلت الأوبانيشادات اكتشاف أتمان وبرهمان، ووحدتهما^(٣) ووحدة صفاتهما^(٤)، والبحث عنهما أساسًا للسعادة الإنسانية ووسيلة للفوز بالنجاة في الحياة الدنيا والآخرة، فمن يعرف هذه الحقيقة ويدعن أنه هو هذه الحقيقة يأمن المتاعب والمخاوف، ويصير كلاً في كل ويتلاشى فيها فيبقى ببقائها، وهو أتمان وهو برهمان، وهذا الإذعان والعرفان هو الأساس للأخلاق عند الأوبانيشادات، وهذا هو الخير الأعظم.

تقول الأوبانيشادات: إن الإنسان في حقيقته الباطنة وجوهره الكامن هو أتمان أو برهمان، لكنه محفوف بقوالب عديدة وهمية: الجسد الطبيعي، والنفس الحيوية، والنفس المريدة، والنفس الشاعرة، وله بحسب هذه القوالب مطالب وغايات يطمح إليها ويسعى لها، فإن أدركها وفاز بها فقد سعد وإلا فشقي. والقوالب نفسها تتأثر وتتغير، ومطالبها تتصرم وتتجدد، وصاحبها إما في كد الطلب أو في ألم الفقد، فسعادته مشوبة بالشقاوة، فلا ينبغي أن تكون هذه غاية للجوهر الإنساني القائم الباقي. وأما ما

(١) انظر ما ذكره عبد السلام الرامبوري: فلسفة الهند القديمة ص (٢٣)، مجلة ثقافة الهند، مارس - ١٩٥٣ م.

(٢) انظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتية درشن (٣/ ٧١).

(٣) انظر في إثبات وحدتهما ما جاء في الأوبانيشادات الآتية: بُرِيَهْدَ آرَنَكُ (٣-٢)، (١٩/٥/٢)، (٥/٤/٤)، (١٥/٣).

(٤) انظر مقارنة في هذه الأوصاف: بُرِيَهْدَ آرَنَكُ (٤/٤/٢٥)، كاته (١/٢/١٨)، شانديوغا (٣/١٤/٤)، (٤/١٥/١)، (٨/٧/٤)، (٦/١/٤)، كاته (٢/٢/١٢)، (٢/٢/٩)، بُرِيَهْدَ آرَنَكُ (٣/٧/١٥).

ينبغي للعاقل أن يطلبه ويسعى له، بحيث يكون باقياً لا ييلي، ودائماً لا يفنى، غير مشوب بشقاء ما، سروراً لا يتغير، وفرحاً لا يزال، فهذا لا يسعد به إلا من يستغني عما هو خارج عنه، ويفرغ لما هو داخل فيه، فلا يطمح إلى أرض يغلبها أو مال يكسبه أو زوج يخطبها أو أبناء يلداهم، فكل هذه زاهقة، بل عليه أن يرغب عنها ويشغل في باطنه ويستغرق فيه ويدعن أنه هو الكل ويوقن أنه هو الحق القائم، وأن كل ما سواه باطل زاهق. فمن أذعن لهذا صار بنفسه كلاً، فلا يتمنى شيئاً ولا يميل إلى شيء؛ إذ ليس في الوجود شيء سواه، فلا يرجو ولا يخاف ولا يموت ولا يفسد ولا يتغير ولا يتأثر ولا يجد شيئاً ولا يفقد شيئاً. وهذا هو السرور الدائم وهو الغاية القصوى للحياة الإنسانية.

قال سَنَكُمَار لـ«نارذ» في شانديغا أوبانيشادة: «ومن يرى أنه هو أتمان، ويدعن ويوقن أنه هو، فهو في خصب العيش من نفسه، تلعب نفسه مع نفسه، وزوجه هي نفسه، وتلذذ عينيه بعينه، وكأنه ملك الجنة، وهو الفائز المفلح في العالم كله»^(١).

وقال ياما إله الموت لـ«ناشيكيता» حين سألته عن بقاء الروح: «هذه الروح لا تلد ولا تموت، ولم تلد من شيء، ولم يولد منها شيء، وهي غير مولودة، وهو أزلي، أبدي، غير متغير، لا يموت بموت الجسد»^(٢).

وقال: «برهمان لا يزال ومن عرفه فقد وجد ما تمنى فلا يموت ولا يفنى»^(٣).

وقال: «الخير واللذذ أمران، والسعيد من طلب الخير، وأما من اتبع اللذذ فقد فقد الغاية الإنسانية، واللذائذ هالكة لا تبقى، فلا يقتنص منها إلا ما هو الأبقى»^(٤).

(٣) أتمان (النفس البشرية):

قد سبق معنا: أن من معاني «أتمان» النفس البشرية (Soul)، خاصةً، وعلى هذا

(١) أوبانيشادة شانديغا (٧/ ٢٥/ ٢).

(٢) أوبانيشادة كاته (١/ ٢/ ١٨).

(٣) أوبانيشادة كاته (١/ ٢/ ١٦).

(٤) أوبانيشادة كاته (١/ ٢/ ١-٢).

تميز الأوبانيشادات بين برهمن - الواحد المطلق - عن أتمان (Atman) الواحد^(١).
 تمييز النفس الكلية عن النفس الحيوية^(٢).

ومن الأمور التي تحدثت عنها الأوبانيشادات حالات النفس البشرية، فقد حددت
 فلاسفة الأوبانيشادات للنفس البشرية حالات هي^(٣):
 الأولى: حالة اليقظة، ويسمونها «بشفا»^(٤).

الثانية: النوم الذي يرى فيه الرؤيا، ويسمونها بـ«تويجوش».

الثالثة: النوم العميق الذي يسمى بـ«شوشوفتا»، وهو الذي لا يكون فيه حلم.

الرابعة: النوم العميق حتى تصبح في حالة لا وعي، ويسمى بـ«توريا».

إن فلاسفة الأوبانيشادات كانوا يمثلون علاقة الروح العليا بالنفس البشرية بحالة
 النوم العميق، ويقولون: إن النفس البشرية يلتقي في حالة النوم العميق المعروف
 بـ«شوشوفتا» مع الروح العليا «برهمن»، ويحصل على الطمأنينة التي ليس بعدها
 طمأنينة، ولكنها لا تذكر شيئاً من هذه الراحة كمن يمشي على جبل الذهب وهو لا يدري
 قيمته، فمن عرف قيمته يعرف قيمة لقاء النفس البشرية بالروح العليا الذي هو برهمن.
 ومن فلاسفة الأوبانيشادات من يجعل هذه العلاقة في الحالة الرابعة من النوم^(٥).

(١) انظر التفريق بين النفسين على سبيل المثال في الأوبانيشادات الآتية: مُنْدُك (٣ / ١ / ٢-١)، كاته
 (١ / ٣ / ١)، (٢ / ٢ / ١١)، برشنا (٣ / ٣)، كوشيتكي (٣ / ٨).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني: في العقائد والأديان في الديانات الكبرى
 المعاصرة ص (١٠٧-١٠٨).

(٣) انظر ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (٣ / ١ / ٥٠)، وانظر أيضاً: Radhakrishnan, The
 Indian philosophy p (١ / ٢٣٩). ، و انظر أيضاً ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتية
 درشن (٣ / ٦٧).

(٤) الفاء هنا يكتب ولا ينطق، وإنما تأتي الشدة بسببه في الحرف السابق.

(٥) انظر هذه الفكرة في الأوبانيشادات الآتية: شانديغا، بريَهْدَارْتْكَ، برشنا، ماندويكا.

ويبدو لي أن هذه من مبتكرات فلاسفة الهندوس، لم يقل به أحد من الفلاسفة الآخرين، وهي كلها لا تمت إلى الحقيقة بأي صلة.

٤) العوالم المعروفة عندهم بـ «لوك»

تحدثت الأوبانيشادات عن العوالم، وأن هناك ثلاثة عوالم^(١)، وهم يسمونها بـ «لوك»، وكلمة «لوك» تعني المجمع، وهذه العوالم هي:

(١) عالم الناس، وهو هذا العالم الذي يعمل فيه الناس.

(٢) عالم الآباء^(٢)، وهو عالم القمر، وهو مستقر النفوس الذين لم يحصلوا على موكشا، ولكن لهم حسنات، فإذا انتهت حسناتهم لا بد وأن يرجعوا مرة أخرى إلى عالم الناس.

(٣) عالم الآلهة^(٣)، أو عالم برهمان، وهو العالم الأبدي الذي لا يرجع منها إلى نهاية الدنيا^(٤).

هذه العوالم الثلاثة تحدثت عنها الأوبانيشادات في مواضع كثيرة، وهي التي استقرت عليه عقائد الهندوس إلى اليوم.

٥) الخلق والخالق

إن من بين الموضوعات المهمة التي تناولته الأوبانيشادات البحث عن وجود الخلق وسببه ونهايته، وهي عندهم أسرار تعسر عليهم الوصول إلى علم قاطع فيها، فكانت محور تساؤلاتهم ودعائهم. فلهذا يكثرون من طرح الأسئلة: «من أين جئنا، وأين نقيم، وإلى أين نحن ذاهبون؟ وأيًا من يعرف «برهمان»، نبئنا من ذا أمر بنا فإذا نحن

(١) انظر برَهْدَ آرَنُك (١٦/٥/١)، (١٦/٥/٢/٦).

(٢) انظر شانديغا أوبانيشادة (٥/١٠/١-٦)، فقد فصل القول لمن يستحق هذا العالم.

(٣) انظر شانديغا أوبانيشادة (٤/١٥/٦-٥). حيث فصل القول لمن يستحق هذا العالم، وكيف

يتم ذلك.

(٤) شانديغا (٥/١٠/١-٢)، وانظر أيضًا برشنا أوبانيشادة (١/٩-١١).

ههنا أحياء ... أهو الزمان أم الطبيعة أم المصادفة أم عناصر الجو، ذلك الذي كان سبباً في وجودنا، أم السبب هو من يسمى «بوروشا» - الروح الأعلى؟^(١).

جاء في بُرِيَهْدَارَنَّا أوبانيشادة (١ / ٢ / ٣ - ٥): «العالم ليست له حقيقة، وإنما هو أسماء وصور قد أفناه «هرونيه غربه» في نفسه، ولذا يسمى بالموت، وقد أراد أن يسوي القلب، فلما أذعن أنه ذو قلبٍ شرع في العبادة، واحتاج الماء لعبادته، فظهر الماء وقد أزيد الماء، والأرض هي هذا الزبد، ولما رأى جلاله عمله مسه اللغوب فظهر النار، فقسم نفسه من هذه الثلاث .. ثم افكر وكلم، والفيدات هي ذلك الكلام، وازدوج الكلام بالفكر فاستقرت النطفة، وصارت النطفة شمساً» ...

وتختلف الأوبانيشادات في تفاصيل الخلق وترتيبها، ولكنها تتفق في أن العالم قد خرج من العدم إلى الوجود بالإرادة، وتلمح أن له حقيقة وراء الخالق، ومع هذا ترى أن العالم إنما هو اسم وصورة، والموجود الحقيقي إنما هو برهمان أو أتمان.

وتزعم بعض الأوبانيشادات: أن برهمان هو أصل العالم وطيبته فتقول: «إن مثل برهمان كمثل الطين للأواني، فالأواني إنما هي أسماء وصور ليست لها حقيقة وراء الطين، فمن أدرك الطين فقد أدرك الأواني، هكذا من أدرك البرهمان فقد أدرك الكل»^(٢).

وفي بعض الأوبانيشادات: إن العالم كله حالٌّ في برهمان، يقول لـ «شفيتاكيو» أبوه - وهو يعلمه - «إن العالم جميعه حالٌّ في برهمان، ومثله كمثل الشجر العظيم الكامن في بذرة صغيرة، فينمو منه كما ينمو الشجر من البذرة فيصير عظيمًا، فالعالم كله نفس واحدة وهو أتمان، وأنت هو ذلك «أتمان»^(٣). فالعالم المتكرر قد خرج من برهمان وهو طيبته أو بذره أو هو الحقيقة الكونية، وما سواه فأوهام وأسماء ليست بحقائق.

(١) انظر ما نقله ول ديورانت في قصة الحضارة (٣ / ١ / ٤٥).

(٢) شانديغا (٦ / ١ / ٤ - ٥).

(٣) انظر شانديغا (٦ / ٢ / ٤ - ١).

وإن كان العالم هو برهمان بعينه، لكن العينية قد سترت عن أعين العالم «فلما خرج من برهمان نسي أصله، كأنهار شتى خرجت من بحر واحد»، فلما افترقت وتشعبت نسيت أنها تشعبت من أصل واحد وهي كلها ماء واحد، وكذا «لا يعلم إذا يعود في البرهمان ويصير شيئاً واحداً، أنه قد امتزج بأصله بل يتلاشى فيه» وكذا «أيها السعيد، كل حي إذا نام أو مات، وكذا انتهت يتحد بتلك الحقيقة الكبرى، ولا يعلم أنه صار هي» وإنما السبيل إلى العلم هو إرشاد المرشد^(١).

ففي شانديغا أوبانيشادة: «وإذا علم المرء وجهة موطنه، استطاع أن يذهب إليه، فكذا يتمكن السالك أن يصل إليه إن أرشده المرشد بهذا، وإنما المانع من الوصول إلى ذلك اللطيف هو هذا الوجود الموهوم، فإذا زال تعرف أنك أنت اللطيف، والحق هو هذا اللطيف، وهو الروح الواحد»^(٢).

وقد طبقت الأوبانيشادات بين وحدة الخالق والمخلوق، وبين الثنوية اللازمة عن نصوصها بأن العالم قد خرج من برهمان، وسيعود إليه، وهو سار فيه سريان الروح في الجسد وقائم فيه، فكأنه هو العالم، بل هو الموجود، وهو الباقي، والكل باطل هالك^(٣).

خلاصة القول: إن الأوبانيشادات تناولت فكرة الخلق، وعلاقة الخلق بالخالق، ومصدر الخلق، ولكنها تضاربت، وتناقضت^(٤)، وسيأتي مزيد بيان لها قريباً في الباب الثاني^(٥).

(١) انظر شانديغا (٦/١٠-٣). (٢) أوبانيشادة شانديغا (٦/١٤-٢).

(٣) انظر ما ذكره عبد السلام رامبوري: فلسفة الهند القديمة ص (٣١-٣٣)، مجلة ثقافة الهند - مارس - ١٩٥٣.

(٤) انظر برشنا أوبانيشادة (١/٤)، فقد جاء بفكرة سانكهايا، ومُنْدُك أوبانيشادة (١/١/٢١٢)، حيث جاء بمثل العنكبوت وشبكته، ومُنْدُك أوبانيشادة (٢/١/٢) حيث جعل برهمان في الداخل والخارج معاً، وفي أوبانيشادة أثيطريا (١/١/١)، حيث جعل الخلق هو إرادته فقط، وفي بْرِيَهْدَ آرَنَك (١/٢-٣-٤)، حيث جعل الخلق من القرابين، وفي (١/٣/١٢)، حيث جعل الخلق من أبناء الإله، و (١/٤-٥)، حيث جعل الخلق من الإنسان الكبير الذي قال هأنذا، ثم قسم نفسه قسمين، وجامع الجزء الثاني، فتولد الإنسان، ... وهكذا.

(٥) انظر ص (٩٠٠-٩١٩).

(٦) تناسخ الأرواح^(١):

إن اعتقاد تناسخ الأرواح ظاهر في الأوبانيشادات، ومعلوم أن هذه العقيدة تختلف عما كان يعتقد الآريون الأوائل من أن الروح تذهب إلى العالم الآخر، كما هو في الفيدات، ولكن الفلاسفة في زمن الأوبانيشادات في القرن السابع ق.م اعتقدوا أن الروح بعد خروجها من الجسد لا بد لها أن تتطهر وتصفى قبل أن تنضم إلى الروح الأعلى بزعمهم. وبناءً عليه فهي تنتقل من كائن إلى آخر، وفي كل مرة ترقى أو تهبط حسب أعمال صاحبها، وإذا كانت الروح طيبة فإنها تنتقل إلى أحد البراهمة أو المحاربين، وأما إذا كانت شريرة فإنها تولد من جديد في أحد أفراد الطبقات المنحطة أو في بعض الحيوان.

تقول الأوبانيشاد: «كما يعمل المرء وكما يكون سلوكه تكون حياته الثانية».

ويعبرون عن هذا بـ«كارما ومعناها: قانون الجزاء. ويستطيع الإنسان أن يتخلص من شر أعماله بالتوبة والندم وبتعذيب النفس، وقد تفرع من هذا الأخير عقيدة يوغا التي ترجع إلى القرن الثاني ق.م. - كما سيأتي ذكره -^(٢).

وتضع الأوبانيشادات الميول والعواطف موضع الأعمال في الفكر الهندوسي المتأخر، وهي المبدأ لتكرر الميلاد والمانع عن النجاة، فتقول: إن الميل يستلزم الإرادة، والإرادة تستلزم الفعل في هذا الجسد، وإن لم يصلح هذا ففي جسد غيره، فقد جعلت

(١) أول ما تظهر هذه العقيدة، تظهر في سفر سَبْتَبْرَهْمانا، حيث يكون تكرار الولادة والموت عقاباً تنزله الآلهة بالإنسان إذا عاش على الشر في حياته؛ ومعظم القبائل البدائية تعتقد أن روح الإنسان يمكن انتقالها إلى حيوان أو العكس، وربما كانت هذه الفكرة - عند سكان الهند السابقين للعنصر الآري - هي الأساس الذي بنيت عليه العقيدة في التناسخ. انظر:

Radhakrishnan, The Indian Philosophy (1251-249 /), Macdonell, India's past p.48.

(٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد مرسى أبو الليل: الهند تاريخها، وتقاليدها وجغرافيتها ص(٥٢-٥٣).

الميلول لتكتمل، وإذا لم تكتمل لم ينج الإنسان عن دور الولادة، وإذا اكتملت نجى الروح وتخلص، وامتزج ببرهمان، سواء كان الاكتمال في جسد واحد أو أجسام عديدة، فأما الذين تركوا الميلول والأهواء واطمئنوا في هذه الحياة بأنفسهم فقد نجوا وتخلصوا من تكرار الميلاد والمعاد، وصاروا برهمان، وإذا صاروا برهمان فقد تعالوا عن تأثيرات الأعمال.

يقول بُرِيْهَدَّارْتَنُكُ أوبانيشادة (٥ / ٣)، (٤ / ٤ / ٢٢): «من لم يرغب في شيء، ولن يرغب وتحرر من رق الأهواء واطمأنت نفسه في نفسه، فلا يعاد إلى حواسه ويتحد بـ«برهمان»، فيصير هو، وإذا زالت الأهواء فالفاني يكون باقياً، ويدرك برهمان في هذه الحياة».

وأما الذين لم يدعوا أنهم هم «برهمان» فما قهروا أهواءهم وقد عملوا الصالحات، فإذا ماتوا اتبعوا سبيل آبائهم، فتدخل أرواحهم في الدخان ثم في الليالي المظلمة فتنتهي إلى القمر وتقيم فيه جزاء ما كسبت من الصالحات، فإذا نفذت الصالحات تنزل أرواحهم من القمر، فتدخل في الخلاء ثم في الهواء، ثم في الدخان، ثم في الضباب، ثم في السحاب، ثم في المطر، ثم في النبات، وفي البذور، ثم في الرحم، فتتولد من جديد، وهكذا حتى تصل إلى برهمان فتنبجو.

لكن الذين طهروا أرواحهم بالإذعان والرياضة يمتزجون بـ«برهمان»، مارين في الله والنهار، والشرط المنور من الشهر والسنة، والقمر والشمس والبرق»^(١).

ويقول ياجنأفالكيا في بُرِيْهَدَّارْتَنُكُ: «إنه إذا مات الإنسان يذهب روحه ثم يجمع هو نفسه، ويصورها في صور توافق أعماله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»^(٢). وليس فيه من تكرار الميلاد ودوره.

(١) أوبانيشادة بُرِيْهَدَّارْتَنُكُ (١٥ / ٢ / ٦)، وانظر مثله في (١ / ١٠ / ٥).

(٢) بُرِيْهَدَّارْتَنُكُ أوبانيشادة (١٣ / ٢ / ٣)، وانظر مثله في (٢٨ / ٩ / ٣).

(٧) موکشا (الخلود بعد الموت)

إن أهم شيء في حياة الهندوسي الحصول على موکشا، وإذا نظرنا إلى الكتب الهندوسية نرى أن أصل هذه العقيدة موجودة في الأوبانیشادات.

وقد جاءت هذه النظرية في الأوبانیشادات بذات صلة وثيقة بـ«برهمان»؛ إلا أن الأوبانیشادات تذكر عددًا من الأشياء في كيفية الحصول على موکشا، من أهمها:

(١) العلم بـ«برهمان».

(٢) الشعور بوحدة «أتمان» بـ«برهمان» أي: اتحاد النفس الجزئية بالنفس الكلية.

(٣) يوغا، وهو أهم ما ذكر في كثير من الأوبانیشادات.

وقد وصفت لنا أوبانیشادة كَاثَه (Katha) في جزئها الخاص بالتعليمات عن الموت الموصول إلى الخلود عن طريق اليوغا (Yoga)^(١).

فهذا هو «جاناكا» ملك «فيديها» يتوسل إلى «ياجنافالکيا» أن ينبئه كيف يمكن التخلص من العودة إلى الولادة من جديد؛ ويجيب «ياجنافالکيا» بشرح «يوغا» (أي رياضة النفس) فيقول: إذا اقتلع الإنسان بالتزهد كل شهوات نفسه، لم يعد هذا الإنسان فردًا جزئيًا قائمًا بذاته، وأمكنه أن يتحد في نعيم أسمى مع روح العالم، وبهذا الاتحاد يخلص من العودة إلى الولادة من جديد؛ وهنا قال له الملك الذي غلبته حكمة الحكيم على أمره، قال: «أي سيدي الكريم، إنني سأعطيك شعب فيديها وسأعطيك نفسي لتكون لك عبيدًا»^(٢).

فهؤلاء الممارسون لليوغا يعتبرون اليوغا جنة صارمة؛ لأن الفرد هناك لم يشعر بفرديته^(٣)، بل كل ما سيتم هنالك امتصاص الفرد في الوجود، هو عودة الجزء إلى

(١) راجع: كَاثَه أوبانیشادة من (١٠) إلى (١٨).

(٢) راجع: بْرِيهَدَارَنَّتْ أوبانیشاد (٤/٤ - ٤/٤).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور رادها كريشنان: الفكر الفلسفي الهندي ص (٢٣٩).

الاتحاد بالكل الذي انفصل عنه حينًا من الدهر؛ «فكما تتلاشى الأنهار المتدفقة في البحر، وتفقد أسماءها وأشكالها، فكذلك الرجل الحكيم إذا ما تحرر من اسمه وشكله يفنى في الشخص القدسي الذي هو فوق الجميع»^(١).

٨) سقوط التكاليف بعد الحصول على موكشا (أو علم برهمان)

جاء في بعض الأوبانيشادات أن من عرف الحق فإنه لا يحتاج أن يفرق بين الخير والشر، بل له أن يفعل ما يشاء^(٢).

وأساس هذه النظرية: أن الفضيلة توجد في المعرفة، فمن أراد الحياة الطيبة بحث عنها في هذه المعرفة، وأن المعرفة تطهر الشخص من كل ذنوبه في الماضي وتخول للعارف أن يفعل ما يحلوه.

ولكن الخطر في مثل هذه النظريات يكمن في النظر إلى قواعد الأخلاق، التي اتفقت عليها الديانات والتقاليد والعقل الاجتماعي، من أنها تنزل إلى مستوى تصبح فيه لا معنى لها، ويصبح الشخص الذي يصل إلى الدرجة المقول عنها إنسانًا لا ينظر إلى الفعل الذي يقوم به أنه خلقي أو غير خلقي.

وتقول شانديوغا (٤/ ١٤ / ٣): «كما أن ورق اللوتس لا يبقى فيه الماء فهكذا كل من تعرف على علم برهمان لا تمسه الآثام والذنوب»^(٣).

وتقول أوبانيشادة كوشيتكي: «من وصل الأعلى فقد تعالى عن القوانين»^(٤).

وفي أوبانيشادة تائيطريا: «فلا يصيبه خوف من أنه لم يعمل الخير، أو أنه قد ارتكب الفواحش»^(٥).

(١) المصدر السابق ص (٢٣٨)، وأصله في مُنْدُك أوبانيشادة (٣/ ٢). ومثله في شانديوغا (١/ ١٠ / ٦).

(٢) انظر بُرِيَهْدَآرَنُك (١/ ٥ / ٧٤).

(٣) وانظر مثله أيضًا في شانديوغا (٥/ ١٤ / ٣-٥).

(٤) كوشيتكي أوبانيشادة (١/ ٤)، (٣/ ١)، (٣/ ٨)، (٤/ ١٩).

(٥) أوبانيشادة تائيطريا (٢/ ٩ / ١).

وذهب بعض الباحثين إلى القول بأنه يجب ألا تؤخذ العبارات على ظاهرها، ذلك لأن الروح المستنيرة التي أخذت حظها من المعرفة العليا (Vidya) تصبح في حالة لا يفعل فيها الذنب أو الإثم، بمعنى أن من يريد المعرفة العليا لابد له أن يترك السيئات ويفعل الحسنات.

فقد جاء في بعض فقرات أوبانيشادة كوشيتكي ما يدل على ذلك منها:

فقرة ٣-١: الذي يعرفني (إندرا هو المتحدث نيابة عن أتمان العظيم) بعدم فعله أي شيء كان هو العالم المصاب بغير السرقة وبغير قتل جنين وبغير قتل أمه وبغير قتل أبيه، فإذا ارتكب سيئة فإن اللون الأسود لا يفارق وجهه (يعني يصيبه الخزي من جريرته).

كما أن أوبانيشادة كآث (Katha) طعنت في القول الأول، وقالت: إن الفضيلة والنظر إليها في كل فعل ضرورة لابد منها، لأن الفضيلة والعلم (الفيديا) ضرورتان إذا أريد الوصول إلى الكمال^(١)، وفي ذلك تقول كآث:

فقرة ٢-٢٤: الذي لا يتوقف عن خلقه السيئ لا يحظى ببرهما فيديا (علم برهما).

فقرة ٣-٧، ٨: الذي ليس لديه فهم، الذي هو غافل وأبداً دنس، لا يصل إلى الهدف المولود منه لا غير.

فالاختلاف بين هاتين النظريتين قائم على أن الأولى ترى حصول المعرفة العليا مهما أتى الشخص من ذنوب، أما الثانية فتقتصر هذه المعرفة على براءة الشخص من الذنوب، ولكنها جميعاً تتفق في أنه إذا تمت المعرفة فلا تثريب على الشخص مهما اقترف من سيئات^(٢).

(١) انظر: الفقرة ٢ / ٢٤ من الأوبانيشاد كآث. و ٣ / ٧، ٨ منه.

(٢) وهذه النظرية نقلها الغلاة من الشيعة إلى عقائدهم، وصوروها في قولهم: إن معرفة الإمام تجيز للشخص أن يفعل أي شيء دون أن يَأْثُم، وتسقط عنه الالتزام بالفرائض التي يتحتم على كل مسلم أدائها.

على أن تطور العقلية الهندوسية دفع بعض المفكرين أن يروا في هذا المنطق خطرًا عظيم البلاء فعارضوه^(١)، ولهذا نرى الهندوس تحث على الصدقات والرحمة والصدق والعفة والعدل وغيرها من الأعمال الصالحة، وتنهى عن الظلم وقتل النفس حتى المؤذيات من الحيوان، والكذب وسوء الخلق وغيرها من الأعمال السيئة، ولكنها تراها وسائل للوصول إلى برهمان لا المقاصد، فإذا وصل إلى برهمان أو معرفة برهمان فإنه حينئذ لا فرق بين الخير والشر على الإطلاق.

فالمثل الأعلى الأوبانيشادي إنما هو ترك الأهواء والميول، وفقد العواطف والهواجس، وأما أخلاقها الإيجابية التي تحض عليها فإنما هي درجات للرقى إلى المكانة العظمى، حتى إذا بلغ العارف إليها، لا يحتاج إليها بل لا تأثير لها في حطه ورقه^(٢)، جاء في بعض الأوبانيشادات: «هو أي: الذي صار أزلًا، علا على الاثنين: الخير والشر، لا يمسه ما يعمل وما لا يعمل، ولا ينقض حماه عمل، ويصير هو روح الكائنات وآتماء، يتلاشى في برهمان، فأعماله هي أعمال برهمان لا له، ولا يهوي إلى شيء، ولا يريده»^(٣).

يقول بريَهْدَارْتَنك: «فمن يصير أتمان فلا يبقى معه شيء من لذائذ النوم واليقظة، فكأنه نائم نومًا ليس في شيء حتى الرؤيا، وتفني العواطف كلها، فينجو من كل قيد، من الآباء والأمهات بل من جميع العالم، فلا يبصر شيئًا وتصير البصارة عينه، ليس بينه وبينها حجاب، وهذه البصارة لا زوال لها، فليس شيء سواه، فيرغب فيه ويتمناه، ومن عرف أنه هو أتمان فأى أمانة له حتى يؤذي لها جسده»^(٤).

وجاء أيضًا: «فالسعيد من لا يميل إلى شيء فيطمعه ويطلبه، فيتأذى إذا خاب أو

(١) انظر ما ذكره محمد جابر عبد العال الحيني: في العقائد والأديان ص (١١١).

(٢) انظر ما ذكره عبد السلام رامبوري: فلسفة الهند القديمة ص (٢٩-٣٠)، مجلة ثقافة الهند، مارس ١٩٥٣.

(٣) انظر بريَهْدَارْتَنك (٤/٥/١٥).

(٤) راجع بريَهْدَارْتَنك (٤/٣/١٩، ٢٠، ٢٢-٣٣).

يتألم إذا فقد ما كان قد فاز به». وكان العرفاء لا يتمنون الأولاد قائلين ما ذا نفعل بالأبناء، ونحن العالم بأنفسنا! ^(١)

هذا، وإن هناك مواضيع فردية ودروس فرعية تطرقت لها بعض أسفار الأوبانيشادات خاصة، سأذكرها مفردة عندما أقوم بدراسة الأوبانيشادات مستقلة.

مكانة الأوبانيشادات:

الأوبانيشادات الشيدية مهمة جدًا لدى الهندوس، لها مكانة مرموقة خصوصًا في أوساط علمائهم، بل الحق الذي لا مرية فيه: إن هذه الأوبانيشادات هي التي تدور عليها الديانة الهندوسية الجديدة، فالفلسفات الست - الآتية الذكر - كلها مأخوذة من محاورات الأوبانيشادات ^(٢)، وأغلب العقائد المتعلقة بالإله والكون والحياة مستمدة من هذه الأوبانيشادات، فهذا التأثير لا يمكن إنكاره، ولا جحوده.

فهذه الأوبانيشادات سيطرت على فلسفة وديانة الهند لمدة ثلاثة آلاف سنة تقريبًا.

ثم هناك شيء آخر جعلها مقبولة لدى أوساط الهندوس كلهم، وهو أن الأوبانيشادات ليست مقصورة على البراهمة؛ فالمعرفة السامية التي تتضمنها لا تبدو أبدًا وكأنها حكر على طبقة أو جنس مميز؛ وأي رجل وأية امرأة من أدنى الطبقات، أو أي إنسان مجهول النسب، يمكنهم معرفتها إذا كانوا أهلاً لفهمها دونما نظر إلى النسب أو إلى الطبقة، شأنهم في ذلك شأن البرهمي أو الأمير.

ويرجع بعض المحللين ^(٣) ذلك إلى أن تعاليم وأفكار الأوبانيشادات صدرت عن حكماء يناوئون الامتيازات التي يخص البراهمة أنفسهم بها، وأول هذه الامتيازات أنهم وحدهم الذين يستحقون المعرفة السامية. ومع أن الأوبانيشادات كانت سرية فإنها

(١) انظر برينهد آرثك (٤/٤/٢٢).

(٢) انظر ما ذكره برمود بندهو شين غوبت: بهارتى درشن (٣/٥٨-٦٣).

(٣) مثل جان فيليوزات في كتابه: فلسفات الهند ص (١٢).

كانت تُباح لأي شخصٍ يمكنه أن يكون أهلاً لفهمها وتلقينها من المعلم بصرف النظر عن وضعه الاجتماعي أو نسبه. فالشرط في معرفتها إذن هو الأهلية للفهم؛ الأمر الذي يجعلها غير مضمون بها على أي فرد لا ينتمي إلى طبقة البراهمة.

وأما غير الهندوس فانقسم الناس في تقويم هذه الأوبانيشادات إلى قسمين:

فمنهم من يعلي شأنها، ويقدمها على كل شيء، من هؤلاء: العالم الغربي شوبنهاور، الذي يقول: «إنك لن تجد في الدنيا كلها دراسة تفيدك وتعلو بك أكثر مما تفيدك وتعلو بك دراسة أسفار أوبانيشاد؛ لقد كانت سلووي في حياتي، وستكون سلووي في موتي»^(١).

ويقول ماكس مولار: «هي منهاج وصل فيه التأمل الإنساني قمته العليا»^(٢)

ويقول ول ديورانت: «كانت أسفار الأوبانيشاد أقدم أثر فلسفي ونفسي موجود لدى البشر، ففيها مجهود بذله الإنسان دقيق دعوب، يدهشك بدقته وما اقتضاه من دأب، محاولاً أن يفهم العقل وأن يفهم العالم وما بينهما من علاقة...»^(٣).

ويقول الدكتور أحمد شلبي: تعتبر الأوبانيشادات خطوة جريئة في سبيل الحرية الدينية وتخليص الدين من الرسوم البرهمية، وبها أبعدت الآلهة أو قل الاهتمام بها، وهدأت الأدعية وندرت القرابين، وانحطت المراقبات اللاهوتية، وحلّ العلم والعرفان محل ذلك، ولولا بقايا من الشعور الديني لكانت الأوبانيشادات فلسفة محضة.

وكتب برهمانا تمثل مذهب القانون ودين الأمة التي تركت البداوة ولم تتعمق بعد في الحضارة، أما أرثوذكس الفكر من القانون إلى الروح فهو مَعْبَرٌ تاريخي، وتجيئ بعده الأوبانيشادات حيث مذهب الروح الذي هو المرتبة العليا في سلسلة الارتقاء

(١) انظر: نقله ول ديورانت في قصة الحضارة (٣/ ١/ ٤٣)، عنه، وقد نقله أيضاً:

Max Muller, India what can it teach us? London, 1919. p. 254.

(٢) اقتبسه عن مولر: كرشنا ومور، الفكر الفلسفي الهندي، ص (٧١).

(٣) انظر ما ذكره ول ديورانت، قصة الحضارة (٣/ ١/ ٤٣).

الديني (١).

ويقول ول ديورانت: «من فوائد أسفار الفيدات لنا أنها تعرض علينا الدين وهو في طريق التكوين، فنرى مولده ونموه وموت الآلهة والعقائد، ونرى ذلك بادئين من النزعة الروحانية البدائية حتى تبلغ وحدة الوجود الفلسفية؛ بادئين بالخرافة في «فيد آثاربا» أي سفر السحر» ومنتهمين إلى الوحدانية الجليلة كما ذكرت في أسفار «أوبانيشاد» (٢).

فهؤلاء يعتبرون الأوبانيشاد من الكتب ذات القيمة من ناحية الفلسفة الواردة فيها. وبمقابل هؤلاء جماعة آخرون لا يرون للأوبانيشادات قيمة تذكر.

فمنهم: من يراها من سخافات العقول البشرية، يقول أحمد عبد الغفور عطار في هذا: «كان الأوبانيشاد اسمًا على مذهب فلسفي في كتاب ما يزال موضع الاحترام والإعجاب منذ ألفه مؤلفوه من الحكماء والكهان، ما يزال الأوبانيشاد موضع الإعجاب حتى عصرنا هذا في الشرق والغرب حتى بالغ بعضهم مثل شوبنهاور حتى رفع قدره على كل كتاب في الأرض، مع أن أسفاره الكثيرة «ملينة بالسخافات والمتناقضات» (٣).

ويقول أيضًا: «ولعل ما فيها من تشاؤم حمل شوبنهاور إلى أن يلتقيها ويفتن بها، وقد أشاد بها غير شوبنهاور، وكثير من الأوروبيين حتى غالوا في تمجيدها كل المغالاة فانخدع بمغالاتهم كثير من العرب والمسلمين، وظنوها أكبر انطلاق للعقل البشري من سجنه لمجابهة مشكلة الوجود - كما زعم الأوروبيون المولعون بتقديس ما ينسب إلى من كانوا أسلافهم من الآريين - مع أنه انطلاق حسي في صحراء الوهم والظنون» (٤).

ومع أن شوبنهاور رفع الأوبانيشاد إلى أعلى مراتب الأسفار الخالدة وآثرها عليها وشاركه غيره في هذا التقديس والحب والإعجاب إلا أن في الأوبانيشاد نفسه

(١) انظر ما ذكره أحمد شلبي في أديان الهند الكبرى ص (٤٨).

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة (٣/ ١/ ٣٣).

(٣) عطار، أحمد عبد الغفور، الديانات والعقائد في مختلف العصور (١/ ١٠١).

(٤) انظر المصدر السابق (١/ ١٠٤).

وفي أسفارها ما يدل على ما وجه إلى الديانة التي يمثلها الأوبانيشاد من النقد والهزاء والسخرية والهدم.

ففي «شاندويغا» ما يفصح عن وجود سخرية من الحكماء بالكهنة البرهمنين حتى أنهم شبهوا هؤلاء بكلاب يعض كل كلب ذيل سابقه في موكب طويل وهو يقول في زهد وتقى: لنأكل ولنشرب.

كما يوجد في بعض هذه الأسفار إنكار للإله ولكل ما في ديانة البرهمنية، واتهام لمؤلفي الأوبانيشاد وأسفاره الكثيرة بأنهم حمقى ومرضى ومهووسون. وكان هناك فلاسفة ملحدون بالنسبة للديانة الفيدية والبرهمنية يجاهرون بكفرهم وإلحادهم ويهاجمونها ويسخرون بما فيها أشد السخرية^(١).

وكان هناك فلاسفة متنقلون من بلد إلى بلد، ومن غابة إلى غابة وهم يعلنون الحرب على الديانتين - الفيدية والبرهمنية - ضروسًا عنيفًا، ولقوا معجبين ومريدين وتلامذة، وقفوا على نقیض التزهيد والتشاؤم، ودعوا إلى اللذة وانتهابها وانتهاز كل فرصة إليها، لأن ما مضى لن يعود، وليس هناك وحدة وجود ولا براهما، بل بلغ ببعضهم الحق إلى حد أنه قال: لا فرق في الحقيقة بين الإله بشئ وأي كلب من الكلاب.

وكثر الزنادقة والملحدون بالنسبة للديانتين حتى امتلأت الهند بأتباعهم وكثر الجدل بينهم وبين المتدينين بهما، ولكنهم حطموا آلهتهما تحطيمًا، حتى زلزلوا قواعد العقيدة الدفينة في ملايين النفوس مما جعل فراغًا في ملايين أخرى، وشكًا عند آخرين، وتململًا عند كثيرين.

بل انتصر الزنادقة والملحدون - هؤلاء - انتصارًا كبيرًا في مجال الفكر والمنطق والمادية حتى أن الديانتين اللتين جاءتا بعد الديانتين السابقتين وهما الجينية والبوذية خلتا من فكرة الإله ومن الطقوس التي ابتدعتها الكهنة^(٢).

(١) راجع المصدر السابق (١/١٠٥).

(٢) انظر: المصدر السابق ص (١٠٥-١٠٦).

فأي خير في مثل هذه الأوبانيشادات التي لم تأت بأي حل لمشاكل الناس العقدية، بل زاد الأمر تعقيداً وغموضاً وتناقضاً، وجاء بما تمجه الفطرة السليمة وتستبعده العقول المستقيمة؟

فإن هذه الأوبانيشادات كانت جل اهتماماتها في البحث عن إجابة عدة أسئلة، هي: من أين أتينا؟ وإلى أين ننطلق؟ وكيف أتينا؟ ومن خلقنا؟ وما طبيعة ذلك الخلق؟ إلى آخر هذه الأمور الغيبية، وهذه الأوبانيشادات ما جاءت بقول فصل في أي من هذه المواضيع المطروحة.

عندما جاءت مسألة الخلق جعلها في بعضها صادرة عن البرهمن واضطربت اضطراباً شديداً، واختلفت الأوبانيشادات في تحديد البرهمن والروح الأعلى اختلافاً كبيراً لا يمكن التوفيق بين تلك الآراء، كما وجد في بعضها إنكاراً للخالق، وجعل في بعضها الخالق والمخلوق شيء واحد بقول وحدة الوجود.

فهؤلاء الذين يثنون على هذه الأوبانيشادات من الأوربيين ومن تأثر بهم فقد جاءت مبالغاتهم من عدم وجود عقيدة صحيحة لديهم عن الخلق المباشر، وعدم تيقنهم بما جاء في كتبهم المقدسة من ذلك، وربما كان لدى بعضهم رأي خاص في هذه القضايا، فوجد في هذه الأسفار ما يمكن أن يستند إليه في دعم رأيه، كما هو حال شوبنهاور^(١) حيث كان متشائماً جداً، فلما وجد في بعض هذه الأوبانيشادات مشكلة الحياة وكيفية الفرار منها وافق ذلك هواه فعلى في تقديسها، وربما كان من أسباب إعجاب بعضهم من قبيل تمجيد أمجاد أسلافهم الآريين كما قال أحمد عبد الغفور عطار.

أما بقية القضايا التي طرحها أسفار الأوبانيشاد، فإنها أيضاً لم تأت بأي حل صحيح مقبول لدى العقلاء لأي سؤال من هذه الأسئلة، بل كل ما جاء بها من الأجوبة

(١) هو آرثر شوبنهاور، فيلسوف ألماني، ولد سنة ١٧٨٨م، ١٢٠٢هـ، وتوفي سنة ١٨٦٠م، ١٢٧٦هـ.

انظر ترجمته مفصلاً فيما ذكره الأستاذ روني إيلي ألفا: موسوعة أعلام الفلسفة، العرب والأجانب (٢/٤٢-٤٩).

إجابات صبيانية غير مقبولة في العقول المستنيرة السليمة، بل ومخالف للحس والفطرة في أغلب الأحيان.

الفرع الثاني: دراسة بعض الأوبانشادات المهمة^(١)

دراسة عن إيشا أوبانشادة:

التعريف بها:

هذه الأوبانشادة أصغر الأوبانشادات وأقصرها، وتشتمل على ثماني عشرة فقرة، سميت بـ «إيشا» لأنها أول كلمة وردت فيها، وهي تابعة لياجورفيد الأييض^(٢)، حتى تراها في بعض الأحيان مطبوعة في آخر ياجورفيد الأييض فرع بازشانيا^(٣)، ولهذا قد يسمونه بـ «بازشانيا شَنْغُهُتُونِشَاد».

إن كثيراً من علماء الهندوس يعتبرون الكتب المكتوبة بالنشراً أقدم من الكتب التي كتبت بالنظم، وهذه الأوبانشادة كتبت بالنظم مع ذلك ترى كثيراً منهم يعدون هذه الأوبانشادة أقدم الأوبانشادات على الإطلاق، لكونها تابعة لياجورفيد الأييض مباشرة، والتي هي من جملة «شَنْغُهُتَا» (المتون مجموعة)، أما بقية الأوبانشادة القيدية فهي تابعة لبرهمانا أو أَرَنْك (الشروح والتعليقات الأولية) للقيادات، ومعلوم لدى الجميع أن برهمانا وأَرَنْك متأخرة في الوجود عن جملة شَنْغُهُتَا (متون القيادات)، وإذا كانت هذه الأوبانشادة تابعة لشَنْغُهُتَا، فهي تكون على هذا الرأي أقدم الأوبانشادات على الإطلاق من جميع الأوبانشادات التي هي تابعة لبرهمانا أو أَرَنْك.

شروحها:

من القدماء الذين علقوا على هذه الأوبانشادة: شنكرأجاريا، وماذوا، ورامانج، ولأهميتها البالغة عندهم ترى كثيراً من علماء الهندوس في العصر الحديث أيضاً اتجه إلى ترجمتها وشرحها، من ذلك «سِرِّي أوروبندو» ورادها كرشنان، فإنهما شرحاها شرحاً

(١) تمت الاستفادة في دراسة الأوبانشادات الآتية من المقدمات التي كتبها علماء الهندوس في بداية كل أوبانشادة.

(٢) هو أحد القيادات، وقد تقدم ذكره سابقاً.

(٣) تقدم التعريف ببازشانيا، عند الكلام على ياجورفيد الأييض.

مستفيضاً، كما أن هناك شرحاً لبعض أبياتها من قبل «مهاتما غاندي» والشاعر المشهور الحائز على جائزة نوبل «رابندر نات طاغور» أيضاً شرح بعض أبياتها، وقد ترجمت هذه الأوبانيشادة إلى اللغة الإنكليزية سنة ١٧٩٩م على يد «سر وليم جيمس».

مضامينها ومكانتها:

إن هذه الأوبانيشادة مكونة من ثماني عشرة فقرة - كما سبق معنا - ومع ذلك تراها قد حوت أصول العقيدة، وجمعت بين أشياء متضادة وعالجتها للتوفيق بينها (وذلك مثل: الوحدة والكثرة، المعرفة والعمل، العلم والجهل). وقد انبهر منها «مهاتما غاندي» حتى قال: لقد وصلت إلى نتيجة حتمية في أنه لو احترقت جميع الكتب المقدسة وجميع العلوم والفكرات والأوبانيشادات، وبقي البيت الأول من هذه الأوبانيشادة فإن الديانة الهندوسية تبقى غضةً طريةً بفضل هذا البيت العريق، لما يحتويه من المعاني السامية والعريقة. حتى أن أحد الهندوس الكبار المسمى بـ«ديندراناث طاغور» تغيرت وجهته في الديانة الهندوسية بفضل البيت الأول من هذه الأوبانيشادة.

مع قصر هذه الأوبانيشادة ترى لها مكانة مرموقة في الأدب الفيدانتية^(١)، فقد بدأ الكلام فيه بدعوة الناس إلى أن يروا كل شيء منور بنور الرب وبرعايته، ثم ينظر إلى التضحية (البذل والعطاء) والتمتع بأن لا تضاد بينهما، والحياة ليست من الأشياء التافهة، بل هي ثمينة، لا بد من العمل في هذه الحياة، ولكن بدون الركون إليها، بل تكون راغباً عنها.

نماذج من أفكار إيشا أوبانيشادة:

هذه الأوبانيشادة تحوي بعض الأفكار والعقائد المتعلقة بالآله وطريق النجاة، وخاتمة الإنسان، وفيها نصوص غاية في التعقيد، وقد اخترت اثنتي عشرة فقرة نماذج لوضوحها من ثماني عشرة فقرة.

(١) نسبة إلى فيدانت، وسيأتي التعريف بها مفصلاً في الفرع الثالث بمشيئة الله.

(طلب الرحمة)

يا قدير فليحفظ برهمان كلينا وليمنح كلينا ثمرة المعرفة.
وليأت لنا كلينا لتحصيل المعرفة ولتندارس معًا ما يكشف الحقيقة،
ولنحتفظ بشعور غير سيء نحو بعضنا بعضًا،
يا قدير ، سلامًا ، سلامًا ، سلامًا (أوم، أوم، أوم).

١ - كل ما تجد من الأشياء المتحركة تعتقد أنها لأجل سكنى الرب
(أو المعنى: لا بد أن تعتقد أن كل شيء متحرك في العالم مغطى بغطاء الرب)
فلتتمتع بالبذل والعطاء ولا تحرص على الأموال (سواءً كان لك أو للغير). (فإن
الذي وقى نفسه من الرغبات هو الذي حرر نفسه من القيود، وبهذا يحصل له التمتع
الأبدي).

٢ - الناس يريدون أن يعيشوا في هذا العالم مائة سنة، وهو يعمل أعماله، ولكن
الشخص الذي يحظى بذلك هو الذي يتمتع بالبذل والعطاء ، ولا يكون بغير
هذا أبدًا. فلا ترتبط بأعمال العالم كثيرًا ، نعم تعمل ولكن كن باذلاً سخياً.

٣ - الذين يجهلون حقيقة النفس مصيرهم دياجير الظلم والعذاب فيما بعد
الموت، فهذه العوالم بعد الموت تغلفها الظلمات العمياء^(١).

٤ - هو (أي: برهمان) يتحرك ، وهو لا يتحرك، هو بعيد ، وهو قريب، هو في كل
هذا، وهو خارج كل هذا^(٢).

(١) نرى فيه إثبات العالم الآخر، ولكن الذي نلاحظ أنهم لا يجعلون للجسد قيمة، وإنما الحياة
الأخرى عندهم للروح فقط.

(٢) يعني: لا بد من الشعور بهذه النفس الكلية، ولا بد أن نفهم أن كل ما نراه من النشاط الخارجي
فهو برهمان، وما نراه من عدم النشاط في كثير من الأشياء، والركود فهو أيضًا برهمان، فالجريان
وعدم الجريان، والنشاط وعدم النشاط، والسرعة وعدم السرعة كل هذا ملصق بـ«برهمان» =

٥- هو قائم على الضوء (أو مشع)، اللاجسم، اللاضرر، اللاعضل، النقاء، اللاطعن بالشر (الذي لا يخترقه الشر!)، حكيم، فطن، محيط، موجد لنفسه، وقد وزع الأشياء بحكمة وتناسب في السنين الدائمة، وخلال السنين الأبدية، حسب أعمال الناس وجهودهم.

٦- الذين يعبدون الجهل، (أي: يبتهجون في حكمتهم ويقدمون قرابين «أغني هوتر»^(١)) يدخلون في مملكة الظلمة العمياء، والذين يعبدون العلم (أي العلم بدون عمل، والمقصود عبادة الآلهة) يدخلون ظلامًا أشد من ظلام أولئك^(٢).

٧- الذي يعرف هذين (الفرق بين الجهل والعلم) مجتمعين ويعلم أن هذين يكونان عند الإنسان في آن واحد، فإنه يحصل على الخلود وينال الرحيق الذي لا يتفد بالعمل بما أمر في الكتب وهو البحث عن الموكشا (الخلاص والانعتاق والانطلاق).

أو المعنى: فالذي يعرف الاثنين معًا من المعرفة واللامعرفة فإنه يتخطى الموت باللامعرفة ويكسب الخلود بالمعرفة.

٨- الصيرورة والخراب (أو المتغير وغير المتغير)، الذي يعرف هذين مجتمعين،

= فكل ما نراه في هذا العالم من الأشياء المتنوعة، والحوادث الماضية والحالية والمستقبلية، كل هذه الأشياء مظاهر هذا الـ«برهمن»، ولهذا قيل: هو بعيد وهو قريب، وهو خارج وهو داخل، يعني: إنه في مكان مظلم عند الجاهل، وهو في داخل النفس عند العالم. وهو في هوة عميقة عند غير السالك، وأما السالك فهو يحصل عليه بسهولة، فهو حسب النفوس.

(١) هي نوع من الطقوس لا بد وأن يمارسها كل هندوسي كل يوم، يقدم القرابين فيها للنار للآلهة والآباء، في الصباح والمساء، ويتكون من حليب ولبن أو رز، وهي طقوس الحياة كلها. انظر ما ذكره أَمَلْ كُومار بندوباداي: بُورَنِيكا (١/ ٢٠).

(٢) قال شارحها: يقصد هنا: إن الذين يعملون ولا يعلمون شيئًا يدخلون في الظلمات، والذين يتعلمون أي يعبدون أصنامًا، ولا يعملون شيئًا من الخير، يدخلون في عالمِ ظلماته أشد مما مضى.

يحصل له اجتياز الموت بالخراب (أي عبادة المتولد من الطبيعة المعروف بـ«برهمان» العملي^(١))، أو البيضة الذهبية، سمّي بالخراب لأنها متغيرة)، ويحصل له نيل الخلود بعبادة الطبيعة الأصلية التي لا اسم لها.

٩- أيتها الشمس «بوشان» (Pushan) إن وجه الإنسان الكامل الحقيقي الساكن في عالم الشمس مغطى بوعاء ذهبي والذي هو ضياءك الباهر، ألا فلتكشفه يا بوشان راعية العالم «الشمس»، فقد عبدناك حقاً فإننا نريد منك أن تكشفه حتى نشعر بصدق ديانتنا، فإننا نريد رؤيته.

١٠- أيتها الطاعم المغذي، الناظر (الرائي) الوحيد، أيها المنظم (يا حافظ الأشياء)، أيتها الشمس، سليل پر جاپتي (prajapati) انشري أشعتك، اجمعي ضياءك! ما شكلك الواضح الذي أراه منك؟ ذلك الذي يحيا بعيداً، الشخص البعيد من ورائك^(٢)، أنا بنفسي (بذاتي) هو!

١١- (عند الموت يقولون) إني أتوق أن أنتفس الريح السرمدي الأبدى عندما يتحول جسدي إلى رمادٍ! يا غايتي، يا «أوم» (كلمة رمزية مقدسة يستعملونها لـ«برهمان») تذكر يا قلبي المقصود! تذكر العمل يا قلبي! تذكر المقصود! تذكر العمل! (أي: أترك الآن متاع الدنيا، بل اذكر هذا الـ«برهمان» القائم على كل شيء، حتى تحشر بـ«المركب الإلهي»^(٣))، الذي لا مردّ منه إلى الحياة الدنيا مرة أخرى).

(١) والمقصود بـ«برهمان العملي» الذي يوصف، ويطلق عليه أسماء كثيرة حسب الوصف، وأما برهمان الذي لا يوصف فهو لا يفعل شيئاً.

(٢) كأنه يقول: إن الشمس بذاتها لا تملك نفعا، وإنما الذي ينفعنا الرجل الكامل الموجود فيها. راجع شرح مجموعة الأوبانيشادات ص(٢٧).

(٣) دخول الجنة عند الهندوس على قسمين: دخول الجنة بما يسمى بـ«المركب الإلهي»، فلو ذهب أحد بهذا المركب لا يرجع إلى الحياة الدنيا مرة أخرى، بل يحصل له «الموكشا»، والخلاص. ودخول الجنة بما يسمى بـ«مركب الوالد» فإنه يمكث في الجنة حسب أعماله، ثم يرجع إلى الدنيا، فلا يحصل له موكشا أو الخلاص.

١٢- يا أغني: اهدنا الصراط الطيب للسعادة «المركب الإلهي»، فأنت رب تعرف كل الطرق، أبعِدْ عنا الأساليب الملتوية للخطيئة!، إننا نقدم لك أعظم عبارات التمجيد!

هذه الأدعية الأخيرة في هذه الأوبانيشادة ابتهاج إلى الإله عند من يحضره الموت، فيخاطب الإله أغني (النار) بقوله: يا أغني، يا من يعرف ما في نفسي، يا إله الجميع، أنت تعرف كل ما فيّ من خير وشر، فاعف عني كل ذنب وخطيئة، ونق قلبي من الدنس والأرجاس، وأخرجني من الظلمات إلى النور، وحررني من قيد الأغلال، وأدخلني في دار السرور، يا إله العالم، في هذه اللحظة الأخيرة ما أستطيع أن أفعل غير هذا الشيء، فأقدم إليك السلام، وأقدم إليك تحياتي^(١).

(١) تمت الاستفادة عند الترجمة إلى اللغة العربية بما ذكره الحيني، محمد جابر عبد العال: في العقائد والأديان، العقائد الكبرى المعاصرة ص(١٢٤-١٢٦). مع مراجعتي لأصل الألفاظ ومعانيها في الأوبانيشادة نفسها.

دراسة عن كينا أوبانيشادة:

التعريف بها:

تعود هذه الأوبانيشادة إلى سام فيد، سميت بـ «كينا» من اللفظة الأولى فيها، وهي مقسمة إلى أربعة أجزاء، الجزء الأولان منها نظمًا، والجزءان الأخيران منها نثرًا، إلا أنهم يعتقدون أن النثر الذي فيها هو أقدم في التأليف من المنظوم.

شراحها:

ممن علق على هذه الأوبانيشادة من القدماء: شنكرأجاريان، رنغ رامانوج، ومادهفا، وفي العصر الحديث أول ترجمة قام بها من السنسكريتية إلى اللغة البنغالية: الملك رام موهون، وشرحها «سِرِّي أوروبندو غهوس» شرحًا وافيًا.

مضمونها:

تحدث هذه الأوبانيشادة عن قدرة برهمان، وأنه هو العامل في الأشياء ومحدث الآثار للأعمال، فكل أثر فعل إنما يقع بفعل برهمان، وهذا ما نسمّيه عندنا بالجبر، فمن قولهم فيها: «إرادة من يعمل كل من القلب، والنفس، والحواس؟ من الذي يجعلها تعمل؟»، من هو الأمر الحقيقي لها؟، فأجيب: بأن الناس غالبًا ما تراه يصدق كل ما يشاهد، ويسمع ويتلفظ، ويعتقد أنها بنفسها تعمل كل شيء، وليس الأمر كذلك، بل الصحيح أن القلب والنفس والحواس لا تعمل بنفسها، بل الذي وراء أعمالها هي القدرة الخفية المسمى بـ «برهمان».

كما أن النار تحرق كل شيء، ولكنها لا تحرق نفسها، هكذا جميع أعضائنا تدار من قبل قدرة نفسنا، وتعمل كل ما قدر لها، ولكن هذه الأعضاء لا تعلم عن قدرة النفس «برهمان» شيئًا.

وذكروا تأييدًا لذلك قصة «النار» حيث إن برهمان أمرها أن تحرق شيئًا من العشب فلم تستطع لأنه منع احتراقه - هكذا زعموا - ومما فيها أيضًا تأكيد أن معرفة برهمان على الحقيقة غير ممكنة.

نماذج مما جاء في الأوبانيشادة «كينا»:

من دفع العقل المدبر يُحَلَّق؟

من حتم على النفس الأول أن يخرج؟

من دفع هذا الكلام فينطق الناس؟

والعين والأذن ، أتساءل ، ما الذي حتم عليهما الرب؟

الذي هو سمع للأذن وفكر للعقل،

وصوت للكلام وكذلك التنفس للنفس

والنظر للعين! ماضي هذه عند الحكماء وهو منفلت،

عند فراق هذا العالم ، يصبح خالداً .

هناك العين لا تعمل،

والكلام لا يخرج، وكذلك العقل.

نحن لا نعرف ولا نفقه،

كيف الفرد يتلقنه.

هو بحق شيء آخر غير المعروف،

زد على ذلك أم هو أكثر جهالة من المجهول،

لذلك استمعنا للأقدمين،

الذين فسروه لنا.

هو غير المعبر بالكلام،

هو الذي به الكلام يعبر،

ألا فاعرفه أنه برهمان،
ما هذا كهذا الذي يعبد الناس.

الذي يراه الفرد لا بالفكر (أو: الذي يفكر لا بعقل)
هو ما به يقولون الفكر يفكر
ألا فاعرفه أنه برهمان،
ما هذا كهذا الذي يعبد الناس.

الذي يراه المرء لا بالنظر، (أو: الذي يرى لا بعين)
الذي به يرى المرء المرثيات
ألا فاعرفه أنه برهمان
ما هذا كهذا الذي يعبد الناس.
الذي بتنفسه المرء لا بالنفس، (أو: الذي يتنفس لا بنفس)
الذي به النفس يخرج
ألا فاعرفه أنه برهمان
ما هذا كهذا الذي يعبد الناس^(١).

(١) أوبانيشادة كينا، الجزء الأول، وانظر أيضًا ما ذكره الحيني، الدكتور محمد جابر عبد العال:
في العقائد والأديان الديانات الكبرى المعاصرة ص (١١٣-١١٤). فقد تمت الاستفادة منه في
الترجمة مع مراجعتي لأصل الكتاب وتصحيح اللازم.

دراسة عن كآئه أوبانيشادة:

التعريف بها:

هذه الأوبانيشادة تابعة لـ«ياجور» قيد الأسود نسخة تائيطريا، سميت بهذا الاسم لكونها تابعة لبرهمانا «كاتاك»^(١)، أو «كآئه»، وهي مقسمة إلى فصلين - حسب ترتيب شكرأجاريا - كل فصل مكون من ثلاثة مباحث، إلا أن «مادوا» قسمها إلى ستة أقسام، ولم يجعله حسب الفصول، فنتج عن هذا خلاف أيضاً في عدد ما تحويه من النصوص، وقد ذهب الدكتور «ويبر»، والدكتور «روي» - من علماء الغرب - إلى أن هذه الأوبانيشادة كانت في البداية على فصل واحد مقسماً على ثلاثة مباحث، ثم زيد ما زيد فيما بعد، وقد توصلنا إلى هذه النتيجة بأن نهاية المبحث الثالث توحى بأن الأوبانيشادة قد انتهت، كما أن القسم الثاني تكرر فيه بعض ما جاء في القسم الأول، وهذه الأوبانيشادة أفضل الأوبانيشادات عندهما. وقد ترجمه الملك «رام موهون راي» إلى اللغة البنغالية سنة ١٨١٧م، ثم خرجت الترجمة الإنكليزية لها بسنة ١٨١٩م.

ثم إن هذه الأوبانيشادة مشهورة عندهم ومهمة لأنها تقرأ على الموتى أو قراءتها من ضمن الطقوس الجنائزية.

مضمونها:

من أهم الموضوعات التي تطرقت لها هذه الأوبانيشادة ما يلي:

١ - إن النفوس البشرية كلها واحدة، وهي النفس الكلية:

هذا الموضوع سائد في سائر الأوبانيشادات، فتحدد الأوبانيشادة علاقة الروح (آتمان) بالجسد على أساس أن الروح تمتطي مركبة الجسد، والذكاء هو القائد، والعقل هو اللجام، أما الحواس فهي بمثابة الخيول التي تجر المركبة، والموضوعات التي تدركها الحواس تشبه الأشياء التي تمر عليها الخيول، وتعتبر موضوعات الإحساس أسمى من الإحساس ذاته، لكن العقل أسمى من تلك الموضوعات، والذكاء يفوق

(١) هي إحدى البرهمانات التي كانت شروحاً مباشراً للفيدات، ثم قامت الأوبانيشادات عليها.

العقل، أما الروح فاسمى من الذكاء، والأسمى من الروح هو ذاك الذي لا يظهر، وهذا الذي لا يظهر يوجد ما هو أسمى منه، إنه الشخص، ولا يوجد أعظم من هذا الأخير^(١).

ضرب في هذه الأوبانيشادة مثال للحوار الواقع بين ياما (ملك الموت) وبين «نشيكيثا» (اسم شخص، ولكن معناها الحرفي: الذي ما عَرَفَ بعد)، فالسائل هو «نشيكيثا» والمجيب هو «ياما»، وقد استعملت هذه الاستعارة لإظهار المكانة السامية لـ«علم برهمان»، كأنهم أرادوا تبسيط هذا العلم بذكره بالحوار بين شخصين مرموقين حتى يتضح العلم^(٢).

والقصة هي: إن أحد علمائهم المدعو «بازسروش» قام بذبح قربابين، ولكن البقرات التي أتى بها لأجلها كانت هزيلة جدًّا، وهرمة وغير مرغوب فيها، فلما رأى ابنه «نشيكيثا» أن أباه يضحي بهذه البقرات التي لا يرغب فيها أحد، قال: أيها الوالد! لو أردت أن تقدمني لأحدٍ لمن تقدم؟ (وكان الولد يقصد أنه أعز مال أبيه، وكان الواجب على والده أن يقدم أعز ما عنده من المال)، وبدأ الولد يكرر سؤاله لدى والده، ولما تكرّر السؤال أجاب والده بضجر: «أقدمك لـ«ياما»، يقصد «ملك الموت»، ولما تفوه بهذه الكلمة طلب الولد من والده أن يفني بعهد، وألح عليه، حتى أرسله والده إلى مملكة ياما، ولكن الولد استطاع بذكائه المفرط أن يحصل على ثلاثة مطالب مهمة من «ياما»، وكان المطلب الأول منه أن يغفر لوالده، أما الثاني فالفوز بنيل الجنة، ولما جاء المطلب الثالث طلب الولد «نشيكيثا» منه أن يعلمه «علم برهمان»، واختبره «ياما» ملك الموت بأشياء كثيرة ومنعه من طلب هذا العلم بشتى الوسائل، ولما اجتاز الولد كل هذه الامتحانات علّمه «علم برهمان» الموسوم بعلم «حقيقة النفس الكلية».

(١) راجع ما ذكره الخشت، محمد بن عثمان: مقارنة الأديان، الفيدية، البرهمانية، الهندوسية ص(٩٠).

(٢) أما «نشيكيثا» وما جرى بينه وبين ياما ملك الموت، فهذه الشخصية أقدم من زمان الأوبانيشادات أيضًا، فقد جاء ذكرها في «ريگفيد (١٠/١٣٥)، كما جاء ذكرها أيضًا في «برهمانا تاتيريا» مفصلاً، ولكن مع فرق يسير بما جاء في هذه الأوبانيشادة.

ويمكن أن نجمل خلاصة ما جاء من أفكار في النفس الكلية «علم براهمان»^(١) فيما يلي:
 الأولى: النفس الموجودة في الناس جميعاً هي نفس واحدة، وهي النفس الكلية،
 ففي حيٍّ توجد تلك الروح الخالدة المطهرة، وهي منتشرة في العالم، ومن يموت وهو
 يعتقد ذلك فإنه يتلذذ برحيق الخلود ويستطيع أن يشعر بـ«برهمان» في جسده الفاني.
 الثانية: أن كل عبادة أو قربان لآلهتهم المتعددة إذا فعلها مع الحب والتعظيم وليس
 للعادة والتقليد فإنها مقبولة وموصلة إلى علم «برهمان».

يقول شارح هذه الآيات: هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها ابتداء فكرة
 «بهاكتيا»^(٢) (الحب والإخلاص مع الخشوع)، وهو يشعر كون بعض هذه الأفكار مما
 دخلت في هذه القصة متأخراً.

٢- دعوى التناسخ:

هذه العقيدة نرى بعض بذورها واضحة في كثير من نصوصها:

١- جاء فيها: «يفنى الفاني كما تفنى الغلال، ويعود إلى الحياة في ولادة
 جديدة كما تعود الغلال»^(٣).

٢- وجاء أيضاً: «يحصل النفس البشرية على الجسد مراراً وتكراراً حسب

(١) انظر أوبانيشادة كانه (٢/ ٣/ ١٧).

(٢) هو الحب والولع بمعنى العشق للإله، وهو الذي آل إليه الأمر في الهندوسية في نهاية المطاف.

(٣) كاتا أوبانيشادة، الفصل الأول، الفرع الأول، رقم الفقرة (٦). وانظر:

Radhakrishnan, s. India Philosophy p 250. Muller, Max, Six system of Hindu Philosophy p. 131.

ولا ينبغي أن نفهم من هذا النص أن التناسخ الذي تقررت عليه عقيدة الهندوس فيما بعد وجدت
 هنا كاملة، بل لا وجود لعقيدة التناسخ الحالية في كتب الأوبانيشادات، فضلاً أن يكون موجوداً
 في الفيدات، بل التناسخ الذي يظهر هنا يختلف كثيراً عما استقرت عليه عقيدة الهندوس الآن،
 وسيأتي مزيد بيان لذلك عند ذكر عقيدة الهندوس في التناسخ بإذن الله.

علمها وعملها، ومنهم من يدخل في النباتات والشجيرات»^(١).

٣- ويذكر الأوبانيشادة: إن هناك عروفاً كثيرة مع قلب الإنسان، منها ما امتدت إلى «براهمارندرا» أو أقصى الرأس، فمن يخرج نفسه من هذا الطريق، فهو الذي يتحد مع برهمان، ومن خرج من طريق آخر، فهو يولد مرة أخرى إما إنساناً أو دونه^(٢).

٤- يذكر الأوبانيشادة سبب التناسخ، فيقول: «إن الذي تعلم علم برهمان قبل موته يحصل على موكشا (النجاة)، ومن لم يعلم فإنه يتولد مراراً في هذا الأرض أو في عالم آخر»^(٣).

٥- ويقول: «عندما تموت الرغبة في قلب الإنسان، فهو يحصل على الخلود، وبهذا يتحد مع برهمان.

وعلى هذا: معرفة برهمان، وعدم الرغبة، هما اللذان يحققان النجاة والخلاص من تكرار الميلاد.

٣- خلود الروح (بعد الموت):

أكدت هذه الأوبانيشادة على أن الروح الأبدية لا تفتنى، وهذه الروح (آتمان) قائمة في قلب المخلوقات، وكل من يتجرد عن إرادة الشر، فإنه يحصل له الخلود^(٤).

ثم ذكرت: أن الفضيلة أعظم من اللذة وأن الحكيم يختار الفضيلة، والجاهل يختار اللذة^(٥).

(١) كاته أوبانيشادة (٧/٢/٢).

(٢) كاته أوبانيشادة (١٦/٣/٢).

(٣) كاته أوبانيشادة (٤/٣/٢).

(٤) انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان: القيدية والبراهمانية والهندوسية ص (٨٩).

(٥) أوبانيشادة كآته: الفصل الثاني، الفرع الثالث، رقم الفقرة (١١١-١١٥) وانظر أيضاً ما نقله الخشت، محمد عثمان: مقارنة الأديان .. ص (٨٩).

وتقول الأوبانيشادة:

فقرة: ٢ - ٢٤: الذي لا يتوقف عن خلقه السيئ لا يحظى بـ«برهمان فيديا».

فقرة: ٣ - ٧، ٨: الذي ليس لديه فهم، الذي هو غافل، وأبدًا دنس، لا يصل إلى

الهدف المولود منه لا غير.

٤ - يوغا:

وهي السيطرة على الحواس، وذلك بإيقافها تمامًا لتحصيل معرفة الروح^(١)^(٢).

تقول الأوبانيشادة في نهايتها:

ثم بتسلم نسيكتس (Naciketas) هذا العلم

مُبَلِّغًا من صاحب الموت، وقانون يوغا الشامل،

يحظى بـ«برهمان» ويتحرر من العاطفة ويتحرر من الموت.

وكذلك أي شخص آخر يعرف هذا بالنسبة للنفس (أتمن) يحصل على هذا العلم^(٣).

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان: الفيدية والبراهمانية والهندوسية ص(٩٠).

(٢) انظر: كآته أوبانيشادة، القسم الثاني، الفرع الثالث، رقم الفقرة (١١٧-١١٨).

(٣) انظر: كآته أوبانيشادة، الفصل الثاني، الكلام الثالث، من فقرة رقم ١١١ إلى فقرة رقم ١١٩.

الدراسة عن برشنا أوبانيشادة:

التعريف بها:

هذه الأوبانيشادة تابعة لأثاربافيد، مؤلفة بالنثر وإن كان يتخ الله بعض الأشعار، والمقصود بـ «برشنا»: السؤال، وهي ستة أسئلة موجهة من قبل التلاميذ لأستاذهم «بيلا» مع جوابها منه.

الشروح والتعليقات عليها:

وقد علق عليها كل من شنكرأجاريا، وماذوا، ورامانوج، وممن شرحه في العصور المتأخرة «رادها كرشنان».

مضامينها:

هذه الأوبانيشادة فيها أجوبة فلسفية عن أسئلة حول الخلق والإنسان، فذكر بيلا أن الإله الخالق «برجapati» عندما أراد خلق العالم قام بصنع زوجين أولهما مذكر، وهو الحياة تحت اسم «بران» (Pran)، وثانيهما مؤنث وهي المادة تحت اسم «راي»، وقام هذان الزوجان بصنع المخلوقات كلها^(١).

وتشير هذه الأوبانيشادة بشكل خاص إلى أسئلة حول النفس الكلية (الذات الشاملة والروح السامية في زعمهم) التي هي وحدها حقيقية وينبغي نشدانها، والتي يتم كل شيء بها من وظائف الإنسان وقواه إلى سائر ما يشبه ذلك^(٢)، فتجد فيها عبادة النفس الكلية، وتمجيدها، وجعلها وراء كل أعمال بني آدم، وأنها الملجأ الذي يتم اللجوء إليه مثلما تلجأ الطيور إلى الشجر لتجد مكاناً للراحة، يقول بيلا: «حقاً هذا الرائي، واللامس، السامع، والشام، والذائق، والمفكر، والصانع، أي النفس المدركة، الشخص - تلجأ إلى الروح العليا التي لا تفنى»^(٣). لأن الروح العليا هي الأساس الأسمى سواء للفرد أو

(١) أوبانيشادة برشنا، السؤال الأول، فقرة ٤-٥. يلاحظ: كأن فلسفة سانخيا الآتية الذكر عند ذكر

الفلسفات الست الهندية أخذت معظم فكرتها من هذه الفقرات.

(٢) انظر ما ذكره الدكتور علي زيعور: الفلسفات الهندية ص(١٢٣).

(٣) أوبانيشادة برشنا، السؤال الرابع، فقرة (٤٨-٤٩).

للعالم المتنوع^(١).

كما نجد تشابهاً كبيراً بين هذه الأوبانيشادة والأوبانيشادة «مُنْدُك» ، بل تكاد تكون هذه الأوبانيشادة اختصاراً لمحتوى ما جاء في «مُنْدُك أوبانيشادة».

بدأت الأوبانيشادة بذكر اجتماع ستة من محبي برهمان، من أبرزهم: شوكيشا، ستاكام، كوشلا، وسألوا أستاذهم پيلاّد ستة أسئلة تتعلق عن برهمان، وعن الكائنات، وكان السؤال الأول منها: من أين يتولد الأحياء؟ والسؤال الثاني: كم عدد الآلهة الذين يمسكون أجسام الأحياء؟ ومَنْ هُمْ - من الحواس العلمية والحواس العملية - الذين أظهروا في الأجسام أعمالهم المجيدة؟ وأيهم الأصل والأفضل منهم؟ ، والسؤال الثالث: من أين تتولد الأرواح؟ وكيف تأتي الأرواح إلى أجساد الأحياء؟ وكيف تخرج أيضاً من الأجساد؟ وكيف يمسك بالعالم - الظاهر والخفي - ؟ ، والسؤال الرابع: من الذي ينام في داخل الرجل؟ ، ومن الذي يبقى مستيقظاً؟ ومن الذي يحلم؟ ومن الذي يحصل له السرور والفرح؟ ومن الذي أسس كل هذه الأشياء؟ ، والسؤال الخامس: ما الذي يحصل لعابدي «أوم» من الملكوت والعوالم؟ ، والسؤال السادس: من هذا المتصف بصفات الكمال، الموجود بالصفات الست عشرة، ومن أين تأتي هذه الصفات؟ وإلى أين تنتهي؟ .

أما السؤال الأول: - من أين يتولد الأحياء؟ - فقد أجاب عنه أستاذهم پيلاّد بقوله: إن الخالق لما برز نفسه كخالق حيثنّد فهو يسمّى «پرچاپتي»، عمله خلق الأحياء وإنماؤها والحفاظ عليها، فلما أراد «پرچاپتي» الخلق، رغب في ذلك رغبةً قصوى، وانبثق منه جانبان متضادان - وقد كان هذان الجانبان كامنين لديه صدرًا منه مع كونه واحدًا محضًا، وذلك من محض إرادته - فقام بصنع زوجين أولهما مذكر، وهو الحياة تحت اسم «بران» (Pran)، وثانيهما مؤنث وهي المادة تحت اسم «رايي»، وقام هذان الزوجان بصنع المخلوقات كلها.

(١) راجع ما ذكره الخشت، محمد عثمان: مقارنة الأديان ... ص (٩٠-٩١).

يشير إلى أن كل خلق لابد أن يجتمع فيه شيان: الحياة والمادة، وبدون هذين لا تتم عملية الخلق، فمن مظاهر «برجاتي» الشمس، فالشمس هي الحياة، والقمر مادة، باجتماعهما تحصل كل النباتات، والذي يستعمل كغذاء لكل حي، ومن مظاهر برجاتي: السنة، وهي منقسمة إلى قسمين، الجهة الجنوبية والجهة الشمالية، أما القسم الأول فتكون فيه الشمس في الجانب الجنوبي، وفي القسم الثاني تكون الشمس فيه في الجانب الشمالي، فالجانب الشمالي مثل الحياة، والجانب الجنوبي مثل المادة، وباجتماعهما تكون السنة. ومن مظاهر برجاتي الشهر، وهو منقسم إلى قسمين: القسم الأول أبيض، والقسم الثاني: أسود، وباجتماعهما يتولد الشهر. ومن مظاهر برجاتي: اليوم، وهو منقسم إلى قسمين: القسم الأول: الليل والقسم الثاني: النهار، فالنهار هو الحياة، والليل هو المادة، وباجتماعهما يتولد اليوم، فالأغذية أيضاً «برجاتي» لأن النطفة تتولد من الأغذية، نطفة الرجل هي الحياة، ونطفة المرأة هي المادة، ومن النطفة تتولد جميع الحيوانات^(١).

فإجابة «بيلاّد» عن هذا السؤال: أن الخلق من أعمال «برجاتي» ولتتم عملية الخلق فإن «برجاتي» يقوم بعملية صنع زوجين من كل شيء، فإنه أولاً خلق الشمس، ثم القمر، ثم اليوم، وباجتماع كل من هذه الأشياء خلق الأغذية والأطعمة المتنوعة والتي تخلق النطفة، وباجتماع نطفة زوجين تخلق الخلائق.

أما السؤال الثاني: وهو كم عدد الآلهة الذين يمسون أجسام الأحياء؟ ومن هم - من الحواس العلمية والحواس العملية - الذين أظهروا في الأجسام أعمالهم المجيدة؟ وأيهم الأصل والأفضل منهم؟ - وبعبارة أخرى: هذه الحواس الموجودة في جسم الإنسان كم هي؟ وأي منها تظهر عملها على الأجسام وتظهر فعاليتها في أجسام الأحياء؟ ومن الأفضل من هذه الحواس؟ ومن الذي يجعلها تعمل بشكل منتظم؟.

أجاب بيلاّد عن هذا السؤال: - كما ظهر في إجابة السؤال الأول أن النفس هي

التي تستقبل كل شيء وتستفيد وتتغذى - فأجاب: أنها الروح أو النفس، ولكنه لم يجب مباشرة بل بدأ ذلك بضرب مثال يوضح فيه أهمية الروح من الجسد، فقال: في مرة من المرات حصل جدال شديد بين السماء، والهواء والماء، والعين والأنف والأذن وغيرها، كلٌ منها تدعي أنها الأصل، حيثُ تدخل الروح ومنعهن عن الجدال وقال لهن: لا تجادلوا فإنني أنا الذي دخلت في الجسد وقسمت نفسي خمسة أقسام، وسكنت فيه، فأنا الأصل لكل شيء، ولكنهن لم يستمعن لقولها، ولم يستجبن لنصحها، فأرادت النفس أن تخرج من الجسد فإذا كل هذه الأشياء يخرجن معها، ولا يجدن لهن بقاءً في الجسد بعد النفس، فعرفن حيثُ أن السيادة ليست إلا للروح العليا، فبدأن في تمجيد النفس والثناء عليها^(١).

هذه القصة نجد مثلها في الأوبانيشادة «كينا»، والفرق بينها وبين التي جاءت في الأوبانيشادة «كينا» أن الجدال كان فيها بين الآلهة وبين برهمان لتظهر فوقية برهمان على جميع الآلهة، بينما الجدال في الأوبانيشادة برشنا بين الروح وبين أعضاء الجسد، لتظهر تعالي الروح وتساميتها على الآخرين.

أما السؤال الثالث: من أين تتولد الأرواح؟ وكيف تأتي الأرواح إلى أجساد الأحياء؟ وكيف تعيش في هذا الجسد؟ وكيف تخرج أيضاً من الأجساد؟ وكيف يمسك بالحواس الأخرى؟ فقد أجاب عن هذا السؤال: بأن الروح تتولد من النفس الكلية (الروح العليا) كما أن الظل لا يفارق الجسد هكذا هذه الروح لا تفارق النفس الكلية (الروح العليا)، وكما أن الأمواج تتلاطم في البحر، ولكنها سرعان ما تتلاشى فيه هكذا النفس المنبثقة فإنها تتلاشى في النفس الكلية، وإنما تدخل في الجسد بإرادة من القلب، فكما أن الملك يعين الإقطاعيين في ملكه ليعملوا بما يأمرهم به، هكذا هذه الروح تعمل في الجسد كما تأمر به النفس الكلية (الروح العليا). فتعين النفس الكلية هذه الحواس في أماكن متعددة من الجسد، ولكن الروح المنبثقة تسكن في سماء القلب.

(١) انظر: برشنا أوبانيشادة، السؤال الثاني، رقم الفقرة (١٨-٢٠).

أما خروج الروح من هذا الجسد، فعلى رأي الهندوس أن الروح قسمت نفسها خمسة أقسام؛ لكي تعيش في داخل الجسد، وهي بران، أبان، سمان، بين، وأدان، ولكل من هذه الأقسام أعمال محددة.

فالروح التي تسمى «بران» تتمثل الريح المتنفس الداخل والخارج من الأنف، ولكنها حينئذ تمر بالسمع والبصر وتسكن فيهما، حركة جريانها علوية، وعملها التنفس - كما سبق معنا -.

والجزء الذي يسمى «أبان» عمله إخراج الفضلات من الجسد، كما يعتبر من عمله التحكم على آلة التناسل، وحركة جريانها سفلية، وعملها الرمي والإلقاء والترك.

وأما الجزء الذي يسمى «سمان»؛ فهو في داخل البطن، حيث يساعد على الهضم، فإن الهندوس يعتقدون أن جميع ما يأكل الإنسان ما هو إلا عملية تقديم القرابين للنار الموجود في داخل البطن، وهي روح عملها الهضم، فهذا الجزء من الريح من عملها تسوية جسم الأحياء حتى يبقى الجسم سليماً متوازناً، وهذه الروح مسكنها السرة. وهذا الجزء من الروح عملها خلق سبعة من عناصر الضياء (أي تستفيد منه سبعة عناصر هي: العينان، والأذنان، والخيشومان، واللسان؛ فإنه ما من موضع فيها نار، فهي تظهر نفسها بهذه الأعضاء السبعة، فإذا ذهبت النار أو عدمت النار فإن هذه العناصر السبعة حينئذ لا تعمل شيئاً، فبهذا عرفنا أن العناصر السبعة إنما تستفيد وتستضيء من النار).

أما «بين» فإن القلب هو مسكن الروح الحقيقي، يوجد فيه مائة شرايين، كل شريان له مائة فرع، كل فرع فيها اثنين وسبعين ألف عنصر، فهذا الجزء من الروح التي تسمى «بين» فإنها تجري في هذه المسالك كلها، ساكنة في سماء القلب، وهذا الجزء من الروح تعمل في ثلاثة أشياء:

١ - جريان الدماء في جميع أعضاء الجسم.

٢ - جريان النشاط في الجسم.

٣ - جريان القوة وتقوية العضلات للعمل في جسم الإنسان.

أما «أدان» فإن حركتها علوية، وهو الجزء الأساسي من الروح التي تحمل المرء عند الموت إلى مكانه، فمن كان يعمل الصالحات تحمله هذه الروح إلى دار الثواب، ومن كان يعمل السيئات تحمله هذه الروح إلى دار العذاب، وأما الذي تستوي حسناته وسيئاته فتحمله هذه الروح إلى دار الإنسان، لا ثواب فيها ولا عقاب. فهذا الجزء من الروح يسكن في الرقبة، فإنه يوجد في داخل الرقبة ثلاثة من الوريد، رئيسها تسمى «شوسومنا». وعمل هذا الجزء ينحصر في إخراج الروح عن طريق «شوسومنا». فهي التي تخرج الروح من جسد الإنسان ويوصلها في المكان اللائق بها - كما سبق ذكرها-

هذا كان مثاله في الشخص الإنساني، بأن الشخص الإنساني يوجد بها الروح على هذه الكيفيات الخمس، ثم بدأ الأستاذ يذكر لتلميذه مطابقة هذا المثال لهذا العالم الكبير، فيذكر الشمس بأنها «بران»، كما أن العين «بران» للنفس، فإن العين تستمد الضوء والنور من الشمس، حتى ترى العين كل شيء، فهذه الروح هي «ديوتا»^(١)، والجزء الذي

(١) ديوتا: كلمة سنسكريتية، الهندوس يعتقدون: أن جسم الإنسان له خمسة عناصر:

وهي: السماء والأرض والهواء والنار والماء.

هكذا يعتقدون أن أعضاءهم الحسية العملية التي هي: الكلام، واليدان، والرجلان، والمخرج للبول والبراز، وآلة التناسل، هي أيضًا تشتمل على هذه العناصر الخمسة.

كما يعتقدون: أن أعضاءهم الحسية العلمية التي هي: السمع، واللمس، والعين، واللسان، والأنف هي أيضًا مصنوعة من هذه العناصر الخمسة.

ويوجد هناك حس آخر هو الأصل الأصيل، وهو الروح، قوة الحياة، وهو مصدر هذه العناصر كلها، إذا مات الميت يمكن أن يبقى الجسد غير متغير كما يمكن أن تبقى الحواس أيضًا غير متغيرة، ولكن النفس أو الروح هي التي تترك هذا الجسد.

هذه الأعضاء كثيرًا ما تسمى بـ «ديوتا»، لأن «ديو» معناه: الذي يُظهر، ولما أن حواسنا يُظهر لنا - مثال ذلك أن كون الماء باردًا أم حارًا ما تظهر لنا إلا حاستنا اللمس، فإنها تسمى لأجل هذا بـ «ديوتا»، كما أن هناك لكل عضو من أعضاء الجسد، ولكل حاسة من حواسها لها «إله» خاص على عقيدة الهندوس، فلهذا كله أيضًا تُسمى هذه الأعضاء والحواس بعض الأحيان بـ «ديوتا».

انظر: شرح برشنا أوبانيشاد ص (١/ ١٧٠).

يمسك العالم عن الزوال فلا يعلو شيء بنفسه ولا يسفل يعتبر «أبان»، والجزء المنتشر في جميع الجسد يعتبر «سمان»، والنار الموجودة في العالم هي «أدان»، فإن الميت يبرد جسده، فيفقد حواسه.

فإن أول علامة الموت: فقدان الكلام، ففي هذه الحالة يمكن أن يرى أو يسمع، ولكنه لا يستطيع أن يتكلم، ثم تذهب حواسه شيئاً فشيئاً تدريجياً، إلا أن القلب يبقى حياً، ثم لما يترك القلب الجسد حيثئذٍ نفقد الوعي، ولكن متى ما يكون الجسد حاراً نرى أن فيه حياة، ومتى ما يبرد الجسد ولم تبق فيه أي حرارة نحكم بموته.

أما السؤال الرابع: - من الذي ينام في داخل الرجل؟، ومن الذي يبقى مستيقظاً؟ ومن الذي يحلم؟ ومن الذي يحصل له السرور والفرح؟ ومن الذي أسس كل هذه الأشياء؟ - فقد أجاب عنه بيبلاذ بقوله: كما أن ضياء الشمس عند غروبها تجد في مسارها مجتمعة، وتجدها منتشرة عند شروقها هكذا تجتمع كل الحواس في حاسة القلب فلا تنتشر، فلهذا ترى الناس لا يسمعون ولا يرون ولا يلمسون ولا يتكلمون ولا يأخذون، ولا تحصل لهم اللذة من الاحتكاك الجنسي، ويقول الناس حيثئذٍ إن فلاناً نائم. ولكن القلب حيثئذٍ يستعيد كل النشاطات التي كانت من قبل الحواس في حالة اليقظة، وهو الحُلُم، فإنه لا يستعيد إلا ما رأى أو سمع أو فكر أو لمس (!؟) من قبل الحواس في حالتها اليقظة.

الأسئلة الخمسة الأولى ليس فيها سؤال مباشر عن الروح العليا، ولكنها كلها تتعلق بالروح العليا والنفس الكلية.

أما السؤال الخامس: فقد كانت الإجابة بتمجيد هذه الكلمة السحرية «أوم» وفوائدها، وأنها كل شيء في الدنيا، وأنها أصدق وأفضل وأقدس كلمة على الإطلاق، ومن يتعبد بهذه الكلمة المقدسة يحصل له علم «برهمان» وعالمه بجميع أنواعه، وأشكاله، وقد ذكر تفاصيل كثيرة لذلك.

وأما السؤال السادس: فأجاب بما مضمونه: أن المتصف بتلك الصفات هي النفس الكلية الموجودة في كل إنسان والتي هي منتشرة في سائر الأحياء والعوالم.

ونجد في هذه الأوبانيشادة تقسيم الحياة الآخرة إلى قسمين، الحياة الآخرة المؤقتة، والحياة الآخرة المؤبدة، ويسمونها بـ«دار القمر» و«دار الشمس»، أما الأولى وهي دار القمر فيخرج منها الموتى بعد أن حصلوا لذات مؤقتة - وهم الذين عملوا للحياة الدنيا بإخلاص وبدون جرائم - وأما الثانية وهي دار الشمس فلا يخرج منها أحد، ويعتبرونها الدار الخالصة، الخالدة، ويقصدون به الحصول على موكشا (الخلاص)؛ حيث يتحدثون ببرهمان - والذين يدخلون تلك الدار هم الذين عرفوا «برهمان» معرفة جيدة^(١).

ومن نصوصهم عن النفس الكلية قولهم (٢١-٢٩):

هي النار (أعني) تبعث الدفء، هي الشمس، هي المطر السخي، هي «إندرا» يرعى مخلوقه، هي الريح، هي الأرض، والمادة (أو القمر)، هي الوجود، وعدم الوجود، وهي الخالدة.

كالبرامق^(٢) في إطار عجلة، كل شيء مؤسس على هذه النفس، قصائد «ريج» وقواعد «ياجور» وتراتيل «سام»، والقربان، والبراهمة، والكهشتريا^(٣) والنبالة والكهانة.

أنت تتحرك في الفرج (كـ«برجابتى» أو خالق الأنفس) إلهاً للخلق، أنت بنفسك الموجود ثانيةً مثل الوالدين، لك أيتها النفس هنا تدين المخلوقات، أنت التي تقطين مع الكائنات الحية، والحواس النشطة في الجسد، من أجلك تبعث الهدايا (القرايين).

أنت أفضل حامل للقرايين إلى الآلهة، أنت أول آخذ للهدية المقدمة للآباء عند ما يفعل شيئاً من الخيرات والإحسان لهم بعد الموت، أنت الممارسة الحقبة للحكماء،

(١) ملخصاً مما ذكر في جواب السؤال الأول من الفقرة رقم (٦) إلى الفقرة رقم (١٦).

(٢) البرامق: جمع برمق، وهي السيخ التي تستخدم في العجلات للشد، مكبح العربة، يقال لها بالإنكليزية: spoke راجع معجم المورد، قاموس عربي، إنكليزي، لروحي البعلبكي، ص (٢٣٤).

(٣) يبدو أن تقسيم الناس إلى براهمة وكهشتريا قد تمت عند كتابة هذه الأوبانيشادة، أو يكون المراد هنا بالبراهمة: مجرد الكهنة، والكهشتريا مجرد المحارب.

أَنْتِ أَبْنَاءُ أَثْرَبِن (أثربا) (Atharvan) وأنجرس (Angiras).

أَنْتِ إندرا، أيتها النفس، ببهائك! أَنْتِ «رودرا» (أي: المميت) أَنْتِ كحامية للجميع عند الاستقرار، أَنْتِ تتحركين في الجو بالطلوع والغروب، أَنْتِ ربة الشمس وَأَنْتِ سَيِّدَةُ الأضواء والنجوم!

أيتها النفس، حينما تمطرين عليهم حينئذ مخلوقاتك تكون سعيدة، معتقدة: أنه سيوجد الغذاء حسب ما ترغب.

أَنْتِ فراتيا (Vratya)،^(١) أيتها النفس، الحكيم الأوحده، أَنْتِ آكلة لجميع القرايين كالنار، وَأَنْتِ السيدة الحقة للجميع ولهذا العالم، نحن نسلّم لك قرايينا وطعامنا، أيتها الريح أَنْتِ أبونا، (أو المقصود أيتها النفس أَنْتِ أبو الريح).

صورتك التي تتحيز في الكلام، والتي تتحيز في السمع والتي تتحيز في النظر، والتي تتسع في الذهن، باركي لنا في هذه الصورة، كوني رحيماً! ولا تتعدي عن الجسد، وإلا تموت جميع حواسي، ولا أستطيع أن أنتفع بالحواس في هذا العالم، فهذا العالم كله العالم العلوي والعالم الأرضي والعالم السفلي^(٢) في قبضة النفس وهي ربه، فلتبقي (علينا) كما تبقى أُمٌّ على ولدها! امنحنا السعادة والحكمة!^(٣)

(١) لدى الهندوس طقوس لأبناء البراهمة والكهشتريا وفايشا، عند وصولهم سن معين، وإذا لم يعمّد الأولاد يعتبرون سفلة، فلا يحق لهم الدخول في المجتمع الهندوسي، ولكن النفس لكونها مقدمة على كل شيء ولم يكن هناك من يعمّدها شبهها هنا بـ«براتيا»، والمقصود هنا: أَنْتِ خارج عن المعمودية فلا تحتاج إليها.

(٢) الهندوس يقسمون العوالم دائماً إلى ثلاثة عوالم، العالم العلوي، يقصدون به جنتهم، والعالم السفلي، ويرونها تحت الأرض، والعالم الأرضي، ويعتبرونها الحياة الظاهرة على الأرض.

(٣) انظر ما ذكره الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني: في العقائد والأديان، ص (١١٧-١١٨)، فقد تمت الاستفادة منه.

الدراسة عن بريهدارتك أوبانيشادة:

التعريف بها:

هذه الأوبانيشادة جزء من كتاب برهمانا «ستيت»، والذي هو تابع لـ «ياجور فيد الأبيض»، وهذه الأوبانيشادة تعتبر هي الأربعة عشر جزءاً الأخيرة من ذلك الكتاب، لأنه يوجد لـ «ياجور فيد الأبيض» عدة نُسخ، اشتهر من بينها نسخة «كانبا» ونسخة «مدهاندين»، فهاتان النسختان لكل واحدة منهما نسخة من برهمانان^(١)، كل منهما يسمى بـ «ستيت» برهمانا، وقد اختار فيلسوفهم الكبير شنكرأجاريا نسخة «كانبا»، وهي المختارة لدى أغلب الهندوس الآن. وهي من ناحية تاريخها أقدم الأوبانيشادات -كما يقولون-، وأشهرها جميعاً وأكبرها حجماً. ويسمى هذا الكتاب بـ «بريهدارتكَ» والتي تعني كتاب الغابة العظيم.

الشروح والتعليقات عليها:

يوجد لهذه الأوبانيشادة تعليق لشنكرأجاريا، كما يوجد تعليق مختصر لـ رامانج، وتعليق لـ «ماذوا»، كما نجد شرحاً مستفيضاً لـ «رادها كرشنان» من المتأخرين، وهناك شروح أخرى كثيرة لها.

مضامينها:

تدور الأفكار العامة لهذه الأوبانيشاد حول دعوى وحدة الوجود، فقد ذكروا أولاً هذه الدعوى في فصولها الأولى، في أماكن عدة، ثم شرح وعرض الأدلة لهذه الدعوى فيلسوفهم الكبير «ياجنافالكيّا» في فصلين، ثم لخصوا كل ما مضى في المطلب الخامس (برهمانا الخامس) من الفصل الرابع.

فقد تحدثوا عن النفس الكلية، وأنها أعظم الحقائق، وأن الخلود لا يتحقق في الإنسان إلا بحبها ومعرفتها.

(١) سبق بيان المقصود بـ «برهمانا»، بأن المقصود منه: الكتب المتضمنة لقواعد الطقوس والدعاء والرقى لإرشاد كهنة الهندوس في مهمتهم.

ومن طريف ما ذكروا: أن فيلسوفهم الكبير ياجنفا لكيا سئل عن عدد الآلهة على وجه اليقين فأجاب أولاً بأنهم ثلاثمائة وثلاثة وهم ثلاثة آلاف وثلاثة، ثم سئل أيضاً عنهم فقال: إنهم ثلاثة وثلاثون، ثم قال: هم ستة، ثم قال: اثنان، ثم قال: إله ونصف، ثم كان آخر جوابه: إنه إله واحد^(١).

كما ذكر في الأوبانيشادة قصة وجود العالم وأنه أولاً كانت الروح في شكل شخص كبير بحجم رجل وامرأة متعاقنين، وانقسم هذا الشخص إلى الزوج والزوجة، وضاع ذلك الزوج تلك الزوجة فأنج البش، ثم قالت الزوجة لنفسها كيف استطاع مضاجعتي بعد أن أخرجني من نفسي فلاختف، فاخفت في صورة البقرة ثم انقلب هو ثوراً فنكحها فكان منهما الماشية، ثم تحولت إلى صورة فرس، وهو تحول إلى حصان، فأنججاً خيلاً، وهكذا تم إنتاج سائر الخليقة.

ومما ورد في هذه الأوبانيشادة التنصيص على أن الوصول إلى برهمان إنما يكون بالزهد والتقشف، وإزالة الرغبات الدنيوية.

كما أن الروح يمكن أن يحصل لها الفناء أو الجمع في النفس الكلية في الحياة وهي التي يسمونها «شوشوپتا» حالة النوم العميق الذي ليس فيه حلم، وهكذا بالرياضة، وخاصة «يوغا».

ومن أهم ما جاء في هذه الأوبانيشادة عن طرائق معرفة النفس الكلية فكرة: نيتي، نيتي / neti، neti، أي لا هذا ولا هذا^(٢)، ويقصدون بهذه العبارة: لا يوجد شيء أحسن من هذه النفس ولا أفضل، لا يوجد شيء أفضل من هذه على الإطلاق، وهي الحق، وهي أصل الحقائق، فالنفوس حقة، ولكن النفس الكلية حق الحقائق، فهي لا يمكن أخذها، وهي غير مدركة، وهي وحيدة، لا تهوي شيئاً، وهي خالدة فلا تتألم ولا يحسدها أحد، ولكنها مع كل هذا لا يمكن أن تعرف بعبارات عادية، وإنما يقال عنها:

(١) انظر: برهيدارنك أوبانيشادة (١/٩/٣).

(٢) أوبانيشادة برهيدارنك (١١٠/٣/٢)، رقم الفقرة (١١٠)، و (٣٠٩/٤/٤)، فقرة (٣٠٩).

لا هذا ولا ذلك^(١).

وتؤكد هذه الأوبانيشادة على أن برهمن هو مصدر العالم، وتصفه بأوصاف متناقضة؛ هو قريب وبعيد، وثابت ومتحرك، وذو شكل وأيضاً لا شكل له وهو إله واحد.

هذا، وتركز هذه الأوبانيشادة على ثلاث فضائل أخلاقية هي: ضبط النفس، والعطاء، والرحمة^(٢)، ويظهر من الأوبانيشادة أنها لمؤلفين عديدين في أزمنة متعددة.

(١) راجع شرح أوبانيشادة بريهذارنك ص (٧٢٩)، وص (٧٢٤)، و (٨١٩) عند شرح هذه الكلمة في الفقرات المذكورة في الحاشية السابقة.

(٢) راجع ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت، مقارنة الأديان، القيدية، البرهمانية، الهندوسية ص (٩٩).

الدراسة عن «شاندويغا» أوبانيشادة:

التعريف بها:

شاندويغا أوبانيشادة من أكبر الأوبانيشادات، وأقدمها، وأهمها، وتتمتع بشهرة وأهمية كبرى، وهي تابعة لسام فيد حسب التقليد الهندوسي، فإن لسام فيد نسجاً كثيرة، من أهمها نسخة «تهاندا» (نسبة إلى أحد تلاميذ «بيشمباين» صاحب سام فيد)، وهذه النسخة من سام فيد يوجد لها برهمانا يسمّى: شاندويغا برهمانا، وهي على عشرة فصول، الفصول الثمانية الأخيرة منها تُسمّى بـ«شاندويغا أوبانيشادة»، فهي بهذا الجزء الأكبر من «برهمانا شاندويغا».

كل جزء من أجزاء هذه الأوبانيشادة يحتوي على علم أو عبادة - كما يقولون -، والعلم والعبادة تعني في الأوبانيشادة، التفكير العميق في الأمور.

وقد قسّم شنكرأجاريا هذه العبادات إلى ثلاثة أقسام عند تعليقه على هذه الأوبانيشادة، قسم منها يتعلق بالقرايين والسماع والأغاني، وقسم منها يتعلق ببرهمان ذات الصفات الإيجابية، وقسم منها يتعلق ببرهمان ذات الصفات السلبية.

يقول أحد شراح هذه الأوبانيشادة: إن العبادات التي تدرج تحت القسم الأول ربما لا يُعجب قراء العصر الحديث، بل ربما يتساءل البعض عن فائدتها في هذا العصر، ولكن لو نظر إليها على أنها كانت بداية الارتقاء من الدين المبني على ظواهر العبادات إلى العبادات ذات التفكير، فحيث تكون لها معانٍ تاريخية. وأما القسم الثاني من العبادات فهو مهم من حيث الشعور بوجود برهمان في جميع أشياء العالم مع اختلاف أصنافها وتنوعها. أما التفكير في القسم الثالث فهو يعطي الصورة الكاملة لبرهمان بأنه أزلي، وغير محدود بحد من المكان والزمان، وأبدي، وغير مجزأ.

ثم إن كثيراً من الحوار والمكالمات والمسائل التي جاءت في النصف الأول من هذه الأوبانيشادات أصبحت من أهم الأشياء في الأدب الفيدانتي^(١)؛ حيث كانت

(١) الآتية ذكرها بعد هذا المطلب مباشرة.

مساعدة لغرز العقائد القيدانية في قلوب القراء.

محتوياتها:

هذه الأوبانشادة فيها ثمانية فصول، كل فصل منها مقسم على عدة أجزاء.

ومن ناحية التفكير الفلسفي فإنهم يرون أن الفصول الثلاثة الأخيرة منها قيمة جدًا في هذا، فإن الفصل السادس سُرح فيه فلسفة (تات تفام أشي)^(١) «أنت هو ذاك»، وهي الفلسفة التي تنكر الثنائية في الوجود، مفاده: أنهم من خلال معرفتهم أنفسهم سيعرفون النفس الكونية، وسيعرفون كل شيء، ومغزى هذا القول: أن تنوع الأشياء في هذا العالم وتعددتها ليس إلا مظهرًا خداعًا يخفي الواقع الموحد، الذي يكمن في قرار هذه الأشياء، وأن الواقع الكامن هو واقع النفس. هذه الفلسفة في قمة الفلسفة الهندية؛ حيث إنهم يعتبرونها من أهم الموضوعات الأوبانشادية قاطبة، ولهذا نرى مكانتها المرموقة في الفلسفة القيدانية، وقد شرحت هذه الفلسفة بضرب مثالين بالتينة والماء في الملح، والتي مضمونها حوار بين أب وابنه المسمى شفيتاكتيو، يقيم به الأب الحجة على الابن بأن برهمان هو أساس الأشياء، وهو في نفس الوقت المنتشر في جميع الأشياء، وذلك بضربه مثالًا بالتينة، التي إذا قسمت ظهرت فيها حبيبات صغيرة، ثم إن تلك الحبيبات إذا قسمت لا يرى ما بداخلها لصغره، ومع ذلك فهذا الذي لا يرى هو الذي تنبت منه وتقوى الشجرة، - هكذا زعم -.

وضرب مثالًا آخر لوجود برهمان وانتشاره وإن كنا لا نراه بالملح إذا أذيب في الماء، فإننا نعلم وجوده في الماء ونحس بطعمه وإن كنا لا نشاهد جرمه، فكَذلك عندهم - برهمان -.

وخلص إلى نتيجة: وهي قوله لابنه: يا بُنيّ إنك لا تدرك ذلك الكائن ومع ذلك فهو موجود، وهو ذلك الجوهر اللطيف، العالم كله مصنوع منه، تلك هي الحقيقة، ذلك هو

(١) هذه الكلمة عبارة عن ثلاث كلمات مجتمعات: (١) تات، معناها: ذاك، (٢) تفام، معناها: أنت،

(٣) أشي، معناها: كُن. انظر شرح تشدويغا أوبانشادة ص (٥٥٨).

«أتمان» أنت نفسك تكون ذاك يا شفيتا كيتو.

وفي الفصل السابع نرى الحوار بين اثنين من حكماء الأوبانيشادة، يسمى أحدهما بـ«نارد» والثاني بـ«سَتَكُومَار»، يقول الأول علمني يا معلمي، فيرد عليه المعلم هات علومك أولاً ثم أعلمك، فيقول المتعلم: إن لديه علوم الفيدات الأربعة، والبران^(١) والإتيهاسا^(٢)، وغير ذلك من العلوم المدونة، فيرد عليه المعلم بأنك حصلت على علوم الرسم^(٣)، فما علمت إلا علوم الاسم والمسمى فقط، أما العلم الأصلي الحقيقي فليس في ما تعلمت، وإنما هو على درجات، ثم يذكر له بأن الكلام أحسن من علوم الرسم، ثم القلب أحسن منه، ويستطرد في بيان الأفضلية حتى وصل إلى أن «بهوما»^(٤) هو أصل كل شيء، وأفضل شيء على الإطلاق.

وفي الفصل الثامن والأخير نرى الحوار بين «إندرا»^(٥) وبين «برجapati»^(٦)

(١) معناها: القديم، ويقصدون به الكتب التي فيها قصص شعبية، وأساطير خرافية. وسيأتي ذكرها قريباً.

(٢) أي التاريخ، وسيأتي بيان المقصود منها.

(٣) منه يفهم تأثر المتصوفة الذين يسمون علوم القرآن والسنة بعلوم الرسم. وعندهم علوم الحقيقة.

(٤) يظهر أن هذا الجزء من الأوبانيشادة يطلق على برهمن بـ«بهوما».

(٥) انظر كيف تغير مفهوم «إندرا» من زمان إلى زمان، بينما كان «إندرا» بطل الآلهة في العصر الفيدى، أصبح الآن تلميذاً لـ «برجapati»، يتعلم منه، ويأخذ عنه.

(٦) «براجا» تعني: الرعايا، و«پتي» تعني: المالك، أو صاحب، يرون أنه خالق المخلوقات.

فمعنى «برجapati»: رب كل المخلوقات أو والدهم، فإن «باتي» معناه: الرب أو الوالد، ومعنى براجا «كل ما هو مخلوق، أو خلق، أو كل ما له وجود».

اعلم أن برجapati ليس هو شخصية معينة، بل كل واحد منهم يصلح أن يصبح: برجapati، فإن برجapati هذه منزلة رفيعة، يمكن أن يحصل على هذه المنزلة لكل واحد إذا قدم الطاعات الموجبة، بل ربما يحصل لأحدٍ بعض القدرات الخارقة ولكنه لم يحصل على الروح الأعلى، فإنه على حسب اعتقادهم في الولادة الثانية يكون «برجapati»، فيخلق المخلوقات. كما يسمّى برجapati بـ«هيرونوى غربا» (البيضة الذهبية)، ويسمّى أيضاً: براهما. =

حول أحوال الإنسان الطارئة عليه في حياته من اليقظة والنوم ، والحلم، وما يسمى بـ«شوشويتا»، وهو البحث عن الروح المطلقة ، كسائر الأوبانيشادات، ولكننا نلاحظ

= إن الهندوس لديهم تخیلات واسعة، وهم يعتقدون تغييرًا جوهريًا في كل دهر، فإنك ترى في كل دهر أشياء كثيرة، ثم تراها قد انماح، وذهب، وتلاشى، ويرجع إلى مصدرها، كالبذرة، وقد كان أحد حكمائهم «سري رام كرشنا» يمثل ذلك بمثال للتقريب في الأفهام، بمثال عجوزة كانت تقم جميع أنواع البذور في مطروف لها، عندما ترى الوقت المناسب فإنها تنشر هذه البذور في الأرض، فتنبت منها الأشجار، وتكبر، وتأتي بالثمار، ويومًا ما تراها تموت، ولكنها قبل أن تموت الأشجار تأخذ البذور مرة أخرى، ويدخلها في مطروفها الخاص، فمتى ما يأتي الوقت المناسب فإنها تبذر البذور مرة أخرى، وهكذا دواليك.

هكذا الحياة، تدور رحاها ، من الحياة إلى الموت، ومن الموت إلى الحياة، من السبب إلى المسبب، ومن المسبب إلى السبب، فإنه ليس هناك موت ولا فناء للروح، فهي أبدية، وإن كانت من الممكن أن تبقى كالبذرة.

على رأي «فيدانت» كل شيء حتى «برجياتي» جاءت من «الروح الأعلى» برهمان، ولكنه لا يخلق شيئًا؛ لأنه بدون وصف وصفة، فلا يوصف بشيء، وهو بدون صورة؛ فلا يمكن أن يوصف، ولهذا ليس لديه أي إرادة للخلق؛ فإنه لو كان له إرادة فإنه حيث لا يبقى عديم الوصف والصورة، ولهذا كله يرون أن «برجياتي» منزلته أخط من منزلة «برهمان» درجة واحدة.

ولكن كيف يتم عملية الخلق من «برجياتي»؟:

يرى الهندوس إن هذا العالم ليس خلقًا لأحد، وإنما هو مظهر أو مجلى، فلا يصح أن نمثل خلق العالم من برجياتي كخلق صانع الخزف لخزفه، بل نقول أن العالم ظهر وتجلى من «برجياتي»، ويرجع مرة أخرى في «برجياتي».

كما أن «برجياتي» ليس له أي تدبير أيضًا في إظهار العالم ولا تجليته، بل يصدر منه إرادة فقط، أو يفكر مليًا، فإنه لما يفكر في الخلق ويريد يظهر ويتجلى منه الشمس والقمر، (الروح وسببه)، هذان الشيطان، فالقمر الذي يسمى لديهم بـ«رثي» هو الطعام، أو الرزق، وهو أيضًا رطب، وهو الذي يساعد الحيوانات والنباتات في الإنتاج والإنبات، وإذا كان هناك طعام فإنه لابد أن يكون له طاعم، فالشمس (الروح) هو الطعام، وهو الروح. انظر شرح برشنا أوبانيشادة ص(١٥٦)، (١٥٧).

في شرح «برجاتي» لهذه الأحوال خلاف ما جاء شرحه في الأوبانيشادة «بِرِيَهْدَ أَرَنْكَ»، حيث نرى في الأوبانيشادة بِرِيَهْدَ أَرَنْكَ أن الحكيم ياجنالفالكيا يرى حالة النوم العميق الذي يفقد فيه وعيه والمعروف بـ«شوشوپتا» في هذه الحالة تكون الروح الفردية في النفس الكلية، وهذه الحالة هي حالة اتصال الروح الفردية بالروح الأعلى، فتصبح هي أيضًا كالروح الأعلى، بينما نرى في هذه الأوبانيشادة أن هذه الحالة ليست هي الأخيرة، بل هناك حالة أخرى بعدها تسمّى بـ«توريا» هي الحالة التي تتصل بها الروح بالنفس الكلية، وتصبح النفس الكلية، ولم يصل إلى هذه النتيجة إلا بعد مداولات ومحاورات استمرت سنوات طويلة بين برجاتي - الذي يمثل لديهم خالق المخلوقات - وإن درا - أحد آلهتهم - ورئيس الشياطين فيروثانا - خلص في المراجعات إلى أن الحالة التي تدرك فيها الروح المطلقة هي الحالة الرابعة التي تسمّى «توريا» التي - زعموا - أن قوامها الوعي الذاتي والاستنارة^(١).

وتشتمل هذه الأوبانيشادة أيضًا على تمجيد كلمة (أوم)، وبيان فوائدها.

كما تشتمل على نظرية الخلق مثل عقيدة البيضة الكونية التي يتم من خلالها تفسير نشأة العالم. تقول الأوبانيشادة: «في البدء كان هذا العالم بدون صورة ولا اسم، كأنه غير موجود، ثم تطور وتحول إلى بيضة. وظلت هكذا لفترة سنة. ثم انشطرت وأصبح أحد الشطرين ذهبًا والآخر فضة. الأرض هي الشطر الفضي. والفضاء هو الذهبي. والقشرة الخارجية هي الجبال. والقشرة الداخلية هي الغيم والضباب؛ والعروق هي الأنهار. والسائل في الداخل هو المحيط. وما وُلد من هذا هو الشَّمْس. وعندما تكونت الشمس صعدت إليها الهتافات من الكائنات. فمن هنا من يعرف هذا - عندهم - يحترم الشمس مثل برهمان^(٢) - هكذا زعموا -.

(١) راجع: شانديغا أوبانيشادة (٦/٨-١٢)، وانظر ما ذكره جون كولر: الفكر الشرقي القديم

ص(٥٩-٦٠).

(٢) أوبانيشادة شانديغا: (٣/١٩-٤-١).

واشتهرت في هذه الأوبانيشادة قصة مضمونها: إن البرهمي لا بد أن يكون صادقاً وأنه المؤهل وحده لعلم برهمان، فقد طلب الشاب «شاتياكام جابالا» من برهمي أن يقبله كتلميذ. فسأله المعلم أولاً عن طبقته، وإن كان حقاً من أرومة برهمية، رد الشاب بأنه كان سأل أمه عن الأمر فأجابت أنها لا تعرف شيئاً، إذ كانت صغيرة جداً عندما ولدته، وإنها لا تعرف اسم أبيه... عند ذاك ردّ البرهمي: «البرهمي فقط هو القادر على أن يكون صادقاً مثلك، أحضر الوقود، وأشعل النار يا عزيزي، سأرتضي بك مريداً، أنت لن تجانب الحقيقة أبداً»^(١).

كما تجد في هذه الأوبانيشادة تصريحاً بأن القرايين تحرق السيئات وتزيلها، كما تحرق النار القش، فقد جاء في فقرة ٥-٢٤-٣: كمثل قش يلتقي في النار فيحترق عن آخره كذلك الذي يقدم قربان أغني هوترا (Agni - hotra)^(٢) وهو عارف بذلك (أي على أنه تعبير روحي) تحترق سيئاته كلها. (أغني هوترا: نوع من القرايين تقدم للنار). فقرة ٨-٤-١، ٢: فوق ذلك الجسر (يعني في عالم براهما) لا يعبر نهار ولا ليل، ولا كبر سن ولا موت، ولا حزن، ولا فعل خير ولا فعل شر، فكل السيئات تعود من حيث أتت، لأن عالم برهمان خال من الشر.

(١) المصدر السابق (٤/٤).

(٢) سبق التعريف بأغني هوترا عند الكلام على أوبانيشادة إيشا.

كوشيتكي أوبانيشاد:

التعريف بها:

هذه الأوبانيشادة تابع لـ «ريگ فید»، وهي ليست بجزء من كوشيتكي برهمانا، بل من كوشيتكي أرانيكا، وقد يسمونه بـ كوشيتكي برهما أوبانيشاد.

نرى الأمور الفلسفية فيها قد بحثت بالأمثلة والاستعارة، ولهذا نرى كثيرًا من المفكرين يعلي من شأنها.

أما شنكر آجاري فلم يشرح هذه الأوبانيشادة، إلا أنه اقتبس في كتابه «برهмасوترا» ٨٨ (ثمانية وثمانون) من المقالات من هذه الأوبانيشادة، كما أن رامأنج أو مادهمقالم يكتب أي شرح لها، أقدم ما يوجد من شروحاتها شرح شنكراند، وقد قام الأستاذ B.Cowell. بترجمتها إلى اللغة الإنكليزية سنة ١٨٦١م، ونشرها، ويوجد لها شرح في العصر الحديث من قبل البندت (العالم) رادها كرشنان، والهندوس يعتبرون هذه الأوبانيشادة من أقدم الأوبانيشادية الفيدية، وإن كان كثير من الناس يقول بقدم البريهادأرانيكا عليها، وفيه خلاف واسع، إلا أن «سري أنيربان» (أحد علمائهم المشهورين) يعتبر «أيتريا أوبانيشادة أقدم الأوبانيشادات على الإطلاق، وعلى كل حال: فإن كل من كوشيتكي وأيتريا أوبانيشادة يعتبر تابعا لريگ فید تقليديًا. فإذا كان ريگ فید أقدم الفيدات على الإطلاق فإن كون أوبانيشاداتهما أقدم الأوبانيشادات واضح وجلي.

أما تسميتها بـ «كوشيتكي» فلأن كوشيتكي العالم الراهب هو المجيب الصحيح عن برهمان في هذه الأوبانيشادة، حيث قال في بدايتها: الروح أو النفس: هو برهمان، واسترسل بذكر أشياء أخرى، حتى أثبت أن ما قاله كوشيتكي بأن النفس العليا أو الروح الأعلى هو: برهمان، هو الصواب .

محتواها:

هذه الأوبانيشادة مقسمة على أربعة فصول، الفصل الأول والثالث منها مهمان جدًا لفهم فلسفة الأوبانيشاد، أما الموضوعات المطروحة في الفصل الثاني فليست من مواضيع فلسفة

الأوبانيشاد^(١)، بل لا علاقة لها بالأوبانيشادات، فلهذا لا أريد أن أنطرق لهذه الموضوعات، سأبين هنا ما يتعلق بفلسفة الأوبانيشاد مما جاء في الفصل الأول والثالث.

أما الفصل الأول فجاء فيه قصة «سيترا» بن «غانغا» من أبناء الملوك مع «شفيتاكتو» بن «أروني» من أبناء البراهمة، حيث جاء «شفيتاكتو» إلى «سيترا» لعمل تقديم القرابين^(٢)، فقال له شفيتاكتو: هل تعلم مكاناً خفياً في هذا العالم يمكن أن تجعلني هناك؟ أو تعلم طريقاً إذا سلكته يحصل لي مثل ما حصلت عليه في الدنيا؟، لم يجد «شفيتاكتو» جواباً لهذا السؤال، ولما رجع إلى بيته سأل أباه عن الجواب فلم يهتد إليه أبوه، وفي الأخير ذهب «أروني» إلى «سيترا» ليتعلم منه، وتعلم البراهمة من الكاشترا خلاف القوانين المرسومة، ولهذا علمه «سيترا» بدون أن يأخذه كتلميذ، وبدون مراسيم التلمذة^(٣)، وعلمه ما كان يعلم من ذلك لما عرف من «أروني» البرهمي صدقاً في الطلب وعدم التكبر. وعندما جاء ذكر الحياة بعد الموت أخبره «سيترا» بأن الذين يقدمون القرابين ويعبدون آلهة متعددة، ويعمل أعمالاً خيرةً، ولكنهم ما يتعلمون علم «برهمان» ولا يعبدون «برهمان» فإنهم بعد خروج روحهم يذهبون إلى جنة تسمى «بيتري زان» أي «مركب الآباء» فيتنعمون فيها قدر أعمالهم، ثم يرجعون منها إلى الحياة الدنيا مرة أخرى، وأما الذين لا يكتفون بالأعمال الصالحة بل زيادة عليه يتعلمون عن «برهمان» ويعبدونه فإنهم بعد موتهم يذهبون إلى جنة تسمى «ديب زان» أي «مركب الإله»، وهم يخلدون فيها مع برهمان ولا يرجعون.

ففي هذا الجواب نلاحظ عقيدة الخلاص الذي يقدمه «سيترا» هذه العقيدة تخالف عقيدة «البرهمانيين» (الذين اشتهروا بعبادة برهمان من البراهمة)، فقد كان الاعتقاد في بعض الأوبانيشادات مثل «برشنا» و«مُندك» و«مانديكا» أن لا فرق بين النفس و

(١) كما يذكره مقدمو هذه الأوبانيشادات باللغة البنغالية.

(٢) لأنه من البراهمة، وتقديم القرابين يتم عن طريق البراهمة.

(٣) فإن هناك مراسيم خاصة للتلمذة، كأن يكون مثل العبد أمام السيد، ويحمل لوحة التلاميذ، والنار معه، وغير ذلك من تقاليدهم.

برهمن في حالة الانعتاق أو موكشا، بينما نرى الأمر عند «سيترا» على غير ذلك، فهو يرى التفريق وعدم التفريق باعتبارين في هذه الحالة أيضًا.

وأما الفصل الثالث: فقد زعموا: أنه لو نظر إلى النفس بأنها محدودة، فإنها حينئذٍ «نفس الأحياء» أما إذا نظر إليها بأنها غير محدودة فإنها حينئذٍ «النفس الكلية».

أما الفصل الرابع فإننا نرى فيه الحوار بين أجاشترو (الملك) وبين بالاكى (أحد العلماء الجوالين) يذكر العالم أنه يعبد الذي يسكن في الشمس ويعبد الذي يسكن في القمر، ويعبد الذي يسكن في البرق، ويعبد الذي يسكن في السماء، إلى غير ذلك من معبوداتهم، (بعض منها مذكور في ريگ فید، وبعضها غير مذكور) ولكن الملك يعارضه في كل ذلك، ويقول: أنا أيضًا أعبد كل هذه الأشياء لمهمات معينة، ولحصول مقاصد مختلفة، فلا تعلمني عبادة هذه الأشياء، ويترسل الملك في جوابه حتى أسكت «بالاكى» العالم، وفي الأخير قال له الملك: هذا آخر علمك يا بالاكى؟ قال نعم، قال: إذن ليس لك أي علم ببرهمن، فاسمع مني: إن من خلق كل هذه الأشياء، والذي خلق كل العوالم، لا بد أن نتعرف عليه، فلما سمع بالاكى هذا الكلام قال للملك: أنا أريد أن أتلمذ عليك، لكن الملك قال: إنه لا يليق لي أن أفعل ذلك، لأنك من البراهمة، وأنا من الكاشتريا، فالبراهمة لا يمكن أن يتلمذ على الكاشتريا، ولكني أعلمك دون مراسيم التلمذة، فذهبا إلى رجل نائم، فناده بجميع ما ذكر من الأسماء (من الشمس والقمر والبرق وما إلى ذلك من الأسماء التي ذكرها بالاكى في حوار السابق بأنه يعبدها كبرهمن)، ولكنه لم يجب، ولما ضربه الملك بعصاه، قام الرجل في وقته من نومه، فقال الملك: يا بالاكى! أين كان هذا الرجل مخفيًا؟ وأين كان هو؟ ومن أين جاء؟ يا بالاكى، إن الذي كان الرجل فيه مخفيًا والذي كان فيه، والذي جاء منه ما هي إلا النفس العليا، والروح الأعلى، كما يخرج اللهب من النار هكذا يخرج الحياة من هذه النفس العليا، الروح الأعلى. فهذا هو علم «برهمن» في الحقيقة^(١).

(١) نجد مثل هذا الحوار في بُرِيَهْدَارْتَنكَ أوبانيشادة، الفصل الثاني، البرهمانا الأول، رقم الفقرة

شَفْتِشْتَرَا أَوْبَانِيْشَادَةُ:

التعريف بها:

هذه الأوبانيشادة كما سبق معنا تابعة لياجور قيد الأسود.

يذكر في وجه التسمية: أنه إنما سمي بها لأن العالم شَتِشْتَرَا هو المتكلم في هذه الأوبانيشادة.

وقيل: إن «شت» معناها: المطهر، و«اشترا» معناها: الحواس، كأنهم اعتبروا أن هذه الأوبانيشادة مما تطهر الحواس.

وهذه الأوبانيشادة منظومة، مقسمة على ستة فصول، يفهم مما ورد فيها أنها آخر ما كتب من الأوبانيشادات القيدية، وهي مشتملة على فلسفة متعلق بما يسمّى عندهم بالروح الأعلى، (برهمان)، وكذلك عبادة الآلهة العديدة التي ورد ذكر لبعضها في الأساطير القديمة عندهم المسماة بـ «بران»^(١) وكذلك دعاوى الجمع بين النفس والمادة، والذي يسمى بـ سانكهيا^(٢).

ولهذا نجد لهذه الأوبانيشادة قبولاً لدى القائلين بتعدد الآلهة، والقائلين بالوحدة من مفكري الهندوس، فكل يستدل ببعض ما جاء فيها.

يوجد على هذه الأوبانيشادة تعليق لشنكرأجاريا، ولكن كثير من محققي الهندوس يشكك في صحة نسبته إليه، حيث إنه يختلف اختلافاً بيناً في الأسلوب واللغة المستخدمة والموضوعات المطروحة عن بقية شروحات شنكرأجاريا، ويوجد لهذه الأوبانيشادة شروح، من أهمها ما نسب إلى شنكرأجاريا المذكور سابقاً، وشرح لشنكراند، وغيرهما، كما يوجد في العصر الحديث شرح لـ «رادها كرشنان».

محتويات هذه الأوبانيشادة:

بدأت الأوبانيشادة بالكلام حول بيان السبب في وجود العالم، فقد كان السؤال:

(١) جمع بران، معناه القديم، وسيأتي بيان المقصود منه مفصلاً.

(٢) فلسفة من الفلسفات الست، وسيأتي بيان المقصود منها مفصلاً.

من أين ولدنا؟ وبأي شيء تم عيشنا بعد الولادة؟ وأين نكون بعد الفناء؟ وقد كان هناك عدة أجوبة مقترحة، إلا أنه صرح منها كاتب الكتاب أن سبب الحياة والبقاء والفناء هو إله واحد، موصوف بالصفات، إلا أنه فوق ما يصفه الواصفون، وبقوته يدور «رحى برهمان»^(١)، ثم إن كل شيء يفنى في ذلك الإله بإذن منه، فإن كل شيء منشؤه ذلك الإله، حتى الإنسان العظيم^(٢) وهو عندهم واحد ولكنه ثلاث في نفس الوقت، وثلاث ولكنه واحد في نفس الوقت^(٣)، والخلاص (المعبر عنه بلغتهم بـ «موكشا» إنما يحصل لكل من عرفه حق المعرفة.

وفي القسم الثاني تكلم عن اليوجا، واحتوى على أوامر وتعليمات تتعلق بها.

وفي القسم الثالث نرى ذكر إله واحد وهمي منتشر في كل مكان - بزعمهم - وهو الذي يوزع النعم على الأحياء، وشبهوه بإنسان كبير، له رأس غير متناه، وله أعين غير متناهية، وله أيد وأرجل غير متناهية، ومع ذلك هو موجود في قلب كل حي بحيز يقدر عشرة أصابع، وهو أصغر من الجزء الذي لا يتجزأ، فهذا الإنسان العظيم من عرفه جيداً فقد عرف كل شيء، ويحصل له الخلاص من كل نوع من أنواع الآلام والشرور.

(١) يقولون: إن دوران كل شيء ما هو إلا رحى برهمان. وسيأتي تفصيل ذلك.

(٢) هذا بداية تصورهم لـ «براهما» والذي كانوا يسمونه بـ «هيرنه غربا» والذي انشق منه العالم العلوي والسفلي والوسطي. وكانت بداية الفكرة في - برهمان - (الروح الأعلى) هكذا، كإنسان كبير، انشقت أجزاؤه فالجزء العلوي منه السماوات، والجزء السفلي منه الأرض وما فيها، إلى غير ذلك من عقائدهم المتصورة من قبل مفكرهم.

(٣) كأن بعض هذه الفكرة أتت من قبل النصرى، أو النصرى أخذت بعض هذه الأفكار من الهندوسية، وإنما ينظر هنا إلى نقطة الالتقاء، يرى الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي أن النصرى أخذت هذه الفكرة من الهندوسية عند التقاء الثقافتين، انظر ما ذكره الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٤٧٩-٤٨٩). ولكني ما زلت غير جازم بالتقاء هاتين الثقافتين، لعدم وجود ما يدل على التقائهما إلا ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي في الهند القديمة ص(٢٠٩-٢٢٢)، حيث يرى التقاء البوذية مع المسيحية، وينظر هل هذا بدوره لقاء الهندوسية بالمسيحية، لكون أغلب عقائد البوذية امتداداً لعقائد الهندوسية أم لا؟

وفي القسم الرابع نرى ذكر الإله السابق باسمين آخرين هما: «رودرا» (الإله المذكور في القيدات)، وهو «شيفًا» (الإله المذكور في البرانات)، وهو سبب الخوف بصفته «رودرا» وسبب الفلاح لكل فرد بصفته «سيفا»، وجوده في كل موجود سرًا، ومع ذلك فهو أزلّي، موجود قبل كل شيء، عندما لم يكن هناك نهار ولا ليل، فهو لا يوصف بصادق ولا غير صادق، ولا يوجد له تمثال، ولا مثال، والطبيعة - عندهم - ما هي إلا وجود ذلك الإله وأي حقيقة أخرى إنما هي وهم وخيال. وعندهم أن العالم مليء بصورته المزعومة في أشياء كثيرة، لا تراه بعينيك، إلا أنك تحس به في نفسك، ومن حصل هذا العلم من الأحياء يحصل له - في زعمهم - الخلاص المسمى بـ «موكشا».

والقسم الخامس بدأ بذكر العلاقة بين ذلك الإله والمخلوقات، وأنهم خرجوا منه كخروج الناس من فرج المرأة، أو خروج السيف من الغمد، وسموا خالق هذا العالم بالإنسان العظيم، وأنه موجود في جميع الجهات فوق، وتحت، وهو حي، هو ليس برجل ولا امرأة، ولا خثي، وهو لطيف في صورته الأصلية، وهو يتجسد حسب الأعمال، والخلاص إنما يحصل لمن عرف هذه المعرفة.

أما القسم السادس ففيه خلاصة هذه الأوبانيشادة ومما ورد فيه في وصف إلههم أنه سبب الخلق وهو الإله العظيم، موجود كامن في كل حي، واسع لكل شيء، مدبر، غير موصوف ومتعال عن النعوت، كما أنه في الوقت نفسه غير مجزأ، ساكن، غير فعال، وغير ناشط، وغير مشان، وغير متناه، كل من الشمس المضاءة والقمر المنور لا يبقى لهما أي ضوء ونور بلفائهما مع «برهمان» (الروح الأعلى) بل كل المخلوقات يضاء بضياءه.

ثم ذكر أن الإله الأعلى حجب نفسه عن خلقه بأسماء وأعمال وصور عديدة.

وفي نهاية المطاف قال: إنما يظهر أسرار الأوبانيشاد ويتضح لمن عنده «بهاكتي» أي إخلاص وتبجيل وتوقير على الإله الأعلى، والأستاذ.

ومن الملاحظ: أن هذه أول مرة ذكر فيها الإخلاص والتبجيل والتوقير في الأوبانيشادة، وهذا مما يشعر بأن هذه الأوبانيشادة كتبت متأخرة عندما جاء عصر «بهاكتيا» في عقيدة الهندوس، وذلك في عصر البرانات وما بعدها.

وتجد في هذه الأوبانيشادة أنه عُبد كل من «سبيتا، ورودرا» على أنهما هما الإله الأعلى، ولهذا كله يقال: إن هذه الأوبانيشادة آخر الأوبانيشادات القيدية، وأول الأوبانيشادات اليوغية.

على كل حال: كأن هذه الأوبانيشادة تحتوي على برهمان قيدية، تعدد آلهة برانية، ويوغية سانكهيا».

وتتميز هذه الأوبانيشادة من زميلاتها في وصف الإله وتحديدته؛ لأنها في بعض فقراتها تذكر الإله الواحد المحدد بالصفات وليس الإله المطلق الذي ذكر في سائر الأوبانيشادات الأخرى، تقول الأوبانيشادة: «الإله يحكم الفاني وغير الفاني . بتأملنا فيه، باتحادنا معه، وبدخولنا كيانه، ننقطع عن أوهامنا نهائيًا، وبمعرفتنا للإله تسقط قيودنا عنا، وعندما تنهدم تعاستنا، تتوقف ولادتنا وموتنا»^(١).

فقد لحق التطور في تصور الإله وبدا في الرقي في الأفكار نوعًا ما، نلاحظ ذلك إذا اطلعنا على بعض أجرائها، وفيما يلي استعراض سريع لبعض فقراتها:

لا حاكم في عالمه

ولا سيد، ولا علامة عليه

هو العلة، رب أرباب حواس الأعضاء

لا أب له ولا رب.

الإله الواحد الذي يستر نفسه

كالعنكبوت بالخيط

(١) أوبانيشادة شفتشفترا (١٥/٤).

وجاء من المادة الأولى وفقاً لطبيعته هو

نرجو أن يمنحنا الدخول في برهمان!

الإله الواحد الكامن في كل الأشياء

كلي الشمول ، النفس الباطنة لكل الأشياء،

مراقب الأفعال ، قائم في كل الأشياء

الشاهد، الحكيم الأوحد، العاري من الصفات.

المحرك الوحيد للسكانات الكثيرة،

الذي يجعل الحبة الواحدة متكاثرة.

الحكماء من يرونه قائماً على ذات المرء

أولئك - لا غيرهم - ذوو سعادة أبدية.

الدائم بين غير الدائمين ، الفطن بين غير الفطنين

الواحد بين المتعدد، الذي يهب الرغبات

هو العلة ، الذي يوصل إليه بالتميز والتجريد

وبمعرفة الرب يتحرر المرء من كل الأغلال.

الذي هو خالق كل شيء، والمحيط بكل شيء ، مصدر نفسه،

الفطن، مؤلف الزمن، مالك الصفات، العالم بكل شيء

هو حاكم المادة الأصلية، وحاكم الروح، وسيد الصفات

ومسبب الحلول في الجسد والتحرر والدوام والاستعباد.

المشتمل على ذلك خالد موجود ربّ،

فطن ، موجود بكل مكان، حارس هذا العالم،

هو الذي يحكم هذا العالم على الدوام
ليست من علة أخرى توجد الحكم.

إليه الذي خلق براهما^(١) قديمًا،
والذي هو بحق أعطاه الثيديات،
إلى هذا الإله، الذي يضفي بعقله هو،
ألتمس الملاذ رغبة مني في التحرر.

إليه، الذي هو بغير أعضاء وبغير حيوية، والهادئ
والذي لا يعاتب وغير المدنس
أعلى معبر للخلود
كنار تغذيها الوقود.
حينما يطوي الناس في الفضاء
كما لو كان قطعة من الجلد
حيثئذ تكون نهاية الشر
بدون معرفة الرب^(٢).

(١) هذا النص يدل على أشياء:

الأول: أن هذا أحد الثالوث، وليس برهمان المذكور في أغلب الأوبانيشادات.
الثاني: أنه قد تم اختراع الثالوث في هذا الوقت، حتى نسب إليه بأنه مخلوق.
الثالث: أنه متأخر عن الأوبانيشادات الأخرى السابقة الذكر، وأن حركة بهاكتيا قد ظهرت في تلك الآونة.

(٢) تمت الاستفادة في ترجمة هذه النصوص مما ذكره الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني: في العقائد والأديان ص(١١٩-١٢٤)، مع مراجعتي للأصل أوبانيشادة شفتشفترا (٦/٩-٢٠).

(أي كما أن تغطية الفضاء بالجلود غير ممكن، هكذا حصول الراحة والطمأنينة غير ممكن بدون معرفة الرب، والمقصود: هذا غير ممكن أصلاً، فلا سعادة إلا بمعرفته).

في هذه الأوبانيشادة يصل تصور الإله درجة عظيمة من الرقي، ذلك أنها تعترف أنه: إله خالق لكل شيء، محيط بكل شيء، وعالم بكل شيء، ولم يخلق ولم يولد، وموجود بكل مكان، ولئن كانت هذه الأوبانيشادة تضمنت في بعض أماكنها العقيدة الشهيرة بانتقال الأرواح من جسم إلى جسم وطريقة خلود الروح، فإن مركز الاهتمام في الأوبانيشادة هذه يقوم على فكرة تصور هذا الإله السامي العظيم، وهي متأثرة بفكرة دينية على التجريد والاعتراف بالوحدانية نوعاً ما، كأنه أرقى ما وصلت إليها العقول البشرية التي خلت من نور الوحي.

المبحث الثالث

مصادر الهندوسية الأخرى

. وتحتته مطالب:

المطلب الأول

كتب الفلسفات المقدسة لدى الهندوس

مقدمة: الفلسفة^(١) الهندية وقدمها

الفلسفة الهندية قديمة جدًا، وقد اعترف بهذه الحقيقة كثيرون^(٢)، منهم ول ديورانت في قصة الحضارة، حيث يعتبرها أقدم من الفلسفة اليونانية^(٣)، كما يرى تأثر كل من فيثاغورس^(٤).....

(١) الفلسفة: عرفها أرسطو بأنها: البحث عن علل الأشياء ومبادئها الأولى، أو هي العلم الذي يبحث في الوجود من حيث هو وجود. أو كما يذكره ابن رشد: هي النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع. انظر ما ذكره الشيخ سعود بن عبد العزيز الخلف في بحثه: قول فلاسفة اليونان الوثنيين في توحيد الربوبية ص(٣٦).

(٢) حتى صرح الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة بأنها أعرقها على الإطلاق. انظر تعليقه على التنكيل (٢٢٢/٢).

(٣) قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢٤٦).

(٤) كان فيثاغورس بين ٥٨٠ - ٥٠٠، وقيل: ما بين ٥٧٠ - ٤٥٧ ق. م، في ساموس، وفي حوالي منتصف العمر هاجر إلى كروتونا في جنوب إيطاليا، هناك أسس الجمعية الفيثاغورية وعاش لعدة سنوات على رأس هذه الجمعية، وهذه الجمعية هي في الحقيقة نحلة دينية وخلقية، =

وبارمنيدس^(١) وأفلاطون^(٢)

= لقد أخذت الإيمان بالتناسخ، تناسخ الأرواح، وآثر أعضاؤها الخشونة والتكشف؛ لأن الجسم لم يكن في رأيهم إلا سجناً حبس فيه الروح، فينبغي أن نحطم من قيوده وأغلاله ما وسعنا التحطيم - بغير الانتحار - وقد كانت نزعتهم غامضة، وكانت فلسفته: الأعداد، حيث كان يرى العدد جانباً مهماً للغاية، وأنه يستحيل أن نتصور كوناً لا نجد فيه العدد، إن كل شيء يمكن عده، والعدد عنده ليس رقماً، إنما هو شكل، وهو ما يسمى الأصل الرياضي. ولا تعرف على وجه اليقين حياته المتأخرة وتاريخ وفاته. وقيل: توفي فيثاغورس سنة ٤٩٧ ق.م.

انظر ما ذكره الدكتور فيصل عباس: موسوعة الفلاسفة ص(١٥)، والموسوعة الفلسفية ص(٣٥٣)، وانظر ما ذكره الشيخ سعود بن عبد العزيز الخلف في مقاله: قول الفلاسفة المنتسبين للإسلام في توحيد الربوبية، من مجلة جامعة أم القرى ج ١٣، ع ٢١، رمضان، ١٤٢١ هـ ص(٤١٦). والدكتور أحمد فهمي محمد في تعليقه على الملل والنحل للشهرستاني (٣٨٦/٢).

(١) بارمنيدس: يعتبر المؤسس الحقيقي للمدرسة الإيلية، ولد حوالي ٥١٤ ق.م. وقيل عاش ما بين ٥٤٠ ق.م إلى ٤٥٠ ق.م، وقيل: ٥٠٤ - ٤٧٠ ق.م. ويبدو أنه عاشر الفيثاغوريين، ثم افترق عنهم، وهاجم آراءهم، وقد ذاعت شهرته بعد أن شرع للمدينة قوانين. فلسفته: الوجود، فقد وجه بارمنيدس فلسفته لمعارضة مفهوم الحركة والتغير الشاملين في العالم، العالم عنده كرة مادية، متصلة، لا مكان للخلاء فيها، وبذلك تمتنع الحركة، لأن الفضاء الكوني تمتلئ تماماً، وهو يرى أن كل فكرة إنما هي فكرة عن وجود، وبما أن اللاوجود أو العدم، لا يدرك فكرياً، كان بالتالي غير موجود، أي ليس هناك عدم. وبما أن الفضاء الكوني ملاء، فإن العالم واحد، لا كثرة فيه، ولا أجزاء، وما يبدو لنا من كثرة هو خداع الحواس، وهكذا يخلص بارمنيدس إلى نفي الحركة والظهور والفناء في العالم، إن الحقيقة الواحدة عند بارمنيدس، أي المبدأ الأول للأشياء هو الوجود. فهو الذي ادعى التوحيد المطلق، وعدم التغير وأولية كل شيء.

راجع ما ذكره الدكتور فيصل عباس، موسوعة الفلاسفة ص(١٧-١٨). وانظر المنجد في اللغة والأعلام ص(١٢٧)، وانظر ما ذكره الشيخ سعود بن عبد العزيز الخلف في بحثه: قول فلاسفة الوثنيين في توحيد الربوبية ص(٤٤).

(٢) هو أفلاطون بن أرسطن بن أرسطوقليس من أثينة، وهو آخر المتقدمين الأوائل الأساطين، ولد في أثينا في نحو ٤٢٧ ق.م، كان حدثاً متعلماً تتلمذ لسقراط، جلس على كرسي سقراط بعده، =

بالميتافيزيقيا^(١) الهندية.

كما يرى الدكتور علي زيعور أيضًا مثل هذا الرأي، بل يقول: «إن للفكر الفلسفي أصلًا واحدًا، وهو الفكر الأسيوروبي...نحن نرى بلا غضاضة ولا أدنى ضير أفكارًا شرقية في فيثاغورس، وأفلاطون، وأفلوطين، والفكر الغنوصي^(٢) خاصة، إن قممًا من الفلسفة الغربية إذا وضعت في أرضية ستكون هذه شرقية»^(٣).

= كان فلسفته: المثل، الجمهورية، والمثل معناه: أن عالم الأشياء الحسية ليس بالعالم الحقيقي، ذلك أن الأشياء المحسوسة في تغير مستمر، تنشأ وتفسد، ولا تحتوي على أي شيء يقيني وثابت، أما الماهية الحقيقية للأشياء الحسية وعلتها فصور مفارقة بريئة من المادة، لا محسوسة، تدرك بالعقل فقط، تسمى الأفكار أو المثل، وأن لكل صنف من المحسوسات هناك في عالم المثل فكرة أو مثال يقابله، وهذه المثل هي علة المحسوسات والنموذج الذي صنعت عليه، توفي حوالي ٣٤٧ ق.م. انظر ما ذكره الدكتور فيصل عباس في موسوعة الفلاسفة ص(٣١)، وانظر ما ذكره الدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف في بحثه: قول فلاسفة اليونان الوثنيين في توحيد الربوبية ص(٤٧)، والمنجد في اللغة والأعلام ص(٥٤)، وانظر تعليقات الدكتور أحمد فهمي محمد على الملل والنحل للشهرستاني (٢/٤٠٥-٤٠٦).

(١) الميتافيزيقيا: هي تعريب كلمة يونانية: تامتافوسيكيا، ومعناها: ما بعد الطبيعة. وأحيانًا تسمى بالإلهيات.

راجع الكلمة مع ما طرأ عليها من المعاني عبر القرون عند عبد الرحمن بدوي في كتابه: موسوعة الفلسفة (٢/٤٩٣).

(٢) الفكر الغنوصي: الغنوصية كلمة يونانية الأصل «غنوسيس» بمعنى المعرفة، غير أنها أخذت بعد ذلك معنى اصطلاحيًا، وهو: التوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا، أو هو تذوق تلك المعارف تذوقًا مباشرًا بأن تلقى في النفس إلقاءً، فلا تستند إلى الاستدلال أو البرهنة العقلية، وهي حركة وفلسفة قديمة تمثل مزيجًا من العقائد اليونانية والإسرائيلية، بالإضافة إلى العقائد الفارسية الآرية، والكلدانية السامية مع غلبة الطابع الوثني عليها. انظر ما جاء في الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة للدعوة العالمية للشباب الإسلامي (٢/١١١٣-١١١٥).

(٣) الدكتور علي زيعور: الفلسفات الهندية ص(٥٦).

ويقول أيضاً: «دراسة فكرة الذات - الشاملة، مثلاً، موجودة في الهند حيث تتمثل باتحاد الأتمان (Atman) مع برهمن (Brahman)؛ ثم يأخذها أفلوطين^(١)...؛ وهي قائمة في الغنوصيات، ثم في الفكر العربي، والفارسي. ثم عادت لتؤثر عبر الفرس في الهند، وتكون أسطع ما أعطته هذه في التراث الهندي الذي تلا الفيدانتا^(٢)...»^(٣).

ويقول في موضع آخر: «فمنذ الإسكندر المقدوني^(٤)، يلاحظ وجود نقاط شبه جمّة بين الهنديّات وفيثاغورس وسقراط. لقد أخذ فيثاغورس من الهند أفكاره في التناسخ، وقرابة الإنسان والحيوان، وتحريم أكل اللحم، ومؤلفاته الرياضية أو كثيراً من نظرياته الرياضية... وتبدو التشابهات، إن لم نقل الأخذ، كثيرة بين النظريات الهندية وعقائد طاليس^(٥)،

(١) أفلوطين: ولد نحو ٢٠٥م، وتوفي ٢٧٠م، وهو فيلسوف مصري، متأثر بأفلاطون، وتعزى إليه مع آخرين الأفلاطونية الحديثة، وكان يسعى في فلسفته للتوفيق بين المعتقدات الدينية والفلسفة اليونانية، وكان له تأثير كبير على النصرانية، فلسفته: الفيض، ينطلق أفلوطين من القول بحركة نازلة - من الوجود الإلهي، أو الواحد الأول، مروراً بعدد من الحلقات المتوسطة الأدنى (العقل، النفس الفردية)، حتى اللاوجود، أو المادة؛ وحركة صاعدة للنفس الإنسانية، التي ترقى إلى الله، وتتحد معه، في حالة من النشوة الروحية، تأتي بعد عدد من التمارين الطويلة: بالطهارة الضرورية لبلوغ الكمال الأسمى، يتم انعتاق الروح من أسر البدن، وهو يحاول الاتحاد مع الوجود المطلق بالنشوة الروحية. انظر ما ذكره الدكتور فيصل عباس في موسوعة الفلاسفة ص (٤٥)، وعبد المنعم الحفني في الموسوعة الفلسفية ص (٣٨)، و المنجد في اللغة والأعلام ص (٥٦)، وما ذكره الشيخ سعود بن عبد العزيز الخلف في بحثه: قول فلاسفة اليونان الوثنيين في توحيد الربوبية ص (٤٨).

(٢) ستعرف عليه قريباً.

(٣) الدكتور علي زيعور: الفلسفات الهندية ص (٥٧).

(٤) إسكندر المقدوني: هو إسكندر بن فيلبس المقدوني، ولد في بلا سنة ٣٥٦ ق.م، ويلقبه الأفرنجة بالكبير، قرأ على أرسطو، وأخذ عنه، وكلف بحبه، وهو الذي بنى الاسكندرية، وقد تزوج بابنة ملك همذان سنة ٣٢٧ ق.م، ثم مات سنة ٣٢٣ ق.م. انظر: دائرة المعارف للبستاني، (٥٤٥/٣).

(٥) هو طاليس الملطي، ولد قبل الميلاد بنحو ستمائة وأربعين سنة، وقيل: ٦٢٤، وقيل: =

أنكسيمندر^(١)، أنكسيمين^(٢)، بارمنيدس، أمبيدوكلس^(٣)... كما يعرف تاريخ الفلسفة

= ٦٤٣ ق.م، توفي حوالي ٥٥٠ ق.م، يعد هذا الرجل مؤسس وأب الفلسفة اليونانية، وهو واحد من الحكماء السبعة، فلسفته: أصل الوجود: الماء، تتألف فلسفة طاليس من قضيتين: أولاً: أن أصل الأشياء جميعاً هو الماء، وكل شيء يعود إلى الماء، ثانياً: أن الأرض قرص مسطح مستو يطفو على الماء. والقضية الرئيسة تعني أن الماء هو النوء الأول الواحد للوجود، وأن كل شيء آخر في الكون ليس إلا مجرد تغير للماء. انظر ما ذكره الدكتور فيصل عباس في موسوعة الفلاسفة ص(١٢)، وانظر تعليقات الدكتور أحمد فهمي محمد على الملل والنحل للشهرستاني (٣٧٣/٢).

(١) انكسيمندر أو أنكسيمندريس هو أستاذ انكسمانس، ولد نحو (٦١٠) ق.م، وتوفي سنة (٥٤٧) ق.م. ولد بملطية إحدى غور اليونان الأيونية بآسيا الصغرى، وتلمذ على طاليس، لم يعرف عن حياته الكثير، وكان إنكسمندر أول فيلسوف يوناني تتأكد المعرفة بحياته، نظريته في العالم مرده إلى: مبدأ أول يسميه اللامتناهي، وهو المادة الأولى التي تجمع كل الأضداد، الحار والبارد، واليابس والرطب، وغيرهما. انظر: ما ذكره الدكتور فيصل عباس: موسوعة الفلاسفة ص(١٢-١٣).

(٢) انكسمانس، تلميذ أنكسيمندريس، ولد سنة ٥٨٨ ق.م. وتوفي سنة ٥٢٤ ق.م. كان انكسمانس مثل المفكرين السابقين من سكان مدينة مليتش، فلسفته: الهواء، الهواء في حالة حركية دائمة، وهذه الحركة تتسبب في تطور الكون من الهواء، وعملية التطور تتحدد من عمليتين متعاكستين: التخلخل، والتكثيف. انظر ما ذكره الدكتور فيصل عباس في: موسوعة الفلاسفة ص(١٣). وانظر تعليقات الدكتور أحمد فهمي محمد على الملل والنحل للشهرستاني (٣٧٧/٢).

(٣) هو انبازوقليس، ويقال: إمبازوقليس، ولد سنة ٤٩٠ ق.م، وقيل: ٤٩٤ ق.م، وقد نشأ في أغريغنتا، من صقلية، وهو أول الحكماء المعروفين الخمسة المعروفين بأساطين الحكمة، وأقدمهم زماناً، وقد اشتهر صيته، توفي سنة ٤٤٥ ق.م، وقيل توفي سنة ٣١٩ ق.م. فلسفته: أصل العالم من العناصر الأربعة: النار والهواء والماء والتراب، وهي بالنسبة للكون كالألوان بالنسبة للرسم أو كالماء والطحين الذين يجبل منهما العجين، والتحامها وافتراقها بمعايير مختلفة هما أصل كل المخلوقات في هذا الكون؛ وليس بين هذه العناصر أسبقية بل كلها أزلية، وهو يرى أن هناك طريقين يسلكهما العالم: طريقاً من الاتحاد إلى الافتراق، وآخر من الافتراق إلى الاتحاد، وهذا النظام حتمي لا مناص منه؛ لأن هاتين القوتين قطعاً وعداً على أن تنتصرا بالتناوب. انظر ما ذكره الأستاذ روني إليي ألفا في موسوعة أعلام الفلسفة (١٣٣-١٣٤). وانظر تعليقات الدكتور أحمد فهمي محمد على الملل والنحل للشهرستاني (٣٧٩-٣٨٠)

فرضية تقول: إن أرسطو^(١) ينقل ميثافيزيقاه من السمكهيا (Samakhya)؛ بل إن ماكس مولر، نفسه، بحث... عن مصطلحات فلسفية هندية، وقال غور: إن إسكندر أرسل إلى أستاذه هذا رسائل هندية انتفع منها أرسطو في بناء مذهبه. حتى المنطق الأرسطي، هو أيضًا ظن البعض أنه متأثر بمذهب النيايا^(٢) (Nyaya) الذي يقول عنه اليوم، كثيرون، أنه الأوسع والأرفع. حتى الذراتية (المذهب الذري اليوناني) عند ديموقريطس^(٣)... اشتقت من ينابيع هندية، كما رأى البعض^(٤).

ثم يقول: «في هذه النظريات مبالغة أحيانًا، ومجانية أحيانًا أخرى، لكن، كما أرى، إن قراءة عميقة للفلسفات الهندية، التي سبقت الفلسفة اليونانية^(٥)، تكفي لإثارة الظنون بأن الثانية تأخذ، تنتفع، توافق، أو ما إلى ذلك، بالنسبة لسابقتها.

(١) أرسطو: ولد نحو ٣٨٤ ق.م، وتوفي نحو ٣٢٢ ق.م، وهو أشهر فلاسفة اليونان، وأكثرهم تأثيرًا فيمن بعدهم، وهو مربي الإسكندر المقدوني، وتلميذ أفلاطون، فلسفته: الميتافيزيقا - المنطق. انظر ما ذكره الشيخ سعود بن عبد العزيز الخلف في بحثه: قول فلاسفة اليونان الوثنيين في توحيد الربوبية ص(٤٨)، وانظر ما ذكره الدكتور فيصل عباس في موسوعة الفلاسفة ص(٣٧-٣٩).

(٢) سيأتي التعريف بهذه الفلسفة ص(٣٠٧).

(٣) ديموقريطس: عاش ما بين (٤٦٠ - بداية القرن الرابع قبل الميلاد)، من الفلاسفة الذريين، فلسفته الذرات، حيث يعمم آراءه الذرية لتشمل الحياة والروح أيضًا. انظر ما ذكره الدكتور فيصل عباس: موسوعة الفلاسفة ص(٢٣).

(٤) الدكتور علي زيعور: الفلسفات الهندية ص(٦٣). تقول الأخبار أن من زار الهند من مفكري اليونان، هناك ليكورغوس، فيثاغوراس، ديموقريطس، فيدون، أرسطو، ويقال: إن أفلاطون أزمع على زيارتها، لكن منعه نشوب الحرب من تنفيذ خطته، بل إن الموسيقي أرسطوكسين (في القرن الثالث قبل الميلاد) يروي أن سقراط نفسه التقى في أثينا مع راهب هندي. مهما يكن، فلا شك أن الرهبان الهنود، بشكل خاص طافوا بلاذًا كثيرة. وبهذه الطريقة أثروا، مثلًا، في الفكر العربي الإسلامي. راجع الفلسفات الهندية ص(٦٣) هامش.

(٥) وهناك قول قوي أيضًا بأن الفلسفة الهندية مأخوذة من فلسفة اليونان وإيران، ففي رأي «سنت اسمت» أن الرسوم الموجودة في أودية أجتا تشبه تمامًا بما وجد في إيران واليونان، وبالتالي هو يستدل بذلك على أن فلسفة الهند أخذت من اليونان وإيران، وإن كان علماء الهند ردوا عليه. من إفادات الدكتور الأعظمي شفهيًا.

بيد أن تأثير الهنديات في الفلسفة الهينستية^(١)، وفي الغنوصية في أفلوطين، وفورفوربوس^(٢)، في أوريجانوس^(٣)، وأنداده... أكثر وضوحًا:

تلك هي مثلاً نظريات الفيض، وعوالم الأفلاك، والوجد، والتأمل، وقدرات الصوفي السحرية، وتنقل الأرواح، والألم كأساس في الوجود... كثيرون نبهوا إلى الأصل الهندي للفلسفة اليونانية ثم من جهة أخرى، يُعتبر أفلوطين خاصةً، أكثر المذكورين صلةً وارتباطًا بالتصوف الهندي.

ويقول ف. كوزن (ت ١٨٦٧) للهند «أتينا من الرومان، والرومان من اليونانيين، وأخذ اليونانيون من الشرق لغتهم، وفنونهم، ودينهم... إن الشرق إذن بنظرنا هو نقطة انطلاق الفلسفة». والشرق عنده، هو الهند.

وبالاختصار: فهناك مجال غني للتشبيه بين أفكار فلسفية غربية ومثيلاتها في الهند: إنه مجرد شبه أحيانًا، لكنه أحيانًا أخرى أخذ واستقاء؛ مما دفع بعض المؤرخين إلى رد الفلسفة اليونانية برمتها إلى الهند، أو إلى الشرق عمومًا...^(٤).

(١) الفلسفة الهينستية: يقصد الفلسفة اليونانية.

(٢) فورفوربوس: ولد في صور سنة ٢٣٣ م، وتوفي في روما ٣٠١ م، أو ٣٠٥ م، فيلسوف سوري، اسمه الحقيقي ملكوس، كتب باليونانية، هو تلميذ أفلوطين، سافر كثيرًا واستقر في النهاية في روما.

انظر ما ذكره روني إيلي ألفا في موسوعة أعلام الفلسفة (٢/ ١٦٧-١٦٨).

(٣) أوريجانوس: ولد في الإسكندرية سنة ١٨٤ م، وتوفي ربما في صور ٢٥٣ م، لاهوتي يوناني، ارتد والده إلى النصرانية، درس على يد كليمان الإسكندراني ثم على أمونيوس ساكاس الذي كان أستاذ أفلوطين. فلسفته: العالم خلق منذ الأزل، أزلي هو في المدة، لكنه محدود في الحيز، وهو ليس الأول، ولا الأخير، لأن عوالم أخرى سبقت، وأخرى ستبته، بعد تهدمه النهائي، وهكذا تستمر. انظر ما ذكره الأستاذ روني إيلي ألفا في موسوعة أعلام الفلسفة (١/ ١٤٧-١٤٩).

(٤) المصدر السابق، ص (٦٤-٦٥).

ثم إن آراء هرقليطس^(١) وأناكسجوراس^(٢) أيضًا كثيرًا ما تنتقد الفلسفات الهندية، وهو دليل على أسبقيتها لهم^(٣).

فالفلسفة الهندية قديمة جدًا، ولكن الذي يبدو أن الفلسفة المصرية أقدم من كل الفلسفات، بل هم أئمة في هذه الميادين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُ إِلَى الْفَكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُصْرَبُونَ﴾^(٤) وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾^(٥) [القصص: ٤١-٤٢]، ولا شك أنهم كانوا أئمة في الضلال. ثم إن تاريخ موسى عليه السلام تقريبًا القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وقد أرخ المؤرخون خروج موسى من مصر حوالي العام ١٢٦٠ ق.م، بل هناك من يذهب أكثر من ذلك بأن خروجهم كان حوالي العام ١٥٥٠ أو ١٥٧٠ ق.م^(٦) وهذا سابق لجميع الفلسفات التي تذكر في العالم، وفرعون هو أول ملحد من كل الوجوه. فحسب التاريخ أيضًا نرى تقدم الفلسفة المصرية على الفلسفات الأخرى.

يقول مولانا أبو الكلام آزاد^(٥): «علمنا أن مصر والعراق قد ازدهرت في ربوعهما

(١) هو هرقليطس، ولد حوالي ٥٤٧ ق.م في أفسوس، وتوفي عام ٥٣٥ ق.م. فلسفته: النار - الصيرورة، ينطلق في مذهبه عن العالم من القول بتفسير كل ما هو موجود، وقد افترض أن جميع الأشياء الموجودة صدرت من بداية مادية أولى، هذه البداية هي النار. إن هرقليطس هو وضع الديالكتيك المادي، وذلك من خلال التفسير المستمر لجميع الموجودات، وبصراع الأضداد كسبب للتغير. انظر ما ذكره الدكتور فيصل عباس: موسوعة الفلاسفة ص(٢٠).

(٢) هو أناكسجوراس أو إنكساغوراس، ولد في كلازوميني من بلاد آسيا، ولد في كلازوميني من بلاد آسيا الصغرى بالقرب من أزمير، ولد سنة ٥٠٠ ق.م. من أسرة نبيلة، رحل إلى أثينة وأقام هناك ثلاثين سنة، ثم غادر إلى مصر بعد محاكمة له، ثم رجع إلى بلده ومات بها سنة ٤٢٨ ق.م. من تعليقات الدكتور أحمد فهمي محمد على الملل والنحل للشهرستاني (٢/ ٣٧٤).

(٣) انظر قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢٤٦).

(٤) انظر ما ذكره حسن نعمة: موسوعة الأديان السماوية والوضعية، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة ص(١٥).

(٥) هو: محي الدين أحمد (مولانا) أبو الكلام آزاد، ابن الشيخ خير الدين الدهلوي، ولد في =

مدنيات عالية قبل اليونان بزمان طويل، فهذا أفلاطون يكثر في كتبه من ذكر المبادئ المصرية، الأمر الذي يثبت أن مصر كانت تعتبر منبع العلم بلا نزاع، وقد ذهب أرسطو أكثر من ذلك، فقال: إن الكهنة المصريين كانوا أول الفلاسفة في العالم، ولكننا لا نعلم تفصيل العلاقات التي وجدت بين مصر واليونان... ولكن هنالك مناطق أخرى من التاريخ العتيق، قد رفع عنها الستار أخيراً، تاريخ الهند القديم، قد فتح أمامنا ميداناً جديداً للدراسات الفلسفية القديمة فنستطيع أن نبحت عن نشأة الفلسفة وطبيعتها وتقدمها في العصور التي سبقت العصر اليوناني،... فقد أجمعت الآراء على أن المباحث الفلسفية في اليونان لا يرجع عهدها إلى أكثر من القرن السادس قبل الميلاد، فأول مفكر يوناني، يصح لنا أن نصفه بالفلسفة، هو طاليس (Thales)... أما الهند فإننا نجد بها في القرن السادس قبل الميلاد صورة تختلف عن اليونان كل الاختلاف، فلم ير هذا العصر في الهند نشأة الفلسفة بل شهد ارتقاءها، لم يكن هذا العصر في الهند، صبح الفلسفة كما كان في اليونان، بل رابعة نهارها.... وعلى ذلك يجب أن نبدأ تاريخ الفلسفة العام بالهند، لا باليونان^(١).

ويقول الدكتور محمد غلاب: إن الفلسفة بجميع أقسامها: الإلهية والرياضية والطبيعية قد ازدهرت في الهند ازدهاراً فائقاً وأن المقدمة الضرورية للفلسفة وهي المنطق قد بلغت في مدارسها الحد الكافي للتفلسف الراقي.

= مكة المكرمة بحارة قدوة المتصلة باباب السلام سنة ١٣٠٥هـ، الموافق ١٨٨٨م، من أب ذي أرومة هندية، وأم ذات سلالة عربية، فهي ابنة أخت الشيخ المحدث محمد بن طاهر الوتري، مفتي المدينة المنورة، وهو أستاذ معظم علماء الحجاز، كان رحمه الله آية من آيات الله في الذكاء والفهم والسياسة، قام ضد الإنكليز بالصحافة والكتابة، وكان من مؤسسي حزب المؤتمر، وترأسه أكثر من ١٥ سنة، وكان أول وزير للتعليم في الهند بعد الاستقلال، توفي سنة ١٩٥٨م. انظر: تذكرة لمولنا آزاد ص(٢٥)، وما بعدها، ثم ص(٣١٢) وما بعدها، (الأردية)، والمنجد في اللغة والأعلام (٢/٤١).

(١) تم الاقتباس من مقالة طويلة مسهبة لمولانا أبي الكلام آزاد في مجلة ثقافة الهند، العدد ديسمبر، سنة ١٩٥٠.

فأما مبحث الإلهيات فهو ثابت بلا ريب إذا بحثنا، وأما الرياضة بجميع أقسامها فلم تصل في أي بلد آخر - إذا استثنينا مصر - إلى مثل ما وصلت إليه الهند من رفعة وارتقاء، ويكفي أن نصرح بأن الهنود هم أساتذة «فيثاغورس» أكبر رياضي اليونان على الإطلاق، وهم أساتذة العرب في الحساب والهندسة والفلك، بل إن أرقام الحساب المستعملة الآن في العربية هي هندية الأصل.

أما الطبيعة فحسبنا لنبرهن على سابقيتهم فيها أن نعلن أنهم قد وصلوا إلى نظرية «الذر» أو الجوهر الفرد قبل «ديموقريطس»... أول القائلين بها في بلاد اليونان بزمان بعيد، وأنهم قاموا في الكيمياء بتجارب جبارة... كما روى التاريخ في عدة نواحٍ من حديثه عن تلك البلاد.

وأما المنطق فهو قديم جداً في المدارس الهندية حتى ليرجعه بعض المؤرخين إلى القرن الثامن عشر، ولا شك أن أصحاب هذا الرأي يجزمون بأن المنطق الهندي هو أساس منطق «أرسطو»، ولكن البعض الآخر لا يصعد بالمنطق الهندي على سلم الماضي أكثر من عصر المدرسة «اليوغية الحديثة» أي بعد عصر «أرسطو» ولكن هذا الرأي الأخير عندي مرجوح؛ إذ أن المنطق قد وجد بلا شك في مدرسة «سامكهيا»، وهي قبل أرسطو بزمان بعيد.

وعلى هذا نستطيع أن نجزم بأن الفلسفة بأكمل معانيها قد وجدت في بلاد الهند، وأن اليونان مدينة لتلك البلاد بكثير من نظرياتها التي يعتقد السطحيون أنها مبتدعة، وبالتالي نصرح أن الهند كانت ولا تزال لبنة مهمة، بل حجراً أساساً في بناء الفكر البشري الراقي ما في ذلك شك ولا ارتياب^(١).

ولكن - كما يقول الدكتور عبد السلام الرامبوري - ليس عندنا من المواد التاريخية ما يعول عليه في توقيت تدوين الفلسفة ونشوء المدارس الفكرية في الهند، ولا يتيسر لنا أن نقول بالقطع كيف ابتدأت؟ وأين نشأت؟ ومتى تشعبت؟...

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب في: الفلسفة الشرقية ص (١٧٨-١٧٩).

والغالب أن الأفكار الفلسفية في الهند قد نشأت بمبادئ دينية، وأهداف أخلاقية، وأغراض علمية في عصر الأوبانيشادات القديمة، ولكنها بقيت طوال العمر غير ناضجة، وجدانية غير محكمة بالدلائل المنطقية ولا مرتبطة بعضها ببعض، ومضت القرون حتى أخذت تترقى وتكتمل وأخذت تتكون نظامًا تلو نظام ومدرسة فكرية بعد مدرسة فكرية، وجميع هذه المدة قد قدرت بالتخمين بنحو من اثنين وعشرين قرنًا ابتداءً من نحو سنة ٨٥٠ ق.م. وتنتهي إلى منتصف القرن السابع عشر المسيحي وتعد السبع الأولى منها عصرًا ذهبيًا للفلسفة الهندوسية^(١).

والفلسفات التي تولدت من كتب الفيدات والأوبانيشادات اشتهرت منها ستة، والتي عرفت فيما بعد بالفلسفات الست، وهي رؤى مدرسية، أو بترجمة حرفية - «وجهات نظر»: والتي يقال لها: «درس»، وهي كلمة مشتقة من جذر «د، ر، س» بمعنى رأى^(٢).

وهذه الفلسفات الست هي:

١ - فلسفة فيدانت أو (فيدانتا، فيدانتا، ويدانت، الويدانتية).

٢ - فلسفة ميمامسا.

٣ - فلسفة نيايا.

٤ - فلسفة فايشيشكا.

٥ - فلسفة يوغا.

٦ - سانكهايا.

والمواقف الفكرية حيال المسائل الغيبية في الفلسفة الهندية على العموم يمكن

تقسيمها في اتجاهين:

(١) انظر مقالته: فلسفة الهند القديمة في مجلة ثقافة الهند، يونيو ١٩٥٣، ص (٣٩).

(٢) راجع ما ذكره الدكتور علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٢٧).

أولاً: أدرية، أي التي تدري، وتدعي أنها توصلت إلى إجابات نهائية بخصوص المسائل الغيبية.

وهذا الموقف له جانبان:

١ - أدري إثباتي. وهو الذي يحاول أن يثبت وجود إله على نوع معين:

٢ - أدري نفي. وهو الذي يحاول أن ينفي وجود إله إطلاقاً.

ثانياً: اللاأدرية: أي التي لا تدري، وهي تعلن عدم إمكان الوصول إلى إجابات نهائية بخصوص تلك المسائل، وتقف بمعزل عن الاتجاهين السابقين فتمتنع عن النفي والإثبات.

فالفلسفات الخمس الأولى مذاهب إثباتية (أدرية)، تثبت وجود إله، إلا أن المذهب الأخير الذي نشأ معاصراً للبوذية والجينية فإنه يعترف بصحة كتب الفيدات من جانبها الأخلاقي والاجتماعي، ويقف موقف (اللاأدرية) عدم المعرفة بخصوص ذات الإله^(١).

ويمكن جمع هذه المذاهب - من ناحية توافق أفكارها وتتابعها - في ثلاثة أزواج هي: نيايا وفايشيشكا (Nayaya, Vashesika)، وسانكهيا ويوغا (Sankhya, Yoga)، وميمانسا وفيدانت (Mimansa, Vedanta)^(٢).

(١) راجع ما ذكره العميد عبد الرزاق محمد أسود في كتابه: موسوعة الأديان والمذاهب (٦٢/١).

(٢) راجع ما ذكره العربي، الدكتور محمد: الديانات الوضعية الحية في الشرقيين الأدنى والأقصى ص (١٧).

الفرع الأول: فيدانت

توطئة:

فيدانت تسمى عند الهندوس بـ «أتر ميمانسا» أيضًا، وذلك أن الفيدانت لها جانبان، الجانب العملي، والجانب العلمي، والجانب العملي مقدم على الجانب العلمي، فإن الجانب العملي هو الذي كان في الفيدانت من أول الأمر من تقديم القرابين، والتضرع إلى الآلهة، والتوسل بهم في دفع البلايا، وهي كلها من صميم الفيدانت، وهي التي تسمى بـ «فوربا ميمانسا»^(١) أي التنسيق والتوفيق الأولي، وأما الجانب العلمي والذي جاء في الأوبانيشادات وجاء بعد الفيدانت^(٢)، فهي متأخرة ولهذا يسمى هذا الجانب بـ «أتر ميمانسا» أي التوفيق والتطبيق الأخير، وهو ما يسمى بـ «فيدانت».

معنى فيدانت:

كلمة «فيدانت» مركبة من كلمتين:

الكلمة الأولى: فيد، والكلمة الثانية: انت، وقد تقدم معنا معنى كلمة «فيد»^(٣)، وهي المعرفة، و«انت» إما يكون معناها: «نهاية»، أو يكون معناها: زبدة، أو خلاصة.

فتكون المعنى:

(١) خاتمة أو نهاية فيد^(٤).

أو: (٢) زبدة فيد^(٥).

(١) وهي الفلسفة الثانية عندنا، ستأتي بعد ذكر هذه الفلسفة مباشرة.

(٢) انظر ما ذكره شري راج غوبال أشارير: ويدانت فلسفة الهند الأخلاقية الدينية ص (٣٨)، من مجلة ثقافة الهند، ديسمبر ١٩٥٠ م.

(٣) راجع ص (١١٥).

(٤) انظر ما ذكره علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٣٣)، والدكتور محمد العريبي، الديانات الوضعية الحية في الشرقين الأدنى والأقصى ص (١٧)، وما ذكره: أ.ف. توملين: فلاسفة الشرق ص (٢٦٤).

(٥) انظر ما ذكره الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، ص (٥٥٦).

وقيل: (٣) تكميل فيد^(١).

وهنا لابد من التنبيه بأن المصطلح السنسكريتي «فيدانت» لها دلالتان: أما الدلالة الأولى: فقد أطلقت على كتب الأوبانيشادات عموماً. ولم تزل هذه التسمية شائعة بين الناس، ولكنها غير مقصودة ههنا. أما الدلالة الثانية: فهي الدلالة التي صارت تشير إلى هذا الكتاب الذي نحن بصدد بيانه.

نشأة هذه الفلسفة وتاريخها:

يدعي الهندوس: أن «فيدانت» مذهب فلسفي وأخلاقي^(٢)، والذي يظهر: أن هذا المذهب كان في أول نشأته محصوراً في شرح «الفيدات»، وتأويلها وتخريج ما تشابه منها، ولذلك كان منهجه أكثر المدارس الهندية تمثيلاً للتقاليد «البراهمانية» من جهة وألصقها بنظريات الأوبانيشادات من جهة أخرى، ولكنه بفضل تلك البحوث المستفيضة التي كان زعماءها يخرجونها حول تلك النصوص العتيقة المغرقة في التعقد أخذ يرتقي شيئاً فشيئاً ويخطو إلى النظر خطوات واسعة حتى تحول إلى فلسفة نظرية عويصة وأصبح المثل الأعلى للحياة العقلية الهندوسية، لأنه صار بمثابة تراث ناضج منظم لتلك المذاهب القديمة خصوصاً بعد أخذ «البوذية» في الاضمحلال. وهو مذهب يتفق جوهرياً مع تعاليم الأوبانيشادات، ويتعارض مع المذاهب الأخرى ذات التوجه البعيد بدرجات متباينة عن روح الأوبانيشادات^(٣).

والكتاب المشهور في هذا المذهب يسمى «فيدانت سوترا»، وهو أصغر حجماً، وأكبر تأثيراً على الفكر الهندي الفلسفي من أي كتاب آخر من الكتب الهندوسية^(٤).

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص (١٧٥).

(٢) انظر ما ذكره شري راج غوبال أشارير: ويدانت فلسفة الهند الأخلاقية الدينية ص (٣٨)، من مجلة ثقافة الهند، ديسمبر ١٩٥٠ م.

(٣) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص (١٧٥).

(٤) انظر تأثير «فيدانت» على الفكر الصوفي في عقيدة «النرفانا».

ويسمى هذا الكتاب أيضاً بـ«برهمن سوترا»^(١) ويدعي بعض علماء الهندوس أنه من تأليفات «فيد بياس» المؤلف المشهور، ولكن اتفقت كلمتهم فيما بعد على أنه من تأليف «بادرايان» (BADRAYAN) الذي عاش في فترة ما بين بوذا والمسيح عليه السلام؛ لأنه ينتقد تعليمات كثيرة من تعليمات بوذا الإلحادية^(٢)، ومنهم من يحدد تاريخه بـ٢٠٠ ق. م.^(٣) وقيل: إنه ألف كتابه في القرن الثالث قبل الميلاد^(٤)، وهناك من يقول: إنه ألف كتابه في القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد^(٥).

سبب تأليفه لهذا الكتاب:

يذكر أحد فلاسفة الهندوس البارزين: إن حكم اليونان وحكم الملك «أشوك» الممتد لأربعة قرون وجدال نساك البوذية كل هذه الأشياء أثرت سلباً في البراهمانية، وكادت تقضي عليها، فرأى بادرايان أنه لابد من الحفاظ على التراث البرهمني بشكل موجز، وكان الجمع بين الآراء الأوبانيشادية من الصعوبة بمكان، فكان يحاول التوفيق بين الآراء المتناقضة أحياناً ويجعلها في عبارات مختصرة لتكون محفوظة للأجيال القادمة^(٦).

والكتاب يشتمل على أربعة أبواب، كل باب منها مقسم على أربعة فصول، فتكون مجموعة الفصول فيها ستة عشر فصلاً، وفيما يلي جدول يوضح ذلك:

-
- (١) كما تسمى أيضاً: فيدانت سوترا؛ إذ تحدث عن الهدف النهائي للقيادات. راجع ما ذكره الدكتور علي زيعور في الفلسفات الهندية ص(٣٢٩).
 - (٢) الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٥٦-٥٥٧).
 - (٣) انظر ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢٦٨).
 - (٤) انظر ما ذكره الشيخ رياض موسى: الهندوسية ص(٢٣)، وانظر ما ذكره راهول سنكريتيان: درشن، ديكدرشن ص(١٦١).
 - (٥) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص(١٧٥)، وراجع الموسوعة العربية العالمية (١٩٨/٢٦).
 - (٦) انظر ما ذكره راهول سنكريتيان: درشن ديكدرشن ص(١٦١).

الباب	الفصل	عدد السوترا	الموضوع الذي تحدث عنه فيه
الباب الأول	١	٣٢	إن الأوبانيشادات تثبت برهمان هو السبب الوحيد للخلق والثبات والإهلاك
	٢	٣٣	عبادة «برهمان» وطريقتها
	٣	٤٤	سبب وجود العالم هو برهمان حتى بدليل العقل
الباب الثاني	١	٣٦	الرد على المبادئ البوذية والجينية الإلحادية.
	٢	٤٢	والكلام على وحدة الوجود
	٣	٥٢	الكلام على الإحساس والنفس والحواس
	٤	١٩	وعلى وحدة الوجود
الباب الثالث	١	٢٧	التناسخ
	٢	٤٠	حالات النوم والسبات وغيرها من الأحوال التي جاء ذكرها في الأوبانيشادات.
	٣	٦٤	كيفية الحصول على النجاة: الحصول على علم برهمان، وقد ذكرت له طريقتان: ١ - طريقة العلم الإلهي المتصل بمبدأ الفيض. ٢ - طريقة العبودية الكاملة والفناء فيها
	٤	٥١	ثمرة معرفة علم برهمان النجاة بعد الموت
الباب الرابع	١	٢٩	السبيل الوحيد الأخير: هو الحصول على النجاة المعبر عنه بـ «موكشا».
	٢	٢٠	حالة الخلاص أو النرفانا بعد الموت والأمور المتعلقة بها.
	٣	١٥	وحالة الأرواح التي اتحدت بالروح العليا.
	٤	٢٢	

فتكون مجموع هذه الأبيات (السوترات) ٥٤٥ بيتاً^(١)، ويظهر بالمقارنة أن هذه الأبيات كلها ما عدا ١٠٧ منها مأخوذة من الأوبانيشادات أو عما يتعلق بالعلوم التي جاءت في الأوبانيشادات. وأما الأبيات ١٠٧ والتي وردت في الباب الثاني ففي الرد على المناهج والفلسفات الأخرى المخالفة لفلسفة الأوبانيشادات.

وبالإجمال فإن كتاب «الفيدانت» يشتمل على عشر مقالات مهمة من أمهات المسائل الفلسفية الهندوسية وهي: معرفة الإله، والروح، وجولان الروح، والأحوال بعد الممات، وقانون الجزاء، والعبودية المطلقة، والعلم الإلهي، والمغريات، والنجاة^(٢).

وقد اعتمد صاحب هذا الكتاب على كتب الأوبانيشادات^(٣)، وإن كان قد ذكر في مقدمة كتابه أنه اعتمد على «سروتي» أي المسموع، و«سُمَرِتي» أي المحفوظ والذي يوهم كونه اعتمد على الفيدات أيضاً، ولكن الأمر ليس كذلك بل كان اعتماده في تصنيف هذا الكتاب على الأوبانيشادات^(٤) وعلى غيتا ومُنُو سُمَرِتي^(٥).

-
- (١) انظر ما ذكره راهول سنكريتيان: درشن، ديكدرشن، ص (١٦٣-١٦٤). وأما ما ذكره الدكتور علي زيعور بأنه يشتمل على ٥٥٥ حكمة (نصاً أو قولاً)، فيبدو أنه غير صحيح. والله أعلم.
- (٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٥٧).
- (٣) يكاد يكون هذا الأمر شبه اتفاق بين الجميع - حسب ما اطلعت عليه - بأنه اعتمد على الأوبانيشادات، أما شنكرأجاريا، فيتفق كثيرون منهم بأنه كان شارحاً لهذه الحِكَم (وإن شئت سميتها أبياتاً) على ضوء الأوبانيشادات أيضاً، ولكن طغى عليه في بعض الأحيان:
- فلسفة بوذا الإلحادية. انظر ما ذكره كل من:

- ١- شري راج غوبال أشارير - رئيس جمهورية الهند سابقاً - في مقالته: «فيدانت» فلسفة الهند الأخلاقية، العدد ديسمبر، ١٩٥٠، مجلة ثقافة الهند ص (٣٨).
- ٢- والشيخ محمد رياض موسى: الهندوسية ص (٢٧).
- ٣- سري جواهر لال نهرو - رئيس وزراء الهند الأسبق - في كتابه: بحثاً عن الهند ص (١٦١).
- ٤- راهول سنكريتيان: درشن ديكدرشن ص (١٦٢).
- (٤) والأوبانيشادات وإن كانت لدى كثير من الهندوس من «سُرُوتِي» إلا أنهم يختلفون فيه كثيراً.
- (٥) راجع ما ذكره الشيخ رياض موسى: الهندوسية ص (٢٣).

وتظهر غاية المؤلف لكتابه من أول هذه الأبيات والذي جاء فيه: «لنفرغ الآن إلى الرغبة في معرفة برهمان». وفي كل قول أو بيت «سوترا» عدة كلمات فقط، وهذا ما يجعلها صعبة الفهم، من هذا الاقتضاب الشديد نبتت محاولات جملة لفهمها أو شرحها^(١).

ولقد كادت تمضي بعد ذلك ألف عام، حين كتب «غودابادا»^(٢) تعليقاً على هذه «الأبيات أو النظم» ثم علم «غوفندا»^(٣) أو «غوبندو» (تلميذه) أسرار المذهب، وهذا بدوره لقَّنها لتلميذه شنكرأجاريّا، الذي ألف أشهر ما كتب عن الفيدانت من شروح، وكان أعظم فلاسفة الهندوس جميعاً^(٤) - كما سيأتي.

محور فلسفة «فيدانت» وخصائصها:

محور هذه الفلسفة:

يكاد يكون موضع اتفاق أن هذه الفلسفة تدور حول:

- (١) التوفيق بين الآراء المختلفة الموجودة في الأوبانيشادات حول برهمان^(٥).
- (٢) تحديد العلاقة بين برهمان (أتمان) وبين الأشياء^(٦).

(١) راجع ما ذكره الدكتور علي زيعور في الفلسفات الهندية ص(٣٢٩).

(٢) غودا باد، أو غورفاد، من فلاسفة الهندوس، كان في القرن الخامس، حسب المصادر الهندوسية، من سكان شاطئ نرمدّا، الواقع في المنطقة الوسطى حتى غجرات. انظر ما ذكره راهول سنكريتيان: درشن، ديكدرشن ص(٢٤٢). وانظر أيضًا:

The AGAMA shastra of GOUDAPADA; Calcutta. 1943.

(٣) لا يعرف عنه إلا أنه كان في القرن السادس، وكان أستاذه غودفاد، وتلميذه شنكرأجاريّا، وقد عرف بنبوغه في الفلسفة، انظر ما ذكره راهول سنكريتيان: درشن، ديكدرشن ص(٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥).

(٤) انظر ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢٦٨).

(٥) انظر ما ذكره أَمَلْ كُومار بندوبادايي: بُورَنِيكا (١/ ٢١٦).

(٦) انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، الفيدية، ... ص(١٩٦).

(٣) إن السعادة الأبدية لا تنال باللذائذ الجسدية، ولا بالثروة ومتاع الدنيا، حتى ولا بتقديم القرابين والتي توجد بعضها في الفيدات المتأخرة، بل السبيل الوحيد إلى السعادة الأبدية يفتح بالتححرر من «كارما» - نتيجة العمل - والبصيرة الروحية هي التي تححرر من كارما، وتمكن من الاتحاد بالذات العليا.

اتجاهات مفسري فيدانت:

يختلف حكماء مذهب الفيدانت في تحديد العلاقة بين الأشياء وبرهمان أو أتمان، في اتجاهات عدة، ولعل السبب في ذلك أن أغلبهم كانوا ينطلقون من منطلق عقدي ثابت في تفسيرها، فإن أغلب المفسرين لهذه النصوص كانت لديهم فكرة التآله لإله ما، ولهذا كانوا يلوون النصوص على حسب اعتقاداتهم، ولهذا صدر عن كل منهم اتجاه خاص في تفسير الفيدانت نجملها فيما يلي:

الاتجاه الأول: عدم الثنائية، أو وحدة الوجود وسموه: «أدفيتا» أو أدويت واد، دعا إلى هذا الاتجاه الأول العالم الهندوسي الفلسفي المعروف «شنكرأجاري»^(١) (٧٨٨-٨٢٠م)، من أكبر وأشهر وأقدم شراح «برهمان سوترا» في كتابه «برهمان سوترا بهاشيا» حيث بثَّ آراءه الشخصية، المخالفة لظاهر تلك النصوص أحياناً، ويعتبر منظّم البرهمانية، ومؤسس مذهب وحدة الوجود المسمّى «كيفالادويتا» Kavaladvaita، وصاحب تأثير هائل في تاريخ الفلسفة في الهند، وكان من الفرقة الشيفائية، ولم يكن غيره مثله، بل أغلب من أتى بعده من شراح فيدانت كانوا من فرقة فُشنُوِيَّة^(٢).

(١) هذا هو شنكرأجاري، اسمه: شنكر، ومعناها: «المهدئ» أما أجاري، فلقبه، ويعني: المتبحر بعلوم الديانة الهندوسية، ثم استخدمت هذه الكلمة كلقب علمي يعطى لمن يتخرج من أعلى سلّم في التعليم، مثل عبارة الإمام في العلم لدى المسلمين. فكلمة شنكرأجاري تعني: العالم شنكر.

(٢) راجع ما ذكره راهول سنكريتيان: درشن، ديكدرشن ص(١٦٣).

آراء شنكر أجاريا:

هذا العالم والفيلسوف الكبير يذهب إلى أنه يوجد واقع واحد مطلق، وهو وحده الموجود الحقيقي غير المتغير. وهذا الواقع هو برهمن الذي تحدث عنه الأوبانيشادات. حيث يقيم مذهبه على النص الأوبانيشادي الشهير: «تات تفام آشي»، أي أنت هو ذاك، فيقول: إن «أتمان» هو الحقيقة الواقعية الوحيدة، وما خلا فهو من النتائج التخيلي والوهمي (مايا) والجهل (أفيديا). فالأنا والعالم نتيجتان مزلزلتان بسبب ذلك الجهل، والوهم يخدع ملكات الإدراك والمعرفة والحدس، وعندما نعرف «أتمان» يبطل الجهل، ويسقط الوهم (مايا)؛ وعندها لا يبقى عالم أكبر ولا عالم أصغر^(١).

وبرهمن هو الذي يتيح وجود المظاهر التي تشكل العالم التجريبي، ولكنه في الوقت نفسه متجاوز لهذه المظاهر، وهي لا تستنفده. ومن وجهة النظر المطلقة فإن برهمن يتجاوز العالم.

وعند شرحه لنظرية «مايا» (الوهم)، يقول: إن معارف الإنسان تمر بثلاث حالات حتى تظهر له الحقيقة:

الأولى: ظهور التمويه، والتستر بالحقائق ويسمونها بـ«برات باسك» أو: (بردي باسكاستا). فكما أن الإنسان إذا رأى في الظلمة حبلاً ممدوداً يظنه ثعباناً، هكذا يتوهم الإنسان في معارفه المتعلقة بالنسبة للروح العليا وأتمان.

الثانية: ظهور الكون كأنه هو الإله وأنه يتجلى بالصورة البشرية لأنها أكمل وأجمل والتي تعني: أن الإنسان يظن هذا العالم بأنه إله لما يرى من بهجته وخضرته، وليس الأمر كذلك. ويسمونها بـ«بيوهارتهك» (أو ويوهاركاستا).

الثالثة: الحقيقة النهائية ويسمونها بـ«بارمارتهك» (أو برمارتكاستا).

والمقصود بها: الوصول إلى إثبات أزلية الروح وقدمها، فإنه متى ما فُكر جيداً يدرك أن الحقيقة النهائية غير ما توصل إليها سابقاً، وإنما الحقيقة النهائية أن الروح

(١) راجع ما ذكره الدكتور علي زيعور في الفلسفات الهندية ص (٣٣٠).

الأزلية هي كل شيء، وأنها قديمة^(١).

ويرى شنكرأچاريا: أن إثبات طبيعة برهمان ووجوده لا يمكن من خلال الإدراك الحسي أو التحليل العقلي، وإنما ذلك يستمد إما على أساس شهادة نصوص الأوبانيشادات، وإما من خلال التجربة المباشرة والحدسية من النوع الذي يجعل التركيز بحالة يوغا ممكنًا، ورغم ذلك فإن العقل يمكن أن يستخدم لتبرير هذه الأساليب الخاصة والنتائج الواحدة للأوبانيشادات، على أساس النظر إلى العالم باعتباره مظهرًا وليس واقعًا جوهريًا، والنظر إلى الإدراك الحسي على أنه وهم وليس معرفة. ويعتبر النفس الفردية ذاتًا خالصةً أو أتمان؛ ولذا فهي ليست مختلفة عن برهمان، ويقول عن نفسه جملة مشهورة: «إني أنا برهمان»^(٢).

وهكذا تستبعد هذه الرؤية النظريات الفلسفية الأخرى التي تعتبر العالم نتاجًا للعناصر المادية، أو تحولًا للمادة غير الواعية التي تتطور، أو أنه نتاج لنوعين مستقلين مثل البرهمان والمادة ومثل الجوهر (پرکرتي) والروح (پوريش)^(٣).

ويرى شنكرأچاريا أن البشر ينظرون إلى العالم من خلال منظورين:

فبالنسبة للمنظور الأعلى يعدونه شخصًا في برهمان: العليم، المنزه عن النقائص، الخالد.

أما بالنسبة للمنظور الأدنى: فالعالم يبدو له مكونًا من المواد والأرواح، خلقها برهمان، وأمدّها بأسباب الحياة.

لكن كيف تكوّن هذان المنظوران في ذهن الإنسان؟

إن برهمان لديه قدرة على خلق الوهم (مايا) تمكنه من أن يستحضر في ذهن

(١) راجع ما ذكره الشيخ رياض موسى في الهندوسية ص(٢٣)، وما ذكره الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٥٧-٥٥٨).

(٢) راجع: جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص(١٢٧). وما بعدها.

(٣) المصدر السابق.

عالمًا حافلًا بالمشاهد السحرية. أما روح الإنسان فهي في حالة من الجهل (أفيدها) وبالتالي: فإن منظورها هو من المستوى الأدنى، مما يجعلها تعد عالم المشاهد السحرية مطابقًا للواقع، لذلك لا بد للروح أن تتعذب وأن تولد المرة تلو المرة، وفق قانون كارما، (العمل) لكن الإنسان عندما يتأتى له أن يقضي على جهله فإنه يُدرِكُ أن العالم زائفٌ، وأن الواقع يتمثل في برهمن واحد، وأنه هو وبرهمن كيان واحد، عندئذٍ يتحرر تمامًا ويصل إلى درجة موكشا^(١).

مايا (الوهم):

مفهوما برهمن وأتمان^(٢) قادا إلى نظرية ومفاهيم معرفية خاصة. شخصية الفرد تتغير، بينما «أتمان» أو «برهمن» لا يتغير، فليس للأشياء جوهرية (أصلية)، بل هي عرضة للتغير الدائم والفناء، وبهذا ابتعدوا عن المذهب الواقعي، ولكن ذلك لا يعني أن المعرفة الهندية مذهب مثالي، والسبب هو قولها بأن الأشياء والواقعات تتنافى وتتناقض باستمرار، يتجلى هذا المذهب المعرفي في أوضح تمثيل في:

- عقيدة أنيكا / Anicca (عدم التوحد) القائلة بأن كل شيء يتغير في كل لحظة^(٣)، وإن الظواهر والواقع كلها وهمية تؤدي إلى الفوضى والغموض والجهل / Avidya، وإن هذا الجهل سبب الألم (دكها / Dukha).

- عقيدة أنتا / Anatta القائلة باللا أنا، بلا حقيقة الذات، هنا أيضًا نقع على عقيدة الوهم (مايا / Maya، وإن فضل الهندو عدم ترجمتها بالوهم) التي نظمها الحكيم شنكرأچاريا، والتي يركز على اللا ازدواجية، وعلى الإيمان بالصفة اللا جوهرية للعالم، والصفة الظاهرية فقط للشخصية.

ففي نظر شنكرأچاريا، ليس العالم الحسي موجودًا في غير الوعي، إلا أن هذا

(١) راجع ما جاء في الموسوعة العربية العالمية (١٧/٢٠٣)، و(٢٦/١٩٨).

(٢) هما أتمان ما في الفلسفة الهندوسية.

(٣) كقول بعض المعتزلة بعدم بقاء العرض زمانين.

العالم بحكم كونه تمثلاً دائماً وأبدياً فإن له واقعية عملية، لقد فرضت عليه تلك النظرية لكونه ارتضى أخرى تقول بالحقيقتين.

وهذا المنحى نحى إليه بعض أصحاب فيدانت لما رأى صعوبة تصور رأي شنكرأجاريا، وعلى هذا فإن هناك حقيقة اعتبارية يقول بها بعض أصحاب فيدانت، يقول أحد الهندوس وهو يعرف بالوهم (Maya) في الفلسفة الفيدانتية:

إن هذه الدنيا وهم وغرور، وليس معنى ذلك: أن الدنيا لا حقيقة لها، فالحكماء الذين قالوا بالوهم وأرشدوا إلى الإله، عاشوا حياتهم على أساس أن هذه الدنيا، حقيقة، وذلك لأن الدنيا وما فيها، لو كان وهماً وغروراً، لا حقيقة له، لوجب أن نقول: إن الله لم يخلق إلا الوهم والغرور، وهذا لا يقوله عاقل البتة.

ولما نقول: إن الله هو الكل، فمعناه: أنه الروح الدائم الذي يهب الحياة لكل شيء، أنه روح الأرواح، فأنت إذا قلت: «أنا ذهبْتُ، أنا جئت، أنا فعلت» فإنه وإن كان في الظاهر هو فعل الجسد، ولكنه في الحقيقة فعل الروح الكامن في جسدك، وهذا الروح هو الذي يحرك الجسد على إرادته، هكذا الوجود الأعلى، هو روح الأرواح، فكل عمل للروح الفردي هو عمل ذلك الروح الأكبر، إن الإله حقيقة، وكذلك الأرواح التي يتخللها حقيقة، والجسد أيضاً حقيقة، وإن كان الروح الذي يهب الحياة، إن الله هو الذي يتخلل ويسند سائر الأرواح، ولكن هذا ليس معناه أن الأرواح لا حقيقة لها، إن الكون بمجموعه، وكل ما فيه من الأحياء وغير الأحياء، مسخر للوجود الأكبر المحيط كأجساد أو مطايا له.

فالقول بالوهم والغرور ليس معناه: أن كل شيء غير حقيقي، وأن لنا الحرية أن نفعل ما نشاء، كلا، بل الحياة حقيقة، وأنها أي الحياة يسيطر عليها ناموس أزلي لا يتغير ولا يتبدل، هذا هو ما تعلمنا فيدانت لا أن الدنيا وما فيها وهم وغرور^(١).

(١) انظر ما ذكره شري راج غوبال أشارير: ويدانت فلسفة الهند الأخلاقية الدينية ص(٤٢-٤٣)،

ويقول: إن الروح الأكبر المتخلل في كل شيء والمحيط بكل شيء واحد، إلا أن الأرواح الفردية تعيش عيشة مستقلة عن غيرها، ولا تعرف أن جميع الأرواح واحدة، هذا الجهل هو الذي سمي بـ«مايا» Maya - الوهم، الغرور. أما الحقيقة الواقعة، فهي أن الروح الأكبر هو الذي يستقر في العالم والجاهل، في البطل والجبان، في القوي والضعيف، وفي كل ما هو موجود حي، وهذا الروح هو الذي كيفهم وجعلهم ما هم عليه^(١).

ويمثل ذلك بمثال، فيقول: إن نور الشمس لا هيئة له، وهو يضيء في سائر الجهات، ولكن الظلال لها هيئات وأشكال، وإنه هو الحاجز للنور الذي يصبح الظل، فإن لم توجد الحواجز لا يزال النور يشرق وينتشر، والأرواح الفردية حواجز وظلال وجدت في طريق النور الأزلي للوجود الأكبر، وبمجرد رفع الحواجز، يمتزج الظل بالنور، وإن «كرما» Karma هو الذي يسبب الظل - التوالد الفردي والحياة الفردية. إن الوجود الأكبر هو النور، تشكل ظلاله كأرواح فردية.

ليس معنى ذلك أن فيدات فلسفة الوهم والغرور، كلا، فالظل الذي يحدثه نور الشمس، ليس وهمًا، بل هو حقيقي كالنور نفسه، وإن كان الواقع أن النور هو الذي يحدث الظلال المختلفة^(٢).

الخلاص (موكشا):

والخلاص عند شنكرأچاريا يتحقق بمعرفة الإنسان لبرهمن، واندماجه معه، متحررًا من كل شيء يتعلق بعالم الحواس، عالم الوهم أو «المايا»؛ فينكر ذاته الفردية، ويتعالى على العالم التجريبي، ويتجاوز الخير والشر، ويدرك أن الحقيقة هي في اتحاد الروح الجزئية مع الروح الكلية أو برهمن، وهنا تختفي على الفور الروح الجزئية؛ حيث يتم امتصاصها في الروح الكلية الشاملة التي لا تتجزأ ولا تموت ولا تتغير. ومن

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر ما ذكره شري راج غوبال أشارير: ويدانت فلسفة الهند الأخلاقية الدينية ص(٤٤)، من

ثم يحدث الإفلات من عجلة التناسخ التي تسيطر على من هم باقون في عالم «المايا»، عالم الزمان والمكان، عالم الحواس، عالم الوهم.

يقول أحد الهندوس: عندما ندرك حق الإدراك بأنه هو الروح الأكبر الذي يوجد ويعمل في كل روح، فالمسرات والأحزان، كل ذلك يزول^(١).

فالخلاص الحقيقي إذن ليس بالأعمال الصالحة؛ لأن الأعمال الصالحة لا وجود لها إلا في العالم الحسي، أما عالم الحقيقة فهو فوق الخير والشر الذي يحدث فيه الاندماج بين أتمان وبرهمان، وبمعرفته يصل الحكيم إلى الاتحاد والذوبان في الكل، في برهمان، فالطريق الوحيد للتحرر هو المعرفة الصحيحة، التي يمكن الحصول عليها بالاستقامة الأخلاقية والدراسة على يد معلم مقتدر^(٢).

فالمعرفة (فيديا) وحدها - مثلما في السامكهيا^(٣) - هي التي تؤمن الخلاص (موكشا) من أدران الجهل ومعيقاته، ومن الجدير بالذكر أن المعرفة هذه ليست شيئاً ما يجب على المرء بلوغه، إذ هي موجودة في داخل الإنسان قبل كل محاولة للبحث عنها، إنها في الباطن، بمثابة النواة والركيزة لوجود الإنسان^(٤).

يرى شنكرأجاريا إن معرفتنا بالعالم الخارجي تشكله وتحده حواسنا، ومن ثم فإن هذه المعرفة لا تكشف عن الحقيقة في ذاتها، بل تكشف عن طريقة تشكيلنا للواقع بحواسنا التي لا يمكنها أن تدرك إلا من خلال المكان والزمان^(٥).

إذن اتحاد برهمان وأتمان هو محور الفلسفة الفيدانتية، التي هي طريقة للفلسفة

(١) انظر ما ذكره شري راج غوبال أشارير: ويدانت فلسفة الهند الأخلاقية الدينية ص(٤٤)، من مجلة ثقافة الهند، ديسمبر ١٩٥٠ م.

(٢) راج ما نقله الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، الفيدية، البراهمانية، الهندوسية ص(١٩٧).

(٣) الآتية ذكرها.

(٤) انظر ما ذكره الدكتور علي زيعور: الفلسفات الهندية ص(٣٣٣).

(٥) راجع ما ذكره الخشت، محمد عثمان: مقارنة الأديان، الفيدية، البراهمانية، الهندوسية ص(١٩٨).

الهندوسية مع أصلها في الأوبانيشادات، إذ تعكس لنا الفيدانت الجانب الجوهري للهندوسية.

إن مذهب الفيدانتي يؤكد على الجانب غير الثنوي أو الأحادي لعلاقة الإنسان والمؤله، فعندما يدرك المرء ذاته أنه متماثل مع برهمن فهذه هي الحكمة العليا والتحرر نفسه في الهندوسية.

إن أهم ما يميز الجهل الذي يسبب الرغبة ومن ثم يعيد تكرار الميلاد والموت تكمن في تلك النظرة التفرقية والثنائية للأشياء، فإن جل ما يتمناه المرء -عندهم- هو إدراك نفسه أنه برهمن غير المحدود والمتشتر، فإذا ما رأى ذاته في الكون والكون في ذاته فماذا يتمنى أكثر من هذا ذلك الذي حقق كل رغباته في الذات؟

إن معرفة أن الذات هي برهمن المنزه من الرغبات هي التحرر نفسه.

هذا هو التصور الفيدانتي للخلود - على تفسير شنكرأجريا - والذي يوجبونه على كل شخص في هذه الأرض أن يفوز به، في نفس هذا البدن ومن خلال معرفة الطبيعة غير الفانية للذات^(١).

نقد آراء شنكرأجريا:

(١) إن هذه الأقوال تبدو ضرباً من المثالية الساذجة؛ إذ كم هم أولئك الذين لا

يستطيعون ألا يرغبوا في أي شيء في هذا العالم؟

(٢) والأهم من هذا، لو كان المرء دائماً حرّاً بحيث يكون بإمكانه إدراك نفسه أنه

برهمن، فلماذا إذن يحتاج إلى إدراك حريته؟ فلو كان حرّاً فهل هو بحاجة

إلى إدراك حريته؟ ولو كان على المرء أن يكون دائماً حرّاً، فإن نفس كلمة

استرقاق أو تناسخ التي يستعملها الهندوس تبدو هنا بلا معنى، فإذا كانت

طبيعة الإنسان خالدة فمن ثم فإن تعبير «الفوز بالخلود» يضحى لا معنى له

ولا ضرورة.

(٣) لو كان الروح البشرية هي في جوهرها إلهياً فما هو التغير الذي يمكن أن يحدثه العلم أو الجهل في الجوهر الأساسي للإنسان أن ندرك أن روح الإنسان إلهية أو أن البرهمن ساكن داخل الإنسان؟ فإن هذا يعني أن الإنسان أنطولوجياً الإله الأبدي السابق لحادثة المعرفة، عليه فإنه ليس ثمة عقلانية منطقية بينة في مفهوم برهمن أتمان، ولو افترض أنها منطقية تماماً فإن على الهندوسية أن تقر بأن الإنسان هو برهمن حتى قبل الإدراك، ومن ثمة يكون الإنسان خالداً، وليس بحاجة لأن يكون مستغرقاً في برهمن، ولو أصبح الإنسان برهمن، فهل على المفترض أن لا يكون عارفاً في المقام الأول؟ ولو فكرنا في الأمر بطريقة عكسية، لو كان الإنسان جاهلاً فلا يمكنه أن يكون برهمن، ولكن أن ننكر برهمانية الإنسان يعني أن نرفض الأحادية وحدة الوجودية للفلسفة الهندوسية، وهكذا فإن هذه أكثر نقاط الضعف حرجاً في تصور القيدان للذات وإدراكها - على مذهب شنكر أجاريا -.

(٤) ثم إن جميع المذاهب الست مأخوذة على ضوء القيدان، غير هذه الفلسفة القيدانية، فإنها مأخوذة ومكتوبة معتمدة على الأوبانيشادات، وهذا خطأ محض. وهذا مما يطعن في أصل الفلسفة^(١).

(٥) لقد انتقد الدكتور رادها كرشنن فلسفة القيدانية، وقال: إن بادرائن لما كتب هذا الكتاب شرحه كثيرون منهم شنكر أجاريا، وبهاسكر، ومادف أجاريا، ورامانوج، وغيرهم كثير، إلا أن كلهم لم يتفقوا على رأي واحد، فإن الكتاب يحتمل هذا وذاك، فهؤلاء كلهم كان لديهم اعتقاد ما ثابت قبل بداية شرح هذه المختصرة، فما زادوا في شرح هذه النصوص إلا إثبات النظرية المثبتة لديهم من قبل، بل ربما زادوا فيه أشياء لا يحتملها المتن، ولا معناه اللفظي^(٢).

(١) انظر ما ذكره الشيخ رياض موسى: الهندوسية ص (٢٤).

(٢) نقله عنه الشيخ رياض موسى: المرجع السابق ص (٢٥).

الاتجاه الثاني: الاتجاه القائل بوحدة الوجود مع الاعتراف بحقيقتين:

وتسمى بـ«الواحدية المشروطة أو الخاصة، وسموه:»الفيشستدفايتا» وقد دعا إلى هذا الاتجاه الثاني العالم الهندوسي «رامانج» (ولد سنة ١٠٢٧م، من علماء القرن الحادي عشر).

وكان براهمايّا تاميليّا، من ستري برمبودور، درس أدفيتا في منطقة تسمى كانسيبورام، ثم خالف أستاذه، وجاء بنظرية تقول: بالإله المتعالي المتوحد تقوم نظرية تعطي للعالم حقيقة غير خيالية، وترى الوجدانية «أدفيتا» ماثلة في الخاص (فيشيشتا) أي: في كل كائن وفي كل شيء. ولهذا تسمى نظريته بنظرية: «فيشيشت أدفيتا»، أو الواحدية المشروطة، أو الواحدية الخاصة^(١).

وقد كان هذا الفيلسوف من الأتباع المتحمسين لإلههم فُشنُو، فقد تصدى للرد على شنكرأچاريا على شرحه الخاطئ لكتب الأوبانيشادات، وكان ذلك في كتابه «سريبهاشيا»، حيث قام بشرح - فيدانت سوترا -.

وقد لقي هذا الفيلسوف قبولاً في أوساط الناس حيث كانت فلسفة شنكرأچاريا أزعجت الأوساط المتمسكة بالأديان الهندية الوثنية، لأنه قال: إن كل الأشياء، بما فيها الإله، إنما هي جزء من العالم الزائف.

فإنه حاول أن يبرهن على أن تصور شنكرأچاريا حول البرهمن جعله أمراً مجرداً من الكينونة، كما أن تصوره للقدرة الإلهية «مايا» غير معقول، لأنه يبعث على الاعتقاد بأن برهمن قد يقع في الوهم، فيظن بأنه ليس وعياً وحدوياً محضاً، وإنما هو عدد وافر من الأشياء الجامدة والكائنات الحية المتغيرة.

ولهذا يقول «رامانج»: إن برهمن وأرواح الناس والأشياء المادية، كلها واقعية، على أن برهمن يمثل الواقعية ذات الاستقلال، بينما الأرواح والأشياء المادية هي تابعة

(١) انظر ما ذكره جان فيليوزات: فلسفات الهند ص(٥٥)، وراهول سنكريتيان: درشن ديكدرشن ص(١٦٢) (البنغالية).

لبرهمان^(١)، فهو يقول بالواحدية ولكن ليست الوحدة في البدن، فهو ينظر إلى الوحدة من خلال العمل والقربين، وهو بهذا يقدم خدمة للإله فِشْنُو (الذي يعتقد صحته ويدافع عنه) فقوى بهذا الشرح القربين وحركة التدين التي صارت فيما بعد عنصرًا مهمًا في التعبد الهندوسي^(٢).

فهذه واحدة مشروطة؛ حيث يتفق من ناحية مع شنكرأچاريا، بينما يختلف معه من ناحية أخرى. يتفق معه في أن الواقع واحد وليس بكثير، ولكنه يختلف معه فيما يتعلق بطبيعة هذا الواحد؛ إذ يرى أن البرهمان باعتباره الواقع المطلق ليس مميزًا عن العالم التجريبي، وهذا العالم جزء مكون لـ «برهمان»، وهذا الأخير وحدة تتألف من الاختلافات التي تشكل العالم المعاش وأساسه كذلك. فبرهمان وحدة عضوية تم تشكيلها من خلال هوية الأجزاء؛ فهو ليس مجردًا، وإنما هو متعين، باعتباره مركبًا من موضوعات الوعي المختلفة وكذلك من الوعي نفسه. فبرهمان الأسمى شخصي، ولا يوجد شيء يسمى برهمان اللامتيز الذي يقول به شنكرأچاريا.

والخلاص ليس في اندماج الروح في برهمان؛ لأن الجوهر لا يندمج في جوهر مختلف، ثم إن الخلاص ليس في الاتحاد، بل في التحرر من الحدود، والحدس الدائم بـ «برهمان» الذي هو أسمى من كل شيء مع أنه روح الكل، كما أن روح الإنسان هي أسمى من جسده، وهما يشكلان وحدة ومع ذلك فإنهما متميزان. فالعلاقة بين البرهمان والعالم مثل علاقة الروح بالجسد. إذن فرامانج يحافظ على العالم باعتباره ليس وهماً، بل هو حقيقة تعتمد على برهمان^(٣).

فالعالم بما في ذلك الأرواح وبرهمان مترابطان، مثل ارتباط الجسم بالروح ولا

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية (١٩٨/٢٦).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور أورانج كاي رحمت: التفكير الديني في العالم قبل الإسلام ص (١٨١-١٨٢).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، الفيدية، البراهمانية، الهندوسية ص (١٩٧).

ينفصلان، بحيث يقوم برهمان بالمراقبة من الداخل. أما الروح الحبسية في الجسم فهي قادرة على تحقيق خلاصها إذا هي وازبطت على ذكر الإله واستمرت فيه.

كما أن التفاني في العبادة يتطور إلى تجلي المعبود على الفور، مما يؤدي إلى زوال قانون «كارما»، أي تكرار الولادة، وبذلك يحصل العابد على التحرر من قيوده «موكشا»^(١).

وأهم الفروق بين الاتجاه الأول والثاني ما يلي:

١ - إن شنكرأجاريا ينفي جميع الصفات الذاتية والوصفية من برهمان ويسميه «نرنكار» يعني الإله المطلق^(٢) بينما يثبت رامانُج الصفات الذاتية، يقول: «إن ما لا يتصور وجوده بدون الصفات هو كالمعدوم».

٢ - يقول شنكرأجاريا: الذي نراه بأعيننا ليس بحقيقة وإنما هو خدعة النفس، ثم تتلاشى، والعالم يشبه الحلم الذي لا حقيقة له في الوجود، وهو كالحبل الذي يراه الإنسان في الظلام ثعباناً، فإذا انتهى هذا العمل الذي يشبه اللعب لم يبق في الوجود سوى ذات «برهمان».

والشرك عنده أن يزعم الإنسان أنه يعرف برهمان أو الروح الأعلى، فهذه العبارة تفيد الثنائية.

بينما يرى «رامانُج» أن الكائنات غير «برهمان» مع أنها جزء منه، والحقيقتان منفصلتان بعضهما عن بعض. وهما موجودتان بأتم صورتيهما. والنفس لها حرية مطلقة في عمل الخير والشر، ومدار نجاتها محض التفات «برهمان» إليها^(٣).

(١) الموسوعة العربية العالمية (١٩٨/٢٦).

(٢) يقول الدكتور الأعظمي في «دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند» ص (٥٥٨): إن هذا التصور يشبه إلى حد كبير ما قال به الجهمية.

(٣) انظر ما ذكره الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٥٨-٥٥٩).

الاتجاه الثالث: تفسير قيدانث بالثنائية وهو ما يسمى بـ«دويت واد»:

وقد ذهب إلى هذا الاتجاه العالم الهندوسي «مادهفاچاريا» (١١٩٩-١٢٨٧م)^(١)، وقيل: (ولد سنة ١٢٣٨م، وتوفي سنة ١٣١٧م)^(٢)، ويبدو أنه غير صحيح.

يؤكد مادهفاچاريا على الثنائية في العالم؛ وأن هناك ازدواجية في الوجود تبعاً للفرق بين الألوهية، وروح البشر^(٣) هذا الاتجاه الثالث يرى أن البرهمان متميز ومختلف عن العالم والأشياء والكائنات هي حقائق، وتوجد فروق خمسة مؤكدة:

أولها: الفرق بين الروح الفردية والروح الأعلى.

وثانيها: الفرق بين الروح الأعلى والمادة.

وثالثها: الفرق بين الأرواح الفردية.

ورابعها: الفرق بين المادة والروح.

وخامسها: الفرق بين الجواهر المادية المختلفة.

و«برهمان» عنده له صفات وأسماء حسنى، وله شخصية متعينة، وليس «لامتمايز ومجرد» مثلما هو الحال عند شنكرأچاريا، وأسماء البرهمان متعددة هي: فِشْنُو، ونارايان، وغيرهما من أسماء الآلهة الأخرى؛ فكلها أسماء له تعبر عن تعدد كمالاته، وكل كلمات الفيدان لتمجيدته، وهو أعلى من كل شيء، ولهذا فلا النفس ولا العالم يمكنهما التشبه به، إن رحمته هي التي تنقذ الإنسان من الارتحال، وهو يعطي الخلاص بمشيئته؛ لأنه وحده القادر حقاً، وكل كائن كتب عليه الارتحال معرض للخطيئة، إنه مقيد بالأفعال النفسانية التي تؤلف والتي تشين، وقد أشانت الجسم النفساني المرتبط بروحه.

وعملية الخلاص، بحكم تعلقها بمشيئة الخالق، تتطلب من الإنسان، جهوداً منها:

(١) انظر ما ذكره الأستاذ روني إيلي ألفا: موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب (٢/٤٥٣).

(٢) انظر ما ذكره جان فيليوزات: فلسفات الهند ص (٥٩-٦٢).

(٣) انظر ما ذكره أورانج كاي رحمت: التفكير الديني في العالم قبل الإسلام ص (١٧٩).

التخلص من الشهوات (فراغياً) ثم العبادة (أوپاسانا) وأولى مراحلها هي قراءة النصوص، ثم مزاولة الأشكال العليا للتأمل (دِهْيَان) الذي يجعل في النهاية، الفرد الإنساني في وضع محدد «صمدي» تجاه موضوعه الذي هو الله، والله في ذاته هو الكائن الأسمى للمعرفة، إنه الشاهد الأول، ثم مزاولة الأشكال العليا للتأمل، الذي يجعل الإنسان في وضع صمدي تجاه الإله الأعلى الذي هو الموضوع الأسمى للمعرفة^(١).

الاتجاه الرابع: الاتجاه الذي يقال له الوحدة في اثنين والاثنين في الوحدة:

هذا الاتجاه يسمونه «بهيدابهيدي»، وقد قال به نمبارك، الذي يرى الوحدة في اثنين، والاثنين في الوحدة.

يعني: أن الأرواح (جيفا) تتميز عن البرهمان ولا تختلف عنه، كموج البحر الذي يبرز فيه دون أن يختلف عنه، وزعم أن التمييز (بهيد) بين الأرواح (جيفا) وبين الـ«برهمان»، وتفرداها عنه، لا يقتضي استقلالها عنه؛ لأن تشابه (لا بهيد) جوهرها الأساسي يتركها تحت رحمته، كما أن شعاع الشمس وإن افترق عنها يبقى متعلقاً بها بحكم منطلقه منها.

يقول جان فيليوزات: وتعتبر فلسفة نمبارك من أشكال الفيدانت التي شاعت معرفتها لدى المفكرين المسلمين الذين حاولوا التقريب بين الصوفية وفيدانت، ومنهم الأمير المغولي: دارا شيكوه (١٦١٥ م - ١٦٥٩ م)، الذي سلبه عرشه وحياته بعد أن أَلَفَ مجمع البحار^(٢).

الاتجاه الخامس: الاتجاه الذي يسمونه «الثنائية الصحيحة»:

وهذا الاتجاه نادى إليه فلاها، أو بلآب، ولد سنة ١٤٨١ م، وتوفي سنة ١٥٣٣ م، وهو برهمي، يعود بأصله إلى ولاية أندھرا برديش، وقد عاش في الأماكن المقدسة الكريشنائية، وعلم وحدانية البرهمان النقي، غير المتلوث بالمايا (الوهم)، وترى

(١) راجع ما ذكره جان فيليوزات: فلسفات الهند، ص(٦٢).

(٢) راجع ما ذكره جان فيليوزات: فلسفات الهند ص(٥٨-٥٩).

أصحاب هذه المدرسة: أن عالم الجماد والنفس الفردية حقيقتان، وهما جزء من البرهمن الذي هو بشكله الظاهري، كريشنا، ويرى أن النفس بل الكائن الحي المسمى عندهم بـ«جيفا» هو بالنسبة إلى برهمن ما تشكله الشرارة بالنسبة إلى النار، وبرهمن له حجم الذرة (أنو) والنفس (جيفا) توجد إذاً في جوهر كل خلود، حالهما كحال برهمن، ولكنها من الناحية التجريبية مظهر لهذا الجوهر إلا أنه مظهر (أبيربهاث) محدود. ويمكن للنفس البشرية أن تكون نقيًا عندما لا تضطرب طبيعة وجوده وروحانيته، وسعاده بالجهل (أفيديا)، وهو يدخل عالم التناسخ، عندما يصاب بالجهل، ولا ينقذه منه إلا العلم، ويسمى هذه النظرية بـ«سودهاديتا» أو الواحدة النقية، وأهم كتب «فلا بها»: تسمى براهما سوترا أنو بهاشيا، أو «أنو بهاشيا» (الكلام على النفس الذرية)^(١).

فهذه أشهر الاتجاهات في تفسير الفيدانت ولكن الملاحظ: أن الاتجاه الأول والثاني والثالث أكثر انتشارًا، حسب الترتيب، فأراء شنكرأچاريا هي في القمة من حيث الأتباع، بل إذا أطلقت فلسفة الفيدانت فهي التي تتبادر إلى الذهن.

(١) انظر ما ذكره جان فيليوزات: فلسفات الهند ص(٥٩).

الفرع الثاني: فلسفة ميمانسا

معناها:

تسمى هذه الفلسفة: ميمانسا، أو ميمامسا. وقد اختلف الباحثون في بيان معناها اللغوي على أقوال عدة:

(١) قيل: معناها البحث الأول^(١).

(٢) وقيل: معناها فكر عميق، تدبر، تفكير، عرض، استقصاء^(٢).

(٣) وقيل: إن معناها: التنسيق والتوفيق، أو الكلام الفيصل^(٣).

هذا المعنى الأخير هو الذي يذكره أصحاب قواميس الكتب المقدسة الهندية وهو القول الصحيح في معنى كلمة «ميمانسا».

وهي تسمى أيضًا بـ «پورب ميمانسا»^(٤)، وكلمة پورب تعني: القديم.

أما معناها في اصطلاحهم، فقيل: فكرة تتعلق بالطقوس الفنية الخاصة بالثيدات، من حيث التأويل والتعليل^(٥). وقيل: تأمل وعرض للثيدات لتوضيح الجوانب الطقوسية^(٦).

ويمكننا أن نقول: هي تعليل وتأويل للطقوس الدينية في الثيدات.

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص (١٧٠).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٢٩).

(٣) راجع ما ذكره هري سرن بندوباداي في معجم: بنغيئ شبدكوش (١٧٩٢/٢)، وانظر أيضًا ما ذكره كل من: أمل कुमार بندوباداي في: بورانيكا (٧٥/٢)، وشودير سندر سركار: بورانيكا أبهيدان ص (٣٠١).

(٤) راجع المصادر السابقة، وما سبق في ص (٢٧٨).

(٥) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص (١٧٠).

(٦) انظر ما ذكره الدكتور علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٢٩).

متى وكيف نشأت فلسفة ميمانسا؟

تكاد تتفق جميع المصادر أن هذه الفلسفة نشأت في بيئة دينية بحتة، فهي أقرب إلى الدين منه إلى الفلسفة، وهي بمثابة رد الفعل من جانب المتمسكين بأصول الدين ليناهضوا بها المذاهب الفلسفية التي تنكر قداسة الفيدات مما يعتبرونه زندقة^(١).

وهي فلسفة قديمة ليس لها مؤلف واحد بالتحديد، وهي أقدم من فلسفة الفيدات السابقة الذكر، ولكنها كانت بدون تنسيق، وقد نسقها ورتبها أحد حكمائهم المشهور بـ«جيميني»^(٢) بكتاب وأسماء: «فوربا ميمانسا سوترا».

التعريف بكتاب «فوربا ميمانسا سوترا»:

يحتوي كتاب جيميني على ما لا يقل عن ٩١٥ فصلاً، يقسم الفصل فيه إلى خمسة أقسام: القسم الأول تصاغ فيه الفرضية، والقسم الثاني: يرد فيه على الشكوك التي تثار حول الفرضية أو صياغتها، أما القسم الثالث: فهو في عرض الطرق المضللة في فهمها، والرابع: في دحض تلك الطرق المضللة، وأما الخامس والأخير فيقدم الحل الصائب على أنها نتيجة ضرورية لكل ما ورد، وهذه الفصول منظمة في اثني عشر كتاباً^(٣)، وقد أدى ذلك الكتاب إلى قيام شروحات عديدة عليه؛ وضع أولها على ما يظن في حوالي القرن الخامس الميلادي وهو الشرح المسمى: شابارا شفامين، وصار هذا الشرح نفسه موضوعاً لشروحات أخرى لاحقة، ومن أهم الأتباع اللاحقين: بربهاكارا، كوماريلابهاثا.

أما زمن الفيلسوف جيميني وزمن تأليف كتابه «فوربا ميمانسا سوترا» فقد اختلفوا على أقوال:

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص (١٧٠).

(٢) انظر ما ذكره أمل كُومار بندوباداي: بُورَنِيكا (٧٥ / ٢).

(٣) يوجد معها أربعة كتب إضافية لتصل مجموع الكتب فيها إلى ستة عشر كتاباً. انظر: بورانيكا (٧٥ / ٢).

- ١ - أنه ألف حوالي القرن الرابع قبل الميلاد^(١).
- ٢ - أنه ألفه حوالي القرن الأول قبل الميلاد^(٢).
- ٣ - أنه ألفه حوالي القرن الثاني بعد الميلاد^(٣).
- ٤ - أن هذا الكتاب ألف في ما بين الـ ٢٠٠ وإلى ٤٥٠ م.م^(٤).

موضوعها وخصائصها:

موضوع فلسفة ميمانسا: المساعدة في تفسير الفيدات^(٥)، واستمرار تقديم القرابين^(٦)، وتقديم خدمات نقلية للفيدات، إلا أن أصحابها بعد أن أدوا هذا العمل اتجهوا إلى الانغماس في التأملات التي لا دخل لها بالفيدات^(٧).

من أهم ميزات هذه الفلسفة ما يلي:

- (١) أن أصحابها لا يعتبرون أن المرحلة الفيدية مجرد معرفة، أي مجموعة تعاليم طقوسية، بل إنها كينونة خالدة، وغير مخلوقة، إنها موجودة وقائمة بذاتها، كما أن الفيدات خالدة ليس لها خالق فاعل.
- (٢) إن الفيدات انبثاق من الكائن الموجود بذاته (SAT/سات) على شكل صوت (شَبْد)، وبناء عليه فتكون المعاني التي تدل عليه الكلمات معاني ثابتة ومقدسة حيث تنبثق القدرة الكاملة عندهم من ذاتها، لا من تدخل إلهي؛

-
- (١) انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان الفيدية، البراهمانية، الهندوسية ص (١٩٥). وانظر ما ذكره أ.ف. توملين في فلاسفة الشرق ص (٢٦٣).
 - (٢) انظر ما جاء في الموسوعة العربية العالمية (١٩٨/٢٦).
 - (٣) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص (١٧٠).
 - (٤) انظر ما ذكره الدكتور علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٢٩).
 - (٥) انظر ما ذكره شُوْدهيْر سَنْدَرْ سَرْكَاز: بورانيك أبهيدان ص (٣٠١).
 - (٦) انظر ما ذكره أَمَلْ كُومار بندوباڌاي: بُورَنِيكا (٧٥/٢).
 - (٧) انظر ما ذكره أ.ف. توملين: فلاسفة الشرق ص (٢٦٣).

والكلمة ذاتها هي الفعالة^(١).

(٣) وبناءً على عقيدة ميمانسا أن القيديات أزلية، يكون من المستحيل النقاش حول مدى صوابها أو حجيتها.

(٤) ومن ثم فإن جيميني يرفض ما ذهب إليه كابيلا وكانادا عندما أقر بقدسية القيديات مع إنكار حجيتها وتعطيل أحكامها.

(٥) ويرى جيميني أن مجال البحث في القيديات لا ينحصر فقط في التفسير والدلالة وتحديد الأحكام التفصيلية، فإن القيديات تشتمل على أوامر، وقواعد، وتسميات، ونواهٍ، وأقاصيص حسية. ولا يخلو أي عنصر من هذه العناصر من غرض، وإذا لم يكن هناك من غرض ظاهر، فإن ذلك يعني وجود غرض خفي، وهكذا عندما تعد القيديات كل من يقوم بطقس معين بالصعود للسماء، فالصعود الذي لا يتحقق آتياً ليس معناه عدم الصعود مطلقاً؛ لأن الطقوس أوجدت شيئاً لم يكن موجوداً من قبل، وهذا الشيء هو الصعود غير المرئي^(٢).

(٦) ويرى جيميني: أن العقل الإنساني أضعف من أن يحل مشكلات الميتافيزيقيا واللاهوت، فالعقل مستهتر يقدم نفسه لخدمة الأهواء كائنة ما كانت، فهو لا يعطينا «علمًا»، و«حقيقة»، بل يكتفي بصنع ميولنا الحسية وزهونا ببصغة المنطق؛ إن الطريق إلى الحكمة والسلام لا يمتد في المنطق والتواءاته الفارغة، بل تراه في التسليم المتواضع بما جاء عن طريق الوحي ونقل الخلف عن السلف، وفي الأداء المتواضع للشعائر كما فصلتها الكتب المقدسة، وهذه وجهة من النظر لا تعدم وجهًا للدفاع^(٣).

(١) انظر ما ذكره علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٣١).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت في كتابه: مقارنة الأديان القيدية، البراهمانية، الهندوسية ص (١٩٦).

(٣) راجع ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢٦٧).

(٧) إن أصحاب هذه المدارس يرون أن نظرية المعرفة، تخلص وتحرر، يقول شاباراسفامين بوجود خمس وسائل للمعرفة أو للمحاكمة هي:

١- الإدراك الحسي: وهي المعرفة التي تتم بتماس عضو من أعضاء الحس بالأشياء؛ وهي معرفة تدرك الأشياء القائمة.

٢- الاستنتاج (أنومان).

٣- المقارنة.

٤- النطق أو الكلام (شَبْد).

٥- الظن (أرتهاباتي): وهو افتراض ما هو غير منظور بناءً على ما هو منظور أو مسموع.

ويضيف كوماريللا إلى هذه الوسائل الخمس سادسة؛ يسميها:

٦- الغياب (أبهاف)؛ وهو النفي أي إثبات عدم وجود شيء ما.

(٨) إن أصحاب هذه المدرسة وضعوا منطقاً يقوم على النصائح والأوامر، وأدخلوا نمطين جديدين من الاستدلال: الافتراض، وتصحيح الإدراك^(١).

(٩) تتميز نظرية المعرفة في الميمانسا بقوله: إن العالم واقعي، وبأن كل معرفة هي معرفة صحيحة؛ إذ أن ما يبرهن هو بطلان المعرفة لا حقيقتها.

(١٠) الخلاص الذي تسعى إليه الميمامسا ليس هو حالة الانعتاق المطلق الموجود، ولا في التوقف التام لما هو «دهارما» وعكسها «لا دهارما»، وإنما هو الحياة في السماء، أي الصعود إليه.

(١١) إن جيميني لشدة تمسكه لم يقل شيئاً عن الإله الأعلى، مع تقبله ما ذكر في الفيدات من الآلهة التي تقدم لهم الأضاحي، إلا أن أتباعه اختلفوا بعده إلى المتوقف في هذه المسألة، وبين شدة رفض وجود إله أعلى، مثل كوماريللا،

فلا يقول بالخالق، ولا بخلق أو فناء دوري للعالم - الذي هو من سمات المذاهب الهندوسية المتأخرة - فالعالم عنده أبدي، ليس له بداية في الزمان، وحتى إن وجد كائن ما خالق، فإن ذلك لا يغير من قيمة الفيدات ولا يقلل منها ومن قوة الكلمات، وتناقش قائلاً: في زمن ما قبل خلق العالم، كيف كانت حالة الكون وما ذا كان حال برجاتي نفسه؟ ثم من خلق برجاتي الذي هو بلا جسد؟ وإذا افترضنا خالقاً آخر له، فمن هو الذي خلق هذا الآخر؟ إلى آخر هذه الأسئلة^(١).

وبعد: فإن فلسفة الفيدانت وفلسفة ميمانسا تذكر هاتان الفلسفتان مجتمعة باسم «ميمانسا»، فيقال: پورب ميمانسا، وأثر ميمانسا، حيث إنهما تؤمن بالفيدات، وانصهر المذهب الأول في المذهب الثاني في الوقت الحالي حيث اختارت الفيدانتيون الأقوال التي تمجد الفيدات وطقوسها مع بقائهم على الأقوال الفيدانتية التي تخالف أقوال الميمنسين المتعلقة بإثبات الإله وما إلى ذلك^(٢).

(١) انظر ما ذكره أمل كُومار بندوبادايي : بُورَنِيكا (٧٥ / ٢)، وانظر أيضاً ما ذكره كل من الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص (١٧٠-١٧١)، والدكتور علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٣١-٣٣٢).

(٢) انظر ما ذكره شُودِهِيْزَ سَنْدَرَسَكَارَ : بورانيك أبهيدان ص (٣٠١). وانظر أيضاً ما ذكره الدكتور علي زيعور في: الفلسفة في الهند ص (٣٣٢).

الفرع الثالث: فلسفة فايششكا

معنى فايششكا:

اختلف في بيان معنى كلمة فايششكا إلى أقوال:

- (١) فايششكا تعني المميزات الخصوصية للأشياء^(١).
- (٢) فايششكا تعني: الجزئية^(٢).
- (٣) فايششكا تعني: الاستيلاء على المعقولة^(٣).
- (٤) فايششكا تعني: جزئية أو خصوصية^(٤).
- (٥) فايششكا تعني: آكل الذرات^(٥) وهو خطأ محض؛ لأنه ترجم للقب صاحب هذه الفلسفة كما سيتبين.

والصحيح هو الأول، وهو الذي يوافق معاجم اللغة كما سبق.

واضع هذه الفلسفة:

واضع هذه الفلسفة هو كاناد (أو كُند)، ويسمى أيضاً: كنبهكشا، كنبهوج. والأسماء الثلاثة هي ألقاب له تعني حرفياً «آكل الذرات»، نسبةً إلى نظريته في الذرات، ولعل اسمه الأصلي: ألوك^(٦). ونظريته هذه موافقة لنظرية ديمقريطس اليوناني^(٧).

(١) انظر ما ذكره الدكتور علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٥٧)، وانظر ما ذكره هريسن بندوباداي: بنغيي شيدكوش (١٦٢٧/٢)، وما ذكره شودانشو كومار سكربرتي: دهارماتته شار شنغره ص (٩٢)..

(٢) انظر ما ذكره ول ديورانت: قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢٥١).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص (١٧١).

(٤) انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، الفيدية... ص (١٨٨).

(٥) انظر ما ذكره الدكتور محمد العربي: الديانات الوضعية الحية في الشرقي الأدنى والأقصى ص (١٦).

(٦) انظر ما جاء في «بورانيكا أبهيدان» ص (٣٧٥).

(٧) انظر ما ذكره ول ديورانت: قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢٩).

متى وكيف نشأت هذه الفلسفة:

اتفقوا على أنها نشأت على يد الحكيم كُندُ، وأنه وضع كتاب «فايشيشكا سوترا» ولكن اختلفوا في تحديد زمن وضعه لهذه الفلسفة على أقوال، بناء على اختلافهم في الزمن الذي عاش فيه واضعها:

(١) قيل: فيما بين القرن الثاني والقرن الرابع بعد الميلاد^(١).

(٢) القرن الثاني بعد الميلاد^(٢).

(٣) وقيل: قبل القرن الرابع قبل الميلاد^(٣).

مجمل هذه الفلسفة:

أساس هذه الفلسفة أن العالم مكون من ذرات أبدية أزلية.

تميّز منظومة الفايثيشكا سبعة أنواع ملحوظة من الحقيقة، تسمى بسبع مقولات أساسية هي: الجواهر (الماهية)، الخصائص (غونا/الخاصية)، الأعمال (كارما/الفاعل)، العمومية، الخصوصية (فايشيشا)، الملازمة، اللاوجودية (العدم/أبهافا).

أما الأول: فهو الجواهر - (درفيا) (Dravya): وهي المكونات للطبيعة؛ وتحوي على تسعة أنواع من المكونات - عندهم - هي: التراب - النار - الرياح - الماء - الأثير - الزمن - الفضاء - النفس (آتمان) - العقل (ماناس).

هذه المكونات تنقسم قسمين:

خمسة مكونات مادية للكون؛ وتعد عناصر فيزيائية: هي: التراب، الماء، الضوء، الهواء، الأثير.

ولكل عنصر منها خاصية تمكنا من إدراكه وتمييزه، فالرائحة هي الخاصية النوعية للتراب، والمذاق للماء، واللون للضوء، والملمس للهواء، والصوت للأثير.

(١) انظر ما ذكره الدكتور علي زيعور: الفلسفة في الهند ص(٣٥٧).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص(١٧١).

(٣) انظر الموسوعة العربية العالمية (١٩٦/٢٦).

أما المكونات الأربعة الأخرى، فتعد ماهيات غير مادية، أي الزمان والمكان والروح والعقل (ماناس).

وهذه الذرات التي تكون منها العالم هي غير مرئية لصغرها؛ إذ هي مركبة من ذرات (أنو anu أو بارامانو) تساوي الذرة الواحدة منها سدس أصغر حبة غبار منظورة، أي إنها الجزيء الابتدائي الذي لا مجال لتصور ما هو أصغر منه ولا أدق، ويتم تكوّن الأجسام المادية بأن تتجمع ذرة مع ثنائية، ثم مع ثالثة، أي: إذا اجتمعت ذرتان من الماهية يتشكل منهما الثنائي التركيب، ويظل مع ذلك في منتهى الصغر، وإذا اجتمعت ثلاثة تراكيب ثنائية مضبوطة بإحكام، يتشكل منها الثلاثي التركيب، وهو أصغر جسيم من الماهية يمكن إدراكه، وجميع الأشياء المركبة المألوفة لدينا مثل الجرة والشجرة، هي كلها مصنوعة على هذا المنوال، كل ذلك بفعل قوة غير منظورة، وبدون الخضوع لسبب خارجي أو علة خالقة، وبالتالي: فإنها تخلق؛ إذ هي لا تفنى حتى عندما يعود الكون - دورياً - كما يقولون - إلى مرحلة الانهدام واللاوجود، بل هي في تلك المرحلة التحليلية للعالم تكف فقط عن التمازج بعضها مع بعض، ومن ثم يكون العالم غير منظور.

الذرة في حد ذاتها لا ترى، ولا امتداد لها، إن اتحادها مع مثيلاتها هو الذي يُخضعها للنظر ويعطيها من ثم الامتداد والأبعاد، كل شيء وفق هذه النظرة مكوّن من ذرات ما عدا الفراغ.

أما الثاني: فهو الخصائص (الخاصية/ غونا): هي صفات الجواهر، أو ما يسمى في عرف المتكلمين بالأعراض. وعددها ست عشرة:

- ١- المذاق ٢- الرائحة ٣- الملمس ٤- الشكل ٥- الأعداد ٦- الأبعاد ٧-
- الاتصال (أي: اتصال الروح بالبدن) والانفصال (أي: انفصال الروح عن البدن) ٨- الوعي
- ٩- اللذة والألم ١٠- الرغبة ١١- الجهد ١٢- الفردية ١٣- الغيرية (الكبر والكثرة والبعد)
- ١٤- اللاغيرية (الصغر والقرب والقلة) ١٥- اللون ١٦- النفور.

وفيما بعد أضيفت إلى تلك الخصائص ثمانٍ أخرى هي: ١٧- الدهارما ١٨-

واللادها رما ١٩ - اللزوجة ٢٠ - السيولة ٢١ - القدرة ٢٢ - الجدارة ٢٣ - الثقل ٢٤ -
النقص.

وقد تتعدد الصفات في الجوهر الواحد، وقد تتحول أو تنقل، أو تنشئ الواحدة منها الأخرى.

أما الثالث فهي كارما (أي: العمل أو الفعل) وهو عند المتكلمين من الأعراض التي تقوم في الجواهر: وهي خمسة: ١- الرفع (إلى أعلى)، ٢- الخفض (إلى أسفل)، ٣- التقلص ٤- التوسع (التمدد) ٥- النقل (النقلة).

ويتمثل كل هذه الأشياء في الحركة، وأنواع الحركة هي أنواع الواقع التي تفسر التغيرات التي تطرأ على الجواهر.

أما الرابع فهي العمومية أو الماهية الكلية (Universal Essences)، والمقصود به: التوافق أو ما يبقى معاً وبشكل أبدي بين عدة أشياء، إن النوع مثلاً موجود يتميز بقيام صفات مشتركة بين الأفراد. وهي تفسر التشابه الموجود بين الجواهر أو الخصائص (الكيفيات) أو الأعمال والأفعال (كارما).

أما الخامس فهي الخصوصية: (أي: فايشيشكا)، وهي التي تميز شيئاً عن آخر.

أما السادس: فهي الملازمة أو المحايثة: وهي العلاقة الضرورية والدائمة بين الأشياء التي تكون متصلة فيما بينها؛ وتكون بمثابة الحاوي والمحتوى. وهكذا نقول: كذا وكذا موجود في هذا أو ذاك الشيء؛ أو نقول: هذه الصفة موجودة في ذلك الجوهر، الجزء موجود في الكل، أو كعلاقة العلة بالمعلول.

أما السابع فهو اللاوجود (أو عدم / أبهافا): فهو أربعة أنواع:

النوع الأول: اللاوجود السابق، أي: الذي يكون قبل وجود الشيء أو ظهوره.

النوع الثاني: الفناء، أي: زوال شيء كان موجوداً.

النوع الثالث: اللاوجود المطلق، وهو نفي لما لا يوجد أبداً.

النوع الرابع: النفي الضمني، أي: عدم وجود الشيء بالنسبة لآخر، كأن نقول: البقرة ليست حصاناً والحصان ليس بقرة.

أما منبع المعرفة عند هذه المدرسة فهي التجربة المادية المحضة التي وصلت بها المغالاة فيها إلى حد أنها لم تعترف إلا بقياس الجزء على الجزء دون أن تحاول تكوين كلية من هذه الأجزاء. ولقد عم هذا المذهب التجريبي كل آرائها حتى أعلنت أن «فيد» ليس لها أي مصدر مطلق، وإنما كل ما فيها من حكم مفيدة وقوانين نافعة قد نشأ من مجموعة تجارب الحكماء في العصور المختلفة وليس مما لا يقدر عليه الخلق - كما كان القدماء يقولون -^(١).

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص (١٧١-١٧٣).

الفرع الرابع : نيايا

معنى نيايا:

اختلفوا في بيان معنى نيايا في اللغة على أقوال:

- (١) المضبوط^(١).
- (٢) الصواب، والسلامة من الأخطاء^(٢).
- (٣) القاعدة أو القانون^(٣).
- (٤) التدليل أو البرهنة أو الاستدلال^(٤).

أما في الاصطلاح فقد اختلفوا في تعريفها على أقوال، منها:

- (١) الطريقة المضبوطة والصحيحة.
 - (٢) المنطق^(٥).
 - (٣) طريقة لهداية العقل حتى ينتهي إلى نتيجة^(٦).
 - (٤) هداية العقل وتوجيهه نحو الصواب في القول والمعتقد^(٧).
- وهذه التعريفات كلها متقاربة - كما هو ظاهر -.

(١) انظر ما ذكره الدكتور علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٥٢).

(٢) انظر ما ذكره «شودانغشو كومار سكربارتي»: دهاماتاته شار شنغره: ص (٩٠).

(٣) انظر ما ورد في الموسوعة العربية العالمية (٢٦ / ١٩٥).

(٤) انظر ما ذكره ول ديورانت: قصة الحضارة (٣ / ١ / ٢٥٠)، والدكتور محمد عثمان الخشت:

مقارنة الأديان، القيدية... ص (١٨٦)، والدكتور محمد العربي، الديانات الوضعية الحية...

ص (١٦).

(٥) ذكر الدكتور علي زيعور هذين المعنيين في: الفلسفة في الهند ص (٣٥٢).

(٦) انظر ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (٣ / ١ / ٢٥٠).

(٧) انظر ما ذكره الدكتور محمد العربي: الديانات الوضعية الحية... ص (١٦).

مؤسس فلسفة نيايا:

تكاد تتفق المصادر على أن هذه الفلسفة كعلم بذاته أنشئت على يدي حكيم يسمى «جوتام» (غوتام)^(١)، والذي يلقب بـ«إكشاباد، أي من له عينٌ هي قَدَمٌ». ويعني بذلك أنه صاحب العينين المثبتتين على قدميه^(٢).

تاريخ كتابة فلسفة نيايا:

تتفق جميع المصادر في أن الحكيم «جوتام» (غوتام/ گوتم) وضع في هذه الفلسفة كتابًا سماه «نيايا - سوترا»^(٣)، وهو أقدم كتاب لهذه الفلسفة.

واختلفوا في زمن وجوده وتأليفه لهذا الكتاب على أقوال:

- (١) حوالي منتصف القرن الثاني ق.م.
- (٢) أو في ما بين ٢٠٠ و ٤٥٠ ق.م.^(٤)
- (٣) وقيل: في القرن الثالث والثاني قبل الميلاد^(٥).
- (٤) وقيل: ما بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الأول بعده^(٦).
- (٥) وقيل: في القرن الرابع قبل الميلاد^(٧).

(١) انظر المصدر السابق، وما ذكره كل من الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص (١٧٣)،

والدكتور علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٥٢).

(٢) انظر ما ذكره علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٥٢).

(٣) إلا ما جاء بأن الحكيم «غوتام» وإن كان واضع هذه الفلسفة؛ إلا أن الكتاب ألفه شخص يسمى الحكيم «ديغروتم». انظر ما ذكره أَمَلُ كُومار بندوبادايي: بُورَنِيكا (١/ ٨٣٦).

(٤) انظر ما ذكره علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٥٢).

(٥) انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، القيدية... ص (١٨٦).

(٦) انظر ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢٥٠).

(٧) انظر ما ورد في الموسوعة العربية العالمية (٢٦/ ١٩٥).

مجلد الفلسفة التي ذكرت في كتاب نيايا سوتر:

الكتاب الذي يُعد دستوراً لهذا المذهب هو نيايا سوترا^(١)، يتكون من خمسة فصول، وعشرة مباحث، وخمسمائة وثلاث وثمانين بيتاً (سوترا)، يتناول في البداية المواضيع التي تدخل في البرهان المنطقي (RAISONNEMENT) والتي تسميها باسم: «بادرته» (PA-DARTHA) وتعني بذلك ما يقابل المنطق، وعدد تلك المواضيع (المقولات، ستة عشر موضوعاً، وتتم عملية المعرفة والتفكير في هذه المواضيع الستة عشرة من أربع زوايا، هي:

الزاوية الأولى: الذات العارفة (العارف)، وهي الجوهر، ولها خواص، وهي: المعرفة والشعور والإرادة التي تتبع منها كيفيات الرغبة، والمقت، واللذة، والألم، وهذه اللذات هي المدركة للواقع والحسي^(٢).

الزاوية الثانية: معرفة الموضوع (المعروف)، والمعروف الذي يعرف في هذه الفلسفة هي: النفس، والجسم، الحواس وموضوعاتها، المعرفة، الذهن، الفعل، الاختلالات العقلية، اللذة، الألم، المعاناة، والتحرر من المعاناة^(٣).

الزاوية الثالثة: الحالة الناتجة عن المعرفة، أي ما ذا حصلنا عليه من النتائج.

الزاوية الرابعة: الوسائل المعتمدة للمعرفة الصحيحة. وهذه الوسائل ينقسم إلى

قسمين:

القسم الأول: عناصر إقامة التفكير الصحيح أو العادل وهي كالتالي:

١- برمانا/ (PRAMANA) هي المعايير أو الوسائل للمحاكمة؛ (أو وسائل الحكم وضوابطه، أو وسائل المعرفة)، فإن كون المعرفة الناتجة صحيحة أو خاطئة مرهون بوسائل معرفة الموضوع، وهي أربع وسائل:

(١) انظر ما ذكره كل من الدكتور محمد عثمان الحشت: مقارنة الأديان، القيدية... ص (١٨٦)، وقد أشار إلى أصل الكتاب، وإلى كتاب جان فيليوزات، فلسفات الهند ص (٧٧-٧٨).

(٢) انظر ما ذكره جون كولر: الفكر الشرقي القديم ص (١٢٣-١٢٤).

(٣) انظر المصدر السابق ص (١٢١-١٢٣).

أ - الإدراك. ب - الاستدلال أو الاستنتاج. ج - المقارنة (القياس). د - الشهادة الجديرة بالتصديق. (الشهادة اللفظية)^(١).

٢ - برَميا / PRAMEYA (الموضوع المراد معرفته): وهو جميع الأشياء المُدْرَكَة، وهي تدرج تحت اثني عشر «بابا» هي: ١ - الذات، ٢ - البدن، ٣ - الملكات الحواسية وملكات العمل، ٤ - أَرْثُه يعني الصفة أو القدرة الخاصة التي تكمن لدى الحواس الخمس، ٥ - الوعي (بودهي)، ٦ - العقل (ماناس / MANAS)، ٧ - النشاطية، ٨ - الأغلاط، ٩ - بيرته بهاب، (أو سبب تكرار الوجود)، ١٠ - ثمرة الأعمال، ١١ - الشقاء، ١٢ - «أوبو بورغ» أو الانعتاق (الخلاص من الألم). فإنه إذا عُرِفَت هذه الأشياء جيدًا يذهب العلم الكاذب المعروف عندهم بـ «أفيديا»^(٢).

٣ - سامشّا / (PROBLEM) (المشكلة).

٤ - پريوجون / (NEED) (الحاجة، أو الدافع، أو الباعث).

٥ - ذُرِشْتَانَتْ / (EXAMPLE) (المثل).

٦ - سِدْهَانَتْ / (CONCLUSION) النتيجة.

القسم الثاني: عناصر مناقشة التفكير ومحاكمته: وهي

٧ - أفايافا / صورة الشيء التي توصل إليها بالمنطق.

٨ - تركا / المحاجة وتقديم الأدلة^(٣). وهي على ثلاثة أقسام: أ - المحاجة لدعم

موقف المستدل. ب - المحاجة لرد موقف الخصم. ج - المحاجة لدعم الحق.

(١) انظر المصدر السابق ص (١١١-١١٢).

(٢) انظر ما ذكره شودانغشو كومار سكريرتي، في كتابه: دهارما تتر شار شنغره ص (٩٠-٩١).

(٣) جعل بعضهم هذين الاثنين - أفايافا، وتركا من عناصر التفكير الصحيح أو العادل. وجعل كل ما بعدها من العناصر تابعة لها، انظر ما ذكره شودانغشو كومار سكريرتي، في كتابه: دهارما تتر شار شنغره ص (٩٠-٩١).

- ٩- نرناي/ الأطروحة (التأكيد أو خلاصة البرهنة).
- ١٠- باد/ الاعتراض. (وهو كل ما يحصل بين الأستاذ والتلميذ من المحاجة للوصول إلى الحق، ففي مثل هذه المحاجة لا تكون الغاية هي إفحام الخصم والتغلب عليه، وإنما يكون المقصود: الوصول إلى الحق).
- ١١- جَلْبُ/ الجدل والنقاش.
- ١٢- بيتندا/ المماحكة والمشاكلة.
- ١٣- سال/ الخداع. (وهو تقديم جواب خادع عند المحاجة).
- ١٤- نغرهستهانا/ سبب الغلبة عليه أو موطن الضعف، أو ألوان العبث ونقاط توبيخ الخصم والتغلب عليه.
- ١٥- هتفابهاسا/ الأقيسة المنطقية الخاصة، ما يبدو أنه علة وجود وهو ليس كذلك في الحقيقة (الاستدلال الخطأ).
- ١٦- جاتي/ إخراج الخاصية التافهة. (العبث) (اللعب بالكلمات)^(١).

(١) انظر ما ذكره علي زيعور: الفلسفة في الهند ص(٣٥٣-٣٥٤)، و«شودانشو كومار سكربرتي، في كتابه: دهارما تتر شار شنغره ص(٩٠-٩١)، والدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص(١٧٣-١٧٤)، والدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان: الفيدية... ص(١٨٦-١٨٧).

الفرع الخامس: فلسفة سانكهايا (أو فلسفة التعداد).

معنى سانكهايا:

كلمة «سامكهايا» ويقال: «سانخيا» (Sankhya) أو: «الصمخيا»، أو: «السامخيا»، أو: «سانكهايا»، تدل الكلمة على العدد أو على الحساب والترقيم^(١)، أو السرد^(٢)، إذ تحفل تلك العقيدة بالتعداد والتحليل والتصنيف لمكونات الروح والمادة.

متى وكيف نشأت فلسفة سانكهايا:

واضع هذا المذهب هو الحكيم «كابيلا»^(٣) (Kapila) (كَبِلْ). ومن المرجح أن كابيلا^(٤) كان يعيش في القرن السادس قبل الميلاد^(٥). وقيل: في غضون القرن السابع قبل الميلاد^(٦). وقيل: القرن الرابع قبل الميلاد^(٧).

وقد عثر في هذه الفلسفة وفي الفلسفة البوذية تأثيرات قوية متبادلة بين المذهبين بالتساوي مما يدل على أنهما متعاصران تقريباً؛ لاسيما إذا كان بعض تلك النقاط المتشابهة واضح الأصلية في أحدهما والحادثة في الثاني، والبعض الآخر على العكس

(١) انظر ما ذكره علي زيعور: الفلسفات الهندية ص(٣٣٤).

(٢) راجع ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢٥٢).

(٣) انظر ما ذكر عنه والأساطير المنسوجة حوله في ترجمته في كتاب «بورانيكا أبهيدان» ص(٩٦).

(٤) هو كَبِلْ، يبدو أنه كان قبل بوذا، ولم يعلم أكثر من هذا.

(٥) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب في الفلسفة الشرقية ص(١٥٩)، وما نقله الدكتور محمد عثمان الخشت في كتابه: الفيدية والبراهمانية والهندوسية ص(١٩٠). وقد حدد الأستاذ علي زيعور: الفلسفات الهندية ص(٣٣٤) بأنها كانت في سنة ٥٥٠ ق.م.

(٦) الموسوعة العربية العالمية (٢٦/ ١٩٧).

(٧) انظر ما ذكره راهول سنكريتيان: درشن ديكدرشن ص(٩٣).

من ذلك تمامًا، كل هذا دال على أنه كان يعيش في القرن السادس قبل الميلاد أو في القرن السابع قبل الميلاد^(١).

كتب مدرسة سانكهيا:

أول كتاب اشتهرت به هذه المدرسة هو «سانكهيا سوترا»، من تأليف كايلا، إلا أنه مفقود، أما «سانكهيا - كاريكا» من تأليف «إيشفار كريشنا» فإنه أقدم ما وصلنا من نصوص سانكهيا، حيث صدر في غضون القرن الخامس قبل الميلاد^(٢)، وقيل: إبان القرن الأول للميلاد^(٣)، وقيل: القرن الثالث الميلادي^(٤)، وهو الصحيح^(٥).

موضوع فلسفة سانكهيا:

موضوع فلسفة هذا الكتاب: إنكار وجود الخالق فإنه زعم أنه لم يجد دليلًا على وجود الخالق، وزعم أن العالم إنما وجد من تفاعل الروح مع المادة أو الطبيعة، فأصحاب هذه الفلسفة يرون أن الطبيعة قديمة أزلية، هكذا الروح المتفاعلة معها أيضًا أزلية قديمة، وأن الروح لا تخلق شيئًا وإنما تنظر فقط، والروح تتقلب في الأجسام حسب أعمال الإنسان، فإذا انتهى العمل فلا يدخل في أي جسمٍ حيثئذٍ.

مجممل الفلسفة:

ينطلق هذه الفلسفة من القول بأنه ما من تجربة إلا وتشتمل على طرفين: پوريش (الروح)، وپزكرتي (الطبيعة)، فالعالم يتمثل في هذين الشئيين: الروح «پوريش»، والطبيعة «پزكرتي» التي لا تشتمل على الجانب الفيزيائي المادي فقط بل على الجانب النفسي أيضًا.

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب في الفلسفة الشرقية ص(١٥٩).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص(١٥٩).

(٣) انظر ما ذكره علي زيعور: الفلسفات الهندية ص(٣٣٤).

(٤) راجع: الموسوعة العربية العالمية (١٩٦/٢٦).

(٥) راجع ما ذكره راهول سنكريتيان: درشن، ديكدرشن ص(٩٣)، وقد ذكر أن هذا المؤلف حذف كثيرًا من كلام كبل، واستفاد من البعض الآخر في صياغته لهذا المتن.

وتقول الفلسفة إن الطبيعة في أصلها لها وضعية واحدة متركبة من ثلاثة عناصر: اللذة / أو الخيرية (سُت/ سطفا)، النشاط أو/ الهوى، (رُج/ راجاس)، والفتور/ أو الظلمة (تُم/ تاماس). وهذه الجوانب متوازنة فيما بينها.

أما الذات العارفة فالمقصود بها هنا الوعي الذاتي المحض، وهي منفصلة عما يحدث من تغير ونشاط لأن الأشياء وحدها هي التي تتغير.

يرى «كابيلا» أن العالم نتيجة للتطور التلقائي للمادة غير الواعية (پُزُكُرتِي / الطبيعة)، ولكن كيف تم ذلك؟ يبدأ «كابيلا»، بافتراض وجود جوهر عام يسمّى «پُزُكُرتِي» Prakriti أو الطبيعة يشتمل على ثلاث قوى تطورية هي «الجوناس» Gunas أو الأوصاف، وهي: اللذة (أو الخيرية أو النور) والتي تسمى عندهم بـ«ساتفا» Sattva (سُت)، والنشاط (أو الهوى) التي تسمى عندهم بـ«راجاس» Rajas (رُج)، والفتور (أو الظلمة) التي تسمى عندهم بـ«تاماس» Tamas^(١)، (تُم)، ثم إن هذه الجوانب الثلاثة متوازنة فيما بينها.

وأول إنجاز هذه الأوصاف أو ما يسمّى بـ«الجوناس» (التي تعمل إلى حدّ ما مثل العوامل المساعدة في التفاعل الكيميائي) هو أن تخلق القوة المتنورة أو خاصية الإدراك «بودهي» Buddi أو الذكاء.

والمرحلة التالية هي توصيل خاصية الإدراك بواسطة الجوناس إلى الحواس الخمس. وتشعر هذه الحواس في خلق العضو الذي لها صلة به: البصر يخلق العين، والسمع يخلق الأذن، الشهوة الجنسية تخلق الأعضاء التناسلية.

يقول أحد الغربيين^(٢)، وهذا يبدو قلبًا للوضع الصحيح للأشياء، بالرغم من أن شوبنهاور وبعض الفلاسفة المحدثين الغربيين التطوريين، قد ساروا على نهج كابيلا.

وأخيرًا في مباشرة الجوناس لعملها على المادة الخام للجوهر العام، تنتج عناصر ما يسمّى بالعالم الخارجي: الأثير، والماء، والنار. إلخ... هذه هي نتيجة ما يسمّى باسم

(١) راجع الموسوعة العربية العالمية (١٩٧/٢٦).

(٢) توملين: فلاسفة الشرق، ص (٢٥٣).

التطور الثانوي.

ويوجد نقيض كامل للمادة (پُرْكُرِيَّتِي) وهو الروح، ويزعمون أنها لا تتدخل في أنشطة المادة الفردية.

والفرق بينهما: أن الطبيعة (پُرْكُرِيَّتِي) سلبية مع أنها ليست ثابتة، أما الروح «پوريش» فإنها نشيطة باعتبارها روحًا مع أنه ليس متحركًا تمامًا. وكل ما هو نشط في العالم فهو روح.

وما يفعله الروح «پوريش» هو أن تمارس إغراءً على الطبيعة (پُرْكُرِيَّتِي) حتى تأخذ ما يسمونه بالجوناكس لإحداث الحركة^(١).

رأي فلسفة سانكهايا في محرك الكون:

يرى أصحاب هذه الفلسفة أنه لا يوجد للكون خالق قدير متفرد بالتصرف فيه، بل يوجد فيه المادة والروح وهما قديمتان أزليتان، وهاتان بينهما صلة قوية؛ لأن دخول النفس في المادة هو الذي يكسبها الحركة التي هي منشأ كل النتائج الصادرة عنها، ولكن النفس وحدها لا تستطيع أن تفعل شيئًا وإن كانت حية مشتملة بالقوة على جميع عناصر القدرة التأثيرية، وهي مبصرة ولكنها عاجزة على عكس المادة العمياء المشتملة على قدرة كامنة يستحيل بروزها من غير اتصالها بالنفس. وهم لهذا يشبهون اتحادهما باتصال مقعد وأعمى التقيا في صحراء، فاتفقا على تعاون عملي بينهما يضمن لهما النجاة، وهو أن يحمل الأعمى المقعد على كتفيه، ليتمكن من السير في مقابل أن يدلّه المقعد بواسطة بصره على الطريق الذي لم يكن في مكنته أن يعرفه لولا معاونة رفيقه، وقد وصلا معًا إلى شاطئ النجاة بفضل هذا التعاون العظيم.

وبهذا تهيأ للمادة والروح من خلال اتحادهما إبراز خواصهما التي لم تكن لتوجد بدون هذا الاتحاد.

(١) انظر ما نقله الدكتور محمد عثمان الخشت في كتابه: الفيدية والبراهمانية والهندوسية ص (١٩٠).

وللمادة ثلاث صفات ملازمة لها، (كما سبق معنا: سَتْ أو الخيرية، رِجُ أو الهوى، وتُمْ أو الظلمة) هذه الصفات تظل تتفاعل فيما بينها في عصور مختلفة حتى تصل إلى حالة الاعتدال التي تسوي بينها فإذا وصلت إلى هذه الحالة تطورت تطوراً آخر جديداً نشأت عنه الطبيعة وبارتباط النفس والمادة المتطورة والطبيعة الناشئة عن هذا التطور يوجد العالم المشاهد^(١).

هذه الفلسفة إلهادية في الحقيقة، لا تقول بإله مسيطر متصرف في الكون، وهذه إحدى النقاط التي يلتقي فيها مع البوذية.

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص(١٦١).

الفرع السادس: يوغا

معنى يوغا:

تعني كلمة يوغا في اللغة السنسكريتية: الاتحاد والاتصال^(١). وقيل: فعل الربط والسيطرة والتحكم^(٢). وقيل: «الوحدة»^(٣)، وهذا الأخير هو تفسير بالمقصود. وقيل: النير^(٤)، وهو تفسير بالثمرة. والأول أصح من حيث المعنى^(٥).

وقد اختلفوا في تعريف «يوغا» في الاصطلاح على أقوال:

ف قيل: هو ربط تقنية الخلاص التي تهدف إلى تحرير النفس من شهوات الجسد عن طريق الممارسات والسلوكات الروحية والجسدية^(٦).

وقيل: فكرة متقدمة للحصول على السلامة الذاتية للإنسان، حسب أساسياته وقواعده بمراقبة النفس للنفس ذهنًا وفكرًا^(٧).

وقيل: هي رياضة بدنية وذهنية فريدة... ترمي إلى ترقية التطوير المتكامل للجسم والذهن مبنيةً أصلاً على فكرة قوة روحية إلهية كامنة عند الجزء الأسفل من العمود الفقري، فعندما يتم تنشيط هذه القوة الروحية عن طريق الرياضة فإنها تتسامى إلى الأعلى مارة بجذور العضو التناسلي والسرة والقلب والحنجرة والجبهة وأعلى الرأس وعندما تخرق هذه القوة الروحية هذه المناطق، يصل الإنسان إلى ذروة السعادة وتحقيق

(١) انظر ما ذكره محمد عبد الفتاح فهم: اليوغا والتنفس ص (١٩).

(٢) انظر ما ذكره علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٦٠).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور فارس علوان: اليوغا في ميزان النقد العلمي ص (١٥).

(٤) انظر ما ذكره ول ديورانت: قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢٦٣)، والدكتور كامل سعفان: معتقدات آسيوية ص (٢٤٠).

(٥) انظر ما ذكره دُرغا داش بَشُو شرشتي: هندو دهارمير شارته ص (١٢٨).

(٦) انظر ما ذكره علي زيعور: فلسفات الهند ص (٢٦٠)، و ول ديورانت: قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢٦٣)، والدكتور كامل سعفان: معتقدات آسيوية ص (٢٤٠).

(٧) انظر ما ذكره الدكتور أورانج كاي رحمت: التفكير الديني في العالم قبل الإسلام ص (١٨٤).

الذات... الهدف هو تزكية النفس وتحقيق الذات^(١).

وقيل: هو تكتيك لتحرير العقل من ارتباطه بالحواس، وإذا ما تحرر العقل مرة فإنه لا يتجول على غير هدى في عالمٍ أسمى من الطبيعة... فإن هدف اليوغا إتمام إدماج أتمان في برهمان^(٢).

وقيل: اليوغا في الحقيقة تجربة عملية لتهذيب النفس وتدريب جسماني لتصل الروح إلى السمو والارتفاع بعد التخلص من القيود الجسمانية وأثقالها ومتاعبها^(٣).

ومن الملاحظ أن كلمة يوغا تطلق على أشياء عديدة؛ منها:

(١) مزاولة الأعمال الخيرة، وتسمى حينئذٍ: يُوغا كَرَمَ (أي اليوغا العملي)، والمقصود به: الاستمرار في مزاولة الأعمال دون النظر إلى ثمره الأعمال، والنظر في العالم بأن الروح الأعلى في كل شيء، والعمل بدون رغبة أو رهبة وتقديمه للإله^(٤).

(٢) وتطلق على أعمال فلسفة فيدانت، وتسمى حينئذٍ: يوغا غِيَان، أو اليوغا العلمي، وقد سبق معنا ذكرها مفصلاً.

(٣) وتطلق على أعمال فلسفة بهاكتي (التي جاءت متأخرة، وستأتي تفصيلها عند ذكر البرانات) وتطلق عليها حينئذٍ: يوغا بهاكتي، أو اليوغا التي تستند على المحبة والورع.

(٤) وتطلق على أعمال رياضات بدنية، وتسمى «يوغا هات» (يوغا القوة).

(١) انظر مقالة بعنوان: فلسفة اليوغا في مجلة ثقافة الهند، المجلد الأربعون، العدد الأول والثاني، سنة ١٩٨٩ م.

(٢) انظر ما ذكره أ.ف. توملين: فلاسفة الشرق ص(٢٥٨).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص(١٠٨).

(٤) انظر المصدر السابق ص(١٢٢).

(٥) وتطلق على فلسفة مستقلة، تسمى «يوغا راج» وهي المقصودة عندنا ههنا^(١)، والتي هي من ترتيب الحكيم پاتنجلي - كما سيأتي معنا -.

تاريخ يوغا:

لاشك أن أصول اليوغا عريقة في القدم^(٢)، ولا يعرف تاريخ ميلادها على وجه الدقة، ولكن من الثابت أنها مورست قبل الميلاد بعدة قرون^(٣).

يقول ول ديورانت: والهند عرفت هؤلاء الناس - أي: اليوغيين - منذ ألفين وخمسمائة عام، ويجوز أن يرجع عهدهم إلى ما قبل التاريخ، حين كانوا للقبائل الهمجية بمثابة الأولياء، وهذه الطريقة في التأمل الزاهد التي تعرف باسم (يوغا) كانت موجودة أيام الفيدات، ثم إن الأوبانيشادات ومهابهارت كلتاهما اعترفتا بهذه الطريقة التي ازدهرت في عصر بوذا^(٤).

ويقول الدكتور محمد إسماعيل الندوي: يرجع ظهور اليوغا إلى عام ٨٠٠ ق.م^(٥). ولعل مقصوده: ظهورها كظاهرة مقبولة لدى الهندوس، وإلا فإن اليوغا كان لها وجود من قبل هذا، والدليل عليه أنه بنفسه ذكر أن مؤلف «مُتو سُمِرتي» الذي ألف كتابه في القرن الثامن قبل الميلاد جعل في كتابه باباً مستقلاً لليوغا، ولاشك كون «مُتو سُمِرتي» متأخراً عن بعض الأوبانيشادات، وقد ذكر اليوغا في كثير من الأوبانيشادات، وادعى البعض وجودها في الفيدات^(٦).

(١) والفرق الجوهرى بين يوغا راج وبين ما سبقها من أنواع اليوغا: أن هذه الأخيرة إلحادية؛ إذ ترى أن حصول موكشا بمقدور العبد بممارسة اليوغا كما سيأتي تفصيلها، بخلاف ما سبقها فإن كلها ترى أن حصول موكشا عملية مشتركة بين فعل العبد وفعل النفس الكلية.

(٢) انظر ما ذكره أ.ف. توملين: فلاسفة الشرق ص(٢٥٧).

(٣) انظر ما ذكره محمد عبد الفتاح فهميم: اليوغا والتنفس ص(١٩).

(٤) انظر ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢٦٢).

(٥) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص(١١٠).

(٦) انظر المصدر السابق ص(١٠٨-١٠٩).

ويدعي البعض: أن اليوغا كانت من أساليب العبادة لدى أهالي حضارات الإندوس (أي حضارة وادي نهر السند) وذلك يعني قبل دخول الآريين^(١).

ولعل الصحيح: أن اليوغا من حيث التاريخ، كانت موضع قبول قبل وضع نصوصها بفترة طويلة، وكانت موجودة في الفيدات دون إشارة إلى اسمها، كما كانت موجودة في الأوبانيشادات ومهابهارت، وفي الأوساط ما قبل البوذية؛ وأما ما قيل بأن اليوغا كانت موجودة قبل الآريين في حضارات الإندوس، والتي تعود ظاهراً إلى الألف الثاني قبل المسيح، استدلالاً بالوضع الجلوسي الذي تظهر فيه إلهة مرسومة على أختام حضارة ما قبل تاريخ الإندوس، والتي تذكر بالجلسة النظامية لليوغا - كما يقول علي زيعور - فليست هي بالضبط جلسة اليوغا؛ لأنها توجد عادة في الهند وبمعزل عن اليوغا^(٢)، فقول البعض بأن اليوغا كانت موجودة من قبل دخول الآريين، ثم تطورت، ووجدت لدى الآريين ليس قولاً نهائياً في هذا الباب، بل هو احتمال من الاحتمالات.

متى وكيف نشأت هذه الفلسفة؟

تتفق جميع المصادر على أن واضع هذه الفلسفة (مبلوره ومطوره وواضع قوانينه) هو: پاتنجلي، وهو الذي ألف أول كتاب في اليوغا وسماه: اليوغا سوتراس - Yoga Sutras. (أو قواعد اليوغا)، الذي لا يزال يُتخذ مرجعاً في جماعات اليوغيين من بنارس إلى لوس أنجلوس - كما يقول ول ديورانت - ولكن اختلفوا متى كان يعيش هذا الحكيم ومتى وضعت هذه الفلسفة على أقوال:

١) قيل: في غضون القرن الثاني قبل الميلاد^(٣).

(١) انظر ما ذكره علي زيعور: الفلسفة في الهند ص(٣٤٥).

(٢) انظر ما ذكره جان فيليوزات: فلسفات الهند ص(٦٧)، والدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، الفيدية، البراهمانية، الهندوسية ص(١٩٢-١٩٣).

(٣) انظر الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، الفيدية، البراهمانية، الهندوسية ص(١٩٣)، وانظر: الموسوعة العربية العالمية (١٩٧/٢٦).

- (٢) وقيل: حوالي ١٥٠ قبل الميلاد^(١).
- (٣) وقيل: ربما كان ذلك بين سنتي ٣٠٠ و ١٥٠ ق.م^(٢).
- (٤) وقيل: القرن الرابع قبل الميلاد^(٣).
- (٥) وقيل: القرن الرابع الميلادي^(٤).
- (٦) وقيل: القرن الخامس الميلادي^(٥)، وهذا من أغرب الأقوال، ولعل الذي جعله يقول بهذا القول أن قسماً من هذا الكتاب وُضع في القرن الخامس بعد المسيح^(٦).
- وقد علق باتنجلي على كتابه، كما ينسب إلى «پياس بن پراشر» وضع كتاب آخر عن تعاليم يوغا معروف باسم: يوغا بهاشيا (تعليقات على يوغا)، وهناك أيضاً: مهابهاشيا (التعليق الكبير) ثم هناك التعليق المسمى «بهوجا» / Bhoja / وضع في القرن الحادي عشر للميلاد، ثم توسعت في كثير من هذه المبادئ في العصور المتأخرة^(٧).
- مجمل فلسفة يوغا:**
- إن يوغا جهد منهجي للوصول إلى الكمال - كما يدعون - من خلال السيطرة على العناصر المختلفة للطبيعة الإنسانية، إنها توصل إلى التمييز بين الروح أو الفكر والمادة، بين الروح والطبيعة أو المادة^(٨) معتمدة على ما جاء في فلسفة سانكهيا السابق؛ فإن هذه
-
- (١) انظر ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢٦٢).
- (٢) انظر ما ذكره أ.ف. توملين: فلاسفة الشرق ص (٢٥٨).
- (٣) انظر ما ذكره علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٦١) مع شكه في صحة هذا التحديد.
- (٤) انظر ما ذكره الدكتور محمد غلاب: الفلسفة الشرقية (١٦٥).
- (٥) انظر ما ذكره الأستاذ روني إيلي ألفا: موسوعة أعلام الفلسفة (١/ ٢٠٨).
- (٦) انظر ما ذكره علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٤٤).
- (٧) المصدر السابق.
- (٨) انظر ما ذكره كرشنا ومور: الفكر الفلسفي الهندي ص (٥٤٣)، نقلاً عن الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، الفيدية، البراهمانية، الهندوسية ص (١٩٢).

الفلسفة تعتمد في كثير من أفكارها ومبادئها على فلسفة سانكهيا.

وعلى حد تعبيرهم يستطيع الإنسان بواسطة ممارسة اليوغا أن يحقق قوى تفوق الطاقة البشرية، والظاهر أنها أعمال سحرية كان يقوم بها أولئك الكهنة، لهذا لما ضعف أمر السحر ولم يتمكن السحرة من إتيان أعمال سحرية قوية تعذر كثير منهم بقولهم: إن الهدوء الروحي والفضيلة الأخلاقية أسمى من القوة السحرية التي هي عرضية بالنسبة للوصول إلى الهدف الحقيقي لحرية الروح^(١) - وهم يقولون: إن المادة هي أس الآلام والجهل؛ ومن ثم كانت غاية اليوغا أن تحرر الروح من كل ظواهر الحس وكل ارتباطات الجسد بشهواته؛ فهي محاولة لبلوغ الإنسان التنوير الأعلى والخلاص الأسمى في حياة واحدة - على حد تعبيرهم - بأن يكفر في وجود واحد عن كل الخطايا التي اقترفها في تجسيدات روحه الماضية كلها^(٢)، عبر فصل العقل عن الجسد، وإزاحة كل العوائق المادية عن الروح، وإذا نجح اليوغي في هذا، فإنه لا يتحد مع البرهمان فقط، بل يصبح هو البرهمان نفسه^(٣). - هكذا زعموا -.

متى يبدأ في ممارسة اليوغا؟

وقد صور الدكتور محمد إسماعيل الندوي هذا العمل تصويرًا دقيقًا؛ حيث يقول: «يدعو الكتاب - يقصد كتاب مُنُو سُمَرْتِي - الراغبين في اليوغا إلى ممارسة تجربة نفي الذات في المرحلة الثالثة (مرحلة الكهولة) من الحياة، حينما ينتهي الإنسان من أداء معظم واجباته الشخصية، وهو ينتهي قطعًا في هذه المرحلة من الزواج وإنجاب الأطفال، وأداء الطقوس والقرايين والواجبات الدينية والزكاة والصدقات كلها، وهنا يحتاج إلى التنسك والتبتل لنيل الخلود، ونعيمها بعد مفارقة الروح الجسد.

(١) المصدر السابق ص(٥٤٥).

(٢) انظر ما ذكره ول ديورانت: قصة الحضارة (٣/ ١/ ٢٦٣).

(٣) المصدر السابق.

قواعد يجب مراعاتها لليوغي:

حسب ما يذكر كتاب مُنُو سُمَرِتي: «فإنه يجب على اليوغي أن يغادر بيته وأهله وكل شيء يملكه متوجّهاً إلى غابة، هائماً على وجهه في وسط أدغالها وبين وحوشها ملتصقاً ظلاً يلتقط تحته أنفاسه، ويعيش معتكفاً ومتعاملاً ومستغرقاً، يعاني جميع أنواع التعب والمشقة لتنقية الروح وتحريرها من القيود الجسمانية ومعوقاتها في الوصول إلى الهدف المنشود، وهنا لن تكون له خيمة تظله ولا نار تعد الطعام له، ولا معيناً يعينه بل يكون وحيداً فريداً، بعيداً عن كل الشهوات واللذات ونعيم الدنيا وزخارفها، وإذا ضايقه الجوع يقوم ويتجه إلى أقرب قرية ليلتمس الطعام ويشبع به بطنه، ولا ينبغي له أبداً أثناء هذه التجارب أن يتمنى الموت أو يشتهي الحياة، بل يتوقف وينتظر بلوغ الهدف، شأنه في ذلك شأن كل موظف ينتظر مرتبه عند نهاية الشهر، إنه لن يخطو خطوة على بساط الأرض إلا على نور وضياء، ولا يشرب قطرة من الماء إلا بعد تصفيتها بغربال من القماش الغليظ، ولا ينطق بكلمة إلا أن تكون مصفاة، ونقية، ونابعة من أعماق القلب، وسيكون قلبه نزيهاً طاهراً صافياً، دائماً، ويمارس هنا تعاليم اليوغا التي تطهر القلوب وتزكي النفوس ويجلس ويتأمل ويستغرق في التفكير على طريقة اليوغا، ولا يجلس إلى جانبه أحد يساعده ويعينه في شؤونه، ويمتنع عن جميع الشهوات واللذات كلية، ولا يكون همه ورغبته إلا التحرر من القيود الجسمانية للوصول إلى البغية والمعرفة الحقيقية»^(١).

كيفية ممارسة يوغا:

ويذكرون في كيفية فصل كل العوائق المادية عن الروح: إن هناك خمس قوى تتصدى لها اليوغا، وتسعى إلى إيقافها؛ لأنها انفعالات تجعل الذات قلقة، ومتذبذبة، ولا تشعر بالرضا والاكتماء، ومن خلال وقف هذه القوى وما يكمن وراءها، يغدو الوعي صافياً، ويمكن التمييز بينه وبين المادة أو الطبيعة (پُرْكْرِيَّتِي)، وتمثل هذه القوى الخمس فيما يأتي:

- ١ - الجهل المتمثل في الافتقار إلى إدراك أن الذات تنتمي في نهاية المطاف إلى الروح (پوريش) وليس إلى المادة (پُزُكْرِيَتِي).
 - ٢ - الأنانية.
 - ٣ - الافتتان بالملذات.
 - ٤ - إزالة كراهة النفس للمكروهات.
 - ٥ - إزالة محبة الخلود في الدنيا، وإزالة الخوف من الموت.
- وللتخلص من هذه العوائق الخمسة، والوصول إلى الخلاص والتحرر، لابد من اتباع ثماني خطوات^(١):
- أولاً: الضوابط الأخلاقية أو الكوايح (ياما / Yama): وتشمل خمسة ضوابط:
- ١ - عدم أذى كل المخلوقات الحية وحبها حباً جماً.
 - ٢ - قول الحقيقة وتجنب مساوئ الكلام.
 - ٣ - الامتناع عن السرقة.
 - ٤ - عدم التعلق بالأشياء وفقدان الرغبة في الامتلاك.
 - ٥ - قتل الشهوة الجنسية والتزام العفة.
- ثانياً: الالتزامات الروحية (نياما / Niyama): وتشمل خمسة التزامات:
- ١ - النظافة أو النقاء الجسدي والذهني.
 - ٢ - الرضا بالمقسوم.
 - ٣ - الزهد.
 - ٤ - دراسة النصوص المقدسة.
 - ٥ - الإخلاص للإله.

(١) وقد ذكرت هذه الخطوات أيضاً في «غيتا» (٢٧-٢٨) (الفصل الخامس، السابع والعشرين والثامن والعشرين).

ثالثًا: الأوضاع (/أسان/ Asanas): وتعني أداء اليوغا جسديًا، والغرض منها إيقاف كل إحساس: وهي على أنواع، ولكن أفضلها كما ذكر «باتنجلي»:

الجلوس: جلسة اللوتس التي تتم بوضع القدم اليمنى على الفخذ اليسرى، والقدم اليسرى على الفخذ اليمنى، ويتصالب الذراعان بتشبيك اليدين بطريقة تجعل المرء يستطيع الإمساك بإبهامي القدمين، ثم خفض الرأس على الصدر بقصد التطلع إلى سرة البطن وتوجه النظر إلى طرف الأنف.

رابعًا: السيطرة على التنفس (بارانياما / Paranyama): وهي تعين صاحبها على نسيان كل شيء، وتساعد على رصانة العقل والتحرر من كافة الانطباعات الخارجية، ولها أساليب خاصة تعلم كيفية الشهيق، ثم حبس النفس، ثم الزفير البطيء، ومما تؤدي إليه هذه العملية القدرة على وقف التنفس لفترة طويلة، وبهذا يفرغ عقله من شواغله استعدادًا للخلاء القابل الذي يجب أن يسبق استغراق تفكيره في تأملاته، وفي الوقت نفسه قد يتعلم الإنسان بهذه الرياضة طريقة الحياة على الحد الأدنى من الهواء، فيستطيع أن يدفن نفسه في التراب أيامًا كثيرة دون أن يختنق^(١).

خامسًا: التجريد (برتيهاهارا / Pratyahara): وتعني انسحاب العقل تمامًا من عالم الحس، بحيث يسيطر العقل على جميع الحواس، ويباعد بين نفسه وبين كل المحسسات، وبذلك ينحصر في ذاته مجتمدًا كل ألوان النشاط الحسي.

سادسًا: تركيز الانتباه أو تثبيته حول موضوع واحد (دهارنا / Dharana): بمعنى حصر الفكر في شيء واحد فقط، وهم ينصحون أن يكون التركيز على أحد أعضاء الجسد الستة أو الأكوار الستة الجسدية وهي: الجزء الأسفل من العمود الفقري، العضو التناسلي، السرة، القلب، الحنجرة، الجبهة (أو ما بين الحاجبين).

سابعًا: التأمل الثابت في الشيء المتتقى دون أي تشويش عليه (دهيان): وذلك حتى

(١) هذا كذب، فلا بد من ترك الفراغ للتنفس، وهذه الادعاءات لا تستند إلى شيء، وقد وجد مثل هذه الخلوات لدى الصوفية، كما سيأتي بيانه.

تنمحي ثنائية الذات والموضوع في الوعي، ويواجه الوعي نفسه، ولا يصبح هناك أي شيء يعوق نور الروح (بوريش)، وطريقته: أن يبدأ بالجزء الأسفل من العمود الفقري، والتي تكمن فيها جميع القوى الجسدية، فعندما يتم تنشيط هذه القوة الروحية عن طريق الرياضة فإنها تتسامى إلى الأعلى مارة بجذور العضو التناسلي والسرة والقلب والحنجرة والجبهة أو ما بين الحاجبين، ثم ينتقل إلى الخطوة الثامنة.

والأحسن في هذه الحالة والحالة السابقة أن يركز تأمله في المقطع المقدس «أوم» A.U.M الذي سبقت الإشارة إليه في الكلام على الأوبانيشادات^(١)، كما يمكن التركيز على البرهمان أو على أي إله من الآلهة^(٢). أي: إذا أمكن الاستمرار والتسلسل في الحالة السادسة فلم ينقطع؛ فإنها توصل إلى الحالة السابعة^(٣).

ثامناً: الوعي الخالص المجرد عن أي تفكير (سمادهي / Samadhi): وهي المرحلة الأخيرة في اليوغا، ويصبح اليوغي فيها فارغاً في الداخل والخارج، وتتجلى روحه كروح حرة تمام الحرية، وتتوحد مع الروح المطلقة، ولا يعد للنفس أو الروح الفردية أي وجود (مثل الملح في ماء المحيط)، حيث إنها قد ذابت في محيط الوجود الأبدى، هذا هو الخلاص الحقيقي حسب فلسفة يوغا^(٤).

(١) حيث إنهم يرون هذه الكلمة أقدس المقدسات، ذات دلالة سحرية؛ ويعتقدون: أن الإله عند ما نطق الحرف A في مبدأ الوجود وقبل نشأة العالم وُجد الإله براهما الخالق. وعند نطق الحرف U وُجد الإله فُشِنُو الحافظ، وعند نطق الحرف M وُجد الإله شِينُفا المدمر، ولذا فإن هذه الحروف لها معان عدة عندهم، منها: الدلالة على وجود الثلاث الحاكم للعالم بأسره. انظر ما ذكره الدكتور عبد الرؤوف شلبي: آلهة في الأسواق ص (١٠٦). وهناك اختلاف شديد وآراء متباينة جداً في تفسير هذه الكلمة لدى الهندوس أنفسهم.

(٢) انظر ما ذكره دُرغا داش بَشُو شرشتي: هندو دهارمير شارته ص (١٣٢).

(٣) انظر المصدر السابق ص (١٣٣).

(٤) انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، القيدية، البراهمانية، الهندوسية ص (١٩٣-١٩٥).

هذه هي فلسفة يوغا الذي ألفه وإن شئت فقل ربّه وبوّبه باتنجلي، وقد تطورت هذه اليوغا حسب ممارستها، فقد تأثرت بعض الشيء لدى أصحاب البُرانات، حينما رأوا أن القدرة العظيمة الملتفة والمكورة الكائنة في أسفل الجسم اللطيف والتي يسمونها بالكونداليني (الكور/ سكر) والتي تستيقظ بفضل النفس فإنها تنشط ثم تصعد خلال طقوس التأمل تدريجيًا من مركزٍ إلى مركزٍ حتى تصل إلى قمة الجسد اللطيف حيث تتحد بالنفس الكونية (الروح/ أتمان)، وعِزُس الأتمان بالكونداليني والذي يشبه عرس شيقًا (أحد ثالوثهم) بعروسه فاريتي (زوجته) يحدث في الشخص انتقالًا كيميائيًا يوصف بعدها بأنه التحرر في الحياة (جيفان موكتا)، فهم بهذا جعلوا هذه العملية مثل القدرة الأثوية «شاكتي» باتحادها مع المبدأ الذكري (پوريش) أو أتمان متأثرًا بـ«فلسفة تنترا»^(١).

كما أن فيثيكانند^(٢) صاحب المذهب اليوغي المتأثر جدًا بفلسفة بهاكتي، وشري أوربندو^(٣) يدمج تعاليم باتنجلي بتعاليم شنكرأچاريا.

ويمكن القول: إنه منذ عشرة قرون تقريبًا نلاحظ أثر اليوغا على جميع الثقافات الهندوسية؛ فضلًا عن الاهتمام الذي يوليه كثير من الناس في العالم بأسره منذ مطلع القرن العشرين إلى الآن^(٤).

(١) سبق التعريف بهذه الفلسفة ص (٩٥).

(٢) هو فيلسوف هندوسي، من البنغال، اسمه الحقيقي نارندرنات، ولد في البنغال في عائلة أرستقراطية سنة ١٨٦٣م، كان غنوصيًا وبهاكتيا، له حياة حافلة بالأعمال الإصلاحية للهندوسية، مات سنة ١٩٠٢م، بعد أن أسس عدة أديرة في الهند للتبشير الهندوسي. انظر ترجمته فيما ذكره الأستاذ روني إيلي ألفا في موسوعة أعلام الفلسفة (٢/ ١٦٢-١٦٤).

(٣) هو سري أوربندو غهوس: (١٧٧٢-١٩٥٠م)، درس في سانت بول بانجلترا، ثم كامبردج، وانغمس في الحياة السياسية، لكنه تقاعد وعكف على التأمل في بوندشيري التي كانت في ذلك الوقت (١٩٠٩) خاضعة للحكم الفرنسي. ركز دائمًا على القيم الهندية في مواجهة القيم الإنجليزية، وتعتبر قصائده الأخيرة أعمالًا فذة. انظر ما ذكره المترجم كامل يوسف حسين في ترجمة كتاب «الفكر الشرقي القديم» ص (١٨٤).

(٤) انظر ما ذكره الدكتور علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٦١-٣٦٢).

إلا أنه لما تمكن الإسلام والنصرانية في الهند، اتجهت فلسفة يوغا مع احتفاظها بذاتيتها اتجاهاً آخر، حيث ركزوا على التعليم الديني، كما يتجلى ذلك مثلاً من خلال أعمال المعلمين الكبار المعاصرين أمثال: فيثيكاند، وأوربندو. ومع ذلك، ظلت يوغا أصيلة مستقلة، خصوصاً فيما يتعلق بتصورها لطبيعة الكائن البشري، وفيما يتعلق بالأسلوب الواجب انتهاجه للانتقال به انتقالاً جذرياً.

ومن الجدير بالذكر أن تجارب يوغا لم يزل يمارسها الرهبان التناك في الغابات والجبال على الطريقة نفسها للوصول إلى الغاية نفسها، ولكن أوربا قد أعجبت بها في القرن العشرين وبدأت تمارس الحياة اليوغية من الناحية الصحية والرياضية فقط، ونجد الآن في أوربا وفي كثير من بلدان آسيا وأفريقيا تأليف الكتب في اليوغا، ويتشوق إليها الناس، ويميلون إليها ميلاً شديداً، وكل ذلك كرياضة جسمانية فحسب، وليس هذا اليوغا هو صميم فلسفة يوغا كما سبق معنا في التعريف بـ«يوغا»، بل هو أحد أنواع يوغا^(١).

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة، حضاراتها ودياناتها ص (١١٠).

المطلب الثاني

راماين (RAMAYAN)

معنى راماين :

راماين كلمة مركبة من كلمتين: رام وهي اسم شخص، وأما اين فمعناها: سيرة^(١) فتكون معنى راماين: سيرة رام، أو التجارب التي خاضها رام^(٢).

التعريف بـ رام:

حسب المصادر الهندوسية: رام هو ابن دشرته من الأسرة المالكة «إيكشهوأكو» التي كانت تحكم دولة «أيودها/ أجودها»^(٣).

وهو شخص قد اختلف دوره، واختلف حاله عند الهندوس من فترة إلى فترة، فزعموا أولاً أنه كان ملكاً صالحاً، وكان عصره ذهبياً، إلا أنهم زعموا فيما بعد أنه تجسّد لإلههم فُشْتُو ونزل إلى الأرض واتخذ صورة رام في سبيل خير البشر.

(١) انظر ما ذكره هنغش نارايين بتراسارزا: بنغيء شبدكوش ص (١٩١٧). (معجم أصول الكلمات البنغالية).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور أورانج كاي رحمات : التفكير الديني في العالم قبل الإسلام ص (١٨٧).

(٣) هذه هي البلدة التي يقع فيها المسجد البابري التاريخي الذي يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادي. وقد قام المتطرفون من الهندوس بهدمه وأقاموا عليه معبد «رام» يوم الأحد ٦ ديسمبر عام ١٩٩٢م مما أدى إلى وقوع مصادمات عنيفة في أنحاء الهند راح ضحيتها آلاف من المسلمين، يعتقد الهندوس أن مكان المسجد البابري نفسه مكان ولادة رام. انظر ما ذكره الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٥٣).

التعريف بكتاب «راماين»:

يذكر بعض الكتاب: أنه كان بين القرن الثاني عشر والعاشر قبل الميلاد دولتان في شمال الهند؛ إحداهما في ولاية أترا براديش، وتحكمها أسرة «كوسالاً» وعاصمتها أيودهايا، والثانية في ولاية بيهار، وتحكمه أسرة من ملوك الآريين تسمى «قنديها»، وكانت عاصمتها بَنَتَه، وهذا الملك قد زوج ابنته «سيتا» لأحد أبطال أساطيرهم يسمى «رَام»، وهو الابن الأكبر للملك «دَشَرَتَه».

فكتاب راماين يحكي الأحداث التاريخية التي وقعت في تلك الفترة من الزمان، وقد صاغها نظماً أشهر الشعراء باللغة السنسكريتية؛ ولكن هذه الأشعار لم تدون في نفس الآونة، بل ظلت تحفظها صدور الناس، وتتناقلها الألسن. ومرت بمراحل عديدة عبر القرون واتخذت لوناً بديعاً في اللغة السنسكريتية في القرن الخامس قبل الميلاد^(١)، حتى وصلت الأبيات في الكتاب إلى أربعة وعشرين ألف بيت، (٢٤٠٠٠)^(٢).

يقول الدكتور الأعظمي: لم يكتب لهذا الكتاب انتشار واسع في العهود القديمة إلى أن جاء الشاعر الديني الهندي «تلسي داس» Tulsi Das (١٥٣٢-١٦٢٣ م)، فترجمه إلى اللغة الهندية في القرن السادس عشر الميلادي، في عهد جلال الدين أكبر المغولي، فانتشر في جميع القطاعات الهندية، وأقبل الناس على قراءته^(٣).

والكتاب له صيت ذائع وشهرة في بلاد الهند بل وخارج بلاد الهند مثل: إندونيسيا، وماليزيا، وبورما، وتايلاند، والتبت، وبعض الدول الهندو-صينية مثل كمبوديا، وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات، ووجد في كل قُطر منها ما يسمى بـ«راماين»، ولقد

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة ص (١٢٩-١٣٠).

(٢) ينظر أصل الكتاب (٢/٤)، وانظر مقدمة كتاب راماين ص (٦)، وانظر أيضاً ما ذكره كل من الدكتور محمد مرسي أبو الليل في كتابه: الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ص (٤٨)، والدكتور أورانج كاي رحمت في التفكير الديني قبل الإسلام ص (١٨٧).

(٣) انظر ما ذكره الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٥٥)، وانظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، الفيدية، البراهمانية، الهندوسية ص (١٢٨).

حَظِيَتْ هذه الترجمات عند الهندوس باحترام وإكبار ديني، لا يزال يملأ قلوبهم، وهم يقرءون رامين كنصوص دينية مقدسة.

هو يعرف في ماليزيا باسم «حكايات سري رام»، وصار شعر هذا الكتاب مصدرًا للقصص المسرحية في إندونيسيا وفي ماليزيا.

وقد نحتت بعض أحدث قصصه على جدران معبد أنكورفات Angkor Vat في كمبوديا^(١).

مؤلف رامين

هذا الكتاب لا يعرف له مؤلف على وجه التحديد، وقد اتفق غالبية الهندوس على نسبة هذا الكتاب إلى «بالميكى (BALMIKI)». ولكنهم اختلفوا في عصر المؤلف وزمان تأليفه:

فمرة قالوا: إنه كان في عهد «رام» وكان يسير معه، وأنه ساعده في محنته في الغابة، وقد نظم هذه الأبيات بعد عودة رام من منفاه إلى أيودها، وهذا ما يشير إليه كتاب رامين.

ومرة قالوا: إن «بالميكى» ألف «رامين» بعد قرون من عهد «رام»^(٢).

ويرى المحققون الغربيون: أن كتاب «رامين» ألفه رجال من أسرة «إكهشواكو» الملكية نظامًا، وكان هذا الكتاب يشتمل في البداية على اثني عشر ألف بيت، وكان المتسولون الهندوس يتغنون به عند السؤال، ويزيدون عليه قدر حاجتهم ومذاقهم^(٣).

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، الفيدية، البراهمانية، الهندوسية ص(١٢٨)، وانظر ما ذكره فيلسيان شالي: موجز تاريخ الأديان ص(٨٤).

(٢) وجمع بعضهم بين هذين القولين: بأن «رامين» في الأصل كان من تأليف بالميكى الموجود في زمان رام، ولكنه ليس هذا الكتاب الموجود الآن، فالذي كتب هذا الكتاب الموجود بين أيدينا من تصنيفات بالميكى آخر متأخر عن الوقائع.

(٣) انظر ما ذكره الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٥٥).

حتى زادت عدد أبياته إلى أن بلغت ٢٤٠٠٠ أربعة وعشرين ألف بيت.

وأما ما ذكره غوستاف لوبون: بأن الهندوس يعتقدون: أن إلههم فِشْنُو هو واضعها^(١)، فلم أقف على من ذكر هذا القول من الهندوس.

زمن تأليف الكتاب ومؤلفه:

لم يتفق علماء الهندوس على زمن تصنيف «راماين».

فمنهم من يقول: إن تاريخ كتابة راماين غير معروف^(٢).

ومنهم من يقول: إنه ألف بعد الفيدات بقليل^(٣).

ومنهم من يرى: أن راماين ظهر في القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً، وتناقلته الألسن من جيل إلى جيل حتى اتخذ الصورة الحالية في القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد^(٤).

ومنهم من ادعى: أنه ألف بين ٥٠٠-٢٠٠ ق م^(٥).

وقيل: يرجع تأليفه إلى سنة ٤٠٠ ق.م^(٦).

وقيل: ربما يكون كتابته في القرن الثالث قبل الميلاد^(٧).

(١) انظر ما ذكره غوستاف لوبون : حضارات الهند ص(٤٦١).

(٢) انظر ما ذكره فيلسيان شالي : موجز تاريخ الأديان ص(٨٠-٨١).

(٣) انظر ما ذكره الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٥٥).

(٤) انظر ما ذكره روميش س. دوت: The Ramayana and Mahapharata ص(١٦٩).

وما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي في مقالته بمجلة «تراث الإنسانية» ، عدد أغسطس، ١٩٦٤، بعنوان: الراماينا.

(٥) انظر ما ذكره الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٥٥).

(٦) انظر ما ذكره الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني : في العقائد والأديان ص(١٤٦)، وانظر

مقدمة كتاب راماين، للعالم الهندوسي: راج شيخور بشو.

(٧) انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، الفيدية، البراهمانية، الهندوسية ص(١٢٨).

وقيل: إنه جمع حوالي عام ٢٠٠ ق.م أو ٢٠٠ بعد المسيح^(١).

ولكن الذي يظهر: أن هذا الكتاب مر بمراحل عديدة عبر القرون، واتخذ هذا اللون في القرن الخامس قبل الميلاد^(٢).

قصة رامين باختصار:

كان لـ «دشرتة» ملك «أيودها» له ثلاث زوجات رئيسات، وثلاثمائة واثنين وخمسين من الزوجات اللواتي هن دون أولئك، إلا أنه لم يرزق بولد ذكر يخلفه في الملك، فاستشار ندماءه في تقديم القرбан الذي يسمى «أشفاميده» وهي عبارة عن تقديم حصان على صفة معينة وعلى هيئة معينة قرباناً للآلهة، وعند تقديمه لهذا القرбан خرج من النار جسد يحمل نوعاً من الأطعمة الهندية المصنوعة من الأرز مع الحليب والسكر - تسمى «فاهيش»، ويوجه حديثه للملك قائلاً: «خذ هذا، ووزعه على زوجاتك؛ فقد أرسلني «براهما» بهذه الهدية القيمة» نفذ الملك ما طلب منه، وتحققت البشرية، فأنجب الملك أربعة أبناء ذكور، أكبرهم رام، الذي أنجبته الملكة «كوسالا»، والابن الثاني يسمى «بهرت» أنجبه الملك من زوجته الأخرى تسمى «كايكي»، أما الابن الثالث فيدعى «لكهشمن»، والابن الرابع يدعى: «شتروغنا»، وهما توأم، من زوجته «سوميتر»، وكان الإخوة الأربعة متحابين يتفانون في خدمة أبيهم.

وكان هناك مملكة أخرى هي مملكة «فيديه»، وكان يحكمها الملك «جاناك»، وقد كان «يسوق المحراث ويحرث الأرض» بنفسه، وذات يوم حين أراد حرث مزارعه خرجت من مجرى المحراث من الأرض شابة جميلة بالغة الرقة والجمال، هي «سيتا»، فاتخذها بنتاً له، ولما حان وقت زواجها أعلن «جاناك» أن من يستطيع أن يقوم اعوجاج قوسه الذي يقابل به، كانت «سيتا» عروسة له؛ وزار الأمير رام «جاناك» مع أستاذه «بشامترا»، وبعد أن دار الكلام بينهما طلب رام قائلاً «أروني هذا القوس العجيب».

(١) انظر ما ذكره الدكتور أورانج كاي رحمت: التفكير الديني قبل الإسلام ص (١٨٦).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص (١٢٩).

وجاء الحراس بالقوس الضخم محمولاً على عربةٍ حديدية كبيرة ذات ثمانى عجلات، فقام رام في ثقة وثبات، ورفع يديه غطاء العربة الثقيل، وأمسك بالقوس ورفع عالياً، وفي قوة هائلة جذب وتره فانثنى القوس حتى انكسر قطعتين بين إعجاب الجمهور وصيحاته. وألقى الملك جاناك كلمة على الحاضرين معلناً قبول رام زوجاً لابنته سيتا. ولم يقتصر الزواج على رام وسيتا، بل شمل سائر إخوة رام؛ حيث تزوج الأمير لكهشمن من الأميرة «أورميلا» رائعة الجمال، والأمير «بهرت» من الأميرة «مندافي»، والأمير «شتروغنا» من الأميرة «سروتاكيرتي»، والأميرتان الأخيرتان هما ابنتا شقيق الملك جاناك؛ وكان الأمير بهرت إذ ذاك عند أخوالهم.

وبعد فترة قصيرة رأى الملك «دشرتة» أنه قد وصل لسن الشيخوخة، فعقد العزم على اختيار ولي العهد ووقع الاختيار على رام الابن الأكبر إلا أن الملكة كايكي أم الأمير بهرت التي كانت أحب إلى الملك لجمالها الباهر، والتي ساعدته في إحدى الحروب، وكان قد منح لها الملك وعداً، وبموجب هذا الوعد طلبت من الملك أن يجعل ابنه «بهرت» بدلاً من رام ملكاً على البلاد، وأن يعيش رام منفياً أربعة عشر عاماً في وسط الغابات مرتدياً جلد الحيوانات، فلما سمع رام بذلك خرج إلى المنفى، وخرج معه زوجته الوفية «سيتا»، وأحد إخوته «لكهشمن».

واستقر رام وزوجته وأخوه أخيراً وسط غابات «بانشافاتي» بجوار نهر «جوداوري» بجنوب الهند، وعلى مقربة مائة ميل تقريباً من مدينة بومباي.

وكان يسكن غابة «دندك» التي اختارها مقرّاً لعزلته جن وغيلان خياليون، وغدت «سوربن كهّا» أخت راوَن ملك «راكهشا» عاشقةً لرام الجميل فرأت أن سيتا تحول دون التنفيذ فحاولت «سوربن كهّا» افتراسها فأمر رام أخاه لكهشمن بدحرها، فجدع لكهشمن أنفها وقطع أذنيها، فعزمت «سوربن كهّا» على الانتقام حتى عادت مع أربعة عشر ألف عفريت فهزم رام جميع هؤلاء بنباله السحرية فغضبت «سوربن كهّا» من قهرها فطارت إلى سيلان، فطلبت العون من أخيها راوَن (الملك ذي الوجوه العشرة والعشرين ذراعاً) لكي يخطف سيتا، بعد أن حسنت له أنها لا تصلح إلا له، وأن «سوربن كهّا» إنما تريدها

له، فلهذا وقع ما وقع من المصائب عليها، فجاب راوَن الهواء فوق مركبةٍ سحريةٍ وجدَّ في أخذ سينا لجمالها، حتى دخل عليها راوَن متنكرًا بزي أحد الزهاد وجرها معه فوق مركبةٍ سحريةٍ، حتى وصل إلى «لانكا».

وعند ما عاد رام ولكهشمن، لم يجدا سينا؛ ولم يعرفا مكانها، فبدءا في البحث عن راوَن وسينا، وأخيرًا تمكن «هانومان»^(١) من اكتشاف سينا سجينَةً في جزيرة سيلان.

وتذكر القصة : أنه لما كانت سيلان جزيرة تنفصل عن الهند بمضيق بحري واسع فإن هانومان قد قفز في الهواء قفزة كبيرة حتى نزل إلى الجزيرة وتمكن من الوصول إلى سينا، وأبلغها رسالة من رام، وحمل معه رسالة منها إلى رام، ثم ذهب رام ولكهشمن وهانومان على رأس الجيش حتى وصلوا إلى الشاطئ في مواجهة جزيرة الشياطين.

ولما شاهدتهم الشياطين ملأهم الرعب، وجمع راوَن مستشاريه للبحث في الأمر، ونهض شقيق راوَن الأصغر، واسمه «بِيَهَيْشَن» يطالب بتنحية أخيه، وتسليم سينا إلى زوجها؛ ليحل السلام محل الحرب.

وثار راوَن لموقف أخيه الأصغر وكاد يفتك به لولا أنه هرب مع أربعة من قواده، وأقسم على الانتقام منه، وقفز إلى الشاطئ الذي يقف عليه رام وجيشه، فأخبره بقصته، وعرض عليه المساعدة، واقترح عليه إقامة قنطرة من الأشجار والصخور تعبر عليها قوات الجيش البحر إلى جزيرة الشياطين واقتنع رام بالفكرة، وعبر الجيش بسلامة وعافية في جنح الظلام، ودخل في معركةٍ عنيفةٍ مع الشياطين.

وقد جرح رام ولكهشمن مرتين في هذه المعارك من السهام المسمومة العائمة من قبل ابن راوَن المسمى بـ «إِنْدَرَجِيْث» حتى كادت أن تودي بحياتهما لولا أن «هانومان» يعرف وجود نبات سحري فوق جبل «كيلاس» قادر على شفاء رام، ففوّض إلى

(١) هانومان حسب مصادرهم : ابن الهواء - المسمى بالفايو عندهم - وله قصة مستقلة، حيث إنه لم يعرف نفسه في أول الأمر، ولما أخبره بعضهم عن نفسه بأنه ابن الإله انتبه عن غفلته وفعل الأفاعيل وصنع الأعاجيب. وحتى الآن يقدر الهندوس هانومان ويعلقون صورته في كل مكان، وهي عبارة عن صورة رجل له وجه قرد.

«هانومان» أن يأتي بشيء منه، فلم يضع ذلك القرد الوقت في البحث عن ذلك النبات، فقد اقتلع الجبل ورجع حاملاً إياه على ظهره، فشفي كل منهما.

وقد أراد راوَن الانتقام من رام، فعزم على مبارزته، ودخل الاثنان في نزال عنيف، حتى كاد رام أن يسقط لولا أنه جمع قوته كلها في رمية واحدةٍ بسهم مسحور من قوسه، فأخذ السهم طريقه سريعاً إلى قلب راوَن فقتله في حين غفلةٍ من راوَن^(١).

وتصف القصة أن الآلهة كانوا مع رام، في هذه الحرب يساعدونه ويشدون أزره، ويشجعونه، ولذلك انتصر رام على راوَن الشرير، ثم أمر رام بإحراق جثة راوَن، فوضعت أكوام من الخشب والصندل والزيت والبخور عليها، وأشعلت النيران فيها حتى تحولت جثته إلى رمادٍ.

وأصدر رام أوامره بالصفح عمن بقي من الشياطين، بشرط أن يحكمهم بيهيشن - أخو راوَن المحالف له - ويمنعهم عن الخروج من المكان الذي يعيشون فيه إلى أماكن أخرى.

هنالك ركب البطل رام مع سيتا مركبةً سحريةً، لكي ترجع إلى أيودها، وبهذا رجع المنتصرون إلى الوطن، وكانت أنباء الانتصار قد سبقتهم إلى هناك بواسطة هانومان، فخرجت أيودها كلها وعلى رأسها بهرت شقيق رام، الذي رفض طيلة الأربع عشرة سنة الماضية أن يجلس على العرش الذي يستحقه رام، وظل محتفظاً لـ«رام» بالعرش، واضعاً فوقه حذاء رام، وعند حضوره وضع تاج الملك بنفسه على رأس رام، بل وألبسه حذاءه في قدميه.

وقد عادت سيتا معه بعد أن أثبتت عفثها وإخلاصها لزوجها، وأن راوَن لم يتمكن من نيلها طوال مدة الأسر، وذلك بتحكيم النار؛ حيث أُضرمَت نار هائلة، وخطت «سيتا» مرفوعة الرأس داخلها، حتى اختفت وسط الحطب المشتعل، ثم خرجت منها دون أن تمسها النار بسوء كعلامة على طهارتها وعفثها؛ إذ حفظها إله النار في زعمهم؛ لأنها

(١) ولا يزال الهندوس يحتفلون بعيد انتصار رام على راوَن ملك الراكشهاش.

لم تدنس شرف رام أبداً، ولكن رغم ذلك لم تسكن ألسن أهل المملكة عن كون سيتا عاشت في قصر راوَن، وأنه ليس من المستبعد أن يكون قد نالها، وتحت ضغط الشعب ابتعدت سيتا لكي تعيش حياة النسك والتعبد في منسك «بالميكى»، وهناك ولدت توأماً هما «لافا» و«كوسا»، وقد حضر تلك الليلة هناك «شتروغنا» أخو رام مصادفةً، وعرف أمر الولادة، ولكنه لم يعرف بنفسه، وقد تعهدهما «بالميكى» الذي يعزى إليه كتابة هذا الكتاب بالرعاية والتوجيه.

وفي يوم ما أقام رام احتفالاً دينياً عظيماً يسمى «قربان أشفامَيْذَه» حضره ملوك وأمرأء بلدان الهند، وحضر الناسك «بالميكى» هذا الاحتفال، ومعه لافا وكوسا، وقد قام الاثنان بإنشاد ملحمة «راماين» التي تروي أعمال رام، وكانا قد تعلمها من «بالميكى»، وهنا عرف «رام» ولديه، وهفا قلبه إلى أمهما سيتا، وطلب من «بالميكى» إحضارها لكي تثبت براءتها مجدداً بالمرور في النار المقدسة أمام أهل المملكة، حتى يمكنها أن تعيش بجوارها بعد رضا أهل المملكة، وقد رضيت سيتا، بذلك، وعاد «بالميكى» بها إلى رام، إلا أنها كان قد فاض بها الحزن من جراء ما تعرضت له من شكوك، وابتھلت إلى الأرض الأم^(١) حتى تستعيدها مرة أخرى، فاستجابت الأرض الأم إلى توسلاتها، وانشقت حتى ضمتها إلى كفنها.

وتعتقد الهندوس أنها تعيش تحت الأرض مع الأفاعي والحيات - والتي يسمونها بال«ناغ»، وصارت سيتا من الإلهات المقدسة لديهم كمثال لوفاء الزوجة وإخلاصها وطهرها وتضحيتها من أجل زوجها.

وتأسف رام لما حصل، ولكنه صبر لما بشره بعض الآلهة بأنها ستكون له في المرة القادمة^(٢).

(١) لأنها خرجت من الأرض وليست لها أم، ثم إن الأرض معبودة لدى كل هندوسي، وهي بمثابة الأم والسماء بمثابة الأب كما يصورون.

(٢) انظر الترجمة الكاملة البنغالية لكتاب «راماين»، وقد استعنت في ترجمة بعض الفقرات من بعض الكتب التي تنقل بعض فقرات الكتاب ومحتوياته مثل كتاب «غوستاف لوبون» حضارات =

وكما تصف القصة: أن رام حكم البلاد بالعدل حتى ضرب به المثل في الأدب الهندي في عدالة الحكم، وكان «غاندي» من كبار الدعاة لإعادة هذا الحكم إلى الهند وهو يسميه رام راج، أي دولة رام أو نظام حكم «رام».

هكذا انتهت قصة «راماين» المقدسة لديهم، وينبغي التأكيد مجددًا على أنها ليست مجرد قصة تُروى، وإنما هي كتاب مقدس يستمد منه الهندوس عقائدهم وسلوكهم وأفكارهم الدينية؛ فرام إله يجسد الألوهية، وهو تجسيد للإله «فِشنو» فهو التجسيد السابع له بين عشر تجسيدات أخرى رئيسة، ولا يزال يقرأ الهندوس «راماين» كما يقرأ المسلمون القرآن، وكما يقرأ المسيحيون الأناجيل، تبعًا ورغبةً في الثواب الإلهي، فيعتقد الهندوس أن قراءتها حتى ولو كانت قراءة سطر واحد تخلص القارئ من الذنوب كلها، وأن قارئها يرزق ولدًا حتى ولو كان عقيمًا، ويعطى له من الثراء ما يجعله غنيًا، ويزيد في عمره، ويعيش في هناء وسعادة، كما أن قراءتها في الصباح والمساء سبب لذهاب الهم والغم^(١).

مقاصد الكتاب:

اختلفت الأنظار حول مقاصد هذا الكتاب، ما ذا قصد واضعوه بوضعه؟ فمن قائل: إن هذه القصة تشير إلى أمر مهم جدًّا وهو الحرب بين الخير والشر^(٢)، فمعركة الخير والشر التي وقعت منذ وجود آدم تظهر بقوة وبشكل روائي في هذا الكتاب. لذا انتشرت هذه الرواية القصصية في أنحاء الهند من قبل الميلاد ولا تزال هذه الرواية تأخذ مكانة عظيمة في قلوب الهندوس.

ومن قائل: إن هذا الكتاب وضع ليكون نموذجًا مثاليًا للآري الهندي في تنظيم

= الهند، ص(٤٦٠-٤٦٢)، ومن كتاب الدكتور محمد إسماعيل الندوي «الهند القديمة ص(١٣٠-١٣٢)، ومن كتاب الدكتور محمد عثمان الخشت «مقارنة الأديان ص(١٤٠-١٤٤).

(١) انظر راماين، أثر كهاند، (١١١/٣٦).

(٢) انظر ما ذكره غوستاف لوبون: حضارات الهند ص(٤٦١).

الأسرة، وكيف ينبغي أن يكون الملك مع رعيته وشعبه، والرجل في أسرته، والأخ مع إخوانه الصغار والكبار، والأمهات مع أولادهن، والزوجة مع الزوج، وكيف يدخل فيهم بعض الأحيان ما يعكس صفو الأسرة وكيفية معالجة هذه المشاكل^(١).

ومن قائل: إن هذا الكتاب من مقاصده الكبرى إثبات تفوق الفرقة الفِشنوية على الفرق الأخرى، وبالأخص على الفرقة الشيفائية^(٢).

وقيل: إن مؤلفي هذا الكتاب كانوا يقصدون به جمع الشتات من العقائد المنتشرة بين الناس على صعيد واحد، ليكون لجميع الناس في حياتهم الاجتماعية والسياسية والدينية إلى حد ما^(٣).

وقيل: إن الكتاب كان موضوعاً في الأصل لصرف الناس عن الأديان البوذية والجينية التي انتشرت قبل هذا بفضل كون هاتين الديانتين لا تمنعان الناس من قراءة كتبهما، وعدم حكر كهنوت العلوم الدينية للبراهمة فقط، ولما رأى الناس انفتاحاً في تينك الديانتين كادوا ينضمون إليهما، فوضع أكابرهم هذه المجموعات من الكتب التي تسمى بـ «إتيهاسا» والتي من ضمنها «راماين» و«مهابهارت» الآتية الذكر، حتى تكون لجميع الطبقات، ويفرحوا بذلك ولا يرددوا عن دينهم الأصلي.

وقيل: إن الكتاب كان موضوعاً أصلاً لإظهار فوقية الطبقة الكهشترية على البراهمة في الحصول على التجسيدات الإلهية؛ حيث أن «رام» صاحب راماين، و«كرشنا» صاحب مهابهارت، كانا من طائفة الكهشترية، وإن كان فيهما ما يدل على أن البراهمة من الطبقات المحترمة العليا، وأن بعضاً من الكهشترية كان يتمنى أن يصل إلى منزلة البرهمي بكل ما أوتي له من سبل.

وقيل: إن من أكبر مقاصد الكتاب إثبات تناسخ الأرواح وترسيخها في قلوب القارئ بأسلوب شيق وغير مباشر.

(١) انظر ما ذكره صاحب كتاب «أخنده هندو شاسترا في مقدمة الكلام عن راماين، ص (٥).

(٢) راجع ما ذكره الشيخ محمد رياض موسى: الهندوسية ص (١٦).

(٣) راجع المصدر السابق.

وقيل: إن من أكبر مقاصد هذا الكتاب توطيد العلاقة بين الآريين والدرأويدين، حتى يكون الآريون الغزاة على سلامة منهم، من باب تبادل الحب والوثام بين الأديان فأخذ الآريون من هؤلاء السكان الأصليين عقيدة التجسيد والتناسخ حتى يقبل كل فئة منهم هذه العقيدة بدون مخالفة، يقول الدكتور محمد إسماعيل الندوي: «وكذلك تذكر هذه القصيدة الشعرية أول اتصال الآريين بسكان جنوب الهند وتوغلهم إلى أقصى حدود الجنوب حتى تم استيلاؤهم على جزيرة سيلان - سريلانكا - وبهذا اتصل الفكر الآري والدرأويدي في الجنوب لأول مرة بهذه الروح السمحة والتعاون المتبادل والمواساة والمساعدة، ولعل هذا هو السر في أن سكان الجنوب اعتبروه بطلاً من أبطالهم وأضافوا عليه صفات الألوهية، وعرضوه في صورة إلههم المختار عندهم وهو «فِشنُو» ذلك الذي تجسد فيه وفق عقيدتهم»^(١).

وقيل: لما كان من طبيعة الهندوس تمثيل المعاني في صور حسية، لعدم قدرتهم على تعمق المعاني العليا وإدراكها، أو لتيسير فهم هذه المعاني على الآخرين - ذهبوا إلى أن الإله يحل في صورة مادية، يتخذونها معبودات لهم، ويقدمونها تقديسهم الإله نفسه، وغالباً ما ينسى الناس الأصل، ويتجهون إلى الرمز، وعلى هذا: تحول (رام) إلى إله معبود، بعد أن حل فيه (فِشنُو)، فكان رام نموذج الأرستقراطية الزمنية، أميراً تنزهه عن العيوب، كما كان معبوداً للزراع، وممثل وظيفة الإخصاب السماوية، على حين كانت زوجته «سيتا» تمثل الأرض المنتجة. وإذا كان راماً تجسيدا لـ فِشنُو فإن «سيتا» تجسيد لكشهمي قرينة فِشنُو. وعلى هذا تكون القصة بأكملها ما هي إلا تمثيل المعاني في صور حسية لتيسير المعاني، أو لإدراك المعاني العليا والتعمق فيها بالأمثال^(٢).

ويبدو لي أن كل هذه المقاصد موجودة في كتاب رامايين؛ فالصحيح أن الذي ألفه

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة ص (١٣٢).

(٢) راجع ما ذكره الدكتور كامل سفعان في موسوعة الأديان القديمة، معتقدات آسيوية، (العراق، فارس، الهند، الصين، اليابان) ص (٢١٩)، وقد أحال على كتاب أساطير العالم القديم ص (٢٥٦ / ٢٦٠)، ولم أطلع عليه.

عديد من الناس، ولهم وجهات مختلفة، ولكنها لا تخلو عن هذه المقاصد التي ذكرت، كما يبدو لي أيضاً أنه كان هناك منافسة بين فريقين من البراهمة في إظهار تفوقهم، ولهذا انتحل كل منهم سيرة راما؛ فهناك براهمة أصلاً، وهناك براهمة تعلماً وتعليماً، فمن الفئة الأولى الريشي فاشستا، ومن الفئة الثانية الريشي «شفامترا»، وكتاب رامامين هذا المنسوب إلى بالميكي فيه إظهار لتفوق الريشي «شفامترا» الذي كان كهشترياً ثم أصبح برهمياً، بينما بقي الريشي الآخر المعروف بـ«فاشستا» بدون ذكر له يُذكر، فلهذا نراه واضحاً في كتاب «يوغا فاشستا» - الآتي الذكر -، حيث جاء بـ«رام» هذا مرة أخرى وجعله بطلاً في الممارسات اليوغية، فلا ندري أي القصتين نصدق؟ هل نصدق رام كـ«محارب» كما صوره شفا مترا هنا، أم نصدقه كـ«يوغي» كما صوره بشستا في «يوغا بشستا».

على كل حال: فإن الكتاب يعدُّ من الكتب الشعبية التي تحظى بأعظم تقديس واحترام لدى جماهير الهندوس، وقد ترك أثراً قوياً في نفوسهم، واحتل مكان الصدارة بين غيرها من كتب القصائد الشعرية.

مواضيع الكتاب:

اشتمل هذا الكتاب على مواضيع كثيرة، يمكن تصنيفها كالتالي :

أولاً: في الأمور العقدية:

١ - أن القرايين ترضي الآلهة، وأن الآلهة تعطي لأجل القرايين ما لا تعطي بغيرها^(١)، فإن الملك «دشرتة» لم يحصل له أي أولاد ذكور، ولهذا قدم القرايين حتى يحصل له أولاد ذكور، وقد حصل له بالفعل ما أراد، كما يقولون.

٢ - إن بعض القرايين تغفر جميع الذنوب مثل «قربان أشفاميد»^(٢).

(١) انظر كتاب رامامين: بال كاند، الفصل الخامس، (٨-١٠).

(٢) كتاب رامامين، بال كاند، الفصل السابع، (١٤-١٧).

- ٣- أن بعض الآلهة يقبل التجسيد لأجل مصلحة الخلق.
- ٤- أن بعض الآلهة تزني، وبعضها الآخر تحمي الزناة.
- ٥- أن بعض الآلهة تسرق، والبعض الآخر تحمي السارقين.
- ٦- أن الآلهة في بعض الأحيان تخاف من بعض المخلوقات، وتختفي في أماكن لا يمكن الاطلاع عليها.
- ٧- لو عزم بعض الآلهة على شيء ما وفيه مفسد عظيمة فإن الآلهة الأخرى لا تستطيع رده مهما بلغت المصائب.
- ٨- أن الآلهة تنزل من الجنة وتفعل الأفاعيل المنكرة إذا خافت على الرياضات الشاقة، والعبادات الكثيرة، من بعض المخلوقات، فإنه حينئذ يخاف على نفسه منه، ويخاف أن تذهب سلطته بيده، فقد جاء في بعض قصص راميين، أن إنذرًا وبعض الآلهة الأخرى كانوا يخافون من بعض العباد في الدنيا، فكانوا يكيدون لهم على الدوام، كما خاف بعض الآلهة من راوَن من رياضاته الشاقة، ولكنه لم يستطع أن يفعل ضده شيئًا، بل أقنع فُشْنُو على النزول في صورة البشر.
- ٩- أن اللعن والدعاء على أحدٍ من الأمور المذكورة عمومًا في هذه القصة، فترى بعض عبادهم يلعن البعض الآخر لأتفه الأسباب. وفي أغلب الأماكن ظهر التخلص من اللعن والدعاء عليه عن طريق التناسخ (الولادة الثانية).
- ١٠- أن الجنة يخرج منها الناس إذا انتهت حسناتهم.
- ١١- تحول إنذرًا (بطل الآلهة في القيثادات) إلى مقهور، غير مرغوب، ضعيف مستضعف

ثانيًا: الأمور الشرعية :

- ١- إهداء البنت لشخص آخر، وجعلها بنتًا لآخر مع وجود الوالد على قيد الحياة،

فإن الملك دشرته قد أعطى بنته «شانتا» للملك «رومباد»، حيث طلب الملك رومباد من صديقه دشرته أن يعطي له بنته الوحيدة، فأعطى له كبت له، وبقيت عنده حتى زوجها الملك رومباد براهب جوال^(١).

٢- التشاؤم من بعض الأصوات والأشياء^(٢).

٣- تسمية الأولاد تكون في اليوم الحادي عشر من الولادة^(٣).

٤- الخير كله في الآرين، وأما غير الآرين فلا خير فيهم، فإذا حصل لأحد من غير الآرين أي خير فإنما هو لصحبة الآرين أو للتعاون معهم، وأما الآريون الذين لديهم بعض الشر، فإنهم يوصفون بأنهم غير آرين.

ثالثاً : الأمور السياسية :

١- توجد فيه الأفكار السياسية (الدستورية) للحياة، فقد تحدث الكتاب عن تكوين مجالس الشورى، حيث ذكر فيه أن «دشرت» والد رام، كان له مجلس شورى، يضم فيه أعضاء كثيرة من القواد والرهبان، وكان لا ينفرد برأي في الأمور العامة.

٢- ويتحدث عن طرق اختيار الملوك وولاية العهود. فمن هذا على سبيل المثال ما جاء في خطبة «دشرت» عندما أراد تعيين ولي عهده بقوله:

«اخترتموني ملكاً عليكم، وقد بذلتُ كل جهدي في القيام بواجباتي نحوكم، وقد بلغت من الكبر عتياً، ويحتم عليّ واجبي أن أصرحكم بأن أعباء الملك فوق مقدرتي الآن، وأراني أضعف من أن أتحملها، وهذه الأعباء تحتاج إلى رجل أقوى مني جسداً وعقلاً، وإنكم لتعرفون رام ابني، ولا تخفى عليكم مزاياه التي تؤهله ليكون ولي عهدي، وينوب عني في الحكم ما دمتُ حيّاً، ويخلفني بعدي، ويخدم شعبه كأبيه، هذا رأيي أنا،

(١) رامين، كاند بال، الفصل السابع، (١٤-١٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) رامين، كاند بال، الفصل الثامن، فقرة (١٨-٢١).

ولكم الحرية التامة في قبوله أو رده، فإن قبلتموه فذلك ما أريد، وإن رفضتموه واخترتم رجلاً غيره فإني أنزل على إرادتكم، وأقبل قراركم بطيب نفس، لأن غايتكم وغايتي واحدة، هي خدمة الشعب وخير البلاد^(١).

٣- ويتحدث عن واجبات الملك، فمن ذلك مثلاً وصية الملك «دشرت» لابنه رام عندما أراد تنصيبه ملكاً حيث قال:

«لقد وقع اختيار مجلس الشعب عليك لتكون ولي عهدي ونائبي في الحكم، وخلفي في الملك بعد مماتي، وبما أنك أكبر أولادي من زوجتي الأولى، التي هي كفاء لي في العز والمجد، فأنت أحق أولادي بالشرف الذي رآك المجلس أهلاً له، ومزايك المعروفة جعلتك خليفاً لتخدم شعبك، فعليك أن تخفض جناحك لرعيتك، وتسهر لراحته ورفاهيتها، وتعديل في الحكم وتنصف سائر الناس، وليكون الصغير والكبير سواء عندك في الحكم، ولا تؤثرن نفسك على المصالح العامة، ولا تخلدن للراحة والتمتع بلذائذ الحياة، وليكن همك الوحيد رضا الشعب وهناءه، فالملك يجب أن يكون محبوباً لدى شعبه، محموداً في سيرته، وأشقى الناس وأنحسهم الملك الذي تمقته رعيته؛ لأن من يمقته المخلوقات يمقته الإله»^(٢).

٤- وفيه واجبات مجلس الشورى وسلوك أعضائها، فمن ذلك مثلاً:

قول الملك دشرت: «إن خير التحكيم ما كان من انحياز من قبل المتوسطين»^(٣).
وهكذا قول رام بعد قول أبيه: «لا يوجد العدل إلا بالصدق ويجب أن يكون محضاً صريحاً لا تشوبه شائبة من الكذب والباطل، وأعضاء هذا المجلس الذين يعرفون الحق ثم يظلون ساكتين هم أكثر الكاذبين شراً، والذين يسكتون عن الحق نظراً لمصالحهم الذاتية أو خوفاً من نقمة الأقوياء هم المجرمون الذين يدخلون في نار الجحيم»^(٤).

(١) رامين، كاند أيودها، الفصل الأول، فقرة (١-٢).

(٢) المصدر السابق فقرة (٣).

(٣) المصدر السابق فقرة (٣).

(٤) المصدر السابق فقرة (٣).

٥ - وقول «رام» لأخيه بهرت لما رآه منكسراً :

إذا حصل النزاع بين الرعية، فهل مستشاروك يقومون بينهم بالإنصاف دون التفريق بين الفقراء والأغنياء؟، اعلم أن ما يخرج من الدموع من أعين المظلومين فإنها تخرب أموال الملوك المترفين وأولادهم^(١).

نقد الكتاب :

ينتقد هذا الكتاب من نواح عدة :

من الناحية التاريخية :

أ - عدم صحة هذه القصة من الناحية التاريخية :

١ - شكك كثيرون في وجود رام تاريخياً :

❖ يقول مهاتما غاندي: رام الذي كتب عنه بالميكى ليس له وجود في أرض الهند^(٢)، ويقول: إن رام الذي أقصده ليس رام صاحب رامين^(٣)، ولم يذكر لنا مهاتما غاندي أي رام الذي يقصده ويعبده ونادى باسمه عند موته، حيث لم يأت رام في كتبهم المقدسة الأخرى كمعبود إلا في رامين، فكيف يعبد رام وهو عنده غير ما ذكر في رامين، وما هذا إلا تناقض منه، أو أنه أراد بهذا العمل مجاملة الفرق المنحطة؛ لأن رام غير مرغوب لديهم لقتله «شنبوك» الرجل الشودري الذي لم يكن من ذنبه إلا التخلي للعبادة، وعدم خدمته للبراهمة.

(١) رامين، كاند أيودهايا، الفصل الرابع والعشرين (٩٣-٩٩).

(٢) انظر كتابه هندو دهرم ص (٣٩) (الإنجليزية)، وكتابه: هندو دهرم كي؟ ص (١٦)، بعنوان: سناتي هندو، (البنغالية)، كما نقله عنه الشيخ رياض موسى في كتابه: الهندوسية ص (٢٠) (الأردية).

(٣) انظر ما ذكره العالم الهندوسي د/ رادها كومول ستروباداي: Oh you Hindu، Awake ص (٤٠).

- ❖ يقول سوامي فيثكانند - في بعض خطبه في أمريكا - : إن رامين ليس إلا من كتب القصيدة القصصية القديمة^(١).
- ❖ وكان رابندرناث طاغور بعد دراسته لـ«بال كاند» من رامين توصل إلى نتيجة هي: أن هذا كتاب قصصي، وليس كتابًا تاريخيًا^(٢).
- ❖ يقول جواهر لال نهرو: رامين ومهابهارت ليسا إلا كتابين مثل قصص ألف ليلة وليلة، العربية^(٣).
- ❖ ويقول راج غوبال أشارير: ليس رام إلهًا، وإنما هو بطل من الأبطال^(٤).
- ❖ ويقول «تي كي سيدامبر نات»: «ليس رامين من القصص المجيدة، بل هو أدب من الآداب»^(٥).

٢- أين ذهبت هذه الدولة التي كان يحكمها رام؟ ومن الذي رأى مخلفاتها؟

٣- أين تلك الغابة الكثيفة التي تدعي الهندوس كان فيها رام؟ وهل هناك آثار اكتشفوها حقًا؟

٤- لما ذا لم يواجه رام أيًا من الأسد والنمر والذئاب؟ هل هذه الغابات خالية عن هذه الحيوانات المفترسة؟ ولما ذا لم تلدغه الحيات ولا الأفاعي؟ هل مثل هذه الغابات موجودة في العالم، وخصوصًا في أرض الهند^(٦)؟

(١) انظر ما ذكره جاينتانونج بندوباداي: مهاكاتبو ومولوباد ص(٢٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر ما ذكره العالم الهندوسي د/ رادها كومول ستروباداي: Oh you Hindu, Awake ص(٤٠).

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) انظر ما ذكرته شوكوماري بتراسارزا: رامين، مهابهارت، أنوفاتيك جانبريتتا، (رامين ومهابهارت نسبة الشعبية بينهما) ص(١٢).

٥- أين ذهبت هذه الأماكن الأثرية التي يدعيها الهندوس، أين ذاك المعبر (الصراط) الذي بناه رام بين الهند وسيلان؟

من ناحية محتوياته:

أما من ناحية محتوياته: فقد يوجه إليه الانتقاد من عدة وجوه:

أولاً: أن رام ليس إلهاً، والأدلة عليه كثيرة، من أهمها:

❖ كونه مولوداً: فإن الإله لا يكون مولوداً أبداً، وعلى هذا فهو مخلوق، جرى له ما يجري لمخلوقات أخرى، من العيش في الظلمات والرضاعة من أمه، وآلام وأحزان وما إلى ذلك.

❖ رام الجاهل: ونلاحظ ذلك في أمور كثيرة من أهمها:

١- عندما لم يعرف حقيقة الغزال الذي تعرض له حتى مشى وراءه وتغيرت الغزالة إلى مخلوق آخر^(١).

٢- كما نلاحظ ذلك أنه لم يعرف كيف يعبر البحر حتى يصل إلى سيرلنكا.

٣- يتعجب القارئ من هذا الإله الذي كان يجهل بوجود «نيل» و «نال» في جيشه.

٤- لم يدر رام مدى عفة زوجته سيتا حتى ألزمها باختبارين راحت المسكينة ضحيتها.

❖ رام المتحير: ونلاحظ ذلك في أمور كثيرة، من أهمها:

١- عدم معرفة ما ذا يفعل عندما لم يعرف زوجته في مسكنه في الغابة.

٢- تحيره في كيفية العبور إلى سيلان، حيث البحر أمامه، ولم يجد له حلاً.

(١) انظر ما ذكره العالم الهندوسي د/ رادها كومول ستروباداي: Oh you Hindu، Awake

❖ رام العاجز:

- ١ - يعجز رام عن عبور البحر حتى يتوقف ثلاثة أيام بدون جدوى^(١)، بل هو أعجز عن راوَن بكثير، حيث لم يستطع أن يعبر البحر في اثنتي عشرة سنة، بينما راوَن كان قد عبر البحر في يوم واحد، فأيهما أقوى^(٢)؟
- ٢ - لم يستطع رام أن يقتل راوَن إلا في حين غفلته ومع مساعدة القروء الذين كانوا معه، وهذا لاشك في كونه أعجز من راوَن.

❖ رام الميت: لم يستطع رام أن يدفع الموت عن نفسه عندما جاءه «موني دُرباشا» حتى خضع له ومات، فلو كان إلهاً حقاً لما مات غرقاً في الماء، وما حصل له ما حصل، هل الإله يخضع للموت، إذا مات الإله فمن الذي يرعى العباد والبلاد؟^(٣).

ثانياً: أن شخصية رام، ليست شخصية مثالية؛ كما يذكرها الهندوس، نلاحظ ذلك عندما نستعرض حالات رام في هذا الكتاب، فمن ذلك مثلاً:

❖ رام الشهواني: ومن الأمثلة على ذلك:

- ١ - أنه في كثير من الأحيان يعيش مع العاهرات والزانيات في أماكنها^(٤).
- ٢ - ذكر في ترجمة بالميكى راممين لـ «سري نيباش أئينگار» أن راممين وإن كان قد تزوج بـ «سيتا» لجعلها ملكة، إلا أنه كان له زوجات كثيرة^(٥).
- ❖ رام الكاذب؛ ومن الأمثلة على ذلك:

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٥٥).

(٢) انظر ما ذكره العالم الهندوسي د/ رادها كومول ستروباداي: Oh you Hindu، Awake ص(٣٧).

(٣) انظر المصدر السابق، ص(٣٩).

(٤) انظر المصدر السابق ص(٣٧)، وص(٥٥).

(٥) انظر المصدر السابق وأشار إلى راممين، أيودها كاند، (٨/ص ٢٨)، ولم أطلع على هذه الترجمة.

١ - ما نلاحظ عندما قتل «بالي» أخا شوغريب ملك القروء، قال رام لـ«بالي» عند احتضاره لما سأله عن سبب قتله بدون ذنب ارتكبه حياله : «إنني قتلتك لأنني نائب عن الملك بهرت الذي يحكم أيودھيا، وإن من واجبي تبليغ الدين، ولهذا قمت بقتل مثلك الذي لا يحترم الدين»، ولا شك أن هذا كذب من رام، فإنه لم يكن نائباً عن أخيه، بل كان أخوه هو النائب عنه، كما أنه لم يقصد بقتله لـ«بالي» حماية الدين وإنما قصد كسب صداقة «شوغريب» أخيه، بل لم يكن يعلم «رام» عن وجود «بالي» قبل هذا^(١).

٢ - كما نلاحظ ارتكابه الكذب عندما نفى رام زوجته سيتا بصحبة لكهشمن إلى الغابة، فقد لقن لكهشمن أن يكذب إذا سألته سيتا عن قصده، فقال له: قل لها إننا نذهب لشاهد أماكن الرهبان في شاطئ نهر غنغا^(٢).

❖ رام يخالف الوعد: ومن أكبر الأدلة على ذلك: أن سيتا لما نجحت! في اختبار النار، حيث دخلت النار ولم تأكلها النار؛ فإن رام حلف أنه لن يتخلى عنها مهما تكون الظروف، ولكنه بعدما وصل إلى أيودھيا خاف من كلام الناس وأرسلها إلى المنفى^(٣).

❖ رام المتلون، فليس له مبدأ ثابت بل يغير موقفه حسب الحاجة: ونلاحظ ذلك في الأمور الآتية:

١ - أنه استعان بـ«شوغريب» أخو ملك القروء كما يزعمون، ولكن رام قتل أخاه بدون حق، وإن كان قد اختلق لذلك مبررات من عنده.

٢ - بعد ما رجع رام إلى أيودھيا فائزاً، قال: إنه قاتل راوَن من أجل الحفاظ

(١) انظر ما ذكره جايتنانوج بندوباداي: مهاكاتبو ومولوباد ص(٤٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ص(٤٣).

على سمعة الأسرة الملكية، لا للزوجة، وهذا غير مسبوق مطلقاً في الفصول السابقة.

٣- عندما خرج رام من أيودها نذر على نفسه أنه يعيش مدة إقامته في الغابة أربع عشرة سنة على الثمار، ولكن الذي ظهر في كتاب رامين أن رام كان يكثر من أكل اللحوم في الغابة، فكان يصيد الغزلان والحيوانات الأخرى للأكل^(١).

❖ رام يسب والده: فقد سب والده بأنه جاهل، ساذج، غير عاقل^(٢).

❖ رام يستهتر بكرامة الإنسان، ويظهر ذلك:

١- قتل الشودرا «شنبوك» الذي ليس له ذنب إلا العبادة، فإنه ليس من حق الشودرا أن يمارس طقوس العبادة، فقتله رام بيده حفاظاً على أولاد البراهمة.

٢- رام يقطع الأنوف والآذان للنساء بمجرد حبهن له، وهذا مخالف للإنسانية لا يليق بالإنسان، فكيف بمن قيل: إنه إله، هل الإله يفعل مثل هذه الأفاعيل؟

٣- استهتاره بكرامة النساء، وأنهن لا عبرة بهن، وفراقه لزوجته أمام الملأ^(٣).

٤- يستهتر بكرامة زوجته حيث يرسلها إلى الغابة مرة أخرى، دون أن يعرف هل تكون عرضة للدناءة أم تبقى عفيفة، والعاقل لا يرسل زوجته إلى الغابة، لأجل كلام الناس الذي لم يعرف هو بصدقه ولا بكذبه، وإنما

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر رامين، أيودها كاند، فصل (٥٣).

(٣) انظر ما ذكرته شوكوماري بتراسارزا: رامين، مهابهات، أنوثاتيك جانبريتتا، (رامين ومهابهات نسبة الشعبية بينهما) ص (١٤-١٥).

للحفاظ على كرسي مملكته^(١).

ثالثًا: «سيتا» زوجة رام ليست مثالية، والدليل عليه أمور، من أهمها:

- ١ - سيتا تكذب، وتخلف الوعد، وذلك أنها عندما كانت تعبر نهر غنغا عند ذهابها إلى المنفى كانت قد وعدت أنها تعطي كذا وكذا من الأموال لغنغا بعد عودتها من المنفى، ولم يذكر الكتاب أنها وفّت بوعدها^(٢).
- ٢ - أنها كانت تحب راوَن في نفسها، حيث كانت تحتفظ بصورة له عندها^(٣).
- ٣ - أنها كانت تقول لزوجها: «إنك عَنِين، بدون رجولة، ما أنت إلا تاجر النساء، تريد أن تربح بدعارتي»^(٤).
- ٤ - جاء في ترجمة بنغالية لراماين للهندوسية «سندرابتي»: أن أخت سيتا التي تسمى بـ«كوكورابتي» قالت لـ«رام»، يا مطاع! هل تحب زوجتك، أكثر من نفسك؟ فلتأت معي، ولتُنظر ما ذا في نفس سيتا، زوجتك، انظر أنها تنام واضعة صورة راوَن تحت صدرها، وهي تنام في سريرك، ولكنها تفكر في راوَن^(٥).

رابعًا: لم نجد في راوَن كبير ما يستنكر:

- ١ - إن راوَن لم يكن بتلك الدرجة من الشراسة، فلم يظهر لنا إلا ما يفعله الملوك في ملكه، وهذا كثير، وقد فعل رام أكثر من هذا في ملكه.

(١) انظر ما ذكره د/ أمبيدكار: هندو دهرمى شنغات، نقلًا عما ذكره العالم الهندوسي د/ رادها كومول ستروباداي: Oh you Hindu, Awake ص(٤٠).

(٢) انظر ما ذكره جايتانوج بندوباداي: مهاكاثو ومولوباد ص(٤٣).

(٣) راماين، أرَن كاند، فصل (٥٤). وانظر ما ذكره العالم الهندوسي د/ رادها كومول ستروباداي:

Oh you Hindu, Awake ص(٤٠).

(٤) المصدر السابق، ص(٣٩).

(٥) المصدر السابق ص(٤٠).

٢- لم يصرح رامين أن راوَن أصاب من «سيتا» مع أنها كانت تحت سيطرته وملكه، وتصدق ذلك خرافة دخولها النار وخروجها سالمة، فلو كان شهوانيًا مثل رام لفعل أكثر من هذا.

٣- لعلّ الذنب الأكبر من راوَن أنه كان دراويديًا، ولهذا صوّره كأنه راكشهاش، وهذه المخلوقات لا وجود لها أصلًا، وهؤلاء الآريون عندما يصورون السكان الأصليين يصورونهم بصورة بشعة، ويصفونهم بصورة غير مرغوبة، هدفهم بذلك سيطرتهم على الآخرين.

خامسًا: رامين والأعمال الجنسية العارمة:

وذلك أننا نلاحظ في رامين كثرة الأعمال الجنسية الصريحة الواضحة، حتى مع الأرحام، والتي إذا قرأها الشخص لابد وأن يفعل مثل هذه الأفاعيل؛ لأنها من أعمال آلهتهم، ولهذا نلاحظ في البراهمة كثرة الزنا، وشرب الخمر، وأنواعًا من الفساد؛ لأنهم تأثروا بقراءة هذه الكتب التي تحفزهم وترغبهم في هذه الأعمال^(١).

من ناحية كثرة المستحيلات:

جمع هذا الكتاب بين المستحيلات الكثيرة، وفيما يلي إشارة إلى بعضها:

- ١- كيف يخرج حي من نار القرايين؟ وهل هذه إلا خرافة ما بعدها خرافة.
- ٢- كيف يمكن أن تحبل المرأة بمجرد تناول الطعام؟
- ٣- كيف يمكن أن تكون هناك خلة بين الإنسان والقروء؟
- ٤- كيف تحدثت القروء مع رام؟ هل القروء كانت تعرف السنسكريتية؟
- ٥- كيف يمكن أن تكون القروء أكثر ضراوة من راوَن مع ما كان عليه من القوة والجبروت والعدة والعتاد، بينما القروء ليس لديها إلا الحجارة واقتلاع الأشجار؟

(١) ما ذكره العالم الهندوسي د/ رادها كومول ستروباداي: Oh you Hindu، Awake ص(٥٥).

٦- كيف قتل رام وأخوه آلفا من الراكشهاش، قبل أن تخطف سيتا، ثم سرعان ما يصبح رام ذليلاً ومدحوراً ومهاناً حتى اضطر إلى صداقة القروء؟

٧- كيف سقط رام في ميدان القتال بينما ذهب هانومان ليأخذ له الدواء من جبل كيلاس - الأسطوري -، وكيف أرجع إليه حياته؟ وما هذا الدواء الذي يوجد في «جبل كيلاس» ولما ذا لا يوجد الآن؟

٨- كيف رجع والد رام بعد الموت وأخبر عن زوجته بأنها طاهرة عفيفة؟ هذه كلها من الأمور المستحيلات جمعها رامين، وهي كلها مرغوبة لدى عوام الناس؛ لأن القصص التي تضيف المستحيلات والأشياء غير المعتاد يحبها الناس أكثر، وقد قال غوستاف لوبون (أحد العلماء الغربيين) إشارة إلى ما جاء فيها من الأشياء الوهمية: الحوادث في رامين تجري في عالم خيالي^(١).

من ناحية اختلاف النسخ:

❖ اختلاف نسخ رامين في تصوير حقيقة رام:

١- حيث نلاحظ أن رام في رامين الأصلي الذي هو من الشاعر بالميكى لا يظهر منه إلا أنه ملك من ملوك الهند، فالجزء الأكبر من نسخة «بالميكى» يدل على أن «رام» كان من الأبطال قام بمغامرات ضد الشياطين، وليس في الجزء الأكبر منه ما يدل على ألوهيته ولا أنه تجسيد لإلههم فِشْنُو، اللهم إلا ما جاء في الجزء الأول والجزء الأخير، وهذان القسمان يرى المحققون أنهما متأخران جداً عن أصل الكتاب^(٢).

٢- أما في رامين المترجم لتلسي داس فنلاحظ تأليهه، مع وجود أمور مخالفة واضحة في تأليهه، وهذا مما يدل على أنهم ما نسبوا إليه الألوهية إلا متأخرًا،

(١) انظر ما ذكره غوستاف لوبون : حضارات الهند ص(٤٦١).

(٢) انظر ما ذكره أَمَلْ كُومار بندوباداي : بُورَنِيكا (٢/ ٥٣٥).

فكان «تلسي داس» خصص نسخته لإثبات تجسيد الإله فِشْنُو بصورة رام، فلننظر كيف تصور نزول الإله وتجسده في هذه الترجمة من خلال بعض فقراتها^(١) (٢).

هكذا عمل «تلسي داس» [١٥٣٢م-١٦٢٣م] في القرن السادس عشر الميلادي في عهد الملك جلال الدين أكبر في ترجمته لهذا الكتاب، فانتشر في جميع القطاعات الهندية، وأقبل الناس على قراءته وقد ظهر لنا أن «تلسي داس» لم يؤد الأمانة فخان في ترجمته وزاد على «بالميكى» ما شاء كما جعل لـ «رام» مقام الألوهية الكبرى بينما هو في «بالميكى» مع أسطوره رجل حازم عظيم القدر، ولذا لم يرض علماء الهندوس على تصرفات «تلسي داس» وانتقدوه أشد انتقاد وخاصة في ضرب النساء، والاستهزاء بالمنبوذيين، ولكن بعد فوات الأوان، فإن «تلسي راماين» وقع موقع القبول عند جماهير الهندوس.

❖ اختلاف نسخ راماين في كيفية ولادة أولاد دشرته رام ولكهشمن وغيرهما: وذلك؛ إن بعض نسخ راماين توضح كون رام وإخوته ولدوا من تناول الطعام الذي جاء به الرجل الذي طلع من نار القرايين، بينما تقول النسخ الأخرى إن دشرته بعد ما قدم القرايين قدم زواجه لمجموعة من البراهمة حتى أولدوا له رام وإخوته^(٣)، وعلى هذا يكون كلهم من أولاد زنا، وليس هذا مستغرب لدى الهندوس؛ فإن ديانتهم تتحمل هذه الأفاعيل وربما تفتخر بذلك.

(١) انظر مثلاً: الفقرات (١٧/١)، (٣٠/١)، (٢/١) إلى غير ذلك من الفقرات التي توضح ألوهية رام، وتجسيده لفِشْنُو.

(٢) يقول الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني في: العقائد والأديان ص (١٤٩)، بعد نقله لهذه النصوص من راماين تلسي داس: (وهذا النص - لولا نسبه لتلسي داس لكان حرياً أن يضم إلى النصوص المسيحية، وإصرار بعض العلماء من المسيحيين، بألا سبيل للدعوى بصله هذه العقيدة الهندية بالمسيحية يلفت النظر، خاصة وأن الباحثين في الأديان تعودوا أن يربطوا العقائد بعضها ببعض، وأن يبينوا الأسس المشتركة).

(٣) ما ذكره العالم الهندوسي د/ رادها كومول ستروباداي: Oh you Hindu, Awake ص (٥٠)، وأشار إلى راماين، بال كاند، فصل (٤٤)، المطبوع من مطبعة كودي أراسو، ولم أطلع عليه.

❖ اختلاف نسخ رامين في تحديد العلاقة بين رام وسيتا ولكهشمن:

وذلك أن هناك نسخاً تدل على أن رام وسيتا ولكهشمن هم أولاد الملك دشرته، بل هذه النسخة هي أقدم ما عرف عن رام، فقد جاء ذلك في كتاب «دشرته جاتك»، وليس فيه هذه القصة وإنما فيه أنهم فروا من ديارهم لما أصابهم مكرٌ من قبل بعض أقاربهم، والقصة لا علاقة لها بما ذكر في رامين بالميكى^(١).

❖ اختلاف كثير من المحققين عن حقيقة قصة رام:

حيث عدّ كثير من العلماء من الشرق والغرب أن حقيقة هذه القصة مأخوذة من قصة إلياذة اليونانية، ومنهم من يرجع أصلها إلى قصة أوديسي اليونانية، وهما قصيدتان شعريتان، تحكيان أبطال اليونان وأعمالهما، وهذه القصة وجدوها شبيهة بتينك القصيدتين المذكورتين^(٢).

فهذا هو كتاب «رامين» المقدس لديهم، وهو أكثر انتشاراً من كتاب مهابهارت، وقد أقام بعض الهندوس موازنة بين رامين ومهابهارت، ثم فضل رامين على أن الناس قبلوه قبولاً عاماً، أكثر من مهابهارت^(٣).

كما أن رامين أكثر شعبية من كتاب «غيتا»، لأن «غيتا» يحتوي على فلسفة دقيقة يصعب فهمها، بينما كتاب «رامين» كتاب قصص روائية يجذب القارئ العادي إلى قراءته - كما يقول الدكتور الأعظمي^(٤).

(١) انظر ما ذكره جايتانوج بندوباداي: مهاكاتب ومولوباد، ص (٣١).

(٢) المصدر السابق ص (٣٢)، وأشار إلى الكتب الآتية:

Arther Lilli, Rama and Homer, Kegan Paul, Trench, Trubner & co. London, 1912.
Albrecht Weber, op. cit. K.T. Telang, Was the Ramayana Copied from Homer? A Reply to Proffessor Weber, Bombay, 1873.

(٣) انظر ما ذكرته شوكماري بتراسارزا: رامين مهابهارت، أنوفاتيك جانبريتا، (رامين ومهابهارت نسبة الشعبية بينهما).

(٤) انظر ما ذكره الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٥٣).

المطلب الثالث

يوغا فاششتها (YOGA VASISTHA)

اسم الكتاب كاملاً:

«يوغا فاششتها راماين».

معنى الكتاب :

سبق معنا معنى : يوغا، وهي تعني: ربط تقنية الخلاص التي تهدف إلى تحرير النفس من شهوات الجسد عن طريق الممارسات والسلوكيات الروحية والجسدية^(١). أما «فاششتها» فهو اسم أو لقب لأحد من يدعون فيه كونه من الملهمين، (الريشيين).

وأما «راماين» فهو يعني : سيرة رام^(٢).

فيكون اسم الكتاب مركباً من ثلاث كلمات، يوغا + فاششتها + راماين.

ويكون المعنى: اليوغا الذي يعلمه فاششتها لـ«رام»، أو المعنى: اليوغا الذي يعلمه فاششتها في كتاب راماين، أو المعنى: يوغا الذي يعلمه «فاششتها» كما هو مدون في سيرة رام.

التعريف بالكتاب:

يوغا فاششتها كتاب سنسكريتي قديم، له فلسفة، خلبت لب الهندوس قاطبة،

(١) انظر ما ذكره علي زيعور: الفلسفة في الهند ص (٣٦٠).

(٢) وقيل: معناه: طريق رام، أي الطريق التي سلكها رام في الحصول على الكمال، كما يزعمون، انظر ما ذكره سري شوخوموي بتراسارزا: رامايير چريتابل، (المقدمة).

يعتبر هذا الكتاب من أمهات الكتب الهندوسية، والكتاب منظوم، يحتوي على أربعة وستين ألف بيت، والكتاب يبحث في موضوع فلسفي جاف^(١).

والكتاب مترجم إلى عدة لغات، حتى ترجم إلى اللغة البنغالية نثرًا، ويلاحظ أن الكتاب المترجم باللغة البنغالية كبير جدًا، حيث وصلت صفحاته إلى (١٢٠٠) صفحة^(٢).

مؤلفه وزمن تأليفه:

أما مؤلف هذا الكتاب:

فلا سبيل إلى البت فيه؛ فمؤلفه مجهول كمؤلفي سائر الكتب المقدسة لدى الهندوس^(٣)، وهناك من ينسب هذا الكتاب أيضًا لـ: بالميكى، صاحب رامايين الأصلي^(٤)، بينما يذهب فريق من العلماء إلى أن الكتاب لمجموعة من الشعراء اشتركوا في نظمها^(٥).

والذي يبدو لي: أن مؤلف هذا الكتاب أراد بوضع هذا الكتاب اختلاق نسخة ثانية لكتاب «رامايين» حيث كلاهما يحدثان عن «رام»، والذي سبق معنا ذكره مفصلاً، حيث إن هذا الكتاب كان يسمى سابقاً: «رامايين أتر كهاند»، أي: رامايين الجزء المتأخر^(٦).

(١) انظر ما ذكر في مجلة ثقافة الهند، يونيو، ١٩٥٣، ص (٦٢).

(٢) وهو من القطع الكبير، وخطه صغير، وقد قرأت معظم الكتاب، مع كون المادة جافة، غير شيقة، والنفس لا تطيع لقراءة مثل هذا الكتاب، والكتاب كله مشتمل على كلام فلسفي غير مفهوم، ومتناقض أحياناً.

(٣) الدكتور محمد الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٦٠).

(٤) انظر مقدمة الكتاب مترجماً إلى اللغة البنغالية.

(٥) انظر ما ذكره الدكتور محمد العربي: الديانات الوضعية الحية في الشرقين الأدنى والأقصى ص (٣٢).

(٦) انظر ما ذكره شُوْدهِيْز سُنْدَرْ سَرْكَاز: بورانيك أبهيدان ص (٤٥٨)، وانظر ما ذكره أَمْل كُومار بندوبادايي: بُورَنِيكا (٢/٤٨٩). بل هو المذكور في الكتاب، الجزء الأول، رقم الشرح: ٢، ص (٦).

كما يبدو لي أيضاً: أن كتاب «راماين» لما كان الجزء الأكبر منه مع الحكيم (الريشي) بشفامترا، الكهش تري الذي وصل بجهده المتواصل والمجاهدات الشاقة إلى درجة البراهمة، فإن صاحب هذا الكتاب (يوجا فاششتها) أراد به مؤلفه أن يظهر تفوق «فاششتها» البرهمي الرسمي لدشترته، والذي كان هو المنافس الرئيسي لبشفامترا السابق الذكر، فجعل رام يسأل «فاششتها» الأسئلة الكثيرة الفلسفية يبرز من خلالها أن الحكيم (فاششتها) من أعلم زمانه حتى يعلم رام العلوم اللاهوتية وغيرها.

أما بالنسبة لزمان تأليفه:

فمؤلفه على عادة الهنود القدماء لم يذكر شيئاً عن عصره، وكذلك أغفل ذكر اسم نفسه، وقد وجدنا فيه قولين متباعين:

١- يرجع البعض عهد تأليفه إلى القرن السادس وما بعده قبل الميلاد، وهو العهد المعروف لدى علماء الهندوس لتأليف كتبهم، إذ انتهى الآريون من الحروب الطاحنة. وبدأوا ينظمون حياتهم الدينية والسياسية والاجتماعية، كما بدأ علماءهم بتأليف الكتب الدينية على نمط القصص، وفيها دروس فلسفية لاهوتية وأخلاقية^(١)، واستدل بعضهم على كونه مكتوباً في القرن السادس قبل الميلاد ببعض الشهادات الداخلية من الكتاب نفسه^(٢).

٢- إلا أن هناك آخرين يذهبون إلى أنه ألف في فترة زمنية طويلة، وأن هذه الشهادات والإشارات التي تشير إلى كونه مؤلفاً في القرن السادس قبل الميلاد ليست إلا للأجزاء التي ألفت في القرن السادس قبل الميلاد، وليست دليلاً على تحديد وقت لتأليف الكتاب كله^(٣).

(١) الدكتور محمد الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٦٠).

(٢) هكذا ذكر في مجلة ثقافة الهند، يونيو، ١٩٥٣، مقالة: «يوجا واستتا» وفلسفته ص(٦٢)، وانظر أيضاً ما ذكره الدكتور محمد العربي: الديانات الوضعية الحية في الشرقين الأدنى والأقصى ص(٣٢).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور أحمد شليبي: أديان الهند الكبرى ص(٩٤).

أهمية الكتاب لدى الهندوس:

يقول أحد الهندوس: أجمعوا على أن الكتاب لا غناء عنه لمن ينشد معرفة نفسه، ويجاهد لتحرير روحه، فهو صنو لـ «راماين» Ramayana الذي لا يستغني عنه العباد، ومثيل لـ «بهاغافاد غيتا» الذي لا غناء عنه لرجال العمل والحرب.

والراهب «سوامي رام تيرث» (RAM TIRTH) (١٨٧٣/١٨٧٠ - ١٩٠٦ م)^(١)، الذي يعده الهندوس خير مثال للرهبة في العصر الحاضر. فقد صار مجذوبًا في آخر حياته. وكان يدّعي: ما أَلَفَ كتابٌ تحت أديم السماء أعظم من كتاب «يوغا فاششتها»، حيث يقول: «إن أعظم وأنفع كتاب، أَلَفَ تحت السماء قط، هو بلا ريب يوجا فاششتها الذي كل من يقرأه، لابد أن ينال معرفة نفسه، ومن عرف نفسه، فقد عرف ربه»^(٢).

وبالإجمال فإن أكثر الرهبان الهنود قد تأثروا بهذا الكتاب، فقطعوا علاقاتهم الدنيوية، واتخذوا الكهوف والغابات مقرًا للرياضة والمجاهدة^(٣).

ويبدو لي أن الكتاب غير مرغوب فيه في الأوساط الهندوسية، فلم يصل مثلاً في شهرته مثل ما وصل كتاب راماين الذي سبق ذكره في المطلب الثاني.

إلا أن اليوغيين لهم اهتمام كبير في هذا الكتاب لما يشتمل عليه من الأساليب الدقيقة لليوغا، وأما الذين لا يمارسون يوغا طلبًا للخلاص لا يريدون مثل هذه الكتب الفلسفية التي يصعب على الناس فهمها.

(١) ولد في ججرانواله في پنجاب (الهند)، ومارس اليوغية الصعبة الشاقة في حياته القصيرة، سافر إلى اليابان، والولايات المتحدة، ودولاً أخرى، واشتهر بين الناس بتصوفه، وكان فيدانيتاً من أصحاب وحدة الوجود، انظر لمعرفة المزيد عن حياته: ما ذكره محمد فاروق خان، هندو دهرم كي جديد شخصيتين ص (٢٤-٣٨).

(٢) نقله صاحب مجلة ثقافة الهند، يونيو، ١٩٥٣ م في مقالة بعنوان: «يوغا واسشتها» وفلسفته ص (٦٣)، وانظر أيضًا: انظر ما ذكره الدكتور محمد العريبي: الديانات الوضعية الحية في الشرقين الأدنى والأقصى ص (٣٢).

(٣) انظر اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٦٢).

محتويات الكتاب:

يتضمن الكتاب مسائل في الفلسفة واللاهوت بشكل حوارات جرت بين الراهب «فاششتها» (VASISHTA) وتلميذه البارّ «رام»؛ حيث يصور لنا الكتاب: أن التلميذ «رام» تتابه الشكوك والأوهام فيسأل أستاذه عما يساوره، ويطلب بياناً لإيضاح ما غمض عليه، ويجيبه أستاذه شارحاً موضعاً^(١)، فيذكر الأستاذ لتلميذه العلوم المتعلقة بالإله، والعلوم الروحانية وعلوم المراقبة، التي توصل الإنسان إلى العالم الروحاني، والملا الأعلى حتى يتصل بـ «برهمان» على حد زعمهم^(٢).

والكتاب مقسم إلى ستة أقسام رئيسة:

القسم الأول: قسم في الترهّب أو الرهينة.

القسم الثاني: قسم في الرغبة الشديدة في الإنقاذ.

القسم الثالث: قسم خاص بالوجود.

القسم الرابع: قسم البقاء، أو الاستقرار.

القسم الخامس: قسم التّخفيف والهدوء والتّوقف وحصول الراحة والطمأنينة.

القسم السادس: خاص بالنرفانا، الحصول على الخلاص.

أما القسم الأول: ففيه ثلاث وثلاثون فصلاً والذي يسمى بـ «شارغا»، وقد بدئ بقصة بين الوالد والولد، حيث إن الولد تعلم علومًا عديدة، ولكنه وقع في فريسة الشك بين العلم والعمل أيهما يقدم له الخلاص، فترك العلم والعمل معاً، فناده والده وقص عليه القصة التي حدثت في غابر الزمان لملك من الملوك الذي ترك الملك لابنه وذهب ليترهب وليجتهد في العبادة، حتى أرسل له إندرا صاحب الجنة رسوله كي يدخله الجنة، ولكن الملك سأل الرسول عن وصف الجنة وعن الآلام والأفراح الموجودة فيها، فذكر له الرسول: أن الجنة على درجات وأن الذين يدخلون فيها يحصل بينهم

(١) انظر كتاب يوجا واستشها (١/١٩)، وانظر ما ذكره الدكتور أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص (٩٤).

(٢) الدكتور محمد الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٦٠).

صراع في الدرجات ونتيجة لذلك تنتهي حسناتهم، فيحصل لهم الجلاء منها، فلما سمع الملك بهذا، قال : إنني لا أريد أن أدخل فيها، فرجع الرسول إلى إندرا مرة أخرى، وبعد فترة وجيزة أرسل إندرا رسوله إليه مرة أخرى، وطلب منه أن يذهب بهذا الملك إلى الراهب «بالميكى»، فلما وصل إلى ديرة بالميكى، بدأ بالميكى يقص عليه قصص رام، وأن معرفة ما دار بين رام وفاششتها من الحوار يذهب بكل أنواع الشك والارتياب، ويأتي بالخلاص المعبر عنه بـ«موكشا».

فطلب الملك من «بالميكى» أن يعرفه بـ«رام» لأنه لا يعرفه، فعرفه بالميكى بقوله: إن رام هو الإله «فِشنُو» فقد أصابه دعوة أربعة من الصالحين، فقد دعا عليهم أحدهم المسمى «ستكومار بن براهيم»، حيث دخل ستكومار على فِشنُو، فقام جميع الحاضرين، ولكن فِشنُو لم يقم له ولم يحترمه احتراماً يليق به، فدعا عليه: أن ينزل على صورة الإنسان، مع عدم التعقل لأشياء كثيرة من العلوم اللاهوتية، فيصبح كالأبله، وأصابه دعوة آخر الذي يسمّى: بريغو، (الحكيم المشهور لديهم) حيث قتل فِشنُو زوجته، فدعا عليه بأنه سوف يحزن بفراق زوجته، كما أصابه دعوة آخر يسمى «جلندهر»^(١)،

(١) وقد ذكر صاحب تحفة الهند: عبيد الله الفائلي كما هو موجود في كتابي «كارتيك مهاتّي وبَدْم بُرّان»، قصة ولادة جلندهر، وأنه ولد من نار غضب مهاديو، (شِيفًا)، فإن في مرة من المرات ذهب إندرا ليزور «مهاديو» في الشمال، ولكنه شاهد رجلاً بصورة عجيبة وغريبة، فسأله عن «مهاديو» فلم يجبه بل زجره زجراً، أغضب منه إندرا، فضربه إندرا على رأسه، فلم يضره شيئاً، بل زاد من غضبه، وغيظه، حتى خاف منه إندرا، وعرف أنه هو نفسه مهاديو شِيفًا، فطلب منه العفو، وأن يخمد غضبه، فقال: لا يخمد غضبي هذا، إلا أن أرميه في البحر، فرماه في البحر، فتولد منه ولد في أعماق البحر، وفور ولادته بكى بكاءً بصوت شديد جداً أزعج أهالي البحر، وطلب من براهيم أن يأتي، فلما أتى براهيم أعطوه إياه كي يريه، فرباه براهيم، وزوجه بـ«برندا» إحدى الصالحات العفيفات، ثم جاء في ذهنه أنه ينبغي أن يكون هو ملك العالم، وأن الذي يعارضه إنما هو «مهاديو» فبدأ في النضال مع «مهاديو» وكاد أن يقضي عليه، وخاف كل أهالي الجنة العليا والديوتا على سقوط «مهاديو» على يدي «جلندهر»، والاستيلاء على الجنة، وقالوا: إن هذه القوة الخارقة لجلندهر لن تنتهي إلا بذهاب عفاف زوجته «برندا» فأرسلوا فِشنُو لهذه المهمة، فتمثل فِشنُو على صورة جلندهر، وفعل الفاحشة مع «برندا»، ولكن برندا عرفت =

كما أصابه دعوة آخر الذي يعرف بـ«ديودت»، فإن فِشْنُو لما جاء مرة بتجسيد نرسنها، (الإنسان الأسد) خاف منه زوجة ديودت، وماتت خوفاً من هذا التجسيد، فلعبته بأنه سيدوق مرارة فراق الزوجة في ولادة من ولاداته^(١). وعلى كل حال: فنزل فِشْنُو على صورة رام، ولكنه لم يعلم عن نفسه بأنه هو فِشْنُو، فلهذا كان يعتريه الشكوك والريب في كثير من المسائل^(٢).

ثم ذكر المؤلف سبب تأليفه لهذا الكتاب، وما ذا يستفيد منه قارئه^(٣)، وتكلم عن كيفية الحصول على الخلاص والنرفانا على لسان أحد الحكماء الذي يسمى بـ«بهرداج» تلميذ «بالميكى»، كما تحدث عن سبب التناسخ، وبدأ بذكر سيرة رام^(٤).

ثم تطرق إلى ذكر رحلات وأسفار رام العجيبة، والغريبة^(٥)، كما تحدث عن عمر رام عندما طرأ عليه حالة الترهب، وترك العمل، وجعل رام يكذب إلى والده: بأنه ما حصل له شيء^(٦).

ثم انتقل إلى أن الريشي بشفامترا المعروف عندهم بثلاثة ألقاب عالية «مهرشي»

= أن هذه خدعة من فِشْنُو فأحرقت نفسها، ودعت عليه بأن يذوق مرارة فراق الزوجة، وبعد إحراقها نفسها تولدت من نفاياتها شجرة تسمى «تلسي» ذات الرائحة الصنوبرية، فالهندوس يعبدون هذه الشجرة ظناً منهم أنها إلهة، وأصاب فِشْنُو دعاء برندا العاجل وأصبح مثل الحجرة، تسمى الآن بـ«شالغرام»، فالهندوس يعبدون هذه الحجرة أيضاً ظناً منهم بأنه صورة ممسوخة من إلههم فِشْنُو، وأما دعاءها الآجل، فقد نتج عنه رام، صاحب القصة، حيث جعلوه فارق زوجته وذاق مرارة الحياة بعدها. انظر ما ذكره أمل كُومار بندوباداي : بُورَنِيكا (١/٥٥٨)، و انظر ما ذكره شُودهي سَنَدَر سَرَكار : بورانيك أبهيدان ص (١٨٤-١٨٥)، وعبيد الله الفائلي : تحفة الهند ص (١١).

(١) انظر كتاب «يوغا فاستتها»، الجزء الأول، رقم شارغا (١)، ص (٥).

(٢) يوغا فاستتها، الجزء الأول، شارغا (١) ص (٥).

(٣) انظر المصدر السابق، شارغا (٢)، ص (٦).

(٤) انظر المصدر السابق، شارغا (٣)، ص (٧).

(٥) انظر المصدر السابق، شارغا (٤)، ص (٩).

(٦) انظر المصدر السابق، شارغا (٥)، ص (٩-١٠).

و«راجرشي» و«برهمرشي»، جاء إلى قصر الملك «دشرتة»^(١)، وطلب منه أن يعطيه رام حتى يساعده في تقديم القرابين؛ حيث إن الشياطين والراكهشاش يشوشون عليه عند تقديم القرابين في الليالي، وأنه مع قدرته الخارقة لا يقوم بضربهم؛ لأن من يقدم القرابين لا ينبغي له أن يضرب أحداً، وطلب من الملك أنه يمده بجميع أنواع من العلوم والعتاد الحربية ضد هؤلاء الشياطين^(٢)، وفي الأخير رضي الملك «دشرتة»^(٣)، ولكنه سمع من ندماء رام أنه مريض، وعنده حالة غريبة، فأمر بشفامترا أن يحضره^(٤)، فلما حضر إلى الملك بدأ يلقي على كل من بشفامترا وفاششتها ما خطر لديه من المسائل التي جعلته هكذا، فقال رام: إنه قد حصل لي الرهينة عن أمور الدنيا؛ لأنني لا أحل ما أجد في ذهني من المسائل الشائكة، لما ذا يفنى كل شيء؟ ولماذا يخلق مرة أخرى؟ ولما ذا يزداد؟^(٥) لا أرى في هذه العملية أي فائدة، وملخص ما ذكره رام بعده: أن الحياة كلها وهمٌ ليست فيها أي سعادة^(٦)، وأنه لا خير في الثروة والاكتناز^(٧)، وأن عمر الإنسان قليل فلا سعادة ترجى منه^(٨)، وأن الجهل هو علة العلل لسائر الآلام^(٩)، وأن الرغبة هي أم المشاكل^(١٠)، وأن الجسد لا خير فيه مطلقاً^(١١)، فهذه هي بعض تأملات التلميذ، رام، وهي تأملات كل من يفكر جدياً في الحياة، إن الإنسان تواق إلى السعادة، ولكنه لا

(١) انظر المصدر السابق، شارغا (٦)، ص (١٠-١١).

(٢) انظر المصدر السابق، شارغا (٧)، ص (١٢-١٣).

(٣) انظر المصدر السابق، شارغا (٨-٩)، ص (١٣-١٥). وقد ذكر فيه رابن، كما ذكر فيه كيفية حصوله لأولاده الأربعة.

(٤) انظر المصدر السابق، شارغا (١٠-١١)، ص (١٥-١٧).

(٥) هذه الأسئلة الثلاثة، أجيب عنها في الأقسام الثلاثة الآتية بعد هذا القسم.

(٦) يوغا فاششتها، الجزء الأول، شارغا (١٠)، ص (١٩-٢٠).

(٧) انظر المصدر السابق، الجزء الأول، شارغا (١٣)، ص (٢٠).

(٨) انظر المصدر السابق، الجزء الأول، شارغا (١٤)، ص (٢١).

(٩) المصدر السابق، الجزء الأول، شارغا (١٥)، ص (٢٢).

(١٠) انظر المصدر السابق، الجزء الأول، شارغا، (١٧).

(١١) انظر المصدر السابق، الجزء الأول، شارغا (١٨-٢٣).

يجدها في حياته كلها، ولذلك ألقى رام أسئلة إلى أستاذه ومرشده، وهي أسئلة تختلج في كل عقل مفكر:

١- هل هنالك حالة مرضية من الوجود، لا يشوبها العذاب، والألم، والحزن، والجهل، أي: هل وجدت السعادة الحقيقية فوق هذه الأرض؟

٢- أي علاج - إن كان هنالك العلاج - لحب الدنيا الذي هو الداء الحقيقي الذي تنبع منه سائر المصائب والأحزان؟

٣- هل يمكن للإنسان أن يتمتع بالسعادة الأبدية التي لا تبديل فيها؟

٤- هل من سبيل، أو وسيلة، أو فن يضمن للإنسان حياة لا تنغصها الهموم والأحزان؟

٥- كيف ينبغي للإنسان أن يعيش في هذا العالم من دون أن يكون عبدًا له؟.

يقول الكتاب: إن التلميذ رام بعد أن انتابته هذه الأفكار، قال لأستاذه:

«أخبرني يا سيدي المرشد بأحسن طريق للتحرر من آلام الحياة».

فهذا ملخص ما جاء في القسم الأول.

أما القسم الثاني: ففيه عشرون فصلاً (شارغا)، فقد بين فيه الاشتياق إلى الخلاص

(نرفانا).

ففي الفصل (شارغا) الأول: يذكر المؤلف على لسان «بِشْفَامِتْرَا» الحكيم قصة

أحد أبناء الحكيم بياس بن پراشر، والذي يسمى بـ«شوك» حيث إنه كان قد دخل في الرهينة مع الشك في كثير من القضايا والتساؤلات، مثل: من أين أتى هذا العالم؟ وكيف ينتهي؟ فأجابه أبوه بياس بن پراشر بجواب لم يعجب الولد، فأرسله أبوه إلى الدنيا إلى من هو أعلم منه، وهو ملك يسمى «جاناك»، وبعد عدة محاور علّمه جاناك، وأجابه بأننا أتينا من عدم العلم أو الجهل والمعبر عنه بـ«أفيديا»، وسوف ينتهي هذا العالم بانتهاء الجهل، وأخبره أنه ليس في العالم إلا النفس الكلية المعبر عنه بـ«پرماتما»، وهو الموجود بإرادته في الأحياء، وإذا ترك إرادته فهو يحصل على التحرر، فلما سمع

«شوك» هذا الكلام ذهب ما كان في ذهنه من شائبة الشك والارتباب، وارتاح قلبه وراق لكل عمل خيّر، فذهب إلى أعلى قمة الجبل، وحصل على النرفانا عن طريق «سمادي» الموجود في اليوغا.

وفي الفصل (شارغا) الثاني : يخبر بِشَفَامِتْرَا الحاضرين في مجلس الملك بأن هذا «رام» حصل على علوم كثيرة، وأسئلته اللاهوتية تدل على ذلك، ولكنه يحتاج إلى من يصفى قلبه من شائبة الشك والريب ويزيل عنه، كما أزال الملك «جاناك» الشك والريب عن قلب «شوك بن بياس»، ثم يقول مخاطباً لـ«رام»، يا رام! إن العلماء والحكماء يرون الرغبة الشديدة في الثروة واكتنازها سبب للأسر، ويرون في عدمها والتخلص منها تحرير من رق العبودية، وأن كل ما خطر ببال «رام» من الأفكار هي أفكار صحيحة، وإنما تحتاج إلى من يوافقه ويكون عوناً له في إزالة الشك والريب، وإن الذي يستطيع أن يزيل عنه هذا الشيء إنما هو «فاشتتها» العالم الرسمي لملك «دشرتة»، وهو حري أن يقوم بإفادة «رام» بالعلوم والفنون، فيما يعتري عليه من الشكوك حتى يحصل له الرهينة في هذا العالم.

فشكر «فاشتتها» وقال: إنني إذ أمرتُ بذلك سأقوم بمهمتي، وأذاكر مع «رام» بإجابة أسئلته في هذا المجال.

ثم بدأ الحوار بين الأستاذ وتلميذه، واستمر هذا الحوار إلى نهاية الكتاب.

أهم ما اشتمل عليه الكتاب:

١- إن علة الآلام والمصائب هي «ترسنا» أو الرغبة في المآرب الدنيوية:

يقول الكتاب: «إن هذه الرغبة تلدغ صاحبها كالحية السامة الفتاكة، وتقطع كالسيف البتار، وتنفذ كالرمح الحاد، وتربط كالخيل، وتحرق كالنار، وتعمي كالليلة المظلمة، وتطحن فريستها المسكين كالرحى الثقيلة، إنها تقضي على عقله، وتمزق توازنه الفكري، وتيقنه في بئر عميقة، مظلمة من الخبل والجنون».

٢- إن سبب افتتاننا بالرغبة في المآرب الدنيوية: الجهل بفطرتنا الحقيقية، وماهية الدنيا. فالجهل هو علة العلل لسائر الآلام، والأحزان والمصائب.

يقول الكتاب: «إن منبع جميع الشرور هو قلة العلم. وإن أحسن وأنجع علاج لكل ما نعانیه من الآلام والأحزان هو «جنانا» Janana أي الوصول إلى الحكمة (العلم).

٣- الحكمة هي المطلوبة، وهي أحسن دواء لهذا المرض:

فالعاقل الحكيم الذي يعرف ما يجب معرفته لا تصيبه الأحزان، ويقف من كل شيء موقفًا صحيحًا، فالوصول إلى الحكمة هو الدواء الناجع لهذا المرض، والحكمة هي الجسر الوحيد الذي يجتاز عليه المرء بسلام إلى بحر هذا العالم.

٤- لا تنال الحكمة أو العلم الصحيح إلا بأمور:

أ- بالسعي والجهد لنيله:

الحكمة أو العلم الصحيح الذي هو العلاج الوحيد الناجع النهائي لجميع آلام الحياة ومصائبها، إنما ينال بالسعي والجهد لنيله، فالعلم أو الحكمة لا ينزل علينا بنفسه، ولا هو منحة من الحظ أو غيره.

ب- عدم الاتكال على الحظ أو القدر:

يقول الكتاب: ليس هناك شيء يسمى الحظ أو القضاء والقدر يمنّ علينا بالسعادة أو يتلينا بالآلام والأحزان، بل نحن الذين نخلق حظنا بمجهودنا وعلى ذلك ليس من سبيل لتجنب الشقاء أو التخلص منه إلا بسعيينا وجهدنا.

ولا يكاد يوجد في العالم شيء لا ينال بالكد والجهد الصحيحين، ليس للإنسان إلا ما سعى، ولا ينال شيئًا إن قعد وترك الاجتهاد.

كل إنسان صديق نفسه أو عدو نفسه، فإن كان هو لا يهتم بنجاته، فلا يسعى أحد لنجاته.

والذين يتكلمون على القضاء والقدر في نيل ما يريدونه، ولا يسعون له بأنفسهم، فهم أعداء أنفسهم، إنهم إنما يتكلمون على شيء لا وجود له البتة، يتكلمون على الحظ

- والحظ إنما خلقته أوهام الكسالى، ولذلك هو لا وجود على أحد بشيء؛ لأنه لا وجود له إلا في أوهام الجهلة والكسالى، ولم يؤمن به قط الأبطال والنبغاء، والعلماء الأعلام، والحكماء العظام، وليس فيهم من اتكل على الحظ أو القضاء والقدر في شأن من شؤونهم.

والذين يتكلمون على الحظ، يحرمون من جدارتهم، وثروتهم، ومسراتهم.

ج- أن تكون لدى الطالب مؤهلات أولية:

الحكمة - الدواء الناجع لسائر الآلام - لا تبزغ إلا على العقل الذي استعد لها، إنها تتطلب مزاجاً خاصاً وتربية خصوصية، الأمر الذي لا يتم إلا بجهد ومشقة.

والذي لم يستعد عقلياً وخلقياً لتلقيها، فإن إرشاد أحسن المرشدين وأكملهم لا ينفعه شيئاً، إن تعليم المرشد إنما ينفع المرء الذي هدأ ذهنه، وتحررت نفسه من ملاذ الحواس، وانقطعت علاقته بمشتهيات نفسه.

وعندما يتطهر العقل من الرغبات الدنيوية، فالطالب ينتفع بكل كلمة من معلمه بدون مشقة.

ويقول الكتاب: إن أول ما يطالب به الطالب، أو الباحث عن الحق، أو الراغب في تحرير نفسه من أغلال العبودية، يتلخص في كلمات أربعة هي:

١- الطمأنينة: ومعناها أن يصفو قلب المرء من كل كدر.

٢- القناعة: ومعناها أن لا يرغب المرء في شيء، ولا يعادي شيئاً، ويسيطر على مشاعره سيطرة تامة، فلا تضطرب نفسه حتى يبين براثن الموت، لا البهجة تميل به عن الصواب، ولا الحرب تؤثر على أعصابه، وهو يظل ثابت الجنان، رافع الرأس كالجبل الشامخ إزاء هجوم المصائب وريب الدهر، فالحكمة لا تنزل على العقل الذي استعبدته الأهواء والرغبات، والذي خلى من القناعة، وقد قال الحكماء: إنما القانع هو الذي لا يهتم لما في ليس في يده، ولا يفرح بما في يده، وهو لا يكتسب بشيء ولا يسر بشيء.

٣- مصاحبة الحكماء ؛ لأنها تزيل الظلمات عن القلب، وتقود المرء إلى الطريق السوي، وتجعل شمس الحكمة تبرز على عقله.

٤- التأمل العميق: فإن الحق لا يمكن معرفته إلا بالتفكير والتأمل، لأنه الوسيلة إلى الحق، وهو الذي يقود المرء إلى طمأنينة النفس، وليس التأمل إلا ما كان على الطريقة المنطقية في المسائل الحيوية، كأن يقول المرء لنفسه «من أنا؟» و«ما هي حقيقتي؟» وكيف وجدت هذه الدنيا المملوءة بالشور؟^(١).

٥ - طرق اليوغا التي تشير إليه هذا الكتاب:

هذا الكتاب فيه ثلاثة طرق لليوغا:

أحدها: الاعتقاد بالوحدة، وهو أن يرى أن برهمان هو وحده في العالم.

ثانيها: طمأنينة القلب، وهو أن يقهر نفسه حتى تكون تابعة له، ومن صارت نفسه نفساً مطمئنة فكأنه نجا من الآلام والمصائب الدنيوية التي تعترض كل إنسان كما يزعمون.

وثالثها: مخالفة النفس، لأن هذا الكتاب يصور الحياة كأنها مليئة بالخطايا والذنوب، والرغائب النفسية تجر الإنسان إلى الهلاك والزوال، فتقع البشرية في أحزان وآلام مستمرين إلى أن تختار النفس إحدى الطرق الثلاثة لتنتهي هذه الآلام والأحزان، وتحصل للإنسان حياة سرمدية مليئة بالمسرات والأفراح، وذلك باتصال النفس بـ«برهمان».

نقد الكتاب:

هذا الكتاب يوجه إليه النقد من عدة أوجه:

(١) انظر ما نقله مؤلف هندوسي : مجلة ثقافة الهند، عدد يونيو ١٩٥٣م، ص(٦٧-٧١).

من الناحية التاريخية :

١- شكك كثيرون في وجود رام تاريخيًا، والذي يرجح عدم وجوده مطلقاً عدم ورود اسم «رام» في الكتب الهندوسية القديمة، فلم يأت ذكره في الفيدات ولا في الأوبانيشادات، ولا في كتب سوترا، كما لم يأت أي إشارة إليه في سُروتي، وأما ما جاء في مهابهارت فإنه يشير إلى أن هناك رام المحارب، وليس كأفتار، وقد صرح بعض الهندوس أن الديانة الهندوسية اخترعوا هذا الاسم بعد حملة بوذا الإلحادية، عندما اعتنقوا فلسفة بهاكتي، متأثراً ببعض الديانات التي عرفت في تلك الآونة^(١). وقد سبق معنا بيان ذلك في المطلب الثاني، فلا يحتاج إلى الإعادة.

٢- كما شكك كثيرون في وجود مثل هذه الدولة التي كان يحكمها رام، وقد سبق معنا بيان ذلك.

٣- عدم معرفة مؤلف الكتاب، وقد سبق معنا: إن الكتاب وجد منسوباً إلى بالميكي، ولكن الصحيح أنه كتاب جمع فيه أشعار فقراء الهندوس، ومن هنا نعرف أن الكتاب لا قيمة له.

٤- قد ذكر بعض الهندوس أن ما جاء في كتاب يوغا فاششتها من إثبات الأفتار وما يتعلق به، لم يقل بها الهندوس إلا بعد ما تأثروا بالديانات المجاورة، عندما اعتنقوا عقيدة أفتار في ديانتهم^(٢).

٥- وإذا لم يكن هناك وجود لـ«رام» ولا لدولته، ولا لقصته، كما سبق معنا مفصلاً في المطلب الثاني، فلم يبق هناك مصداقية لمثل هذا الكتاب الذي ينسج على مجهول بلسان مجهول.

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر ما ذكره جايتانوج بندوباداي: مهاكاتب ومولوباد، (القصيدة العظمى والأصولية)، ص (٣٤).

من ناحية محتوياته:

إن ما يحتوي عليه هذا الكتاب مواضيع متفرقة، ونقد محتوياته يحتاج إلى مؤلف مستقل، إلا أنني سوف أقصر الكلام على الأشياء العمومية فيما يلي:

❖ إن ما يشتمل عليه هذا الكتاب أشياء غير واقعية، وهي كلها فلسفات غير واقعية، حيث يحاول إثبات كون الوجود وهمًا، كما يحاول كون برهمان هو كل شيء، ولا شك أن هذه دعاوى فارغة، تستنكرها العقول السليمة.

❖ إن ما اشتمل عليه هذا الكتاب من تصور الخالق والكون كل هذه التصورات من التصورات البدائية، لا يقبلها عقل سليم، مع ملاحظة تناقضها في كثير من الأماكن، فقد جاء فيه ادعاء وحدة الوجود، وادعاء الوهم في الكون، وإنكار القدر، وما إلى ذلك، وهي كلها غير مستندة على دليل، وإنما هي ادعاءات رهبانهم ونساکهم.

❖ إن ما اشتمل عليه من طريق الحصول على موكشا (النجاة المنشود لدى الهندوسية)، بأنها عن طريق يوغا، لا يمكن تطبيقه إلا أن يكون مجنونًا أو معتوًهاً، والإنسان أعزه الخالق بنعمة العقل، لا بد من المحافظة عليه، وإلا تعتبر هذه جريمة كبرى على النفس.

❖ إن نظرة هذا الكتاب إلى الحياة: أنها شر كلها، وأن الابتعاد عنها هو النجاة، وهذا لا شك في كونه مفهومًا سلبياً في الديانة الهندوسية، يقول الدكتور الأعظمي: يصور هذا الكتاب الحياة ... بحيث يبعث في النفس اليأس والقنوط، وهو مخالف تمامًا لما يدعو إليه الإسلام. يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادِ الَّذِينَ آسَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]^(١)، وقال: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

المطلب الرابع

بُران (PURAN)

معنى «بُران» :

كلمة بُران لها معنيان في اللغة:

١ - القديم^(١).

٢ - ما يكمل^(٢).

وكلا المعنيين صحيحان؛ إذ إنها تعني على المعنى الأول: أنها قديمة؛ وهي بهذا المعنى تعني الأساطير والقصص القديمة^(٣).

وعلى المعنى الثاني؛ أنها كملت ما تركته الثيديات والأوبانيشادات من المطالب المهمة للناس^(٤).

والمقصود بـ «بُران» كما يقول الأعظمي: هو الكتاب الذي يتحدث عن أساطير الأولين^(٥)، ويقول الدكتور بوريش مندل: كان الحكماء يتذكرون عقائدهم بالحكايات والأساطير والتمثيل والاستعارات حتى يثبت في ذهن العامة وجمعت هذه الحكايات والأساطير وما إلى ذلك في عدة كتب تسمى بـ بُران^(٦).

(١) انظر ما ذكره البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ص (٩١).

(٢) انظر ما ذكره شودانغشو كومار سكربارتي: دهارما تتر شار شغره ص (٨٠).

(٣) انظر ما ذكره: بوريش مندل في: تعليم الديانة الهندوسية، الفصل الرابع، ص (٢٠).

(٤) انظر ما ذكره شودانغشو كومار سكربارتي: دهارما تتر شار شغره ص (٨٠).

(٥) انظر ما ذكره الأعظمي اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٤٦).

(٦) انظر ما ذكره الدكتور بوريش مندل: تعليم الديانة الهندوسية ص (٢٠).

واضع البران وتحديد زمانها:

لقد وقع خلاف شديد بينهم في مؤلف هذه الكتب:

القول الأول: ذهب جلهم إلى أن مصنفه هو جامع «الفيدات» ، يعني «بياس بن پراشر» ، ويذكرون في ذلك كثير من الحكايات والقصص التي تتعلق ببياس بن پراشر^(١) كلها اختلاق وأكاذيب واضحة لعدة أسباب:

١- إن نسبة الكتاب إلى «بياس بن پراشر لا شك أنه كذب واضح؛ فإن شخصاً واحداً لا يقدر أن يصنف أو يؤلف في حياته القصيرة جميع هذه الكتب.

٢- قد ذكر في «بدم بُران» اسم الفيلسفي الهندوسي «شنكرأجاريا» وهو من مواليد القرن الثامن الميلادي وقد كان بعد «بياس بن پراشر» قطعاً^(٢).

القول الثاني: ذهب إليه بعض المعاصرين، حيث قال: إن البران كان كتاباً واحداً، مقسماً إلى ثمانية عشر باباً، فجعل بياس بن پراشر لكل باب عنواناً مستقلاً بأسماء الحيوانات أو المعبودات، ثم قسمه إلى ثمانية عشر كتاباً مستقلاً بذاته، كما قسم الفيدات قبل ذلك إلى أربعة أقسام^(٣).

يقول الدكتور الأعظمي: يظهر من مطالعة «بُران» أنه كان يشمل أولاً ثمانية عشر باباً فأخذ كل باب على حدة، وألف عليه بُران مستقلاً^(٤).

القول الثالث: قول البيروني حيث عزاها إلى من يزعمون بأنهم ملهمون، فقال: «وأما البرانات وتفسير بران الأول القديم، فإنها ثمانية عشر ... وهي من عمل القوم المسمّين «رشين»^(٥) - يعني الملهمين -.

(١) انظر بهكيت بران ص (٢٣١)، وانظر في بداية «بدم بران» مثله.

(٢) انظر ما ذكره الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٤٧).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور ذاكر نائق في مقاله: Hinduism and Islam, a comparative study ص (١٢).

(٤) انظر ما ذكره الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٤٧).

(٥) انظر ما ذكره البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص (٩١).

وأما زمن كتابته فعلى القول الأول الذي ينسبه إلى بياس بن پراشر في حدود ٣٠٠٠ قبل الميلاد، كما سبق ذكر ذلك عند الكلام على القديسات^(١)، التي يعزونها أيضًا إلى بياس بن پراشر نفسه^(٢).

وعلى القول الثالث؛ أنها كتبت في أزمان مختلفة^(٣)، وقد حدد بعض علماء الهندوس زمان كتابة هذه الكتب حسب الموضوعات على النحو الآتي:

العصر الأول: من عام ١٢٠٠ إلى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، وفي هذا العصر كتبت القصص والأساطير المتعلقة بأخبار وأحوال الملوك والأموال والكهنة.

العصر الثاني: من عام ١٠٠٠ إلى عام ٦٠٠ قبل الميلاد، وفي هذا الزمن سطرت الأساطير التي تحكي مبدأ البشرية وخلق الإنسان الأول.

العصر الثالث: من عام ٦٠٠ قبل الميلاد إلى عام ١٠٠ بعد الميلاد، وفي هذا العصر كتبت الأساطير المتعلقة بخلق السموات والأرض وأحوال الكون.

العصر الرابع: من عام ١٠٠ إلى ٧٠٠ من الميلاد، وفي هذا العصر سجلت كثير من المسائل العقديّة، وخاصةً ما يدور حول عقيدة التثليث، وكذلك أخبار الإله «فِشْنُو» وحلوله في أشياء كثيرة، وتجسده في صور مختلفة، وكتبت في هذا العصر أيضًا بعض الأمور التشريعية لعبادة الآلهة وكيفية إقامة الطقوس الدينية^(٤).

إلا أن هذا التحديد غير مقبول؛ إذ الموضوعات المطروحة في البرانات مختلطة، فلا يمكن أن يفرد من ناحية واقع هذه الكتب كل موضوع على حدة في زمن محدد، ثم يضم إليه الموضوع الآخر بعده؛ لأن هذه الطريقة هي طريقة الكتب التاريخية التي يمكن

(١) راجع ما سبق في الفرع الأول عند الكلام على القديسات ص (١٣٧).

(٢) انظر ما ذكره شودانغشو كومار سكربرتي: دهارما تته شار شَنْغَرَه ص (٨٣).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور محمد مرسى أبو الليل: الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ص (٦٠).

(٤) انظر ما ذكره المؤلف الهندوسي شَيْفَا دَتْ غِيَانِي في تاريخ الأدب السنسكريتي ص (٥٠)،

أن يُلحق بعضها ببعض مثل كتاب اليهود العهد القديم الذي تحدث أولاً عن قصة خلق السموات ثم قصص بعض الأنبياء المتقدمين، ثم قصة موسى ثم من جاء بعده، إلى زمن اليونان، فهذه يتضح منها التسلسل التاريخي، والدراسات التاريخية لها تثبت أنها كتبت في أزمان متعاقبة، أما كتاب بُران فإن الحكايات والأساطير والعقائد مختلطة فيه ليس بينهما فواصل زمنية محددة يمكن على ضوءها قبول دعوى المحدّد لكل واحدٍ منها زمنًا خاصًا.

يقول غوستاف لوبون : مجموعات بران وضعت في أدوار مختلفة، لا تتجاوز القرن الثامن بعد الميلاد، وملئت بالخرافات العجيبة، وعطلت عن أي تاريخٍ عطلاً لا يستطيع العلم الحديث أن يستنبط معه كبير شيء^(١).

ويقول ول ديورانت: لما كانت فلسفة البراهمة الميتافيزيقية تتجاوز حدود أفهام الناس، فقد نهض «بياس» وآخرون في مدة تطاولت إلى ألف عام (من ٥٠٠ ق.م إلى ٥٠٠ م.ب) وأنشأوا كتب «بُران» يعرضون فيها لعامة الناس حقيقة خلق العالم بصورتها الدقيقة وما يطرأ عليها من مراحل الكون والفساد المتعاقبة على فترات دورية، ونَسَبِ الآلهة، وتاريخ عصر البطولة^(٢).

وهذا القول الأخير هو الذي يمكن قبوله في كاتب هذه الكتب وزمانه والله أعلم.

كتب بُران:

عدد كتب بران كثيرة جدًا؛ حيث وصلت في بعض الإحصائيات إلى ١٠٨ كتابًا مستقلًا، وأكثرها قبولًا عندهم ثمانية عشر كتابًا، وأعظمها رتبة وأكثرها تداولاً بين الناس واحد منهم يسمونه «بهكبت بُران» (BHAGWAT PURAN) فالهنادك يتلونه كل يوم بعد الصبح بكل أدب واحترام^(٣).

(١) انظر حضارات الهند ص (٢٠٦).

(٢) انظر ما ذكره ول ديورانت : قصة الحضارة (٣ / ١ / ٢١٠).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور محمد الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٤٧).

يقول البيروني: وهي ثمانية عشر وأكثرها مسماة بأسماء حيوانات وأناس وملائكة (لعله يقصد بالملائكة ما يسميه الهندوس بـ«ديوتا») بسبب اشتغالها على أخبارهم أو بسبب نسبة الكلام إليها، أو الجواب عن المسائل إليها^(١).

أسماء كتب بُران المهمة عندهم :

كتب بُران المهمة ثمانية عشر، ويقال لها البرانات الكبرى، وهي :

١ - براهمند بُران : (أي: خصية براهم) : عدد أبياته ١٢٠٠٠ بيت.

واشتمل هذا الكتاب على بيان عن ليل ونهار «براهما» - والذي يسمونه بـ«كلپ» وهو يساوي أربعة ملايين وثلاثمائة وعشرين ألفاً من السنوات البشرية^(٢) - واليوغ^(٣) والمنتر - مقدار من الزمن . كما اشتمل على ذكر أسماء الأسرة الملكية وغيرها.

ويقول بعضهم: إن هذا الكتاب قد فقد منه جزء كبير، ومن الملاحظ أن هذا الكتاب يتفق مع كتاب آخر يسمونه باج بران؛ فإن بينهما تطابقاً، إلا في اسم الإله فإنه حسب براهمند بران قُسنُو، وحسب باج بران : شِيْقَا^(٤). فالتفريق فقط في الكلمة التي اختتمت

(١) انظر ما ذكره البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص(٩١).

(٢) انظر ما ذكره إمام عبد الفتاح إمام في معجم ديانات وأساطير العالم (٢/ ٢٦٢).

(٣) الأطوار التي مرّ بها العالم في الأساطير الهندوسية، ويقال عادة: إن العالم مرّ بأربعة عصور - كريتا يوغ : أي العصر الأول كان الناس فيه على قدر من الاستقامة، والانسجام مع الحياة، وقد استمر فترة تقدر بـ«١,٧٢٨,٠٠٠ سنة».

- تريتا يوغ : أي العصر الثاني، وفيه بدأ انهيار استقامة البشر.

- دواپر يوغ : أي العصر الثالث، وفيه دخل الشر إلى العالم.

- كلي يوغ : أي العصر الرابع، الذي بدأ من عام ٣١٠٢ قبل الميلاد، وسوف يستمر ٤٣٠,٠٠٠ سنة!، وكل عصر يقصر عن العصر الذي قبله والعصور الأربعة تشكل ما يسمى «مها يوغ»، وكل ألف «مها يوغ» تشكل «كلپ» الذي هو ليل ونهار واحد عند الإله الهندوسي «براهما»، أو ما يعادل ٤,٣٢٠,٠٠٠ سنة من سنوات البشر! (وهذا على حساب السنة (٢٦٠) يوماً، وعلى حساب السنة بـ(٣٦٥) تكون المدة (٤,٣٢٠,٠٠٠ سنة).

(٤) انظر مقدمة كتاب «برهمند بران» (الصفحة الأولى).

بها البرانان^(١). وقد ذكر مترجم الكتاب إلى اللغة البنغالية عدة أدلة دالة على أن هذا الكتاب مما ألف ما بين القرن الثاني الميلادي إلى القرن التاسع الميلادي^(٢).

٢- برهم بيبرت بران : (أي: الذي بُيِّنَ فيه تجسد برهمان)^(٣): عدد أبياته ١٨٠٠٠ بيت، وهو على ينقسم إلى أربعة أقسام:

أ- قسم براهما في ثلاثين فصلاً، بين في هذا القسم كيف كان بداية الخلق من برهمان مفصلاً، وانصبت فكرة صاحب هذا البران إلى أن الخلق ما هو إلا محض إرادة سري كريشنا؛ (لأنه برهمان اللاشخصي الأصلي المتجسد).

ب- قسم الطبيعة في ستة وستين فصلاً، ذكر فيه أن كريشنا هو الطبيعة التي وجوده في كل شيء^(٤).

ج- قسم غانيشا في أربعة وستين فصلاً، فقد ذكر فيه كل ما يتعلق بولادة غانيشا بن كالي زوجة مهاديو (شيفا) كما ذكر في هذا القسم كثير من الرقي والتعاويد والأذكار وغيرها.

د- وفي الأخير ذكر ولادة سري كريشنا وذلك في مائة وثلاثة وثلاثين فصلاً، هذا الكتاب وإن كان معدوداً مما يجعل الفوقية لعباد براهما إلا أن حاله الآن ليس كذلك، بل كله في مدح فشنو، كأنه من البرانات التي تمجد فشنو.

ولما وصل إلى قسم «سري كريشنا» ذكر كل ما يتعلق به من ولادته ونشأته وأعماله ومغامراته وحب وغرامه مع «رادها» قرينته، بأبشع صورة ممكنة، وقد جاء فيه من عجائب

(١) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاستر، قسم البرانات ص (٥-٦).

(٢) انظر مقدمة ترجمة كتاب «برهمند بران» (الصفحة السابعة).

(٣) راجع مقدمة ترجمة كتاب «برهم بيبرت بران».

(٤) راجع مقدمة ترجمة الكتاب.

وغرائب أعمال سري كريشنا القبيحة مع عشيقته «رادها» ما لا يرى في غيره^(١).

٣- ماركنديو بران (ماركنديو اسم ريشي كبير، وهو منسوب إليه) : عدد أبياته ٩٠٠٠ بيت، مقسم على مائة وثمانية وثلاثين فصلاً، لا يفهم من قراءة هذا الكتاب أنه لأي فرقة من الفرق الثلاث الهندوسية؛ إلا أن ما جاء فيه من أخبار التناسخ وكارما وأخبار الأفاعي والحيات تشير إلى أن مصنف هذا الكتاب تأثر كثيراً من مبادئ البوذية، وأخذ كثيراً من مفاهيمهم.

يزعم الهندوس أنه يوجد فيه نصائح قيمة وأنه من حسن بيانه يضاهي «فِشْنُو بران»، ويوجد في داخل هذا الكتاب بيان لعبادة «دِيفِي»^(٢) وفضلها والمقصود بها هنا: دُرْغا،

(١) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاستر، قسم البرانات ص (١٧).

(٢) الإلهة العظيمة في الديانة الهندوسية، وينظر إليها في بعض الأحيان على أنها زوجة شِيفَا، وهي ذات طبيعة رقيقة وشرسة في آن واحد. وتعد «ديفي» هذه واحدة من أقدم الآلهة التي عبدها الهندوس، ثم انضمت إلى مجمع الآلهة الهندوسي وتزوجها الإله شِيفَا، ثم أصبحت هي الإلهة شاكتي Shakti، وهي تقوم بأدوار كثيرة في الديانة الهندوسية، فهي في تجلياتها العديدة تسمى بـ«ساتي»، وفارباتي، وجاجنماتا، ودُرْغا، وهي أشرسها، وتعني كلمة Durga عسيرة المنال، وقد أطلق عليها هذا اللقب بعد قتالها العنيف مع الجاموسة الشيطانة المسماة «ماهيشا» Mahisa غير أن هذه الجاموسة الشيطانة بعد أن أدت الكفارة اكتسبت قوة كبيرة، وسيطرت على العوالم الثلاثة، وخلعت الإله إندرا من العرش، وجعلت الآلهة الأخرى تهرع إلى الإله براهما تطلب العون.

وكانت الآلهة في واحد من اجتماعاتهم قد وحدوا قوتهم وأنشطتهم، وأبدعوا امرأة هي أخطر من كل الآلهة والشياطين، وهي التي سُميت بدُرْغا، وهي في روايات مختلفة زوجة شِيفَا ولقد شرعت دُرْغا بعد ذلك في تدمير الجاموسة الشيطانة، ففي البداية أرسلت كالاراتي Kalarati (الليل المظلم) وهي أنثى سحر جمالها العوالم الثلاثة، بل إن ماهيشا نفسها انسحرت بجمال كالاراتي وسارت وراءها، وهي بالطبع صورة من دُرْغا، لكنها اكتسبت صورة النار عسيرة المنال، وعندما رآها الشيطان أمامه المتخفي في صورة بقرة التهب بقوة سحرها، وتحول إلى جبل ميرو Meru وأرسل لها جيشاً جراراً، لكنه تحول إلى رماد بفضل نيرانها.

من قرينات أحد الثالوث الهندي شيفا، ولأهمية هذا الجزء يقرؤه الهندوس كل صباح مع الاحترام والتبجيل والتوقير، ولأن عبادة «دُرغا» منتشرة في كثير من مناطق الهند، فهم يرتلون ما جاء عن أخبارها وأعمالها حتى يحصل لهم ما يتمنون من الحصول على النعم العظيمة وبقائها^(١).

ومن أهم القصص التي وردت فيه: أن ملكاً من الملوك في الزمان الثاني (الذي يسمونه زمان تريتا) خرج للصيد، فسمع صوت امرأة: أنقذوني، فتكلم الملك بكلام فيه كبر وفخر وتعالٍ، فتصدى له الريشي «بشامترا»^(٢) (الذي حصل على البرهمية من الكهشترى بفضل رياضاته الكثيرة الشاقة)، وحصل بينهما الحوار إلى أن أعطى له

= غير أن ماهيشا أرسل جيشاً مؤلفاً من ٣٠,٠٠٠ عملاق جعلوا كالاراني تهرع إلى دُرغا الإلهة التي تستطيع أن توجد في مكانين مختلفين في وقت واحد، وبدأت جحافل الجيش تطلق سهاماً رفيعة جداً مثل قطرات المطر على شكل عاصفة على دُرغا، التي كانت تجلس على قمة جبل فيندهيا، وفي المقابل أرسلت لهم دُرغا أسلحة تدمر الكثير مما تسلم به العمالقة، وصوّب ماهيشا نفسه سهماً خطيراً إلى قلب دُرغا لكنها استطاعت أن تفلت منه، واستمرت المعركة بعض الوقت حتى استطاعت دُرغا أن تنفذ رمحها الثلاثي في صدر ماهيشا فأخذ يدور حول نفسه هنا وهناك. ويظهر بصورته الأصلية العملاق ذي الألف ذراع الذي يحمل سلاحاً في كل منها، حتى اقترب من دُرغا التي أمسكت بأذرع وطوحته في الهواء ثم ألقت به على الأرض، ولما وجدت أنه لم يقتل بعد غرزت سهماً في صدره، فبدأ الدم يتدفق من فمه، ثم مات.

وكثيراً ما يصورون دُرغا في الفن الهندوسي امرأة بلون ذهبي لها عشرة أذرع، تحمل حربة باستمرار؛ واحدة منها مغروزة في صدر ماهيشا، وتمسك في اليد الأخرى بذيل ثعبان، وفي يد ثالثة شعر ماهيشا، بينما تجلس الحية في صدره، أما الأيدي الأخرى فهي مليئة بالأسلحة، بينما يجثو أمام قدمها اليمنى: أسد، ونمر، وفهد.

ولم يكن قتال دُرغا مع ماهيشا سوى واحدة من المعارك الكثيرة التي خاضتها الآلهة ضد الشياطين والمردة، وكثيراً ما تحمل لقب «الشیطان» بسبب لقاءها معهم ومنازلتها لهم. انظر ما ذكره أمَلْ كُومار بندوباداي: بُورَنيكا، مادة دُرغا.

(١) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار: هندو شاستر، قسم البرانات ص (٣٠-٣١).

(٢) الفاء في كلمة بشامترا لا تنطق، وإنما يأتي بالشدة عند نطق الحرف السابق.

الملك كل ما يملكه، وأصبح من الفقراء ومن باعث الفقر باع كل ما كان لديه من الأهل والأولاد، ولكن بِشْفَامِثْرَا لم يرض بكل ذلك طالبًا منه ما وعد بالوفاء له في أول الأمر بأنه يعطيه كل ما يطلبه. وفي الأخير باع الملك نفسه إلى «شودري» (الطبقة الرابعة)، وبدأ الشودري يشغله كنباش القبر على قسط من المال، وفي يوم من الأيام وجد امرأته من الموتى، وعرفها، وعرف ولده الذي مات بلدغ الحية، وكاد أن يقتل نفسه لولا أنه خاف أنه يحيى مرة أخرى كعبد للشودرا على قاعدة التناسخ، ثم بكى كثيرًا وتذكر «سري كريشنا» والتجأ إليه، فجاء إليه سري كريشنا، وتاب عليه بِشْفَامِثْرَا وأعاد عليه كل ما سلب منه من الأموال، ورجع كأنه لم يحصل له شيء، وأحيا له أهله وأولاده.

وقد وجدنا فيه أيضًا : عادة إحراق الأرملة مع الزوج الميت.

كما يوجد في هذا الكتاب بعض قصص رامايين ومهابهارت مما يدل على تأخره عنهما.

٤- بهاوِشُ بران : (أي : البران الذي يتحدث عما سيكون) : عدد أبياته ١٤٥٠٠، ولكن لا يوجد هذا الكتاب كاملاً، والموجود منه لا يتجاوز عدد أبياته على سبعة آلاف بيت، أما ما يوجد من شبه بران (أوبا بران) الذي يسمى أيضًا بـ«بهاوشُترُ بران»، فهو متأخر عن الأول، يحتوي على سبعة آلاف بيت، ولكن مجموع هذين الكتابين هل هما نفس كتاب «بهبشُ بران» أم هما كتابان متأخران متحلمان؟ قد اختلف فيه، ولكن الذي يرجحه كثيرون أن الموجود من هذا الكتاب متأخر في التأليف، حيث جاء في بعض البرانات مثل «ماج بران» ذكر بعض أبيات هذا البران القديم، ولكنها لا توجد في هذا البران الموجود الآن.

يوجد لهذا البران قسم يسمى كلكي بران، الذي تطرق إلى كلكي أفتار، (أفتار الذي يأتي في زمن كلّي، أو الزمان الأخير) وقد جاء في هذا البران ما يصدق على محمد ﷺ فقط، حتى اعترف أحد علمائهم بأنه ليس كلكي أفتار إلا محمد ﷺ وذكر

الأدلة على ذلك من هذا الكتاب، وأنه لا ينطبق إلا عليه^(١)، إلا أن الهندوس اختلفوا في قبول هذا الجزء من الكتاب، وقالوا بانتحاله وأنه من وضع المتأخرين وأنه مما أدرج في الكتاب في زمن متأخر جداً^(٢).

يوجد في هذا البران ذكر الخلق، والطبقات الأربعة، وأدوار الحياة الهندوسية الأربعة، وذكر فيه أحد أقسام الثالوث «شيفا» كثيراً حتى قال بعض الناس إن هذا البران مما صنف لعبادة شيفا^(٣).

٥- بامن بران : (أي : الإنسان الذي يقصر يداه ورجلاه عن مقدار بدنه حتى يستسمح لذلك هيئته) : عدد أبياته ١٠٠٠٠، مقسمة على خمسة وخمسين فصلاً، أهم ما جاء في هذا البران، نزول فشنو (أحد الثالوث) على صورة بامن أفتار (التجسيد الخامس)، وخداعه للبعض وقتله وما إلى ذلك، وقرايين ياكشا، وزواج شيفا (أحد الثالوث)، وولادة «كارتيك كومار» ابنه منه، كما أنه مليء بذكر الأماكن المقدسة للعبادة، كأن هذا البران مكرس لهذا الأمر^(٤)، وهو يشبه كثيراً مع براه بران الآتي^(٥) ويفهم من القراءة المتأنية أنه كتاب من كتب فرقة «فشنو»^(٦). ويوجد فيه بيان الأسباب التي تدخل الناس في النار وكيفية التخلص منها^(٧).

ثم إن أهم ما جاء فيه ذكر قصة بامن أفتار: والقصة كما يذكرونها : أنه جاء عند

(١) انظر كتاب ويد بركاش أوباداي : كلكي أوتار أور محمد صاحب.

(٢) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاستر، قسم البرانات ص (٥٧).

(٣) انظر ما ذكره أمل كوماز بندوباداي : بوزنيكا (٦٣/٢).

(٤) انظر ما ذكره أمل كوماز بندوباداي : بوزنيكا (٦١/٢)، وانظر ما ذكره شودهير سندر سركار :

برانيك أبهيدان ص (٣٠٠)، وشودانغشو كومار سكربرتي: دهارما تته شار شنغره ص (٨١).

(٥) انظر ما ذكره أمل كوماز بندوباداي : بوزنيكا (٦١/٢).

(٦) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاستر، قسم البرانات ص (٦٦).

(٧) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاستر، قسم البرانات ص (٦٧-٧٠).

انقضاء المنتثر* السادس الذي فيها دمر على الملك «بل بن بيروجن» الذي استوزر الزهرة وملك الدنيا، فإنه لما سمع من أمه فضل أيام أبيه على أيامه إذ كان إلى أول «كريتا جوك» أقرب والناس في الراحة أغرق ومن التعب أبعد هزته الهمة إلى التنافس في ذلك، فأخذ في أعمال البر وبت الأعطية وتفريق الأموال وتقريب القرابين التي يستحق عند استتمام مائة منها ورئاسة الجنة والعالم، فلما قارب التمام أو كاد بالفراغ من تسعة وتسعين منها أشفق الروحانيون على مكانتهم وعلموا أن ما لهم من الناس منقطع إذا استغنوا عنهم، فاجتمعوا إلى نارائن (فِشْنُو) مستصرخين به، فأجابهم إلى ملتسمهم ونزل إلى الأرض في صورة «بامن»... وجاء إلى «بل» الملك وهو في عمل القربان والبراهمة عنده حول النيران والزهرة وزيره بين يديه، وقد فتحت الخزائن وصيبت الجواهر صبراً للصلوات والهبات والصدقات، فأخذ بامن كالبراهمة في قراءة «فيد» من الموضوع الذي يسمى الآن «سام فيد» بلحن شج مطرب هز الملك على السخاوة له مما أراد واقترح، فسارته الزهرة بأن هذا نارائن قد جاء لاستلاب ملكك فلم يحفل بقولها لشدة طربه وسأله عما يريد فقال: مقدار أربع خطوات من ملكك أتعيش فيها، فقال: اختر ما تريد وكيف تريد، وطلب الماء ليصبه على يده فينفذ بذلك ما أمر به، وهو رسم لهم، ودخلت الزهرة الإبريق لشدة محبتها للملك وسدت بلبلته لئلا تخرج الماء فتحبس ثقبه البلبلة بحشيشة خاتم البنصر، وعور عين الزهرة ونحاها فسال الماء، وخطا بامن واحدة إلى المشرق وأخرى إلى المغرب وثالثة إلى فوق بلغت «سفرلوك» (الملكوت العليا)، ولم يبق للرابعة من الدنيا موضع فاسترقه بها ووضع رجله بين كتفيه لسمة الاستعباد وغوصه في الأرض حتى ساخ إلى «باتال» أسفل السافلين. وأخذ العوالم منه وسلم الرئاسة إلى «بُرندر»^(١).

٦- برهم بران : (منسوب إلى براهم): عدد أبياته ١٠٠٠٠، يقال له أيضاً: «آدي بران» أي البُران الأول، حيث يدعون أنه أول البرانات^(٢)، وهو غير صحيح؛ إذ

(١) استندت ترجمة القصة من البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص(٣٠١-٣٠٢).

(٢) انظر ما ذكره شودهير سندر سركار : بُرانيك أبهيدان ص(٢٩٧).

يُذكر فيه حوادث القرن الثاني عشر والثالث عشر^(١)، ويسمى أيضًا بـ«شور بران» وشور هنا تعني الشمس؛ وذلك لكثرة ما فيه من ذكر عبادة الشمس وكيفياته المختلفة^(٢).

يوجد فيه الكلام عن كيفية الخلق، وعن نزول نهر غَنَّا - المقدس لديهم - من السماء، وعن الشمس والقمر، والأماكن المقدسة للعبادة^(٣).

ويذكر فيه عن «سري كريشنا» وولادته، كما يذكر فيه بعض أماكن العبادة في أوريسا الحالية في الهند^(٤).

كما يُذكر فيه نسب أسر الريشيين، وأسرة الشمس، وأسرة القمر^(٥).

٧- فِشْنُو بران : (أي: المنسوب إلى فِشْنُو) : عدد أبياته ٢٣٠٠٠، يُعتقد أن هذا أقدم البرانات^(٦)، ومن أهم البرانات لفرقة فِشْنُو، وقد اعترف به رامانوج - أبرز زعماء الفرقة الفِشْنُوِيَّة، وهو بران بمعنى الكلمة حيث يوجد فيه جميع صفات البران الخمسة، إلا أنه ذكر فيه أسرة موريا الهندية العريقة مما يدل على إنه من تأليف القرن الأول والثاني الميلادي، لأنهم كانوا يحكمون الهند في هذه الفترة^(٧).

وهو مقسم على ستة أقسام: يوجد في القسم الأول اثنان وعشرون فصلاً، ذكر فيه بداية أمر فِشْنُو وقرينته لكهشمي، وسيرة ذُرُوب وپرهلاَد^(٨)، وفي القسم الثاني ستة

(١) انظر ما ذكره أَمْلُ كُومَارَ بَنْدُوبَادَايَ : بُورَنِيكَا (٦٢ / ٢).

(٢) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاستر، قسم البرانات ص (٧٠).

(٣) انظر ما ذكره شودانغشو كومار سكربرتي : دهارما تَّه شار شَنْغَرَه ص (٨٠).

(٤) انظر ما ذكره أَمْلُ كُومَارَ بَنْدُوبَادَايَ : بُورَنِيكَا (٦٢ / ٢).

(٥) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاستر، قسم البرانات ص (٨٠).

(٦) انظر ما ذكره أَمْلُ كُومَارَ بَنْدُوبَادَايَ : بُورَنِيكَا (٦٢ / ٢).

(٧) انظر ما ذكره أَمْلُ كُومَارَ بَنْدُوبَادَايَ : بُورَنِيكَا (٦٢ / ٢).

(٨) ابن ملك من الملوك، وقد كان ذلك الملك أنكر الروح الأعلى، وأنكر وجود فِشْنُو، ولكن =

عشر فصلاً، ذكر فيه الأرض والجزائر السبعة والمحيطات السبعة وما إلى ذلك^(١)، وفي القسم الثالث ثمانية عشر فصلاً، ذكر فيه قصة تقسيم القيثادات من قبل بياس بن براشر، وتفريعه، وأدوار الحياة، والطبقية، وغير ذلك، وفي القسم الرابع أربعة وعشرون فصلاً، ذكر فيه نسب أسرة الشمس وأسرة القمر وأسراً أخرى، وفي القسم الخامس ثمانية وثلاثون فصلاً، مكرس لذكر سري كريشنا، وأعماله، وحبه وغرامه مع الجوپيات (راعيات الأبقار)، وأما القسم السادس ففيه ثمانية فصول، ذكر فيه فلسفة بهاكتي (العبادة بالحب والولع للإله كريشنا)، وكيفية اليوغا، والخلاص أو موکشا (نرفانا).

نرى في هذا البران أن فِشْنُو هو الروح الأعلى، وأنه في قلب كل العوالم، وأن من ذكره يذهب عنه كل هم وغم، وأنه هو الذي يحيي ويميت.

كما نرى فيه دعوى التناسخ، ومحاولة إثباته بضرب الأمثلة والاستعارات؛ وقد ادعى أن من أسباب التناسخ: بقاء الرغبة في شيء ما^(٢)، ونرى فيه السياسة الملكية تجاه الأصدقاء، وأنها تكون بأربعة أوجه: إما بالمحبة، وإما بالعطاء، وإما بالتفريق، وإما بالعقاب^(٣).

كما نرى فيه دعوى الـ(أفتار) وذكر أفتار فِشْنُو في كل دور من الأدوار^(٤).

= ابنه هذا كان مخلصاً لفِشْنُو، وكان يرى أن فِشْنُو هو الروح الأعلى، ويذكرون أن الملك أمر بقتله وضربه، وحرقه، ولكن في كل ذلك كان يحميه بِشْنُو من كل أنواع العذاب والنكال. انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاستر، قسم البرانات ص (٨١-٨٦).

(١) انظر ما ذكره البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص(١٧٩-٢٣٧)، حيث ترجم كثيراً من فقراته مقارنةً من باج بران وماج بران، مع التنقيذ لكثير من آرائهم.

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) انظر ما ذكره البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص(٣٠٢-٣٠٤).

٨- نَارْدُ^(١) بران : (وهو ابن براهيم) : عدد أبياته ٢٥٠٠٠، هذا الكتاب يعلمه نارد لتلميذه سَنَكُومَار، ويخبره أنه يحب فِشْنُو ويوقره، بل هو مليء ببيان أوراد فرقة فِشْنُو، وديانتها، ويذكر فلسفة بهاكتي، واشتمل على الثناء على شِيفَا أيضًا، ولكن تفصيل فِشْنُو على سائر المعبودات الأخرى واضح جدًا في فصوله، ويفهم من بعض ما يشتمل عليه أنه ما أُلِفَ إلا بعد دخول المسلمين في الهند، فهو إذاً أحدث بكثير من البرانات الأخرى^(٢).

ويشتمل أيضًا على ذكر الثواب والعقاب والنار والجنة، وأدوار الحياة الهندوسية، والطبقات الاجتماعية، كما نرى فيه عقيدة التناسخ راسخة، وهكذا نرى فيه عادة «ستي» أو إحراق الأرملة مع الزوج الميت، كما ذكر فيه بعض قواعدها، (من تُمنَع من الإقدام على هذا العمل ومن يُسمَح لها)، والثناء على الرهبان والحكماء الريشيين، وأن الريشيين بفضل اليوغا يعرفون الماضي والحاضر والمستقبل، وأن النظرة الواحدة من هؤلاء الريشيين ربما يطهر الميت من الآثام والعواقب الوخيمة^(٣)، وقد حث هذا البران على صحبتة الصالحين، وترك مجالسة الطالحين، كما نلاحظ في بعض أبياته الإيمان بالقدر الذين يسمونه (دُؤَيْب)، وغير ذلك من الموضوعات^(٤).

٩- بَهَكْبَتُ بُرَان : (نسبةً إلى فلسفة بهاكتي الذي يعلمه كريشنا، وجوهرها: عبادة

(١) نارد هو: هو الابن النفسي لبراهما، فإن براهيم لما أراد خلق المخلوقات خلق أولاً : مريجى، أترى، سكندا، وغيرهم، ثم خلق سنك، وسنان، ستكومار، نارد، ورودرا ديب، إن هذا الحكيم (نارد) - كما يزعمون - كان بصيرا بالماضي والحال والمستقبل، عارفاً بالعوالم الثلاثة، عالماً بالقيادات، وعباداً مشهوراً، وكلمة نارد مأخوذة من نار + د، ومعنى نار في السنسكريتية : الماء، فإنه كان يعطي الماء دائماً لأجل الشبع، أي: صاحب الماء الذي يعطي الشبع في النهاية، (أو في المرسوم النهائي للموتى)

(٢) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاستر، قسم البرانات ص (٩٤-٩٥). انظر ما ذكره أَمَلُ كُومَارُ بَنْدُوبَادَاي : بُورَنِيكَ (٦١/٢).

(٣) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاستر، قسم البرانات ص (١٠٠).

(٤) انظر ما ذكره شودانغشو كومار سكربرتي: دهارما تته شار شَنُغَرَه ص (٨١).

الإله بالحب والعشق وحده): عدد أبياته ١٨٠٠٠، يسمى أيضًا بـ«سري»^(١) بهُكْبَتْ»، وقد سبق معنا أن هذا الكتاب من الكتب التي يدرسها الهندوس ليلاً ونهاراً، حيث يعتبرونه أحسن كتبهم على الإطلاق، خصوصاً لدى فرقة «فِشْنُو»، ويذكرون من حسنه: أنه يشتمل على قداسة الديانة، وإظهار العلم، وعمق اليوغا، وسيلان الحب والغرام، والسياسة ذات بعيدة النظر، وجريان الحب والولع المسمى بـ«بهاكتي»، إن هذه الأشياء واضحة في كل جزء من أجزاء هذا البران، ويرى الهندوس أن من قرأ هذا البران يحصل على الأعمال المقدسة الفيدية، والعلوم العريقة الأوبانيشادية، والأخلاق العالية للشريعة الهندوسية، والفلسفة المثالية، والقصص البرانية الواضحة الجميلة القديمة، والحق الدامع.

يقول بعض الهندوس: إن بهُكْبَتْ بُران هذا يوصف بأنه فريد، وأوبانيشاد، وفلسفة، ومحفوظات دينية، وبُران، كما أنه من أحسن الدواوين الشعرية، لا يوجد له مثيل في حسن نظمه واتساقه، وجمال بيانه ومعانيه، ونستطيع أن ندعي بأن من قرأ هذا الكتاب قراءة متأنية لا يخفى عليه أي علم من العلوم الهندوسية^(٢).

والكتاب يشتمل على اثني عشر باباً، الباب الأول يشتمل على تسعة عشر فصلاً، ويتضمن تمجيد كتاب بهُكْبَتْ والثناء عليه، وبيان كونه أحسن العلوم من جميع علوم الموجودات، ونزول الإله بصورة من الصور، وكيف نزلت نصوص بهُكْبَتْ، وبعض أخبار ملوكهم وعجائبهم.

أما الباب الثاني ففيه عشرة فصول، ويتضمن بعض القصص والحوار بين بعض كبار نحلته وتلاميذهم، والإجابة عن بعض أسئلة السائلين لهم.

أما الباب الثالث فهو في ثلاثة وثلاثين فصلاً، ويتضمن ذكر أنواع المخلوقات، وولادة كِبِلْ دِيُو، وبعض ما يتضمن فلسفة سانخيا، ويوغا سانخيا، ومصير الخلائق.

(١) كلمة «سري» من الكلمات التي تستخدمها الهندوس كثيراً احتراماً وتبجيلاً.

(٢) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار: هندو شاستر، قسم البرانات ص (١٠٤).

أما الباب الرابع فهو في واحد وثلاثين فصلاً، مخصص لبيان بعض القرائين، وبعض أنساب مُتُو، وبناته، وبعض ما حصل بين شينفاً وياكشا، من الجدل، والنزاع، وبعض ما يتعلق بالحياة الأسرية.

أما الباب الخامس ففي ستة وعشرين فصلاً، يُذكر فيه ما يتعلق بأنساب بعض الريشيين (الحكماء)، كما يتضمن ذكر الجغرافيا، وما إلى ذلك.

أما الباب السادس فهو في تسعة عشر فصلاً، مكرس لبيان فضل قِشْنُو وفائدة ذكره، حيث ذكر ذلك بقصة مشهورة، وهي أن رجلاً يسمى بـ«أجامل»، كان من الفسقة والفجار، ولكنه سمى ابنه بـ«نارين» (باسم قِشْنُو الإله الحافظ عندهم؛ ونارين اسم من أسماء قِشْنُو) ولما جاء وقت موته حضره من يعذبه ويدخله النار، وفي أثناء ذلك نادى الرجل: يا نارين!، فحضر من يأخذ روحه ويدخله الجنة، فتجادلا من الذي يأخذه فقال الأول: إنه ما نادى إلا ولده، وقال الثاني: ولو كان؛ فقد تلفظ باسم قِشْنُو، وهو نارين، فلا بد من الاحترام لهذا الاسم فأني سأدخله الجنة. وهم بهذه القصة يغرسون في قلوب الهندوس بأن مجرد تلفظ اسم «هري» أو «نارين» يكفي للنجاة. كما ذكر فيه بعض القصص التي تظهر مهمة نزول الرب بصورة البشر لإنقاذ الخلائق من المصائب.

أما الباب السابع فهو في خمسة عشر فصلاً، وقد جاء فيه قصة برهلاذ بن سري كريشنا معه، وكيف دعا عليه أبوه لمجرد نظر زوجته (أمهات برهلاذ) إليه وإعجابهن به. كما يشتمل على ذكر أدوار الحياة الهندوسية والطبقية.

أما الباب الثامن فقد جاء في أربعة وعشرين فصلاً، فيه أخبار المنتترات (أزمان براهما وعصور أربعة عشر منو، وما إلى ذلك من الوقائع) بالتفصيل، وكيف قام كل من الديوتا والدويت بتعصير البحر ليخرج منه الرحيق الأبدي حتى لا يموتوا، وكيف سرقه قِشْنُو، وما حصل من الحروب بين ديوتا (الملائكة أو الصالحين أصحاب الجنة - كما يظنون) ودويتا، - الفجار والفساق من أهل النار - كما يزعمون^(١)، وكيف نزل الرب

(١) وهم في الحقيقة يقصدون بـ«ديوتا» - حسب فهمي - الآريين وبـ«دويتا» الدراويد أو السكان الأصليين).

(فِشْنُو) بصورة السمك وأنقذ عباده المخلصين من بطش بعض الظالمين.

أما الباب التاسع فهو في أربعة وعشرين فصلاً، فيه بيان أنساب ملوكهم، كما نجد فيه الكلام عن «سري رام»، وپرشورام وما إلى ذلك من الشخصيات الأسطورية الخيالية والتي يصورونها شخصيات بطولية واقعية.

أما الباب العاشر : فهو في تسعين فصلاً، وقد خصص لبيان سيرة «سري كريشنا». أما الباب الحادي عشر فهو في واحدة وثلاثين فصلاً، نرى فيه قصة أسرة يادفا (الأسرة المعروفة في دولة سري كريشنا، وإن كان كريشنا ينسب إلى أسرة بريشنا)، وقصة موت سري كريشنا، وبعض أنواع اليوغا وفوائده.

والباب الثاني عشر في ثلاثة عشر فصلاً، نجد فيه بيان ملوك أسرة مغدا، من الملوك المتأخرين، ويشتمل على ذكر الملك أشوكا المشهور وزمانه^(١).

١٠ - كَرُر^(٢) (كُرْد) بُران : (وهي طائر مثل العنقاء يقال: أنه مركب فِشْنُو) : عدد

(١) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاستر، قسم البرانات ص (١٠٤-١٠٥).
(٢) طائر غريب في الديانة الهندوسية ركه الإله فِشْنُو، ويبدو أنه كان في الديانة الفيدية إلهًا للشمس، وكانوا يصورونه في البداية على أنه إله شمسي، غير أن كَرُر في كتب البرانات هو العدو اللدود لـ «ناغاس» Nagas وهي مجموعة من الشياطين على شكل أفاعي، وقد ورث كراهية الأفاعي من أمه فيناتا Vinata التي كانت قد تشاجرت مع «كادرو Kadru أم الأفاعي وعندما ولد كَرُر التبس الأمر وظنوه الإله أغني إله النار، ولهذا نراه في كثير من النصوص يرتبط بالنار وبالشمس.

وذاث يوم سرق كَرُر الأمريتا Amrita (ماء الحياة) شراب الآلهة لكي يشتري به حرية أمه «فيناتا» Vinata التي كانت تسجنها الشريرة كادرو، لكن الإله إندرا اكتشف السرقة ودخل في معركة شرسة مع كَرُر استعاد فيها إندرا شراب الآلهة.

هناك أسطورة أخرى في قصيدة شعرية «مهابهارت» تخبرنا أن كَرُر هو ابن الإلهة «فيناتا» Vinata والإله كاسيابا Kasyapa أبو الجنس البشري، وأنهما سمحا له أن يأكل أي إنسان شرير بشرط ألا يمس أي كاهن، وأنه التهم «ناغاس» أو الشياطين الأفاعي، وذاث يوم التهم «كَرُر» =

آياته ^(١) ١٩٠٠، هذا البران يشتمل على ذكر فِشْنُو على أنه نزل بصورة كُرُر، وهو على قسمين:

القسم الأول وهو قديم - حسب اعتقادهم - ويشتمل على آلاف الأسماء لفِشْنُو، وكيفية عبادته، والعلوم المتعلقة بطقوس الفرقة الفِشْنُوِيَّة، كما يشتمل على ذكر الكفارات عن بعض الذنوب.

أما القسم الثاني فهو حديث - حسب اعتقادهم - ويشتمل على مراسيم الموتى، وأحوال الموتى بعد الموت، والواجبات الأخيرة التي لابد من تقديمها تجاه الموتى، وغير ذلك ^(٢).

يعترف علماء الهندوس بأن أصل الكتاب مفقود، وإنما الموجود جميع من قبل بعض علمائهم، حيث إنه يشتمل على كثير من الآيات من مهابهارت، حتى من الكتب الأخرى المتأخرة عنه، كما أن الأمور التي تلاحظ في البرانات الأخرى لا توجد فيه إلا نادراً، بدلاً عن هذا نرى فيه كيفية عبادة الأصنام بأنواعها، (كأنه مكرس لهذا الأمر) كما نجد فيه العلوم المتعلقة بقواعد اللغة السنسكريتية، والعلوم الطبية القديمة وما إلى

= أحد رجال الدين البراهمة مع زوجته مخالفاً بذلك وصية والديه، غير أن «براهما» ظل يحرق بلغوم كُرُر حتى تقياً الكاهن وزوجته.

وكثيراً ما تصوره الآثار الفنية الهندية برأس وأجنحة، ومخالب، وظهر نسري، وجسم وأطراف إنسان، بوجه أبيض وأجنحة حمراء، وجسد ذهبي أو أخضر، وقد كانت الآثار الفنية تصور كُرُر في البداية على شكل طائر بمنقار ببغاء. ويحمل كُرُر عدة ألقاب منها: جاروتمان Garutman (رئيس الطيور) ومنها ناغا نسانا naga Nasena أي مدمر الأفاعي، وسرباراتي Sara-parati أي عدو الأفاعي. انظر ما ذكره إمام عبد الفتاح إمام في معجم ديانات وأساطير العالم (٢/ ١٨ - ٢٠).

(١) انظر مقدمة الكتاب، وقد اختلف في ذلك، حيث يذكر بعضهم أنه كان يشتمل على ٨٠٠٠ آلاف بيت فقط، انظر ما ذكره أمل كُومَار بَنْدُوبَادَاي: بُورِينكا (٢/ ٦٠).

(٢) انظر ما ذكره شودهير سندر سركار: بُرانيك أبهيدان ص (٣٠٠).

ذلك^(١). ومن الأشياء المهمة التي يثبتها هذا البران بصراحة ويستدل لها: عقيدة كارما والتناسخ^(٢). كما نرى فيه إثبات القدر المحتوم^(٣).

١١ - بَدْْمُ بُرَان : (أي : النيلوفر الأحمر): عدد أبياته ٥٥٠٠٠، سمي هذا البران بهذا الاسم لأن فيه ذكر كون هذا العالم في البداية مثل البيضة الذهبية على شكل زهرة النيلوفر أو اللوتس، وهو مقسم إلى خمسة أقسام^(٤): القسم الأول يشتمل على خلق العالم، والقسم الثاني: يشتمل على ذكر الأرض وخصائصها وخلقها، والقسم الثالث خاص بذكر الجنة - جنة الهندوس - والقسم الرابع يشتمل على ما تحت الثرى، أما القسم الخامس: فهو محدث - كما يقولون - ويسمونه «أتر كهاند».

ومن أهم ما نجد في هذا البران، كيفية الخلق، والقصص المتعلقة ببعض الشخصيات الدينية، وعظم شأن الأبقار، كما يذكر بعض الأماكن المقدسة لديهم، واشتمل أيضاً على ذكر كريشنا وأعماله القبيحة، وعظم شأن شيفا وقدراته الخارقة^(٥).

هذا الكتاب لا يوجد كاملاً، كما يقولون، وإنما الموجود من جمع أحد الهندوس في مدينة بمباي، في القرن الماضي، ولم يكن جمعه مستنداً على شيء موثوق، فحصل فيها أشياء كثيرة من الكتب الأخرى، ومع ذلك فإنه يشتمل على ٤٥٢، ٤٨ من الأبيات فقط، يفقدها التنسيق والترتيب الجيد^(٦).

(١) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاسترو، قسم البرانات ص(١١٧).

(٢) انظر كرور بران : (١١٣/ ١٠، ١٢، ١٨، ١٩، ٢٩، ٣٧).

(٣) انظر كرور بران (١١٣/ ١٩، ٢٨).

(٤) ومنهم من يقول إنها مقسمة على ستة أقسام، وزاد قسمًا يسمونه: كريرا كهاند، أو قسم الأعمال.

انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاسترو، قسم البرانات ص(١٢٨).

(٥) انظر ما ذكره شودهير سندر سركار : بُرانيك أبهيدان ص(٢٩٨)، وانظر : ما ذكره أَمْلُ كُومَارُ بَنْدُوبَادَاي: بُورَنيكا (٢/ ٦١).

(٦) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاسترو، قسم البرانات ص(١٢٨-١٢٩).

هذا، ونجد في هذا البران: ذكر الديانة الجينية، ونقد للقيادات، ونقد لبعض أنواع القرايين^(١).

١٢ - بُرَاةُ بُرَان : (أي : الخنزير) : عدد أبياته^(٢) ٢٤٠٠٠، ولكن الموجود الآن لا يزيد عدد أبياته عن ١٠,٠٠٠ إلى ١٠,٥٠٠ أبياتٍ فقط^(٣). سمي بهذا الاسم لاشتماله على قصة تجسد فِشْنُو مرةً بجسد الخنزير، واشتمل الكتاب على تمجيد فِشْنُو، وتمجيد تجسده بجسد الخنزير، وما ذا قدم للكائنات في ذلك التجسد^(٤).

كما اشتمل على بعض القصص لبعض الشخصيات الهندوسية^(٥). يفهم من القراءة المتأنية أنه حديث في تأليفه، وإن كان كثير من الهندوس يدعي كونه من البرانات القديمة^(٦).

١٣ - مَج بُرَان (أو ماج بران: (كلمة ماج تعني السمك): عدد أبياته ١٤٠٠٠، يدعي بعضهم بأنه من أقدم البرانات، أهم ما ورد فيه أن فِشْنُو تجسد على هيئة السمك، وأخبر منو (بَيْسْتْ) بما سيحدث للخلائق، وكيفية الخلق، وبيان أسر بعض الملوك، كما اشتمل على أمور الديانة، والأخلاق، وبناء المعابد، والأصنام^(٧). كما نرى فيه ذكر الديانة الجينية والبوذية أيضاً^(٨)، مما يجعل ادعاء القدم له في موضع الشك والتهم.

-
- (١) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاسترو، قسم البرانات ص(١٣٢-١٣٤).
 - (٢) انظر ما ذكره شودهير سندر سركار : بُرَانِيك أبهيدان ص(٢٩٩).
 - (٣) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاسترو، قسم البرانات ص(١٣٥).
 - (٤) انظر ما ذكره شودهير سندر سركار : بُرَانِيك أبهيدان ص(٢٩٩).
 - (٥) انظر ما ذكره أَمْلُ كُومَارُ بَنْدُوبَادَاي : بُورَنِيكَا (٦١/٢).
 - (٦) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاسترو، قسم البرانات ص(١٣٥).
 - (٧) انظر أيضاً : انظر ما ذكره شودهير سندر سركار : بُرَانِيك أبهيدان ص(٣٠٠).
 - (٨) انظر ما ذكره أَمْلُ كُومَارُ بَنْدُوبَادَاي : بُورَنِيكَا (٦٤/٢).

واشتمل الكتاب على ذكر واجبات الملك تجاه فئات رعاياه، كما اشتمل على بعض القصص الخرافية بأن بعض النجوم يسرق زوجات النجوم الأخرى وغيرها من الخزعات^(١).

ومن أهم القصص التي جاءت فيه : قصة منو (بَيْشْت) مع السمك، ونظرًا لكونها تتعلق بالديانات الأخرى فإنني سأذكرها هنا كما جاء في هذا الكتاب:

في الزمان القديم كان منو (بَيْشْت) الملك ترك ملكه لصالح ابنه وبدأ في عبادة براهما بالتشف الشديد، حتى عبده أكثر من مليون سنة، فظهر له يومًا براهما وطلب منه أن يطلب أي مطلب يريد، فقال له منو (بَيْشْت) أريد أن تمكّني على حفظ جميع الموجودات إذا حصل الطوفان، فقال براهما : لك ذلك، ثم اختفى.

وذات صباح عندما كان منو يغسل يديه اصطاد سمكة ودار بينه وبينها الحوار الآتي:

السمكة : «أعني وسوف أحفظك».

منو : تحفظيني من أي شيء؟

السمكة : من الطوفان الذي سوف يقضي على الكائنات الحية - سوف أنقذك عندئذٍ.

وهكذا طلبت السمكة من مانو أن يبقها على قيد الحياة بأن يحفظها في إناء زجاجي، وأن يضعها في إناء أكبر كلما نمت وكبر حجمها، وفي النهاية يلقي بها في المحيط، عندئذٍ طلبت منه السمكة أن يبني الفلك - سفينة كبيرة ليسافر بها، وفعل منو ما طلبت، وجاء الطوفان العظيم، فثبت منو حبل السفينة في قرن السمكة السحري، وسارت به حتى الجبل الشمالي (ويقال: هماليه) وربط السفينة بشجرة ضخمة حتى ينحسر الماء، وشاهد منو جميع الرجال والنساء يهلكون، فلم يكن في النهاية ثمة إنسان غيره ورغب في الأطفال، فراح يصلي ويقدم القرابين، ثم ظهرت أمامه فجأة امرأة، وقالت له إنها ابنته، فعاش معها يتعبدان ويعملان، ويكدان وأنسلا منهما نسلًا هو الذي

(١) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاسترو، قسم البرانات ص (١٤٧-١٤٨).

سمي فيما بعد باسم نسل مانو، أو نسل الإنسان^(١). وقيل: إنه كان وحيداً فدعا الإله أن يمنحه أولاداً فمنحه الإله زوجة ومن الزوجين خرج جيل مانو، وهم أجداد الإنسان.

وتقول إحدى الأساطير أن السمكة كان الإله فِشْنُو، وتروي مرة أخرى على أنها براهما، وفي الفكر الهندوسي يوجد ١٤ مُتَو؛ إذ يوجد ١٤ طوفاناً في تقويمهم ويبدأ بعد كل طوفانٍ دهرٌ من الزمن «كلب» ويعتبرون المرحلة الحالية: الـ«كلب» السابع^(٢).

١٤- كُورَم بُران : (أي: السلحفاة): عدد أبياته ١٧٠٠٠،^(٣) إلا أن الموجود منه ٨٠٠٠ ثمانية آلاف بيت فقط^(٤)، وقد قيل إنها الآن على ستة آلاف بيت فقط^(٥)، سَمِّي بهذا لأن فِشْنُو تكلم بهذا البران، وهو على هيئة السلحفاة المسمّى بـ«كورم عندهم، فتكلم عن أمور الديانة، والتهديب، والاقتصاديات والشهوة الجنسية، وكيفية الخلاص (نرثانا)، كما اشتمل هذا البران على ذكر أسرة بريغو، وآلاف الأسماء لپاريتي - زوجة مهاديو (شقيقاً أحد الثالث)، وأنشودة بياس بن پراشر، وأنشودة إلهية، والأماكن المقدسة ومجدها. كما نرى فيه ذكر الطبقات، وما يحصل بعد دمج بعض الطبقات بالزواج من الطبقات المستهجنة وأسماءها وتفصيلها^(٦).

هذا البران وإن كان قائله «نارين» (فِشْنُو) إلا أنه يعتبر بران فرقة شقيقاً، حيث إنه مليء بتمجيد شقيقاً وتعليته على جميع الآلهة^(٧)، ولكن ليس فيه أي غض لكرامة الآلهة

(١) انظر ما ذكره إمام عبد الفتاح إمام في معجم ديانات وأساطير العالم (٢/ ٣٧٨).

(٢) انظر ما ذكره آرثر كورتل في قاموس أساطير العالم، ترجمة: سهى الطريحي ص (٩٢).

(٣) إلا أن البعض يقول: إن أصل هذا البران كان يشتمل على ١٨٠٠٠ بيتاً، انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار: هندو شاستر، قسم البرانات ص (١٥٥).

(٤) انظر ما ذكره أَمْلُ كُومَارَ بَنْدُوبَادَايَ: بُورَنِيكَا (٢/ ٦٠).

(٥) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار: هندو شاستر، قسم البرانات ص (١٥٥).

(٦) انظر ما ذكره أَمْلُ كُومَارَ بَنْدُوبَادَايَ: بُورَنِيكَا (٢/ ٦٠)، وشودهير سندر سركار: بُرانِيك أبهيدان ص (٣٠٠).

(٧) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار: هندو شاستر، قسم البرانات ص (١٥٥).

الأخرى مما يجعلنا نجزم أن أصحاب هذا البران أرادوا عدم إثارة المشكلة الطائفية بل كان مقصدهم الائتلاف بين فرقة فِشْنُو، وفرقة شِنْفَا^(١).

١٥ - لنغا بُران : (أي: صورة عورة مهاديو/ شِنْفَا) : عدد أبياته ١١٠٠٠،^(٢)

هذا البران خاص في تمجيد مهاديو (شِنْفَا)، حيث يذكر أن شِنْفَا بدأ يلقي كلامه وهو على شكل لنغا (آلة التناسل) ، كيف أنه خلق الخلائق - وهو آلة التناسل - من النار، وهو من أبشع البرانات، تذكر بصراحة تمجيد لنغا، وكيفية عبادتها، ويذكر أن لشِنْفَا ألفاً من الأسماء والأوصاف، ويذكر زواجه مع فاربتي، ورقصه الرقصة المدمرة للكون، وما إلى ذلك^(٣).

هذا الكتاب لفرقة «شِنْفَا»، ولهذا تجد كل ما جاء في برانات فرقة فِشْنُو من المجد والأعمال العجيبة والبدیعة لِفِشْنُو فإنك تجدها هنا لشِنْفَا، كأن المؤلفين كرّسوه لبيان تفوق شِنْفَا على فِشْنُو^(٤). ويلاحظ القارئ من قراءة هذا الكتاب أن أسلوبه حديث وغير مفهوم في كثير من الأماكن^(٥).

١٦ - باج (بايو) بُران : (أي: الريح)، ويقال له أيضاً: (شِنْفَا بُران نسبة إلى مهاديو أو شِنْفَا، ويقال: إنه غير شِنْفَا بُران، وهو الصحيح^(٦)): عدد أبياته ٢٤٠٠٠، يعد الهندوس المعاصرون هذا البران أقدم البرانات، يوجد له ذكر في بعض مؤلفات القرن السابع، كما يوجد فيه ذكر ملوك غوبتا، والذين كانوا يحكمون البنغال والهند في القرن الرابع الميلادي، فالذي يترجح من هذا كله: أن هذا

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر ما ذكره أَمْلُ كُومَارُ بَنْدُوبَادَايُ: بُورَنِيكَ (٢/ ٦٤)، و شودانغشو كومار سكربرتي: دهارما تته شار شَنْغَرَة ص (٨١)، و انظر ما ذكره شودهير سندر سركار : بورانيك أبهيدان ص (٢٩٩).

(٣) انظر ما ذكره شودهير سندر سركار : بورانيك أبهيدان ص (٢٩٩).

(٤) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاسترو، قسم البرانات ص (١٦٥).

(٥) المصدر السابق .

(٦) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار : هندو شاسترو، قسم البرانات ص (١٦٩).

البران من مؤلفات القرن الخامس أو السادس الميلادي، وهو مقسم على أربعة أقسام: القسم الأول منه مشتمل على برهماند (البيضة الذهبية للبراهما الذي خلق منه الكائنات)، والقسم الثاني يشتمل على ذكر كَلْب، ونسب الحكماء والريشيين، وبرهماند ومنترات، وقصص شينفا (مهاديو)، أما القسم الثالث: ففي ذكر الحيوانات والمخلوقات، ونسب ملوك آل الشمس وآل القمر، وأما القسم الرابع فيشتمل على ذكر يوغا واليوغيين، وتمجيد شينفا^(١).

١٧ - اسكند بران: (اسكند: هو ابن مهاديو شينفا، فهو منسوب إليه، ويقال له: كارتيك أيضاً): عدد أبياته ٨١١٠٠،^(٢) وقيل: ٨١,٠٠٠،^(٣) وقيل: ٨١٨٠٠ بيت^(٤)، وسبب هذا الخلاف عدم وجود هذا البران كاملاً الآن، وإنما يوجد بعض المجموعات المنسوبة إليه^(٥). وهو مقسم على سبعة أقسام^(٦)، والمطبوع منه وصلت أبياته^(٧) ٨١,٠٠٠، إلا أن القسم المسمى «كاشي كهاند» اكتسب شهرة واسعة وقد فُصل فيه فضائل كاشي^(٨) - إحدى أماكن حج الهندوس -. كما أن هذا البران تحدث فيه اسكند - صاحب ستة أعين - عن وقائع الأيام الماضية، كما يوجد فيه تمجيد «اسكند» لأبيه «مهيشر» (شينفا)، كما نرى فيه قصة قتل

(١) انظر ما ذكره شودهير سندر سركار: بورانيك أبهيدان ص(٢٩٨). وأمل كُومار بَنْدوباداي: بُورنيكا (٦٤/٢).

(٢) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار: هندو شاسترو، قسم البرانات ص(١٧٦).

(٣) انظر ما ذكره أمل كُومار بَنْدوباداي: بُورنيكا (٦٤/٢).

(٤) انظر ما ذكره شودهير سندر سركار: بُرانيك أبهيدان ص(٣٠٠).

(٥) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار: هندو شاسترو، قسم البرانات ص(١٧٦).

(٦) وقيل: ستة أقسام، انظر ما ذكره أمل كُومار بَنْدوباداي: بُورنيكا (٦٤/٢).

(٧) انظر ما ذكره أمل كُومار بَنْدوباداي: بُورنيكا (٦٤/٢).

(٨) انظر ما ذكره شودهير سندر سركار: بُرانيك أبهيدان ص(٣٠٠).

«تاركاشور»^(١) أيضًا.

١٨ - أگني بُران : (أي: البران المنسوب إلى النار) : عدد أبياته ^(٢) ١٥٤٠٠، وقيل: عدد أبياته : ١٢٠٠٠، هذا البران من أهم البرانات لدى الهندوس، كأنه موسوعة عالمية، أغلب الظن أنه صنف في بنغالة أو في بهار في القرن التاسع الميلادي، يوجد فيه أشياء جانبية كثيرة، بدءًا من علاج الخيول والأفيال إلى قواعد اللغة السنسكريتية ومعاجمها، ولكنها غير مبسطة ولا مفصلة، يكاد يعتبر فهرسًا للموضوعات، فكأنه اشتمل على كل شيء، وليس فيه أي شيء كامل، يعدّه بعض الهندوس من شبه بران - الآتي الذكر - ويقولون: إن أصل البران كان اسمه «بنهي بران»، ولكنه ضاع، فأقيم هذا البران مقامه.

نرى في هذا البران : أن أغني «النار» كأنه معلم لـ «بَشِشْت» أحد حكمائهم، يعلمه علوم برهمان، يظهر من قراءته أنه مما ألف لـ «شِنِقًا».

نجد فيه ذكر الأفتار العشرة لـ فِشْنُو، وكيفية عبادة لنغا، ودُرغا، وغانيش، وسوريا (الشمس)، كما نرى فيه ذكر رامين ومهابهارت، وكيفية تعليم العلوم، والديانة، والسلوك، وكيفية العبادة في الصباح والمساء، ومسالك تتريا (العبادات السرية الغامضة المتعلقة بعبادة القوة الأنثوية للنساء (دِيثِي)، وعلوم صناعة الأصنام على أشكالها، وكيفية الزواج، والكفارات، والتقدمات والصدقات، والواجبات تجاه الموتى، وما إلى ذلك.

كما نرى فيه ذكر الجهنمات، والتكريس على مسألة التناسخ، ومسألة الموت، والخلق، والجغرافيا، وفضائل الأماكن المقدسة، والتعريف بأسرة الملوك، وعلوم

(١) وهو من الأسوراز، كان يقتل الديوتا بدون هواة، فاجتمع الديوتا إلى براهما، وشكوا إليه هذا الأمر، فقال لهم : زوجوا شِنِقًا، فزوجوه حتى ولد له ولد يسمونه كارتيك، (وهو نفس سكندا) وهو الذي قاد الديوتا وقتل تاركاشور. انظر ما ذكره أَمْلُ كُومَار بَنْدُوبَادَاي : بُورَنِيكَ (٦٣٠/١).

(٢) انظر ما ذكره شودانغشو كومار سكربرتي: دهارما تته شار شَنَغَرَة ص (٨١).

التنجيم، وعلوم السياسة، والعلوم الحربية، والعلوم الطبية، والعلوم البلاغية لكتب الهندوس، كما اشتمل على ذكر الفنون الجميلة للصناعات^(١).

تقسيمات البرانات :

إن علماء الهندوس يقسمون هذه البرانات الثمانية عشر من عدة نواح :

التقسيم الأول: من حيث الصفات الثلاث الثابتة العامة التي يقولون بها في كل شيء، والتي هي: سَتْ - رَجُ - تَمْ، فيقولون^(٢):

البرانات التي تدخل تحت اسم سَتْ (الصفات البيضاء أو المنورة/ الصفات الملكية) كما يلي:

١- فِشْنُو بران ٢- نارْدُ بران ٣- بهكبت بران ٤- كَرُزُ بران ٥- بدم بران ٦- براه بران.

والبرانات التي تدخل تحت اسم رَجُ (الصفات الشهبوانية/ الصفات الإنسية) كما يلي:

١- براهم بران ٢- براهم ببيت بران ٣- ماركينديو بران ٤- بهبشُ بران ٥- بامن بران^(٣).

والبرانات التي تدخل تحت اسم تَمْ (الصفات السوداء/ الصفات البهيمية) كما يلي:

١- مَسْجُ بران ٢- كُورَمَ بران ٣- لَنكُ بران ٤- شِبُ بران أو باج بران ٥- اسكند بران ٦- أكني بران.

(١) انظر ما ذكره أَمْلُ كُومَارَ بَنْدُوبَادَايَ : بُورَنِيكََا (٢/ ٦٠)، وانظر ما ذكره شودهير سندر سركار : بورانيك أبهيدان ص (٢٩٩).

(٢) مع ملاحظة أن البعض يجعل هذا التقسيم رباعيًا . انظر: بُورَنِيكََا (٢/ ٥٨).

(٣) انظر ما ذكره شودهير سندر سركار : بُورَنِيكَُ أبهيدان ص (٢٩٧).

التقسيم الثاني: من حيث إظهار تفوق بعض المعبودات، وهم يقسمونها على حسبها ثلاثة أقسام أيضاً:

أ- البرانات التي تظهر منها تفوق عبادة إلههم «برهما»، وهي كما يلي:

١- برهمند بُران. ٢- برهم بيبرت بران ٣- ماركيندو بران

٤- بهيشو بران. ٥- بامن بران ٦- برهم بران^(١).

ب- البرانات التي تظهر منها تفوق عبادة إلههم «فِشْنُو»، وهي كما يلي:

١- فِشْنُو بران. ٢- نارد بران. ٣- بهكبت بران.

٤- كَرُزُ بران. ٥- بَدْمُ بُران ٦- براه بران.

ج- البرانات التي تظهر منها تفوق عبادة إلههم «شِيفَا»، وهي كما يلي:

١- ماج بران. ٢- كورم بران. ٣- لنك بران.

٤- باج/بايو (شِيفَا) بران. ٥- اسكند بران. ٦- أكني بران.

فهذه هي البرانات الرئيسة الكبرى، وهي التي تستمد منها أغلب الهندوس الآن عقيدتهم وقواعد عباداتهم.

غير أن هناك برانات أخرى عددها ثمانية عشر ملحقة بها، وتسمى أيضاً بـ بران، وهي كما يلي:

١- بريهد فِشْنُو بران. ٢- شِيفَا أُتْر كَهَانْد. ٣- لوغو بريهد نارد. ٤- ماركيندو

(آخر غير ما ذكر). ٥- بنهي بران. ٦- بَهِيْشْتُوْر بران. ٧- براه بران (آخر غير ما ذكر).

٨- اسكند (غير ما ذكر). ٩- بامن بران (غير ما ذكر). ١٠- بريهد بامن. ١١- بريهد

ماج. ١٢- شالب ماج. ١٣- لوغو بيبرت. (١٤- ١٨) خمسة أنواع من البرانات كلها

(١) والغريب أن هذه البرانات كلها الآن خالية عن تمجيد براهما، وإنما هي لتمجيد فِشْنُو، فكأن هذه الكتب قد ضاعت أصولها، ثم نسجت على منوالها، أو تدخلت فيها أيدي التحريف خصوصاً من قبل فرقة فِشْنُو.

تسمى بـ«بهيشُ بران». فهذه البرانات الثمانية عشر كلها مكملة للبرانات السابقة، أو نسخة أخرى لبعضها.

وهناك برانات أخرى تسمى بـأوبا بران (شبه بران)، عددها أيضًا ثمانية عشر، وهي كما يلي:

- ١ - نازُسنكُ بُران: (أي: الإنسي الذي رأسه رأس أسد).
- ٢ - كالِيكُ بران.
- ٣ - دِيْفِي بهكبت بران.
- ٤ - أَدِتَّ (معناها: الشمس)، ويقال أيضًا: أَدِ بُران، ويعني الأول.
- ٥ - نَنْدُ بُران: (نَنْدُ: خادم لمهاديو شينقا فهو منسوب إليه) ويقال: نندي كيشر أيضًا.
- ٦ - سَتْكُومارُ بُران.
- ٧ - دورباشش بران.
- ٨ - ماهيشر بران.
- ٩ - برهماند بران (غير ما ذكر أولاً).
- ١٠ - كِبِل بران (أحد الفلاسفة) وتسمى أيضًا كابيلا.
- ١١ - براشر بُران (والد بياس).
- ١٢ - شُووُز بران (وشوور هنا بمعنى الشمس).
- ١٣ - بريهد نازْدِيْئِه.
- ١٤ - شامب بران، ويسمونه أيضًا «سري شامب بران».
- ١٥ - شِب دهرم بُران.
- ١٦ - بُرُون بُران.
- ١٧ - أُشْنَش بُران.
- ١٨ - مانِب دهرم بُران.

المقاصد الكبرى لكتب بران :

١ - يقول الدكتور الأعظمي : المقاصد الكبرى لكتب «بران» إثبات عقيدة «أفتار» وهو نزول الإله إلى الأرض بصورة البشر^(١)، وسيأتي الكلام على هذه العقيدة.

٢ - من أهم مقاصد هذه الكتب أيضًا : إثبات الثالوث الهندوسي المقدس، ودمج جميع الآلهة وجعلها من مظاهر هذه الآلهة الثلاثة أو أزواجها، أو أفتارها.

٣ - من أهم مقاصد الكتاب أيضًا: جعل الآتمان اللاشخصي في صورة تكون أدعى للقبول لدى جماهير الهندوس^(٢).

٤ - كما أن من أهم مقاصد هذا الكتاب: جعل كتابٍ للطبقات الدنيئة التي لا يحق لها قراءة كتب الثيديات والأوبانيشادات؛ حيث إن هذه الكتب مسموحة ومفتوحة قراءتها للجميع.

٥ - ويبدو لي أن أهم المقاصد من وضع هذه الكتب: إظهار فلسفة بهاكتيا والتي تعني الولع والمحبة للإله والعمل له لأجل الحصول على الخلاص (موكشا/ نرفانا) الذي يقصدونه.

٦ - ومن المقاصد التي تشترك هذه الكتب مع الكتب الأخرى : ترسيخ عقيدة التناسخ لدى الهندوس، ونظام الطبقات، وعقيدة موكشا/ نرفانا أو الخلاص وغيرها.

أهمية بران لدى الهندوس :

يعتبر «بران» من الكتب المقدسة لدى الهندوس، وخاصةً عند المحدثين منهم، بل هو من أهم المصادر الهندوسية في أمور العقائد والتشريع والأدب، ويعتبر جماهير الهندوس هذه الكتب فيدًا خامسًا؛ لأن فهم فيد موقوف عليها - عندهم - ويدعي علماء

(١) انظر ما ذكره الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٤٧).

(٢) انظر ما ذكره شودانغشو كومار سكربرتي: دهارما تته شار شَنْغَرَة، ص(٨٠).

الهندوس أن كتب البرانات موجودة منذ القدم كوجود فيد، فالذي يريد أن يتعرف على حقيقة الفيدات عليه أن يقرأ البران أولاً؛ لأنه يوضح الحكايات الرمزية الموجودة في الفيدات بالتمثيل والروايات القصصية.

وقد ذكروا أدلة على اعتبار كتب البران من المصادر المهمة، منها :

- ١ - أنه قد جاء ذكر هذه الكتب في بعض الفيدات، من ذلك ما جاء في أثربا فيد:
«إن إتيهاسا - بران - كالفيد الخامس».
- ٢ - كما جاء في «شاندويغا أوبانيشادة» إن إتيهاسا - بران - كالفيد الخامس^(١).
- ٣ - كما جاء في كتاب مهابهارة أن كتب البرانات مقدسة^(٢).

نقد البرانات :

أ - مشكوك في نسبتها إلى واضعيها:

وقد سبق معنا ذكر الخلاف في واضعيها، ومعلوم أن القداسة لا تأتي بدون أن نعرف عن واضعيها، فمن الذي وضع هذه الكتب؟ وهل هل مأمون في كلامه؟ وهل هو خالٍ عن شوائب النفاق وسوء القصد؟، كل هذه الأشياء لا يمكن الجزم بها بدون معرفة واضعيها، وقد سبق معنا نسف كونه منسوباً إلى يباس بن پراشر.

ب - مخالفتها للفيدات في العقيدة:

من المعلوم لدى الهندوس، أنهم يقبلون كل شيء يأتيهم من عند حكمائهم، ولكنهم يشترطون أن تكون هذه غير مخالفة لـ «سروتي»، أي للمسموعات (الفيدات، والأوبانيشادات)، وغير مخالفة لـ «سمرتي» أي : المحفوظات (كتب دهرم شاستر مثل كتاب مَنُو وغيره)، وإذا حصل هناك خلاف بين المسموعات والمحفوظات يقدمون المسموعات، أما إذا خالفهما فلا عبرة بهما.

وإذا كان الأمر هكذا، فإن أكثر ما جاء في كتب البرانات تقديس الثالث، «تري

(١) شاندويغا أوبانيشادة (٧/ ١/ ٢).

(٢) انظر مقدمة كتاب «ديوي بران» ص (٨).

مورتي»، وهي مخالفة لما في سروتي وسمرتي على حدٍّ سواء. فما وجه قبول هذه الكتب ككتب مقدسة؟.

ج - اختلاف مقاصدها وتباينها وتناقضها الشديد :

١ - يوجد اختلاف واضح بين هذه الكتب، فمثلاً أصحاب (شيفّا بُران) جعلوا «شيفّا» الإله الأكبر، والآلهة الأخرى خداماً له، وبينما جعل أصحاب (ديوي بهكبت بران) الذي هو من جملة أوبا بران أو شبه «بران»: أن «الديوي» هي التي خلقت العالم، والآلهة الأخرى خداما لها وهكذا، ومثل هذا كثير جداً، فلا تكاد تجد كتابين منها تتفق على الآلهة ولا على القصص اتفاقاً يطمئن القلب لقبولها.

٢ - إن بعض هذه الكتب قصد واضعوها من ورائها إثبات تفوق آلهتهم على الآلهة الأخرى، والبعض الأخرى على عكس من ذلك تماماً، تكون دائماً في نزاع وجدالٍ ومخاصمة من آلهة الآخرين، ولا تكاد تصل إلى نتيجة.

د - فساد محتوياتها:

إن هذه البرانات كلها فاسدة ومفسدة من ناحية محتوياتها؛ إذ هي تفسد العقيدة التي جاءت في القديسات، وتكرس على إثبات عقيدة مخالفة لها، كإثبات الأفطار، والتناسخ، وما إلى ذلك من العقائد الباطلة.

كما أنها مفسدة للعقول حيث تصور الدين كخرافات، وخزعبلات لا حد لها ولا انتهاء، وفي نفس الوقت هي مفسدة للأخلاق؛ إذ يذكر في كثير منها أن الإله الفلاني زنى بزوجة الإله الفلاني، وإله الفلاني نظر إلى زوجة الإله الفلاني فخرج منه وحصل ما حصل إلى آخر ذلك من الأشياء المغرية للغريزة الجنسية.

هـ - اختلاف كثير من الهندوس في قبول هذه البرانات ككتب مقدسة لهم :

يجزم العالم الهندوسي الدكتور «هر برشاد شاشثري» أن جميع البرانات ماعدا «فِشْنُو بران» و «بامَن بُران» محرقة ومكدوبة.

وينكر سوامي ديانند مؤسس «آريا سماج» أن تكون «البرانات» من المصادر الأساسية للهندوسية.

وإذا كان هذا من شهادات بعض علمائهم الكبار فإننا الآن نسأل جماهير الهندوس الذين لا يزالون يرتلون البران صباح مساء، ويتبركون به في حفلات الزواج، ويدؤون بتلاوته الحفلات الدينية أني لهم ادعاء قداستها؟ أليست هذه الكتب كلها في ظلمات ودياجير الجاهلية العمياء؟^(١).

و: أما بالنسبة لما يستدلون به على كونها القيد الخامس وجود ذكرها في الكتب الأخرى

فيقال: أولاً: إن ما يستدلون بأنه قد جاء في كتاب أثربا فيد، وبعض الأوبانيشادات، ومهابهارت بأن البران كالقيد الخامس، فقاقد الشيء لا يعطيه، فإن بعض هذه الكتب مثل مهابهارت لا تثبت قداستها مطلقاً، وإنما هي سير وأخبار لأبطالهم وعظمائهم، مع نقصها للسند إلى قائلها واختلافها في نسخها اختلافاً واضحاً، كما سيأتي.

ثانياً: إن ذكر بران كقيد خامس في كتاب أثربا فيد وفي بعض الأوبانيشادات، لا يمكن الجزم بأن هذه الكتب الموجودة الآن هي نفسها المذكورة في تلك الكتب، لأنها تستلزم وجودها قبل أثربا فيد مثلاً، وهذه كتب البرانات تشهد تأخر كثير من أماكنها حتى الخامس عشر الميلادي، فإما أن يثبت أن المقصود بالبران المذكور في أثربا فيد، هذه البرانات الموجودة، فإنه حينئذ يكون نقصاً في الكتب المذكورة المستدل بها نفسها، حيث يستلزم تأخر وجودها، وإما أن يثبت أن البران المذكور في كتاب أثربا فيد غير ما هو موجود الآن من البرانات، فلا يحصل المقصود حينئذ.

وقد ذكر كثير من الهندوس أن كلمة «بران» كانت تطلق على غير هذه الكتب فيما تقدم من الزمن^(٢).

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٤٨).

(٢) انظر ما ذكره أمل كوماز بندوقاداي: بورتيتكا (٥٨/٢).

ز - عدم صحة معلوماتها التاريخية:

معلومات هذه الكتب التاريخية كلها ضحكة للصبيان، لا وجود لها أصلاً، كأن واضعيها من الجهلة بمكان لا تعرف أن هناك عقلاء غير مجانيين يقرءون هذه الكتب ويفهمون غباءهم وجهلهم المطبق والمركب^(١).

ح - عدم اكتمال الشروط التي يشترطونها في كونه براناً في أي من هذه البرانات:

ثم إن هؤلاء الهندوس يشترطون في البرانات أن تعتبر كـ«بران» خمسة شروط مهمة^(٢) هي:

١- أن تكون مشتملاً على علم الكائنات، (ويسمونها: شارغا) أو علم كيفية المخلوقات، بحيث تذكر هذه الكيفيات بالأساطير والقصص والتمثيل.

٢- أن تكون مشتملاً على بيان إعادة الكائنات، (ويسمونها: بُرْتِي شارغا)، وذلك أن الهندوس يعتقدون بالحياة الدورية للمخلوقات بمعنى إعادة خلق الكائنات بعد فنائها مرة بعد مرة.

٣- أن تكون مشتملاً على بيان النسب : (ويسمونها «بُنْغْشُ») أي : ذكر شجرة نسب الحكماء (المسمى بالريشيين)، والقديسين أو الملائكة (المسمى بـ«ديوتا»).

٤- أن تذكر عهود «منو» يعتقدون فيهم مثل اعتقاد المسلمين بالرسل، وذكر الحوادث التاريخية لعهد كل واحد من هؤلاء، ويسمونها منتر، (معناه نوبة، مَنْ مقدر لعمر إندرا، ينقضي رئاسته بانقضائه) وهم يعتقدون أنه حصل حتى الآن أربعة عشر منتر^(٣).

(١) انظر ما ذكره أُمْلُ كُومَارُ بَنْدُوبَادَايُ : بُورْنِيكَ (٢/ ٥٩).

(٢) انظر ما ذكره شودانغشو كومار سكربرتي : دهارما تته شار شنغره ص(٨٠)، وما ذكره شودهير سندر سركار : بورنيك أبهيدان ص(٢٩٧).

(٣) انظر ما ذكره البيروني : تحقيق ما للهند من مقبولة في العقل أو مردولة ص(٢٨١-٢٩٣).

٥- أحوال ملوك سوريا بَنُغَش (أسرة شمس) وجندرا بَنُغَش (أسرة قمر)^(١).

ولكن لو نظرنا إلى كتب البرانات لرأينا أن أيًا من هذه الكتب لا تتوفر - حتى باعتراف كثير منهم - هذه الشروط، - إلا أنهم يستثنون كتاب «بَهْكَبْتُ بُرَان» من هذه، ويرون توفر جميع الشروط فيها، وسيأتي الكلام عليها مفصلاً - فإذا كانت هذه الكتب كلها - غير بَهْكَبْتُ بران حسب اعتقاد بعضهم - لا تتوفر فيها شروط اعتبارها ككتب بران فما معنى ذكرها ككتب مقدسة؟^(٢).

ثم إن هناك من يجعل هذه الشروط عشرة^(٣)، وإذا كانت الشروط عشرة تكاد لا تجد ولا برانًا واحدًا توفرت فيها هذه الشروط.

نقد بَهْكَبْتُ بُرَان:

إن هذا الكتاب يتلوه كثير من الهندوس صباحًا ومساءً، وينقلون بكاء الناس ونحيبهم من قراءته، ويرون أن شروط قداسته مكتملة فيه، ولكن الذي يظهر لي أن هذا الكتاب في الحقيقة ليس بتلك الدرجة من الأهمية، حيث لا يوجد فيه ما يوجب البكاء والنحيب والتضرع كما يدعون، ويمكن أن يقال: بأنه أحسن كتاب لفرقة فِشْنُو كما سبق معنا، لكننا لو نظرنا إلى قيمته التاريخية نرى أنه لا قيمة له مطلقًا بكل المعايير، فإن كل ما فيه من القصص مسروقة من كتاب مهابهارت، يقول بعض الهندوس: إن نسبة الأخبار والفلسفة المسروقة تصل من ٨٠٪ إلى ٨٥٪، والتكرار في معظمه.

كما نلاحظ في مواضع كثيرة اشتماله على تجاوزات للتدليل على أصالته، مثل موت دروبدي، (زوجة أولاد پاندو الخمسة).

ثم إن الجزء العاشر منه حوى عجائب، حيث إنه جعل كريشنا صاحب مهابهارت

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٤٧)

(٢) انظر ما ذكره مجموعة من الهندوس الكبار: هندو شاسترو، قسم البرانات ص (٥).

(٣) انظر ما ذكره أَمْلُ كُومَارُ بَنْدُوبَادَاي: بُورَنِيكَ (٥٨/٢).

كأنه صاحب الحب والغرام فقط، بل جعله من الزناة.

كما نجد فيه توهين الفحيدات، وأفكارها، ونلاحظ فيه كثرة الأمور الغرامية، والشهوانية.

إن هذا الكتاب في الحقيقة تعمل عملية غسيل المخ للفرق الأخرى، وعلى هذا نستطيع أن نقول: إن هذا الكتاب فاسدٌ بكل المعايير، لا يستحق أن يقرأ، ولا دليل على اعتباره من الكتب المقدسة، بل هو من كتب الحب والغرام، أو من الكتب المهيجة للشهوات والجنسية^(١).

(١) ومن تناقضات الكتاب: أنه ذكر «أما» (دِيفِي) باحترام (٧/٣/٢)، ثم منع من التقرب إلى نذورها (٤٩/١٨/٦).

انظر نقد هذا الكتاب عند أمْل كُومَار بَنْدُوبَادَاي : بُورَنِيكَ (٦٣/٢).

المطلب الخامس

دهرم شاسترا (DHARMA SHASTRA)

التعريف:

كلمة دهرم شاسترا مركبة من كلمتين:

الكلمة الأولى: دهرم، وفي اللغة لها معانٍ، منها:

(١) الأخلاق والآداب^(١).

(٢) ممسك الناس^(٢).

(٣) الأحكام والقوانين^(٣).

والكلمة الثانية: شاسترا: أي العلم أو الفن.

أما معنى دهرم شاسترا في الاصطلاح:

فإذا أطلقت هذه الكلمة تكون معناها: مجموعة من الكتب الفقهية للديانة

الهندوسية^(٤). وتسمى أيضًا بـ«مجموعة دهرم سوترا»، كما تسمى أيضًا بـ«سُمَرْتِي»^(٥).

(١) انظر ما ذكره سري شوبوده كومار سكربرتي: دهرم شاسترا بوريسوي ص (١).

(٢) انظر ريگ فيد (١٢ / ١ / ١٧).

(٣) انظر ما ذكره سري شوبوده كومار سكربرتي: دهرم شاسترا بوريسوي ص (١).

(٤) يرى الدكتور محمد الأعظمي: أن هذه الكتب أصل فيدانت وفقهها. انظر دراسات في اليهودية

والمسيحية وأديان الهند ص (٥٦٢).

(٥) سبق الحديث عنها في ص (٢١٩-٢٢٠)، من هذا الكتاب.

نشأتها:

يقول الدكتور محمد إسماعيل الندوي عن نشأة هذه الكتب: «كانت الديانة الآرية تسير على مبادئ العقيدة الوثنية البسيطة إلى القرن الثامن قبل الميلاد، ولم تظهر القوانين المحددة واللوائح المنسقة لحياتهم الدينية والاجتماعية إلا خلال هذه العصور، ومنذ القرن الثامن بالذات حينما توجهت النية إلى وضع التشريع والقوانين وتنسيقها وترتيبها.

وقد سميت أول مجموعة من هذا النوع «دهرم سوترا» Dharma Sutras^(١)، وهي تتضمن أبواباً هامة مثل: المدخل لكتب الفيدات، إنكار الذات، القوانين العامة، الحقوق والواجبات نحو الملوك والحكام وما إلى ذلك.

ثم ظهرت مجموعة أخرى سميت «مَنُو سَمَرْتِي» Manu smarti... .

كانت هاتان المجموعتان تحفظان وتنقلان من صدر إلى صدر اعتماداً على الذاكرة، ولم تدونا في الكتب، ولم تسجلا في الأسفار إلا في عام ٢٠٠ الميلادي تقريباً، كما يرى كثير من الباحثين^(٢).

عدد كتب دهرم شاسترا:

في البداية ظهرت كتب عديدة من كتب الفقه الهندوسي، إلا أن أغلب هذه الكتب ضاعت ولم يبق منها إلا عشرين كتاباً وفيما يلي بيان لأشهر هذه الكتب:

١- أشهرها «مَنُو سَمَرْتِي»، وسيأتي تفصيله فيما بعد في مطلب مستقل.

٢- فِشْنُو سَمَرْتِي (فِشْنُو دهرم كما يسميه البيروني) Vishnu Samhita .

٣- أترِي سَمَرْتِي Atri Samhita

٤- هاريت سَمَرْتِي Harita samhita .

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص(١١٩-١٢٠).

(٢) المصدر السابق.

٥- Yajnavalkia Samhita يا جنافال كيا سُمَرتي

٦- Woshnu Samhita أَشْنُ سُمَرتي

٧- Angira Samhita أَنْغِيرَا سُمَرتي

٨- Yam Samhita يَام سُمَرتي

٩- Apostamba Samhita أَيْسْتَمْبَا سُمَرتي

١٠- Sangbart Samhita سَنْغَبَرْتْ سُمَرتي

١١- Kattayan Samhtia كَاتَايْن سُمَرتي

١٢- Brihaspati Samhita بَرِيهَسْپَتِي سُمَرتي

١٣- Parasara Samhita پَرَاشَر سُمَرتي

١٤- Bias Samhita بِيَاَس سُمَرتي

١٥- Sankha Samhita سَنْكْهَا سُمَرتي

١٦- Likhita Samhita لِيكْهِيْت سُمَرتي

١٧- Dakhsa Samhita دَكْهْشَا سُمَرتي

١٨- Ghoutam Samhita غُوْتَام سُمَرتي

١٩- Satatap Samhita سَتَاتَپ سُمَرتي

٢٠- Basista Samhita^(١) بَشِشْت سُمَرتي

زمان تدوينها :

يرى الدكتور محمد إسماعيل الندوي: أن بدايتها كانت في القرن الثامن قبل الميلاد^(٢). ولكنها كصفة كتاب لم يظهر إلا في القرن الثاني الميلادي إبان ملوك أسرة غبتا^(٣)، حيث يقول: تسامح أباطرة أسرة غبتا مع جميع الأديان والطوائف، كان

(١) انظر ما ذكره سري شوبوده كومار سكربرتي: دهرم شاسترا بوريسوي ص(٥).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي : الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص(١١٩).

(٣) انظر المصدر السابق (٢٤٨).

عهدهم في الحقيقة عهد ارتفاع لمجد الطوائف الآرية وتقاليدها وديانتها وإعلاء شأنها وتمجيدها وتقديسها وعرضها في صورة جديدة، وبهذا أفل نجم البوذية في الهند كدين رسمي للدولة وحلت محلها الديانة الهندوكية الكهنوتية الآرية، ونالت التقدير والاحترام بهيكلها الجديد وملامحها المشرقة بعد إجراء تعديلات على ضوء تطور الأمور والملابسات، ومن هنا صار دين الهند الرسمي لأول مرة في تاريخها بهذه الصورة التوسعية؛ إذ أن الهند صارت في هذا العصر أكبر امبراطورية لأول مرة في تاريخ الهند الطويل... فقد دونت هذه المجموعات في عصر غبتا، وسميت «دهارما شاستراس» Dharma-shastras^(١).

مصادرها :

يرى الهندوس أن كتب شريعتهم هذه تبني على المصادر الآتية :

١- كتب الفيدات وشروحها، ٢- التقاليد الهندوسية وعرفها، وتجارب رجال الدين والكهنة عبر القرون، ٣- التجارب الفردية وقوانين الملوك والحكام في كل عصر وزمان^(٢).

محتويات هذه الكتب :

تحتوي هذه الكتب على ثلاثة عناوين رئيسة وهي :

الأول: الأحكام لأدوار حياة الإنسان التي تنقسم إلى أربعة وسيأتي ذكرها بالتفصيل.

الثاني: الحدود والجنايات.

الثالث: العقاب الذي يلحق الهندوسي إذا لم يخضع لقوانين وأحكام الشريعة^(٣).

(١) انظر المصدر السابق ص (٢٤٩-٢٥٠).

(٢) انظر المصدر السابق ص (٢٥٠).

(٣) انظر ما ذكره الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٦٣)، وانظر ما ذكره سري شوبوده كومار سكربرتي: دهرم شاسترا بوريسوي ص (١٣).

أهمية هذه الكتب التي تسمى بـ«سمرتي» :

ذكر مُنْوَ في كتابه في الباب الثاني: أن كلاً من فيد سروتِي وفيد سمرْتِي، فيد محترم، لا يصح الشك فيها ولا إنكارها^(١).

ويقول الدكتور محمد إسماعيل الندوي: لقد ظلت هذه التشريعات تسيطر على عقول الهندوس ووجدانهم عبر القرون، واستلهم منها جميع الملوك أثناء إعداد تشريعاتهم وقوانينهم في كل عصر، واقتفى آثارها جميع الهندوس دون إبداء معارضة صريحة في أي عصر، ولم يحاول أحدٌ منهم أن يبدي أية غضاضة، بل احترامها غاية الاحترام وذلك اعتقاداً منهم بأنها صدرت من «برهما» إله الآلهة، وليس للإنسان دخل في إعدادها وإصدارها وعرضها^(٢).

من أهم هذه الكتب:

كتاب فِشْنُو دهرم المعروف بـ«فِشْنُو سمهيتا».

(قوانين وأنظمة فِشْنُو)

مجموعة فِشْنُو دهرم، تتبوأ مكانة مرموقة من بين كتب دهرم سوترا السابقة الذكر، من حيث حجمها وتنوع محتوياتها، وهي التي أسست على علاقتها الوطيدة مع إحدى مدارس فيد من جهة، ومع قوانين مُنْوَ من جهةٍ أخرى، كما أنها تتعلق بأنظمة الفقه القديم، وجاء فيها ما ملخصه:

بعد مضي ليلة برهما ن ظهر الإله وأراد أن يشاهد كيف يخلق فِشْنُو، فرفع الأرض من الماء، ثم دخل فِشْنُو وأقام الأرض في الخارج، ثم لما غاب قالت الأرض في نفسها: أين أقوم؟ سوف أسأل «كاشف»^(٣) عن ذلك؛ فإنه يفكر فيّ، فاتخذت الأرض شكل امرأة وذهبت إليه، فقال لها «كاشف» اذهبي إلى نارايِن، فإنه سيعلمك ما به قوامك، وهو

(١) انظر مُنْوَ سَمْرْتِي، الباب الثاني، الفقرات ذات الأرقام : (٥ - ١١).

(٢) انظر الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص(٢٥٠).

(٣) اسم جبر من الأحبار لا يعرف له تاريخ ولا ترجمة.

يسكن في بحر «خيرود»^(١).

ذهبت الأرض إلى بحر «خيرود» وشاهدت هناك قِشْنُو، فقالت له: أقمتني في مقامي لمنافع الناس، ولكن على ما ذا يكون قوامي؟ ثم ذكر قِشْنُو للأرض على ما به قوامها في هذا الكتاب، والكتاب يحتوي على أحكام كثيرة، وسأذكر فيما يلي العناوين الرئيسة للكتاب:

- ١ - الطبقات الأربعة.
- ٢ - واجبات الملك.
- ٣ - الأوزان والمكاييل.
- ٤ - قوانين عامة وما يتعلق بالحدود.
- ٥ - قانون الديون.
- ٦ - الكتابة.
- ٧ - الشهادة.
- ٨ - اختبار البراءة من التهم بالنار.
- ٩ - الميراث.
- ١٠ - الطقوس الجنائزية.
- ١١ - ما يهدى عند مراسيم ما بعد الموت.
- ١٢ - عدم العفة والطهارة.
- ١٣ - ما يتعلق بالمرأة.
- ١٤ - الشعائر والمراسيم الدينية للحصول على رحمة الإله.
- ١٥ - الجرائم.
- ١٦ - جهنم.

(١) هذا بحر أسطوري، لا وجود له إلا في أذهان الهندوس.

١٧- الهجرة.

١٨- التقديمات والكفارات.

١٩- أعمال البيت.

٢٠- دور التلمذة وأحكامه.

٢١- ضبط النفس، يوغا.

٢٢- شراذمها. (الأعمال الخاصة بالقرايين للآباء).

٢٣- الهبات والعطايا.

٢٤- دور الزهد والرهبة.

٢٥- دور المراقبة.

٢٦- مراقبة فِشْنُو

٢٧- دور الزواج.

هذه أهم العناوين التي تحدثت عنها مجموعة فِشْنُو دهرم، وقد اخترت هذا الكتاب من مجموعة تلك الكتب التي سبق معنا لدراستها؛ لأن هذا الكتاب نقل عنه كثيرون من المتقدمين والمتأخرين، ويستدلون بها كثيراً على أعمالهم، وهو من أشهر كتب الفقه الهندوسي.

ولشهرته الكبيرة نقل منه العلامة البيروني كثيراً في كتابه: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة^(١)، والكتاب من أهم المراجع الفقهية الهندوسية.

(١) وقد قارن أحد المعنيين بهذه الديانة ما جاء في كتاب البيروني، وما في هذا الكتاب، فوجد هناك خلافاً كبيراً في كثير من النصوص، فلا أدري هل غيروا في الكتاب بعد البيروني أم أخطأ البيروني في الترجمة، أم أن نسخ الكتاب مختلفة، فيكون نقل من نسخة مختلفة عن الموجودة، والله أعلم بحقيقة الحال، انظر ترجمة جلال الدين بشواس لكتاب البيروني إلى اللغة البنغالية ص(٢٨٨).

المطلب السادس

مُنُو سُمَرْتِي (مُنُو دهرم شاسترا).

التعريف بكتاب مُنُو سُمَرْتِي:

مُنُو سُمَرْتِي عبارة عن كلمتين: هما: مُنُو + سُمَرْتِي.

أما «مُنُو»:

فإن الديانة الهندوسية تطلق كلمة مُنُو على أشخاص كثيرين، فإنهم يعتقدون: أن للعالم دورات في الخلق والفناء، ولكن ليس له نهاية، وفي كل دورة براهيمها هو الخالق العام، وتحتة أربعة عشر مُنُو، فدورة العالم الأخيرة؛ تنتهي بعد مجيء أربعة عشر مُنُو، لكل واحد منهم؛ زمنٌ موقوفٌ، يكون هو فيه: الإله المتصرف بهذا الكون، ويقسم زمن كل مُنُو؛ إلى واحد وسبعين دورًا، ويزعم الهندوس: أن هذا الزمن، الذي نحن فيه؛ هو الدور السابع والعشرين، من زمن مُنُو السابع، أعني: أن العالم الآن؛ في نحو نصف الطريق، بين البدء والفناء، ويزعمون أيضًا: أن زمن كل مُنُو؛ هو ٨٥٢,٠٠٠ سنة إلهية، والتي توافق ٣٠٦,٧٢٠,٠٠٠ سنة شمسية، وذلك؛ أن كل سنة إلهية تعدل ٣٦٠ سنة شمسية، من سنيننا، وأن زمن الأربعة عشر مُنُو؛ تعدل يومًا واحدًا، من أيام براهيمها، وبعد أن ينتهي زمن عالم من العوالم، أو دورٍ من أدوار مُنُو، ويفنى كل شيء؛ يعيد براهيمها خلق العالم من جديد، وبعد ما ينتهي عمر براهيمها، يأتي براهيمها آخر من سُرّة فُشْنُو، وهكذا دواليك، وليس لأحد البقاء إلا لبرهمن (پرماتما، الروح النهائي، الروح العليا، النفس الكلية).

والمقصود بـ«مُنُو» هنا: من يسمونه بـ«شاينيهوب مُنُو»^(١)، وهو مُنُو السابع على

(١) انظر مُنُو سُمَرْتِي (١/٦٣).

حسب ما جاء في كتاب مُنُو سُمَرْتِي. إلا أنهم اختلفوا في زمن وجوده وصفاته على أقوال:

١- أحيانا يقولون: هو أول إنسان وجد على وجه الأرض بعد الطوفان الذي أغرق جميع المخلوقات، ومنه بدأ الخلق من جديد.

٢- وأحيانا يقولون: هو الراهب الأكبر الذي يقبل القرايين^(١).

٣- كما يقال: إنه أول ملك قام من البشر^(٢).

وكل هذه صفة لهذا الشخص الواحد الذي يزعم الهندوس وجوده.

وهناك من ينسب هذا الكتاب إلى مُنُو آخَرِيسَمِي بيسفات مُنُو، وهو مُنُو السادس^(٣)، وإن كان هذا غير وارد، لكون الإنسان في دورة مُنُو السابع الآن، فلا يتصور بقاء كتاب من دورة مُنُو السابق عن عهده - كما يزعمون -.

وعلى كل حال فهو مجهول، وإن قال الهندوس ما قال، فإنهم لا يعرفون عنه إلا بعض الأساطير التي لا يمكن الاعتماد عليها في البحث العلمي.

وأما «سُمَرْتِي»:

فقد اختلفوا في بيان معانيها على أقوال، منها:

١- المجموعة المحفوظة^(٤).

٢- هو عِلْمٌ لِمَجْمُوعَةٍ من الكتب التي دونت فيها الشريعة للتذكر.

٣- اسم لمجموعة العادات والتقاليد والطقوس الموروثة.

٤- اسم لكتاب Darma sastra (دهرم شاسترا) .

(١) انظر ما ذكره الدكتور الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٦٣).

(٢) انظر مقالة: «الفقه الهندوسي الأكبر» منو دهرما شاسترا» ص(٦٠)، من مجلة ثقافة الهند، يونيو

١٩٥٢م.

(٣) انظر ما ذكره كنكر شينغه: مُنُو سنغها والشودرا ص(١٠).

(٤) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص(١٢٠).

لكن المعنى المشهور لهذه الكلمة:

٥- مجموعة التعاليم التي أعيدت كتابتها عن طريق التذكر للتعاليم الموروثة شفهيًا.

المقصود بـ«مَنُو سُمَرِتِي وأهميته:

المقصود من مَنُو سُمَرِتِي: شريعة «منو» أو مذكرات «منو»، والذي يتضمن الأمور التشريعية للديانة الهندوسية^(١).

يقول الدكتور إحسان حقي: «وكتاب مَنُو سُمَرِتِي كتاب تشريع بكل معنى الكلمة؛ إذ ليس فيه إلا التشريع وقد أسهب في هذه الناحية إسهابًا كبيرًا وعالج الأمور الفردية والجماعية ما كان منها أخلاقيًا أو اجتماعيًا أو سياسيًا أو اقتصاديًا أو إداريًا أو حقوقيًا أو جزائيًا أو غير ذلك... فجاء كتابًا جامعا لكل ما يحتاج إليه المرء في حياته تلك، ولذا فقد استعان به الإنكليز يوم استولوا على الهند لسنّ ما احتاجوا إلى سنّه من تشريع في البلاد»^(٢).

ويقول الدكتور محمد إسماعيل الندوي: ... ثم ظهرت مجموعة أخرى سميت «مَنُو سُمَرِتِي» Manu Smarti . وقد نظم ونسق هذه المجموعة ناسك عاش في قدم الزمان واسمه مَنُو إن المجموعة الثانية (أي : هذه المجموعة الأخيرة) تعتبر من أهم الكتب، إذ إنها تتناول أصول وقوانين التناسخ وإنكار الذات، والقوانين العائلية والاجتماعية، وشؤون المرأة والملك والعقوبات، تفوق الروح وخلق الكون، والصدق، وما إلى ذلك»^(٣).

(١) انظر ما ذكره الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٦٢)، وراجع المصدر السابق ص(٢٤٨-٢٤٩)، والدكتور علي زيعور: الفلسفة في الهند ص(١٢٤)، ومقالة «الفقه الهندوسي الأكبر - مَنُو دهرم شاسترا، ص(٦٠)، من مجلة ثقافة الهند، يونيو ١٩٥٢ م.

(٢) الدكتور إحسان حقي: مقدمة مَنُو سُمَرِتِي ص(و-ز).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي : الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص(١١٩-١٢٠).

وتظهر أهمية هذا الكتاب كونه يحتوي على الشرائع التي تتبعها سائر الطوائف الهندوسية.

مؤلفو مَنُو سَمُرْتِي:

(١) ينسب الهندوس هذا الكتاب إلى مَنُو، كما هو ظاهر من اسم الكتاب، يقول الدكتور محمد إسماعيل الندوي: «ثم ظهرت مجموعة أخرى سميت «مَنُو سَمُرْتِي» Manu Smarti. وقد نظم ونسق هذه المجموعة ناسك عاش في قدم الزمان واسمه مَنُو...»^(١).

(٢) يقال أن الكتاب ألفه ثلاثة من المؤلفين على الأقل، وهم:

❖ برهما جي.

❖ مَنُو جي.

❖ بهرغو جي.

وهذا واضح من الفقرات الأولى من الباب الأول^(٢)، حيث تدل هذه الفقرات على أن المؤلفين لهذا الكتاب على الأقل ثلاثة من البراهمة^(٣).

(١) يرجح الدكتور بي آر أمبيدكار: أن الكتاب ألفه ناسك برهمي يسمّى «بهارغب» بأمر من بوشامترا سنغا، وقد جمعها من جميع كتب دهرم سوترا القديمة^(٤).

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص(١١٩) - (١٢٠).

(٢) انظر الفقرات رقم (١، ٢، ٣، ٤، ٥٨، ٥٩، ٦٠).

(٣) انظر ما ذكره جايتانوج بندوباداي: دهرمير بهيشث: ص(٤٩)، وانظر أيضًا ما ذكره كنكر شينغه: مَنُو سنغها والشودرا ص(٨).

(٤) انظر ما ذكره جايتانوج بندوباداي: دهرمير بهيشث، ص(٤٩)، وقد أحاله إلى الكتاب الآتي، ولم أطلع عليه.

وعلى هذا يظهر لي: أن الكتاب وإن اشتهر بنسبته إلى مُنُو إلا أنه ليس له، بل هو لمؤلفين مجهولين من البراهمة المتعصبة الذين كانوا يرومون من خلاله فرض السيطرة البرهمية على أمة الهند بأكملها.

زمن تدوين مُنُو سُمرتِي :

اختلفوا في زمن تدوين مُنُو سُمرتِي على أقوال:

(١) ليس هناك تحديد لزمانه إلا أن زمانه قديم جداً، يقول الدكتور محمد إسماعيل الندوي: إن ناظم هذه المجموعة ومنسقها ناسك عاش في قدم الزمان، واسمه مُنُو^(١).

(٢) وإذا كان نسبة هذا الكتاب إلى مُنُو صحيحة؛ فإن من العلماء من يحدد زمن مُنُو بـ «١٠٠٠-٦٠٠» ق.م. وعلى هذا يكون الكتاب قد دون في فترة ما بين القرن السادس والقرن العاشر قبل الميلاد^(٢).

يقول الدكتور إحسان حقي: لا نعرف متى كتب هذا الكتاب، ولكننا بالاستقصاء العلمي نستطيع أن نقول بأنه كتب في فترة ما بين القرن السادس والقرن العاشر قبل الميلاد، وذلك بدليل أنه لم يشر إلى البوذية التي ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد، ولو كانت موجودة آنذاك لكان أشار إليها إشارة صريحة لشذب عقائدها واستنكارها، فإهمال هذه الناحية يوحي بأن الكتاب كتب قبل القرن السادس قبل الميلاد^(٣). واستدل على قوله أيضاً: بفصاحة اللغة السنسكريتية المستخدمة في الكتاب، كما استدل أيضاً بوجود الطبقة التي لم تكن متأصلة إلا بعد الألف الثانية قبل الميلاد^(٤).

(٣) قيل: إن تأليف قسمٍ منه يعود إلى أزمنة سحيقة، لكن معظمه وُضع فيما بعد

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص(١٢٠).

(٢) انظر ما ذكره الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٦٣).

(٣) الدكتور إحسان حقي: مقدمة مُنُو سُمرتِي ص(ز).

(٤) المصدر السابق.

٢٠٠ ق.م إلى ٢٠٠ ب.م.^(١)

(٤) قيل: إن هذا الكتاب بدأ ظهوره في القرن الثامن قبل الميلاد^(٢)، فقد جاء ذكر هذا الكتاب في المؤلفات التي يرجع عهدها إلى القرن السابع قبل الميلاد، والشرائع التي احتواها أقدم منه بكثير، إلا أن الزيادات ألحقت إليه في العصور التالية، حتى نجد فيه بعض ما وقع في العصر البوذي^(٣)، واكتمل الكتاب في القرن الثاني الميلادي، ويحدده بعضهم بـ عام ٢٠٠ م^(٤)، وبالتحديد في زمن أسرة غبتا من ملوك الهند^(٥).

والذي يترجح لديّ: أن هذا الكتاب لابد وأن يكون قد كتب بعد كتابة كتب دهرم سوترا السابق ذكره في العلوم المتعلقة بالقيادات؛ لأنه ينقل ويجمع كثيرًا من كتب دهرم سوترا، وقد سبق معنا: أنها ألّفت على الظن الغالب في القرن السابع قبل الميلاد، وعلى هذا تكون بداية التصنيف لكتاب مُنُو سُمَرِتِي بعد القرن السابع قبل الميلاد، ثم ألحقت به الزيادات في العصور التالية، ولم يأخذ صورته النهائية إلا في عام ٢٠٠ الميلادي تقريبًا، كما يرى كثير من الباحثين^(٦)، خصوصًا وقد سبق معنا: أن هناك ذكرًا لبعض ما وجد في العصر البوذي، كما نجد في الكتاب كثيرًا من أبيات مهابهارت^(٧)، وكون مهابهارت من الكتب المتأخرة هو المقرر لدى أغلب المحققين.

(١) انظر ما ذكره علي زيعور: الفلسفة في الهند ص(١٢٤).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص(١٠٨)، ١١٩.

(٣) انظر مقالة «الفقه الهندوسي الأكبر - منو دهرما شاسترا»، ص(٦٠)، من مجلة ثقافة الهند، يونيو ١٩٥٢ م.

(٤) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة، حضاراتها ودياناتها، ص(١٠٢)، ٢٤٨.

(٥) المصدر السابق، ص(٢٤٨).

(٦) انظر ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها ص(١٢٠).

(٧) انظر ما ذكره شوريش چندر بندوباداي: مقدمة مُنُو سُمَرِتِي الترجمة البنغالية ص(٣٤).

كما يفهم من المحاورات التي تمت في بداية الكتاب أن هذا الكتاب تمّ على فترات متتالية من الزمن، حيث إنه نسب إلى مُنَوٍّ أولاً ثم نسب لـ «بريغو»^(١) ثم يلاحظ قول حكماء آخرين، وهذا كله يدل على أن الكتاب ليس من تأليف شخص ولا شخصين، بل هو لأشخاص متعددة لا يعرف سيرتهم ولا حياتهم، وهم أناس مجهولون^(٢).

محتويات الكتاب :

يشتمل هذا الكتاب على اثني عشر باباً، وفيه ٢٦٨٤ فقرة^(٣)، أو ٢٦٨٥ فقرة^(٤)، أو ٢٦٩٤ فقرة كما يقول الأعظمي^(٥)، وفيما يلي ذكر أسماء الأبواب وشيء من محتوياتها:

الباب الأول: يتحدث عن خلق العالم، وكيفية وجود الحياة في الكون، وحدث القيامة، ثم فناء العالم نهائياً ويتضمن على (١١٩) فقرة.

الباب الثاني: يتحدث عن أحكام «برهما جاريا أشرم» (وهو الدور الأول من عمر الإنسان).

الباب الثالث: يتحدث عن أحكام النكاح، وأقسامه، وتقديم القرابين لبرهما.

الباب الرابع: يتحدث عن أحكام «گَرْهَسْتَا أشرم»، (الدور الثاني من عمر الإنسان) والانقياد لأحكام «فيدات»، والتحذير من الأعمال السيئة.

الباب الخامس: يتحدث عن أحكام الزوجين، وثواب المرأة الوفية لزوجها.

(١) انظر ما ذكره جايتنانوج بندوباداي: دهارمير بهيششت: ص (٤٩).

(٢) انظر للمزيد ما ذكره الدكتور محمد إسماعيل الندوي : الهند القديمة ... ص (٢٥٠).

(٣) كما هو في الترجمة البنغالية، وهذا العدد اتفق عليه شراح كتب الهندوس منهم كتاب بورانيكا أبهيديان ص (٤١٣) وغيره.

(٤) كما هو في الترجمة العربية وكما يراه الدكتور علي زيعور : الفلسفة في الهند ص (١٢٤).

(٥) لم أجد في الكتاب إلا ٢٦٨٤ فقرة، ولعل الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي عنده نسخة أخرى فيها بعض الزيادات ولم أطلع عليها، وهو موافق لما ذكره العالم الهندوسي: أَمْلُ كُومَارُ بَنْدُوبَادَاي: بُورَنِيكَ (٢/ ٣٥٠).

الباب السادس: يتحدث عن «فان برستا أشرم» أي أحكام ترك الدنيا (وهو الدور الثالث من عمر الإنسان). ودراسة «الثقيدات»، والتفكير في معانيها ودراسة الأوبانيشادات.

الباب السابع: يتحدث عن أحكام السلطان، وإقامة الحدود، وأحكام قائد الجيش، أي: واجبات الملك، والوصايا والأحكام المتعلقة بإدارة شؤون الرعية والبلاد، والأمور السياسية، والحربية، والتنظيمية، وحالة الحزن والألم في حياة الإنسان.

الباب الثامن: يتحدث عن أحكام المحاكم، والعقاب على ترويج الحكايات الكاذبة، وأنواع العبودية تجاه السلطان، أي: هذا الباب يشرع أصول المحاكمات، والشهادة، والشهود، والقسم، ثم يتناول قضايا البيوع والعقود، والموجبات، والأمور التجارية، (المكايل والأوزان، والتعهد، والكفالة، والرهن، إلخ). كما أنه يتعرض للعقوبات التي تفرض على السرقة، والاعتداء، والميسر، وما إلى ذلك.

الباب التاسع: يتحدث عن أحكام الرجل والمرأة، أي: الواجبات الزوجية، وأحكام عامة متعلقة بالأسرة، والأولاد، والزنا، والطلاق، والإرث، كما يتحدث أيضا عن أحكام السلطان.

الباب العاشر: يتحدث عن وظائف الطبقات الأربع في المجتمع الهندوسي، من حيث اختلاط الأنساب من طبقتين مختلفتين؛ ويقرر الأوضاع للمنبوذين بحيث يحرمهم من امتلاك ما عدا الكلاب، والحمير، وبعض الأواني؛ ويجعل إقامتهم خارج القرى إلخ.

الباب الحادي عشر: يتحدث عن أنواع الفقر عند النساء، ويفصل طقوس الكفارات، والتكفير عن الذنوب بواسطة تلاوة الكتب المقدسة، أو بتقديم القرابين، والشظف، والتزهد، كما تحرم الخمر.

الباب الثاني عشر: يتحدث عن أنواع قانون الجزاء، وكيفية حصول النجاة من جولان الروح، أي التناسخ.

هذا هو كتاب «منو» شريعة الهندوس، وهو بمثابة الفقه عند الهندوس، ويرى الهندوس أن هذا الكتاب مستمد من أصول تعاليم «الفيدات»، ولكننا نلاحظ في تعاليمها مخالفة صريحة للفيدات.

وأما أهم محتويات الكتاب: فيظهر منه أن الثقافة الآرية في عصر تأليفه لم تنتشر في الهند الجنوبية، بل انحصرت في الهند الشمالية وفي سهول الهند الوسطى، وأن البلاد كانت مقسمة سياسيًا إلى مملكات كبيرة وصغيرة، مستقلة كل الاستقلال أو بعض الاستقلال، وإلى جمهوريات صغيرة تعيش في كنف تلك المملكات بسلام.

وكانت القرى تحكم على نفسها، ويراقب كل عشر قرى مراقب من قبل الملك، وكذلك يسيطر على كل عشرين قرية، ومائة قرية، وألف قرية حكام من قبل الملك، لا يتدخلون في شؤون القرى الداخلية، بل كانت وظيفتهم الأساسية التجنيد عند نشوب الحرب، وجمع الخراج للخرينة الملكية.

وكان عمال الملك في القرى لا ينالون مرتباتهم نقدًا بل جنسًا، فكان يمنح عامل القرية ما يحتاج إليه من الطعام والشراب واللباس، وعامل عشر قرى يمنح له من الأرض ما يكفي لحاجات أسرته، وهكذا يزداد أجر العمال حسب ارتفاع مناصبهم، فكان مرتب عامل ألف قرية أن يأخذ لنفسه إيراد قرية كبيرة.

وكان الملك يعتبر أكبر موظف في المملكة، عليه أن يدافع عن حقوق الشعب ويعمل لراحته، وكان يساعده في الحكم المستشارون والوزراء، وكان الملك هو الذي يتولى وزارة المالية التي وظيفتها جمع الخراج والجمارك، وإدارة المعادن، ويتولى وزارة الدفاع والبوليس رجل مدني، أما القائد العام فلم يكن له من الأمر شيء إلا إذا نشبت الحرب، فعليه أن يقود الجيش.

وكان المجتمع الهندي مؤلفًا إذ ذاك، كما هو الآن من أربع طوائف: البراهمة، كهشتريا، فايشا، الشودرا، ولكل طائفة وظائفها وواجباتها، فكان على البرهمي أن يشتغل بالتعلم والتعليم، وإرشاد الناس في دينهم، فكان هو المعلم، والكاهن، والقاضي، ورئيس الوزراء، أما كهشتريا، فكانت وظيفته أن يتعلم، ويقدم القرابين،

وينفق في الصدقات، ويحمل السلاح للدفاع عن وطنه وشعبه، أما فايشا، فعليه أن يزرع، ويتجر، ويجمع المال، وينفق على المعاهد العلمية والدينية، وأما الشودرا، فعليه أن يخدم الطوائف الثلاثة الشريفة.

ونعلم من الكتاب: أن الرق كذلك كان شائعاً في البلاد، وكان العبيد على أنواع: أسرى الحرب، والذين باعوا أنفسهم لفقرهم، والذين لم يستطيعوا سداد ديونهم فرضوا بالرق.

أما المرأة، فقد حرمت كثيراً من حقوقها السابقة في عصر «منو دهرما شاسترا»، فنجد أبواب العلم قد سدت على وجهها، فلا يجوز لها أن تدرس كتب البيذات، وكذلك جردت من حياتها الاستقلالية، فحكم عليها أن تعيش في كنف أبيها قبل الزواج، وفي حماية زوجها بعد الزواج، وتحت رعاية أبنائها إذا مات زوجها.

وقد فرضت الشريعة الهندوسية على أبناء الطوائف الثلاثة الشريفة أن يجعلوا من حياتهم أربع مراحل: مرحلة الدرس والتعلم، مرحلة الحياة الأهلية، ومرحلة التأهب للانقطاع عن أمور الدنيا، ومرحلة النسك والرهبة.

وقد ترقى البلاد في عصر «منو» فكانت هنالك حياة مدنية، وحياة قروية كما نعرفها الآن، وكانت البيوت من الطين والأجر والحجر والخشب، ذات طبقة واحدة، أو طبقتين، أو طبقات ثلاثة أو أربعة.

وكانت الزراعة أهم ما يشتغل به الناس، كما هو الحال الآن، فيزرعون القطن، والشعير، والقمح، والأرز، والسّمسم، وقصب السكر، والخضار، ويحصدون الزرع مرتين في السنة: في الربيع والخريف، وكانت الحكومة تراقب الزراعة وتعاقب من يغش في البذور، وتأخذ من المحصولات الربع، أو الثمن، أو العشر حسب نوعية الأرض المزروعة.

وكانوا يربون من الماشية الجاموس والبقر، والمعز، والشاة، ويتجرون بالحليب والسمن والصوف.

وكانت الصناعة من أنواع شتى راقية، وكان واجباً على كل صانع أن يخصص

يومًا في كل شهرٍ لأشغال الملك بالأجرة المعلومة، أما التجارة فكانت البلاد تقدمت فيها كثيرًا، وكانوا يتعاملون بالنقد والمقايضة، وكانت الحكومة تحدد الأثمان بمشورة التجار وتعاقب الذين يغشون في مداولاتهم.

وكانت البنوك معروفة، تقدم المساعدات المالية وتأخذ عليها الربا الذي كان يجوز أن يجاوز خمسة عشر في المائة، وقد عرفت الأوراق المالية التي كانت تصدرها البنوك، وكان لزامًا أن تجدد سنويًا. هذه نظرة خاطفة على محتويات الكتاب^(١).

نقد الكتاب:

إن هذا الكتاب كما سبق معنا كتاب الفقه الهندوسي، وقد انتقد هذا الكتاب من وجوه عديدة، منها:

من الناحية التاريخية:

وقد سبق معنا: أن هذا الكتاب ليس لمؤلف معروف، وإنما هو لمؤلفين مجهولين، غير معروف في السيرة، كما أن زمن تأليفه غير محدد، ولا يعرف أحدٌ على اليقين متى ألف الكتاب، فالكتاب في ظلام التاريخ من كل الوجوه، ومن هنا تعرف قيمة الكتاب.

من ناحية ما يشتمل عليه:

إن هذا الكتاب اشتمل على أمور عديدة متقدمة، وفيما يلي بيان لأهمها:

الناحية العقدية:

اشتمل الكتاب على أمور عقدية متضاربة، من أهمها:

❖ لا يوجد في الكتاب موقف واضح عن الخلق، فإننا نلاحظ في هذا الكتاب ثلاث أنماط من النصوص وهي كلها متضاربة تبين كيفية الخلق، وسيأتي الكلام عليها مفصلاً عند بياننا لمسألة الخلق في الباب الثاني.

(١) ملخصاً مما ذكر في مقالة «الفقه الهندوسي الأكبر - منو دهرما شاسترا» ص (٦٠-٦٣)، من مجلة ثقافة الهند، يونيو ١٩٥٢م.

❖ كما يوجد في الكتاب معلومات متضاربة عن الخالق، فتارةً تنسب الخلق إلى براهما، وتارةً إلى شخص يقال له برات، وتارةً إلى عشرة برجاتي. وهي معلومات متضاربة.

❖ أما بعض العقائد مثل التناسخ، وكارما وغيرها فهي مخالفة صريحة لعقيدة الفيدات، حيث إننا لم نجد مثل هذه العقائد في الفيدات بل نجد عقيدة اليوم الآخر واضحة في كثير من نصوصها.

الناحية السياسية:

نلاحظ في هذا الكتاب أنواعًا من السياسة الظالمة، من أهمها:

❖ استبداد طبقتي البراهمة والكهشتريا: حيث أعطي لهاتين الفرقتين سلطات غير محدودة، فجعل البراهمة هم الآلهة الحقيقية، والكهشتريا أعوانهم في هذا الظلم والاستبداد.

❖ أخذ الربا، (٨ / ١٤٠): لقد أجاز بششت رشي للدائن (وهو برهمي)، بغية إنماء ماله؛ أن يأخذ فائدة، عمّا يقرض، واحدًا وربيع الواحد في المائة شهريًا.

❖ أن البرهمي جعل كل شيء له، ومن أجله خلق كل شيء - كما فعل اليهود في التلمود حيث جعلوا كل شيء لهم، ومن أجلهم خلق الله الخلق - فمما ذكروا للبرهمي: أن المال كله للبرهمي، (١ / ٩٨-١٠١) إن البرهمي؛ هو تجسد الدين الأبدي، خلق ليعمل عليه، وليتحد مع برهمان، ويمتزج به، إن الإله قد نزل إلى هذا العالم بصورة البرهمي، لحفظ الدين، إن كل ما في هذا العالم؛ هو ملك للبراهمة؛ لأن براهما خلقهم من وجهه، إن البرهمي يأكل من ماله، ويلبس من ماله، ويتصدق من ماله، وغيره يعيش بفضله (أي كل ما في العالم ماله، فهو يتصرف فيه كما يشاء لأنه مالكة)، (٨ / ٣٧): إذا وجد البرهمي دفيئة؛ فله أن يأخذها كلها؛ لأن البرهمي هو المالك لكل شيء، في هذا العالم.

❖ إن البراهمة ليس من عقابه القتل أبدًا مهما فعل، ولا يفكر الملك الكهشتريا في مثل هذا الشيء أبدًا، (٨ / ٣٨٠): لا يقتل البرهمي، ولا يؤذى ببدنه؛ ولو ارتكب أي جرم من الأجرام، بل يكتفي بنفيه في الأرض، (٨ / ٣٨١): على الملك أن لا يفكر تفكيرًا بقتل البرهمي، بله قتله؛ إذ لا إثم على وجه الأرض؛ أعظم من قتل البرهميين، بل حلق الشعر من البرهمي يعتبر كقتله (٨ / ٣٧٩): إن حلق شعر البرهمي؛ هو كالقتل للفرق الأخرى.

❖ (٩ / ٢٣٠): إذا تعذر على الكهشتريا وفايشا والشودرا أداء ما يحكم عليهم به من غرامة مالية فللملك أن يستوفي المبلغ باستخدامهم لديه، وتستوفى الغرامة في مثل هذه الحالة من البرهمي تقسيطًا.

الناحية الاجتماعية:

اشتمل هذا الكتاب على أمور متقدمة من الناحية الاجتماعية؛ وفيما يلي بيان لأهمها:

❖ الظلم على الشودرا:

وذلك أنه قد جعل طبقة الشودرا (وهم سكان الهند الأصليين الذين دخلوا في ديانة الآريين، ومجتمعهم) أحط من الحيوانات، وفيما يلي بعض أنواع من القوانين الظالمة التي فرضت عليهم:

(١) الشودرا مخلوق سافل، حيث خلقوا من قدم الإله^(١).

(٢) الشودرا خلقوا لخدمة البراهمة^(٢).

(٣) الشودرا لا يمكن أن يتخلص من العبودية مطلقًا^(٣).

(١) انظر مَنُو سَمَرْتِي (١ / ٣١)، وانظر أيضًا (١ / ٨٧).

(٢) انظر المصدر السابق (١ / ٩١)، (٨ / ٤١٠)، (٨ / ٤١٣)، (٩ / ٣٣٤)، (٩ / ٣٣٦)، (١٢ / ٧٢).

(٣) انظر المصدر السابق (٨ / ٤١٢)، (٨ / ٤١٣)، (٨ / ٤١٧).

- ٤) الشودرا لا يحق له أن يمتلك أي مال^(١).
- ٥) الشودرا لا بد وأن يحمل معه اسم الصغار والذل^(٢).
- ٦) الشودرا لا يحق له الزواج إلا بفرقة^(٣).
- ٧) الشودرية تبقى نجسة وإن تزوجها البرهمي^(٤).
- ٨) زواج الشودرا غير شرعي^(٥).
- ٩) الشودرا لا ضيافة له^(٦).
- ١٠) الشودرا يسمح له بالأكل مع الخدم^(٧).
- ١١) لا ينبغي للبرهمي النظر إلى الشودرا عند الأكل^(٨).
- ١٢) نظر الشودرا نجس أيضاً يفسد القرابين^(٩).
- ١٣) الشودرا مثل الكلب والخنازير^(١٠).
- ١٤) الشودرا ليس من نصيبه طعام التقديمات^(١١).
- ١٥) الشودري لا يأكل ولا يلبس إلا ما يعطيه البرهمي^(١٢).

(١) انظر المصدر السابق (٨/٤١٦)، و(١٠/١٢٩).

(٢) انظر المصدر السابق (٢/٥٥)، (٢/٥٦).

(٣) انظر المصدر السابق (٣/١٣).

(٤) المصدر السابق (٣/١٩).

(٥) المصدر السابق (٣/٢١)، (٣/٢٣)، (٢٤/٢٤).

(٦) انظر المصدر السابق (٣/١١٠).

(٧) انظر المصدر السابق (٣/١١٢).

(٨) انظر المصدر السابق (٣/٢٣٩).

(٩) انظر المصدر السابق (٣/٢٤٠).

(١٠) انظر المصدر السابق (٣/٢٤١).

(١١) انظر المصدر السابق (٣/٢٤٩).

(١٢) انظر المصدر السابق (١٠/١٢٥).

- (١٦) الزوجة الشودرية للبرهمي تبقى نجسة مهانة^(١).
- (١٧) الشودري لا يجلس مع البرهمي تحت سقف واحد^(٢).
- (١٨) الشودري لا يستحق النصح ولا الديانة^(٣).
- (١٩) إن الشودري لا دين له ولا تعמיד له ولا طقوس له ولا مراسيم^(٤).
- (٢٠) لا يقرأ البرهمي القيدات أمام الشودرا^(٥).
- (٢١) الشودرا لا يوثق به في السفر^(٦).
- (٢٢) البرهمي لا يأكل من طعام الشودري إلا إذا رأى فيه مصلحة^(٧).
- (٢٣) الشودري لا يتطهر من موت الأقارب إلا بعد شهر بخلاف البرهمي^(٨).
- (٢٤) الشودري إذا مات يُخرج به من غير باب الذي يخرج منه البرهمي^(٩).
- (٢٥) الشودري لا يمس برهمياً حتى بعد الموت ولا يحمل جنازته^(١٠).
- (٢٦) الشودري مثل كلب الصيد بالنسبة للبرهمي، فيجوز للبرهمي أكل ما ذبحه الشودرا^(١١).

-
- (١) انظر المصدر السابق (٣/٢٥٠)، وفي (٣/١٩١).
- (٢) انظر المصدر السابق (٤/٧٩).
- (٣) انظر المصدر السابق (٤/٨٠، ٨١).
- (٤) انظر المصدر السابق (١٠/١٢٦، ١٢٧، ١٢٨).
- (٥) انظر المصدر السابق (٤/٩٩).
- (٦) انظر المصدر السابق (٤/١٤٠).
- (٧) انظر المصدر السابق (٤/٢١٨)، و(٤/٢٢٣)، وقارن مع ما جاء في (٤/٢٥٣-٢٥٤)، فقد جاء ما يدل على الأكل، وذلك إذا كان لمصلحة البرهمي.
- (٨) انظر المصدر السابق (٥/٨٣).
- (٩) انظر المصدر السابق (٥/٩٢).
- (١٠) انظر المصدر السابق (٥/١٠٤).
- (١١) انظر المصدر السابق (٥/١٣١).

- (٢٧) الشودري يعمل بدون أجره، أو بما يراه البرهمي^(١).
- (٢٨) الشودري لا يستخدمه الملك في الأمور الملكية^(٢).
- (٢٩) الشودري لا يشهد إلا على الشودري، فلا يكون شاهدًا على الآخرين^(٣).
- (٣٠) الشودري يختلف عن الآخرين في الأيمان^(٤).
- (٣١) يختلف عرض الشودري عن عرض الآخرين فلا يسوى عند انتهاك عرضه^(٥).
- (٣٢) عقاب الشودرا في الجرائم أشد من عقاب الآخرين^(٦).
- (٣٣) الشودري لا يستحق أي رحمة ولا عطف فلا يجوز لبرهمي أن يقدم له شيء^(٧).
- (٣٤) قتل الشودري من قبل البراهمة جزاؤه قتل الحيوانات البرية^(٨).
- (٣٥) حد الزنا للشودري القتل بخلاف البراهمة^(٩).
- (٣٦) الشودري إذا جلس مع طبقة أعلى منه فإنه يعذب وينكل به^(١٠).
- (٣٧) ابن الشودرية من زوج برهمي لا يكون مثل من أبناء البرهمي من زوجات

(١) انظر المصدر السابق (٧/١٣٨)، (١٠/١٢٤).

(٢) انظر المصدر السابق (٨/٢٠-٢٢). و(٤/٦١).

(٣) انظر المصدر السابق (٨/٦٨).

(٤) انظر المصدر السابق (٨/٨٨). (٨/١١٣).

(٥) انظر المصدر السابق (٨/٢٦٧، ٢٦٨).

(٦) انظر المصدر السابق (٨/٢٧٠-٢٧٢)، (٨/٢٧٩-٢٨٣). (٩/٢٤٨).

(٧) انظر المصدر السابق (١١/٧٠).

(٨) انظر المصدر السابق (١١/١٣١-١٣٣).

(٩) انظر المصدر السابق (٨/٣٥٩، ٣٦٦، ٣٧٣، ٣٨٥).

(١٠) انظر المصدر السابق (٨/٢٨١).

من الفرق العالية في العيش وفي الإرث أيضاً^(١).

(٣٨) لا يحق للشودري أن يسكن مع الفرق الأخرى في نفس المدينة^(٢).

(٣٩) يتعامل مع الشودرا والفرق السافلة الأخرى المنحطة بعدم التزاوج، ويعطى لهم الطعام في أوان مكسرة، ولا يدخلون في المدينة في الليل، ويدخلون المدينة بحمل شارة معهم، وهم المنفذون للقتل^(٣).

هذه بعض أنواع الظلم على الشودرا كما جاء في مَثُؤْ سُمَرِتِي، ويذكر مَثُؤْ طبقات أخرى سافلة، ولكنه لا يذكر من أي عضو من أعضاء براهما خلقوا، كأنهم لم يخلقوا من قبل إلههم، بل خلقوا من قبل إله آخر^(٤).

❖ الظلم على النساء:

إن النساء مظلومة في مَثُؤْ سُمَرِتِي، فلم يعط مَثُؤْ للمرأة أي مكانة، ومما يدل على ظلمه على النساء ما يلي:

(١) إن النساء لا حق لهن في التعميد^(٥).

(٢) الابتعاد عن النساء في حالة الحيض، حيث لا يجالسهن ولا يؤاكل معهن^(٦).

(٣) ألا يأكل مع الزوجة، ولا ينظر إليها في بعض الحالات^(٧).

(٤) المرأة لا حرية لها مطلقاً^(٨).

(١) انظر المصدر السابق (٨/١٠)، (٨٧-٨٥/٩)، (١٥٦-١٥٠/٩).

(٢) المصدر السابق (١٠/٥٢-٥٠).

(٣) انظر المصدر السابق (١٠/٥٦-٥٣).

(٤) انظر ما ذكره الهندوسي كنكر شينغه: مَثُؤْ سنغيتا والشودرا ص (٥٥-٥٧).

(٥) انظر مَثُؤْ سُمَرِتِي، (٢/٦٥-٦٦)، و (٩/١٨).

(٦) انظر المصدر السابق (٤/٤٠، ٥٧).

(٧) انظر المصدر السابق (٤/٤٣).

(٨) انظر المصدر السابق (٥/١٤٧-١٤٨)، (٩/٣).

- ٥) المرأة تحترم زوجها كإله^(١).
- ٦) ليس للمرأة عبادة خاصة لوحدها^(٢).
- ٧) تبقى المرأة تعيسة بعد وفاة زوجها^(٣).
- ٨) لا تتزوج المرأة مرة أخرى بعد موت زوجها^(٤).
- ٩) لا تقبل شهادات النساء إلا على النساء^(٥).
- ١٠) المرأة وإن زنت لا تعاقب إذا كان الزاني بها من فرقة أعلى منها^(٦).
- ١١) العقاب الأليم على الزوجة بأدنى سبب^(٧).
- ١٢) إن المرأة خلقت شريرة^(٨).
- ١٣) المرأة لا مهر لها^(٩).
- ١٤) المرأة لا ملكية لها^(١٠).

هذه بعض ما جاء من أحكام المرأة في الهندوسية، وهي أحكام جائرة ظالمة تمنع المرأة عن حقوقها الدينية والدنيوية.

-
- (١) انظر المصدر السابق (٥/ ١٥٤).
 - (٢) انظر المصدر السابق (٥/ ١٥٥).
 - (٣) انظر المصدر السابق (٥/ ١٥٧).
 - (٤) انظر المصدر السابق (٥/ ١٥٨، ١٦٠).
 - (٥) انظر المصدر السابق (٨/ ٦٨)، (٨/ ٧٧).
 - (٦) انظر المصدر السابق (٨/ ٣٦٤ - ٣٦٥).
 - (٧) انظر المصدر السابق (٨/ ٣٧٠).
 - (٨) انظر المصدر السابق (٩/ ١٧).
 - (٩) انظر المصدر السابق (٩/ ١٠١).
 - (١٠) انظر المصدر السابق (٨/ ٤١٦).

المطلب السابع

مهابهارت

معنى مها بهارت:

هذه الكلمة مركبة من كلمتين:

(١) مها، أي: العظيم.

(٢) بهارت*، وتعني: الهند

فتكون المعنى: الهند العظيم.

التعريف بالكتاب:

هذا الكتاب يروي أسطورة لحرب كبرى وقعت في الهند بين فئتين آريتين، وقد كان اسم الكتاب أولاً «جاي» يعني الفتح ثم سمي باسم «بهارت»^(٢) ولما اشتهر لُقِّبَ بـ«مهابهارت».

والكتاب لم يصل إلينا كما ألف، بل طرأت عليه تغييرات كثيرة بالزيادة والنقصان، والعلماء يقدرّون أن يكون الكتاب مشتملاً على أكثر من ألفي باب، فيه أكثر من مائة وعشرين ألف بيت^(٣)، وقيل: مائة ألف بيت المسمى بـ«شلوكة»^(٤) وقيل: تتكون من

(١) أما تسمية الهند بـ«بهارت» فنسبة إلى الملك «بهرت»، فتعني كلمة بهارت: مُلْكُ بهرت، حيث يرى الهندوس، أن من آباء كورو و وپاندو من كان اسمه بهرت، وكان قد ملك كل الهند.

(٢) هكذا يسمّيه البيروني، انظر تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص(٩٣).

(٣) انظر ما ذكره الأعظمي في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٤٨).

(٤) انظر ما ذكره البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، ص(٩٣).

تسعين ألف بيت^(١). ويتكون كل شطر من البيت من ست عشرة كلمة هجائية كما هو المعروف في الشعر السنسكريتي^{(٢)(٣)}.

هذا، وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات عالمية، حتى قيل^(٤): إنه قد ترجم إلى العربية من قبل أحد مسلمي الهند وهو عبد الحميد النعماني، ولم أطلع منها إلا على جزء يسير منشور في مجلة ثقافة الهند^(٥)، واطلعت على ترجمة له بالعربية قام بها الأستاذ «ممدوح عدوان» على شكل تمثيلية، كما وجدت ترجمة مختصرة من قبل «عصمت والي»، وهو اختصار جيد جدًا.

مؤلف الكتاب :

اختلف في تعيين مؤلف هذا الكتاب إلى أقوال:

القول الأول: إن مؤلفه هو بياس بن پراشر المعروف بـ «فيد بياس» أو «بياس ديف»^(٦)،^(٧).

(١) Academic American Encyclopedia Vol. 13، p. 64 انظر

نقلًا عن ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، الفيدية، البراهمانية، الهندوسية ص (١٤٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) ويرجع اختلاف العدد إلى اختلاف النسخ، وإلى اختلاف العد من شخص إلى شخص لكثرتها.

(٤) انظر ما ذكره الدكتور الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٤٩).

(٥) ثقافة الهند، عدد ديسمبر ١٩٥٣ م.

(٦) وعليه معظم الهندوس، انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، الفيدية، البراهمانية، الهندوسية ص (١٤٥)، والبيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ص (٩٣).

(٧) ذكروا أن بياس ديف طلب من براهما أن يهبي له من يكتب له «قصيدة مهابهارت» وهو يملبه فأشار إلى إلههم «بتائيك» وهو غانيش (الذي يصور رأسه برأس فيل كما سيأتي مفصلاً)، فاشترط على بياس ديف أن يكون إملأؤه متواصلًا لا تتوسطه وقفة ولا تفصله لجلجة؛ لأنه =

القول الثاني: إنه قد اشترك في تأليفه ثلاثة من مؤلفي الهندوس وهم: «بياس بن پراشر» و«بِشْمَبَايَان» و«سوتي»^(١).

القول الثالث: إنه قد اشترك في تأليفه وصياغته مجموعة من شعراء الهندوس والحكماء عبر أزمنة مختلفة^(٢).

ويبدو لي: أن الكتاب ألفه جماعة كبيرة من الهندوس في أزمان عديدة، ولكنهم كعادتهم نسبوا هذا الكتاب إلى بياس بن پراشر، عالمهم المشهور، ولم يكتفوا بذلك بل جعلوا كاتبه هو أحد الآلهة الهندوسية، حتى تضيفى إليه القداسة^(٣).

زمن تأليف الكتاب :

يوجد خلاف حول زمن كتابة مهابهارت:

١ - فثمة رأي يقول: إن تاريخه يرجع إلى نحو سنة ٥٠٠ ق.م^(٤)؛ وأنه أخذ صورته الراهنة نحو سنة ٤٠٠ الميلادي في عهد ملوك غوبتا Gupta العظماء^(٥).

= لا يفتر عن الكتابة، واشترط «بياس» على غانيش أن لا يكتب إلا ما يعلم، فكان يورد في خلال ذلك ما يضطر له الكاتب إلى التفكير فيه وبذلك يستريح المملي، هذه القصة موجودة في بداية مهابهارت، كما نقله عنهم البيروني أيضاً، انظر: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص(٩٤)، وانظر مقالة العالم الهندوسي، راج گوپال أشاريا عن مهابهارت: مجلة ثقافة الهند، عدد ديسمبر سنة ١٩٥٣ م.

(١) وهو ترجيح الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي حفظه الله.

(٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، الفيدية، البراهمانية، الهندوسية ص(١٤٦).

(٣) كأنهم يريدون بذلك جلب فرقة غانبتي (غانيش) الهندوسية إلى الانضمام في تقديس هذا الكتاب بهذه الوسيلة.

(٤) انظر ما ذكره بال غنغادھر تِلْک، غِيتا رُوهُشُو ص(٥٠٧).

(٥) انظر ما ذكره أ.ف. توملين: فلاسفة الشرق ص(١٩٢)، وانظر أيضاً:

٢- ويقول أحد علماء الهندوس «شري بال ديو» في كتابه: تاريخ الحضارة والثقافة في الهند: ومما هو معروف أن «مهابهارت» ألف قبل الميلاد بثلاثمائة سنة^(١).

٣- ويذهب بعض العلماء إلى أنه من المحتمل أنه كتب في القرنين الثالث والثاني قبل المسيح ولكنه قد عُدِّل بقوة خلال الأجيال التالية^(٢).

٤- ويذهب بعض الهندوس إلى أنه كان لكتابه ثلاث مراحل، فقد ألفه بياس بن پراشر، في أزمنة قديمة، وكان يحتوي على (٨٠٠٠) ثمانية آلاف بيت، وكان هناك تمجيذاً للفرقة البرهماوية، ثم جاءت المرحلة التالية، حيث بلغت أبياتها إلى (٢٤٠٠٠) أربعة وعشرين ألف بيت، فسيطرت الفرقة الفِشنُوِيَّة عليها، وذلك حوالي ٣٠٠ ق.م، ثم بدأت المرحلة الثالثة حيث زيد فيه وبلغت أبياته (١٠٠٠٠٠) مائة ألف بيت، وانتهت الزيادات فيها إلى ٣٠٠ م^(٣).

٥- ويقول بعض الكتاب: إن مهابهارت مبني على مصنف قديم يسمّى بـ«بهارت»، وكان يحتوي على أربعة وعشرين ألف بيت في وصف حرب نشبت بين الأسرتين پاندو وكورو، من عائلة الملك بهرت، وكان من أجداد العائلة، ويتصل تاريخ تصنيفه بنحو القرن الخامس قبل الميلاد... وتتابع في الزيادة والنقصان وتوالت التبدل والتعديل حتى بلغت عدة الأبيات إلى مائة ألف بيت، واستمر هذا إلى أوائل القرون الميلادية، أما النسخة التي في أيدينا فكادت أن تكون هي التي كانت في حوالي القرن الخامس الميلادي، إلا تغييرات يسيرة وتحريفات قليلة أو زيادات أو سقطات غير مهمة، قد تسربت

= نقلاً عن ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، الفيدية، البراهمانية، الهندوسية ص(١٤٥).

(١) انظر ما ذكره الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٤٨).

(٢) انظر ما ذكره شالي، موجز تاريخ الأديان ص(٨٠).

(٣) انظر ما ذكره أَمَلْ كُومار بندوباداي: بُورَنِيكا (٢/ ٣٨٨-٣٨٩).

فيها مدى تلك القرون المديدة^(١).

مقاصد الكتاب:

اختلف العلماء في بيان مقاصد تأليف هذا الكتاب إلى أقوال، منها:

١- إن هذا الكتاب ما هو إلا محاولة الجمع بين طبقات الهندوس الأربع، الذين لا يحق لبعضهم الاستفادة من الكتاب المقدس لديهم - الفيدات - ..

٢- وقيل: إن هذا الكتاب يهدف إلى إظهار تفوق الفرقة الفِشنُوِيَّة على الفرقة الشِثْواوية^(٢).

٣- إن هذا الكتاب يهدف إلى جمع الكلمة للفرق المشهورة الثلاثة، البرهماوية، والفِشنُوِيَّة والشِثْواوية.

يقول الدكتور الأعظمي: لما انتهى الآريون من الفتوحات، وذلك قبل الميلاد بسبعمئة عام، بدؤوا ينظمون حياتهم الدينية والاجتماعية والسياسية... فافتقرت كلمتهم، وانقسموا إلى ثلاث فرق دينية مستقلة وهي: فرقة برهما، وفرقة فِشنُو، وفرقة شِثْوا، وظهر دينان جديدان وهما: البوذية والجينية. مؤسس الأول «بوذا»، ومؤسس الثاني «مهاير»، وقام هذان الرجلان بالهجوم على معتقدات الفيدات. والحضارة الآرية، اضطر علماء الهندوس إلى تأليف كتاب واحد تعترف به الفرق الثلاث فظهر هذا الكتاب وهو «مهابهارت» يجمع بين دفتيه الفرق الثلاث بالإضافة إلى أفكار «الفيدانت» و«يوغا» فتوحدت كلمتهم، واعترف الهندوس جميعاً بهذا الكتاب، وجعلوه مقدساً^(٣).

والذي يظهر لي أن هذه التعليلات كلها صحيحة، فقد وضع هذا الكتاب من قبل

(١) الشيخ محمد عبد السلام خان: فلسفة مهابهارت، ص(٥٠-٥٢)، مجلة ثقافة الهند، المجلد ٤١، ١٩٩٠م.

(٢) انظر ما ذكره الشيخ رياض موسى: الهندوسية ص(١٨)، مخطوط. (وسيأتي التعريف بالفرقتين في نهاية الباب الثاني).

(٣) اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٤٩).

أشخاص كثيرين، لهم أهداف متعددة، منها:

- (١) إنشاء كتاب تشمل جميع الطبقات الهندوسية في تمجيده والتمكن من قراءته.
- (٢) جمع الكلمة للفرق الهندوسية الثلاثة المشهورة، وغيرهم.
- (٣) إن أكثر الذين ساهموا في كتابة هذا الكتاب هم من الفرق الفشنوية، حتى أصبح كأنه كتابهم الخاص.
- (٤) من مقاصد هذا الكتاب إثبات فلسفة بهاكتي (عبادة الإله بالمحبة وحدها) حيث إن هذه الفلسفة نمت مع كريشنا، ومهابهارت في تمجيد كريشنا وأعماله.
- (٥) ومن مقاصد هذا الكتاب إثبات عقيدة الأفثارت التي لم تكن موجودة في الفثيدات ولا في ذيولها من برهمانا وأرثك والأوبانيشادات، ولم يأت لهذه العقيدة ذكر في كتب سوترا، فكأن عقيدة الأفثارت تأتي أولاً في هذا الكتاب^(١).
- (٦) ومن مقاصد هذا الكتاب ترسيخ عقيدة كارما والتناسخ، حيث نلاحظ ذلك في أغلب القصص الموجودة في مهابهارت، فما رأيت كتاباً من كتب الهندوسية أشد اهتماماً وتكراراً لهذه العقيدة من هذا الكتاب.
- (٧) كما أن من مقاصد هذا الكتاب جمع الآريين والدرأويديين، وذلك من خلال ذكر كريشنا (والتي تعني الأسود) وكان أسود اللون كما يذكرونه، وأخيه بلارما، والذي كان أبيض اللون على ما يذكره الهندوس في كتبهم، فكأنهم جمعوا بين أخوين الأسود والأبيض قاصداً من ورائه جمع الآريين وغيرهم في تقديس كتاب مشترك بينهم.

(١) أما ما جاء في راماین فقد سبق معنا: أن الجزء الأول والأخير هو الذي يشتمل على مثل هذا الادعاء وهما متأخران عن مهابهارت. انظر ما ذكره جايتانانوج بندوباداي: مهاكاتب ومولوباد، ص (٣٧).

(٨) ومن مقاصد هذا الكتاب إرجاع الهندوس إلى دياتهم بعد ما زعزعتهم الأفكار البوذية والجينية.

(٩) كما أن من مقاصدهم بيان العقيدة الهندوسية من خلال القصص والروايات حتى تكون أقرب فهمًا لدى عوام الهندوس.

(١٠) ولا يستبعد أن يكون من مقاصد الكتاب ما جاء في مقدمته: بأن بياس بن پراشر وضع هذا الكتاب ليعلم الناس الدين الإنساني، والإرشاد إلى الحياة وغاياتها (حسب تصور الديانة الهندوسية)^(١).

محتويات الكتاب:

يحتوي هذا الكتاب الكبير على ثمانية عشر بابًا، فصل فيها قصة حرب بين عائلتين آريتين، وملخصها: أن أسرة هندوسية تدعى «كورو» كانت تحكم دلهي وما يجاورها التي تسمى بـ«هستيناپور»، وكان الملك «شانتو» تزوج في بداية الأمر بالهتهم التي تسمى «غغا» في زيهما البشري، فتولد له بهيشما، ثم تزوج الملك بـ«ستوتي» (التي كان فعل بها الراهب الجوال «پراشر» ما فعل، وولدت منه ولد يسمى بياس ديثف، قبل زواجها بالملك شانتو)، وبعد زواجها بالملك ولدت للملك شانتو ولدان، هما: چترانغد، وبيچيترا بيرزا، وبعد موت شانتو تنحى بهيشما الولد الكبير للملك شانتو عن الملك بموجب التعهد الذي تعهد به عند زواج الملك شانتو بـ«ستوتي» أن يكون أولادها هم الملوك دون غيرها، فقام بهيشما وصيًا على ولدي الملك الصغيرين، چترانغد، وبيچيترا بيرزا، فأجلس چترانغد على عرش الملك، ولكنه مات بالدرن، ثم جلس على العرش الولد الصغير الثاني «بيچيترا بيرزا» وكان بهيشما خطف لأخيه الصغير ثلاثة من بنات أحد الملوك، فزوجه بهيشما باثنتين منها، ولكنه مات بعد أيام تاركًا زوجته بدون

(١) انظر مقدمة الكتاب، وقد كان هذا من كلام «سوت»، بيأنًا منه من مقاصد الكتاب الذي وضعه بياس من أجله هذا الكتاب، وانظر أيضًا ما ذكره الدكتور محمد العريبي: الديانات الشرقية في الشرقي الأدنى والأقصى ص (٢١)، (الديانات الوضعية).

أولاد، فخافت أمهما «ستوتي» على الملك، فنادت بهيشما أن تقع على أرملة الأخوين، لكي يولد لهما الأولاد ولكنه رفض، فنادت «ستوتي» ابنها البكر «بياس ديث» الذي كان من الراهب البرهمي «پراشر»، فلبى بياس بن پراشر دعوة أمه، حتى أولد من أرملي الملك ولدان، هما: «دهريتاراشترا» و«پاندو» وحيث إن الكبير كان مكفوف البصر ولي الملك الأخ الصغير، ولكنه اقترف ذنباً في أيام حكمه فأخرجوه وزوجته من الملك ونفوه وإياهما إلى مجاهل الصحارى، حيث قضوا أعواماً طوَّالاً كفارة للذنب.

وكان «پاندو» له زوجتان: كوتي، ومادري، وكان لا يقترب من زوجته لما أصابه من دعوة، فطلب الملك پاندو من زوجته أن يأتي له بأولاد من غيره، فنادت زوجته الأولى «كوتي» بعض الآلهة فأعطوا لها ثلاثة من الأولاد، وهم: يودهيشتهير، وأرجون، وبهيم، وطلبت الثانية من الأولى أن تعلمها كيف تنادي الآلهة، فعلمتها، فنادت الإلهان التوأمان: «أشفيدين» فأعطيا لها ولدان توأمان، هما: نُكول، وشَهْدِيْب، وبذلك أصبح لـ«پاندو» الملك خمسة أولاد ذكور، ثم توفي «پاندو»، وأخذ «دهريتاراشترا» الحكم، وأنجب مائة ذكر، وحكم المملكة حكماً ساد فيه الخير.

ولما بلغ الولد الكبير من أولاد پاندو الخمسة السادسة عشرة من عمره أتى بهم إلى هستيناپور وأدخلوهم على جدِّهم «بهيشما»، وما هي إلا أيام قلائل حتى أتقن أولاد پاندو جميع ما يتعلق بالملوك من العلوم.

وقد نشأت المشاحنات بين هؤلاء الخمسة أبناء پاندو وبين أبناء «دهريتاراشترا» المائة، وكان الأولون يتزعمهم أكبرهم «يودهيشتهير»، وأما الآخرون فيتزعمهم أكبرهم «دريودان».

وكان من التقاليد السائدة بين أمراء الهند كما تروي القصة أنهم إذا أرادوا تزويج أميرة من الأميرات يجرون مسابقة للسباق، بحيث أن الذي يحرز قصب السبق يكون هو الفائز بالزواج من الأميرة؛ وقد جرت مسابقة من هذا القبيل في القصة، إذ أعلن ملك من الملوك المجاورين عن زواج ابنته الأميرة التي تسمى «دروپدي»، فاشترك فيها أحد الأبناء الخمسة ويدعى «أرجون» وكان بطلاً شجاعاً، كما اشترك فيه شخص آخر طَبَّقَتْهُ

دون طبقة كهستريا (المحارب) يُدعى «كارنا» وكان بدوره يتسم بالبطولة والشجاعة، وكان حليفاً للإخوة المائة، ولكن الأميرة رفضته لأنه ليس من طبقة البراهمة ولا من طبقة المحاربين، وفاز أرجون بالسباق الذي كان يشجعه ويباركه فيه كريشنا (وهو الصورة البشرية التي تجسد فيها الإله فِشْنُو حسب اعتقادهم)، هكذا فاز أرجون بالأميرة التي أصبحت زوجة له ولإخوته الأربعة الأخرى، وقد شعر أبناء عمهم الإخوة المائة بغيرة وسخط نتيجة فوز أرجون بالسباق وفشل حليفهم «كارنا»^(١).

وختاماً أراد بهيشما كبير العائلة أن يتوسط في الخلاف القائم بينهما، فتم له ما أراد، وقضي الأمر فطفقا يحكما كلاًهما، وجعلا «إندرا پرسته» و«هستيناپور» مركزين لحكمهما بالترتيب، وتروي القصة أن أبناء پاندو الخمسة قد حكموا بزعامة الأخ الأكبر المنطقة الشرقية لنهر غنغا^(٢)، بينما حكم عمهم الكفيف أبو الأبناء المائة المنطقة الغربية.

وكان الأخ الأكبر يودهيشتهير من أولاد پاندو الخمسة مولعاً بالنرد^(٣)، وقد انتهز الإخوة المائة الحاقدون هذه الفرصة لكي ينتزعوا ملكه بمؤامرة استعانوا فيها بخبرات

(١) وكان كارنا في الحقيقة كما يقولون ابنًا لـ«كونتي» قبل زواجها بالملك پاندو، حيث تعلمت أوراذا لنداء الآلهة حسب الحاجة من بعض الرهبان، فأرادت أن تجرب هذه الأوراد، فنادت الإله «سوريا» (الشمس)، فجاء وحبل منها بولد، ولما ولد رمته في البحر، والتقطه أحد النجارين، فكان يعرف بابن النجار، وكانت «كونتي» تعرف هذه القضية جيدًا، ولكنها لم تكشف إلا في الأيام الأخيرة للحرب، عندما عاهد كارنا أنه سيقتل أرجونا بأي وجه من الوجوه، فذهبت كونتي إلى كارنا وأخبرته عن مولده، وأن كارنا وأولاد پاندو هم إخوة، لكن كارنا لم يستمع لقولها، وبقيت في حلف مع دريودهان.

(٢) وهو نهر طوله ٢٤٩٦ كم ينبع من جبال هماليه بمقاطعة أترابرديش، ويصب في خليج بنغال، وهو أكثر الأنهار قداسة عند الهندوس، وبخاصة مناطق الاستحمام في الله آباد (إله آباد) وبنارس.

(٣) مع أن نصوص الفيدات تشير إلى أنها محرمة، وقد سبق معنا بعض نصوص البيذات التي تنص على النتائج الوخيمة للقمار.

أحد ملوك منطقة هندية مجاورة وكان لا يضارع في لعب القمار وأقيمت مباراة خسر فيها يودهيشتهير أمواله ثم مملكته ثم زوجته وإخوته، وأخيرًا خسر نفسه، فأصبح الجميع رقيقًا لأبناء عمهم.

لكن العم الكفيف حال دون أن يصبحوا رقيقًا، وتحت إصرار أبنائه وافق على نفيهم لمدة اثنتي عشرة سنة في الغابة، على أن لا يخرجوا منها طوال هذه الفترة، وعلى أن يعيشوا سنة أخرى بين الناس مختفين عن الأنظار، وإذا أخلوا بهذا في أية وقتٍ من المدة، فإن عليهم أن يقضوا الفترة من جديد، ورغم كل هذه النوازل التي حلت بالأسرة، فإن أحدًا لم يسخط على يودهيشتهير، وكان موضوع السخط هو دريودان الذي فاز.

وقد قضت الأسرة مدة نفيها في الغابة، يرافقهم كريشنا، في تعلم الحكمة، وكان يزورهم كبار الكهنة منهم الحكيم «دُرباشا»^(١)، بل زارهم الإله شيفا، وبعد الانتهاء من فترة النفي، تنكروا لكي يقضوا سنة بين الناس دون أن يتعرف عليهم أحد، وذهبوا في هيئة غير هيئتهم إلى بلاط ملك من ملوك المقاطعات الهندية هو «برات» فتنكر يودهيشتهير في هيئة كاهن، وتنكر أرجون في هيئة سيدة إمعانًا في التنكر، كما تنكر باقي الأسرة في هيئات أخرى، وعملت درويدي في قصر الملك كخادمة، وفي تلك الأثناء قام دريودان بقيادة حملات عسكرية ضد مملكة برات^(٢) واستطاع أن ينتصر ويعود غانمًا بعد أن استولى على كثير من أموالها وأبقارها وسائر حيواناتها، وعقد الملك برات العزم على الثأر والقصاص، وعرض أرجون نفسه بعد أن ظهر في هيئته الرجولية وكشف عن قدراته - عرض نفسه لقيادة جيش القصاص - وبالفعل قاد الجيش في معركة مظفرة ضد ابن عمه، كل ذلك دون أن يكتشف أحد عن أرجون وإخوته، وبعد مرور سنة التخفي عادت الأسرة لكي تطالب بملكها، فرفض دريودن، رغم نصيحة أبيه الملك الكفيف

(١) هذا الحكيم يسمونه موني دُرباشا، وهو لا يأتي إلا لاختبار أو لإنزال بلاء، وقد سبق معنا في رامايين أنه حضر عند رام في أيامه الأخيرة، ومن أجله مات رام وأخوه لكهشمن.

(٢) وهو اسم ملك، وهكذا نرى التهجي عند البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص(٩٣).

ونصيحة كبار الكهنة والساسة ونصيحة كريشنا؛ تجنبًا لقيام حرب، وكانت الأسرة المنفية قد كسبت لجانبها طوال مدة النفي الكثيرين ممن يعطفون عليها في شمال الهند بأسرها، فضلًا عن تحالف الملك بِرَاتٍ معهم.

ونشبت حرب استرداد الملك، وكان أرجون مترددًا في المشاركة في الحرب هل يتقدم للقتال أم لا؛ لأن أعز أصدقائه وأقاربه في صف عدوه، ولكن كريشنا يجادله، وقد كشف عن شخصيته، وهو أنه تجسيد لإلههم فِشْنُو - كما يزعم - ويلقنه تعاليمه الإلهية، هذه المحاورة وما فيها من تعاليم عرفت بـ«بهاغافاد غيتا» الآتية الذكر.

وكانت المعركة عنيفة؛ حيث خسر الطرفان خسارة فادحة، وسقط الكثيرون من الجانبين؛ حتى أنه لم يبق من الأبطال في جيش دريودن إلا كارنا الند القوي الشجاع لأرجون، وهو بدوره سقط قتيلاً في نهاية المعركة، وفي اليوم الأخير للمعركة كانت المواجهة الحاسمة التي سقط فيها دريودن وما تبقى من إخوانه وأعوانه.

وبعد الانتصار اعتلى يودهيشتهير عرش الملك، وجعل مملكته تسير على مجموعة من القوانين المستقاة من تعاليم كريشنا الواردة في «بهاغافاد غيتا» والتي تعتبر مرحلة جديدة من مراحل الديانة الهندوسية حيث انحسرت كثيرًا من تعاليم كتب الفيدات والبراهمانية.

ولما كانت هذه الحرب قد أسفرت عن مصائب كثيرة في الأموال والنفوس؛ فقد أراد يودهيشتهير التكفير عما حدث بأضحية الحصان الشهيرة باسم «أشفاميده» فبعث حصانًا - أطلق عليه حصان السلام - إلى المناطق المجاورة، على أن يقدمه قربانًا للآلهة بعد عودته، وكان هذا الحصان تحت حراسة أرجون لكي يحميه من كل من أراد به سوء وكل من لا يعترف برسالته.

وفي هذه الجولة حارب أرجون كثيرًا من ملوك المناطق الراضية لرسالته، وضم ملكهم إلى ملك أخيه، بينما أعلن السلام لكل من تقبله وأقر برسالته، وضم ملكهم إلى ملك أخيه، وعند العودة تم تقديم الحصان كقربان للآلهة تكفيرًا عما حدث من أخطاء، وكان الملك الكفيف أبو المائة قد ترك هو وزوجته وبعض رفاقه البلاد، وذهبوا إلى

الغابة حزناً على فقدان أبنائهم المائة، وبعد فترة قصيرة من الزمن ماتوا في حريق أثارته نارهم المقدسة.

وبعد ستة وثلاثين عاماً من المعركة الكبرى، هلك الإخوة المنتصرون وحليفهم كريشنا (ذلك الذي يقولون فيه بأنه تجسيد للإلههم فِشنُو) بصورة غريبة؛ حيث تقاتلوا مع بعضهم البعض مستعملين قصبات تحولت سحرياً إلى دبائيس، وانهارت العاصمة، وتلاشت في المحيط.

وكان يودهيشتهير، وقد شعر بالشيخوخة، ترك الملك لابن أخيه أرجون ويدعى «پريكهشيت» أو «باركُهيْت» (الذي كان قد ولد ميتاً وأعاد كريشنا له الحياة كما يزعمون)، وتوجه مع أشقائه ودروپدي وکلب، نحو «هَمالَی» وسقط رفاقه الواحد بعد الآخر على الطريق، ولكن يودهيشتهير وحده مع كلبه (الذي هو في الحقيقة تقمص لروح والده ياندو كما زعموا) قاوما الموت حتى الرmq الأخير، وتنتهي القصة بوصف مختصر لنزول يودهيشتهير إلى الجحيم، ثم صعوده إلى السماء بجوار الآلهة^(١).

هذا أهم محتوى هذا الكتاب، وهناك كتاب آخر كضميمة تسمى «هري بنغش پَرَب»، وهو في ذكر تاريخ قبيلة يادفا، فيها أخبار كريشنا، وأسرته سلالة هري، وما جرى عليهم من الحوادث والوقائع^(٢).

هذه هي قصة مهابهارت باختصار، والقصة تتخللها الأفكار الفلسفية في الدين والسلوك على لسان «كريشنا» مما جعل هذا الكتاب له قيمة أخلاقية وسلوكية عند الهندوس.

(١) انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت : مقارنة الأديان ، الفيدية ، البراهمانية، الهندوسية ص (١٥١)، وقد نقل عن التحليل الأدبي الذي قام به الدكتور محمد إسماعيل الندوي في بحثه بعنوان : المهابهارتا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦ م.

(٢) انظر أيضاً ما ذكره البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص (٩٣-٩٤)، وانظر أيضاً ما ذكره الشيخ محمد عبد السلام خان: فلسفة مهابهارت، ص (٥٠-٥٢)، مجلة ثقافة الهند، المجلد ٤١، العدد ١، ١٩٩٠ م.

ثانيًا: المذاهب الرئيسة في مهابهارت

يظهر في مهابهارت عدد من المذاهب المنبئة في أرض الهند، منها:

(١) عبادة الإلهة «كالي» أو السوداء، إلهة القوة عندهم قد ورثها الآريون من السكان الأصليين، ولـ«كالي» أسماء عديدة حسب أعمالها المختلفة، ولها ألقاب كثيرة أخرى حسب المواطن والأجيال. فهذه العبادة من بقايا عبادة القوة، هي نفسها عبادة فرقة «شاكتيا» الموجودة حاليًا، وهي ظاهرة في مهابهارت.

(٢) إن مهابهارت تمثل المذهب البهاكتي أحسن تمثيل، وكأنه مركز دائرة المذاهب المتمثلة فيها، ورابطة بين أشتات التصورات المشمولة فيها، والمذهب يرى فشل الرياضات الشاقة المتعبة في سبيل النجاة الأخروية وينكر القرابين الدموية، ويبالغ في محبة الإله، ويشدد بأمر العشق والوله به.

(٣) كما تمتاز مهابهارت بإبراز الثلاث الهندي، أو تري مُورتِي (Tri Murti)، أي الصنم المثلث، فبرهمن الأبانيشادي أصبح برهما وأحل محل الخالق، وفُشِنُو الذي كان من صغار الآلهة في القديتات قد بدأ يبرز من العصر البرهمي وازداد بروزه في عصر مهابهارت، وأخذ مكانة هامة، وتفوض إليه أمر الحفاظ والإبقاء، ثم اتحد بـ«باسديو» إله فرقة البهاكتي، ثم ارتقى «باسديو» إلى نارايين، أكبر آلهة مهابهارت، ثم اتحد نارايين بـ«فُشِنُو» ثم نزل متجسدًا في صورة كريشنا، وعلقت به تصورات العشق والوله أو البهاكتي، فهذا هو الأقنوم الثاني عندهم، وأما الأقنوم الثالث: فهو شينفا أو رُدرَا القيدي، وهو الذي في زعمهم إله الإهلاك والإفناء - جاء ذكره أيضًا في مهابهارت - وقد برز في مهابهارت من الثلاث اثنان: شينفا وفُشِنُو بوضوح، أما براهما أو الأقنوم الأول من برهما فإنه وإن كان له وجود في بعض أماكن مهابهارت، إلا أنه ليس في مستوى فُشِنُو وشينفا^(١).

(١) انظر المصدر السابق ص (٥٣-٥٥).

نقد كتاب مهابهارت:

يوجه النقد إلى كتاب مهابهارت من وجوه عديدة، من أهمها:

من الناحية التاريخية:

إن كتاب مهابهارت لا قيمة له من الناحية التاريخية من وجوه عديدة:

أولاً: من ناحية تأليفه، فالكتاب ليس من تأليف شخص، ولا شخصين، بل أشخاص موغل في القدم، وهم مجهولون سيرة وسريرة، ولم يعلم عن حياتهم إلا نزرًا يسيرًا، وهذا القدر غير كافٍ لقبول كلامهم، وتبنيها للديانة.

ثانيًا: من ناحية زمن تأليفه، فكما سبق معنا: لا يستطيع أحد أن يحدد زمن تأليفه، حيث أُلّف من خلال قرون متتالية، حسب الاتجاهات الموجودة في العصور الغابرة واللاحقة، وهذا مما يحدد لنا قيمة الكتاب، فكيف يثق الإنسان بكتاب لا يعرف متى دون ولا يُعلم خلفيات هذا التدوين؟، وإذا انضاف إلى ذلك اختلاف النسخ في محتويات مهابهارت من منطقة إلى أخرى تزيد قبول هذا الكتاب من الصعوبة بمكان^(١).

ثالثًا: من ناحية شخصياته:

إن الشخصيات التي تناولها مهابهارت شخصيات وهمية، لا وجود لها في أرض الواقع، حتى إن بياس بن پراشر الذي ينسبون إليه تأليف هذا الكتاب هو شخص مجهول تاريخيًا، بل شخصيته أصبحت من كثرة الروايات المتضاربة والمتصارعة في حياته وتقلباته، شخصية أسطورية غير واقعية^(٢)، حتى قيل: إن بياس ديف ليس اسم شخص، وإنما هو لقب أشخاص عدة في الأزمان الغابرة^(٣).

(١) انظر ما ذكره جايتانوج بندوباداي: مهاكابتو ومولوباد ص (٧٣).

(٢) حتى قالت إحدى الهندوسيات: إن ما نسب إلى هذا الشخص من الكتب يحتاج لكتابتها أن يعيش أكثر من ألفين وخمسمائة سنة، فهل عاش هذا العمر كله؟ انظر ما ذكرته شوكوناري بتراسارزا: رامين مهابهارت... دراسة مقارنة في شعبيتهما... ص (٨١).

(٣) انظر ما ذكره جايتانوج بندوباداي: مهاكابتو ومولوباد، ص (٦٩).

إن أعظم الشخصيات على الإطلاق في مهابهارت شخصية كريشنا، وهي شخصية، مع ولوع الهندوس به، ليس له وجود في أرض الواقع، وقد وجهت الانتقادات إليه من نواح عدة:

❖ إنه شخصية غامضة؛ وذلك لوجوه:

١- عدم وجود ذكر له في كتبهم القديمة:

وذلك؛ أننا لا نجد ذكرًا لكريشنا في كتب القديسات ولا في الأوبانيشادات على النحو الذي جاء في هذا الكتاب، وهذا يعني أنه شخصية أسطورية.

٢- جاء في بعض النصوص ما يدل على أنه شخصية عادية من الدراويد:

وذلك؛ أنه جاء في بعض القديسات أناشيد لعارف يسمّى كريشنا، وذكرت مرة كريشنا رئيسًا لقبيلة من قبائل الأصليين، وهذا يعني أن الآريين أخذوا هذا الاسم من هذه الشخصية الأسطورية حتى تجمع بين الآريين والدراويدين الأصليين.

٣- ورود اسم كريشنا في بعض الأوبانيشادات على أنه تلميذ لبعض الكهنة، وليس كشخصية عظيمة مثل ما يصوره مهابهارت:

وذلك؛ أنه يذكر شاندويغا أوبانيشاد كريشنا تلميذ الغورا (GAURA)، العارف، وهذا يعني أنه ليس ذاك كريشنا الذي يهول من شأنه مهابهارت^(١).

٤- زعم بعض الباحثين أنه كان إلهًا صبيًا لبعض القبائل البدوية الجافية من السكان الأصليين.

٥- نسبه بعضهم إلى الكهشترية من الآريين، بينما ينسبه البعض إلى الدراويد السود، من الطبقة السافلة.

٦- حقق بعض الباحثين أن عائلة بهرت التي اصطبغت بصبغة كريشنا لم تكن من الآريين، وملحمتها ملحمة غير آرية، وصاروا آريين وأصبحت الصبغة الكريشنية صبغة آرية.

(١) انظر ماسيأتي في ص (٤٤٤).

٧- وتنقب بعض المستشرقين عن عصر حياته وتشخيص أمره وقالوا: إنه كان قبل بوذا بنحو مائتي سنة، وكان أبوه باسديو قد أسس مذهباً أخلاقياً قد بشر به، وتبعه الناس، وعبدوا باسديو في صورة الإله، وقد دعا إليه كريشنا، ومضت القرون والناس يعبدون باسديو ويعظمون كريشنا، ويوقرونه، حتى رقي كريشنا نفسه إلى الألوهية، وصار هو نفسه باسديو الإله، فلما غلبت الفرقة الفِشْثُوية عُدَّ من تنزلات فِشْثُو وتجسداته، فهو فِشْثُو وباسديو، ونارين، وهري، ومهابهارت تصوره بكل تلك الصور، ولذا ترى صورة كريشنا فيها مثلاً للاضطراب والاختلاط وأخلاقه فيها أنموذجاً للتباين والاختلاف!!!

٨- يرى الدكتور «فاندركار» أن كريشنا في الحقيقة أحد أولاد قبيلة أبهير، الذين جاؤوا إلى منطقة الهند كراعاة الأبقار، وكان هناك ولدٌ مشهور بأعماله الخارقة، ومن هنا أخذ الآريون هذا الاسم وجعلوه منهم بل أحد أَفْتَارِ إلههم^(١).

٩- ويرى البعض أنه لما كان صاحب الكتاب بياس بن پراشر، اسمه الحقيقي: كريشنا، لعله اخترع هذا الاسم من اسمه ليكون أدلَّ على مقصوده، وأحب إلى النفوس^(٢).

❖ يفهم من بعض القضايا في مهابهارت أن كريشنا كان إنساناً وليس إلهًا.

فقد جاء فيه أنه كان مولوداً، وأنه كان يحزن، وأنه كان يقاتل ويهزم ويفر إلى الجبال، وأنه انهارت قوته قبل موته، وأنه قتله أحد الصيادين، فهذه كلها أدلة واضحة على أنه ليس إلهًا، وإنما هو إنسانٌ بولغ فيه على فرض وجوده، كما هي عادة أهل الهند، في مبالغاتهم تجاه كثير من أبطالهم^(٣)، وأكبر دليل على ذلك أنه لم يأت في مهابهارت على لسان «دريودن» ولو مرة واحدة الاعتراف بـ«كريشنا» بأنه أَفْتَارُ الإله، بل كان يخاطبه

(١) نقلًا عما ذكره: جايتانوج بندوباداي: مهاكاتب ومولوباد ص (٨٠-٨١).

(٢) انظر: المصدر السابق (٨٤-٨٥).

(٣) المصدر السابق.

دائمًا بأنه كهستريا وأنه غير متدين، ونحو هذه الألقاب، مع أن دريودن كان من أقرباء كريشنا^(١).

❖ إنه شخصية غير محمود السيرة، وذلك لوجوه:

(١) إنه كان منحازًا إلى جانب أولاد پاندو، مع أن أولاد دهيرتاراشترا كان حقهم في الملك أكثر من أولاد پاندو، لأنهم أولاد كبير الأخوين، والنظم السائدة في الهند في زمن مهابهارت أن الكبير هو الذي يتولى الملك.

(٢) إنه كان كذابًا، يعلم الناس الكذب، حيث طلب من يودهيشتهير أن يكذب، وذلك أن «درون» كان يتحمل كل شيء إلا موت ابنه «أشفاتهما»، وكان يودهيشتهير لا يكذب، فطلب كريشنا من يودهيشتهير أن يكذب ويقول: «أشفاتهما» مات، فلما سمع «درون» هذا القول ذهبت قوته، وترك السلاح، فقتله أرجون.

(٣) إنه كان محتالًا، يحتال لكي يفوز أولاد پاندو، وهذا واضح في وقائع كثيرة، منها:

أنه عندما جاء أولاد دهيرتاراشترا يطلبون منه المدد، أظهر لهم كأنه نائم، وهو ينتظر في هذا الأثناء مجيء أولاد پاندو، فلما جاء بعض أولاد پاندو فتح عينه وقال: إنه رأى أولاد پاندو ويتعين عليه أن يساعدهم. وهناك وقائع عديدة في مهابهارت غير ما ذكر ثبت أنه كان محتالًا.

(٤) يقال: إنه مارس الجنسية الأسرية، حيث كان يمارس الجنسية مع العشرات، حتى مع بعض أخواته، ثم زوجها مع أرجون^(٢).

أما الشخصيات الأخرى فهي أشد غموضًا، وأكثر مجهولًا من هذين الشخصيتين البارزتين.

(١) المصدر السابق.

(٢) هكذا جاء في بعض نسخ مهابهارت، نقلًا عن المصدر السابق.

من ناحية محتوياته:

فقد حاول مهابهات الجمع بين الآراء المتضاربة في العقيدة والشريعة والأخلاق، إلا أن محاولات توفيقه للآراء المتضاربة والمتصارعة والمتخالفة والمضاربة الهندوسية كلها جاءت سطحية، ضحلة، وفيما يلي بعض الانتقادات التي وجهت إلى ما يشتمل عليه مهابهات:

أما بالنسبة للعقيدة:

قدم عقيدة الأفْتَار بشتى الوسائل وأنواع من الأساليب، وهي عقيدة غير مسبوقة مثلها في الكتب الهندوسية القديمة من الفيدات والأوبانيشادات المقدسة لديهم، وهي عقيدة باطلة، كما سيأتي ذكرها في الباب الثاني بإذن الله، ومن العلماء من حقق المسألة وقال: إن مسألة الأفْتَار مقحمة في مهابهات في القرون المتأخرة، ويحددون تاريخ إقحامه في عصر من ملوك شونغ إلى عصر ملوك چندر غوبت^(١).

وقدم لنا مهابهات عقيدة التناسخ وكارما، وحاول بشتى الطرق والأوجه أن يرسخ هذه العقيدة في قرائه، وبحث لكل واقعة خلفية تناسخية، كأن الكتاب مخصص لهذه العقيدة وتثبيتها في النفوس، وهي عقيدة باطلة، كما سيأتي بيانها بإذن الله في الباب الثاني.

وأما المسائل العقدية الأخرى، فهي ليست بأحسن حالاً مما ذكر، فمما جاء فيه:

(١) أن بعض الآلهة تنظر إلى أفخاذ بعض النساء فيسقطان من أجل هذا من الجنة.

(٢) أن إندراً - رئيس الجنة عندهم - كان يخاف من عبادة بعض العباد، فينزل إلى الدنيا ويكيد لهم.

(٣) إن بعض آلهتهم ينزل للزنا مع بعض زوجات الرهبان، فيضطر الراهب إلى الدعاء عليه، فيصبح الإله ملعوناً.

(١) انظر ما ذكره: جايتانوج بندوباداي: دهرمير بهيشث: ص (٥٠).

أما من الناحية الاجتماعية:

❖ تمجيد الطبقة:

فقد مجّد الكتاب عقيدة الطبقة الجائرة الظالمة الغاشمة، وطلب من أفرادها التزام كل واحدٍ منها بطبقته والعمل بموجبها، ونلاحظ الظلم فيه على بعض الطبقات واضحًا، فمن ذلك مثلاً:

- (١) أن أحد الشودرا أراد أن يتعلم من «درون» كبير المدربين لأفراد الأسرتين على الأسلحة، لكنه منعه منه بحجة كونه من الطبقة التي لا حق لها في تعلم استخدام الأسلحة، ولكنه ذهب بنفسه إلى الغابة، وصور أستاذه وأخذ يتدرب حتى أصبح من أمهر الرماة، وما أن سمع «درون» بذلك إلا ذهب إليه وطلب منه أن يعطيه هدية؛ لأنه تعلم استنادًا على صورته، وطلب منه إبهاميه، فقطع إبهاميه، وخمد غضبه؛ لأن الشودري لا يحق له أن يتعلم ولا يتدرب.
- (٢) كما صوّر الشودرا في مهابهارت بأبشع الصور وأنكرها، فقد وصفهم بأنهم شرسون، متكبرون، كذابون، نهمون، يكفرون النعم، كسالى، نجسون^(١).
- (٣) كما جعل الشودرا لخدمة الآخرين من الطبقات العليا، ولا يحق له أن يجمع المال^(٢).

هذه بعض أنواع الظلم على الطبقة الشودرا الذي جاء ذكره في كتاب مهابهارت.

❖ إباحة الزواج الجماعي بامرأة واحدة:

من المسائل العجيبة التي حوت مهابهارت، قضية الزواج بزوجة واحدة من قبل الإخوة الخمسة من أولاد پاندو، وهذه لا يقرها أي عقل سليم ولم يأت مثله أبدًا في أي ديانة من الأديان، وهي مخالفة للفطرة السليمة المستقيمة؛ إذ كيف يمكن أن تعيش المرأة زوجة لخمس أشخاص، فكل ما جاء به الكتاب من التبريرات بالقصص

(١) انظر مهابهارت: أشفاميد پرب: (١١٨/١٧-٢٠).

(٢) مهابهارت، شانتي پرب (١٢/٦٠).

والحكايات كلها أباطيل وأضاحيك، وما هي إلا دعارة، وقد نلاحظ أن الكتاب نفسه في نهاية الباب يذكر أن «درويدي» عندما كانت تذهب إلى الجنة !! سقطت في الطريق، والسبب في ذلك أنها كانت تحب أرجون أكثر من الإخوة الآخرين. فهذا يدل على أن المرأة لا تصلح إلا أن تكون زوجة لزوج واحد، وهذه القصة تدل بصراحة مدى الانحطاط الخلقي الذي أصاب الناس في زمن مهابهارت، حتى لا يستحي البراهمة من حكاية هذه القصة، بل يجعلها مفخرة لأبناء ياندو.

❖ ومن الأمور الملاحظة على مهابهارت: كثرة الأكاذيب:

فإننا نلاحظ استعمال الكذب على أكبر الشخصيات البارزة، فقد كذبت كونتي عندما قال: إن أحد أولاده يعرفه أوراذاً يقتل بها الراكشاس، وكذب أرجون مرّات عديدة، حيث كذب عندما حضر في حفلة زواج دوريدي، وقال: إنه برهمي، وكذب عندما قال: إنه يذهب إلى المنفى في الغابة لمدة اثنتي عشرة سنة، عندما دخل على يودهيشتهير بدون إذن، وهو مع درويدي، فلم يذهب إلا إلى بعض الدويلات المجاورة، وكذب يودهيشتهير معروف لدى الجميع.

❖ من الأمور الغريبة في مهابهارت: ذكر الأفعال الفاحشة:

فقد حوى الكتاب قصصاً وأساطير ينبئ الأذان من مجرد سماعها، فضلاً عن قبولها.

❖ من الأمور المأخوذة على هذا الكتاب كثرة الأساطير والخرافات:

فقد تضمن مهابهارت على أنواع من الخرافات والأساطير التي يعرف العقل بديهة أنها من الأكاذيب، ومعلوم أن الأكاذيب والسمر ليس من المقدسات في شيء.

المطلب الثامن

غيتا (بهاغافاد غيتا)

معنى غيتا :

كلمة غيتا سنسكريتية، معناها : الأنشودة، أو الأغنية.

ومعنى بهاغافاد غيتا: الأنشودة الإلهية، أو الأنشودة المباركة، أو أغنية للواحد المقدس، أو أنشودة الإله^(١)، أو أنشودة المحبوب المقدس.

أصل غيتا:

«غيتا» جزء من كتاب «مهابهارت»، فإن في «مهابهارت» باباً يسمى بـ«بهيشما پرب» فيه مائة وثلاث وعشرون فصلاً، وكتاب «غيتا» عبارة عن ثمانية عشر فصلاً من تلك الفصول^(٢)، وفيه سبعمائة بيت، والذي يسمى في اصطلاحهم بـ«سلوك»^(٣).

فإن بياس بن پراشر - صاحب مهابهارت كما يدعون - أخبر الملك دريتراشتر الأعمى أنه سيجعله مبصراً حتى يستطيع أن يرى إلى الحرب من بعيد، ولكنه أبى ذلك حتى لا يرى قتل أبنائه وأقاربه، وبدلاً من هذا طلب من بياس أن يعطي لأحد بطانته الخالص المسمى «سانجاي» النور الباطني كي ينظر إلى كل تفاصيل الحرب وكل ما يدور فيها من الكلام، فأعطي لـ«سانجاي» ذلك، فكان يقص على الملك كل ما يدور

(١) هذه الترجمة اختارها توملين، انظر: فلاسفة الشرق ص(١٩٢).

(٢) انظر: سماج بيغانير دريشيتي بهاغافاد غيتا (بهاغافاد غيتا من منظور علم الاجتماع) ص(١٠).

(٣) أي: قطعة من الأبيات، انظر ما ذكره سري جغدیش جندر غهوش: سري غيتا ص(٥).

في المعركة من الحروب الطاحنة ومن الحوارات بين الأبطال، فهو الذي ينقل هنا كلام أرجون وكريشنا، والحوار الذي دار بينهما، وكل ما حصل في هذه المعركة. فإن غيتا كله على حسب هذا منقول بلسان «سانجاي»^(١).

مؤلفه، وزمن تأليفه :

أما مؤلفه: فيدعي أغلب الهندوس بأن الكتاب من تأليف : بياس بن پراشر (كريشنا دويباين)، ذاك الذي يدعون كونه من الأفتار الجزئية، وهو الذي ينسبون إليه «مهابهارت».

ويذهب فريق آخرون من الهندوس: أن الكتاب ليس من تأليفه وحده بل شارك في تأليفه كثير من الحكماء القدماء والريشيين؛ لأنه لا يتصور أن يجلس كريشنا هذا الوقت الطويل أثناء الحرب ويتكلم بهذا الكلام كله في مكان واحد^(٢).

أما بالنسبة لزمن تأليفه: فليس هناك تحديد دقيق لزمان تأليفه، وقد قيل فيه عدة أقوال:

والاختلاف يرجعه بعضهم إلى الاختلاف في تحديد زمان مهابهارت، فمنهم من يرى أنه ألف قبل القرن الخامس قبل الميلاد، زمن تأليف مهابهارت، بناءً على كونه جزءاً من مهابهارت^(٣)، وهناك أقوال أخرى في تحديد زمن تأليف مهابهارت مرّ معنا في المطلب السابق.

ويرى بعضهم: أن كتاب غيتا مقحم في مهابهارت، وعلى هذا يختلف زمن تأليفه عن زمن تأليف مهابهارت، فقد قيل: إنه كان موجوداً قبل مهابهارت^(٤)، ثم أدرج فيه،

(١) انظر ما ذكره سري جغدیش جندر غهوش : سري غيتا ص(١)، وانظر مهابهارت قسم بهيشما، (٢٤/١).

(٢) انظر ما ذكره أتول جندر شين: سريمدهاغا فاد غيتا ص(١٤).

(٣) انظر ما ذكره بال غنغا دهر تلک، غيتا روهوشو ص(٥٠٧).

(٤) انظر ما ذكره بال غنغا دهر تلک، غيتا روهوشو ص(٥٠٨).

حيث يقولون: إن هذا الكتاب أحد الأوبانيشادات لفرقة بهاكتي، وهم كانوا موجودين قبل مهابهارت بمدة مديدة، وكانوا يعتقدون أن العمل هو وحده يحقق النجاة، وكانت الأوبانيشادات ترى أن العلم هو الذي يحقق النجاة، وقد كان هذا المذهب غير منتشر في زمن أغلب الأوبانيشادات، ولهذا لما رأى الناس أن الأوبانيشادات لم تحقق شيئاً من النجاح في حياة الإنسان الدينية رجعوا إلى هذا الدين، ورأوا أن الأعمال هي التي تضمن للناس بقاءهم في ديانتهم جاءوا بهذا الكتاب على لسان كريشنا وجعلوه في داخل مهابهارت^(١).

ومنهم من قال: إنه أُلّف بعد مهابهارت، واختلفوا في تحديد ذلك؛ فمن قائل: إنه أُلّف في القرن الثالث قبل الميلاد^(٢)، إلا أن بعض الغربيين يرى أن زمن تأليفه يرجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد، واستمر ذلك إلى القرن الثاني الميلادي^(٣). إلا أن جل الهندوس يخطئون هذا الرأي^(٤)، ويقدر سرفالي رادها كريشنان ورام كريشنا غوبال بهاندركار زمان صياغة هذا الكتاب القرن الرابع أو الخامس قبل الميلاد^(٥).

التعريف بـ«كريشنا» الذي ينسب إليه بهاغافاد غيتا:

وفيما يلي قصة كريشنا التي ترويها الكتب الهندوسية؛ لما لهذه القصة أثر في نفوس الهندوس، ولما لها من تبعات في عقيدتهم.

كلمة كريشنا وسبب تسميته بذلك:

كلمة كريشنا تعني: السواد، وقد اختلف في سبب تسميته بذلك على أقوال:

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر ما ذكره بال غنغادهر تِلْك، غيتا رُوهُشُو ص (٥٠٨).

(٣) انظر ما ذكره بال غنغادهر تِلْك، غيتا رُوهُشُو ص (٥٠٨). فقد نقل رأي Dr. Garbe من علماء الغرب.

(٤) انظر ما ذكره بال غنغادهر تِلْك، غيتا رُوهُشُو ص (٥٠٨-٥٠٩).

(٥) انظر ما ذكره أتول جندر شين، سريمدا بهاغافاد غيتا، مقدمة (١٤).

(١) إنه كان أسود اللون.

(٢) إنهم سمّوه بـ«كريشنا» لأنهم وجدوا في الفيدات ملكاً بهذا الاسم.

(٣) وقيل: إن تسميته بـ«كريشنا» من قبل صاحب مهابهارت، حيث أعاره من اسمه^(١).

(٤) إنهم أرادوا الدمج بين الآريين وأصول أهل الديار الدرافيديين فجعلوا هناك أخوان: أحدهما: «بلرام»^(٢)، وجعلوه أبيضاً، والثاني «كُريشنا» وجعلوه «أسوداً»، وكتّاب مهابهارت والفرقة الششُنوية وهم أصحاب فرقة «بهاكتيا» أي: القائلين بالتعبد بالحب وحده، أرادوا دمج هاتين الفرقتين في صفهم، فاخترعوه أسوداً بينما جعلوا أخاه أبيضاً.

أما قصة كريشنا:

فيذكرون عنه: أنه قبل آلاف السنين كان ملك ظالم «كَنَس» (KANSA) يحكم منطقة تسمى بـ«متهورا»^(٣)^(٤) وكانت له أخت اسمها «ديثاكي» فتزوجها رجل يقال له «بُسدِيف»^(٥) وقد أخبر المنجمون «كَنَس» بأن ابن أخته الثامن يقتله ويحتل ملكه، فسجن «كَنَس» أخته وزوجها.

وقد ولد في السجن ستة من أولادها فقتلهم «كَنَس» ونجا السابع بحيلة، فلما ولد الثامن وهو «كريشنا» فكر أبوه في حيلة حرصاً على حياته؛ لأنه هو الذي سينجيه حسب ما أخبره المنجمون، فخرج من السجن ليلاً، ومن معجزة «كريشنا» بقى الباب مفتوحاً

(١) انظر ما ذكره جايتنانوج بندوباداي: مهاكاتبو ومولوباد ص(٨٣).

(٢) يسميه البيروني: بلبهر، وما ذكرته هو الأشهر.

(٣) وهي إحدى المدن المقدسة لدى الهندوس.

(٤) يسميه البيروني: ماهورا، وهي حتى الآن معروف بـ«متهورا».

(٥) يقول البيروني: وهم من جنس «جَت» أصحاب المواشي وطيبه «شودر». انظر تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص(٣٠٥).

ونام الحراس، فذهب به أبوه إلى ما وراء نهر «يامونا» (جمنا / JAMUNA) في مدينة «كوكُل» وكان له هناك صديق اسمه «نندا» وقد ولدت له في تلك الليلة بنت فغير ابنه بنته، وجاء بها إلى السجن.

وفي الصباح الباكر أخبر «كَنَس» بولادة بنت فغضب على المنجمين ولا مهم، لأنهم أخبروه بولادة ولد يقتله، وأخذ البنت المولودة ورمى بها على الأرض، فخرج منها صوت يقول: «إن قاتلك حي لا يموت»، وبقي «كريشنا» عند «نندا» يلعب بالفتيات ويرعى البقرة ويشرب من ألبانها^(١).

واطلع كَنَس على أمره، فكاده بكل كيدٍ ومكرٍ ورجعت كلها عليه حتى طلبه من أبويه للصراع بين يديه، فأناف في فعله على الجميع بعد أن فعل في الطريق ما أغاظ به الخالة من قهر حية^(٢) كانت موكلة بحفظ «نيلوفر» حوضه وزمّهما في منخريهما، ومن قتل قصّاره لما امتنع من إعارته ثياباً للمصارعة، ومن سلب الصندل صاحبه الموكلة بتضميخ المصارعين به، ثم قتل الفيل المغتلم المهياً لقتله على بابه، وبلغ من عمل الغيظ في «كَنَس» أن انشقت مرارته وهلك لوقته.

وله في كل شهر اسم، وهاهي أسماؤه مرتباً على الأشهر بدءاً من شهر مركشر (أغراهين) كما يذكره البيروني^(٣)، وأغلب هذه الأسماء موجودة في خطابات أرجون لكريشنا في بهاغافاد غيتا:

١- كِشْنُو ٢- نارايْن ٣- مادْهَف ٤- گوبند ٥- فِشْنُو ٦- مدْهُوَسُوْدَن
٧- تِرِبِكرَم ٨- بَامَن ٩- شِرِيْ دْهَر ١٠- رَشِيْكِش ١١- بَدْْمَنَاب ١٢- داموْدَر.
هذا هو «كريشنا» الذي يزعمون فيه بأنه أفتار «فِشْنُو» الكامل الذي قُتِلَ فيما بعد «كَنَس» الظالم ونَجَّى أهل الأرض من ظلمه - كما يعتقدون -.

(١) انظر ما ذكره الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٦١٦).

(٢) اعتبر بعض علماء الهندوس قصة قتله للحية على أنه نهى عن عبادة الأفاعي، كأنه إيدان بعبادة أفتار.

(٣) انظر تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص (٣٠٧).

أهمية الكتاب لدى الهندوس :

يعد غيتا من أهم الكتب الهندوسية، يجله الهندوس إجلالاً كبيراً، حتى يعدونه من أكثر الكتابات قدسية^(١). له أثر عميق في التفكير الهندي، وهو يشتمل على تعليمات ونصائح ألقاها «كريشنا» أمام قائد الجيش «أرجون»، والهندوس يعتقدون في كريشنا أنه أحد تجسّدات (أفْتَار) إلههم فِشْنُو.

ونظراً لأهميته فهو يطبع مستقلاً في كثير من الأحيان، وهو يعتبر بالنسبة للهندوس كالعهد الجديد عند النصارى، والفيديات وشروحها كالعهد القديم، وهم يسمحون بقراءته لكل الناس، ويعتبرونه خلاصة لمذاهبهم وفلسفاتهم جميعاً.

يقول أحدهم في بيان أهميته: «قد أصبح ريگنيد عسير الفهم لقدمه، وغرابة لغته، فألفت كتب كثيرة لشرحه وتفسيره، صعب فهمها كذلك على الناس لبعدها، وثقل عليهم تداولها لضخامتها. وقد جاء بعد هذه الكتب العتيقة كتاب «غيتا» لشرّي كريشنا، فأقبل عليه الناس لسهولة لغة وأسلوبها، ولما حواه من حسن المعنى وجمال المغزى، يحفظونه، ويدرسونه، ويروونه خير مرشد لحياتهم الأخلاقية والاجتماعية والدينية.

وقد أعجب به القوم إعجاباً حتى قالوا: إن لب سائر الكتب المقدسة السابقة يوجد فيه، «فإن كانت تلك الكتب بقرة، ف«غيتا» حليب هذه البقرة!»^(٢).

ويمثل هذا الكتاب آخر تطور العقيدة الهندوسية، ويمثل رؤية للحياة والألوهية مختلفة إلى حد كبير عن الأوبانيشادات والبرهمانات؛ حيث أن أسمى فضيلة يطالب بها الكتابان الأخيران هي: أن تكون قديساً، بينما أسمى فضيلة يطالب بها بهاغافاد غيتا هي الحب والولاء (بهاكتي Bhakti) حيث يكون الارتباط بشخص ما بعيداً عن أية غاية أو مصلحة^(٣).

(١) J.C Betts, (Bhagabad Gita) in: Academic American Encyclopedia, vol. 3, p233-4.

(٢) انظر مجلة ثقافة الهند، يونيو ١٩٥٢، ص ٥١، وانظر مقدمة غيتا باللغة البنغالية، وهي موجودة في بالسنسكريتية أيضاً في مقدمة غيتا. مع شرح «سري جغدیش جندر غوش (ص ١).

(٣) انظر ما ذكره توملين: فلاسفة الشرق، ص (١٩١-١٩٢، ١٩٣).

وإذا كانت الأوبانيشادات صورت برهمان وجودًا مطلقًا ليس له شيء من الصفات؛ فإن كريشنا يعلن في كتابه هذا: إن من الصعب الولاء لتجريد؛ فطريق الباطن يصعب على البشر أن يبلغوه، والناس لا يمكن أن يحبوا تجريدًا أو كائنًا لا شخصي^(١). ولذا فإن بهاغافاد غيتا تطرح الرغبة الإنساني في رؤية التجسيد الإنساني للإله^(٢).

ولاشك أن هذا الرأي يقرب بين الهندوسية والنصرانية الحالية، وبين كريشنا والمسيح كما يؤمنون به الآن^(٣)، والهندوسية والأديان الأخرى^(٤).

يقول أحد علماء الهندوس: «إن الكتاب مهم من الوجهة التاريخية والثقافية أيضًا. فهو يقدم لنا صورة الهيئة الاجتماعية الهندية في ذلك العصر، فنعلم منه ما كان عليه الشعب من المعتقدات الدينية والعوائد الاجتماعية والأفكار الفلسفية، ووجهة نظره العامة في الحياة وما بعد الممات»^(٥).

محتويات الكتاب :

بهاغافاد غيتا عبارة عن حوار دار بين أرجون وكريشنا، عندما تردد الأول في الدخول إلى ساحة القتال في المعركة الفاصلة بين أولاد كورو وأولاد باندو، والتي جرى ذكرها في مهابهارت، وكان سبب ترده هو وجود أقاربه وأصدقائه في صف الأعداء، أن يقتلهم فيحمل خطيئة قتلهم.

(١) بهاغافاد غيتا، الفصل الثاني عشر، رقم الفقرة (٥).

(٢) انظر على سبيل المثال : بهاغافاد غيتا، الفصل الثاني عشر، الفقرات ذوات الأرقام (٢-٤، ١٠٩-٦).

(٣) انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت : مقارنة الأديان ، الفيدية ، البراهمانية، الهندوسية ص (١٦٠)، وانظر أيضًا ما ذكره توملين : فلاسفة الشرق ص (١٩٤).

(٤) كالزردشتية، والبوذية مثلاً، كما أن نفس الإصرار على النزعة الروحية والتطهير الداخلي كان له وجود في ديانة مصر القديمة. انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان، الفيدية ، البراهمانية، الهندوسية ص (١٦١).

(٥) مجلة ثقافة الهند، يونيو ١٩٥٢، ص (٥١).

لكن كريشنا يرد عليه بأن الحكيم الحق يجب ألا يحزن لا على الأحياء ولا على الأموات؛ لأن الروح تنتقل من جسدٍ إلى آخر، وهي لا تفنى بالقتل، وكل من هو موجود الآن وجد من قبل، وسيبقى موجودًا دائمًا؛ فلا فناء للروح؛ لأنها أزلية أبدية؛ ومن ثم فإن الروح لا تموت.

ثم إن المحارب المدافع عن الحق إن قُتل استحق الخلود، وإن انتصر فالنتيجة هي مملكة يستحقها فعلاً.

ثم يحاول كريشنا إقناعه من زاوية أخرى بالقتال، هي زاوية الواجب والانتماء الطبقي باعتباره أحد المحاربين الكهشتريا الذين يجب عليهم الدفاع عن طبقتهم والقيام بمستلزمات الانتماء والولاء لها. فضلاً عن العار الذي سيلحق به إن لم يدخل المعركة؛ حيث سيسقط من الأنظار باعتباره جباناً متخاذلاً.

ثم يشرح كريشنا لـ «أرجون» أسلوب الفهم الأفضل المستند إلى نبذ التمسك بحرفية نصوص الفيدات، وتجنب الاقتداء بأولئك الذين يتبعون أهواءهم وشهواتهم ويؤدون طقوس الفيدات بهدف الوصول للجنة.

ويشجعه على الوصول إلى حالة من اللامبالاة تجاه النصر أو الهزيمة، والارتياح أو المشقة والحب أو الكره، والخوف أو الأمل، والسراء أو الضراء. والإنسان الحكيم هو الذي يؤدي واجبه، وهو الذي يعرف الحقيقة، وإذا عرف الحقيقة فإنه لن يحتاج إلى الفيدات؛ لأنها بالنسبة للحقيقة كمثل البئر بالنسبة للأنهار، وهذا الإنسان هو الذي يتحكم في نفسه الأمانة؛ فلا يدعها تقوده حيث تريد من شهوات، ويعلو على الغضب والانفعال، وإن عمل عملاً صالحاً فهو لا يعمل إلا ابتغاء وجه الإله، لأنه لا يرى إلا الإله، ويعلم أن الإله معه وفيه، وهو لا يعبد إلا بطقوس خارجية فقط، لأن العبادة الحقة هي عبادة القلب، وكل هذا لا يتأتى إلا بالإرادة والرغبة اللذين يغنيان عن الفيدات التي لا تجعل المرء يركز في شيء واحد، والمعرفة الحقة هي التي يصل إليها الإنسان عندما لا يرى إلا وجه الإله في كل شيء، ومن ثم يشاهد الوحدة في الكثرة، والكثرة في الوحدة.

ثم ينتقل كريشنا لشرح مبدأ هندوسي بالغ الأهمية عندهم، وهو كارما يوغا Karma yoga؛ فإن كارما هي قانون الجزاء الذي يلزم على أفعالنا؛ لأن ما يفعله الإنسان سوف ينال جزاءه، وفيه أن حياة الإنسان في هذا العالم ليس إلا مجرد نتيجة لما فعله في حياة سابقة، وأفعاله في هذه الحياة هي سبب تشكل حياته المستقبلية في المرحلة القادمة.

أما «يوغا» فهي الطريقة التي يتحقق الاتحاد مع برهمن الذي هو غاية الحياة، ويعظم كريشنا بصورة متكررة للجهد والعزيمة في يوغا فيقول: «حتى المحاولة الفاشلة لا تضع سدى، كما أنها لا يمكن أن تؤدي نتيجة عكسية، بل إن أية ممارسة قليلة لهذه اليوغا ستنتقلك من الدورة المخيفة للولادة الثانية والموت»^(١).

كما ذكر كريشنا مقاصد العبادة لدى الناس، وقسمها أربعة أقسام: (١) الذين يعبدون الإله عند المصيبة للتخلص منها (٢) الذين يعبدونه للسؤال (٣) الذين يعبدونه للثروة، (٤) محبو المعرفة. وجعل الأفضل من بينهم محب المعرفة^(٢).

وينصح كريشنا أرجون بعدم المبالاة تجاه ثمار العمل؛ فيقول: «من حقا أن تعمل ولكن من أجل العمل وحده... ليست ثمار العمل من حقا... أدّ كل عمل بقلبك متطلعا إلى الإله. امتنع عن أي ارتباط بالثمار. كن هادئا سواء في نجاحك أو في فشلك؛ لأن هذا الهدوء هو المعنى باليوغا»^(٣).

ويكشف كريشنا عن السبب الذي من أجله يضطر الإله للتجسد في صورة بشرية «عندما يبدو فقط أن الشر قد صار له اليد الطولى، أجعل نفسي جسدا»^(٤). وهو يجعل

(١) بهاغافاد غيتا، الفصل التاسع، الفقرات رقم (٣٠-٣١).

(٢) غيتا (١٦-١٧).

(٣) بهاغافاد غيتا، الفصل الثالث، الفقرات رقم (١٨-١٩). وانظر أيضا: الفصل الثاني، رقم الفقرة (٥١)، والفصل الرابع، الفقرات (١٧-٢١). الفصل السادس، رقم الفقرة (١)، والفصل الحادي عشر، الفقرة رقم (٥٥). والفصل الثاني عشر، رقم الفقرة (١٢). والفصل السابع عشر، رقم الفقرة (١١)، والفصل الثامن عشر، رقم الفقرة (٢).

(٤) بهاغافاد غيتا، الفصل الرابع، رقم الفقرة (٨).

نفسه جسداً لكي ينقذ البشرية من الشر؛ يقول: «إن مَنْ يعرف طبيعة عملي ومولدي المقدس لا يولد ولادة ثانية؛ وعندما يترك هذا الجسد يأتي إلي، وهو في هرب من الخوف، ومن اللذة ومن الغضب يختبئ فيّ، ملجؤه وأمنه، يحترق تطهراً في لهيب وجودي، وفي يجد الكثيرون الملاذ. وأياً كانت الرغبة التي يلتمسها الناس في عبادتهم لي، فإنني أحقق لهم تلك الرغبة، وأياً كان طريق الناس الذين يرحلون؛ فهو طريقي: بغضّ النظر عن وجهة سيرهم فهو ينتهي إليّ»^{(١)(٢)}. كما يقول: «ذاتي الخاصة تدعم الخلائق وتساعدنا دون أن تحيا فيها؛ هي تجعلها تعيش»^(٣).

ويجعل كريشنا جوهر تعليمه الحب؛ فيقول: «سأهديك على طريق خلاصك.. أعدك حقاً لأنني أحبك. اكفر بكل شريعة ونظام والتجأ إليّ وحدي كحصنك الوحيد، أنا سوف أعتقك من كل ضرر وشر، لا تفزع... فالإنسان بعد أن يضحي خالداً صافي النفس لن يعرف الألم والعذاب ولن يرغب في شيء، وسأمنحه اسمي حبي... وسوف يستطيع أن يتعرف إلي، بعبادة الحب، كما أنا في عظمتي وفي جوهرتي؛ وإذا عرفني هكذا فلن يلبث حتى يأتي إلي...»^(٤).

(١) بهاغافاد غيتا، الفصل الرابع، رقم الفقرة (٩-١١).

(٢) ولاشك أن المشابهة هنا واضحة مع المسيحية؛ فكريشنا هو تجسيد الإله فُشْنُو مثلما المسيح هو تجسيد الله، وسبب التجسيد في الحالتين: هو إنقاذ وخلص البشرية، زد على ذلك أن فُشْنُو محبة، «أنا في المخلوقات تلك المحبة التي ليست إلا الخير»، وكذلك فإن الله محبة في المسيحية.

فالحب الإلهي يمثل جوهر تعاليم كريشنا مثلما يمثل جوهر تعاليم المسيح في الأناجيل الحالية: فاللغة الوحيدة التي تجمع بين الإله والإنسان هي الحب - على حد تعبيرهم -

وهكذا نجد أن التشابه بين كريشنا والمسيح لا يقف فقط عند حد تجسد الإلهي في الإنسان، بل يمتد إلى الغرض من هذا التجسد، وهو إنقاذ البشرية وخلصها؛ فضلاً عن التأكيد على أن الله محبة، وأن الحب هو العلاقة المثلى التي يمكن أن تقام بين الإنسان والإله. انظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان: البيذية والبراهمانية والهندوسية ص (١٦٤).

(٣) بهاغافاد غيتا، الفصل التاسع، رقم الفقرة (٨٣).

(٤) بهاغافاد غيتا، الفصل الثامن عشر، رقم الفقرات (٦٥-٧٣).

وصرخ أرجون بعد أن سمع كلام كريشنا قائلاً: «الآن ولي الجهل والاضطراب الأدبار! جاءني النور بفضلك يا إلهي! الآن أصبحت ثابت الجأش، وتبددت شكوكي، وتبعثرت ظنوني في الهواء. على هدي كلماتك، يا إلهي، سوف أسير... أنا أنحني وأجثو أمامك وأتوسل نعمتك، يا سيدي المعبود خذ بيدي كأب بالنسبة لابنه، كصديق بالنسبة لصديقه، وكحبيب بالنسبة لحبيبتة»^(١).

ويكشف كريشنا في حوارهِ مع أرجون عن مسألة مهمة تتعلق بذوي الإرادة الضعيفة الذين يتبعون أساليب اليوغا الدقيقة للوصول إلى برهمان أو الروح الأعلى؛ فهل مثل هؤلاء يفقدون حياتهم الدنيا من أجل الحياة الروحية في المستقبل، بينما هم لا يستطيعون الدخول في تلك الحياة الروحية التي يريدونها؛ وبذلك يفقدون الحياة الدنيا والحياة الروحية؟ وهكذا يتساءل أرجون^(٢)، ولكن كريشنا يُطمئن أرجون وكل مَنْ لا يتبع أساليب يوغا الدقيقة وليس له إرادة قوية على تحمل مجهودها؛ بقوله: «ليس أحدٌ ممن يسعى إلى برهمان تحل به نهاية شريرة أبداً»^{(٣)(٤)}.

وفي إحدى النقاط المهمة في الحوار بين أرجون وكريشنا يتخذ كريشنا مظهر الإله الكامل القادر، العظيم، الجبار، ويرى في فمه سائر المخلوقات^(٥).

(١) بهاغافاد غيتا، الفصل الثامن عشر، رقم الفقرة (٧٣)، وانظر أيضاً: الفصل الحادي عشر، رقم الفقرات (٣٦-٤٤).

(٢) انظر بهاغافاد غيتا، الفصل السادس، رقم الفقرة (٣٧).

(٣) بهاغافاد غيتا، الفصل السادس، رقم الفقرة (٤٠).

(٤) يقول الدكتور محمد عثمان الخشت: يقدم كرشنا رؤية عالمية للعقيدة، يوجد تشابه بينها وبين ما حدث في الديانة اليهودية مع أشعياء الثاني فقط؛ حيث يؤكد أن الإنسانية في مختلف أرجاء العالم، تعبد آلهة متعددة، بأساليب دينية متباينة. وهذا لا يهم كثيراً لديهم؛ فمادام للإنسان عقيدة، حتى لو كان شريراً، انظر بهاغافاد غيتا، الفصل التاسع، رقم الفقرة (٢٣). وانظر ما ذكره الدكتور محمد عثمان الخشت: مقارنة الأديان: الفيدية والبراهمانية والهندوسية ص ١٦٦. وانظر أيضاً ما ذكره أ.ف. توملين: فلاسفة الشرق ص (١٩٨-١٩٩).

(٥) فهذا فيه دعوة الحلول، وهو الذي وجد عند المتصوفة عند قولهم بالحقيقة المحمدية.

وفي نهاية الكتاب نجد كريشنا يدعو أرجون إلى التعالي فوق فكرة الخوف من الموت، بل والتعالي على كل مخاوف الحياة، والتخلص من كل أمل في انتظار فوائد الأعمال، وأن لا يرتبط بأحد غيره، وهنا يعقد أرجون العزم على الدخول إلى ساحة المعركة، معركة مهابهارت.

فكلام كريشنا طويل، وهو يرمي إلى غرض واحد، وذلك أن الإنسان يجب أن يقوم بواجبه غير مبال بالعواقب وبما يقوله الناس، وقد شرح كريشنا لصديقه أرجون أن الروح لا يموت، وأن القتال في سبيل الحق واجب عليك، فلا تتردد فيه، لأنك مهما قاتلت، لا تقتل الروح الذي لا يزال حيًا حتى بعد خروجه من الأجساد! (١).

تعليمات غيتا:

أهم ما ورد في غيتا من التعليمات هي ما يلي:

١- ذكر وظائف الجيش وهو الدفاع عن الوطن، حتى ولو كان المحاربون من أقرب الأقربين، وهي تسمى بالحرب المقدسة.

٢- الدعوى للتفكير في ذات إلههم كريشنا.

٣- كما جاء فيه أن حصول النجاة تكون بإحدى الطرق الثلاثة، وهي: طريق العلم، وطريق العمل، وطريق العبادة بالحب والولاء والولع.

أما طريق العلم: فهو أن ترى جميع المخلوقين في الروح الأعلى، والروح الأعلى في جميع المخلوقين، فإذا وصلت إلى هذا العلم ترفع عنك التكاليف الدينية. وأما طريق التعبد، فهو أن تعبد الإله وتفنّي حياتك في عبادته، فالمقصود أن تعذب نفسك في هذا السبيل لا غير.

وأما طريق العمل فهو أن تمكث في الأرض وتؤدي الواجبات الدنيوية بدون تطلع إلى ثمراتها، حتى تتطهر نفسك من جميع العلائق وتسمو إلى الملاء الأعلى، وهنا تتحد بالجزء الأكبر.

(١) انظر: مجلة ثقافة الهند، يونيو ١٩٥٢، ص (٦٢).

إضافة إلى هذه التعليمات، فإن بهاغافاد غيتا يشتمل على التعليمات الآتية:

٤- التناسخ وكارما.

٥- من أعظم وظائف الكهشترى الخوض في الحرب.

٦- جاهد نفسك لإماتة شهواتك، ولا تكن فريسة لها.

٧- الإنسان عدو نفسه وصديقها.

٨- مسكن الإله قلوب العارفين.

هذا هو كتاب «غيتا» الذي نال شهرة عالمية بين الكتب الهندوسية لاحتوائه على العلوم المتنوعة ففيه فلسفة «كارما» يعني قانون الجزاء، وفيه واجبات الزهاد والنسك، وفيه العلوم السياسية، وفيه الأحكام السلطانية، وفيه طريق النجاة من جولان الروح.

نقد غيتا:

هذا الكتاب لا يصح أن يكون مقدسًا لوجوه كثيرة، سأذكر بعضها فيما يلي:

من الناحية التاريخية:

إن هذا الكتاب من أقل الكتب الهندوسية مصداقية من الناحية التاريخية، حيث وجه إليه النقد من وجوه عديدة، من أهمها:

(١) اختلافهم في مؤلف الكتاب:

وذلك أنهم اختلفوا في مؤلف الكتاب، فادعى فريق منهم أنه من تأليف فيد بياس، (بياس بن پراشر) بينما ادعى الآخرون بأنه تأليف مجموعة من علماء الهندوس^(١).

(٢) اختلافهم في زمن تأليف الكتاب:

وذلك؛ أنهم كما سبق معنا اختلفوا في زمن تأليف هذا الكتاب، حتى قال بعض المحققين الغربيين أن الكتاب ألف في أزمان متعددة.

(١) انظر لمزيد من البيان ما ذكره جايتانوج بندوباداي: دهر مير بهيشث: ص (٥٠).

(٣) اختلافهم في كريشنا صاحب الحوار، هل هي أسطورية أم حقيقية؟

وذلك؛ أنهم اختلفوا في كريشنا، هل هو شخصية أسطورية أم حقيقية، حيث ذهب كثير من علماء الهندوس إلى أن «كريشنا» بطل هذا الكتاب شخصية أسطورية، واستدلوا على ذلك بما يلي:

١- أنه لم يرد له ذكر كشخصية عظيمة في كتب الفيدات، ولا في كتب المرحلة البراهمانية من برهمانا وأرتك والأوبانيشادات^(١)، كما لم يأت له ذكر في كتب «سوترا»، وإنما جاء ذكره في مهابهارت، وبعض الكتب المتأخرة من البرانات وغيتا.

٢- أنهم اختلفوا أيضاً في كون كريشنا الموجود في الأبواب الأخرى من مهابهارت، وكريشنا المذكور في هذا الباب، حيث ذهب كثيرون إلى أنهما ليسا شخصاً واحداً^(٢)، لما يأتي:

(١) جاء اسم كريشنا في ريگ فيد على أنه ريشي أو حكيم من حكمائهم، ابنه بيشفاكاي، وحفيده بشنپو. (ريگ فيد: ١/١١٦/٢٣، ١/١١٧/٧، ٨/٨٦/١)، وجاء في بعض مواضع ريگ فيد ملك من ملوك الدراويد يسمى بـ «كريشنا»، وأن إنذرا خلع سواده، حيث سلخه من جلده، وقتل زوجاته الحبيلات، انظر: ريگ فيد (١/١٠١/١)، (٨/١٣٠/١)، و(٨/٩٦/٨٣).

كما جاء اسم كريشنا في بعض كتب البوذية، ولكن أوصافه المذكورة في ذلك لا يوافق ما جاء في كتاب مهابهارت، وما جاء في غيتا.

وورد اسم كريشنا لشخص في شاندويغا أوبانيشادة (٣/١٧/٦) على أنه من تلاميذ أحد الفلاسفة الذي يسمى «كور أنغيرس»، والذي كان يعبد الشمس، وقد جاء فيه أنه ابن ديفاكاي، وقد فرح بوجوده الفيلسوف الهندوسي سرفبالي رادها كريشنان، وقال: لعل كريشنا الموجود في شاندويغا أوبانيشادة وكريشنا الموجود في غيتا شخص واحد، ولكن أنى له ذلك، وهما يختلفان في الصفات، حيث جاء ذكره في شاندويغا على أنه تلميذ لبعض الكهنة، بينما جاء ذكره في غيتا على أنه إله أو أفتار الإله. انظر ما ذكره جايتانوج بندوباداي: مهاكاتب ومولوباد ص (٧٩).

(٢) انظر ما ذكره جايتانوج بندوباداي: مهاكاتب ومولوباد ص (٧٩).

(١) إن ما جاء في مهابهارت من أوصاف كريشنا تختلف عما جاء هنا، حيث يظهر من مهابهارت على العموم: أنه ملك من الملوك، يساعد أولاد باندو، ولم يظهر فيه كونه إلهاً.

(٢) لم يثبت في الحوار الذي جرى بينه وبين أرجون ما يدل على أنه كريشنا نفسه، حيث لم يرد في الحوار هذا الاسم ولو مرة واحدة^(١).

(٣) جاء في غيتا (١٠ / ٣٦-٣٧): نص يدل على أنه ليس كريشنا، فقد جاء في إثباته كونه هو الإله، وإثبات وحدة الوجود:

٣٦- أنا نرد المقامرة وإشراقه المشرق، أنا النصر والمغامرة وطينة الطيب.

٣٧- للبرسني أنا باسديو، وللباندوا أنا طانانجايا، وللكهنة أنا بياس، وللشعراء أنا أوسانا....

ففي هذا النص ذكر من صفاته أعمال متنوعة وأشخاص عديدة، من ضمنها أنه باسديو لقيلة برسني، ومعروف أن باسديو لقب كريشنا، فلو كان كريشنا هو المتكلم لما ذكر نفسه مرة أخرى عندما يذكر الحكماء الذين مضوا من جملة من كان فيه هو^(٢).

١- وعلى فرض صحة كون كريشنا المذكور في مهابهارت وكريشنا الموجود في غيتا شخصاً واحداً؛ فإن كريشنا الموجود في مهابهارت ليس بمحمود السيرة والسريرة، بل فيه ما يدل على أنه كان كذاباً، محتالاً، ماکراً، وقد سبق معنا بيان ذلك في المطلب السابق^(٣).

٢- تناقض الشارحين في شرح هذه الأبيات:

وذلك؛ أن هذا الكتاب شرح من قبل شارحين كثر، ولن تجد اثنين يتفقان على معنى واحد، والسبب ليس مجرد اختلاف الفرق الهندوسية، حتى طبيعة النصوص فيه

(١) انظر ما ذكره جايتانوج بندوباداي: سماج بيغانير دريشيتي بهاغافاد غيتا ص (١٣٩).

(٢) انظر المصدر السابق ص (١٤٢).

(٣) انظر ص (٤٢٨).

تتطلب هذه التأويلات الباطلة، وهذا بدوره يدل على أن الكتاب لم يكن له قبول في أوساط الناس من قديم الزمان، من أجل كثرة تناقضه واضطرابه^(١).

٣- لم يثبت تاريخياً وقوع الحرب الهندية الأهلية الكبرى التي أهلكت آلاف البشر، وأفنت أموالاً طائلة كما ذكر في الكتاب، حتى قال الزعيم الهندي «غاندي» أنا لا اعتقد بوجود «كريشنا» ولا علاقة بينه وبين التاريخ^(٢).

من ناحية المحتويات:

أما من ناحية المحتويات فنجد أن محتويات هذا الكتاب غير صحيحة لوجوه عديدة، من أهمها:

١- تطرق كتاب غيتا إلى جملة من العقائد، وهي باطلة، منها:

- ❖ ادعى عقيدة وحدة الوجود، وهي عقيدة باطلة، يكفي لبطانها أنها غير متصورة أصلاً، إن عقيدة وحدة الوجود مجرد دعاوى فارغة لا يمكن إثباتها بأي حال من الأحوال، وسيأتي بيان بطانها في الباب الثاني بمشيئة الله.
- ❖ ادعى في الكتاب أن كريشنا هو ذاك الإله الأعلى، وأن العالم بأسره في فمه، ولا يخفى أن هذا ادعاء كاذب، لا أساس له من الصحة، وبيان ذلك في الأمور الآتية:

١) إن كل ما جاء في غيتا من الكلام على برهمان وأتمان هي كلها مسروقة من كاته أوبانيشادة^(٣).

٢) وما جاء فيه من أنه أظهر لأرجون والآخرين في فمه العالم بأكمله، نجد أنه مسروق من أوبانيشادة شفتشفترا، إلا أنه كان في شيففا في شفتشفترا، وأما

(١) انظر ما ذكره جايتنانونج بندوباداي: سماج بيغانير دريشيتي بهاغافاد غيتا ص (١٨-٢٣).

(٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٥١).

(٣) انظر ما ذكره راهول سنكريتيان: درشن، ديكدرشن (٢/ ٣٠).

هنا ففي كريشنا الذي أضيف إليه بأنه من أَفْتَارِ قِشْتُو، ولهذا ذهب كثير من علماء الهندوس أن غيتا مسروق بأكمله من بعض الأوبانيشادة، وبالأخص من شفتشفترا أوبانيشادة^(١)، كما يوجد بعض أبياته في مُنْدُكَ أوبانيشادة، وبعضه في كاته أوبانيشادة^(٢).

٣) كيف يكون العالم كله في فم الإنسان؟ وكيف مات إذن، وأين ذهب العالم بعد موته؟

❖ تطرق إلى عقيدة التجسد المعروف بـ«أَفْتَارِ»، وأول مرة يذكر فيه سبب التجسد وتبريره، مثل هذه العقيدة غير مسبقة في كتب الفيدات ولا في كتب مرحلة البراهمانية من برهمانا وأَرْتْكَ والأوبانيشادات، والذي يظهر لي إنه من ابتكارات البراهمة في العصور المتأخرة، وهي عقيدة باطللة كما سيأتي بيانها قريباً بإذن الله.

❖ تطرق إلى عقيدتي التناسخ وكارما، وسيأتي بطلان هذه العقيدة قريباً.

٢- أما الفلسفات التي تطرق إليها غيتا، فهي فلسفة سانكهيا، وفلسفة يوغا، وفلسفة فيدانت، فقد حاول صاحب غيتا الجمع بين المستحيلات^(٣)، وذلك:

١) أن هذه الفلسفات لا توجد على الإطلاق فيها نقطة وفاق من الناحية التطبيقية، ولكن صاحب غيتا حاول بتأويلها التوفيق بينها.

٢) إن فلسفة سانكهيا فلسفة ملحدة في أصلها، ولكن صبغها صاحب غيتا على أنها غير ملحدة، وأول نصوصها كما أراده هو.

٣) إن تفسير فلسفة يوغا كما جاء في هذا الكتاب يخالف ما جاء عنهم قبل ذلك في نقاط عديدة، من أهمها: إن فلسفة يوغا في أصلها إلحادية، لا تفكر في

(١) انظر ما ذكره جايتتانوج بندوباداي: سماج بيغاني دريشيتي بهاغافاد غيتا، ص (١٤٠).

(٢) انظر ما ذكره راهول سنكريتيان: درشن ديكدرشن (٢/٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٨، ٣٩-٤٢).

(٣) انظر ما ذكره جايتتانوج بندوباداي: سماج بيغاني دريشيتي بهاغافاد غيتا، ص (١٤٢).

الخالق، تريد الوصول إلى النرفانا بمجهود السالك الشخصي، بينما يجعل غيتا فلسفة يوغا غير إلحادية، ويرى أن اليوغيين يكرسون فيه، ويجعلونه نصب أعينهم، والحقيقة غير ذلك.

وقد اعترف كثير من الهندوس بتناقضات غيتا في أفكارها الفلسفية، منهم:

الفيلسوف الهندوسي رئيس الهند الأسبق الدكتور «سرفالي رادها كريشنان» حيث يقول: إن أفكار «غيتا» مجموعة من المتناقضات ولا نجد فيه مشعل العلم والهداية وقد اشترك في تصنيفه مؤلفون كثيرون^(١).

ويقول أحد علماء الهندوس المعاصرين: إن هذا الكتاب يمتاز بميزة مهمة، وهي أنها تصلح لكل فئة، وذلك لاشتماله على المتناقضات، ولقبوله الشروح لكل صاحب فلسفة حسب آرائه الفلسفية^(٢).

ويقول أيضاً: إن ما وجد من اختلاف الأسلوب في بعض الفصول يرجع إلى أن هذا الكتاب ألفه مجموعة كبيرة من الناس في فترات مختلفة من الزمن^(٣).

فالذي يظهر لي: أن مجموعة من البراهمة جلسوا في محاولة التوفيق بين هذه الفلسفات المتضاربة المتصارعة، ونسبوا ذلك إلى شخصية كريشنا، وجعلوه أفتار الإله، حتى يحظى بالقبول، ثم إن الإله هل من شأنه أن يبحث في فلسفات الناس ويقوم بالتوفيق بينها؟ كيف يقدم الإله عشرات الطرق المتصارعة للوصول إليه، إن طريق الحق واحد، لا يمكن أن يتعدد، ولا ينبغي للإله أن يبحث عن مبررات لفلسفات الناس، وأن يحاول في التوفيق بينها.

(١) انظر ما ذكره الأعظمي: اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٥٥١).

(٢) انظر ما ذكره زيتانوج بندوباداي: سماج بيغانير دريشيتي بهاغافاد غيتا (بهاغافاد غيتا من منظور علم الاجتماع) ص(٩).

(٣) انظر: سماج بيغانير دريشيتي بهاغافاد غيتا (بهاغافاد غيتا من منظور علم الاجتماع) ص(٩).

٣- أما من ناحية الشرع، فقد شرع جملة من الأمور، بعضها لا يمكن تقريره ولا إثباته، والبعض منها ظالمة، فمنها:

❖ حث على العمل بدون البحث عن الثمرة، وهذا غير ممكن إطلاقاً، فالعقل لا يعمل عملاً إلا وله قصد حسن، أو قصد سيء، يريد حصول شيء يرجى منفعته، أو دفع شيء آخر يخاف مضرته، وأما العمل بدون البحث عن الثواب، فالعقل لا يقبله على الإطلاق، فما الذي يدفع العقل أن يفعل شيئاً إذا لم يكن له فيها مصلحة أو منفعة؟ إنما يتصور هذا من المجانين ومن في حكمهم الذين لا يبالون بما فعلوا، ولا عبرة بهؤلاء أبداً، وهؤلاء مذمومون على تصرفاتهم، ولا يحمدهم أحدٌ على أفعالهم، بل لو نظرنا إلى كريشنا نجد أنه لم يطبق في حياته هذا المبدأ، فلم يعمل عملاً إلا وله مقصد خاص من ورائه، ولندكر أمثلة مما فعله كريشنا وله قصد خاص يطلب ثمرته:

(١) مساعدته لأولاد پاندو لم يكن بدون طلب ثمرة، بل كان يطلب من ورائها مساعدتهم في إرجاع ملكه من الملك جراشند الذي أخرج كريشنا وجماعته من ديارهم، فقد قتله بمساعدة بهيما أحد أولاد پاندو، فلم يعمل إلا وهو يطلب ثماره.

(٢) كما قتل كريشنا نفسه الملك «شيشو پال»، والذي لم يقبله ككاهن، ولم يقتله كريشنا إلى لحظ نفسه، فهل قتله بدون أن يقصد شيئاً؟

(٣) كما كان كريشنا في أيام الحرب يتعمد النصر لأولاد پاندو، ويخطط لهذا الشيء، فقد أظهر لأولاد دهيرتاراشترا أنه نائم حينما ذهبوا إليه للمساعدة في الحرب، وإنما كان ينتظر مجيء أولاد پاندو، ولما ذهب إليه يودهيشتهير فتح عينيه وقال إنني رأيتك أولاً فأنا أكون معك.

(٤) أنه هو الذي أمر يودهيشتهير على الكذب حتى يموت البطل المغوار «درون»، وهو يقصد من ورائه قتله ونجاة أولاد پاندو.

(٥) أنه هو الذي أشار «بهيما» أحد أولاد «پاندو» إلى ضرب «دريودن» حينما كان يقاتل مع «أرجون»، فخالف نظام القتال المتبع آنذاك^(١).

هذه بعض الأمثلة، وهناك عشرات الأمثلة على أنه لم يكن يعمل شيئاً بدون مصلحة.

❖ حث غيتا على الالتزام بالطبقية الظالمة الغاشمة، فمن أقواله في هذا الباب:

(١) جاء في غيتا، في الفصل الثامن عشر:

أوه يا باراتا، إن أنشطة البراهمة والكهشتريا والفايشا والشودرا موزعة وترجح حسب طبيعتهم... (٤١).

وواجبات الفايشا المتولدة عن طبيعته هي الزراعة، رعي الأبقار والتجارة، وأعمال الخدمات هي واجبات الشودرا المتولدة عن طبيعتهم. (٤٤).

(٢) جعل غيتا الشودرا بأنهم أصحاب الذنوب، ولهذا ولدوا ولادة فاسدة، وأنهم أصحاب الجهل والظلمة في صفاتهم، فقد جاء في الفصل الرابع عشر:

أولئك البراهمة يحتلون الدرجات العلى، وأولئك المحاربون الكهشتريا يحتلون الدرجات الوسطى، أما أصحاب الظلام (الشودرا) فهم في الدرك الأسفل (١٨).

(٣) لم يكتف صاحب غيتا بهذا بل جعل كل أنواع الذل والمهانة لهذه الطبقة، فقال في الباب السابع عشر:

الطعام العفن، الذي دون مذاق، الرديء، وغير المناسب للقرايين هو الطعام المحبب لأصحاب الظلمة (الشودرا ومن هو على شاكلتهم). (١٠).

(٤) لم يكتف بهذا أيضاً، بل جعلهم كالكلاب والحيوانات، فقال في الفصل الخامس:

(١) انظر ما ذكره الشاعر الإسلامي البنغالي، غلام مصطفى: بيش نير بيشيشتها (خصائص النبي العالمي) ص (١٨-٢٦).

(٥) يتجلى تواضع برهمي البراهمة في البقرة، وأما الفيل والكلب أو حتى المنبوذين من البشر، العلماء ينظرون إليها بالمساواة (١٨).

(٦) إلا أنه أراد أن يضمهم إليه حتى يحصل على خدمتهم للبراهمة، فقال في الباب التاسع:

يا بارثا^(١)، من يتخذني ملاذًا من النساء، ... والشودرا، ممن ولدوا في رحم النساء المخططات، وأولئك من غير أتباعي فإنهم يحصلون على الجادة الصحيحة أيضًا (٣٢).

هذه بعض ما جاء من تمجيد الطبقة الجائرة في غيتا، والذي يقرأه الهندوس صباحًا ومساءً، ويمجده تمجيدًا كبيرًا.

فهذه حقيقة كتاب غيتا، الذي يقرأه الهندوس ليلاً ونهارًا، ويضعه تحت الوسادة عند الاحتضار، ويعتقد فيه الاعتقادات الكبيرة، وها هو كريشنا الذي نال شهرة عالمية فما يمر أحد بالهند إلا ويجد في كل معبد ومحطة ومطار كتاب غيتا وتمثال كريشنا وصورته للعبادة والتقديس^(٢).

(١) يقصد أرجون المحارب.

(٢) انظر ما ذكره الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص (٥٥٢).